بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين

"حل ألفاظ القصيدة الهمزية في مدح خير البرية"

صلى اللهُ عليه وسلم وشرفه وعظم ومجد وكرم

أو

"شرح الشبيهي على همزية البصيري"

لمؤلفه العلامة سيدي يحيى بن عبد الواحد الشبيهي الجوطي الإدريسي الحسني

عاش في القرن الثاني عشر هجري

حققه وعلق عليه ونشره

أمين بن مُحمَّد الموقت الشبيهي الجوطي الإدريسي الحسني

1446هـ

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين

"حل ألفاظ القصيدة الهمزية في مدح خير البرية"

صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم ومجد وكرم

أو

"شرح الشبيهي على همزية البصيري"

لمؤلفه العلامة سيدي يحيى بن عبد الواحد الشبيهي الجوطي الإدريسي الحسني

عاش في القرن الثاني عشر هجري

حققه وعلق عليه ونشره

أمين بن مُحَمَّد الموقت الشبيهي الجوطي الإدريسي الحسني

1446هـ-2025م

Dépôt Légal : 2024MO5820 : الإيداع القانوني

ISBN : 978-9920-29-318-1

الطبعة الأولى: 2025/1446

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

المطبعة والوراقة الوطنية
IMPRIMERIE PAPETERIE EL WATANYA
زنقة أبو عبيدة الحي المحمدي الداوديات
مراكش – الهاتف : 74 37 30 24 05 - 91 25 30 24 05
الفاكس : 23 49 30 24 05 e-mail: iwatanya@gmail.com

إذا أراد أن يظهر فضله عليك
خلق ونسب إليك

ابن عطاء الله السكندري

الصفحة الأولى من المخطوط الصبيحي

بسم الله الرحمن الرحيم
صلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

قال السيد [illegible] جعفر بن عبد الرحمن ابن عبد الله الحسني [illegible]

الحمد لله الذي فتق بأفكار المحبين نتائج مديح مصطفاه أحمد، وفضله على سائر خلقه وأكمل به محاسن ما سواه فعطلها، ومن أجله كانت أمته أفضل الأمم وسلطانها، وبنوره أضاء قلوب العارفين وكشف عنهم حجب الغفلة وأزاح غطاءها، وأشرق المعارف شرح صدورهم ومهد كلامها حتى تجلت لهم رياض حضرة مطلوبهم، وتبدت لهم حياض شهوده فشربوا وفيهم فنهلوا أبدا ومن دهم وحلوله وفي أثواب عنايته رفلوا، وجعل الصلاة على حبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أنفع وسائل العبد وأنجع مسائله وجعل محبته أوفى مسالك الرضا وأوثق وسائله صلى الله عليه وسلم وعلى آله الكرام بنيه وصحابته الأكرمين صلاة وسلاما ما قام سيد [illegible] بجميل ما تتابع ثواب اتباع وسائله. وبعد فلما كان درة يتيمة الإسلام وغرة الأدباء الأعلام ومصباح الظلام وشيخ مشايخ الأنام، المتفنن المحقق الأديب البليغ المرضي، علامة الشعراء، وأشعر العلماء، ومصقع البلغاء، وبليغ الفصحاء، العارف بالله والمحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم

الصفحة الثانية من المخطوط الحسني

قد أمسى قد تتابع ثواب ابتهاله وبعد فلما كان درة
بيضة الاشراق، وغرة الادباء الاعلام، ومصباح الظلام، وشيخ
مشايخ الانام، المتقن المحقق، الاديب البليغ المدقق عالم
الشعراء، واشعر العلماء، وفصيح البلغاء، وبليغ الفصحاء، العارف
بالله والمحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الشيخ شرف الدين ابو عبد الله سيدي
محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج بن هلال البوصيري نسبة
الى بوصير قرية من قرى مصر ممن تفضل الله عليه بفتح بصيرته، وبحقائق
الحق على الطاف بصيرته سر برته فكان من عجائب زمانه نثرا ونظما وحفظا
وفهما، ومع فنون العلوم والحديث واللغة بمنزل محمود، في ذا عشاء
نحو سيد المرسلين فشغف به حبا، وارتاده من رياض جماله حدائق غلبا
وكرع من حياض محاسنه سلسبيلا عذبا، فرقي من اقترانه ذراه وارق ذروتها
وليس من اكناف الاشواق برونقها، وركب من جياد المديح جوادا له
مجاري، وراى له من فنونه مدركا له يماري، فشاد من قواعده
محلوات خرايد، وشذا من منشاته بحلائل قصائد، رتب لها
من البلاغة قيود الزوائد، وسما في الفصاحة مقتضيات الشرائد
بتواري الطلعة شمسه اشتى الكواكب، وخر لسطوعه اسمى
المواكب، فانتج للبيت ابكارا، اوقعت فحار في البيت او كارا،
لم يعهد بمثلها دهر سامعها، ولم يعط مثلها من زامعها، ولن يحرق
حرزها من حاملها، وليس منا ابكتها على من حل عليه فضل الغيب الكريم

فهرس الكتاب

أ _ تقديم المحقق 8

1-المناسبة 8

2- النسخ المعتمدة 10

3- ترجمة سيدي يحي الشبيهي 12

4- منهج المؤلِّف 21

5- عنوان الكتاب ومنهج التحقيق 33

ب_ القصيدة الهمزية 36

كتاب

حل ألفاظ القصيدة الهمزية في مدح خير البرية

صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم

تقديم المؤلّف 48

توطئة في أفضلية سيدنا محمد ﷺ 51

الفصل الأول: من البيت الأول إلى 22 56

الفصل الثاني: من البيت 23 إلى البيت 45 85

الفصل الثالث: من البيت 45 إلى البيت 65 103

الفصل الرابع: من البيت 66 إلى البيت 87 126

الفصل الخامس: من البيت 88 إلى البيت 108 149

الفصل السادس: من البيت 109 إلى البيت 129 165

الفصل السابع: من البيت 130 إلى البيت 149 184

الفصل الثامن: من البيت 150 إلى البيت 169 204

الفصل التاسع: من البيت 170 إلى البيت 190 221

الفصل العاشر: من البيت 191 إلى البيت 210 238

الفصل الحادي عشر: من البيت 211 إلى البيت 230 249

الفصل الثاني عشر: من البيت 231 إلى البيت 252 258

الفصل الثالث عشر: من البيت 253 إلى البيت 271 — 271

الفصل الرابع عشر: من البيت 272 إلى البيت 292 — 288

الفصل الخامس عشر: من البيت 293 إلى البيت 312 — 301

الفصل السادس عشر: من البيت 313 إلى البيت 323 — 312

الفصل السابع عشر: من البيت 333 إلى البيت 342 — 326

الفصل الثامن عشر: من البيت 343 إلى البيت 362 — 340

الفصل التاسع عشر من البيت 363 إلى البيت 377 — 357

الفصل العشرون: من البيت 378 إلى البيت 389 — 372

الفصل الواحد والعشرون: من البيت 390 إلى البيت 408 — 385

الفصل الثاني والعشرون: من البيت 409 إلى البيت 430 — 400

الفصل الثالث والعشرون: من البيت 431 إلى البيت 447 — 416

الفصل الرابع والعشرون: من البيت 448 إلى البيت 456 — 427

خاتمة المؤلِّف — 434

خاتمة المحقق — 435

فهرس مراجع المؤلف — 437

فهرس مراجع تقديم وخاتمة المحقق — 439

أ- تقديم المحقق

1-المناسبة

بسم الله الرحمان الرحيم ذي القوة المتين، وصلى الله وسلم وبارك على من أرسله رحمة للعالمين، سيدنا محمد الرسول الصادق الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، ورضي الله تعالى عن ساداتنا صحابته أجمعين، وعن الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

لما وفقني الله عز وجل إلى ختم كتاب "الموسوم الوجيه بأعلام آل الشبيه-نفحات من عبق تاريخ الدولة المغربية الشريفة"، بادرت إلى إخراج هذا الكتاب الأديب، المحكم العجيب، نتاج العلامة اللبيب، الشريف الحسيب، الفهامة النجيب، سيدي يحيى بن عبد الواحد بن عبد الله الشبيهي الجوطي الإدريسي الحسني.

وحملني على ذلك اكتشافي لوجود مؤلفات في عدة اختصاصات علمية لأعلام من العائلة الشبيهية، لم تعرف طريقها إلى التحقيق أو حتى إلى النشر والطبع الحرفي، فقد سُجنت في الخزانات الخاصة، تنتظر منذ قرون بعد وفاة مؤلفيها من يخرجها من وحدتها، ويكفيها الأرضة التي تأكل ورقها، فينشر علومها ومعارفها ويستفيد مؤلفوها من أجرها وثوابها، وينتفع الباحثون والدارسون من فنونها وتصنيفاتها.

وهذا جدول ببعض تلك المؤلفات التي وقفت عليها من خلال البحث والتقصي، مرتبة زمنيا:

المؤلف	مؤلفاته
عبد القادر بن عبد لله بن محمد	أنساب الأشراف الذين لهم شهرة بفاس *فضائل أهل البيت *نشر العلوم الدارسة برسم شجرات الجوطيين الأدارسة
عبد الرحمان بن عبد الواحد بن عبد الله	نفي المتطفلين عن نسب الجوطيين *أرجوزة خلاصة الدر النفيس

يحيى بن عبد الواحد بن عبد الله	حل ألفاظ القصيدة الهمزية في مدح خير البرية
محمد بن إدريس بن إدريس	عدة قصائد شعرية
الفاطمى بن محمد بن محمد	أرجوزة فروع الشرفاء الشبيهيين
محمد بن أحمد بن محمد	إعلام البشر في ملك المغرب السلطان المنتصر
الفضيل بن الفاطمي بن محمد	الفجر الساطع على الصحيح الجامع
محمد بن عبد الواحد بن محمد	تقييد في أدب زيارة الأولياء والترغيب في ذلك * تقييد في جواز تأخير السحور إلى طلوع الفجر *طرر على صحيح البخاري من كتاب التفسير إلى الختام
الفاطمي بن الفضيل بن الفاطمي	السفر المسقط لصلاة الجمعة لا يشترط إن يكون سفرقصر *تقييد على الموسوم بتغيير الأسعار على من عاب الأشعار
علي بن محمد بن عبد الواحد	حاشية على شرح بنيس على الهمزية *ختمة على شرح ميارة على ابن عاشر *مجموعة فتاوي
الطاهر بن التقي بن أحمد	تاريخ الأدارسة وتقلباتهم

ولم يعرف طريقه للتحقيق والطبع من هذه الكنوز العلمية إلا كتاب "الفجر الساطع على الصحيح الجامع"[1]، لصاحبه سيدي محمد الفضيل الشبيهي رحمه الله، ثم هذا الكتاب بحول الله وقوته.

[1] محمد الفضيل بن الفاطمي الشبيهي، الفجر الساطع على الصحيح الجامع، تحقيق د. عبد الفتاح الزنيفي، مكتبة الرشد- الرياض.

وقد أكرمني الله بهذا العمل بدءً بالبحث في تراجم الأعلام الشبيهيين، فشدني ذكر عرضي لسيدي يحيى الشبيهي حيث يُنعت بالعلامة من جهة، ومن جهة أخرى لا ترد ترجمته مفصلة في كتب التراجم المغربية خلاف غيره من علماء العائلة الشبيهية. إن نعث سيدي يحيى بالعلامة فيما أجد من تراجم ذريته، مع غياب ترجمته شخصيا في المراجع الأدبية والتاريخية، إلا موجزة مقتضبة في بضع سطور اختص بها النسابة محمد الطالب ابن الحاج السلمي[2] دون غيره، جعلني في حيرة من أمري، فكيف يستقيم أن أكتفي بترجمته في سطور في مؤلفي "الموسوم الوجيه بأعلام آل الشبيه"[3] وهو ينعت بالعلامة وأجازه عالم عصره وأوانه، فريد زملائه وأقرانه، حجة بيان المنقول والمعقول، وفارس ميدان الفروع والأصول، العلامة سيدي أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي.

فعقدت العزم على الجد والكد لعلي أجد ما يشفي ظمئي المعرفي، ثم فتح علي الله عز وجل وعلمت بوجود تأليف لسيدي يحيى الشبيهي في موضوع شرح القصيدة الهمزية للإمام سيدي محمد بن سعيد الصنهاجي البوصيري.

2- النسخ المعتمدة

بعد بحث مضني، وفقني الله تعالى إلى تحديد مكانَي حفظ مخطوطين لمؤلف سيدي يحيى الشبيهي، أولهما عدد أوراقه 209، وصفحاته 417، بخط مغربي دقيق، مليح ملون مجدول، يحمل اسم "حل ألفاظ القصيدة الهمزية في مدح خير البرية"، يوجد بالخزانة الصبيحية بمدينة سلا، تحت رقم197. تحتوى كل صفحة من المخطوط الصبيحي على 19 سطرا، بمعدل 12 كلمة في السطر. وظننت أولا أن هذه النسخة بقلم سيدي يحيى بن عبد الواحد شخصيا، حيث لا يذكر فيها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، ولكن استعمال الألوان ثم وجود بعض الفراغات صب في منحى أنها ليست بخط المؤلف.
ووفقني الله عز وجل إلى تحديد مكان نسخة ثانية من مؤلف العلامة سيدي يحيى الشبيهي، تحمل اسم "شرح الهمزية البُصيرية"، توجد بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم خ.س.11334[4]، نُسخت من طرف حفيد المؤلف: سيدي عبد الرحمان بن التهامي بن

---

[2]أبو عبد الله محمد الطالب ابن الحاج السلمي المرداسي، الإشراف على بعض من بفاس من مشاهير الأشراف، انتشارات المكتبة الحيضرية، الطبعة الأولى، ج.1، ص.169.
[3]أمين بن محمد الشبيهي الموقت، الموسوم الوجيه بأعلام آل الشبيه-نفحات من عبق تاريخ الدولة المغربية الشريفة، المطبعة والوراقة الوطنية-مراكش، الطبعة الأولى 2023.
[4]محمد المنوني، تاريخ الوراقة المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1991، ص.213.

العلامة يحيى الشبيهي. تتكون هذه النسخة من 499 صفحة، في كل صفحة 19 سطرا، بمعدل 13 كلمة في السطر. وتحمل هذه النسخة طابع المكتبة الزيدانية، ومعناه أنها كانت بحوزة المؤرخ الشريف مولاي عبد الرحمان ابن زيدان رحمه الله، وبالضبط في خزانة كُتبه بمكناسة الزيتون.

وفي خضم تحقيق الكتاب، وبعد وصولي إلى الصفحة 136 من النسخة الصبيحية، اكتشفت بمحض الصدفة المقدرة من الله عز وجل، وجود نسخة أخرى من كتاب سيدي يحيى الشبيهي، مبتورة الآخر مجهولة المؤلف، توجد في خزانة مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء، عدد صفحاتها 160، تحمل عنوان "شرح مغربي على هَمزية البصيري". هذه النسخة مفتوحة للعموم ويمكن الاطلاع عليها من خلال موقع المؤسسة على شبكة الأنترنيت.

والنسختين الحسنية والعزيزية خلافا للنسخة الصبيحية، لا تحملان اسم المؤلف في بدايتهما، حيث بقي مكان المستطيل المزخرف في النسخة الصبيحية فارغا في النسختين الحسنية والعزيزية، ولم يكتب فيه: "قال سيدي يحيى بن عبد الواحد بن عبد الله الشبيهي الجوطي" كما جاء في النسخة الصبيحية.

وأما النسخة الحسنية، فزاد الناسخ في أخرها تاريخ الفراغ من تأليفه وهو : يوم الخميس ثاني عشر رجب عام خمسة وسبعين ومئة وألف. ولا يمكن أن نتحقق من هذه المعلومة، فهي غير مذكورة في آخر النسخة الصبيحية. ولكن دقة التاريخ، باسم اليوم ثم عدده والشهر والسنة، ترجح أنها من المؤلف، ذلك أن الناسخ لا يمكن أن يحددها بهذه الدقة التامة بعد 92 عاما من تأليف الكتاب، كما أنه حدد كذلك تاريخ فراغه من نسخه، وهو يوم الأحد السابع من ربيع الثاني عام سبعة وستين ومئتين وألف.

وتجدر الإشارة أنني وقفت في النسخة الصبيحية، على بعض الأخطاء والنواقص والزوائد عن النصوص الأصلية التي نقلها المؤلف ورجع إليها، مع ترك بعض الفراغات والقفز أو تكرار بعض الكلمات، وتلك من الأخطاء المعهودة عند نسخ الكتب. كما أن الناسخ تعمد ترك فراغ في مكان الكلمات التي لم يعلمها ولم يتمكن من فكِّها، وهذا من باب الأمانة العلمية التي تحسب له رحمه الله، ويشهد ذلك على أن ناسخ المخطوط الصبيحي ليس العلامة سيدي يحيى الشبيهي. وهذه الملاحظات تنطبق كذلك وتتكرر في النسختين الحسنية

والعزيزية، واللتان كتبتا بخط مختلف بينهما ومختلف عن خط النسخة الصبيحية، ومعناه أن النسخ الثلاث من نساخ مختلفين، ولا واحدة بخط المؤلف.

تتميز النسخة الحسنية عن نظيرتيها باعتماد الناسخ زيادة شكل بعض الحروف، مما يعين على تمكين القارئ من المعنى، وهذا اختلاف بين النسخ يجب أن يخضع للتحقيق كذلك، إذ يمكن لشكل الحرف حسب اجتهاد الناسخ التأثير على المعنى، ومن ثم مجانبة المقصود من المؤلف. وتبقى النسخة الصبيحية أدق النسخ الثلاث.

ومن غريب ما لاحظت في النسخ التي بيدي، وجود تباين في كتابة بعض الأبيات من القصيدة وكذلك عند شرحها، ليس فقط في حروف كالفاء عوض الواو أو باء الجر عوض "في"، بل في كلمات تامة. وبالطبع أشرت لذلك وعلقت عليه، ورجحت اللفظ الذي أراه مناسبا، بعد تعليل منطقي.

3-ترجمة سيدي يحيى الشبيهي

لا تحتفظ الذاكرة الشفهية الشبيهية عن أي شيء حول العلامة سيدي يحيى، فقط ورد ذكره مقتضبا عند النقيب سيدي محمد الشبيهي، في مؤلفه "الإطلالة الزهية على الأسرة الشبيهية" عند قائمة العلماء الشبيهيين، حيث ينعته بالعلامة.

وكان لهذا الذكر المقتضب، الفضل في إرشادي إلى وجود هذا العلم الشبيهي، وخصوصا نعته من قبل النقيب سيدي محمد الشبيهي بـ"العلامة" دون غيره من علماء الشبيهيين ممن ذكر، الشيء الذي أثار فضولي الأكاديمي وشجعني على التحري والتقصي لمعرفة المزيد حول هذه الشخصية، ومن ثم اكتشاف وجود هذا المؤلف القيم الآتي تحقيقه.

لم أقف من خلال البحث والتنقيب على تاريخ ولادة العلامة سيدي يحيى ولا على تاريخ وفاته رحمه الله، بل كل ما توصلت إليه في ذلك، تقديرا وليس تحقيقا، كان من خلال تراجم ذريته المعلوم تاريخ وفاتهم. وتبعا لذلك استنتجت أنه ولد في بداية القرن الثاني عشر هجري، في زاوية مولاي إدريس الأكبر بزرهون، حيث استقرت العائلة الشبيهية قادمة من مكناس خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر هجري، وعلى رأسها عم المترجَم النقيب سيدي عبد القادر الشبيهي، فتولت هذه العائلة حجابة ضريح المولى إدريس الأكبر

بزاوية زرهون[5].

وأما وفاته رحمه الله، فكانت بعد شوال عام 1174هـ (1760م)، حيث يذكر في مؤلفه أحداثا وقعت في هذا التاريخ، وبعد ربيع الأول عام 1175هـ (1761م) وهو تاريخ وفاة شيخه سيدي أحمد بن عبد العزيز السجلماسي حيث يترحم عليه في الكتاب، وكذلك بعد رجب من نفس السنة حيث تخبرنا النسخة الحسنية أن المؤلف فرغ من تأليفه في هذا التاريخ.

وأقبر سيدي يحيى إما بخزانة المسجد الأعظم بالضريح الإدريسي، بجوار قبر عمه النقيب سيدي عبد القادر، وإما بمقبرة الظهير (بالتصغير) خارج مدينة مولاي إدريس، وهي مقبرة خاصة بالشرفاء الشبيهيين.

تميزت فترة أواخر القرن الحادي عشر هجري والثلث الأول من القرن الثاني عشر، بانتعاش الحركة العلمية والحضارية واستتباب الأمن في ربوع المملكة الشريفة، فقد عرفت تلك الحقبة تولي الملك من طرف الإمام المولى إسماعيل طيب الله ثراه (1082هـ-1139هـ، 1672م-1727م)، وما صاحب ذلك من ازدهار وتقدم وعمران. ثم تلتها، بعد وفاة الإمام المولى إسماعيل رحمه الله، فترة اضطراب تميزت بتداول الحكم بين أبناء المولى إسماعيل، إلى أن استقر الحكم بيد المولى عبد الله بن إسماعيل نهائيا، ثم تولاه بعده المولى محمد بن عبد الله، طيب الله ثراهم جميعا.

يخبرنا النقيب ابن زيدان عن حقبة الاضطراب بعد وفاة المولى إسماعيل في منطقة زرهون ومكناس، عند ترجمته لسيدي عبد الواحد بن عبد الرحمان الشبيهي ابن أخ العلامة سيدي يحيى، فيقول: *"ولما ظهر البربر على جبال زرهون رحل منه إلى سكنى فاس وتركه وبلدة مدينة مكناس، لعيث العبيد بمكناس كالبربر بزرهون أو أشد، ومكث ما شاء الله بفاس، ولما وُلي أمر زرهون السلطان سيدي محمد بن عبد الله من قبل والده السلطان المولى عبد الله بن السلطان مولانا إسماعيل، رجع المترجم لداره بزاوية زرهون، ولم يزل مستوطنا بها"* [6].

ونسب المؤلف فهو كما استخلصته من "الإطلالة الزهية على الأسرة الشبيهية"[7]: ***يحيى بن عبد الواحد بن عبد الله بن محمد بن عبد القادر بن عبد الواحد بن مولاي أحمد الشبيه***

[5] أمين الشبيهي الموقت، الموسوم الوجيه بأعلام آل الشبيه، ص.172.
[6] ابن زيدان، اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ج.5، ص.463 و464.
[7] محمد بن عبد الكريم الشبيهي، الإطلالة الزهية على الأسرة الشبيهية، مطبعة سيندي-مكناس، 2004، ص.200.

الشريف الجوطي الإدريسي الحسني، وعمه هو النقيب الشهير، العلامة الوجيه والنسابة النبيه، سيدي عبد القادر بن عبد الله الشبيهي المتوفى عام 1099هـ (1688م)، وهو أول من تولى نقابة الأشراف في المملكة الشريفة من الفرع الشبيهي الجوطي، عام 1075هـ (1664م) حسب كتاب "الإطلالة الزهية على الأسرة الشبيهية"[8]، أو عام 1080هـ (1669م) حسب مخطوط "السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر"[9].

يصف سيدي محمد بن الطيب القادري النقيب سيدي عبد القادر الشبيهي فيقول: "*الشريف الأمجد، الصدر الأعمد، السيد الأوحد، الفقيه العالم النزيه الموثق النوازلي، الفقيه الحافظ النسابة المؤرخ الفاخم الوجيه، عدل النقباء وثقتهم، من إليه يرجع في وظيفهم، نقيب الدولتين، وشريف النسبتين الرشيدية والإسماعيلية، نقيب أشراف المغرب بوقته، وفريد وصفه ونعته، أبو محمد عبد القادر بن عبد الله الشبيه الجوطي الحسني*" [10].

وُلي سيدي عبد القادر الشبيهي خطة نقابة الأشراف بالمغرب من لدن السلطان المولى الرشيد ثم جدد له السلطان المولى إسماعيل، طيب الله ثراهما.

إن مراحل دراسة العلامة سيدي يحيى الشبيهي وتحصيله العلوم الشرعية والأدبية غير معروفة، وما يمكنني أن أقدمه عنها أستخلصه أولا من ترجمة أخيه سيدي عبد الرحمان بن عبد الواحد الشبيهي، حيث كتب عنه النسابة محمد الطالب ابن الحاج السلمي: "*أبو زيد عبد الرحمان بن عبد الواحد: كان عالما مشاركا متقنا، ممن أخذ عن الشيخ المسناوي وطبقته. وأخذ عن شيخ الجماعة سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي.*"[11].

وعن العلامة سيدي يحيى بن عبد الواحد الشبيهي يقول النسابة محمد الطالب ابن الحاج السلمي: "*كان سيدي يحيى هذا فقيها عالما مشاركا مدرسا، له شرح على همزية البصيري، أجازه الشيخ الإمام القدوة، المحقق الحجة، أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي، المتوفى سنة خمس وسبعين ومئة وألف، بجميع مروياته، وأخذ عنه الحديث المسلسل بالمصافحة وغيره*" [12].

---

[8] الشبيهي، الإطلالة الزهية، ص.72.
[9] سليمان بن محمد الحوات، السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر من أعقاب الشيخ عبد القادر، مخطوط يوجد بمؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء، ص.81.
[10] محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد توفيق، مكتبة الطالب، 1977، ج.2، ص.341.
[11] الطالب ابن الحاج، الإشراف، ج.1، ص.168.
[12] الطالب ابن الحاج، الإشراف، ج.1، ص.169.

وسيدي يحيى بن عبد الواحد الشبيهي غير مذكور في كتب التراجم، وما سبق هي الترجمة الوحيدة التي وقفت عليها، بل كل ما أجده أنه مذكور في عمود نسب ذريته وينعت بالعلامة، حيث عرض ذكره عند مولاي إدريس الفضيلي: *"السيد عبد السلام بن عبد الرحمان بن التهامي بن الفقيه العلامة السيد يحيى بن عبد الواحد"*[13]، وعرض ذكره عند النقيب ابن زيدان: *"عبد الرحمان بن التهامي بن الفقيه العلامة سيدي يحيى بن عبد الواحد الشريف الحسني الإدريسي الزرهوني"*[14].

وتبعا لما سبق يمكنني أن أستنتج، حسب قول النسابة محمد الطالب ابن الحاج السلمي في سيدي يحيى وفي أخيه سيدي عبد الرحمان (والذي لم يشر في ترجمتهما أنهما أخوان)، أن سيدي يحيى أخذ، مثل أخيه، عن الشيخ العلامة الفهامة سيدي محمد بن أحمد بن أبي بكر الدلائي المسناوي (1072هـ-1136هـ، 1662م-1724م)، ومن طبقته وهم:

القاضي العربي بردلة، ومحمد العراقي، وأحمد الوجاري، ومحمد بن عبد الله الدلائي، وأحمد بن العربي ابن الحاج السلمي، وأحمد بن محمد الولالي، والحسن بن مسعود اليوسي.

وأبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي الذي أخذ عنه سيدي يحيى الشبيهي وحصل على إجازته، فيصفه تلميذه محمد بن الطيب القادري في "نشر المثاني" قائلا: *"العالم العلامة المحقق المشارك الصالح الناصح، القائم في فساد الزمان بنصرة الدين، سيف السنة القاطع للمفسدين، وشمس الهداية للمهتدين، شيخنا سيدي أحمد بن عبد العزيزي الهلالي، نزيل مدغرة سجلماسة ودفينها. كان رحمه الله، إماما في تحصيل العلوم وتحقيقها، من نحو وبيان ومنطق ولغة وفقه وحديث وتفسير وهندسة وأدب وتاريخ ونسب وغير ذلك"*[15].

وأما سيدي يحيى الشبيهي، فيذكر شيخه سيدي أحمد الهلالي السجلماسي ويرجع إليه في شرح بعض أبيات القصيدة الهمزية[16]، ومنه قوله:

"قال العلامة القدوة الفهامة سيدي أحمد بن عبد العزيز السجلماسي: كل من حاول إحصاء الثناء على وصف من أوصافه الجليلة ومحاسنه الجميلة، فابتدأ بالثناء على ذلك الفرد قاصدا استيفاء الثناء عليه والمدح ، ليشرع بعد الفراغ منه في غيره من أوصافه الكاملة، بَحَرَ ذلك المحاول أول طرف من ذلك الفرد الذي ابتدأ بالثناء عليه، بحرا زاخرا يغرو فيه

---

[13] مولاي إدريس الفضيلي، الدرر البهية والجواهر النبوية، مراجعة وتصحيح د. أحمد إيشرخان، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية -المملكة المغربية-، 1443هـ-2021م، ج.2، ص.421.

[14] ابن زيدان، الاتحاف، ج.5، ص.351.

[15] محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني، ج.4، ص.143 و144.

[16] كل وصفٍ له ابْتدَأْتَ به استوْ --- عَبَ أخبارَ الفضلِ منه ابتداء.

المادح والمثنى عليه، ويستكفل ذلك الطرف كل ما قيل وما عسى أن يُقال، من أخبار الفضل وأنواع الثناء وأجناس المدح، إلى غاية الغايات ونهاية النهايات، فيعجز عن استيفاء ذلك الثناء على الطرف المبْتدأ به من ذلك الفردِ، فضلا عن الوصول إلى الوسط وأحرى طرف الانتهاء، فكيف بما فوق الواحد؟، وما ذاك إلا أن كل شيء منه ﷺ معجزٌ لمن سواه من جميع خلق مولاه".

كما يذكر سيدي يحيى شيخه محمد بن أحمد الدلائي المسناوي، في شرح قول الناظم "**فاسْتُقِلَّت لِذِكرِه العُظمـاء**"، فيقول: ***"فاستُقلِت، بالبناء للمفعول، كذا ضبطه المسناوي رحمه الله"***.

ويذكر سيدي يحيى شيخيه، المسناوي و السجلماسي، في عدة مواضع من الكتاب، حيث يحيل على شرحيهما للنظم.

وبناء على ما سبق ذكره، يمكنني القول أن سيدي يحيى أخذ كذلك عن الشيخين المذكورين قسطا من تفسير القصيدة الهمزية، وقد أخبرنا سيدي محمد الشبيهي أن مدرسة ضريح المولى إدريس الأكبر، كان بها كرسي علمي مختص في شرح القصيدتين البُصَيْرِيَتَيْن[17]. وبلا شك، فقد كان بجامعة القرويين بفاس كرسي مماثل، ولو أن سيدي عبد الهادي التازي لم يذكر هذه الحلقة العلمية في مؤلفه "جامع القرويين"، ربما لأنها أُحدثت بعد الحقبة السعدية التي وقف عندها الدكتور التازي رحمه الله في هذا الباب[18]. ويؤكد وجود هذا الكرسي بجامعة القرويين، ذكر العلامة الشبيهي بعضا من قول شيخه سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي، وخصوصا فيما يُعارض قول الشيخ ابن حجر الهيتمي في "المنح المكية"، كقوله:

"-الهُوينا تصغير الهون- قاله ابن حجر، وقال الشيخ سيدي أحمد بن عبد العزيز: -هو سهو، بل هو تصغير هونى، مؤنث هَون بفتح أوله-".

وقوله:

"قال شيخ الإسلام وغرة الأئمة الأعلام، سيدي أحمد بن عبد العزيز السجلماسي رحمه الله: -يتعين رَفْعُ الترتيب على الفاعلية للمُظهر، ونصب التفضيل على المفعولية-".

وهذا مخالف لقول الشيخ الهيتمي، حيث كَتب البيت في "المنح المكية" بنصب الترتيب ورفع تفضيلهم:

وبِباقي أصحابكَ المُظهِرِ التَّرْ --- تِيبَ فينا تَفضيلُهم والوَلاء

[17] محمد الشبيهي، الإطلالة الزهية، ص.64.

[18] عبد الهادي التازي، جامع القرويين، دار نشر المعرفة-الرباط، الطبعة الثانية-2000م، ج.2، ص.421.

وبما أن تراجم[19] الشيخ سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي، لا تذكر وجود مؤلف له في شرح القصيدة الهمزية البُصيرية، أستنتج أن التعقيبين على شرح الشيخ الهيتمي كان خلال حلقة علمية تفسيرية للنظم، مرتكزة على مؤلف "المنح المكية"، قدمها الشيخ الهلالي السجلماسي لطلابه في جامعة القرويين، وكان من ضمن هؤلاء سيدي يحيى الشبيهي. ويؤكد كذلك وجود هذا الكرسي، سرد المؤلِّف لأقوال العلامة سيدي محمد المسناوي في بعض الشروح، ومثال ذلك عند شرح البيت:

كُلُّ وَصْفٍ لهُ ابْتَدَأْتَ بِهِ اسْتَوْ --- عَبَ أخبارَ الفَضْلِ منهُ ابْتِداء

فكتب سيدي يحيى:

"قال العلامة سيدي محمد المسناوي:-قوله الفضل، أي أهل الفضل في ذلك الوصف المبتدأ به، والمعنى أن الوصف المحمود إذا كان في جماعة على جهة الكمال، فإن ما ينشأ عنه من الثمرات والفروع والمآثر المحمودة التي تنقل عنهم لاتصافهم بذلك الوصف المحمود، كل تلك المآثر التي تفرقت فيهم يستوعبها ويجمعها وصفه بها ﷺ، فهو الجامع لكل ما افترق في غيره-".

من خلال العلوم التي سردها الشريف القادري في معرض ترجمته للعلامة سيدي أحمد الهلالي السجلماسي، ومن خلال ما وقفت عليه في مؤلف العلامة الشبيهي، يمكنني أن أستنتج أن الإجازة التي حصل عليها من سيدي أحمد الهلالي السجلماسي تتعلق على أقل تقدير بعلوم الحديث والنحو والبلاغة.

ويدل على إلمام سيدي يحيى بعلم الحديث وبالخصوص تمكنه من صحيح الإمام البخاري، تعليقه على الشيخ الهيتمي حين استدل بحديث من الصحيح، فنبه أن نفس الحديث ورد عند الإمام البخاري بلفظين مختلفين في بابين من الصحيح، وأن استدلال الشيخ الهيتمي مجانب للصواب لأنه أخذ باللفظ المختصر، فجانب بذلك المعنى الكامل للحديث. كما يدل على سعة اطلاع سيدي يحيى الشبيهي وإلمامه بعدة فنون علمية، وفرة المراجع التي يعتمدها ويحيل عليها في مؤلفه، وقد بلغ عددها 53 مرجعا، مما جعل مهمة التحقيق بالغة الصعوبة في التنقيب والبحث والضبط.

كان سيدي يحيى ملما بمسائل العقيدة السنية، ومبحرا في تشعباتها وثناياها، حيث كتب في مؤلفه عن التوحيد:

---

[19] د. رشيد قباظ، بحث تحت عنوان "أحمد بن عبد العزيز الهلالي"، موقع "الرابطة المحمدية للعلماء"، 22-09-2014.

"لا يمكن أن يكون الإله مركبا من أجزاء ثلاث، أو أقل أو أكثر، فما سمعنا به في كتاب ولا سنة ولا قياس، لأنه مما يكاد يحيله العقل بديهة، كتعدده، فيلزم نفي الكم المتصل والمنفصل، لما دل عليه برهان التمانع في قوله تعالى -إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض-" [20].

وأستنتج من مُؤَلف سيدي يحيى وشرحه للقصيدة الهمزية، أنه كان ينتمي للمدرسة البصرية في علم النحو، بل كان متضلعا في مذهبها لدرجة معرفته بأدق مسائلها وحتى فيما صح من اختلاف بين روادها، وخصوصا ما اختص به سعيد بن مسعدة الأخفش وخالف فيه بعض أقوال البصريين، فيستشهد سيدي يحيى بقول: ***"قاله البصريون"*** ثم يضيف: ***"دون الأخفش"***. كما يرجح سيدي يحيى في بعض المسائل المدرسة الكوفية على المدرسة البصرية، مخالفا رأي الشيخ ابن حجر الهيتمي ولكن دون الإشارة لذلك، كمثل كتابته للبيت الآتي بنصب "السماوات"، وبـ "العلى" كما عند الكوفيين بدل "العلا" كما عند البصريين:

فطوى الأرض سائرا والسماوا --- تَ العُلى فوقها له إسراء

وأما الشيخ الهيتمي، فرفع "السماوات" وكتب[21]:

فطوى الأرض سائرا والسماوا --- تُ العُلا فوقها له إسراء

وكان العلامة الشبيهي متمكنا من دروب اللغة العربية وتشعباتها ومعانيها، حتى أنه سمح لنفسه بالتعقيب على محمد بن يعقوب الفيروز آبادي صاحب "القاموس المحيط"، وهو من هو حتى قيل عنه أنه كان آية في الحفظ والاطلاع والتصنيف، ففي شرح البيت:

أغنيـــــــــاءٌ نَزاهَةً فُقراءٌ --- عُلمـــــــــاءٌ أئمَّةٌ أُمَراء

كَتب سيدي يحيى:

"وفي القاموس: - رجُل نَزْهُ الخلق، وبكسر الزاي، ونازِه النفس: عفيف متكرم يَحُلُّ وحده ولا يخالط البيوت بنفسه ولا ماله، الجمع نزهاء ونَزِهون ونِزَاه، والاسم النَّزْه والنَّزاهة بفتحهما- والصواب أنه مصدر نَزِهَ كَكَرِهَ".

كان سيدي يحيى ملما بفنون الشعر ومبحرا في بحوره، حيث استنبط من وزن القصيدة كذلك بعض الشروح، حيث قال: ***"وتسقط بالبناء للفاعل مضارع أسقط رباعي، ولا يصح أن يكون مضارع سقط الثلاثي، لفساد الوزن"*** وذلك عند شرح البيت:

---

[20] سورة المؤمنون، الآية 91.

[21] أحمد بن محمد ابن حجر الهيتمي، المنح المكية في شرح الهمزية، دار المنهاج-بيروت، الطبعة الثانية-2005، ص.208.

رتب تسقط الأماني حسرى --- دونها ما وراءَهُن وَراء

كما يقول رحمه الله: ***"وثُلاثٌ بالصرف للوزن"*** ، وذلك في تفسير البيت:

أم أردتم بها الصِّفاتِ فَلِمْ خُصَّ --- تْ ثُلاثٌ بوَصفِهِ وثُناء

ويقول كذلك:" ***رأى بصرية أو علمية وفاعلها خديجةٌ بالصرف لضرورة الوزن***"، وذلك في شرح البيت:

ورَأتهُ خَديجةٌ والتُّقَى والزُّ --- هدُ فيهِ سَجِيَّةٌ والحَيــاء

مارس سيدي يحيى مهنة التعليم والتلقين، وكان له كرسي علمي في المدرسة القرآنية التابعة للضريح الإدريسي بزاوية زرهون، وكان من بين الدروس التي قدمها رحمه الله شرح قصيدتي البردة والهمزية، حيث كان بالضريح الإدريسي كرسي خاص بذلك ومكانه بالضبط الضريح الراشدي. أخبرنا بوجود ذلك الكرسي وبإلقاء سيدي يحيى الدروس، النقيب سيدي محمد الشبيهي الموقت في مؤلفه "الاطلالة الزهية على الأسرة الشبيهية"[22]، وبدمج هاتين المعلومتين يمكن أن نستنتج ما سبق.

من خلال مؤلف العلامة الشبيهي لا يمكن أن نجزم أنه كان يسلك طريقة صوفية خاصة، ويَتْبعُ في ذلك ما جرى عليه عُرف العائلة الشبيهية عامة من عدم الانتماء لطريقة صوفية معينة حتى يبقى الضريح، الذي تتشرف بحجابته، جامعا ومفتوحا أمام جميع الزوايا والطرق والمشارب الصوفية دون ميز أو انحياز. وما يمكن أن نستخلصه من تأليف سيدي يحيى أنه:

1- كان متشبعا مقتنعا بزهد الدنيا وبعلوم الحقيقة، ولو لم يُعرف له شيخ في ذلك أو طريقة، فقد سمح لقلمه أن يكتب من نَفْسِه دون الرجوع إلى غيره، ومن ذلك قوله في منتصف مؤلفِه على غير عادتِه:

"لا تسأل من عطائها كَثيرهُ، فإنه لا يقدر عليه أحد من البشر ولا يُقدِّرُ قدره، بل اسأل قليله وهو في الحقيقة أعظم عطاء وأغزره... فإن طلبت الزيادة فوق ذلك من الدنيا، أعطيت منها ما لا تطيقه، فتغرق في كثرتها فتفتتن بها أعظم فتنة فتشغلك عن دينك غالبا. وإن طلبت السر والتجليات كذلك أيضا، ربما حصل لك ما لا تطيقه بَشَرِيَتُك من النورانية فتتصدع ذاتك قوة، كما وقع لكثيرين في الوجهين".

[22]محمد الشبيهي، الاطلالة الزهية، ص.64 وص.289.

وقال في محبته ﷺ:

"واعلم أيها المتفكر في أمره، أن أفضل الأعمال وأسرعها إنتاجا، وأنفعها وسيلة وأظهرها ابتهاجاً، هو مزيد محبة مولانا محمد ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم، فإنها أنفع سبب لكل مطلوب، وأعظم وسيلة لكل مرغوب، فعليك أن تجعلها أعظم همتك وأكبر خدمتك".

وقال سيدي يحيى في حق سيدنا علي كرم الله وجهه:

" حصل له من البراهين القَطعِية على حقيقة التوحيد ومُتعلقاته، والإيمان بما جاءت به الرسل من الشرائع والوعد والوعيد والبعث، ما لا يزيد برؤيته بالعيان يقيناً وإن ازداد من ثمراته بالكشف، إذ لا يلزم زيادة اليقين بالكشف نفي زيادة ثمراته، لأنه لاشك أن عين اليقين الحاصل بالعيان أقوى من علم اليقين الحاصل بالبرهان، وأن حق اليقين الحاصل بالتحقيق أقوى منهما".

كما فسر سيدي يحيى بعض شعر الشيخ ابن عربي[23]، فقال:

"وفي هذا المعنى قال أهل الإشارات:

بين التَّـذَلُّـلِ والتَّـدَلُّـلِ نُقطةٌ --- فيـها يتيـه العالمُ النَّحْريـرُ

هي نُقطةُ الأكْوانِ إن جاوَزتَها --- كُنتَ الحَكيمَ وعِلمُكَ الإكسيرُ

استعار نقطة الذال في التذلل للأكوان، وهي ما سوى الله، فمن تذلل لها فهي حسبه، وفي تَعَلُّقِهِ بها دونه تيه أي ضلال عن طريق القُرب، ومن جاوز تلك النقطة بقطع النظر عنها، إى مكونها، فترقى بالتيه عليها، صار في مقام الدلال، وبين المقامين ما بين الثرى والثريا".

2- كان يُشرِّع لما يُلقي المتصوفة من سماع قصائد المديح النبوي الشريف عامة، وبالضريح الإدريسي خاصة، ومن ذلك قوله:

"فاستعمال الفكر في التلذذ بذكر صفاته الظاهرة الجليلة، ومعاني أوصاف أخلاقه الباهرة الجميلة، أعظم تنزه وأكمله للنفس حقيقة، يحصل منه للمتلذذ به رِبقة[24] الأشواق ورقة الأذواق، الموجبان لشرب محبة الأرواح، وامتزاجها بالأشباح المُرقِّية إلى حضرة

---

[23] محمد بن علي بن محمد بن عربي الأندلسي، الشهير بمحيي الدبن بن عربي، توفى بدمشق عام 638هـ. وجب التنبيه إلى عدم الخلط بينه وبين الشيخ أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، صاحب مؤلف "أحكام القرآن"، وهو أحد المراجع الذي اعتمدها العلامة الشبيهي في مؤلفه هذا.

[24] بمعنى عَقْد أو قيد.

المحبوب، التي بها حياة القلوب، الموصلة إلى المفاز بكمال المطلوب. والمعنى أنك إن فقدت اجتلاء هذه الذات الكريمة، ومعاني أخلاقه العظيمة عليك، فنزه نفسك باستماع الإنشاد المتضمنة لذلك، بالعبارات الموضحة لها، لتكون كالمشاهد لها" .

4- منهج المؤلِّف

من بين المؤلفات التي تناولت شرح القصيدة الهمزية للإمام محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البصيري (608هـ-696هـ، 1211م-1297م)، والتي سبق مؤلفوها العلامة سيدي يحيى الشبيهي (حسب تاريخ وفاة المؤلف):

*شرح العلامة شمس الدين محمد بن عبد المنعم الجوجري المتوفى عام 889هـ.

*شرح الإمام أحمد بن محمد بن علي ابن حجر الهيتمي المتوفى عام 974هـ، المسمى "المنح المكية في *شرح الهمزية" أو "أفضل القرى لقراء أم القرى".

*شرح العلامة شهاب الدين أحمد بن محمد السنباطي المتوفى تقديرا عام 990هـ.

*شرح الشيخ محمد بن أبي الوفاء الخلوتي الحموي المتوفى بعد عام 996هـ، المسمى "نهاية الأمنية في شرح الهمزية".

*شرح الشيخ أحمد بن يوسف البُرلسي ابن الأقطيع المتوفى عام 1001هـ، المسمى "النخبة السنية".

*شرح الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الله الغزي الحنفي المعروف بالتمرتاشي، المتوفى عام 1004هـ.

ارتكز سيدي يحيى أساسا على شرح الشيخ ابن حجر الهيتمي وكتابه "المنح المكية في شرح القصيدة الهمزية"[25]، واعتمد نصوصه إما بالتصريح أو بدونه[26]، وتصرف في بعض ما جاء به الشيخ الهيتمي، واختصر أو تغاضى عن البعض، وزاد في التوضيح والشرح في آخر.

وقد جاء مؤلف سيدي يحيى بمثابة تعليق على كتاب "المنح المكية" وتكملة له، فالشيخ

---

[25] أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي، المنح المكية في شرح الهمزية، تحقيق أحمد جاسم المحمد وبوجمعة مكري، دار المنهاج- بيروت، الطبعة الثانية 2005.

[26] حققت النصوص المنقولة ولو دون إشارة سيدي يحيى إلى نقلها عن "المنح المكية"، ووضعت الإحالات الضرورية لما نُقل بالتصرف أو بالتلخيص أو بدونهما.

الهيتمي اعتمد أساسا على الجانب الفقهي في تفسير القصيدة الهمزية، مستدلا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فجاء شرحه مبرزا لشرعية مديح الناظم، اعتمادا على المرجعيات الإسلامية السنية. وزاد سيدي يحيى في شرحه للنظم ما يراه مناسبا من تأويلات ومعاني التصوف، فكانت قيمة علمية مضافة تميز بها الكتاب. كما سرد سيدي يحيى في مؤلفه بعض شروح العلماء المغاربة للقصيدة البصيرية، وخصوصا أقوال العلامة سيدي أحمد السجلماسي والعلامة سيدي محمد المسناوي. وهي إضافات نوعية تبيّن كذلك علو كعب علماء المغرب في هذا الباب، وتكشف نزرا من اجتهاد هؤلاء الأئمة في تبيان معاني ومقاصد الناظم، حيث لم يُكتب لهذه الأعمال التدوين في مخطوطات، بل سردت مشافهة في حلقات علمية.

وتجدر الإشارة أن مخطوط "المنح المكية" الذي اعتمده سيدي يحيى، مخالف للنُّسخ التي اعتمدها المحقق في المرجع المطبوع. فنجد أن سيدي يحيى وكأنه يزيد على ما ينقله عن "المنح المكية"، وهو أمر مستبعد، بل ربما حاز سيدي يحيى نسخة أولية من "المنح المكية"، مختلفة عن النسخ التي اعتمدها المحقق. ومما يزكي ذلك، نَقلُ سيدي يحيى عن الإمام ابن حجر معلومات لم يذكرها المحقق في الكتاب المطبوع، كذِكر سيدي يحيى نقلا عن الشيخ الهيتمي اسم أخت قابيل بن آدم: اقليما[27]، وكذلك في شرح أبيات أخرى[28] ينقل سيدي يحيى عن الشيخ ابن حجر قولا أكثر تفصيلا مما ورد في "المنح المكية" المطبوع، وفي أربع حالات[29] لم أجد النص المنقول أصلا في هذا المرجع.

تميز مؤلف سيدي يحيى عن مؤلف الشيخ الهيتمي بجمع أكثر من بيت واحد في التفسير، ذلك أنه ارتأى أن المعنى المقصود من تلك الأبيات مرتبط ببعضه البعض، ورجح بالتالي تفسيرها مجتمعة حتى يبين فكرة وقصد الناظم كاملا.

وفي عدة مناسبات استشهد العلامة الشبيهي بقول الشيخ الهيتمي في شرح البيت الشعري الذي تناوله بالتفسير، وهو أمر عادي، ولكن استشهد كذلك بـ"المنح المكية" في تفسير بيت

---

[27] أنظر "المنح المكية"، ص.409.

[28] أنظر "المنح المكية"، ص.416 وص.421 وص.471 وص.489 وص.497 وص.518 وص.601.

[29] واحدة في شرح البيت:

وأَتَينـــــا إلَيكَ أَنْضـــــاءَ فَقْرٍ --- حَمَلَتْنَا إلى الغِنى أَنْضـــــاء

وحالتين في شرح البيت:

لم نَخَفْ بعدك الضلالَ وفينا --- وارثُو نُورِ هَدْيِكَ العُلَمـــــاء

وحالة في شرح البيت:

إنَّما فَضلُكَ الزَّمـــــــانُ وَآيَا --- تُكَ فيما نَعُدُّهُ الآنـــــــــاء.

شعري مغاير للبيت الذي يفسره الشيخ الهيتمي، وسوف ينتبه القارء أنني في بعض الأحيان، أحيل في الهامش على صفحات سابقة أو لاحقة من المرجع الهيتمي، مختلفة عن صفحات شرح البيت المقصود من الشيخ ابن حجر، وذلك لاعتماد سيدي يحيى عليها. ويدل ما سبق على أن منهج سيدي يحيى في التفسير، لم يكن تسلسليا ولا مسترسلا ومواكبا لتفسير الشيخ الهيتمي، بل استوعب وتمكن العلامة سيدي يحيى من مؤلف "المنح المكية" شموليا، ثم وظفه واستعان به في شرحه للهمزية البُصيرية بصفة عامة، وليس فقط جزئيا حسب شرح الشيخ الهيتمي لكل بيت على حدة.

يظهر من خلال تتبع أبيات القصيدة الهمزية أن العلامة سيدي يحيى قد خالف الشيخ ابن حجر في سرد بعض الأبيات، وكتبها بشكل مختلف عما هو موجود في "المنح المكية"، مما يدل على اعتماد الشريف الشبيهي مراجع مختلفة ومتنوعة، وترجيحه من بينها ما يراه ملائما. وقد بينت تلك الاختلافات في الهامش، حيث يمكن التعرف على الأبيات المعنية من خلال وجود إحالة في نص البيت. كما تصرف سيدي يحيى في النقل عن الشيخ الهيتمي، ولو ذكر مصدره بقوله "***قال ابن حجر***" أو "***قال الهيتمي***".

إن ما يشد الانتباه هو صيغ الأدب والتقدير الذي حرر به العلامة سيدي يحيى عباراته إذا خالف رأي الشيخ الهيتمي، حيث لا ينسب له القول، ولكن يستعمل "***قيل كذا***"[30] مبنيا للمجهول، ثم يقول "***إن فيه نظر***"، أو ينفي قول الشيخ الهيتمي هكذا "***ولا يصح***" أو "***والصواب والله أعلم***"، فلا يشير مباشرة إلى صاحب القول، ثم يأتي بما يراه صوابا بعد ذلك، وهذا من فرط تعظيم وتوقير العلماء السابقين والاعتراف بفضلهم، فلا ينسب لهم اسميا ما يراه ناقصا أو خطأ. وفي حالة نحوية[31]، نقل سيدي يحيى قول الشيخ الهيتمي، ثم عقب عليه ب "***قلتُ***" فسرد رأيه. كما عقب سيدي يحيى في حالة بلاغية بلطف على الشيخ الهيتمي قائلا: "***قال ابن حجر: - بفَتح أوله وضمه -، وليس في مشاهر أوزان التأنيث فُعلاء بضم أوله***"[32]. وفي شرح بيت آخر[33]، يخالف سيدي يحي الشيخ الهيتمي في تفسير "هَذْيِكَ" أي من الهداية، فيقول: "***قال المحدثون الهَدْي بفتح فسكون: الطريقة الصالحة، وعليه فليس هو من معنى الهداية التي هي الإرشاد***".

---

[30] أنظر شرحه لقول الناظم: وأحاديثُ أن وعدَ رسول الله --- بالبعث حان منه الوفاء.

[31] أنظر شرحه لقول الناظم: أَفَلا أنطوي لها في اقْتِضائِهِ --- ـهِ لِتُطوى ما بيننا الأَفْلاء.

[32] أنظر شرح البيت: **وَالجَوَادُ الذي بـه تُفْرَجُ الـغُمَّـ --- ـةُ عَنَّا وتُكشَفُ الحَوْبـــــاء**

[33] **لم نَخَفْ بعدك الضلالَ وفينا --- وارثُو نُورِ هَدْيِكَ العُلَمـــاء**

وقد شذَّ سيدي يحيى عن هذه القاعدة العامة في موقع واحد، حين انتقد الشيخُ الهيتمي أحد أبيات النظم ولاحظ على الإمام البصيري، فنافح سيدي يحيى عن الناظم بما يفيد أن البيت موافق للحديث الشريف وللسيرة النبوية، فلا يعارض أي منهما. وقد بين سيدي يحيى أن الشيخ الهيتمي استدل واستنتج انتقاده للإمام البصيري، بلفظ حديث أورده الإمام البخاري مختصرا في صحيحه في كتاب الجهاد، وعقّب سيدي يحيى بأن نفس الحديث ورد كاملا كذلك في صحيح البخاري ولكن في كتاب الأدب، وتفصيل هذا الحديث الأخير يدل على رجاحة قول الإمام البصيري ويفند ملاحظة الشيخ الهيتمي، ويتعلق الأمر بتفسير البيت:

دَمِيَـت فــي الوغى لتُكسبَ طيـــباً --- مـا أراقت من الدَّمِ الشُّهداء

ولاحظ سيدي يحيى على الإمام البصيري في موقع واحد، ولو أنه حاول أن يجد تفسيرا لقول الناظم ولكن بدون جدوى، فقال: ***"ويُحتمل أنه كَنّى بالضب عن اليربوع، أو أنهما عنده مترادفان، والحق أنهما متغايران"***. جاء ذلك عند شرح البيت:

أبدلوا الوُدَّ والحَفيظَةَ في القُرْ --- بَى وأبدت ضِبابَها النَّافِقـاء

استعان العلامة سيدي يحيى كذلك بكتاب "شرح الهمزية"[34] للإمام أحمد السنباطي، حيث يقول:

"ولما كان تأليف العلامة أبي العباس أحمد السنباطي أوجز شروحها وأعذبها وأحسنها نسجا وأقربها، ووف مبناه وراق معناه، أردت أن أحاد في ألفاظه غالبا وغاية للاختصار، وأزيد عليه إن شاء الله ما أخل به، مما يحتاج المبتدي وينتفع به المجتدي".

ومخطوط "شرح الهمزية" للشيخ السنباطي يتكون من 171 صفحة، كل صفحة تضم 17 سطرا، ومتوسط عدد الكلمات 10 في كل سطر، فيكون بذلك كتاب سيدي يحيى، من حيث عدد الكلمات، أكثر من ثلاث أضعاف مؤلف الشيخ السنباطي (95076 مقابل 29070).

والملاحظ أن العلامة الشبيهي أحال أساسا في مؤلفه، على شرح الهمزية للإمام ابن حجر الهيتمي وكتابه "المنح المكية"، فغالبا ما يعود إليه في شرحه، بينما يقل عنده سرد قول الشيخ السنباطي والإحالة عليه. و ربما يرجع ذلك لأن مؤلف الشيخ السنباطي جاء مختصرا جدا بالرغم من ضبطه للشرح ضبطا تاما شاملا ولكن دون التوسع الكافي، مما يصعب معه على القارئ العادي فهم جميع مكنوناته ومَقاصده، بل يتطلب إلماما كبيرا بعدة علوم عربية

---

[34] أحمد بن أحمد السنباطى الشافعي، شرح الهمزية، ميكروفيلم مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية -القاهرة- مصر، تحت رقم 592.

إسلامية، فكان إنشاء شرحٍ على شرحِ الشيخ السنباطي من هذا الجانب أمرا مستحسنا.

والشيخان الهيتمي والسنباطي معاصران لبعضهما، ولم يذكر محقق "المنح المكية" أن الشيخ الهيتمي اعتمد مؤلف الشيخ السنباطي مرجعا له، ولا أي مؤلَف آخر مفسرٍ للقصيدة، بالرغم من إقرار الشيخ ابن حجر بذلك في عدة مناسبات بقوله: "قاله الشارح". ويبدو لنا الأمر مبهما من خلال النص السالف للعلامة الشبيهي، حيث يؤكد في تقديمه لمؤلفه اعتماد تفسير الشيخ السنباطي كمرجع أساسي وعزمه البسط في شرح كلماته والتوسع في تبيان معانيه، بينما في أحد الشروح يقول: "***قاله ابن حجر وتبعه السنباطي***". وهي زلة قلم، فالأجدر: "قاله السنباطي وتبعه ابن حجر"، لأنني تأكدت أن السابق للشرح هو الشيخ السنباطي، وقد أخذ عنه الشيخ الهيتمي حيث ينعته في "المنح المكية" بـ"الشارح"، وينقل بعض ذلك العلامة الشبيهي دون تبيان المقصود بـ"الشارح"، ومثال ذلك في شرح البيت:

ألِفَ البِطْنَةَ المُبَطِّنَةَ السَّيْـ --- ـرِ بِدارٍ بهـا البِطـانُ بِطـاء

كتب سيدي يحيى نقلا عن الشيخ الهيتمي في شرح البطنة: "***قال ابن حجر: -أي ملأ بطنه من الطعام أو الشراب، قاله الشارح-***"، وبالرجوع إلى مخطوط شرح الشيخ السنباطي نجد نفس اللفظ في تفسير الكلمة (ص.148).

وهذه حجة كافية على أن المقصود هنا بالشارح هو الشيخ السنباطي، فقد اعتمد الشيخ الهيتمي شرحه و صرح بذلك ولم ينكره، وبذلك رُفع اللبس عن السابق واللاحق.

وكذلك يعارض الشيخ الهيتمي قول شارح آخر في إعراب "أعيد" في البيت:

فاخْتَفَى عِنْدَ كَشْفِها الرأسَ جبريـ --- ـلُ فما عادَ أو أُعيدَ الغِطاء

فتحققت أن المقصود غير الشيخ السنباطي، حيث لا اختلاف[35] بين الشيخين في إعراب "أعيد"، بل الاثنين يلاحظان على قول هذا "الشارح"، رحم الله الجميع.

مما يدل على عظيم اطلاع سيدي يحيى على المراجع والمؤلفات، ذكره لتفسير أحد أبيات القصيدة من مصدر لا يهدف إلى شرح القصيدة الهمزية، وهو مؤلف "نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض" لصاحبه أحمد الخفاجي المتوفى عام 1067هـ، حيث عرض ذكر البيت[36] في سياق أشعار سيرة الرسول ﷺ، وأفضى الشيخ الخفاجي إلى أن البيت تَمَّ

---

[35] أنظر: "المنح المكية" ص.174، ومخطوط شرح السنباطي ص.17.

[36] أحمد بن محمد الخفاجي، نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى-2001، ج.4، ص.57.

تحريفه وأن الشُّراح "لم يصلوا إلى العنقود" حسب قوله. ولم يستعمل سيدي يحيى هذا اللفظ ولم يشر إليه، ولو أنه أخذ برأي الشيخ الخفاجي واعتمد تفسيره للبيت المقصود، مخالفا بذلك مصدريه الرئيسيين: الهيتمي والسنباطي.

ارتكز العلامة سيدي يحيى على علم النحو والإعراب في مزيد تبيان معاني الشرح، ونستنتج من ذلك أنه كان نحويا بارعا، حيث يقول:

"ولا آلُ[37] إن شاء الله في إعراب ما يتوقف عليه المعنى، ويبدو به المبنى، ولو نزف ما ندر من لغة غريبة، وضبط ما أشكل من ألفاظ مريبة، بعبارة مبينة فريدة، بقدر الاستطاعة والإمكان، ومجاهدة عسر الأزمان".

واعتمد في مراجع النحو على نظم "الكافية الشافية" أو "الألفية"[38]، وشرحها[39] للإمام محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني المتوفى عام 672هـ. ونقل العلامة الشبيهي عن الشيخ ابن هشام الأنصاري المتوفى عام 761هـ وكتابه "الإعراب عن قواعد الإعراب"[40]، وأشار إليه سيدي يحيى باسم "الموضح في القواعد" ولم يُسم صاحبه، ولم يكتف بذلك، بل تعداه إلى التصرف في النص المنقول بهدف توضيحه، مما صعَّب عليَّ مهمة التحقيق، إذ لا وجود لمؤلف تحت عنوان "الموضح في القواعد"، ولكن التوفيق الإلهي شملني فتوصلت للمرجع الذي ذكرته أعلاه. ولربما كان هناك مؤلف في النحو بعنوان "الموضح في القواعد" نقل عن ابن هشام الأنصاري بالتصرف، وهو الآن في عداد المؤلفات غير المطبوعة. كما ذكر سيدي يحيى في هذا الباب الشيخ بدر الدين العيني المتوفى عام 855هـ، وكتابه "فرائد القلائد في مختصر شرح الشواهد"[41].

كتب سيدي يحيى الآيات القرآنية التي استشهد بها برواية ورش عن نافع، وهي الرواية المعمول بها في المغرب.

وفي شرح الآيات القرآنية، رجع سيدي يحيى إلى كتاب "المحرر الوجيز في تفسير كتاب

---

[37] لم أزل أو لم أترك جهدا.

[38] محمد بن عبد الله بن مالك الطائي، ألفية ابن مالك في النحو والصرف، مطبعة دار الكتب المصرية-القاهرة، 1932.

[39] محمد بن عبد الله بن مالك الطائي، شرح الكافية الشافية، تحقيق عبد المنعم أحمد هريدي، دار المأمون للتراث، الأولى 1982.

[40] عبد الله جمال الدين الأنصاري النحوي الشافعي المعروف بابن هشام الأنصاري، الإعراب عن قواعد الإعراب، تحقيق علي فودة نيل، عمادة شؤون المكتبات-جامعة الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى 1981.

[41] بدر الدين محمود بن أحمد العيني، فرائد القلائد في مختصر شرح الشواهد المشهور ب-الشواهد الصغرى-، تحقيق محمد بن محمود فجال، قنديل للطباعة والنشر والتوزيع-دبي، الطبعة الأولى 2019.

الله العزيز"[42] لصاحبه القاضي ابن عطية الأندلسي المتوفى عام 546هـ، وإلى تفسير ابن الجوزي[43] المتوفى عام 597هـ، وتفسير الزمخشري المتوفى عام 538هـ المعنون ب"الكشاف"[44]، و"التسهيل لعلوم التنزيل"[45] لابن جزي الغرناطي المتوفى عام 741هـ، و"الكشف والبيان عن تفسير القرآن"[46] لأحمد بن محمد الثعلبي المتوفى عام 427هـ. كما اعتمد سيدي يحيى مؤلف "أحكام القرآن"[47] للشيخ أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي المتوفى عام 543هـ، ولو أنه نقل عمن نقل عنه، حيث استعمل في ذلك ما جاء في "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"[48]، للإمام الثعالبي المتوفى عام 875هـ.

أما بالنسبة لعلم الحديث فقد استدل سيدي يحيى، زيادة على أمهات كتب الحديث، بكتاب "الطبقات الكبرى" لمحمد بن سعد البغدادي المتوفى عام 230هـ، وبكتابي "مشارق الأنوار على صحيح الآثار"[49] و"الشفا بتعريف حقوق المصطفى"[50] للقاضي عياض المتوفى عام 544هـ، وبكتاب "شرح صحيح البخاري"[51] للإمام النووي المتوفى عام 676هـ، وبكتاب "فتح الباري بشرح البخاري"[52] للإمام أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى عام 852هـ، وبمؤلف "التوشيح: شرح الجامع الصحيح"[53] للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى عام 911هـ، وبكتاب "إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري"[54] للشيخ أحمد بن محمد القسطلاني المتوفى عام 923هـ.

[42] أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان، الأولى 2001.

[43] جمال الدين عبد الرحمان بن علي بن محمد الجوزي القرشي، زاد المسير في علم التفسير، دار ابن حزم-بيروت،، الطبعة الثالثة.

[44] محمد بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعلو الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى 1998.

[45] محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، المنتدى الإسلامي-حكومة الشارقة، 1433-2012.

[46] أحمد بن محمد الثعلبي النيسابوري، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي-بيروت-، الطبعة الأولى، 2002.

[47] أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، 4 أجزاء، دار المعرفة ودار الجيل بيروت-لبنان، 1987.

[48] عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي المالكي، تفسير الثعالبي المعروف ب"الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1997.

[49] أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، مشارق الأنوار على صحاح الاثار، المكتبة العتيقة-تونس ودار التراث-القاهرة.

[50] أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفكر-بيروت، 2002.

[51] محيي الدين يحيى بن شرف النووي، شرح صحيح البخاري إلى نهاية باب الإيمان، تحقيق عبد الله بن عمر الدميجي، جامعة أم القرى-مكة المكرمة، 2008.

[52] أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح البخاري، المكتبة السلفية-مصر، الطبعة الأولى،1380-1390هـ حسب الجزء.

[53] جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، التوشيح شرح الجامع الصحيح، تحقيق رضوان جامع رضوان، مكتبة الرشد-الرياض، الطبعة الأولى 1998.

[54] أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية-مصر، الطبعة السابعة 1323هـ.

وكانت دهشتي كبيرة، حين وقفت على ذكر سيدي يحيى لحديث شريف بلفظ سيدي محمد بن سليمان الجزولي المتوفى عام 870هـ، ذكره في كتابه "دلائل الخيرات"، وحسب النسخة المطبوعة التي أحوزها، فهذا المؤلف لا ترد فيه أحاديث نبوية. ومن حسن حظي، فقد استشهد سيدي يحيى كذلك بكتاب "مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات"[55] للعلامة محمد المهدي الفاسي المتوفى عام 1109هـ، وهو شرح لكتاب "دلائل الخيرات"، فتأكدت من خلال هذا المرجع أنَّ في مقدمة نُسخٍ من "دلائل الخيرات" استدلالٌ بالأحاديث النبوية الشريفة. وقد حاولت استشراف الأمر والتقصي حوله، فوجدت أنني أحوز النسخة المطبوعة المنعوتة من ناشرها بـ "السهلية"[56] (نسبة للشيخ محمد بن عبد الكريم العمْري السهلي المتوفى عام 918هـ)، ولا تتضمن أحاديث نبوية عكس نسخة أخرى[57]. والغريب أن العلامة محمد المهدي الفاسي عند شرحه لدلائل الخيرات يذكر النسخة السهلية في تفسير الأحاديث النبوية، وهذا يعني أن النسخة السهلية التي كان يحوزها الشارح تضمنت الأحاديث النبوية، فيبقى التساؤل مطروحا حول النسخة المطبوعة المنسوبة للشيخ السهلي، والتي لا تتضمن الأحاديث النبوية الشريفة.

وفي علوم الفقه الإسلامي أشار العلامة الشبيهي إلى كتاب "المحلى بالآثار" للإمام ابن حزم الأندلسي المتوفى عام 456هـ، وإلى كتاب "جمع الجوامع في أصول الفقه"[58] للإمام تاج الدين السبكي المتوفى عام 771هـ، وكذا إلى شرحه[59] من طرف الشيخ محمد بن أحمد المحلي.

استعان العلامة الشبيهي فيما يتعلق بعلم العقيدة، بمؤلفات الشريف الإمام أبو عبد الله سيدي محمد بن يوسف السنوسي المتوفى عام895هـ، وخصوصا كتابه المعنون "شرح صغرى الصغرى"[60].

---

[55] الإمام محمد المهدي بن أحمد بن علي بن يوسف الفاسي القصري، مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات، المطبعة الحجرية، 1289هـ.

[56] محمد بن سليمان الجزولي السملالي، دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار، المطبعة الوطنية، مراكش-المغرب، 2016.

[57] محمد بن سليمان الجزولي السملالي، دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية 2004.

[58] تاج الدين السبكي، جمع الجوامع في أصول الفقه، تعليق عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة الثانية 2003.

[59] شمس الدين محمد بن أحمد المحلي، شرح المحلي على متن جمع الجوامع. لم أحصل على المرجع مباشرة، ولكن حصلت على "حاشية العلامة البناني على شرح المحلي على جمع الجوامع"، دار الفكر، 1982.

[60] محمد بن يوسف بن عمر السنوسي، شرح صغرى الصغرى، شَرُفَ بخدمته: أنس محمد عدنان الشرقاوي، دار التقوى للطباعة والنشر والتاريخ-دمشق، الطبعة الأولى 2019.

وتكلم سيدي يحيى في العقيدة، ولم يَفُته إبداء رأيه في القضاء والقدر، بعد ما سرد آراء بعض العلماء، حيث قال:

" قُلتُ: فعلى قول الطيبي ومَن بعده، أنهما حادثان، وإلا لما قال عمر ذلك، لأن القدر لو كان عنده بمعنى الثلاثة كما سبق، كان أزليا فلا يرجى دفعه".

ويقول سيدي يحيى في الرجاء:

" وهذا من حسن الحالات وأعظم المقامات، حتى أن كثرة الذنوب وتراكم الأوزار لا تخرجه عن الرجاء فيدخل في الإِيَاس[61] الموقع في الهلاك، الدال عليه قوله تعالى -إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون- أي من رحمته".

وفي هذا الباب، ومن غريب ما لاحظته عند تحقيق الكتاب، أن العلامة الشبيهي تجنب كتابة اسمِ رجلٍ كاملا، واكتفى بنعته ب"***الرجل المشهور الذي كان أَلْثغ، فهجر كل كلمة فيها راء***"، وذلك عند شرحه:

أيُّ حُـبٍّ يَصِـحُّ مِـني وَطَرْفِي --- للكَـرَى واصِـلٌ وطَيْفُكَ راء

فلم أجد تفسيرا لعدم ذكر هذا الإسم كاملا إلا أن سيدي يحيى كان معارضا شديدا لمعتقدات المعتزلة، حتى أنه اشمأز من كتابة اسم مؤسس هذه الفرقة الكلامية في مؤلفه، واكتفى بما ذُكر في البيت أي "واصل"، وكان يُنعت بالألثغ لتجنبه استعمال الكلمات التي تحوى حرف الراء. ومن معتقدات المعتزلة تقديم العقل على النقل، واختلفوا بذلك عن الأشاعرة الذين استعملوا العقل لفهم النص وليس حكما عليه. وأستخلص مما سبق أن سيدي يحيى كان من جهابذة الأشاعرة، وهو اعتقاد جل علماء المغرب حتى لا أقول كُلهم، منذ عهد الدولة الموحدية. وقد انصعتُ لمراد سيدي يحيى وتجنبت كتابة الاسم كاملا، حسب ما فهمت من مشيئة المؤلف واحتراما لها، فالرجل المقصود معروف ولا حاجة للمزيد من التفصيل.

وأما في علم التاريخ والسيرة النبوية الشريفة فقد ارتكز سيدي يحيى على "السيرة النبوية"[62] لابن هشام المتوفى عام 218هـ تقديرا، وعلى "الروض الأنف"[63] وهو شرح "سيرة ابن هشام" للإمام السهيلي المتوفى عام 581هـ، وعلى أرجوزة في السيرة النبوية[64] لصاحبها الإمام محمد بن محمد اليعمري المعروف بابن سيد الناس المتوفى عام 734هـ، وكذلك على

---

[61] من أيس وهو انقطاع الرجاء.

[62] عبد الملك بن هشام بن أيوب، السيرة النبوية، دار الكتاب العربي -بيروت-، الطبعة الثالثة 1990.

[63] الإمام عبد الرحمان السهيلي، الروض الأُنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عبد الرحمان الوكيل، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الأولى 1967.

[64] أبو الفتح محمد اليعمري المعروف بابن سيد الناس، نظم اختصار سيرة الرسول، مخطوط بخزانة بلدية الإسكندرية.

كتاب المؤلف نفسه تحت عنوان "عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير"[65]. كما ذكر العلامة الشبيهي مؤلف "خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى"[66] لعلي الحسني السمهودي المتوفى عام 911هـ، واعتمد كذلك كتاب "الشمائل المحمدية"[67] للإمام الترمذي المتوفى عام 279هـ، ومؤلف الشيخ ابن حجر الهيتمي المعنون "أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل"[68]، وهو شرح وتعليق على كتاب "الشمائل المحمدية". كما يشير سيدي يحيى إلى كتاب "قصص الأنبياء"[69] أو "عرائس المجالس" لأحمد بن محمد الثعلبي النيسابوري المتوفى عام 427هـ، وكتاب "تاريخ الأمم والملوك"[70] للإمام الطبري المتوفى عام 310هـ. وذكر سيدي يحيى بعض المصادر حول سير صحابة سيدنا رسول الله ﷺ، مثلا: كتاب "الصحابة" لأبي جعفر محمد بن عمرو العقيلي، و"الإصابة في تمييز الصحابة"[71] لأحمد ابن حجر العسقلاني.

واستعان سيدي يحيى كذلك بمؤلف "المختصر في سيرة سيدنا محمد ﷺ" للشيخ أبو محمد شرف الدين بن خلف المعروف بالدمياطي المتوفى عام 705هـ. وبالرجوع لهذا المصدر، خالف العلامة الشبيهي في تعداد وترتيب أزواج النبي ﷺ قول[72] الشيخ الهيتمي في "المنح المكية"، وذلك عند شرح البيت:

وَبِأزواجك اللواتي تشَرَّفْـ --- ـنَ بأن صانَهُنَّ مِنكَ بِناء

وفي علوم البلاغة، استعان سيدي يحيى بكتاب "التلخيص في علوم البلاغة"[73] لصاحبه الإمام جلال الدين القزويني الخطيب، المتوفى عام 739هـ.

واستعمل سيدي يحيى كتاب "القاموس المحيط"[74] لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي المتوفى

---

[65] أبو الفتح محمد اليعمري المعروف بابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين ميتو، مكتبة دار التراث-المدينة المنورة- ودار ابن كثير-دمشق.

[66] علي بن عبد الله بن أحمد الحسني السمهودي، خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، طبعه السيد حبيب محمود أحمد.

[67] الإمام أبو عيسى محمد الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيق أسامة الرحال، دار الفيحاء-دمشق، الطبعة الثانية-2003.

[68] أحمد بن حجر الهيتمي، أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، تحقيق أحمد بن فريد المزيري، دار الكتب العلمية-لبنان، الطبعة الأولى-1998.

[69] أبو إسحاق أحمد بن محمد النيسابوري الثعلبي، قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس، مكتبة الجمهورية العربية-شارع الصنادْقية- الأزهر.

[70] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، منشورات مؤسسة الأعْلمي للمطبوعات-بيروت-لبنان، 1989.

[71] أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية-بيروت، 1995.

[72] والاثنين رجحا قولهما مع الإشارة إلى وجود قول مخالف.

[73] جلال الدين محمد بن عبد الرحمان القزويني الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة، ضبط وشرح عبد الرحمان البرقوقي، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية 1932.

[74] محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، راجعه أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث-القاهرة، 2008.

عام 817هـ، وذلك لشرح الكلمات المستعصية على الفهم واستشراف المقصود من الناظم، مبرزا المعنى الموافق للكلمة المراد شرحها. وأشار كذلك للغرض نفسه إلى كتاب "جمهرة اللغة"[75] لصاحبه أبو بكر بن دريد الأزدي المتوفى عام 321هـ، وإلى معجم "مختار الصحاح"[76] لمحمد بن أبي بكر الرازي المتوفى عام 614هـ تقديرا، وكتاب " التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية "[77] لمحمد بن الحسن الصغاني المتوفى سنة 650هـ، وكذلك رجع إلى "المصباح المنير في غريب شرح الكبير"[78] لأحمد الفيومي المقرئ المتوفى بعد عام 770هـ.

وفي علم الفلك والتوقيت اعتمد سيدي يحيى على مؤلف "الممتع في شرح المقنع"[79]، لصاحبه محمد بن سعيد بن محمد السوسي المرغيثي المتوفى عام 1089هـ.

ولم يخلُ مؤلف العلامة سيدي يحيى الشبيهي من الإشارة إلى التصوف الإسلامي عامة، والتصوف الإسلامي المغربي خاصة، من خلال اعتماده على مراجع من هذا الميدان، حيث يَذكُر بعض أقوال الإمام الجنيد[80]، وبعض أقوال أحد تلامذته وهو الشيخ الزاهد أبو بكر دلف بن جعفر الشبلي المتوفى عام 334هـ، وكذلك يذكر الشيخ أبو علي الدقاق المتوفى عام 406هـ، وهو شيخ الإمام القشيري صاحب "الرسالة القشيرية". ويستشهد العلامة الشبيهي بمؤلف "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء"[81] للحافظ أبو النعيم الأصبهاني المتوفى عام 430هـ، وبكتاب "الرسالة القشيرية"[82] للإمام أبي القاسم القشيري المتوفى عام 465هـ، وبكتاب "المنقذ من الضلال"[83] للإمام الغزالي المتوفى عام 505هـ، وكذلك بكتابه "إحياء علوم الدين"[84]. ويَذكُر العلامة الشبيهي مؤلَف "مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن"[85] للإمام محمد العربي بن يوسف الفاسي الفهري المتوفى عام 1052هـ، وكتاب

---

[75] أبو بكر بن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين-بيروت، 1987.

[76] زين الدين محمد بن أبي بكر بن عمر الرازي، مختار الصحاح، المكتبة العصرية-الدار النموذجية، 1999.

[77] الحسن بن محمد بن الحسن الصغاني المتوفى سنة 650هـ، التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية، حققه عبد الحليم الطحاوي، مطبعة دار الكتب-القاهرة، 6 أجزاء، من 1970إلى 1979.

[78] أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان-بيروت، 1987.

[79] محمد بن سعيد بن محمد السوسي المرغيثي، الممتع في شرح المقنع، المكتبة العصرية-بيروت.

[80] أنظر مثلا تفسير البيت : **يَا شَفيعاً في المُذنِبِينَ إذا أَشْـ --- فَقَ مِن خَوْفِ ذَنبِهِ البُراء**

[81] أبو النعيم الإصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تحقيق سامي أنور جاهين، 8 أجزاء، دار الحديث-القاهرة، 2009.

[82] أبو القاسم القشيري النيسابوري الشافعي، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحميد محمود ومحمد بن الشريف، مطابع مؤسسة دار الشعب-القاهرة-، 1989.

[83] أبو حامد محمد الغزالي، المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، اعتنى به محمد إسماعيل حزين وشذا رائق عبد الله، نشر موقع الفلسفة الإسلامية.

[84] أبو حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 2005.

[85] أبي حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي الفهري، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، منشورات رابطة أبي

"الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ"[86] لسيدي أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي المتوفى عام 1156هـ، وكتاب "رسالة النفحات الإلهية"[87] للشيخ السمان المتوفى عام 1189هـ، كما يستشهد بأشعار الشيخين محيي الدين بن عربي المتوفى عام 638هـ، وعمر بن الفارض المتوفى عام 632هـ. وذكر سيدي يحيى كذلك الشيخ الحسن بن يوسف الزياتي[88]، وشرحِه للصلاة المشيشية لصاحبها الشيخ سيدي عبد السلام بن مشيش الإدريسي الحسني. كما أشار سيدي يحيى لكتاب "دلائل الخيرات" للشيخ سيدي محمد بن سليمان الجزولي، وخصوصا شرحه المعنون ب"مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات"، لمؤلفه الشيخ محمد المهدي بن أحمد الفاسي المتوفى عام 1109هـ. وسبق وأشرت لذلك في هذا التقديم.

وخلاصة القول في فائدة تأليف هذا الكتاب والقيمة المضافة له، أنه يعتمد كذلك مرجعيات من تَآليف مغربية في التصوف، وهو ما يضفي على الشرح بعدا إضافيا على ما جاء به الشيخ ابن حجر الهيتمي، ويكون بذلك تكملة نوعية لمؤلف "المنح المكية"، تثري الشرح وتضيف إليه معاني من علوم الذوق الرفيع، الذي أتى به علماء التصوف السني، من تعلق بتعظيم الخالق عز وجل وتفاني في محبة المقام النبوي المحمدي الشريف.

نهج سيدي يحيى في أغلب شرحه نهجا منتظما، فبعد سرد البيت يقوم بإعراب ما جاء فيه حسب كل الأوجه المحتملة، ويفسر الكلمات المستعصية على الفهم، ثم يقدم المعنى المتوخى حسب ما فهمه من قصد الناظم، معتمدا على ما توفر لديه وما عَلِمه من مراجع الأثر. والملاحظ في الثلث الأخير من المؤلَف، تراجع المؤلِف عن هذا النظام مجملا إلا في بعض الشروح، حيث جمع الإعراب مع الشرح، كما فعل ذلك الشيخ الهيتمي في مجمل مؤلفه.

المحاسن ابن الجد.

[86] أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي، الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ، دار الكتب العلمية-بيروت لبنان، الطبعة الثالثة 2002.

[87] محمد بن عبد الكريم القرشي المدني المعروف بالسمان، رسالة النفحات الإلهية في سلوك الطريقة المحمدية، مطبعة الآداب والمؤيد-مصر، 1326هـ.

[88] ذكر الزركلي بعض مؤلفاته في "الأعلام"، منها "شرح جمل المجرادي" وحاشية على "شرح الألفية للمكودي" وحاشية على "مختصر خليل". وأما مؤلفه في شرح الصلاة المشيشية، فوجدته مرقونا إلكترونيا في موقع المنتدى العالمي للسادة الأشراف الشاذلية المشيشية:
https://shadilia-mashishia.yoo7.com/t376-topic

5- عنوان الكتاب ومنهج التحقيق

اعتمدت عنوان الكتاب الذي تحققت منه في أخر صفحات المخطوطين الصبيحي والحسني، حيث يقول العلامة سيدي يحيى ***"هذا آخر ما يسر الله علينا جمعه من -حل ألفاظ القصيدة الهمزية في مدح خير البرية ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم-"***.

وقد اكتشفت وجود نسخة من هذا الكتاب مبتورة الآخر مجهولة المؤلف، ضمن مخطوطات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء، سُمِّيَت "شرح مغربي على همزية البصيري" وذلك لعدم معرفة مؤلفها، فقررت أن أجعل لهذا الكتاب عنوانا ثانيا إضافيا وهو "شرح الشبيهي على همزية البصيري". وقصدت بذلك التبرك بِقِران اسم الشبيهي باسم هذه القصيدة الرفيعة الباهرة في مدح سيدنا محمد ﷺ، شملنا الله وصاحبها وشرَّاحها برحمته تعالى وحسن ثوابه وشفاعة سيدنا محمد ﷺ.

قسمت كتاب " ***حل ألفاظ*** **القصيد الهمزية في مدح خير البرية**" في فهرسة، تشتمل على تقديم المؤلف لكتابه، وتوطئة في فضل سيدنا محمد ﷺ، ثم جمعت في فصول، قبل الخاتمة، تفسير عدد من الأبيات[89] معقول، أطمع من الله أن يجعل فيها القبول، وأن ينفعنا بالصلاة والسلام على النبي الرسول. كما سردت القصيدة الهمزية كاملة في أول الكتاب، وجعلتها على شكل فهرس، حيث يتمكن القارء بكل سهولة من تحديد الفصل الذي يوجد فيه شرح بيت معين، مما ييسر البحث في الكتاب.

حاولت جهد المستطاع ترقيم النص، وهي مهمة من الصعوبة بما كان، حيث أن المخطوطات القديمة يندر فيها استعمال الفواصل والنقط. والترقيم حسب اجتهاد المحقق، يؤثر في المعنى المقصود من المؤلف إذا لم يُتحرى فيه بشكل رزين معقول، وبمنهجية ومنطق سليمين. وتبعا لذلك، أقدم اعتذاري المسبق للسادة العلماء ممن سوف يطالع الكتاب فيجد فيه فواصل أو نقط في غير محلها، فقد بدلت أقصى جهدي وفهمي المتواضعان في التحقق من المعاني واستشراف المقصود، وأجريت الترقيم حسب ذلك، وعلى ما أراه إيقاعا معقولا يضبط القراءة، والكمال لله عز جل.

وحين مقابلة النسخ وفي تحقيق النصوص المنقولة عن المراجع، حددت في الإحالة نوع

---

[89] اعتمدت في تقطيع الأبيات إلى صدر وعجز، شكل سردها في "المنح المكية"، ففي النسختين الثلاث كُتبت جل الأبيات بلا تقسيم.

الخطأ إذا وجد، فقسمته بين "خطأ نقل" و"خطأ نسخ"، ولو لم تجري العادة بذلك.

رجع سيدي يحيى في كتابة الآيات القرآنية إلى رواية ورش عن نافع، فرأيت من المفيد الإشارة في الإحالة إلى ذلك كلما كان اختلاف في اللفظ بين الروايات، فلا يقع في الارتياب القارئ غير المتمكن من هذا المجال. ومثال ذلك: كتابة المومنين بدون همزة على الواو والذيب عوض الذئب وبيس عوض بئس وتاس عوض تأس، فكذلك كتبها سيدي يحيى في النص وكتبتُها مثله، ولو أن المصحح الآلي في الكمبيوتر لا يتعرف عليها فيحسبها خطأ وهو المخطئ حقيقة.

وفي تحقيق الأحاديث النبوية الشريفة، اقتصرت على ذكر الإمام أو بعض الأئمة الذين أخرجوا الحديث الذي ارتكز عليه الشارح، وخصصت صحيح الإمام البخاري بزيادة تحديد الكتاب والباب، فالهدف هو تأكيد أو تصحيح المعلومة التي قال بها الشارح، والمواقع الإسلامية المتخصصة في علم الحديث متوفرة بشكل متعدد على شبكة الأنترنيت، وبالتالي يمكن للمهتم التوصل بكل سهولة ودقة إلى تفاصيل ما يهمه في هذا الباب.

وعلقت على بعض نصوص الأثر التي استشهد بها العلامة الشبيهي في مجال العلوم الدقيقة، تبعا لما وصل إليه العلم الحديث في ميادين الفيزياء والبيولوجيا وغيرهما من العلوم المضبوطة اصطلاحا، وقصدت بذلك تحيين المعلومات المتضمنة في المؤلف حسب ما بلغته العلوم الحديثة، فوجدتها موافقة تماما للكتاب والسنة الشريفة.

وبكرم من الله تعالى وتيسير وفضل وإحسان منه، فتح عز وجل عليَّ أنا العبد الجاهل، فنسب إليَّ تفسيرا إضافيا جديدا في ثلاث أبيات من القصيدة المباركة، يخالف بعض قول من سبقني من ساداتي العلماء الجهابذة الذين تناولوا نظم الإمام البُصيري، ويتعلق الأمر ببيت في الفصل الحادي عشر: "**بَيَّنَتـهُ تَوراتهمْ والأناجيـلُ**"، وببيتين في الفصل الرابع عشر أولهما: "**بألُوفِ البَطحاءِ يُجْفِلُها النِّيلُ**"، والثاني: "**لاحَ بالدَّهْنَوَيْنِ بَدرٌ لـها**". فلله الحمد والشكر على جميل عطائه ورفيع مِنَّته.

أضفت بين عارضتين هكذا []، ما أراه مناسبا للزيادة في تبيان النص أو ما وجب تصحيحه، بالرجوع إلى النصوص الأصلية المنقولة والمحال عليها. كما ضبطت الأقوال المنقولة عن "المنح المكية" قدر المستطاع، وأحلت على النص الأصلي حتى في حالة سهو المؤلف عن ذلك، ولربما لم يكن سهوا في جميع الحالات ولكن لمعرفة الأمر مسبقا من قبل

سيدي يحيى دون الرجوع للشيخ الهيتمي. ومع ذلك فقد أوردت الإحالات الضرورية، فللشيخ الهيتمي رحمه الله قصب السبق على كل حال. والغاية من هذا المجهود الإضافي، تبيان الاجتهاد الشخصي لسيدي يحيى صافيا، ولا شك انه قصد المؤلِّف من عمله، فسبحان الذي لا يسهو.

وعملت على تسطير مفردات وجمل النظم المراد شرحها أو إعرابها، مزيدا للتوضيح وتسهيلا للقراءة.

لقد قررت بعون الله تعالى، كما فعلت ذلك سابقا مع كتاب "الموسوم الوجيه بأعلام آل الشبيه"، أن أصدر هذا الكتاب في طبعة ورقية، وأن أجعله كذلك مفتوحا للتحميل المجاني عبر الأنترنيت، فكفاه مئتين وخمسين سنة من الاحتجاب وقد حان الوقت، بإذن الله تعالى، أن يخرج مؤلف العلامة سيدي يحيى الشبيهي إلى دائرة الأضواء حتى يستفاد مما فيه من علوم، كتب الله جل وعلا لنا وله الأجر والثواب، وتقبله عملا خالصا لوجهه العظيم، ومحبة في نبيه الرسول الكريم، عليه وعلى آله ما لا حصر له من الصلاة والتسليم، و رَضي تعالى عن ساداتنا صحابته عظام الشأن والتكريم، وتجاوز بفضله عن أمة الإسلام فهو الرحمان الرحيم، وجمعنا بمن سلف من المؤمنين الصالحين في جنان النعيم.

قال العلامة سيدي يحيى الشبيهي في توطئة كتابه، وأقول معه:
"نسأل الله العظيم، أن يمن علينا بفضله العميم، فنكون من رفقاء هذا النبي الكريم، وتحت ظل رايته وفي زمرة حزبه الجسيم، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير. وأسأل من ذوي الألباب، الواقفين على هذا الكتاب، النظر إليه بعين الرضى والصواب، والتماس ما يحتاج إليه خطاه من الجواب، ولهم الأجر من الله وجزيل الثواب".
اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين.

ب- القصيدة الهمزية

كيفَ تَرقى رُقِيَّكَ الأنبياءُ --- يا سماءً ما طاوَلَتْها سَماء	1	الفصل الأول
لَمْ يُساوُوكَ في عُلاكَ وقد حَا --- لَ سَنى منكَ دونَهُم وسَناء	2	
إنما مَثَّلُوا صِفاتِكَ للنا --- سِ كما مَثَّلَ النجومَ الماء	3	
أنتَ مِصباحُ كل فَضلٍ فما تَصْ --- دُرُ إلا عن ضَوئكَ الأَضْواء	4	
لَكَ ذَاتُ العُلومِ مِن عالِمِ الغَيْ --- بِ ومِنها لآدَمَ الأَسْماء	5	
لَم تَزَل في ضَمائِرِ الكَوْنِ تُختا--- رُ لكَ الأُمَّهاتُ والآباء	6	
ما مَضت فترةٌ من الرُّسُلِ إلا --- بَشَّرَت قومَها بكَ الأنْبياء	7	
تَتَباهَى بكَ العُصورُ وتسمو --- بكَ عَلْياءُ بعدها عَلْيَاء	8	
وبَدَا للوُجودِ منكَ كَريمٌ --- مِن كريمٍ آباؤُهُ كُرَماء	9	
نَسَبٌ تحسبُ العُلا بِحُلاهُ --- قَلَّدَتهَا نُجومَهَا الجَوْزاء	10	
حَبَّذَا عِقدُ سُؤْدَدٍ وفَخارٍ --- أَنتَ فيهِ اليَتيمَةُ العَصْماء	11	
ومُحَيّاً كالشمس مِنكَ مُضِيءٌ --- أَسفَرَت عنه لَيلَةٌ غَرّاء	12	
لَيلةُ المَولِدِ الذي كان للدِّينِ --- سُرُور بيومهِ وازْدِهاء	13	
وتَوالَت بُشرى الهَواتِفِ أن قَد --- وُلِدَ المُصطَفى وحَقَّ الهَناء	14	
وتَداعَى إِيوانُ كِسرَى وَلَوْلَا --- آيةٌ منكَ ما تَداعَى البناء	15	
وغَدَا كُلُّ بَيْتِ نارٍ وفيهِ --- كُرْبَةٌ مِن خُمُودِها وبَلاء	16	
وعُيونٌ للفُرْسِ غارَت فَهَل كَا --- نَ لِنِيرَانِهِم بِهَا إِطْفاء	17	
مَوْلِدٌ كان منهُ في طالِعِ الكُفْ --- رِ وَبَالٌ عَلَيهِمُ وَوَباء	18	
فَهَنيئاً منه لآمنةَ الفَضْ --- لُ الذي شُرِّفَت به حَوّاء	19	
مَن لِحَوَّاءَ أنَّهَا حَمَلَت أَحْ --- مَداً وأنها بِهِ نُفَســـاء	20	
يَومَ نَالَت بِوَضعِهِ ابْنَةُ وَهْبٍ --- مِن فَخَارٍ ما لَم تَنَلهُ النِّساء	21	
وأَتَت قَوْمَهَا بِأَفْضَلَ مِمّا --- حَمَلَت قَبْلُ مَريَمُ العَذْراء	22	
شَمَّتَتْهُ الأَمْلاكُ إذْ وَضَعَتهُ --- وَشَفَتْنَا بِقَوْلِهَا الشَّفَّاء	23	الفصل الثاني
رافِعاً رَأسَهُ وفي ذلك الرَّفْ --- عِ إلى كُلِّ سُؤْدَدٍ إيمـاء	24	
رَامِقاً طَرْفُهُ السَّماءَ ومَرْمَى --- عَيْنِ مَن شَأنُهُ العُلُوُّ العَلاء	25	
وتَدَلَّت زُهْرُ النُّجومِ إليهِ --- فَأَضَاءَت بِضَوْئها الأَرْجاء	26	
وتَراءَت قُصورُ قَيْصَرَ بِالرُّو --- مِ يَراها مَن دارُهُ البَطْحاء	27	
وبَدَت في رَضاعِهِ مُعْجِزاتٌ --- ليسَ فيها عَنِ العُيونِ خَفاء	28	
إذْ أَبَتهُ لِيُتمِهِ مُرْضِعـاتٌ --- قُلْنَ ما في اليَتيمِ عَنَّا غَناء	29	
فَأَتَتهُ مِن آلِ سَعْدٍ فَتَاةٌ --- قَد أَبَتْهَا لِفَقْرِها الرُّضَعاء	30	
أَرْضَعَتْهُ لِبانَها فَسَقَتْهَا --- وبَنِيهَا أَلْبانَهُنَّ الشَّـاء	31	
أَصْبَحَت شُوَّلاً عِجافاً وأَمْسَت --- ما بها شائِلٌ ولا عَجْفاء	32	
أَخْصَبَ العَيشُ عِندها بَعدَ مَحْلٍ --- إذْ غَدَا للنَّبِيِّ مِنها غذاء	33	
يَا لَها مِنَّةً لَقَد ضُوعِفَ الأَجْ --- رُ عَليها مِن جِنسِها والجَزاء	34	
وإذَا سَخَّرَ الإلَهُ أُناسـاً --- لِسَعيدٍ فَإنَّهُمْ سُعَداء	35	
حَبَّةٌ أَنْبَتَت سَنابِلَ والعَصْ --- فُ لَدَيهِ يَسْتَشْرِفُ الضُّعَفاء	36	
وأَتَت جَدَّهُ وقد فَصَلَتهُ --- وبها مِن فِصالِهِ البُرَحاء	37	
إِذْ أحَاطَت به مَلائِكَةُ اللهِ --- فظَنَّت بِأَنَّهُم قُرَنـاء	38	
وَرَأَى وَجدَها بِهِ ومِن الوَجْ --- دِ لَهيبٌ تَصْلَى بِهِ الأَحْشاء	39	
فارَقَتهُ كُرْهـاً وكانَ لَدَيْها --- ثاوِيـاً لا يُمَلُّ منه الثَّواء	40	
شُقّ عن قلبِهِ وأُخرِجَ منهُ --- مُضغَةٌ عند غَسلِهِ سَوْداء	41	
خَتَمَتهُ يُمنَى الأَمِينِ وقد أُو --- دِعَ ما لم يُذِع له أَنْباء	42	
صانَ أسرارَهُ الخِتامُ فلا الفَضُّ --- مُلِمٌ بهِ ولا الإِفْضاء	43	
أَلِفَ النُّسْكَ والعِبادَةَ والخَلْ --- وَةَ طِفلاً وهَكَذا النُّجباء	44	
وإذا حَلَّتِ الهِدايَةَ قَلباً --- نَشِطَت للعبادةِ الأَعْضاء	45	

الفصل الثالث	46	بَعَثَ اللهُ عندَ مَبْعَثِهِ الشُّهْ --- بَ حِرَاساً وضاقَ عنها الفَضاء
	47	تَطرُدُ الجِنَّ عن مَقاعِدَ للسَّمْ --- عِ كما تَطرُدُ الذِّيَابَ الرُّعاء
	48	فَمَحَت آيةَ الكهانةِ آيا --- تٌ مِن الوَحْيِ ما لهن انْمِحاء
	49	ورَأَتهُ خَديجةٌ والتُّقَى والزُّ --- هدُ فيهِ سَجِيَّةٌ والحَياء
	50	وأتاها أنَّ الغَمامةَ والسَّرْ --- حَ أظَلَّتهُ مِنهُما أَفْيـاء
	51	وأحاديثُ أن وعدَ رسول اللهِ --- بالبعث حان منه الوفاء
	52	فَدَعتهُ إلى الزَّواجِ وما أَحْ --- سَنَ ما يَبْلُغُ المُنَى الأَذْكِياء
	53	وأتـاهُ في بَيتِها جَبْرَئِيلٌ --- وَلِذِي اللُّبِّ في الأمورِ ارْتِياء
	54	فَأماطَتْ عنها الخِمارَ لِتَدرى --- أَهُوَ الوَحْيُ أم هُوَ الإِغْماء
	55	فاخْتَفَى عِنْدَ كَشفِها الرأسَ جبرِ --- لُ فما عادَ أو أُعيدَ الغِطاء
	56	فَاسْتَبَـانَت خديجةٌ أنه الكنـ --- زُ الذي حاوَلَته والكِيمِيـاء
	57	ثم قامَ النبيُّ يدعو إلى اللهِ --- وَفِي الكُفرِ نَجْدَةٌ وإبـاء
	58	أُمَماً أُشرِبَتِ قُلوبُهُمُ الكُفْ --- رَ فَدَاءُ الضَّلالِ فيهمْ عَياء
	59	وَرَأَينا آياتِهِ فاهْتَدَيْنا --- وإذا الحَقُّ جاءَ زالَ المِرآء
	60	رَبِّ إنَّ الهُدَى هُداكَ وآيَا --- تُكَ نُورٌ تَهدِي بها مَن تَشاء
	61	كم رَأَيْنا مـا ليس يَعْقل قد أُلْ --- هِمَ مـا ليس يُلْهَمُ العُقَلاء
	62	إذْ أَبَى الفيلُ ما أَتَى صاحِبُ الفيـ --- لِ ولَم يَنْفَعِ الحِجَا والذَّكاء
	63	والجَماداتُ أفْصَحَت بالذي أُخْ --- رِسَ عنه لِأَحْمَدَ الفُصَحاء
	64	وَيْـحَ قَوْم جَفَوْا نَبِيّاً بأرضِ --- أَلِفَته ضِبَابُهَا والظِّباء
	65	وَسَلَوْهُ وحنَّ جِذْعٌ إليهِ --- وَقَلَوْهُ ووَدّهُ الغُرَباء
الفصل الرابع	66	أَخْرَجُوهُ منها وآوَاهُ غارٌ --- وحَمَتهُ حَمامَةٌ وَرْقـاء
	67	وكَفَتْهُ بِنَسْجِها عَنكبوتٌ --- ما كَفَتْهُ الجُنانَةُ الحَصْداء
	68	واخْتَفى مِنهُمُ على قُرْبِ مَرْآ --- هُ ومِن شِدَّةِ الظُّهورِ الخَفاء
	69	وَنَحَا المُصطفى المَدينةَ واشْتا --- قَت إليهِ مِن مَكَّةَ الأَنْحاء
	70	وتَغَنَّت بِمَدحِهِ الجِنُّ حتى --- أطربَ الإنسَ منهُ ذاكَ الغِناء
	71	واقْتَفَى إِثْرَهُ سُراقَةُ فَاسْتَهْ --- وَتْهُ في الأرضِ صَافِنٌ جَرْداء
	72	ثُم نَادَاهُ بعدَ ما سِيمَتِ الخَسْـ --- فَ وقد يُنْجِدُ الغَريقَ النِّداء
	73	فَطَوَى الأرضَ سائرا والسماوا --- تَ العُلى فوقَها له إسْراء
	74	فَصِفِ اللَّيلَةَ التي كان للمُخْـ --- تارِ فيها على البُراقِ اسْتِواء
	75	وتَرَقَّى به إلى قابِ قَوْسَيْـ --- نِ وتلك السِّيَادَةُ القَعْساء
	76	رُتَبٌ تَسْقُطُ الأمانِيُّ حَسْرَى --- دُونَها ما وَرَاءَهُنَّ وَراء
	77	ثُمَّ وَافَى يُحَدِّثُ الناسَ شُكراً --- إذ أَتَتْهُ مِن ربهِ النَّعْماء
	78	وَتَحَدَّى فارْتابَ كل مُرِيبِ --- أَوَ يَبْقَى مع السُّيُولِ الغُثاء
	79	وَهْوَ يَدعُو إلى الإلهِ وإن شَقَّ --- عليهِ كُفْرٌ بهِ وَازْدِراء
	80	ويَدُلُّ الوَرَى على اللهِ بالتَّوْ --- حِيدِ وَهْوَ المَحَجَّةُ البَيْضاء
	81	فَبِمَا رَحْمَةٍ مِن اللهِ لَانَتْ --- صَخرةٌ مِن إبائِهِمْ صَمـاء
	82	واسْتَجابَت لهُ بِنَصرٍ وفَتْحٍ --- بعدَ ذاكَ الخَضْراءُ والغَبْراء
	83	وأَطاعَت لِأَمرِهِ العَرَبُ العَرْ --- باءُ والجَاهِلِيَّةُ الجَهْلاء
	84	وتَوَالَت للمُصطفَى الآيةُ الكُبْ --- رَى عَليهِمْ والغَارَةُ الشَّعْواء
	85	وإذَا مَـا تَلَا كِتاباً مِن اللهِ --- تَلَتْـهُ كَتِيبَـةٌ خَضْراء
	86	وكَفاهُ المُستَهزِئينَ وكَمْ سَا --- ءَ نَبياً مِن قَومِهِ اسْتِهزاء
	87	ورَماهُم بِدَعوَةٍ مِن فِناءِ الـ --- بَيْتِ فيها للظَّالِمينَ فَنـاء

خَمسَةٌ كُلُّهُمْ أُصِيبُوا بِداءٍ --- والرَّدَى مِن جُنودِهِ الأَدْواء	88	الفصل الخامس
فَدَهَى الأَسْوَدَ بْنَ مُطَّلِبٍ أَيُّ --- عَمىً مَيِّتٌ بِهِ الأَحْيـاء	89	
ودَهَى الأسودَ بْنَ عبدِ يَغُوثٍ --- أنْ سَقاهُ كأسَ الرَّدَى اسْتِسْقاء	90	
وأَصابَ الوَلِيدَ خَدْشَـةُ سَهْمٍ --- قَصَّرَت عَنها الحَيَّةُ الرَّقْطاء	91	
وقَضَت شَوْكَةٌ على مُهْجَة العا --- صِي فللهِ الفَقْعَةُ الشَّوْكاء	92	
وعَلَى الحارِثِ القُيُوحُ وقد سَا --- لَ بها رأسُهُ وَسَاءَ الوِعاء	93	
خمسةٌ طُهِّرَت بِقَطْعِهِمُ الأرْ --- ضُ فَكَفَّ الأذى بِهِمْ شَلَّاء	94	
فُدِيَت خَمسةُ الصَّحيفَةِ بالخَمْ --- سَةِ إن كان للكِرامِ فِداء	95	
فِتْيَةٌ بَيَّتوا على فِعْلِ خيرٍ --- حَمِدَ الصُّبحُ أمرَهُ والمَساء	96	
يا لَأَمْرٍ أتاهُ بَعْدَ هِشامٍ --- زَمْعَةٌ إنهُ الفَتى الأَتَّاء	97	
وزُهَيْرٌ والمُطْعِمُ بنُ عَدِيّ --- وأبو البَخْتَرِيِّ مِن حيثُ شَاؤُوا	98	
نَقَضُوا مُبْرَمَ الصَّحيفَةِ إذْ شَدَّ --- تْ عليهِ مِنَ العِدا الأَنْداء	99	
أَذْكَرَتْنا بأَكْلِها أكْلَ مِنْسَا --- ةِ سُليمانَ الأَرَضَةُ الخَرْساء	100	
وبها أَخْبَرَ النبيُّ وكَم أَخْ --- رَجَ خَبْأً لهُ الغُيُوبُ خِباء	101	
لا تَخَلْ جانبَ النَّبيِّ مُضاماً --- حِين مَسَّتهُ مِنهُمُ الأَسْواء	102	
كُلُّ أمرٍ نابَ النَّبِيِّينَ فالشِّدَّ --- ةُ فيه محمودةٌ والرَّخاء	103	
لَوْ يَمَسُّ النُّضَارَ هُونٌ من النَّا --- رِ لَمَا اخْتِيرَ للنُّضَارِ الصِّلاء	104	
كَمْ يَدٍ عَن نَبيِّهِ كَفاها اللهُ --- وفي الخَلْقِ كَثْرَةٌ واجْتِراء	105	
إِذْ دَعا وَحْدَهُ الأنامَ فأمسَتْ --- منهُ في كلِّ مُقْلَةٍ أَقْذاء	106	
هَمَّ قَومٌ بِقَتلِهِ فأَبَى السَّيْ --- فُ وفـاءً وَفَاءَتِ الصَّفْواء	107	
وأَبُو جَهْلٍ إذ رَأَى عُنُقَ الفَحْ --- لِ إليهِ كأنَّهُ العَنْقاء	108	
واقْتَضاه النبي دَيْنَ الإراشِيِّ --- وقد سـاء بيعه والشِّراء	109	الفصل السادس
ورَأى المصطفى أتاهُ بما لم --- يَنْجُ منه دون الوفاء النَّجَّاء	110	
هو ما قد رآه من قبل لكن --- ما على مثله يُعَدُّ الخَطَاء	111	
وأعدت حمالة الحطب الفِهْ --- رَ وجاءَتْ كأنَّها الورقاء	112	
يوم جاءت غَضْبَى تقول أَفِي مِثْ --- لِيَ من أحمدٍ يُقال الهجاء	113	
وتولّت وما رأته وَمِنْ أَيِ --- نَ ترى الشمسَ مقلةٌ عَمياء	114	
ثمَّ سَمَّت له اليهوديةُ الشَّا --- ةَ وكم سامَ الشِّقْوَةَ الأشقياء	115	
فأذاعَ الذِّراعُ ما فيه من شر --- بنطق إخفاؤُهُ إِبْداء	116	
وبخُلْقٍ من النبي كريمٍ --- لم تُعاقب بجَرْحِها العَجْماء	117	
مَنَّ فضلا على هوازن إذ كا --- ن له قَبْلَ ذاك فيهم رَباء	118	
وأَتى السَّبِيُّ فيه أختُ رَضاعٍ --- وَضَعَ الكُفرُ قَدْرَها والسِّباء	119	
فحباها بـرّاً توهَّمتِ النا --- سُ به أنَّما السِّباءُ هِداء	120	
بَسطَ المصطفى لها من رداءٍ --- أيُّ فَضلٍ حواه ذاك الرِّداء	121	
فَغَدَت فيه وهْيَ سيِّدةُ النِّسـ --- وة والسَّـيِّداتُ فيه إماء	122	
فتنزَّه في ذاتِه ومَعانيـ --- ـه استماعاً إنْ عزَّ منها اجتلاء	123	
واملأِ السَّمع من مَحاسِنَ يُملي --- ها عليك الإنشادُ والإنشاء	124	
كل وصفٍ له ابْتَدأْتَ به استوْ --- عَبَ أخبارَ الفضل منه ابتداء	125	
سيدٌ ضِحكهُ التبسمُ والمش --- يُ الهُوَيْنا ونومهُ الإغْفاء	126	
ما سوى خُلُقِهِ النَّسيم ولا غيـ --- رَ مُحياهُ الروضة الغناء	127	
رحمـةٌ كلهُ وحزمٌ وعـزمٌ --- ووَقار وعِصمةٌ وحياءُ	128	
لا تَحُلُّ البأساءُ منه عُرى الصَّبْـ --- ـرِ ولا تستخِفُّهُ السَّرَّاء	129	

الفصل السابع	130	كَرُمت نفسه فلا يخطرُ السُّو --- ءُ على قلبه ولا الفَحشاء
	131	عَظُمت نِعمـةُ الإله عـليه --- فاسْتُقِلَّت لذِكرِه العُظماء
	132	جَهِلت قومه عليه فأَغضى --- وأخو الحِلم دَأْبُهُ الإغضاء
	133	وسِعَ العَالمين عِلما وحِلما --- فهو بحر لم تُعْيِهِ الأَعباء
	134	مستقِلٌّ دُنياكَ أن يُنسَبَ الإمْ --- ساكُ منها إليه والإعْطاء
	135	شمسُ فضلِ تحققَ الظّنُّ فيه --- أنه الشمسُ رفعةً والضِّياء
	136	فإذا ما ضحى مَحا نوره الظلَّ --- وقد أثبتَ الظِّلالَ الضُّحاء
	137	فكأن الغَمامة اسْتَوْدَعَتْهُ --- مَن أظلَّت من ظلِّهِ الدُّفَفاء
	138	خَفِيَت عنده الفَضائلُ وانْجا --- بَت بهِ عن عُقولنا الأهواء
	139	أَمَعَ الصبح للنجومِ تَجَلٍّ --- أم مع الشَّمسِ للظلامِ بَقاء
	140	مُعجزُ القولِ والفِعالِ كريمُ --- الخَلْقِ والخُلْقِ مُقسِطٌ مِعْطاء
	141	لا تقِس بالنبيِّ في الفضلِ خَلقا --- فهو البحرُ والأنامُ إضاء
	142	كلُّ فَضلِ في العالمينَ فَمن فضـ --- ـلِ النبيِّ استعارهُ الفُضَلاء
	143	شُق عن صدره فشُق له البدْ --- ـرُ ومن شرط كُلِّ شرطٍ جزاء
	144	ورمى بالحصى فأقْصَدَ جيشا --- ما العصا عنده وما الإلقاء
	145	ودَعا للأنـامِ إذ دَهِمتـهم --- سَنَةٌ مِن مُـحولـها شَهْبـاء
	146	فاستَهلَّت بالغَيث سبعةَ أيا --- مِ عـليهم سَـحابةٌ وَطْـفاء
	147	تتحرَّى مواضعَ السَّقيِ والزَّ --- عِي وحيثُ العِطاشُ تُوهَى السِّقاء
	148	وأتى الناسُ يشتكون أذاها --- ورَخـاءٌ يُؤذي الأنـامَ غَلاء
	149	فدعا فانجلى الغمامُ فَقُل في --- وَصفِ غيثٍ إقلاعهُ استسقاء
الفصل الثامن	150	ثُم أثْرى الثّرى فَقَرَّت عُيونٌ --- بِقُراها وأُحْيِيَت أَحـياء
	151	فتَرى الأرضَ غِبَّهُ كسماءٍ --- أشرقت من نجومها الظَّلماء
	152	تُخجِلُ الدُّرَّ واليَواقيتَ من نَوْ --- رِ رُباها البيضاءُ والحمراء
	153	لَيتهُ خَصَّني برُؤيةِ وَجهٍ --- زال عن كُلِّ من رآه الشَّقاء
	154	مُسفِر يَلتقي الكَتيبَةَ بَسّا --- ماً إذا أسهَمَ الوُجوهَ اللِّقاء
	155	جُعلت مَسجدا له الأرضُ فاهتزَّ --- به للصلاةِ فيها حِراء
	156	مُظهرِ شجَّةَ الجـبين على البُرْ --- ءِ كما أظهرَ الهلالَ البَراء
	157	سُتِرَ الحُسْنُ منه بالحُسن فاعجبْ --- لجمـالٍ له الجَـمالُ وِقاء
	158	فهْوَ كالزهر لاحَ من سَجَفِ الأكـ --- ـمامِ والعودِ شُقَّ عنه اللِّحاء
	159	كاد أن يُغشيَ العيونَ سناً منـ --- ـه لِسرِ حَكَتهُ فيه ذُكاء
	160	صانه الحُسنُ والسكينةُ أن تُظـ --- ـهرَ فيـه آثـارَها البأسـاء
	161	وتَخالُ الوجوهَ إن قابلتهُ --- ألْبستها ألْوانَها الحِرباء
	162	وإذا شِمتَ بِشْرهُ ونَداهُ --- أذهلتكَ الأنوار والأنواء
	163	أو بتقبيلِ راحة كـان للّهِ --- وبـاللّهِ أخـذُها والعَـطاء
	164	تتَّقي بأسها الملوكُ وتحظى --- بالغِنى من نَـوالِها الفقراء
	165	لا تَسل سيْلَ جَوْدها إنما يَكْـ --- ـفيك مِن وَكْفِ سُحبها الأنداء
	166	دَرَّت الشاةُ حين مرَّت عليها --- فلها ثروةٌ بها ونَماء
	167	نبعَ الماءُ أثمرَ النخلَ في عا --- مٍ بها سبَّحت بها حَصاء
	168	أحيَت المُرْملينَ من موتِ جهدٍ --- أعوزَ القومَ فيه زادٌ وماء
	169	فتغدَّى بالصْاع ألفُ جياعٌ --- وتروَّى بالصاع ألفُ ظِماء

الفصل التاسع	170	ووفى قَدرُ بيضةٍ من نُضارٍ --- دَيْنَ سَلمانَ حين حان الوفاء
	171	كان يُدعى قِنّاً فأُعتِقَ لَمّا --- أينَعت من نخيلهِ الأَقْناء
	172	أفلا تَعذِرونَ سَلمانَ لَمّا --- أن عَرَتْهُ من ذِكرهِ العُرَواء
	173	وأزالت بلمسهـا كل داء --- أكبَرَتهُ أطِبَّةٌ رُؤسـاء
	174	وعيونٌ مرت بها وَهْيَ رُمدٌ --- فأرتها ما لم ترى الزَّرْقاء
	175	وأعـادت على قتادة عينا --- فهْيَ حتى مماتـه النَّجْلاء
	176	أو بِلَثمِ الـتُّراب مـن قَدَمٍ لا --- نَت حياءً من مَشيها الصَّفْواء
	177	مَوطِئ الأَخْمُص الذي منه للقَل --- ب إذا مَضجعِي أَقَضَّ وِطـاء
	178	حَظِيَ المسجدُ الحرامُ بمَمْشا --- ها ولم يَنسَ حَظَّهُ إِيلِياء
	179	وَرِمَت إذ رَمـى بها ظُلَمَ الليْ --- لِ إلى اللهِ خَوفهُ والرَّجاء
	180	دَمِيَت في الوغى لتُكسبَ طيـباً --- ما أراقت من الدَّمِ الشُّهداء
	181	فهي قُطبُ المحرابِ والحربِ كم دا --- رت عليها في طاعةٍ أَرْحاء
	182	وأراهُ لـو لـم يُسَكِّن بـها قَب --- لُ حِراءً ماجَتْ به الدَّأْماء
	183	عجباً للكفارِ زادوا ضلالا --- بالذي فيه للعقولِ اهتِداء
	184	والذي يَسألونَ منه كتابٌ --- مُنْزَلٌ قد أتاهـم وارتقاء
	185	أوَلَم يكفهم مـن اللهِ ذِكـرٌ --- فيه للناس رحمةٌ وشِفاء
	186	أعجز الإنسَ آيةٌ منه والجنَّ --- فهلَّا يأتي بِبَعضها البلغاء
	187	كلُّ يومٍ تُهدي إلى سامعيه --- معجزاتٍ من لَفظِهِ القُرّاء
	188	تتحلّى به المسـامعُ والأف --- واه فـهْوَ الحُلِيُّ والحَلْواء
	189	رقَّ لَفظاً وراق معنى فجاءتْ --- في حُلاها وحِلْيها الخَنساء
	190	وأرَتنـا فيه غَوامضَ فضلٍ --- رِقَّةٌ من زُلالِه وصَفاء
الفصل العاشر	191	إنما تُجتَلى الوجوهُ إذا ما --- جُليت عن مرآتها الأَصْداء
	192	سُورٌ منه أَشبهَت صُوراً مِنَّا --- ومِثلُ النَّظائرِ النُّظَراء
	193	والأقاويلُ عندهم كالتَّماثي --- لِ فلا يوهمَنَّكَ الخُطَباء
	194	كمْ أبانتْ آياتُـهَ من علومٍ --- من حروفٍ أبانَ عنها الهِجاء
	195	فهْيَ كالحَب والنَّوى أعجب الزُّرَّ --- اعَ منها سنابلٌ وزَكاء
	196	فَأَطالوا فيه التَّردُّدَ والرَّيْ --- بَ فقالوا سحرٌ وقالوا افْتِراء
	197	فَأَطالوا فيه التَّردُّدَ والرَّيْ --- بَ فقالوا سحرٌ وقالوا افْتِراء
	198	وإذا البيِّناتُ لم تُغن شيئاً --- فالتماسُ الهُدى بهنَّ عَناء
	199	وإذا ضَلتِ العُقولُ على عِل --- مٍ فَماذا تَقولُهُ النُّصَحاء
	200	قومَ عيسى عاملتمُ قومَ موسى --- بالذي عامَلَتكمُ الحُنَفاء
	201	صَدَّقـوا كُتُبكم وكَذَّبتمُ كُتْ --- ـبَهمُ إنَّ ذا لبيس البَواء
	202	لو جَحَدنا جُحودكمْ لاسْتوينا --- أوَ للحقِّ بالضَّلالِ استواء
	203	ما لكم إخوةَ الكتابِ أناساً --- ليس يُرعى للحق منكم إخاء
	204	يَحسدُ الأول الأخير وما زا --- لَ كذا المُحدَثون والقُدمـاء
	205	قد علِمتم بظُلمِ قابيل هابيـ --- لَ ومظلومُ الإخوةِ الأتقياء
	206	وسمعتُم بكَيدِ أبناءِ يعقو --- بَ أخاهُم وكُلُّهم صُلحـاء
	207	حين ألقَوهُ في غيابةِ جُبٍّ --- ورَمـوهُ بالإفكِ وهْوَ بَـراء
	208	فتأسَّوْا بمن مضى إذ ظُلِمتم --- فالتَّأسي للنَّفسِ فيه عَزاء
	209	أتُراكم وَفَيتم حين خانـوا --- أم تُراكم أحسنتمُ إذ أساؤوا
	210	بلْ تَمادتْ على التَّجاهُلِ آبا --- ءُ تَقَفَّتْ آثارَهـا الأَبنـاء

بَيَّنتهُ تَوراتهمْ والأناجيـ --- ـلُ وَهُمْ في جُحودهِ شُركاء	211	الفصل الحادي عشر
إنْ يَقولوا ما بَيَّنتهُ فما زا --- لتْ بها عن عُيونهم غَشواء	212	
أو يَقولوا قد بَيَّنَتْهُ فما لِلْ --- أُذنِ عمّا تَقولُهُ صـمّاء	213	
عرفـوهُ وأنكروهُ وظُلمـاً --- كَتمَتـهُ الشَّهادةَ الشُّهَـداء	214	
أوَ نـورُ الإلـهِ تُطفئُهُ الأفـ --- ـواهُ وَهْوَ الذي بهِ يُستضاء	215	
أوَلا يُنكـرونَ مَـنْ طَحَنَتـهمْ --- بِرَحاها عن أمرهِ الهَيجاء	216	
وكَساهمْ ثَوبَ الصَّغَارِ وقد طُلَّـ --- ـتْ دماءٌ منهم وصِينتْ دماء	217	
كَيفَ يَهدي الإلهُ مِنهُمْ قُلوباً --- حَشْوُها من حَبيبهِ البَغضاء	218	
خَبِّرونا أهلَ الكتابين من أيْـ --- ـنَ أتاكم تَثْليثُكم والبَداء	219	
ما أتى بالعَقيدَتينِ كتابٌ – واعتقادٌ لا نَصَّ فيهِ ادِّعاء	220	
والدَّعاوَى ما لم يُقيموا عليها --- بَيِّناتٍ أبْناؤها أَدعِياء	221	
لَيْتَ شعري ذِكرُ الثلاثةِ والوَا --- حِدِ نَقصٌ في عَدِّكُم أم نَماء	222	
كيفَ وَحَّدتمُ إلَـهاً نَفى التَّوْ --- حيدَ عنه الآباءُ والأَبناء	223	
أَإلـهٌ مُرَكَّبٌ ما سَمعنا --- بإلـهٍ لِذاتـهِ أجْـزاء	224	
أَلِكلٍّ منهم نصيبٌ مِن المُلْـ --- ـكِ فَهَلّا تَمَيَّزُ الأَنْصِباء	225	
أتَراهم لِحاجةٍ واضطِرارٍ --- خَلَطوها وَما بَغَى الخُلَطاء	226	
أَهُوَ الرّاكِبُ الحمـارَ فيا عَجْـ --- ـزَ إلـهٍ يَمَسُّهُ الإعْياء	227	
أم جميعٌ على الحمارِ لـقد جَلَّ --- حمارٌ بِجَمْعِهِم مَشّـاء	228	
أَمْ سواهُـم هوَ الإلهُ فما نِسْـ --- ـبَةُ عيسى إليهِ والانتماء	229	
أم أردتم بها الصِّفاتِ فَلِمْ خُصَّـ --- ـتْ ثُلاثٌ بوَصفِهِ وثُناء	230	
أَمْ هوَ ابنُ الإله ما شاركَتهُ --- في مَعاني النبوءة الأنبياء	231	الفصل الثاني عشر
قَتَلَتهُ اليهودُ فيما زَعمتمْ --- ولِأمواتكمْ بهِ إحيـاء	232	
إنَّ قولاً أطلقتموهُ على اللهِ --- تعالـى ذِكراً لَقولٌ هُذاء	233	
مِثْلَ مـا قالتِ اليهودُ وكلٌّ --- لَزِمتـهُ مقالـةٌ شَنْعـــاء	234	
إذْ هُمُ استَقرَأوا البَداءَ وَكمْ سا --- قَ وَبـالاً إليـهمُ اسْـتِقْراء	235	
وأَراهُمْ لم يجعلوا الواحد القهَّـ --- ـارَ في الخَلقِ فاعلاً ما يَشاء	236	
جوَّزوا النسخَ مِثلَ ما جوَّزواَ --- المَسخُ عليهم لو أنهم فُقَهاء	237	
هو إلا أن يُرفع الحُكمُ بالحُكمِ --- وخَلقٌ فيـه وأَمـرٌ سَـواء	238	
ولِحـُكمِ من الزمانِ انتهـاءٌ --- ولِحُكمِ مـن الزمـانِ ابتِداء	239	
فَسَلوهم أكانَ في مَسخِهم نَسْـ --- ـخٌ لآيات اللهِ أم إنشاء	240	
آبداءٌ في قولهم نَدِمَ اللهُ --- على خَلقِ آدم أم خَـطَاء	241	
أم مَحـا اللهُ آيةَ اللَّيلِ ذُكرا --- بعد سَهوٍ لِيُوجَدَ الإمْسـاء	242	
أم بدا للإلهِ في ذَبحِ إسحا --- قَ وقد كان الأمرُ فيه مَضاء	243	
أوَما حرَّمَ الإلهُ نكـاحَ الـ --- أُختِ بعد التحليل وهو الزِّناء	244	
لا تُكذِّب أن اليهود وقد زا --- غُوا عن الحقِّ معشرٌ لُؤَماء	245	
جَحَدوا المُصطفى وآمنَ بالطَّا --- غوتِ قومٌ هُم عندهم شُرَفاء	246	
قتلوا الأنبياءَ واتّخذوا العِجـ --- ـلَ ألا إنـهمْ هُـمُ السُّفَهـاء	247	
وسَفيهٌ مَن ساءهُ المَنُّ والسَّلْـ --- ـوَى وأرضاهُ الفومُ والقِثّاء	248	
مُلْئَت بالخَبيثِ مِنهمْ بُـطونٌ --- فَهْيَ نـارٌ طِباقُها الأَمْعـاء	249	
لو أُريدوا في حال سبتٍ بخيرٍ --- كان سَبتاً لديهمُ الأَربعاء	250	
هُـوَ يَومٌ مباركٌ قيلَ للتَّصْـ --- ـريفِ فيه مِن اليهودِ اعتِداء	251	
فبِظُلمٍ منهم وكُفرٍ عَدَتْهمْ --- طَيِّباتٌ في تَركِهِنَّ ابتِلاء	252	

خُدعوا بالمنافقينَ وهل يَنْ --- فَقُ إلا على السَّفيهِ الشَّقاء	253	الفصل الثالث عشر
واطمأنّوا بقولِ الأحزابِ إخوا --- نِهِمُ إنّنا لكم أولِياء	254	
حالفوهم وخالفوهم وَلم أدْ --- رِ لماذا تَخالفَ الحُلفاء	255	
أسلَموهم لأولِ الحَشرِ لا مي --- عادُهم صادقٌ ولا الإيلاء	256	
سَكَنَ الرُّعبُ والخرابُ قلوباً --- وبيوتاً مِنهم نَعاها الجَلاء	257	
وبيومِ الأحزابِ إذ زاغتِ الأبْ --- صارُ فيه وضلَّتِ الآراء	258	
وَتَعَدَّوْا إلى النبيِّ حُدوداً --- كان فيها عَليْهمُ العَدواء	259	
وَنَهَتهمْ وما انتهتْ عنه قومٌ --- فأُبيدَ الأمارُ والنَّهَّاء	260	
وَتعاطَوْا في أحمدَ مُنكَرَ القوْ --- لِ ونُطْقُ الأراذِلِ االعَوْراء	261	
كلُّ رِجسٍ يزيدهُ الخُلُقُ السُّو --- ءُ سَفاهاً والمِلَّةُ العَوجاء	262	
فَانظروا كَيْف كان عاقبةُ القَوْ --- مِ وما ساقَ للبَذِيِّ البَذاء	263	
وَجَدَ السَّبَّ فيه سَمّاً ولم يَدْ --- رِ إذ الميمُ في مواضعَ باء	264	
كان مِن فيهِ قَتلُهُ بيَديهِ --- فَهْوَ في سوءِ فِعلهِ الزَّبّاء	265	
أو هُوَ النَّحلُ قَرصُهُ يَجلِبُ الحَتْ --- فَ إليه وما له إنْكاء	266	
صَرعَت قومَهُ حَبائلُ بَغي --- مَدّها المكرُ منهمُ والدَّهاء	267	
فأتتهم خيلٌ إلى الحربِ تَختا --- لُ وللخيلِ في الوَغى خُيَلاء	268	
قَصَدت فيهمُ القَنا بقوافِي الطَّ --- عْنِ منها ما شانَها الإيطاءُ	269	
وأثارت بأرضِ مكةَ نَقعاً --- ظُنَّ أنَّ الغُدُوَّ فيها عِشاء	270	
أحْجَمت عِندهُ الحَجُونُ وأَكْدَى --- عِندَ إعطائِه القليلَ كُداء	271	
ودَهَت أوْجُهاً بها وبيوتاً --- مَلَّ منها الإكْفاءُ والإقْواء	272	الفصل الرابع عشر
فدَعَوْا أحلمَ البَريَّةِ والعَفْ --- وُ جوابُ الحليمِ والإغْضاء	273	
ناشَدُوهُ القُربى التي من قريشٍ --- قَطَعَتها التِّراتُ والشَّحْناء	274	
فَعَفا عَفْوَ قادرٍ لَم يُنَغِّص --- هُ عليهم بما مضى إغْراء	275	
وإذا القَطعُ كان للهِ والوَصلُ --- تَساوَى التَّقريبُ والإقْصاء	276	
وَسَواءٌ عليهِ فيما أتاهُ --- مِن سِواهُ المَلامُ والإطْراء	277	
وَلَو أن انتقامه لِهَوى النَّف --- سِ لَدامتْ قطيعةٌ وجَفاء	278	
قامَ للهِ في الأُمورِ فَأرضى اللهَ --- مِنهُ تَبايُنٌ وَوَفاء	279	
فِعلهُ كُلُّهُ جميلٌ وهل يَنْ --- ضَحُ إلا بما حَواهُ الإناء	280	
أطرَبَ السامعينَ ذِكرُ عُلاهُ --- يا لَراحٍ مالَت به النُّدَماء	281	
النَّبِيُ الأُمِّيُّ أَعلمُ مَن أسـ --- نَدَ عَنهُ الرُّواةُ والحُكَماء	282	
وَعَدَتْنِي ازديارَهُ العامَ وَجْنا --- ءُ ومَنَّت بوعدها الوَجْناء	283	
أَفَلا أنطوي لها في اقْتِضائِي --- هِ لِتُطوى ما بيننا الأَفْلاء	284	
بأُلوفِ البَطحاءِ يُجْفِلُها النِّيـ --- لُ وقد شَفَّ جَوفَها الإظماء	285	
أنكَرت مِصرَ فهْيَ تَنفِرُ ما لا --- حَ بِناءٌ لِعينِها أو خَلاء	286	
فأَفَضَّت على مَبارِكها بِرْ --- كَتُها فالبُوَيْبُ فالخضراء	287	
فالقِبابُ التي تَليها فبِيرُ النَّـ --- خْلِ والرَّكبُ قائلونَ رِواء	288	
وغَدَت أَيْلَةٌ وحِقلٌ وقَرٌّ --- خَلفَها فالمَغارةُ الفَيحاء	289	
فَعُيونُ الأَقْصابِ يَتبَعُها النَّبْ --- كُ وَتَتْلو كُفافَةُ العَوْجاء	290	
حاوَرَتها الحَوْراءُ شَوْقاً فيَنبو --- عُ فَرَقَّ اليَنبوعُ والحَوْراء	291	
لاحَ بالدَّهْنَوَيْنِ بَدرٌ لها بَعْ --- دَ حُنَيْنٍ وحَنَّتِ الصَّفْراء	292	

الفصل الخامس عشر	293	ونَضَت بَزْوَةٌ فَرابَغُ فالـجُحْ --- فَةُ عنها ما حاكَهُ الإنْضاء
	294	وأَرَتهـا الـخَلاصَ بِيرُ عَلِيٍّ --- فَعُقابُ السُّوَيْقِ فَالخَلَصاء
	295	فَهْيَ من ماءِ بيرِ عُسْفانَ أو مِن --- بَطْنِ مَرٍّ ظَمْآنَةٌ خَمْصاء
	296	قَرَّبَ الزَّاهِرَ المَساجدُ منها --- بخُطاها فالبُطْءُ مِنْها وَحاء
	297	هذهِ عِدَّةُ المنازِلِ لا ما --- عُدَّ فيهِ السِّمَاكُ والعَوَّاء
	298	فـكأنِّي بهـا أُرَحِّـلُ مِنْ مَكَّـ --- ـةَ شَمسـاً سَماؤُهـا البَيْداء
	299	مَوْضَعُ البَيْتِ مَهْبِطُ الوحيِ مَأْوَى الرُّ --- سْلِ حيثُ الأَنْوارُ حَيثُ البَهاء
	300	حَيثُ فَرْضُ الطَّوافِ وَالسَّعيُ والحَلْـ --- ـقُ ورَمْيُ الجِمارِ والإهْـداء
	301	حبّذا حبّذا مَعاهِدُ منهـا --- لم يُغَيِّرِ آياتِهِنَّ البَـلاء
	302	حَرَمٌ آمِنٌ وبيتٌ حَـرامٌ --- ومَقامٌ فيه المُقامُ تَـلاء
	303	فَقَضَيْنا بها مناسِكَ لا يُحْـ --- ـمَدُ إلا في فِعْلِهن القَضـاء
	304	ورَمَيْنـا بها الفِجاجَ إلى طَيْـ --- ـبَةَ والسَّيْرُ بالمَطايا رِمـاء
	305	فأصَبْنا عَن قَوْسِها غَرضَ القُرْ --- بِ وَنِعْمَ الخَبِيئَةُ الكَوْمـاء
	306	فَرَأَينا أَرضَ الحَبيبِ يَغُضُّ الطَّـ --- ـرْفَ منها الضِّياءُ واللَّأْلاء
	307	فَكَأَنَّ البَيْداءَ مـن حيث ما قَا --- بَلَتِ العَيْنَ رَوضَةٌ غَنَّـاء
	308	وكَأَنَّ البِقاعَ زَرَّت عليها --- طَرَفَيْها مُلاءَةٌ حَمراء
	309	وكأَنَّ الأَرجاءَ يَنشُرُ نَشْرَ الـ --- ـمِسْكِ فيها الجَنوبُ والجِرْبِياء
	310	فإذا شِمْتَ أو شَمَمْتَ رُباها --- لاحِ منها بَرقٌ وفاحَ كِباء
	311	أَيَّ نورٍ وأَيَّ نَوْرٍ شَهِدنـا --- يَومَ أَبدَت لنا القِبابَ قُبـاء
	312	قَرَّ مِنْها دَمعي وفَرَّ اصْطِبارِي --- فدُموعِي سَيْلٌ وصَبْرِي جُفاء
الفصل السادس عشر	313	فَتَرى الرَّكْبَ طائرينَ من الشَّوْ --- قِ إلى طَيْبَةٍ لَهُمْ ضَوْضاء
	314	فَـكَأَنَّ الـزُّوَّارَ ما مسَّتِ البَأْ --- ساءُ منهم خَلْقاً ولا الضَّرّ
	315	كلُّ نَفسٍ لها ابتهالٌ وسُؤْلٌ --- ودُعاءٌ ورَغْبَةٌ وابْتِغاء
	316	وزَفيرٌ تَظُنّ منهُ صُدوراً --- صادِحاتٍ يَعْتادُهُنَّ زُقاء
	317	وبُكاءٌ يُغْرِيهِ بالعَيْنِ مَدٌّ --- ونَحيبٌ يَحُثُّهُ استِعْلاء
	318	وجُسومٌ كَأَنَّما رَحَضَتْها --- مِن عَظيمِ المَهابَةِ الرُّحَضاء
	319	ووُجوهٌ كأنَّما ألبَسَتها --- مِن حَياءٍ ألوانَها الحِرْباء
	320	ودُموعٌ كأنَّما أرسَلَتها --- مِن جُفونٍ سَحابةٌ وَطْفاء
	321	وحَطَطْنا الرِّحالَ حَيثُ يُحَطُّ الـ --- ـوِزْرُ عَنَّا وتُرفعُ الحَوْجاء
	322	وقَـرَأنا السَّلامَ أكرمَ خَلْقِ اللهِ --- مِن حَيْثُ يُسمعُ الإقْراء
	323	وذَهَلنـا عِندَ اللِّقاءِ وَكَمْ أَذْ --- هَلَ صَبًّاً مِن الحبيبِ لِقـاء
	324	ووَجَمْنـا مِن المَهابَةِ حتّى --- لا كَـلامٌ ولا إيمـاء
	325	وَرَجَعنا وللقَلوبِ التفاتاتٌ --- إليه وللجُسومِ انْثِنـاء
	326	وسَمَحنا بِما نُحِبُّ وقد يَسـ --- ـمَحُ عِنْدَ الضَّرورَةِ البُخَلاء
	327	يا أبا القاسِمِ الذي ضِمْنَ إقْسا --- مِي عليهِ مَدحٌ له وثَناء
	328	بالـعلومِ الـتي عَلَيك مِنَ اللهِ --- بـلا كاتبٍ لها إملاء
	329	وَعَلِيٍّ لَمَّـا تَفَلْتَ بِعَينَيْـ --- ـهِ وَكِلْتاهُمـا معاً رَمْداء
	330	فَغدا ناظراً بعَيْنَيْ عُقابٍ --- في غَزاةٍ لها العُقابُ لِواء
	331	وبرَيحانَتَينِ طيبُهُما مِنـ --- ـكَ الذي أَوْدِعَتهُما الزَهْراء
	332	كُنتَ تُؤوِيهِما إليكَ كما آ --- وَتْ مِنَ الخَطِّ نُقْطَتَيْها اليَاء

مِن شَهيدَيْنِ ليس مُنسيني الطَّفُّ --- مُصابَيْهِما ولا كَرْبَلاء	333	الفصل السابع ع
ما رَعى فيهما ذِمامَكَ مَرْؤو --- سٌ وقد خانَ عَهدَكَ الرُّؤَساء	334	
أبدلوا الوُدَّ والحَفيظَةَ في القُرْ --- بَى وأبدت ضِبابَها النَّافِقاء	335	
وقَسَت منهُمُ قلوبٌ على مَن --- بَكَتِ الأرضُ فَقْدَهمْ والسَّماء	336	
فَابْكِهِمْ ما اسْتَطَعْتَ إنَّ قليلاً --- في عَظيمٍ مِنَ المُصابِ البُكاء	337	
كُلُّ يَومٍ وكُلُّ أرضٍ لِكَرْبِي --- مِنهمُ كَرْبَلاءُ وعَاشُوراء	338	
آل بَيْتِ النبيِّ إن فُؤادي --- ليس يُسْلِيهِ عنكمُ التَّأْسآء	339	
غَيْرَ أنِّي فَوَّضتُ أمري إلى اللهِ --- وتَفْوِيضِيَ الأُمورَ بَراء	340	
رُبَّ يَومٍ بكَربلاءَ مُسيءٍ --- خَفَّفَتْ بعضَ وِزرِهِ الزَّوْراء	341	
والأَعادي كأَنَّ كُلَّ طَريحٍ --- مِنهُمُ الزِّقُّ حُلَّ عَنهُ الوِكاء	342	
آلَ بيت النبيِّ طِبْتُمْ فَطابَ الـ --- مَدحُ لي فِيكُم وطابَ الرِّثاء	343	الفصل الثامن عشر
أنَا حَسَّانُ مَدحِكُم فَإذا نُحْـ --- تُ عَلَيكُمْ فَإنَّني الخَنْساء	344	
سُدتُم النّاسَ بالتُّقَى وسِواكُم --- سَوَّدَتهُ البَيضاءُ والصَّفراء	345	
وبِأصحابكَ الذينَ هُم بعْـ --- دَكَ فينا الهُداةُ والأَوْصِياء	346	
أحْسَنوا بَعدَكَ الخِلافَةَ في الدِّيـ --- نِ وَكُلٌّ لما تَوَلَّى إزاء	347	
أغنيـــاءُ نَزاهَةً فُقراءُ --- عُلمـــاءُ أئمَّةٌ أُمَراء	348	
زَهِدوا في الدُّنيا فما عُرِفَ المَيْـ --- لُ إليها مِنهمْ ولا الرَّغْباء	349	
أرخَصوا في الوَغى نُفُوسَ مُلوكٍ --- حارَبوها أَسْلابُها أَغْلاء	350	
كُلُّهُمْ في أحكامِهِ ذو اجْتِـهادٍ --- وَصَوابٍ وَكُلُّهُمْ أكْفـاء	351	
رَضِيَ اللهُ عنهمْ ورَضوا عَنْـ --- هُ فَأنَّى يَخطو إليهِمْ خَطآء	352	
جاءَ قَومٌ مِن بعدِ قومٍ بِحَقٍّ --- وعلى المَنهَجِ الحَنيفِيِّ جاؤوا	353	
ما لِمُوسى ولا لِعيسى حَوارِيُّـ --- ونَ في فَضلِهِمْ ولا نُقَباء	354	
بِأَبِي بَكْرٍ الذي صَحَّ للنّا --- سِ بهِ في حَياتك الاقتِداء	355	
والمُهَدِّي يومَ السَّقيفَةِ لمّا --- أَرجَفَ النّاسُ إنهُ الدَّأْداء	356	
أنقَذَ الدِّينَ بعدَ ما كان للدِّيـ --- نِ على كُل كُربَةٍ إشْفاء	357	
أنفَقَ المالَ في رِضاكَ ولا مَنٌّ --- وأعطى جَمّاً ولا إكْداء	358	
بِأبِي حَفْصٍ الذي أظْهَرَ اللهُ --- به الدّينَ فَارْعَوَى الرُّقَبـاء	359	
والذي تَقْرُبُ الأَبـاعِدُ في اللهِ --- إليهِ وَتَبْعُدُ القُرَبـــاء	360	
عُمَرُ بنِ الخَطَّابِ مَن قَولهُ الفَصْـ --- لُ ومَن حُكمُهُ السَّوِيُّ السَّواء	361	
فَرَّ مِنهُ الشَّيطـانُ إذ كانَ فارُو --- قاً فَلِلنَّـارِ مِن سَناهُ انْبِراء	362	

الفصل التاسع عشر	363	وابنِ عَفَّان ذي الأَيادي التي طَا --- لَ إلى المُصطَفى بها الإسْداء
	364	حَفَرَ البِيرَ جَهَّزَ الجَيشَ أَهدى الـ --- هَدْيَ لَمَّا أن صَدَّهُ الأعـداء
	365	وأبى أن يَطوفَ بالبيتِ إذ لم --- يَدْنُ منهُ إلى النَّبيِّ فِناء
	366	فَجَزَتهُ عَنها بِبَيْعَةِ رِضوا --- نِ يَدٌ مِن نَبيِّهِ بَيْضـاء
	367	أدَبٌ عِندَهُ تَضاعَفَتِ الأَعْـ --- مالُ بالتَّركِ حَبَّذا الأُدَباء
	368	وَعَلِيٍّ صِنْوِ النَّبيِّ وَمَن دِيـ --- نُ فُؤادِي وِدادُهُ وَالـوَلاء
	369	وَوَزِيرِ ابن عَمهِ في المَعالِي --- ومِنَ الأهلِ تَسْعَدُ الـوُزَراء
	370	لَم يَزِدهُ كَشفُ الغطاءِ يَقيناً --- بَلْ هَوَ الشَمسُ ما عَليهِ غِطاء
	371	وبباقِي أصحابكَ المُظهرِ التَّرْ --- تِيبُ فينا تَفضيلَهم والولاء
	372	طَلْحَةِ الخَيرِ المُرْتَضِيهِ رَفيقاً --- واحِداً يَوْمَ فَرَّتِ الرُّفَقـاء
	373	وَحَوَارِيِّكَ الزُّبَيْرِ أبِـي القَرْ --- مِ الذي أَنْجَبَتْ بِهِ أَسْمـاء
	374	والصَّفِيَّيْنِ تَوأَمِ الفَضلِ سَعْدٍ --- وسَعيدٍ إن عُدَّتِ الأصْفِياء
	375	وابنِ عَوْفٍ مَن هَوَّنَت نَفسُهُ الدُّنْـ --- يا بِبَذلٍ يُمِدُّهُ إثْراء
	376	والمُكَنَّى أبا عُبَيْدَةَ إذ يَعْـ --- ـزِي إليهِ الأَمانَةَ الأُمَناء
	377	وَبِعَمَّيْكَ نَيِّرَيْ فَلَكِ المَجْـ --- ـدِ وكلٌّ أتاهُ مِنكَ إتـاء
الفصل العشرون	378	وَبِأُمِّ السِّبطينِ زَوجِ عَلِيٍّ --- وَبَنِيهَا وَمَن حَوَتهُ العَباء
	379	وَبِأزواجك اللواتِي تشَرَّفْـ --- ـنَ بأن صانَهُنَّ مِنكَ بِناء
	380	الأَمـانَ الأَمـانَ إن فُؤادِي --- مِـنْ ذُنوبٍ أَتَيتُهُنَّ هَواء
	381	قَد تَمَسَّكتُ مِن وِدادِكَ بِالحَبْـ --- ـلِ الذي استَمسَكَت به الشُّفَعاء
	382	وأَبى اللهُ أن يَمَسَّنِيَ السُّو --- ءُ بحالٍ وَلِي إليكَ الْتِجــاء
	383	قد رَجوْنــاكَ للأُمورِ التي أَبْـ --- ـرَدُها في فُؤادِنا رَمْضــاء
	384	وأَتَينــا إلَيكَ أَنْضــاءَ فَقْرٍ --- حَمَلَتْنَا إلى الغِنى أَنْضــاء
	385	وانْطَوَت في الصُّدورِ حاجاتُ نَفْسٍ --- ما لها عن نَدى يَدَيكَ انْطِواء
	386	فَأَغِثنا يا مَن هو الغَوْثُ والغَيْـ --- ـثُ إذا أَجْهَدَ الوَرَى اللَّأْواء
	387	وَالجَوَادُ الذي به تُفْرَجُ الغُمَّـ --- ـةُ عَنَّا وتُكشَفُ الحَوْبـاء
	388	يَا رَحيماً بالمُومنينَ إذا ما --- ذَهِلت عن أبنائها الرُّحَماء
	389	يَا شَفيعاً في المُذنِبينَ إذا أَشْـ --- ـفَقَ مِن خَوْفِ ذَنبِهِ البُراء

الفصل الواحد والعشرون	390	جُدْ لِعاصٍ وما سِوايَ هُوَ العَا --- صِي ولكنْ تَنْكيريَ اسْتِحْياء
	391	وتَدارَكهُ بالعِنايَةِ مـا دَا --- مَ لهُ بالذِّمامِ مِنكَ ذَمَـــاء
	392	أخَّرَته الأعمالُ والمالُ عَمَّا --- قَدَّمَ الصَّالِحونَ والأَغنِياء
	393	كُلَّ يـَومٍ ذُنوبُهُ صاعِداتٌ --- وعَلـَيها أَنْفاسُـهُ صُعَداء
	394	ألِـفَ البِطْنَةَ المُبَطِّئَةَ السَّيْ --- رِ بدارٍ بها البِطانُ بِطاء
	395	فَبَكَى ذَنْبَهُ بِقَسْوَةِ قَلْبٍ --- نَهَتِ الدَّمْعَ فـالبُكاءُ مُكـاء
	396	وغَدا يَعْتِبُ القَضاءَ ولا عُذْ --- رَ لِعاصٍ فيما يَسُوقُ القَضاء
	397	أَوْثَقَتهُ مِن الذنوبِ دُيونٌ --- شَدَّدَت فِي اقْتِضائِها الغُرَماء
	398	ما لهُ حيلَةٌ سِوى حيلُةِ المُو --- ثَقِ إما تَوَسُّلٌ أو دُعـاء
	399	راجِياً أن تَعودَ أعمالُهُ السَّوْ --- ءُ بِغُفرانِ اللهِ وَهيَ هَباء
	400	أو تُرى سَيِّئاتُهُ حَسَنـاتٍ --- فَيُقالُ استحالة الصَّهْباء
	401	كُلُّ أمرٍ تَعْنِي به تُقْلَبُ الأَعْ --- يانُ فيهِ وتَعجَبُ البُصَـراء
	402	رُبَّ عَينٍ تَفَلْتَ فِي مَائِها المِلْ --- حِ فأَضحَى وهْوَ الفُراتُ الرَّواء
	403	آهِ مِمّا جَنَيتُ إنْ كـانَ يُغنِي --- أَلِفٌ مِن عَظيمِ ذَنْبٍ وَهـاء
	404	أرْتَجِي التَّوبَةَ النَّصُوحَ وفي القَلْ --- بِ نِفاقٌ وفِي اللِّسانِ رِياء
	405	وَمَتى يَستقيمُ قَلبِي وللجِسْ --- مِ اعْوجاجٌ مِن كَبْرَتِي وانْحِناء
	406	كُنتُ فِي نَومَةِ الشَّباب فما اسْتَيْ --- قَظْتُ إلا وَلِمَّتِي شَمْطـاء
	407	وتَمادَيْتُ أَقتَفِـي أثَرَ القَو --- مِ وفَطالَت مَسافَةٌ واقتِفـاء
	408	فَـوَراءَ السَّارِينَ وَهْوَ أمامي --- سُبُلٌ وَعْرَةٌ وأرضٌ عَـراء
الفصل الثاني والعشرون	409	حَمِدَ المُدْلِجُونَ غِبَّ سُرَاهُمْ --- وكَفى مَن تَخَلَّفَ الإبْطاء
	410	رِحلةٌ لـم يَزَل يُفَنِّدُنِي الصَّيْ --- فُ إذا ما نَوَيْتُها والشِّتاء
	411	يَتَّقِي حُرُّ وَجهِيَ الحَرَّ والبَرْ --- دَ وقد عَزَّ مِن لَظَى الاتِّقاء
	412	ضِقتُ ذَرْعاً مِما جَنَيتُ فَيَومِي --- قَمْطَرِيرٌ ولَيْلَتِي دَرْعـاء
	413	وتَذَكَّرْتُ رَحمةَ الله فالبُشْ --- رَى لِوَجهِي أَنَّى انْتَحَى تِلْقاء
	414	فَأَلَحَّ الرَّجاءُ والخَوفُ بالقَلْ --- بِ وللخَوفِ والرَّجا إحْفـاء
	415	صاحِ لا تَاسِ إنْ ضَعُفتَ عن الطَّا --- عَةِ واسْتَأْثَرَتْ بها الأقوِيـاء
	416	إنَّ للهِ رَحـمَـةً وأحـقُّ النـ --- ـاسِ منهُ بالرَّحمةِ الضُّعَفـاء
	417	فَابْقَ فِي العُرْجِ عند مُنْقَلَبِ الذَّوْ --- دِ فَفِي العَوْدِ تَسبِقُ العَرْجاء
	418	لا تَقُل حـاسِداً لِغَيْرِكَ هذا --- أَثمَرَت نَخلُهُ ونَخلِي عَفـاء
	419	وأْتِ بالمُستطاعِ مِن عَمَلِ البِرِّ --- فقد يُسْقِطُ الثِّمارَ الإتــاء
	420	وبِحُبِ النبيِّ فَابْغِ رضا اللهِ --- ففِي حُبِّهِ الرِّضَا والحِباء
	421	يـا نَبِيَّ الهُدى استغاثةُ مَلْهُو --- فٍ أضَرَّت بِحالهِ الحَوْبـاء
	422	يَدَّعِي الحُبَّ وهْوَ يَأْمُرُ بالسُّو --- ءِ ومَن لِي أن تَصْدُقَ الرَّغْباء
	423	أيُّ حُبٍّ يَصِحُّ مِني وَطَرْفِي --- للكَرَى واصِـلٌ وطَيْفُكَ راء
	424	لَيْتَ شِعري أَذَاكَ مِن عُظْمِ ذَنْبِي --- أم حُظُوظُ المُتَيَّمِينَ حِظـاء
	425	إنْ يَكُن عُظْمُ زَلَّتي حَجْبُ رُؤيا --- كَ فقد عَزَّ داءَ قَلبِي الدَّواء
	426	كَيفَ يَصْدَا بالذَّنبِ قَلبُ مُحِبٍ --- وَلَهُ ذِكرُكَ الجَميـلُ جَلاء
	427	هذهِ عِلَّتِي وأنتَ طَبيبِي --- ليسَ يَخفى عليكَ فِي القلبِ داء
	428	ومِن الفَوزِ أن أَبُثَّكَ شَكْوىً --- هِيَ شَكْوىً إليكَ وَهْيَ اقْتِضاء
	429	ضُمِّنَتْهـا مَدائحُ مُسْتَطابٌ --- فيكَ مِنها المَديحُ والإصْغـاء
	430	قَلَّمَـا حـاوَلَتْ مَديحَكَ إلَّا --- ساعَدَتها مِيمٌ ودالٌ وحـاء

حَقَّ لي فيكَ أن أُساجِلَ قَوماً --- سَلَّمَتْ مِنهمُ لِدَلوِي الدِّلاء	431	الفصل الثالث والعشرون
إنَّ لِي غَيرَةً وقد زاحَمَتنِي --- في مَعاني مَديحِكَ الشُّعَراء	432	
ولِقَلبي فيكَ الغُلُوُّ وأنَّى --- لِلِساني في مَدحِكَ الغُلَواء	433	
فَأثِبْ خاطِراً يَلَذُّ له مَدْ --- حُكَ عِلْماً بأنَّهُ الـلَّأْلاء	434	
حاكَ مِن صَنْعَةِ القَرِيضِ بُرُوداً --- لكَ لم يَحكِ وَشْيَها صَنْعاء	435	
أعْجَزَ الدُّرُّ نَظْمُهُ فاستَوَت فِيـ --- ـهِ اليَدانِ الصَّناعُ والخَرْقاء	436	
فَارْضَهُ أفْصَحَ امْرِئٍ نَطَقَ الضَّا --- دَ فَقامَت تَغارُ مِنها الظاء	437	
أَبِذِكرِ الآيَـاتِ أُوفيكَ مَدحاً --- أينَ مِنّي وأينَ منها الوَفاء	438	
أم أُمَارِي بِهِنَّ قَوْمَ نَبيٍّ --- سَاءَ ما ظَنَّهُ بِيَ الأغْبِياء	439	
وَلَكَ الأُمَّةُ التي غَبَطَتها --- بِكَ لمَّا أَتَيْتَهَا الأنْبِياء	440	
لم نَخَفْ بعدك الضلالَ وفينا --- وارِثُو نُورِ هَدْيِكَ العُلَمـاء	441	
فَانْقَضَت آيُ الأنبياءِ وآيَـا --- تُكَ فِي النَّاسِ ما لَهُنَّ انْقِضاء	442	
والكَرامـاتُ منهمُ مُعجزاتٌ --- حازَها مِن نَوَالِكَ الأَوْلِيـاء	443	
إنَّ مِن مُعجِزاتِكَ العَجزُ عن وَصْـ --- ـفِكَ إذ لا يَحُدُّهُ الإِحْصاء	444	
كيفَ يَستَوْعِبُ الكَلامُ سَجايا --- كَ وَهَل تُنْزَحُ البِحارَ الرَّكاء	445	
ليسَ مِن غايةٍ لِوَصفكَ أبْغِيـ --- ـهَا وللقَوْلِ غايةٌ وانْتِهـاء	446	
إنَّما فَضلُكَ الزَّمـانُ وَآيَا --- تُكَ فيما نَعُدُّهُ الآنـاء	447	
لم أُطِلْ في تَعْدادِ مَدْحِكَ نُطقِي --- ومُرادي بِذلكَ اسْتِقْصاء	448	الفصل الرابع والعشرون
غَيرَ أنِّي ظَمآنُ وَجْدٍ وما لِي --- بِقَلِيلٍ مِن الوُرُودِ ارْتِواء	449	
فَسَلامٌ عَليكَ تَتْرا مِن اللهِ --- لِتَبْقى بِهِ لَكَ البَأْواء	450	
وَسَلامٌ عليكَ مِنكَ فما غَيْـ --- ـرُكَ مِنهُ لَكَ السَّلامُ كَفاء	451	
وَسَلامٌ مِن كُلِّ ما خَلَقَ اللهُ --- لِتَحْيا بِذِكرِكَ الأَمْلاء	452	
وَسَلامٌ كَالمِسكِ تَحمِلُهُ مِنِّـ --- ـيْ إليكَ شَمالٌ أو نَكْباء	453	
وَسَلامٌ على ضَرِيحِكَ تَخْضَلُّ --- بِهِ مِنهُ تُربَةٌ وَعْساء	454	
وَثَنَاءٌ قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْ نَجْـ --- ـوايَ إذ لم يَكُنْ لَدَيَّ ثَراء	455	
مَا أقامَ الصَّلاةَ مَن عَبَدَ اللهَ --- وقامَتْ بِرَبِّها الأَشْيـاء	456	

كتاب

حل ألفاظ القصيدة الهمزية في مدح خير البرية

صلَى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم

لصاحبه العلامة سيدي يحيى بن عبد الواحد الشبيهي الجوطي الإدريسي الحسني

تحقيق وتعليق ونشر أمين الشبيهي الموقت

تقديم المؤلِّف

بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

قال سيدي يحيى بن عبد الواحد بن عبد الله الحَسني الجوطي:

الحمد لله الذي قذف في أفكار المحبين نتائج مديح مصطفاه طه، وفضله على سائر خلقه وأكرمه بمحامد ما سواه معطاها، ولأجله كانت أمته أفضل الأمم ووسطاها، وبنوره أضاء قلوب العارفين فكشف عنهم حُجب الغفلة وأزاح غَطاها[90]، ولتعرف المعارف شرح صدورهم ومهد وطاها، حتى تجلت لهم رياض حضرة مطلوبهم، وتبدت لهم حياض شهود مشروبهم، فنهلوا بما أولاهم ووصلوا، وفي أتواب عنايته رفلوا، وجعل الصلاة على حبيبه سيدنا محمد ﷺ أمنع معاقل العبد وأنفع مسائله، وجعل محبته أوفق مسالك الرضى وأوثق وسائله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله الطاهرين، وصحابته الأكرمين، صلاة وسلاما تامين دائمين ما تتابع ثواب أتباع وسائله.

وبعد، فلما كان درة بيضة الإسلام، وغرة الأدباء الأعلام، ومصباح الظلام، وشيخ مشايخ الأنام، المتفنن المحقق، الأديب البليغ المدقق، عالم الشعراء وأشعر العلماء، وفصيح البلغاء وبليغ الفصحاء، العارف بالله والمحب لرسول الله ﷺ، الشيخ شرف الدين أبو عبد الله سيدي محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج بن هلال البُصيري، نسبة إلى بوصير قرية من قرى مصر، ممن تفضل الله عليه فشرح بصيرته، وبحقائق العرفان أضاء سريرته، فكان من عجائب الله نثرا ونظما، وحفظا وفهما، ومعرفة العلوم والحديث واللغة، بذل مجهوده في الاعتناء بحق سيد المرسلين، فشغف به حبا، وارتاد من رياض جماله حدائق

[90] أي ظُلمَتها، من غَطا الليل أي أظلم.

غلبا، وكرع من حياض محاسنه سلسبيلا عذبا، فرقى من أفنان الأذواق ذروتها، ولبس من أكنان الأشواق فروتها، وركب من وجدان المديح جوادا لا يجارى، وراق له من فنونه مدركا لا يمارى، فنشأه موفقا قوافيه جلوات خرائد، وشذا من منشئاته بجلائل قصائد، ركب لها من البلاغة قيود الأوابد، وسما في الفصاحة مقتنصات الشرائد، فتوارى لطلعة شمسه أسنى الكواكب، وخر لسطوته أسمى المواكب، فأنتج للتيه أبكارا، أوقعت في بحار التيه أفكارا، لن يفي بمهرها من سامها، ولن يقض ختامها من رامها، ولم يحذو حذوها من حاقها، وليس هذا بكثير على من حل عليه نظر القلب الكبير، وسقاه العلم الغزير، شيخ المشايخ أبو العباس سيدي أحمد المرسي، وارث نور سيدي أبي الحسن الشاذلي، قدس الله سرهم ونور بدرهم، "ذلك فضل الله يُوتيهِ من يشاء والله ذو الفضل العظيم"[91].

قال الإمام ابن عطاء الله في حِكمه: "إذا أراد أن يتفضل عليك خلق ونسب إليك"[92]، ومنه قول [الناظم]: "ولا تقل لي بماذا نلت جيدها"[93].

ومن أجلِّ وأحسن ما أنشأه الناظم رحمه الله في مديح رسول الله ﷺ، قصيدته المسماة ب "الهمزية في مدح خير البرية"، وناهيك بها من قصيدة فاق قدرها الأقدار، وعلا خطرها[94] الإخطار، منمقة بأنواع الأدب واللغة الغريبة، مرصعة ببريع البديع والعلوم العجيبة، مفحصة[95] عن آثار سيد المرسلين الجليلة وشمائله الشريفة الجميلة، ومحاسنه الكاملة الطاهرة، الكامنة والظاهرة، فيالها من خريدة[96] فاق الشمس سناها وبهاؤها، وسمى كل سماء فخرها وسناؤها.

ولما كان تأليف العلامة أبي العباس أحمد السنباطي[97] أوجز شروحها وأعذبها، وأحسنها نسجا وأقربها، ورق مبناه وراق معناه، أردت أن أحادي ألفاظه غالبا رعاية للاختصار، وأزيد عليه إن شاء الله ما أخل به، مما يحتاج إليه المبتدي وينتفع به المجتدي، ولا آلُ[98] إن شاء الله في إعراب ما يتوقف عليه المعنى، ويبدو به المبنى، ولن نزر[99] تفسير ما ندر من لغة غريبة، وضبط ما أشكل من ألفاظ مريبة، بعبارة مبينة قريبة، بقدر الاستطاعة

---

[91] سورة الجمعة، الآية 4، برواية ورش عن نافع.

[92] ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، مركز الأهرام للطباعة والنشر-القاهرة، الطبعة الأولى 1988، ص.66 الحكمة 123.

[93] الإمام البصيري، قصيدة البردة: ولا تقل لي بماذا نِلتَ جَيِّدَها --- فما يُقال لفضل الله بِكَمِ.

[94] الخطرة: ما يخطر في القلب.

[95] مُفحّص: اسم المفعول من فحّصَ.

[96] اللؤلؤة لم تثقب.

[97] شهاب الدين أحمد بن أحمد السنباطي الشافعي، شرح الهمزية.

[98] لم أزل أو لا أترك جهدا.

[99] لن نقلل.

والإمكان، ومجاهدة عسر الأزمان، راجيا من الكريم القبول والغفران.

وليس التصدي مني لهذا بطاقة، ولا أقدر منه علي بطاقة، بل هو جرأة جهالة وفضول، وتظاهر من حظه الأفول والتمسك بالخمول، ولست للتأليف محلا، ولا بحلله محلى، لكن التماس رضى المحبوب، داعية للتقرب منه بأي وسيلة ومطلوب، ولا دواء لأدواء القلوب العليلة، والنفوس الردية الرذيلة، ولا أنفع وأرفع من التعلق بحمى سيد البرية الحفيلة، ولا أشفى للأشقى من التمسك بأذياله الجليلة، وتعرف فضائله الجزيلة، ولا أغلى للمقلين ولا أجزى للمحتاجين من التوسل بأوصافه الحميدة والتوصل بشيمه المجيدة.

ولا آفة أضر ولا أخسر من الإعراض عن جانبه الجليل، ولا داء أدوى من التجافي عن فضله الكامل الجزيل، وكيف لا وقد شرف الباري تعالى قدره على جميع الأنام، وفاز بما قصر عنه كل من حاز المعالي من الرتب والإكرام، ولله در السيد علي أبي الوفاء[100] لقوله:

من فــاته منك وصل حظُه الندم --- ومن تكن هَمه تسموا به الهمم

وناظر لسوى معنـــــاك حق له --- يُقتص من جفنه بالدمع وهو دم

والسمع إن جال فيه من يُحدّثه --- سوى حديثك أمسى وقره الصمم

نسأل الله العظيم، أن يمن علينا بفضله العميم، فنكون من رفقاء هذا النبي الكريم، وتحت ظل رايته وفي زمرة حزبه الجسيم، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير. وأسأل من ذوي الألباب، الواقفين على هذا الكتاب، النظر إليه بعين الرضى والصواب، والتماس ما يحتاج إليه خطاه من الجواب، ولهم الأجر من الله وجزيل الثواب.

---

[100] علي بن محمد وفا القريشي الأنصاري الشاذلي المالكي.

توطئة في أفضلية سيدنا مُحَمَّد ﷺ

فأقول والله المسؤول، لابد هنا من ذكر مقدمة إمام المقصود معينة للوقوف عند الحدود، وذلك أنه ينبغي أن يُعلم أولا أن ثبوت أفضليته ﷺ على جميع المخلوقات، يكاد أن يكون مما علم من الدين ضرورة، حتى لا يحتاج إلى سرد دليل. قال الإمام أبو عبد الله سيدي محمد بن يوسف السنوسي[101]، بعد أن نقل عن الإمام سعد الدين التفتازاني[102]، في الإجماع على أنه ﷺ أفضل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ما نصه: قال الشيخ العارف بالله تعالى، قدوة المقتدين وعلم المجتهدين حجة الله تعالى، أبو عبد الله محمد بن عباد رحمه الله، في رسائله، في معنى الأفضلية التي ثبتت بين الأنبياء والرسل، وفي معناهم الملائكة، على جميعهم الصلاة والسلام، قال: "إنما وقعت الأفضلية بينهم بحكم الله تعالى بأفضلية بعضهم على بعض، لا لأجل علة موجبة لذلك وجدت في الفاضل وفقدت في المفضول. وللسيد أن يفضل بعض عبيده على بعض، وإن كان كل واحد منهم كاملا في نفسه، بالغا من ذلك الغاية التي تليق به، من غير أن يحمله على ذلك وصف يكون فيهم، وذلك مما يجب له بحق سيادته، وإن الله تعالى أعلم بما يقتضيه هذا الحكم بالأفضلية. وأما اعتقاد أن سبب الأفضلية اتصاف الفاضل بصفات هي مفقودة في أصول المفضول، أو أن صفات المفضول ناقصة وصفات الفاضل كاملة، فهو عندي تكلف وتعسف، ولا يسلم من سوء الأدب والوقوع في النشب[103]. وما زلت قط أستثقل ما تواطأ عليه الجم الغفير من العلماء والمحققين، حيث يقولون إن فلانا من الأنبياء حاله كذا وكذا وحال نبينا كذا، وشتان ما بين الحالين، أو يقولون إن اختص فلان بكذا فعند نبينا ما هو أعظم منه، كما قالوا في انفجار الماء من الحجر لموسى عليه السلام وانفجار الماء من بين أصابع نبينا محمد ﷺ، فإن الحجر مألوف منه انفجار الماء والأصابع لم يؤلف منها ذلك. ولا أقول أنهم في ذلك بمنزلة من هدم قصرا وبنى مصرا، أو بنى قصرا وهدم مصرا، ولكنهم بمنزلة من هدمها جميعا، وسوء الأدب مع الأنبياء سوء الأدب مع الله تعالى وهذا خطر عظيم-"[104].

---

[101] ويلقب كذلك بالتلمساني، توفى سنة 895هـ ومن مؤلفاته: "العقيدة الصغرى أو أم البراهين،" و"العقيدة الوسطى" و"العقيدة الكبرى".

[102] المتوفى سنة 792هـ ومن مؤلفاته: "إرشاد الهادي" و"الشرح المطول على تلخيص المفتاح" و"تهذيب الكلام في تحرير المنطق والكلام".

[103] ومعناه: الوقوع فيما لا نجاة منه.

[104] أبو عبد الله محمد بن عباد النفزي الرندي الفاسي، المتوفى سنة 792هـ، الرسائل الكبرى المسماة نزهة الناظر المتأمل وقيد السائر المستعجل، كتاب ناشرون-بيروت، 2013، ص 114 و115.

قال الإمام أبو عبد الله العلامة سيدي محمد المسناوي: "وانتصر[105] سيدي عبد الرحمان بن شيخ شيوخنا سيدي عبد القادر الفاسي في محاذيه على الشفا، لما عليه الجم الغفير بما لا يقدم، ما ذكره الشيخ ابن عباد، فانظر كلاهما. وناظم هذا المديح، ممن جرى على طريقة الجمهور، تارة بالتصريح وتارة بالإشارة والتلويح".

قال ابن حجر الهيتمي[106] في "المنح المكية في شرح الهمزية": "اعلم أن نبينا محمدا ﷺ هو المنفرد بغاية كمال الشرف والرفعة اجماعا لمن تأمل آيات القرآن، وما اشتملت عليه تصريحا وتلويحا من الإشارة إلى إنافة قدره العلي عنده، وأنه لا يساوي مجدٌ مجده"[107].

قال المفسرون في قوله تعالى "ورفع بعضهم درجات"[108]: يعني [سيدنا] محمدا ﷺ. قال الزمخشري: "في هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس"[109].

ومن تلك الدرجات أن آياته ومعجزاته أكبر وأبهر، إذ ما من معجزة لنبي قبله إلا وله مثلها وأبهر منها، كما بينته الأئمة وسيأتي بعضه، وزاد عليهم بمعجزات لم يقع نظيرها لأحد منهم، وناهيك بكتابه القرآن، وأنه لا تتناهى معجزاته ولا تنقضي آياته، وأن أمته أزكى وأكثر وخير وأطهر من بقية الأمم، بنص "كنتم خير أمة أخرجت للناس"[110].

لم يرد النص متواصلا كما نُقل، ربما لانتقاء أحد الناقلين المفيد من الرأي مع تصحيح ما بدا له، وها هو النص كما ورد في المرجع الأصلي: "إنما وقعت الأفضلية بينهم بحكم الله تعالى، بأفضلية بعضهم على بعض لا لأجل علة موجبة لذلك وجدت في الفاضل وفقدت في المفضول. وللسيد أن يفضل بعض عبيده عن بعض وإن كان كل واحد منهم كاملا في نفسه، بالغا من ذلك الغاية التي تليق به من غير أن يحمله على ذلك وصف يكون فيهم، وذلك مما يجب له بحق سيادته. والتمثيل بالسيد أمر تقريبي إذ لا يخلُ من البواعث والأغراض، والله تعالى منزه عن جميع ذلك. ثم إن الله تعالى أعلم بما يقتضيه هذ الحكم منه بالأفضلية، فهذا هو الذي يظهر لي في سبب وجود الأفضلية بين الأنبياء عليهم السلام. ولا يتصور عندي إنكار لذلك، وأما أن يعتقد في سبب وجود الأفضلية اتصاف الفاضل بصفات هي مفقودة في المفضول، أو أن صفات الفاضل ناقصة وصفات الأفضل كاملة، فهو عندي تكلف وتعسف، ولا يسلم من الوقوع في سوء الأدب، وما زلت قط أستثقل ما تواطأ عليه الجم الغفير من العلماء والمحققين، حيث يقولون إن فلانا من الأنبياء حاله كذا وحال نبينا كذا، وشتان ما بين الحالين، أو يقولون إن كان اختص بكذا فعند نبينا ما هو أعظم من ذلك، كما قالوا في انفجار الماء من الحجر لموسى عليه السلام وانفجار الماء من بين أصابع نبينا محمد ﷺ، ولم يفرقوا بينهما بسوى ان الحجر مألوف منه انفجار الماء والأصابع ما لم يؤلف منها ذلك، حتى أن أهل العصر الذي يلي عصرنا نظم قصيدة مليحة طويلة استنبط فيها من أحوال نبينا محمد ﷺ ومعجزاته ما وازن به جميع معجزات الأنبياء عليهم السلام وشريف أحوالهم، وسلك في ذلك مسلك ما ذكرناه من التباين بين قدر نبينا محمد ﷺ وغيره من الأنبياء عليهم السلام، وقد أحسن في ذلك وأساء، أحسن في ذلك الاستنباط، وأساء لما يفهم منه من الغض والانحطاط... ولا أقول أنهم في ذلك بمنزلة من هدم قصرا وبنى مصرا، أو بنى مصرا وهدم قصرا، ولكنهم بمنزلة من هدمها جميعا... فمآل سوء الأدب معهم إلى سوء الأدب مع الله تعالى وهذا عظيم".

[105] بمعنى أيد القول.

[106] في النسخ الثلاث كُتبت "الهيثمي"، وهو خطأ شائع آنذاك، فهو أحمد بن محمد بن علي ابن حجر الهيتمي المكي الشافعي، المتوفى تقريبا عام 974هـ، صاحب "الفتاوي الكبرى الفقهية" و"تحفة المحتاج في شرح المنهاج" و"المنح المكية في شرح الهمزية". وأما "الهيثمي" فهو نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان المصري القاهري المتوفى سنة 807هـ، وهو صاحب كتاب "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد". سوف أقوم بتصحيح الاسم فيما يتبع من الكتاب دون الحاجة للإشارة لذلك.

[107] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.88.، مع التصرف.

[108] سورة البقرة، أية 253.

[109] الإمام الزمخشري، تفسير الكشاف، جزء 1، ص. 478.

[110] سورة آل عمران، أية 110.

وخيرية الأمة تستلزم خيرية نبيها وأفضلية دينها[111]، إذ لا شك أن خيريتهم بكمال دينهم[112] المستلزم لكمال نبيهم، يوجب أن صفاته أعلى وأجل، وذاته أفضل وأكمل، كما صرح به قوله تعالى "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده"[113]، لأنه تعالى وصف الأنبياء بالأوصاف الحميدة، تم أمر أن يقتدى بجميعهم، وذلك يستلزم أن يأتي بجميع ما فيهم من الخصال الحميدة، فاجتمع فيه ما تفرق فيهم.

وفي حديث الشفاعة العظمى[114] و[انتهائها إليه بعد تفضيل كل منهم له][115]، واعترافِه بأنه

---

[111] المقصود هنا الشريعة والمنهاج التي جاء بها الأنبياء والرسل، مصداقا لقوله عز وجل في سورة المائدة، آية 48 "ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا"، وأما دين الأنبياء جميعا فهو الإسلام، لقوله تعالى في سورة آل عمران، آية 19 "إن الدين عند الله الإسلام". وهذا بالطبع لا يخفى على العلامة يحيى الشبيهي، حيث يوضح ذلك تماما عند شرحه البيت : "لَيلةُ المَولِدِ الذي كـان للدِّيـنِ --- سُرُور بيومهِ وازْدِهاء"، فيقول: "والدين لغةً: الجزاء، وعرفا: الشرع المبعوث به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام".

[112] مصداقا لقوله عز وجل في سورة المائدة، آية 3 "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا".

[113] سورة الأنعام، أية 90. في النسخ الثلاثة كُتبت "فبهديهم"، دون زيادة ألف أعلى الياء، كما جرت عادة كتابتها في المصحف برواية ورش عن نافع: "فَبِهُدِيٰهُمُ". ويبدو أن العادة جرت بالكتابة هكذا في المغرب، حيث نجد في الفصل العاشر من الكتاب، حين استشهد المؤلف بالآية 22 من سورة الجاثية، فكتب "هويه" عوض "هواه"، حيث تكتب في المصحف "هويٰه"، بزيادة ألف أعلى الياء كما في "فَبِهُدِيٰهُمُ".

[114] حديث الشفاعة الكبرى، أخرجه الإمام البخاري والإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهذا لفظه عند الإمام البخاري: أن رسول الله ﷺ أتي بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهش منها نهشة، ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات ـ فذكرهن أبو حيان في الحديث ـ نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى ابن مريم، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله، (ولم يذكر ذنبا)، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد، فيأتون محمدا فيقولون :يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟. فأنطلقُ فآتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا، لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب. فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة، كما بين مكة وحمير ـ أو كما بين مكة وبصرى ـ.

[115] في النسخ الثلاث كتب "وحديث الشفاعة العظمى وإنشائها إليه بعد كل تفضيل منهم له".

تعليق المحقق: يُفهم من قول سيدي يحيى، أن الأنبياء والرسل فَضَّلَ كل منهم سيدنا محمد ﷺ على نفسه، بتوجيه الناس إليه قصد طلب الشفاعة، واعتراف كل واحد منهم أنه غير أهل للشفاعة يوم القيامة، وذلك ما فهمته من قول سيدي يحيى "بعد تفضيل كل منهم له واعترافه بأنه ليس أهلا لهذا التصريح"، أي تفضيل كل رسول ونبي لسيدنا محمد ﷺ على نفسه في طلب الشفاعة. والله أعلم.

ليس أهلا لهذا التصريح بذلك أيضا. وكذلك الحديث "أنا سيد ولد آدم ولا فخر"[116].

وقال الإمام السنوسي في "شرح صغرى الصغرى"، بعد ذكر أحاديث في تفضيله ﷺ، ما نصه: "ويكفيك في معرفة شرفه وعلو منزلته عند الله تعالى على جميع المخلوقات عموما بلا استثناء، ما أجمع عليه الأئمة من تقدمه للشفاعة الكبرى في موطن الآخرة، وتنويه الله تعالى هنالك بقدْرِه، والرفع لمنزلته والإكرام له، حيث اجتمع الأولون والأخِرون، وجميع الأنبياء والمرسلين، والملائكة كلهم والمقربون، وعم الخطب وانتشر الهول، وكل مشغول بنفسه، خائف هائب لجلال المولى العظيم، جاث على ركبتيه، لما يرى في ذلك اليوم من الخطر والهول الجسيم، ولا يتجاسر أحد في ذلك اليوم الهائل على مخاطبة المولى، تبارك وتعالى، في رفع شيء مما نزل، سوى عبده وخاتم رسله وعروس مملكته وسرها وإكسيرها، وسيد كل ما خلق جل وعلا، ﷺ، فيقول عندما ينتهي الناس إليه في طلب الشفاعة إلى المولى تبارك وتعالى: -أنا لها-، لا يخاف ولا يهمه أمر نفسه ولا يتتعتع[117]، ويذهب حتى يسجد تحت ساق العرش، فيقول الله جل وعلا: -ارفع رأسك يا محمد فقل يسمع لك واسأل تعطى واشفع تشفع-. فانظر رحمك الله، هذا الخطاب اللطيف العزيز الشريف له عليه الصلاة والسلام، من مولانا تبارك وتعالى، في ذلك اليوم الهائل الذي غضب فيه سبحانه غضبا لم يغضب قبله ولا بعده مثله، كيف هو صريح بالمعنى بلا نزاع ولا ريب ولا احتمال، أنه لا أكرم منه ﷺ على الله تبارك وتعالى. وفي الحديث أنه ﷺ أول من يقرع باب الجنة، فيقول رضوان خازنها عليه السلام: -من؟- فيقول: -محمد-، فيقول رضوان عليه السلام:-بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك-**[118]**"[119] أو كما قال. وقال [السنوسي] ما معناه: "أن النار عندما تسوقها الملائكة الموكولون بها بالسلاسل لتحيط بالخلق في المحشر، فإذا قربت منهم بنحو خمسمئة سنة، تشهق شهيقا عظيما منكرا، وتتفلت منها الأعناق إلى المحشر، طول العنق خمسمئة سنة، له فم وأسنان من نار، فيصل العنق إلى المحشر، ويزفر عليهم ويشهق عليهم شهيقا منكرا لا يستطاع سماعه، ويملأ عليهم الجو ظلمة ونارا، زيادة على ما هم فيه من الأهوال الجسيمة، ويلتقط العنقُ الناسَ من الموقف، ويبتلعهم ذلك العنق الطويل إلى جوفه، وحينئذ تجثوا على الركب الملائكة المقربون والأنبياء والرسل، على جميعهم الصلاة والسلام، فحينئذ ينهض إلى النار نبينا ومولانا محمد ﷺ، فيزجرها عن الناس ويأمرها

---

[116]أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وابن ماجة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

[117]أي لا يتردد. هكذا في النسختين الصبيحية والعزيزية، وأما وفي النسخة الحسنية "لا يتعتع"، وكلاهما صحيح ويفيد نفس المعنى.

[118]أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

[119]أنظر المرجع في الإحالة الموالية.

بالتأخر عنهم، فتسمع النار حينئذ نداء من قبل الله عز وجل: -اسمعي له وأَطيعي-"[120]، والأدلة على هذا غير منحصرة.

[120] أبي عبد الله محمد بن يوسف بن عمر السنوسي المالكي، شرح صغرى الصغرى، دار التقوى -دمشق- سوريا، الطبعة الأولى 2019، ص243 إلى 245، بالاختصار.

الفصل الأول: من البيت الأول إلى البيت 22

قال الناظم رحمه الله:

كيفَ تَرقى رُقِيَّكَ الأنبياءُ --- يا سماءً ما طاوَلَتْها سَماء

قال في القاموس : " كيف اسم مبهم غير متمكن حُركَ آخره للساكنين، وبالفتح لمكان الياء، والغالب فيه أن يكون استفهاما، إما حقيقيا ككيف زيد، أو غيره كـ-كيف تكفرون بالله-[1]، فإنه أخرج مخرج التعجب، وقوله:

كيف ترجون[2] سقاطي بعدما --- جلل الرأس مشيبا وصلع

فإنه أخرج مخرج النفي، ويقع خبرا قبل ما لا يستغنى عنه، ككيف أنت؟ وكيف كنت؟، وحالا قبل ما يستغنى عنه، ككيف جاء زيد؟، ومفعولا مطلقا ك-كيف فعل ربك-[3]، -فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد-[4]"[5].

ومنه قال ابن حجر في المنح المكية: "بني كيف لتضمنه معنى الشرط أو الاستفهام، وعلى الفتح لخفته وترد للشرط. وخرج عليها "ينفق كيف يشاء"[6]، وجوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه"[7]. ثم قال ما معناه: "وهي هنا حال من فاعل ترقي، أي على أي حال ترقي الأنبياء رقيك؟ أي لا يكون ذلك"[8]، فالاستفهام فيه إنكاري إبطالي بمعنى النفي كما سبق في البيت، وكقوله تعالى "فكيف تتقون إن كفرتم يوما"[9]، على تأويل أي لا ترقي الأنبياء وفيكم الحسن، وهو رقيه ﷺ ليلة أسرى بجسمه الشريف، يقظة على الأصح فيهما، بمكة قبيل الهجرة إلى سبع سموات ثم إلى سدرة المنتهى، ثم إلى ما فوق ذلك مما لا يصل إليه نبي مرسل ولا ملَك مقرب، كما سيأتي الكلام عليه إن

---

[1] سورة البقرة آية 28.
[2] كيف يرجون سقاطي بعدما --- لاح في الرأس بياض وصلع. وهو بيت لقصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري مطلعها "بسطت رابعة الحبل لنا". ونقل العلامة سيدي يحيى عن القاموس فصحيح، إلا "ترجون"، حيث نجد في القاموس "يرجون".
[3] سورة الفيل، آية 1.
[4] سورة النساء، آية 41.
[5] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1449.
[6] سورة المائدة، آية 64.
[7] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.75.
[8] نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.
[9] سورة المزمل، آية 17.

شاء الله مبسوطا في محله. والمعنوي وهو التنقل من كل صفة كاملة وخلق عظيم إلى أكمل وأعظم منهما، إلى ما لا يعلمه إلا الله، مما لا يصل إليه مخلوق. وقال ابن حجر في كلامه: "استعمال المشترك في معنييه أو الجمع بين الحقيقة والمجاز[10]، وهو الأصح عند الأصوليين، وعلى مقابله المنقول عن الأكثرين يكون من عموم المجاز"[11].

ورقيك مفعول مطلق، وزنه فُعول قلبت واوه ياء وأدغمت في الياء بعدها، وقلبت ضمته كسرة لمجانسة الياء، ومنه "لن نومن لرقيك"[12] في الآية أي صعودك، والماضي رَقيَ كرَضيَ في الحسيات، وكضَرِبَ في المعنويات، قاله ابن حجر[13]. قيل وهو يتوقف على نقل اللغة، لأنه لم يذكر في القاموس إلا الأول، فظاهره أنهما واحد. والأنبياء جمع نبيء كفعيل، بمعنى فاعل أو مفعول، من النبأ مهموزا أي الخبر، وقد لا يهمز تخفيفا لأنه مخَبَّر من الله [تعالى] ومخَبِّر عنه، أو من النبوة أي الرفعة، لأنه مرفوع الرتبة عن غيره من الخلق، فلا يهمز، فيكون صفة مشبهة كوَلِي وغَنِي، وقُرِئَ بهما في التنزيل. قال جلال الدين المحلي في شرحه لجمع الجوامع، وهو يعني النبي: "إنسان أوحيَ إليه بشرع وإن لم يؤمر بتبليغه، فإن أُمر بذلك فرسول أيضا، أو أمر بتبليغه وإن لم يكن له كتاب، أو نسخ لبعض شرع مَن قبله كيوشع. فإن كان له ذلك، فرسول أيضا قولان، فالنبي أعم من الرسول عليهما [السلام]. وفي ثالث[14] أنهما بمعنى وهو معنى الرسول على الأول المشهور".

ولا يطلق الرسول على غير الأدمي كالمَلَك والجني إلا مقيدا، كقوليه تعالى "جاعل الملائكة رسلا"[15]، "الله يصطفي من الملائكة رسلا"[16]، على أن الإرسال فيهما

---

[10]يؤكد هنا المؤلف أن الإسراء كان بالروح والجسد الشريفين، ولا يوافق رأي الحسن البصري الذي قال إنها رؤيا منام، وكذلك ما نقل عن أمنا عائشة وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، من قول إن الإسراء كان بالروح فقط، واحتج العلماء في نفي ذلك القول على أن واقعة الإسراء كانت في مكة قبل الهجرة النبوية بعام على أقل تقدير، وأن معاوية كان كافرا حين حدوث الإسراء، وأمنا عائشة كانت صغيرة السن لم يتزوجها بعد سيدنا رسول الله ﷺ.

[11]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.76.

[12]سورة الإسراء، آية 93.

[13]لم أقف عليه.

[14]أي في قول ثالث عن السابقين.

[15]سورة فاطر، آية 1.

[16]سورة الحج، آية 75.

غيره في الأول[17]، إذ هو فيه إيحاء ما يعتبر به هو وأمته، وفيهما مجردا لإرسال بما يوصله إلى الغير. قال ابن حجر: "ويندرج الرسل في قوله الأنبياء، فيلزم من نفي رقي الأنبياء، وفيه نفيه عن الرسل لأن الحقيقة مطلقة، فالنبوة التي تضمنها نفي الأنبياء هنا يستلزم نفيها مع قيدها، ولا عكس كما صرحوا به. وفي قوله ما طاولتها تصريح بنفي رقي الكل رقيه[18]، فيكون الناظم ممن يرى ترادفهما كما تقدم. ونقله ابن الهمام في مسايرته[19] عن المحققين فلا يحتاج إلى ذلك استلزام"[20].

ويا حرف نداء للبعيد أو المنزل منزلته، وهو هنا إشارة إلى بعد مرتبته ﷺ عن أن تدرك أو تَسَامى[21] لعلوها. وسماء نكرة مقصودة استعارتها[22] لنبينا محمد ﷺ خاصة وفي التصريح. وأما نحو "يا لطيفا لم يزل"[23]، فقال الموضح: "ليس الجملة نعتا لما قبلها، وإنما هي في موضع الحال من الضمير في الصفة، وهي للمخاطب بالنداء، والمنادى منصوب كما في -يا طالعا جبلا-، فهو من الشبيه بالمضاف"، وفيه رد على ابن مالك[24] حيث جعل الجملة نعتا. وسماء الثانية فاعل طاولتها، استعَارَها لجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أي يأمن هو بالنسبة إلى غيره من الأنبياء كسماء ما طاولتها، أي ما غالبتها[25] في علوها وارتفاعها غيرها من السماوات، فهو أبلغ من التعبير بطالتها، فكأنه يقول لم يطمع غيره في مطاولتها، فأحرى أن يطولها. ولا تقتضي هنا كيف تعجبا، لأن التعجب إنما يكون مما هو واقع كما سبق في آية "كيف تكفرون بالله"، وما بعد كيف هنا ليس بواقع، فتعيّن أن تكون للنفي خاصة. ولما كان اللفظ ربما أوهم لمن تشكك فيه، أن رقى الأنبياء رقيه واقع، فيكون متعجبا منه رفع ذلك الإيهام وإن كان يفيد ما طاولتها، لكن زاد تأكيدا في

---

[17]أي الأدمي.

[18]أي رقي سيدنا محمد ﷺ.

[19]كمال الدين محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد السيواسي الحنفي، المعروف بابن الهمام المتوفى سنة 861هـ، "المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة".

[20]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.77.

[21]ومعنى "تَسامى" هنا "يعلو عليها".

[22]استعارة في البلاغة: التي ذكر فيها ما يلائم المشبه بعد استيفاء القرينة.

[23]مطلع قصيدة توسل وتضرع لله عز وجل من نظم الحبيب عبد الله بن علي الحداد.

[24]محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني المعروف بابن مالك، توفى سنة 672هـ، عالم لغوي كبير وأعظم نحوي في القرن السابع هجري، ومن أشهر كتبه ألفية ابن مالك. ومن مخطوطات خزانة ضريح المولى إدريس الأكبر "شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك"، ولربما اعتمد سيدي يحيى على هذا المخطوط في تأليفه.

[25]من فعل غالَب، ومعناه هنا حاول أن يغلب.

البيان بقوله :

لَمْ يُساوُوكَ في عُلاكَ وقد حَا --- لَ سَنًى[26] منكَ دونَهُم وسَناء

أي لم يماثلوك فيما خصك الله به من علو مرتبتك وعظيم شأنك. ولم يساووك واو محذوفة بعد سلب حركتها للثقل، وعلاك بضم أوله: "جمع عُليا بالضم، تأنيث أعلى ككبرى، جمعه كبر من علا، كدَعا ورضى: يعلو علوا في المكان، وبالفتح والمد: الرفعة، ومصدر على كرضى في المكارم"[27]، كذا في القاموس. وواو قد حال للحال اللازمة من فاعل يساووك أو من مفعوله أو للاستئناف، أي حجزٌ ومنعٌ من مساواتهم لك. "سنى بالقصر فاعل حال، أي ضوء عظيم خصك الله به دونهم، سطع منك، وهو مجاز عن علوم القرآن، المحيطة بعلوم الأولين والآخرين وغيرها التي اختص بها [ﷺ]، وأمره ربه أن يسأل الزيادة منها، فهو اقتباس من تسميته تعالى للقرآن نورا في آيات كثيرة، كقوله "واتبعوا النور الذي أنزل معه"[28]، وعما خصه الله به من جمال الظاهر بما آتاه من الحسن في خَلقه، الذي لم يلحقه نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام فضلا عن غيره، كما أخبر به ﷺ[29]، وفي خُلقه بما أبان الله تعالى رفعته به إلى الغاية القصوى، بقوله جل من قائل -وإنك لعلى خلق عظيم-[30]، وهذا مقتبس من تسميته تعالى لنبيه نورا في نحو قوله -قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين-[31]"[32]، قاله ابن حجر في المنح المكية.

والسنا بالمد: العلو والارتفاع، أي أوتيت رفعة عظيمة لم ينته إليها مخلوق فانتفت مساواتهم لك، لمانعٍ مَنَعَ من اللحوق[33] بك، وهو ما خصك الله به مما ذكر. وواحد من السنا والسناء كاف في الحيلولة دونهم، فضلا عن اجتماعهما، وفيه الجناس المذيل، وهو تماثل اللفظين وانفراد أحدهما بزيادة حرف في آخره، كقولهم "العار

---

[26] هكذا كذلك عند السنباطي بينما في "المنح المكية" كُتبت "سناً".
[27] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1138.
[28] سورة الأعراف، آية 157.
[29] ربما قصد المؤلف ما روى الإمام الترمذي عن أنس: "ما بعث الله نبيا إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم وجها وأحسنهم صوتا".
[30] سورة القلم، آية 4.
[31] سورة المائدة، آية 15.
[32] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.86.
[33] مصدر لَحِقَ، بمعنى الإدراك.

ذل العارف".

ودون لها معانٍ، قال الصغاني: "تكون بمعنى عند ونقيض فوق وبمعنى أمام"[34]. ووراء فهي من الأضداد، زاد في القاموس: "بمعنى فوق" وهو الأنسب هنا.

[ثم قال الناظم]:

إنما مَثَّلُوا صِفاتِكَ للنا --- سِ كما مَثَّلَ النجومَ الماء

قال في المنح: "إنما للحصرعند الجمهور، ويقال له القصر، وهو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص، ومنه قصر الصفة على الموصوف، وعكسه، وكل منها إما حقيقي أو مجازي. فالحقيقي نحو: ما زيد إلا كاتب، أي لا صفة له غير ذلك، وهو كالمستحيل لتعذر أن يكون لذات صفة واحدة فقط، ولم يقع منه شيء في القرآن. والمجاز نحو: -وما محمد إلا رسول-[35]، أي مقصور على الرسالة، فلا يتعداها إلى التبري من الموت الذي استعظموه ذهولا منهم عن كونه من شأن الإله"[36]. والمحصور فيه لا يكون إلا متأخرا عن المحصور غالبا، ومن ثم كان مفاد "إنما قام زيد": قصر القيام على زيد، و"إنما زيد قائم": قصر زيد على القيام دون غيره من الصفات. ومثلوا أي صوروا أو وصفوا، أي الأنبياء أو الواصفون، وإن لم يتقدم لهم ذكر، لأنه معلوم كقوله تعالى "حتى توارت بالحجاب"[37]. "وصفاتك جمع صفة، وهو ما دل على معنى زائد على الذات، إما محسوس كالبياض أو معقول كالعلم"[38].

وما مصدرية كقوله تعالى "بما نسوا يوم الحساب"[39]، وليست موصولا إسميا لعدم العائد، وهي وصلتها نعت لمصدر محذوف أي تمثيلا كتمثيل الماء النجوم. قال في المنح: "وأصل ماء موه بتحريك همزه بدل من الماء"[40]، ويدل عليه جمعه على مياه.

---

[34] الصغاني، التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية، ج.6، ص.232.
[35] سورة آل عمران، آية 144.
[36] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.89 و90.
[37] سورة ص، آية 32.
[38] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.90.
[39] سورة ص، آية 26.
[40] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.90.

"والمعنى أن الضمير للأنبياء إنما شاركوه فيه من الصفات وإن كملت فيهم، ولم يصل لأدناها غيرهم، فهي فيه بلغت من الكمال ما لم تبلغ في مخلوق، فتكون فيه حقيقة بالنسبة لغيره كالنجوم الحقيقية المرئية ذاتها من غير حائل، وفيهم[41] كصور النجوم المرئية في الماء دون حقائقها، وشتان ما بينهما. وعلى أن الضمير للواصفين فإنهم، وإن أكثروا الأوصاف وتعبوا في إيرادها على غاية أنواع البلاغة وأكمل قوانين الفصاحة، فغاية ما وصلوا إليه أن أدركوا لوائح[42] منتها، وعجزوا عن إدراك حقائقها، كما أن غاية من يرى النجوم في الماء أنه يدرك مبادي أوصافها وأشكالها لا حقائقها"[43]، قاله في المنح. والحاصل أن الضمير إن كان للأنبياء يكون نظير قوله في البردة[44]: "فإنه شمس فضل هم كواكبها" البيت، وإن كان للواصفين جعل الناظم أوصافه قائمة به بمنزلة النجوم في السماء كما سبق. وقد أُعطي ﷺ، من صفات الكمال وبارع الحسن والجمال، ما لم يُعطه أحد قبله. قال الهيتمي في أول شرحه للشمائل : "واعلم أن من تمام الإيمان به ﷺ، اعتقاد أنه لم يجتمع في بدن آدمي من المحاسن الظاهرة ما اجتمع في بدنه الشريف، وسر ذلك أن المحاسن الظاهرة آيات دالة على المحاسن الباطنة والأخلاق الزكية، ولا أكمل منه بل ولا مساو له في هذا المدلول، فكذلك في الدال، ومن ثم نقل القرطبي عن بعضهم أنه لم يظهر تمام حسنه ﷺ، وإلا لما طاقت الصحابة النظر إليه"[45].

ثم قال [الناظم]:

أنتَ مِصباحُ كل فَضلٍ فما تَصْـ --- دُرُ إلا عن ضَوئِكَ الأَضْواء

<u>المصباح</u>: السراج، أي أنت أيها العلم المفرد الذي لا يُساوى ولا يدانى، سراج كل نور أوتيه كل أحد من الأنبياء والأولياء وغيرهم. شَبه <u>الفضل</u> بالضوء استعارة[46] بالكناية وأثبت لازمه وهو المصباح، وفسر ذلك بقوله <u>فما تصدر</u>، <u>فما</u> نافية و<u>إلا</u>

---

[41] أي الأنبياء.
[42] أي ما لاح منها مما مَنّ الله عز وجل به عليهم.
[43] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.90، بالتصرف.
[44] قصيدة البردة للإمام البصيري حيث يقول: فإنه شمس فضل هم كواكبها --- يظهرن أنوارها للناس في الظلم.
[45] ابن حجر الهيتمي، أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، ص32.
[46] الاستعارة في علم البلاغة هي تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه، أي أن التشبيه يتطلب ذكر المشبه والمشبه به، فإذا حذف أحدهما صارت استعارة.

إبطال النفي، والأضواء فاعل تصدر أي تثبت.

والمعنى: إن كل من تقدم عليه في الوجود أو تأخر[47]، فلا تستمر أضواؤهم إلا من ضوئه ﷺ، ولا يبرز في الوجود ضوء ينشأ عن ضوء غيره، فهو المخصوص بأنه الذي نشأ عن ضوئه جميع الأضواء. وهو الواسطة في كل مطلوب، ومن ثم قال القطب بن مشيش[48] : "ولا شيء إلا وهو به منوط"[49]. وكل هُدى اهتدي به أو هَدى إليه كل نبي أو ولي، فهو في الحقيقة من هداه، وهم نوابه، وكل ما أظهر الله على أيديهم من المعجزات والآيات وسائر المزايا والكرامات، فهي مستمدة منه، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله مبسوطا عند تصريح الناظم بذلك في قوله "كل فضل في العالمين" البيت، لأنه الخليفة الأعظم الممِّد لكل مخلوق، ودليله ما صح عنه ﷺ "آدم فمن دونه تحت لوائي"[50]، وحديث "أنا قاسم والله يعطي"[51]، وحديث "لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي"[52]. قال في المنح "وأثر التشبيه بالسراج عن القمرين لأنه تقتبس منه الأنوار بسهولة، وتخلُفه فروعه فتبقى بعده. ووجه التشبيه، أن نوره ﷺ يظهر الأشياء المعنوية كنور البصائر، ونور السراج يظهر الأشياء المحسوسة كنور البصر. ولا ريب أن المحسوس أظهر من المعقول من حيث أنه معقول، فلذا شبه نوره ﷺ، لكونه معقولا، بنور السراج لكونه محسوسا، فلا يُنافي ذلك أن السراج دونه ﷺ، بل ولا نسبة بينهما، ويمكن أن يكون من التشبيه المقلوب كما في قوله تعالى -أفمن يخلق كمن لا يخلق-[53]"[54]. فهذا ما يُعتقد فيه ﷺ وإن تأخر وجوده عن جميع الأنبياء صلوات الله عليهم، لأن نوره متقدم عليهم لحديث عبد

---

[47] يعني الأولياء.

[48] المولى عبد السلام بن مشيش الإدريسي الحسني المتوفى سنة 626هـ شيخ أبي الحسن الشاذلي وضريحه بجبل العلم، إقليم العرائش-المملكة المغربية.

[49] الصلاة المشيشية لمولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه.

[50] من حديث أخرجه الإمام الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: "قال رسول الله ﷺ: -أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ، آدم فمن سواه، إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر-".

[51] من حديث أورده الإمام البخاري هذا نصه: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله".

[52] من حديث أخرجه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله هذا نصه:" أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني".

[53] سورة النحل، آية 17.

[54] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.95. لم يرد النص هكذا حرفيا ولكن المعنى صحيح مقارنة مع ما جاء في المرجع المطبوع.

الرزاق[55] بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: "قلت : -يا رسول الله، أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء-، قال: -يا جابر، إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار، ولا ملَك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جن ولا إنس، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم وهو المعرفة بالله، ومن الثالث نور ألسنتهم وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله"[56] الحديث. وصح في حديث آخر رواه الترمذي وابن حبان والحاكم من حديث العرباض بن سارية: "إني لمكتوب خاتم النبيئين وإن آدم لمنجدل في طينته"، لكن في سنده أبو بكر بن أبي مريم وهو ضعيف، [وحديث:] "متى كنتَ أو كُتبتَ نبيا؟، قال: وآدم بين الروح والجسد"[57]، وليس المراد تقدير النبوءة لأن غيره كذلك، بل المراد أن روحه العلية ثبت لها ذلك السر دون غيرها في عالم الأرواح، إذ ورد أن الأرواح خلقت قبل الأشباح بألفي عام.

ثم قال [الناظم] رحمه الله:

لَكَ ذَاتُ العُلومِ مِن عالِمِ الغَيْـ --- بِ ومِنها لآدَمَ الأَسْماء

لك خبر مقدم لإفادة قصره عليه أي لا لغيرك، وذات مبتدأ أصلها مؤنث ذو، المقتضية لموصوف اللازمة للإضافة غالبا كـ"رجلٍ ذي مال"، ثم استعملت استعمال الأسماء المستقلة فقالوا: ذات قديمة، ونسبوا للفظها وقالوا ذاتي، وتطلق على حقيقة الشيء وهو المراد هنا. ومنه قول خبيب رضي الله عنه: "وذلك في ذات الإله وإن يشأ"[58] البيت. فالنبي ﷺ علم حقائق المعلومات من فيض عالم الغيب ومواهبه، كما

---

[55]مصنف عبد الرزاق بن همام الصنعاني المتوفى سنة 211هـ.

[56]هذا الحديث نسبه الإمام القسطلاني إلى عبد الرزاق في مؤلف "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية". ومصنف عبد الرزاق المطبوع سنة 1390هـ في الهند، وحققه حبيب الرحمان الأعظمي، فلا ينص على هذا الحديث. ونلاحظ أن تقسيم الجزء الرابع إلى أربعة أجزاء، لم يتبعه تخصيص للربع الأخير منه.

[57]أخرجه الإمام الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[58]حبيب بن زيد بن عاصم رضي الله عنه، صحابي من الأنصار توفي سنة 11هـ. وربما المقصود إنشاده:
"لست أبالي حين أقتل مسلما---على أي جنب كان في الله مصرعي

في الحديث المشهور "علمت علم الأولين والأخرين"[59]. والأسماء مبتدأ ولآدم خبره، ومنها حال من الأسماء وضميره يرجع إلى العلوم. وقوله تعالى "وعلم آدم الأسماء كلها"[60]، قال بعض من تكلم على هذا المحل: أي من حيث دلالتها على مسمياتها ولم يعلم حقائقها، لأن الموجودات لها حقائق ومفهومات، فالمفهوم ما يفهم من الاسم في الجملة، وهو للموجود والمعدوم، والحقيقة ماهية الشيء على سبيل التفصيل، ولا تكون إلا للموجود. فكان لسيدنا آدم، بالنسبة للأشياء التي عرضت عليه، علم مفاهيمها، ولسيدنا محمد ﷺ علم حقائقها وفي ضمنه علم مفاهيمها، فعرفها من الوجه الأعم والأخص، وبالثاني أختص عن آدم عليهما الصلاة والسلام.

قال في المنح المكية: "واحتاج الناظم إلى هذا التفصيل مع العلم به مما قبله، لأن آدم ميزه الله عن الملائكة بالعلوم التي علمها له، وكانت سببا لأمرهم بالسجود والخضوع له، بعد استعلائهم عليه بذمه ومدحهم لأنفسهم بقولهم -أتجعل فيها-[61] الآية، فربما يُتوهَّم أن هذه المرتبة الباهرة لم تكن لنبينا ﷺ، فرفع ذلك الإيهام بأن آدم عليه السلام لم يحصل له من المعلومات إلا مجرد العلم بأسمائها، وإن الحاصل لنبينا العلم بحقائقها ومسمياتها. ونظير ذلك أن المقصود من خلق آدم، إنما هو خلق سيدنا محمد ﷺ من صلبه، فهو المقصود بطريق الذات، وآدم بطريق الوسيلة، ومن تم قال بعض المحققين إنما سجد الملائكة لآدم لأجل نور محمد ﷺ الذي في جبينه"[62].

قال ابن عطية: "اختلف المتأولون في قوله تعالى –الأسماء-، فقال جمهور الأئمة علمه المسميات، وقيل عرض عليه الأشخاص، والأول أبين، ثم اختلف في أي الأسماء علمه، فقال ابن عباس وجماعة: -علمه كل شيء وجميع المخلوقات دقيقها وجليلها-، وقيل: -علمه أسماء النجوم فقط-، وقيل: -أسماء الملائكة فقط-، وقيل: -أسماء ذريته فقط-"[63]، وذكر أقوال غير هذه.

ثم قال [الناظم]:

وذلك في ذات الإله وإن يشأ---يبارك على أوصال شلو ممزع".

[59] أورده ابن عربي في الفتوحات المكية.

[60] سورة البقرة، آية31.

[61] "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك"، سورة البقرة، آية 30.

[62] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.97، بالاختصار.

[63] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج.1، ص.119، بالتصرف.

لَم تَزَل في ضَمائِرِ الكَوْنِ تُختا--- رُ لكَ الأُمَّهاتُ والآباء

اسم تزل ضمير يرجع إلى النبي ﷺ، والمجرور بعده حال منه، والضمائر: مستورات الوجود الخفية من الأصلاب والأرحام، وتختار أي تُنتخب، والأمهات نائب فاعله، والجملة خبر تزل، وهو [أي الأمهات] جمع أم وأصلها أمهة بدليل الجمع. والآباء جمع أب، وأصله أبوبا لتحريك حذفت واوه تخفيفا.

والمعنى: كما طابت ذاتك بما أوتيته من أعلى الكمالات، طاب نسبك لأجلك فلم يكن في آبائك، من لدن آدم إلى عبد الله، ولا في أمهاتك، من لدن حواء إلى آمنة، إلا مَن هو مُختار مُطهر من كل ما يدنِّس، نَسَبُهُ لحديث أبي النعيم: "لم يلتقي أبواي قط على سفاح، ولم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهديا، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما"[64]، وحديث الترمذي بسند حسن: "إن الله خلق الخلق فخلقني في خير فرقهم، ثم تخير القبائل فجعلني في خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسا -أي روحا وذاتا-، وخيرهم بيتا -أي أصلا-"[65]. ورُوي أن آدم عليه السلام، وَلَدَ من حواء أربعين ولدا في عشرين بطنا، إلا شيت وحده فإنه ولد منفردا كرامة له، ليكون نبينا محمد ﷺ من نسله، ثم لما توفى أوصى بنيه بوصية أبيه له، ألا تضع هذا النور الذي كان في جبهة آدم ثم انتقل إلى شيت إلا في المطهرات من النساء، ولم تزل هذه الوصية معمولا بها في القرون إلى أن وصل ذلك النور لجبهة عبد المطلب، ثم ولده عبد الله، فطهر الله تعالى هذا النسب الشريف من سفاح الجاهلية، كما ورد في الأحاديث[66].

قال في المنح: "ولك أن تأخذ من كلام الناظم الذي علمت، ما[67] الأحاديث مصرحة به لفظا في أكثره ومعنا في كله، أن آباء النبي ﷺ غير الأنبياء، وأمهاته إلى آدم وحواء، لم يكن فيهم كافر، لأن الكافر لا يقال فيه مختار ولا كريم ولا طاهر، بل نجس كما قال تعالى -إنما المشركون نجس-[68]، وقد صرحت الأحاديث أنهم

---

[64] أخرجه أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو النعيم عن ابن عباس في "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء".
[65] أخرجه الإمام الترمذي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنه.
[66] ذكره القسطلاني في المواهب اللدنية.
[67] في المرجع "أن".
[68] سورة التوبة، آية 28.

مختارون، وأن الآباء كرام والأمهات طاهرات، وأيضا فيهم إلى إسماعيل، كانوا أهل فترة، وهم في حكم المسلمين، لقوله تعالى -وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا-[69]، وكذا بين كل رسولين، وأيضا قال تعالى -وتقلبك في الساجدين-[70]، على أحد التفاسير فيه أن المراد تنقل نوره في الأصلاب من ساجد إلى ساجد، فهذا صريح في أن جميع آبائه ﷺ من الناجين، فأحرى أبوه عبد الله وأمه آمنة، لأنهما أقرب المختارين له، وهذا هو الحق"[71]. ولله ذر شمس الدين بن ناصر الدمشقي[72] حيث يقول:

تنقل أحمد نوراً عظيماً --- تلألأ في جِباه السَّاجديـن

تَقَلَّب فيهم قرناً فقرناً --- إلى أن جاء خيرُ المُرسَلين

وانظر تأليف المحب الحافظ جلال الدين السيوطي المسمى ب"الدرج المنيفة في الآباء الشريفة"[73]، فقد أطال فيه في تشريف هذا النسب الكريم وتطهيره من أكدار[74] الجاهلية، وتنزيه أبويه عن الشرك وأنهما من الناجين[75]، واستدل على ذلك بشواهد كثيرة من الكتاب والسنة، وذكر فيه أنهما كانا على دين إبراهيم عليه السلام، كما كان عليه طائفة من العرب. وفي حديث، صححه غير واحد من الحفاظ ولم يلتفتوا لمن طعن فيه، أن الله أحيى له فآمنا به[76]، خصوصيةً لهما وكرامةً له ﷺ، وفي ذلك يقول الحافظ ابن ناصر الدين [الدمشقي]:

جزى الله النبي مزيد فضل --- على فضل وكان ربه رؤوفا

فأحيـــــــا أمه ثم أبــــــاه --- لإيمـــان به فضلا لطيفـــــا

ثم قال [الناظم]:

ما مَضت فترةٌ من الرُّسلِ إلا --- بَشَّرَت قومَها بكَ الأنْبِياء

---

[69] سورة الإسراء، آية 15.
[70] سورة الشعراء، آية 219.
[71] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص. 100 و101. مع اختلاف بسيط لا يغير المعنى.
[72] شمس الدين بن ناصر الدين القيسي الدمشقي الشافعي المتوفى سنة 842هـ، ومن مؤلفاته "تحفة الإخباري بترجمة صحيح البخاري" و"عقود الدرر في علوم الأثر".
[73] من نفائس المخطوطات، لم يتم طبعه إلى اليوم.
[74] ومعناه "ظلمات".
[75] في النسخة الصبيحية سقطت الكلمة سهوا من الناسخ.
[76] ذكره جلال الدين السيوطي في "الحاوي للفتاوي".

الفترة ما بين موت الرسول إلى بعثة غيره من الرسل، كما بَيْن نبي الله عيسى ونبينا محمد عليهما صلوات الله وسلامه، اختلف في قدر ما بينهما، قال ابن حجر الهيتمي: "المشهور أنه نحو ستمائة سنة"[77]. والرسل جمع رسول وتقدم معناه، وبشرت من البشارة، قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى "وبشر الذين آمنوا"[78] في أول سورة البقرة: "بشر مأخوذة من البشرة، لأن ما يبشر به الإنسان من خير أو شر يظهر عليه أثره في بشرة وجهه، والأكثر استعماله في الخير، وقد يستعمل في الشر مفيدا بالتنصيص على الشر المبشر به، كقوله تعالى -فبشرهم بعذاب أليم-[79]"[80]. وقومها أي أُمَمها مفعول بشرت، والأنبياء فاعله، وفيه تقدم المفعول المتلبس بضمير الفاعل المتأخر عنه لفظا، وهو كثير.

والمعنى: ما مضت مدة خالية من بعث الرسل نُسي فيها ذكرك، إلا جددته الأنبياء بعدها وبشروا أممهم بقرب بعثتك الحميدة وطلعتك السعيدة، فيسرون بها فرحا لما يسمعون من مآثرك. فتعبير بشرت أبلغ من أن لو قال أخبرت، لما فيه من مطلق الخبر فقط. والمراد بالأنبياء هنا الذين بعثوا بعد تلك الفترات، حيث أخذوا العهد على أممهم بأن كل من أدرك منهم بعثتك ليؤمنن بك ولينصرنك، لأخذ الله تعالى عليهم العهد بذلك، الدال عليه قوله تعالى "وإذ أخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيناكم"[81] الآية، ففي كلام الناظم استدلال واضح على كمال شرفه ورفعته ﷺ على سائر الرسل، وأنه نبي الأنبياء المتقدم عليهم، التابعين له هم وأممهم، وشاهده ما في الآية وقوله ﷺ السابق: "لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي". وفي كلام الناظم إشارة إلى قوله تعالى حاكيا عن عيسى ابن مريم "ومبشرا برسول يَاتي من بعدي اسمه أحمد"[82]. واختلف في أي وقت أخذ هذا العهد على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقال ابن عباس وعليٌ وجماعة: "إن الله تعالى أخذ على كل نبي في بعثته، من لدن آدم إلى محمد ﷺ، عهداً لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه". ويلزم من هذا، أن

---

[77]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.104.
بين ميلاد المسيح عيسى عليه السلام والهجرة النبوية الشريفة 622 سنة شمسية.
[78]سورة البقرة، آية 25.
[79]سورة الانشقاق، آية 24.
[80]ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.1، ص.108.
[81]سورة آل عمران، آية 80، برواية ورش عن نافع.
[82]سورة الصف، آية 6، برواية ورش عن نافع.

الأنبياء كانوا يأخذون الميثاق والعهد من أممهم به، كما دل عليه قول عيسى عليه الصلاة والسلام في الآية. وقال ابن عطية: "يحتمل أن يكون أخذ هذا الميثاق حين أخرج بني آدم من ظهره نسما، ويحتمل أن يكون أخذه على كل نبي حين بعثه"[83]. وقال في المنح: "وفي حديث عبد الرزاق السابق تأييد لما قيل أنه لما خلق الله نور محمد ﷺ، أمره أن ينظر إلى نور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فغشيهم من نوره ما أنطقهم الله به وقالوا: يا ربنا من غشينا نوره؟، فقال: هذا نور محمد بن عبد الله، إن أنتم آمنتم به جعلتكم أنبياء، فقالوا: آمنا به وبنبوته، فقال الله تعالى: أشهد عليكم، قالوا: نعم. فذلك قوله تعالى -وإذ أخذ الله ميثاق النبيئين-"[84]. ثم قال: "وحكمة أخذ هذا الميثاق، إعلام الأنبياء وأممهم، بأنه المتقدم عليهم وأنه نبيهم ورسولهم، وقد ظهر ذلك في الدنيا بكونه أَمَّهم ليلة الإسراء، ويظهر ذلك في الآخرة بأنهم يكونون تحت لوائه، بل وفي آخر الزمان بنزول عيسى عليه السلام بشريعته"[85].

ثم قال [الناظم]:

تَتَباهَى بكَ العُصورُ وتسمو --- بكَ عَلْياءُ بعدها عَلْيَاء

البهاء: "الحسن"، كما في القاموس[86]، والعصور جمع عصر فاعل تتباهى، وهو زمان فيهم، أي تفتخر بوجودك الأزمنة بعضها على بعض بحسب القرب والبعد منك، لزمن نشأتك من لدن آدم إلى يوم القيامة، فيفتخر كل زمان قرب من زمانك قبل نشأتك إلى آدم، وما قارب منها بعدها إلى يوم القيامة. ومزاياه ﷺ، تتزايد في كل عصر من أعصر حياته، من زمن مولده إلى زمن رضاعه، ثم إلى زمن ترقيه في المراتب كنبوته ثم رسالته، ثم إسراءه، ثم هجرته إلى وفاته ﷺ، فتفتخر بعض أزمان حياته على بعض بحسب ذلك أيضا. وبالجملة فأفضل الأزمنة كلها، منذ خلق الله الدنيا إلى يوم القيامة، زمن وجوده ﷺ، وكان ذلك في آخر الألف السادس، قاله

---

[83] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج.1، صفحة 463. مع بعض الاختلاف عن النص المطبوع ولكن بنفس المعنى.

[84] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.94.

[85] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.105، مع بعض الاختلاف عن النص المطبوع ولكن بنفس المعنى.

[86] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.166.

فسر الفيروز آبادي "بهاء" ب «أنس»، ويظل المعنى موفورا كذلك إذا قلنا تأنس بك العصور والأزمنة. وأما في المنح المكية فنجد أن "تتباهى" معناها "تفتخر"، وهو نفس المعنى الذي أخذ به سيدي يحيى فيما يتبع من تفسير.

الحافظ جلال الدين السيوطي في تأليفه المسمى بالكشف، وذكر فيه أن عمر الدنيا كلها سبعة آلاف سنة، واستدل لذلك بأحاديث أوردها فيه[87]. وتسمو من سموت وسميت، أي تعلو كعَلَوْتَ وعَليت، وعلياء بالمد تأنيث أعلى فاعل تسمو، أو نعت لفاعل محذوف، أي في مرتبته. وعلياء الثانية مبتدأ، خبره في الظرف قبله، أي لك في كل عصر من الأعصر المذكورة، رتبة عليا بعدها رتبة أخرى علياء، أي أعلى منها، وهكذا إلى ما لا نهاية له. وقال بعدها ولم يقل فوقها، للدلالة على أنها أعلى منها، ليفيد أن العليا متأخرة عن غيرها، إشارة منه إلى أنه ﷺ لم يزل مدة حياته يترقى من مرتبة إلى مرتبة، وكل واحدة أعلى مما قبلها. وفي قوله تسموا بك إشارة إلى أن تلك "المراتب التي ترقى إليها هي التي شرفت به لا أنه شرف بها، وفيه من المدح ما لا يخفى عظيم وقعه، لجعله تلك المراتب التي يحصل بها الشرف هي التي شُرفت به، ولم يجرِ على ما هو المتبادر من أنه يسمو بها، إشارة أن الباري تعالى جعله في عالم الأمر على أكمل الحالات، ثم أبرزه في عالم الخلق مندرجا في تلك المراتب، فشرفت به لأنه كامل قبلها، فتأمل ذلك فإنه دقيق"[88] قاله في المنح، ودليل تفاوت مراتبه قوله تعالى [له ﷺ] "وقل ربي زدني علما"[89].

ولا شك أن علومه ومعارفه تتزايد وتتفاوت إلى ما لا نهاية له، لما في صحيح البخاري من قوله ﷺ: "إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة"[90]. قال في القاموس: "غُين على قلبه غينا: غُطي وألبس أو غشي عليه"[91]. قال العارف بالله أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: "هذا غين أنوار لا غين أغيار"[92]، لأنه ﷺ كان دائم الترقي، فكان كلما ترقى إلى حال[93] رأى أن ما قبلها

---

[87]جلال الدين السيوطي، الكشف عن تجاوز هذه الأمة الألف، تحقيق جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين، دار الدعوة – الكويت، الطبعة الأولى 1987، ص.23.
وردت أحاديث بهذا العدد، أي 1000سنة، عند السيوطي وابن عساكر وابن عدي والطبري والبيهقي وغيرهم. وهذا العدد لا يمكن حاليا الأخذ به حقيقةً، ولكن يمكن اعتماده مجازا، بدون ربطه بحساب الوقت والزمن من أعوام شمسية أو قمرية، لأن العلم الحديث يقدر عمر كوكب الأرض بأكثر من أربع آلاف مليون سنة شمسية، والله أعلى وأعلم.
[88]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.107، بالتصرف.
[89] سورة طه، آية 114.
[90]هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم عن الأغر المزني ولكن بعدد "مئة مرة". وأما الإمام البخاري فقد أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ "إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة".
[91]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1214.
[92]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.107.

دونها، فيستغفر الله تواضعا وطلبا لتزايد كماله.

ثم قال [الناظم]:

وبَدَا للوُجودِ منكَ كَريمٌ --- مِن كريمٍ آباؤُهُ كُرَماء

"أي ظهر لهذا العالم منك يا محمد مخلوق كريم، أي سالم من كل صفة نقص، جامع لصفة كل كمال، وهذا من أنواع التجريد الذي هو أرق أنواع البديع. والتجريد أن ينتزع من ذي صفة موصوف آخر بتلك الصفة مماثل له فيها، مبالغة لكمالها فيه، بحيث يصح أن ينتزع موصوف آخر بها، كقولهم: لي من فلان صديق حميم، أي بلغ فلان من الصداقة[94] لي حدا يصح معه أن يستخلص منه فلان آخر مثله في الصداقة. فهو ﷺ، لكماله في صفة الكرم أي علو قدره وعظيم شأنه، صح أن ينزع منه شخص كريم، مبالغة في كرمه وكماله فيه، ثم أن ذلك الكريم الذي ظهر لهذا العالم أي لتشريفه، وهو [سيدنا] محمد ﷺ، بدا من أب كريم سالم من نقص الجاهلية هو عبد الله، وإليه يرجع الضمير في قوله آباؤه كرماء، وهم عبد المطلب ومن فوقه، واسمه شيبة، أي جميعهم من لدن آدم إليه، كما أفادته الإضافة. وأراد بالآباء ما يشمل الأمهات كما سبق في النظم"[95]. وقد نظم ابن مرزوق هؤلاء الآباء في بيتين، يشير بأول كل كلمة إلى أول كل اسم منهم، مرتبا للكلمات على ترتيب الآباء، فقال:

علقت شفيعا هال عقلي قرانه --- كتاب مبين كسب لبي غرائبه

فدا معشر نفسي كرام خلاصتي --- منا الفهم مذ نيل مجد عواقبه[96]

وبيانهم: عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

قال في المنح: " قال ابن دحية: أجمع العلماء على أنه ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز عدنان، وفي مسند الفردوس عن ابن عباس أنه ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز معد بن

---

[93] هذا اللفظ يُستعمل مذكرا أو مؤنثا، غير أن التأنيث هو الأفصح لغويا.

[94] في النسخة الصبيحية كتبت "الصدقة" وهو خطأ نسخ، وكتبتها كما في النسختين العزيزية والحسنية.

[95] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.107 و108، بالتصرف.

[96] نسب البيتين للإمام ابن مرزوق في عدة مراجع، أذكر منها "الإشراف على بعض من بفاس من مشاهر الأشراف"، لمحمد الطالب ابن الحاج السلمي، انتشارات المكتبة الحيضرية -قم-إيران، الطبعة الأولى 1384هـ، ج.1، ص.161.

عدنان ثم يمسك ويقول: -كذب النسَّابون-"[97]، ثم قال: "وعن ابن عباس: بين إسماعيل وعدنان ثلاثون أبا لا يعرفون"[98].

ثم قال [الناظم]:

نَسَبٌ تحسبُ العُلا بِحُلاهُ --- قَلَّدَتهَا نُجومَها الجَوْزاء

في القاموس "النسب محركة، والنسبة بالكسر والضم: القرابة أو في الآباء خاصة"[99]، والمراد به هنا عموم نسبه ﷺ. والعلا[100] جمع عليا، كَفُعلى مثل كُبرى وكُبر، ومنه السماوات العُلا، وهو مؤنث أعلى كما سبق. والحُلي بضم أوله، وكسره أفصح، جمع حلية بالكسر. [وفي] القاموس: "الحلي: ما يتزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة، الجمع حِلي كدِلي، أو هو جمع واحد حِلية كظِبية، والحِلية بالكسر: الحَلْيُ، الجمع حِلي وحُلي"[101]. وأما الحُلِي بضم الحاء وكسر اللام، فقال ابن عطية في تفسير قوله [عز وجل] "من حُلِيهم"[102] : "هو جمع كثدي وثدي، وأصله حُلوى، قلبت الواو ياء وأدغمت فجاء حُلي، فكسرت اللام لتناسب الياء"[103].

ونسب خبر مبتدأ محذوف، أي هو نسب عظيم فلا أطهر ولا أجل منه في الأنساب، وتحسب أي تظن صفة له، وفاعله محذوف تقديره أنت، والعلا مفعوله الأول، وبحلاه متعلق به، وجملة قلدتها في موضع مفعوله الثاني، والجوزاء برج معروف في السماء، فاعل قلدت وضميره المنصوب عائد على العلا، وهو المفعول الأول ونجومها المفعول الثاني، والهاء فيه عائدة على الفاعل المتأخر عنه لفظا، وهو شائع وكثيرا ما يستعمله الناظم.

قيل: "الجوزاء شبيهة بالمرأة، فلذلك نسب التقليد إليها بأن جعلت أنجمها قلادة لتلك المعالي. والمعنى أن هذا النسب الكريم الكامل الشرف، تَحْسَبُ أيها المتأمل فيه أن

---

[97]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.108.
[98]نفس الإحالة السابقة.
[99]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1603.
[100]وتصح كذلك "العلى".
[101]نفس المرجع السابق، ص.398.
[102]سورة الأعراف، آية 148.
[103]ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.2، ص.455.
هناك اختلاف بسيط مع النص في المرجع، والذي جاء فيه: "هو جمع حلي على مثال ثدي وثديّ، وأصله حلوى قلبت الواو ياء وأدغمت فجاء حلي فكسرت اللام لتناسب الياء"، وهو بنفس المعنى إذا جعلنا الشدة على ياء "ثدي" الثانية.

معاليه، بحسب ما تحلى به من الكمالات، قلدتها الجوزاء نجومها. فعلم من كلامه أن كل واحد من أولئك الآباء الكرام قد ارتفع في زمانه، فساد[104] قومَهُ حتى صار كأنه النجم في الشرف والشهرة وعلو المرتبة، حتى يظن المتأمل أنه نجم من أنجم الجوزاء"[105].

ثم قال [الناظم]:

حَبَّذَا عِقدُ سُؤْدَدٍ وفَخارٍ --- أَنتَ فيهِ اليَتيمَةُ العَصْماء

حب بفتح أوله: فعل ماض غير متصرف، وهو مثل نِعْم في المدح، ويزيد عليه إفادة أن الممدوح به محبوب للقلب، وأصله حَبُبَ بالضم أي صار حبيبا، فقلبت ضمة الباء إلى الحاء ثم أدغم، فصار حُبَ بضم الحاء، ويجوز فيها الفتح مع التخفيف وعدمه كما في الموضع رعاية للأصل، والأصح أن ذا فاعله. وعقد بكسر أوله هو المخصوص أي قلادة، والسؤدد مصدر سادَ في قومه أي شَرف. والفَخار بفتح أوله مخففا: "التمدح بالخصال كالافتخار"[106]، كما في القاموس. واليتيمة الدرة أو الجوهرة العديمة النظير، التي لا شبيه لها في حسنها، والعصماء من العصمة، أي الحفظ والمنع من أن تصل إليها يد الأغيار، أو يساويها غيرها من الجواهر أو الدرر المنتظمة معها. "وجملة أنت وما بعدها، صفة لعقد أو حال منه لتخصيصه بالإضافة، وفي هذا غاية المدح له ﷺ ولنسبه الشريف، أي حبذا نسبك الذي إذا ذكر وعُدَّت فيه آباؤك، كانوا قلادة منتظمة من جواهر نفيسة ثمينة لا نظير لها، لها سيادة وفخار على جميع الجواهر، وأنت أنفس تلك القلادة وأغلاها وأعلاها"[107].

ثم قال [الناظم]:

ومُحَيّــاً كالشمسِ منكَ مُضيءٌ --- أَسفَرَت عنه لَيلَةٌ غَرّاء

لَيلةُ المَولِدِ الذي كــان للدّيــنِ --- سُرُور بيومهِ وازْدِهاء[108]

---

[104] أي كان سيد قومه.

[105] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.109، بالتصرف والاختصار.

[106] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1225.

[107] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.111، بالتصرف.

[108] في النسخة الصبيحية كُتب "...كان للدين سرور في يومه...". وفي النسخة العزيزية وكذا الحسنية "..كان للدين سرور بيومه.."، ونفسه في "المنح المكية" المطبوع، فرجحت ذلك.

المحيا: الوجه، اسم مفعول من التحية، سمي بذلك لأنه هو المُواجه بالتحية والسلام، ومحله رفع، هو المخصوص بالمدح بحبذا المحذوفة دَلت عليه المتقدمة، أو يكون استئناف محيا مبتدأ، ومنك ومضيء صفتان له، وكالشمس حال من ضمير مضيء، وجملة أسفرت خبر المبتدأ وهي مستأنفة، ومضيء خبر، وأسفرت خبر بعد خبر. وشاهده ما في صحيح البخاري وغيره عن الرُّبَيِّع بنت معوذ[109]، لروايتها: "قلت الشمس طالعة"[110]، والحديث المشهور عن أبي هريرة رضي الله عنه: "ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه"[111].

والمعتقد أنه ﷺ أحسن من ذلك كله، وإنما مثلوه لهم بأحسن شيء يعرفونه، ولم يدرك حقيقته منا سابق ولا لاحق، كما دل عليه قوله ""إنما مثلوا"[112] البيت، ولله در السيد حسان[113] قال:

روح من نور في جسم من القمر --- كحلة نسجت في الأنجم الزهـــر

لما نظرت إلى أنواره سطعت --- وضعت من خيفتي كفي على بصري

خوفا على بصري من حسن صورته --- فلست أنظره إلا علـــى قـدر

النور في وجهه الأنوار منه بدت --- والوجه مثل طلوع الشمس والقمر

وأسفرت أي أبانت عن محياه أو عن وجوده وخلقه، ومنه "والصبح إذا أسفر"[114] أي أضاء. وفي القاموس: "أسفرت المرأة: كشفت عن وجهها، فهي سافرة"[115]. وليلة بالرفع فاعل، وغراء صفة له، أي بيضاء بظهوره ﷺ فيها، مأخوذة من غرة الفرس. وفي الحديث: "الأيام الغراء"، في ذوات الليالي البيضاء لكمال القمر فيهن فتكون مضيئة. وهذا على القول بأنه ولد ليلا، أو عقبها على القول بأنه ولد نهارا وهذا الأصح.

وليلة الثانية بالرفع بدل من الأولى، وبالنصب نعت مقطوع، والمولِد بكسر اللام اسم

---

[109] الربيع بنت معوذ بن عفراء النجارية الأنصارية رضي الله عنها.

[110] سنن الدارمي ونصه: عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: "قلت للربيع بنت معوذ ابن عفراء: -صفي لنا رسول الله ﷺ-، فقالت: -يا بني لو رأيته، رأيت الشمس طالعة-".

[111] سنن الترمذي.

[112] أحد الأبيات السابقين من القصيدة الهمزية.

[113] الصحابي الجليل حسان بن ثابت رضي الله عنه، وله تنسب الأبيات الموالية.

[114] سورة المدثر، آية 34.

[115] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.777.

مصدر أريدَ به ولادته ﷺ. وفي إضافة الليلة إليه، وإضافة اليوم إلى ضميره، إشارة إلى الخلاف الوارد في ذلك، فيحتمل أن يكون الناظم من القائلين بولادته ليلا، المستدلين عليه بحديث عثمان بن العاص[116] عن أمه رضي الله عنهما، الآتي عند قوله: "وتدلت زهر النجوم إليه"، وبما رواه الحاكم أيضا من تصريح عائشة رضي الله عنها بذلك[117]، وإن يكون[118] من القائلين بولادته نهارا على الأصح، ومن تم صرح به في قوله "يوم نالت بوضعه"[119]، كما في حديث مسلم[120] وغيره، ولكن بُعيد الفجر، كما في حديث وإن كان فيه ضعف، لأن الضعيف في الفضائل والمناقب حجة اتفاقا، قاله غير واحد من الأئمة. وليس في تدلي النجوم عند ولادته ﷺ الآتي، دليل على أن ذلك كان قبل الفجر، لأن ظهورها بعد الفجر مشاهد دائما، ولا مانع من تدليها حتى بعد طلوع الشمس إكراما له وخرقا للعادة لأجله ﷺ. ويمكن الجمع بين الروايتين، فإن من أطلق ولادته ليلا أراد بها ما قبل طلوع الشمس، ومن أطلق الولادة نهارا أراد بها بعد طلوع الفجر، باعتبار أن النهار في عرف الشرع من طلوع الفجر إلى الغروب، وفي عرف الفلكيين أنه من طلوع الشمس. وقال القدوة العلامة خاتمة المحققين، وخلاصة النقاد المدققين بحضرة فاس حرسها الله، سيدي أحمد بن المبارك السجلماسي رحمه الله، في تأليفه المسمى بـ"الذهب الإبريز"، سماعا عن شيخه الأستاذ إمام أهل الفتح والعرفان والكشف والوجدان، مولاي عبد العزيز بن الدباغ الشريف الحسني، ما نصه: "-الذي في الواقع ونفس الأمر، أنه

---

[116]بل هو الصحابي الجليل عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه.

[117] جاء في "المستدرك عن الصحيحين" للإمام محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، عن عائشة رضي الله عنها: "كان يهودي قد سكن مكة يتجر بها، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، قال في مجلس من قريش: يا معشر قريش، هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقالوا: والله ما نعلمه، قال: الله أكبر، أما إذا أخطأكم فلا بأس، فانظروا واحفظوا ما أقول لكم، ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس، لا يرضع ليلتين، وذلك أن عفريتا من الجن أدخل أصبعيه في فمه، فمنعه الرضاع، فتصدع القوم من مجلسهم وهم متعجبون من قوله وحديثه، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله فقالوا: قد ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمدا، فالتقى القوم فقالوا: هل سمعتم حديث اليهودي وهل بلغكم مولد هذا الغلام؟ فانطلقوا حتى جاءوا اليهودي فأخبروه الخبر، قال: فاذهبوا معي حتى أنظر إليه. فخرجوا حتى أدخلوه على آمنة فقال: أخرجي إلينا ابنك فأخرجته، وكشفوا له عن ظهره فرأى تلك الشامة، فوقع اليهودي مغشيا عليه، فلما أفاق قالوا: ويلك ما لك؟ قال: ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل فرحتم به يا معشر قريش، أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب".

[118]أي الناظم الإمام البصيري.

[119]القصيدة الهمزية.

[120]لعله يقصد الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه، قال: "سُئل رسول الله ﷺ عن صوم يوم الاثنين؟ قال: ذاك يوم ولدت فيه".

عليه الصلاة والسلام ولد في آخر الليل قبل الفجر بمدة، وتأخر خلاص أمه إلى طلوع الفجر، والمدة التي بينهما هي ساعة الإجابة في الليل التي وردت فيها الأحاديث، وامتداد حكمها إلى يوم القيامة. وفي تلك الساعة يجتمع أهل الديوان، من أولياء الله تعالى من سائر الأقطار، وفيهم الغوث والأقطاب السبعة وأهل الدائرة والعدد، بغار حراء خارج مكة، وهم الحاملون لعمود الإسلام، ومنهم تستمد جميع الأمة، فمن وافق دعاؤه دعاءهم ووقوفه وقوفهم في تلك الساعة، أجاب الله دعوته وقضى وطره-[121]. وكان رضي الله عنه يدلنا على قيامها كثيرا، ويقول أن الفجر يطلع بمكة قبل طلوعه بمدينة فاس، فراقبوا في قيامكم فجر مكة، وذلك وقت قيام السلام بالقرويين أو الورد من بعده". ثم قال ابن المبارك: "وكذا سمعت من جماعة ممن اعتنى بأمر هذه الساعة المباركة ممن يسكن في غير مدينة فاس. وكنت حريصا على قيامها، فكنت أفيق في ذلك الوقت"[122]. وقد استدل صاحب "مرآة المحاسن"[123] على موافقة وقت دعاء أهل فاس يوم عرفة الوارد في الحديث، لموافقة وقت الوقوف بها ودعاء أهلها في ذلك اليوم، باستخراج طول مكة وطول فاس وما بينهما من الفضل، فاستخرج منهما وقت تلك الساعة لفاس. قال: "فيكون غروب الشمس بمكة سابقا على الغروب بفاس بثلاث ساعات معتدلة ونصف ساعة إلا نصف درجة، وهكذا كل وقت من أجزاء الليل والنهار"[124]. قال في المنح: "وعلى أنه ﷺ ولد ليلا: قيل إن ليلة مولده أفضل من ليلة القدر، واستدل قائله بوجوه كثيرة كلها مدخولة، كما يعلم ذلك الواقف عليها إن حقق ودقق"[125]. وقال سيدي محمد بن سعيد في شرح مقنعه[126]: "حدثني سيدي ومولاي وسمط محياي أبو محمد سيدي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني: إن الإجماع وقع على أفضلية ليلة المولد على ليلة القدر، ورأيت في المعيار أنها أفضل من ليلة القدر بنيف وعشرين وجها

---

[121] انتهى قول الشيخ الدباغ.
[122] أحمد بن مبارك السجلماسي، الإبريز، ص.166. وهذه الإحالة للنصوص الثلاث.
[123] أي سيدي محمد العربي بن يوسف الفاسي الفهري.
[124] محمد العربي الفاسي، مرآة المحاسن، ص.139.
[125] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.106.
[126] أي "الممتع في شرح المقنع".

فأنظرها"[127]. قلت: ولعل هذه الوجوه هي التي قال فيها صاحب المنح كلها مدخولة. وكان في البيت للدوام، كما في آية "وكان ربك قديرا"[128]، قال في الكافية: "ورادفت كان كثيرا لم يزل"[129]. والدين لغةً: الجزاء، وعرفاً: الشرع المبعوث به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[130]. والازدهاء مصدر من الزهو وهو الحسن، قلبت تاء الافتعال فيه دالا.

ولما ذكر [الناظم] في مولده الكريم من الفضل، ذكر ما يدل عليه من علامات نبوته الواقعة فيه فقال:

وتَوالَت بُشرى الهَواتِفِ أن قَد --- وُلِدَ المُصطَفى وحَقَّ الهَناء

البشرى فاعل توالت، أي تتابعت واتصلت، وفي القاموس ما معناه: "البشارة والبشرى: اسمان من التبشير والإبشار"[131]، ثم قال: "وأبشر بخير: افرح، ومنه- وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون-[132]"، وكذا في الصحاح. والهواتف جمع هاتف، وهو في الأصل ما يسمع هتفه أي صوته، وقيل: ما يسمع صوته الخفي ولا يرى شخصه. والمراد هنا ما أعم من ذلك، كإخبار الرهبان والجان والكهان، كما استوعبه أهل السير. وأن مخففة من الثقيلة، واسمها مستتر واجب الحذف، والجملة بعدها خبرها، وفصلها بقد رعاية للأحسن فيها. ومحل أن وما بعدها، نصب بنزع الخافض، والعامل فيه بشرى، والتقدير تتابع تبشير الهواتف الناس بأن ولد. والمصطفى من الصفوا، بدلت تاء الافتعال فيه طاء. وما أخبر به أهل السير من التبشير به ﷺ، أنه حين ولد هتف هاتف على الحجون[133] بقوله:

فأقسم ما أنثى من الناس أنجبت --- ولا ولدت أنثى من الناس واحدة

كـما ولـدت زهريـة ذات مفخر --- مجنبة لـوم القبائـل مـــــــاجدة

ومنه أيضا، أن هاتفا هتف على أبي قيس بأربعة أبيات، فيها ما في هذين البيتين

---

[127] محمد بن سعيد السوسي، الممتع في شرح المقنع، ص.19.
[128] سورة الفرقان، آية54.
[129] ابن مالك، الألفية، ص.19، بالتصرف.
[130] يؤكد العلامة الشبيهي هنا أن الدين واحد والشرائع مختلفة.
[131] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.133، بالتصرف.
[132] سورة فصلت، آية30.
[133] الحَجُون جبل في منطقة مكة المكرمة.

وزيادة. ومنه ما جاء بسند فيه ضعف، أن راهبا كان بمرِ[134] الظهران[135]، يقول: يوشك أن يولد منكم يا أهل مكة مولود اسمه محمد، تدين له العرب ويملك العجم، هذا زمانه. فكان لا يولد بمكة مولود إلا سأل عنه، فجاء عبد المطلب صبيحة ولادته ﷺ، فلما رآه الراهب قال: "كن أباه فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه، فما سميته؟"، قال: "محمدا". وروى الحاكم عن عائشة رضي الله عنها أنه: "كان بمكة يهودي فصاح ليلة ولادته: -يا أهل مكة هل ولد فيكم الليلة مولود؟-، قالوا: -لا نعلمه-، قال: -ولد هذه الليلة نبي الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة فيها شعيرات متواترات، كأنهن عرف فرس-. فأدخلوه على أمه وأُخرج له، فكشف عن ظهره فرأى تلك الشامة فخر مغشيا عليه، فلما أفاق قالوا: -مالك ويلك؟-، قال: -ذهبت والله النبوءة من بني إسرائيل-"[136]. والأخبار بهذا كثيرة تجل عن الحصر.

وحق الأمر يَحِق حَقه بالفتح: "وجب لازم متعد"[137]، كما في القاموس. وظاهره أن ماضيه كضَرَبَ، أي وَجَبَ الهناء، الموجب لفرح جميع الخلق بولادته ﷺ.

ثم قال [الناظم]:

وتَداعَى إيوانُ كِسرَى وَلَوْلَا --- آيةٌ منكَ ما تَداعَى البِنـاء

وغَـدَا كُلُّ بَيْتِ نـارٍ وفيـهِ --- كُرْبَةٌ مِن خُمُودِها وبَلاء

وعُيونٌ للفُرْسِ غارَت فَهَل كَا --- نَ لِنِيرَانِهِم بِهَا إطْفـاء

ذكر في كل بيت من الأبيات الثلاثة علامة دالة على نبوته ﷺ، وعظيم شأنه وعلو قدره حين ظهرت ولادته، منها أن إيوان كسرى بفتح أوله وكسره، ملك الفرس، تداعى للسقوط، أي دعا بعضه بعضا وأشرف على التلف، وهو كما في القاموس: "الصُّفة العظيمة"[138]، وقيل: موضع المَلِك، المعد لجلوسه مع أرباب دولته، لتدبير

---

[134] في النسخة العزيزية "بين"، وفي النسختين الأخريين "بمر".
[135] موقع يسمى حاليا وادي فاطمة، وهو من أودية تهامة في منطقة مكة المكرمة.
[136] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.115 و116، بالتصرف.
[137] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.385.
[138] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.84.
الصُّفَّة: البهو الواسع العالي السقف. وكانت كذلك تطلق على مكان مظلل في مسجد المدينة المنورة، كان يأوي إليه فقراء المهاجرين، ويقال لهم أصحاب الصُّفَّة.

مُلكه، وكان من أعلى جيب الدنيا سِعة وإحكاما وإتقانا. ولو هنا عند البيانيين[139] حرف وجود لوجود، أي وجد جوابها وهو تداعي السقوط لوجود تاليها، وهو آية ولادته ﷺ. وآية مبتدأ وهي العلامة، كقوله تعالى "إن آية ملكه"[140]، لأنها كانت علامة على ملك طالوت. ومنك صفة لآية، والخبر بعد لولا محذوف وجوبا عند الجمهور. والبناء فاعل تداعى، والـ فيه خلف عن الضمير، أي لولا آية ولادتك المجيدة وطلعتك السعيدة، ما كان ذلك لبنائه، مع ما كان عليه من الإعظام والصحة والترصيص، الذي كان يُظن به أنه لا تهدمه إلا نفخة الصور. ثم إنه تزلزل وتصدع، فتشقق شقا بيّناً نال منه إلى الخراب، وسقطت منه أربع عشرة شرافة[141].
قال ناظم سيرة اليعمري:

واضطرب الإيوان لما وضعَا --- وصوته من ارتجاس سُمِعَا

وسقطت من فوقه شرفات --- أربع عشرة حكى الرُّوات

"وليس ذلك إلا لمحض آية منه، دالة على نبوته وعظيم شأنه ﷺ، وإشعار بأنه لا يبقى لأحد ملك ولا عز مع ملكه وعزه. وفيه إشارة إلى أنه لم يبق من ملوكهم إلا أربعة عشر ملكا، مَلِكَ عشرة منهم في أربع سنين، وبقى مُلك أربعة منهم إلى نحو عثمان رضي الله عنه، ففتح في خلافته أكثر إقليم فارس، وانهزم كسرى وأهين غاية الهوان. ثم تقهقر إلى أقصى مملكته حتى قتل، وتمزق ملكه وذهب بالكلية، تصديقا لدعوته عليهم[142] ﷺ. وصح عنه ﷺ، وهو الصادق المصدوق، أنه قال: "إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله"[143].

ومنها إطفاء نار فارس، وهو معنى قوله وغدا أي صار. وكُربة بضم أوله مبتدأ، وهي غمة عظيمة تأخذ النفس وربما أهلكتها، والمجرور قبله خبره. قال في المنح:

---

[139] في النسخة الصبيحية كُتبت "البانيين"، وهو خطأ نسخ.
[140] سورة البقرة، آية 248.
[141] أي زوائد توضع في أطراف الشيء تحلية له.
[142] أي الفُرس.
[143] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.118، بالتصرف.
اقتصر قول ابن حجر على زوال ملك كسرى، وزاد عليه سيدي يحيى نفس القول بخصوص قيصر وهو ما صح في الحديث الذي أخرجه الإمامين البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

"والواو[144] فيه للحال على مذهب الجمهور وابن مالك، لأن المنصوب بعد غدا عندهم حال، إذ لا يوجد إلا نكرة، سواء كانت بمعنى صار أو بمعنى وقع فعله في وقت الغدو أو الرواح"[145]. وجعلوا من ذلك: تغدوا خماصا، وغدا زيد ضاحكا أي صار في حال ضحك، وغيرهم يجعل المنصوب بعدها خبراً. وعلى الثاني فكل اسمها وخبرها محذوف، دل عليه السياق، أي صار كل بيت من بيوت الفرس فيه نار مكبوتاً، أي فيه كرب وبلاء عظيم، لما أصابهم من خمود تلك النيران كلها في ليلة واحدة. وكانت في عدد كثير من بيوتهم، كانوا يعبدونها، ويشتد إيقادهم لها حتى أنها مكثت عندهم ألف عام لم تخمد، فلما فقدوا ما كانوا يعبدونه بخمود جميع تلك النيران في تلك الليلة، وكانوا يعتقدون ألوهيتها، علموا أن ذلك حدث لأمر عظيم. قال ناظم سيرة اليعمري:

وخمدت نار لفارس وما --- خُمودها من قبل ذاك فاعلما

بنحو ألف سنة فيما ذكر --- حتى بدا هذا النبي المشتهر

ومنها أن عيونا كانت للفرس، "وهم أمة عظيمة كانوا في شمال العراق، فغارت عيون أرضهم كلها، ولم يبقى منها قطرة واحدة، ومنها بحيرة طبرية، وكان فيها من السعة وكثرة المياه ما تحيل العادة قطعه، وتسمى عين ساوة[146]"[147]. والاستفهام في هل للإنكار بمعنى النفي، لتوبيخهم وتقريعهم، أي لم تطفى تلك النيران بماء عيونهم التي غارت، وإنما أطفأها نور نبينا سيدنا ومولانا محمد ﷺ، وفي ذلك سر عظيم.

ومن ثم قال [الناظم]:

مَوْلِدٌ كان منهُ في طالِعِ الكُفْـ --- ـرِ وَبَالٌ عَلَيهِمُ وَوَباء

مولد اسم مصدر عن الولادة، وهو بالرفع خبر مبتدأ محذوف أو بدل كل من آية، وبالجر: بدل من المولد المتقدم أو بدل اشتمال من الكاف في آية منك، على أن حكم لولا جار في الأبيات الثلاث، أي لولا آية مولدك ما تداعى الإيوان وما خمدت النيران وما غارت الأعيان. وكان ناقصة بمعنى الدوام، ووبال وهو الشدة والثقل

---

[144] أي واو "وغدا".
[145] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.120.
[146] بل هي بحيرة ساوة، وتوجد في العراق. وأما بحيرة طبرية فتوجد في فلسطين.
[147] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.121، بالتصرف.

اسمها، والمجروران قبله حالان منه، وعليهم خبرها. ومن للتعليل أو الغاية، وضميرها يعود إلى المولد. ويصح أن كان تامة، ووبال فاعلها، وعليهم صفة له، والوباء: الوخم والمرض، وبينهما الجناس اللاحق، كني بهما عما أصابهم من النكد والغم يوم المولد الكريم بالعلامات الثلاث، وما سيؤول إليه أمرهم من هوانهم وزوال ملكهم وسلب شرفهم بمولده ﷺ. وكني بطالع الكفر، عن طلعة ملكهم وظهور سطوتهم، والإضافة فيه على معنى لام الاستحقاق.

والمعنى: إن هذا المولد الكريم، كان فيه تدمير ومحق لأهل الكفر حالا ومآلا. قال في المنح: "وطالع الكفر ما في نحو النوم[148]، وإخبار الكهنة مما يطلع بأهل الكفر على عواقب كفرهم، كإلهام سطيح ورؤية المُوبَذان[149]، وهو بلغة الفرس أعلم العلماء، وكان قد رأى في تلك الليلة إبلا صعابا تقود خيلا عرابا، قطعت دجلة وانتشرت في البلاد، ففزع لذلك فزعا شديدا، وسأل أهل التعبير فقالوا له: -حدث يكون من ناحية العرب-. فمزق الله ملكه وفتح خزائنه للمسلمين إجابة لدعوة نبيه ﷺ وتصديقا له"[150]. ويحتمل أن الناظم أراد بالطالع ما في عرف الفلكيين، وهو عندهم كل كوكب صاعد من الفلك على خط الأفق، فكل أمر نشأ في ذلك الوقت من سفر أو نكاح أو نحوه فذلك النجم طالعه، بمعنى أنه يدل على ما في إنشاء ذلك الأمر من خير وشر حالا ومآلا، بحسب ما أجرى الله عند طلوع ذلك النجم من سعادة أو نحس، على القواعد العادية للأحكام النجومية.

قال أهل العلم الفلكي، لم يطلع نجم منذ خلق الله الدنيا أسعد من نجم طلع يوم ولادته ﷺ، فكان طالع ذلك اليوم في غاية السعادة على أهل الإسلام، ومن ثم عبر بما يدل على دوام الفرح والسرور الدائم، فقال:

فَهَنيئاً منه لآمنةَ الفَضْـ --- ـلُ الذي شُرِّفَت به حَوّاء

---

[148] هكذا في النسخ الثلاث وكذا في "المنح المكية " المطبوع، ولعل المقصود هو: إلهام الشياطين للعراف أثناء نومه.

[149] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "المُوبَذان" وهو الصحيح، وأما في النسخ الثلاث فكُتبت "المرزفان" وهو خطأ نقل.

[150] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.119.

أخبر أن لهذا المولد الكريم فضائل ومزايا لا حد لها، من حسن العاقبة بالسعادة العظمى دنيا وأخرى، منةً من الله تعالى على عباده ببركته ﷺ، أي حصل لآمنة الفضل الكامل والشرف العاجل والآجل، حال كونه هنيئا. قال في المنح: "هنيئا حال عند الأكثرين، مؤكدة لعاملها[151] اللازم إضماره، اذ لم يسمع إلا كذلك"[152]. قال ابن جوزي عند قوله تعالى "هنيئا مريئا"[153]: "عبارة عن التحليل، مبالغة في الإباحة، وهما صفتان من هَنُؤ[154] الطعام ومَرُؤ، إذا كان صائغا لا تنقيص فيه"[155]. وقال ابن عطية: "قال سيبويه: هما[156] صفتان نصبوهما نصب المصادر المدعو بها الفعل غير المستعمل إظهاره، المختزل للدلالة التي في الكلام عليه، كأنهم قالوا ثبت لك ذلك هنيئا مريئا"[157]. والفضل مبتدأ، والذي وصلته صفة له، ولآمنة خبره. وعلى نسخة به فالباء سببيته، وعلى نسخة منه فمن للتعليل، والضمير في كل منهما يعود الى المولد الكريم، وكلاهما صالح للحال من الضمير في متعلق الخبر.

والمعنى: بسبب هذا المولد أو من أجله حصل لآمنة ما شرفت به حواء من الفضل الكامل، يعني: ومن بعد حواء من أمهاته ﷺ إلى آمنة، وعليه فاللام للغاية، فإن ولادته ﷺ منسوبة الى كل منهن، لكن إليهن بواسطة وإلى آمنة بدونها، فكان لحواء ومن بعدها إبرازه إلى عالم الأصلاب فقط[158]، واختصت آمنة [دونهن][159] بمزية لا تساويها مزية في الوجود، وهي إبرازه إلى عالم الاستقلال بولادتها إياه ﷺ، مباشرة من غير محنة ولا مشقة، وعلى هذا الاختصاص وامتيازها به عن حواء نبه [الناظم] بقوله:

مَن لِـــحَوَّاءَ أنَّهَـــا حَمَلَت أَحْـ --- ـمَداً وأنها بِهِ نُفَســـــــــاء

---

[151]العامل في النحو ما به يتقوم المعنى المقتضى.
[152]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.122.
[153]سورة النساء، آية 4.
[154]هَنُؤ الطعام: طاب ولذ.
[155]ابن الجوزي، زاد المسير، ص.257. بالتصرف حيث لم أقف عليه بهذا اللفظ.
[156]أي هنيئا مريئا.
[157]ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.2، ص.9.
[158]العلم الحديث يقول عكس ذلك، إذ أن الجنين يتكون من لقاح الرجل لبويضة المرأة التي تنزل إلى الرحم من أحد القرنين. وهكذا يمكننا القول إنه ﷺ، تدرج في أصلاب آبائه وكذلك في قرون أرحام أمهاته إلى أن حل برحم آمنة وصلب عبد الله. ومن تم فإن فضل حمله ﷺ، متكافئ بين الآباء والأمهات من آدم وحواء إلى آمنة وعبد الله.
[159] في النسخ الثلاث كُتب "دونهم" وهو بالطبع خطأ لأن الأمر يخص النساء فقط.

يَومَ نَــالَت بِوَضعِهِ ابْنَةُ وَهْبٍ --- مِن[160] فَخَارٍ ما لَم تَنَلْهُ النِّساء

وأَتَت قَوْمَهَـــا بِأَفْضَلَ مِمّــا --- حَمَلَت قَبْلُ مَريَمُ الـعَذْراء

مَن هنا اسم استفهام ابْعادي، أي من يسمح لحواء أو يفرح لها بأنها حملت أحمدا، أي حبلت به أو نفست به، أي ولدته، فهو بمعنى النفي أي لم يكن ذلك. "وأحمد من غُرَر[161] أسمائه ﷺ، وقد سماه الله [عز وجل] به على لسان عيسى في القرآن، وعلى لسان موسى في الحديث، فهو منقول من صفة التفضيل، أي أحمدُ الحَامِدِينَ لربه، وهو كذلك لأنه يفتح عليه يوم القيامة عند سجوده تحت العرش بمحامد لم يفتح بها [تعالى] على أحد قبله عند الشفاعة العظمى، فهو مقام المحمود، ولذلك يعقد له لواء الحمد فيكون آدم ومَن دونه تحته"[162]. والنفساء صفة مشبهة من النِّفَاس، "وهو ولادة المرأة، فإذا وضعت فهي نُفَسَاءُ كالثُّؤَبَاءِ، ونَفْسَاءُ بالفتح ويُحَرَّك، الجمع: نُفَاسٌ ونُفُسٌ ونوافس"[163] من القاموس.

ويوم مبني على الفتح لموالاة الفعل المبني له، على الراجح متعلق بنفساء، أو بعامل حواء أو بشمتته[164]. ولا ينافي ذكر اليوم أن يكون ولد ليلا، للخلاف السابق في ذلك، لأنه ولد بُعيد الفجر كما سبق في روايته. وضمير بوضعه يعود إلى النبي ﷺ، من إضافة المصدر إلى المفعول، والباء فيه للسبب. وابنة فاعل نالت، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، فإن كلابا هذا ولد قصيا ومنه تفرع النبي ﷺ، وزهرة[165] ومنه تفرعت آمنة، فهي قسيمة آباءه من هذا الباب، وكريمة قومها، أولي المكارم والحسب وعلو الشرف والنسب، وفيها قالت قيلة أخت النضر بن الحارث، حين قَتَلَهُ النبي ﷺ في أسارى[166] بدر:

أمحمد يـا خير ضنى كريمة --- في قومها والفحل فحل معرف

---

[160] في النسخة الصبيحية كتبت "بفخار". وكتبتها كما جاءت في النسخة الحسنية وكذا العزيزية وفي "المنح المكية" المطبوع.

[161] جمع غُرَّة. والغرة من كل شيء: أوله وأكرمه.

[162] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.123.

[163] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1635. في "القاموس المحيط" المطبوع، كُتب "نُفْسٌ" عوض "نوافس" التي جاءت في النسخ الثلاث.

[164] مطلع البيت الموالي من النظم.

[165] بطن من بطون قريش، وهو أبا جد آمنة بنت وهب.

[166] جمع من فعل أسر، والأسارى تقال في الذين في القيد موثقون، والأسرى تقال فيمن وقع في أيدي أعدائهم.

ما كان ضرك لو مننت وربما --- الفتى وهو المغيظ المحنق

فانظر أقرب من أسرته قرابة --- وأحقهم إن كان عتقا يعتق

ويحكى أن رسول الله صلى الله حين بلغه كلامها قال: "لو بلغني هذا قبل مقتله لمننت عليه". وكان وهب أبوها[167] سيد بني زهرة سنا وشرفا، وأمها مرة بنت عبد العزى بن قصي بن عبد الدار بن قصي بن كلاب. ومن لبيان الجنس، والفخار التمدح بالخصال، وما مفعول نالت، وإبهام الصلة هنا للتعظيم والتفخيم كقوله تعالى "فأوحى إلى عبده ما أوحى"[168]، أي أعطيت آمنة بسبب وضعه ﷺ، كرامة عظيمة حيث انتهت ولادته ﷺ إليها، فلم ينلها غيرها من النساء، حتى حواء التي شرفت بابتدائها. قال في المنح: "وهذا لا يقتضي أفضليتها على حواء مطلقا، لأنها إنما فضلت من وجه واحد، وهو ولادتها له ﷺ بلا واسطة، والتفضيل من حيث مزية واحدة أو مزايا لا يقتضي الأفضلية على الإطلاق، لأن الإجماع قام على إيمان حواء الكامل، والخلاف في إيمان آمنة بل وفي نجاتها، ونقل على الأكثر عدمهما، لكن الأصح بل الصواب خلافه"[169].

وفاعل أتت ضمير يعود إلى آمنة، وقومها مفعول وهو اسم جنس للذكر، وقد يدخل فيه المؤنث تبعا. وأفضل نعت لمحذوف، أي بمولود أفضل بإجماع، وقبل مبني على الضم لقطعه عن المضاف إليه في اللفظ مع نية معناه، وهو ظرف لحملت. "وأوقع الناظم هنا ما على من يعقل، وهو عيسى، وإن كان نادرا، لوروده في قوله تعالى في "لما خلقت بيدي"[170]. ومريم فاعل حملت، وهي بنت عمران الصديقة بنص القرآن، قيل أنها من ذرية سليمان عليه السلام، وبينهما أربعة وعشرون أبا، فُضلت على جميع النساء للخلاف في نبوتها وإن كان شاذا"[171] قاله ابن حجر. وقال في شرحه للشمائل عند قول المتن: "فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"، ما نصه: "حتى آسية امرأة فرعون وأم عيسى[172] فيما يظهر، واستثنى

---

[167]أي آمنة.

[168]سورة النجم، آية 11.

[169]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.124.

[170]سورة ص، الآية 75.

[171]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.126 و127. بالتصرف.

[172]في النسخ الثلاث كُتب "عيسى"، وفي المرجع المحال عليه كُتب "موسى".

بعضهم آسية ومريم، وما قاله فيهما محتمل لحديث: -فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران-. وفي رواية لابن أبي شيبة: -بعد مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون و خديجة بنت خويلد-"[173]. وفي صحيح البخاري من كتاب الأطعمة، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"[174]. ووصف مريم بالعذراء لأنها لم تتزوج، بقيت بكارتها حتى وَلَدَت، واسم أمها حنت بنت ناقود، وكانت حين حملت بمريم نذرتها لله، كما ذكر الله [تعالى] قصتها في كتابه العزيز، وحَمْلَها بعيسى من نفخ جبريل في جيب ذرعها، ووضعته لوقتها.

---

[173]ابن حجر الهيتمي، أشرف الوسائل، ص.236 و237. بالتصرف.
[174]صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الثريد.

الفصل الثاني: من البيت 23 إلى البيت 45

ثم ذكر [الناظم] بعض ما ظهر عند ولادته ﷺ من العلامات الدالة على نبوته، فقال:

شَمَّتَتْهُ الأَمْلاكُ إذْ وَضَعَتهُ --- وَشفَتْنَا بِقَوْلِهَا الشَّفَّاء

في التشميت لغتان: الإهمال والإعجام، ومعناهما الدعاء للعاطس بالرحمة، والإهمال هنا أولى تأدبا لشرف المقام. "والأملاك جمع مَلَك، وهو قياسي كجمل وأجمال، مشتق من الأَلُوكَة، قال في القاموس: "والأَلُوكَةُ والمَأْلُكَةُ، ويفتح اللام، والأَلوكُ والمَأْلُكُ، بضم اللام، ولا مَفْعُل غيره: الرسالة، قِيلَ المَلَكُ مُشتقٌّ منه"[1]. وقال ابن حجر: "الأصل فيه مَأْلَك كمَفْعَل، ثم قلب فصار ملأك، ثم خفف بعد نقل حركة الهمزة إلى اللام فصال ملك كفَعَل، ومن جمعه على الملائكة راعى فيه ملاك، بعد القلب وقبل التخفيف. وقولهم من الألوكة فيه تصريح بزيادة مِيمِهِ، وهو رأي الجمهور، وقالت طائفة أنها أصلية"[2]. وإِذ ظرف للتشميت، بمعنى أن الملائكة الحاضرين لولادته ﷺ، قالوا له ما يقوله المُشمِّت للعاطس، وهو دعاء له بالسلامة. والشَّفَّاءُ فاعل شفتنا، أي أسرتنا وأفرحتنا بحديثها الآتي، فهو شفاء من النكد لمن سمعه، أو من الجهل به، لأن حديثها بذلك يشفي العليل ويبرد الغليل. وهي [أي الشَّفَّاء] بتشديد المعجمة والفاء مفتوحتين، بنت عمرو بن عوف، أم عبد الرحمان بن عوف أحد العشرة[3] رضي الله عنهم. "وحديثها، ما أخرجه أبو النعيم عن ولدها عنها، قالت: لما ولدت آمنة رسول الله ﷺ، وقع على يدي فاستهل، فسمعت قائلا يقول: -رحمك الله-. قالت الشَّفَّاء: وأضاء فيما بين المشرق والمغرب، حتى نظرت إلى بعض قصور الروم. قالت: فألبسته وأضجعته، فلم ألبث أن غشيتني ظلمة ورعب وقشعريرة، ثم غيب عني، فسمعت قائلا يقول: -أين ذهب به؟-، قال: -إلى

---

[1] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.68.

[2] كل النص مأخوذ عن "المنح المكية" وأوردُ النص الأصلي حتى يتبين المعنى بسهولة: "الأملاك جمع ملك، وهذا هو القياس في جمعه، كجمل وأجمال، ولفظ الملك مشتق من الألوكة وهي الرسالة. ويقال فيه مألكة، فالأصل فيه مألك، ثم قلب فصار مَلأك على وزن مفعل، ثم خفف بعد قلبه ونقلت حركة الهمزة إلى اللام، فصار ملكا على وزن فعّل، وحينئذ فقياس هذا جمعه على أفعال كما جرى عليه الناظم رحمه الله تعالى، وإنما جمعوه على ملائكة لأنهم راعوا ملأك بعد القلب وقبل أن يخفف. وقولهم من الألوكة مصرح أن ميمه زائدة، وهو رأي الجمهور، وذهبت طائفة إلى أنها أصلية". ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.129.

[3] أي العشرة المبشرين بالجنة.

المشرق-. قالت: -فلم يزل الحديث مني على بال حتى بعثه الله، فكنت من أول الناس إسلاما-"[4]. قال في المنح: "وحمل الناظم قولها –استهل- على أنه عطس، حيث قال شمتته، والتشميت لا يطلق إلا على ما يقال عقب العطاس، يحتاج فيه إلى سند، إذ حقيقة الاستهلال رفع الصوت عند الولادة، وهو الغالب من أحوال المولودين، فلا يصار إلى خلافه إلا بتصريح مَن يُعتمد عليه به، ولم أره"[5].

ثم قال [الناظم]:

رافِعـاً رَأسَهُ وفـي ذلـك الرَّفْـ --- ـعِ إلى كُلِّ سُؤْدَدٍ إيمـــاء

رَامِقـاً طَرْفُهُ السَّماءَ ومَرْمَى --- عَيْنِ مَن شَأنُهُ العُلُوُّ العَلاء

رافعا ورامقا حالان من مفعول وضعته. ورمقه: لحظه لحظا خفيفا، وحديث ذلك رواه ابن سعد[6]، من حديث عطاء وابن عباس وغيرهما، أن آمنة قالت: "لما فصل مني -تعني النبي ﷺ-، خرج منه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ثم وقع إلى الأرض معتمدا على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها، ورفع رأسه إلى السماء"[7]. وإيماء مصدر أومأ إليه، أي أشار، وياؤه منقلبة عن واو لتجانس الكسرة قبلها، وهو مبتدأ، وإلى كل متعلق به، والمجرور الأول خبره.

والمعنى أن في رفع رأسه ﷺ إلى السماء، الذي هو أول فعل صدر منه حين بروزه إلى هذا العالم، إشارة وتنبيها إلى أنه يبلغ في مجد قدره وعظيم شأنه، في العلو والشرف، إلى غاية لا يصل إليها غيره من نبي مرسل ولا ملك مقرب، عاجلا وآجلا. والطَّرْف بسكون الراء[8]، قال في القاموس ": العين، ولا يجمع، لأنه في الأصل مصدر، أو اسم جامع للبصر، لا يثنى ولا يجمع، وقيل أطراف"[9]، وهو فاعل رامقا، والسماء مفعوله.

والمعنى أنه ﷺ، نظر إلى جهتها نظرا حقيقيا وقد ثبت ذلك، ومرمى اسم مصدر من

---

[4] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.129، بالتصرف.
[5] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.130.
[6] في النسخ الثلاث كُتب "سعيد". وفي "المنح المكية"، ص.130، كُتب "ابن سعد" وهو الصحيح، إذ يتعلق الأمر بمحمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري، المعروف بابن سعد.
[7] أورده محمد بن سعد بن منيع في "الطبقات الكبرى".
[8] في النسختين الصبيحية والعزيزية كُتب "بكسر الراء"، وفي الحسنية "بسكون الراء" وهو الصحيح كما جاء في "القاموس المحيط"، ص.1000.
[9] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1000.

الرمي، مضاف إلى الفاعل، وهو في الأصل غرض الرامي الذي يصيبه سهمه، كني به هنا عما انتهى إليه بصره، فشبه الطرف بالقوس كما شبه الرمق بالسهم. ومرمى مبتدأ والعلاء خبره، ومَن موصول مضاف إليه، والعلو مبتدأ وشأنه خبره، ويصح العكس، والجملة صلة مَن وتقدم معنى العلو والعلاء.

والمعنى أن مرمى مَن قَصَدَ ارتفاع مكانته وعلو قدره دنيا وأخرى، رَفَعَ نظره إلى أعلى. قال في المنح: "كما أن رفع رأسه إيماء إلى ما مر، فكذلك رمقه ببصره إلى جهة العلو فيه إيماء إلى أنه لا يقصد إلا أعلى المراتب، إذ من دأبه وشأنه العلو، لا يقصد إلا جهاته وما يوصل إليها. فعُلم أن المترتب على الرفع والرمق متحد بالذات، مختلف بالاعتبار، إذ التوجه إلى جهات العلو الذي هو مفادهما، له اعتبارات مختلفة"[10].

ومن أعظم العلامات الدالة على نبوته، تدلي النجوم عند ولادته، وعلى ذلك نبه [الناظم] بقوله:

وتَدَلَّـتْ زُهْرُ النُّجـومِ إليـهِ --- فَأَضَـاءَتْ بِضَوْئـها الأَرْجاء

وتَراءَتْ قُصورُ قَيْصَرَ بِالرُّو --- مِ يَراها مَن دارُهُ البَطْحاء

[تَدَلَّت] أي قَرُبَت ودَنَت تلك النجوم، قال تعالى "ثم دنا فتدلى"[11]، معطوف على نالت[12]. والزُهْرُ بضم فَسكون، جمعه أزهر أي المضيئة، من إضافة الصفة إلى الموصوف. وتدليها كرامة له ﷺ وتعظيما لشأنه، ولم يقع نظيرها لغيره، كما رواه البيهقي وابن السكن، عن عثمان بن العاص عن أمه فاطمة الثقفية، قالت: "لما حضرت ولادة رسول الله ﷺ، رأيت البيت حين وقع قد امتلأ نورا، ورأيت النجوم تدنوا حتى ظننت أنها ستقع علي"[13]. والأرجاء: النواحي، واحدة: رجا، وباء بضوئها للسبب، أي أضاءت نواحي البيت أو نواحي السماء أو نواحي الوجود بأسره، بسبب ضوء تلك النجوم المتدلية.

---

[10] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.131، بالتصرف.

[11] سورة النجم، آية 8.

[12] يعني التي في البيت السالف شرحه: يوم **نالت** بوضعه ابنة وهب --- من فخار ما لم تنله النساء.

[13] هذا الحديث أخرجه، عن عثمان بن أبي العاص عن أمه رضي الله عنهما، البيهقي وابن السكن وأبو النعيم والقسطلاني.

وتَرَاءَت من رَءَا[14] بمعنى أُبْصِرَت، وليس التفاعل هنا حقيقة، بل أصل الفعل نحو "يخادعون الله"[15] و"عاقبة اللِّص"، أي رؤية قصور جمع قصر، سمي بذلك لقصر غير خاصة الملك عنه، ومنه القصيرات من النساء، أي المحبوسات عن غير أزواجهن، ومنه قوله تعالى "حور مقصورات في الخيام"[16]، قال كثير:

وأنت التي حببت مني قصيرة --- عليَّ ولم تشعر بذلك القصائر

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد --- قصار القنى شر النساء البحاتر[17]

وقيصر اسم لكل من مَلَك الروم، وهم من ولد عيصو بن إسحاق بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. وباء بالروم للظرفية، أي رؤيت القصور في بلاد الروم بسبب نورٍ ظهر من النبي ﷺ حين ولدته أمه، حتى رآها من كانت داره ببطحاء مكة. "والبطحة والأبطح: المسيل الواسع الذي فيه دقاق الحصباء"[18]. ودليل ذلك، حديث الشفاء السابق، وما رواه ابن سعد عن عطاء وابن عباس، من حديث آمنة السابق أيضا. وخص البطحاء بالذكر ليكون غيرها "أحرويا"[19]. وهذه آيةٌ عظيمةٌ ومنقبةٌ جليلةٌ، لأن هذا النور قد انكشفت به ما بعدت مسافته بما ذكر، وليس كذلك نور الشمس، إذ لا يُدرك به إلا ما قربت مسافته بما علمت، فلا مناسبة بينهما. ولما فرغ [الناظم] من ذكر عجائب العلامات الظاهرة عند ولادته ﷺ، شرع في ذكر ما ظهر منها عند رضاعه، مما يدل على عظيم شأنه وعلو قدره، فقال:

وبَدَت في رَضاعِهِ مُعْجِزاتٌ --- ليسَ فيها عَنِ العُيونِ خَفاء

إذْ أَبَتـهُ لِيُتمِهِ مُرْضِعـاتٌ --- قُلْنَ ما في اليَتيمِ عَنَّا غَنـاء

قال في القاموس: "الرضاع والرضاعة بفتح الراء وكسرها: فيهما امتصاص اللبن من الثدي"[20]، وهو على حذف مضاف أي ظهرت في زمن رضاعه، و"المعجزات جمع معجزة، وإطلاقها هنا على ما يذكر مجازا، وأن الناظم جرى على اصطلاح

---

[14] أي شاهد بعينيه.

[15] سورة البقرة، الآية 9.

[16] سورة الرحمان، أية 72.

[17] وقفت عليه كالتالي، من شعر كثير عزة بن عبد الرحمان الخزاعي:

وأنت الـتي حببت كـل قصيرة --- إليَّ وما تدري بذلك القصـائر

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد --- قصار الخطى شر النساء البحاتر

[18] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.132.

[19] لم أقف عليه، وكتب هكذا في النسخ الثلاث، ولعله يقصد "أحرى".

[20] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.645. بالتصرف.

بعض السلف كالإمام أحمد، بأنهم يطلقون المعجزات على كل خارق ليس بسحر من غير شرط. والأشهر ما عليه الأكثر، فلا تطلق حقيقة إلا على الأمر الخارق للعادة المقارِن لدعوى الرسالة متحدى به قبل وقوعه، وأما ما كان يظهر قبل النبوة مما ذكر ومما يأتي، فإنه يسمى عندهم إرهاصا، إي تأسيسا للنبوة"[21]. وليس وما بعدها صفة لمعجزات، أي لوضوحها وشهرتها ظهرت ظهورا بينا لا خفاء معه، لمن عاصره ﷺ بمشاهدة العيان، ولمن بعده بطريق البرهان. ونكر خفاء بعد النفي لإفادة الاستغراق[22]، أي لا شيء من جنس الخفاء في تلك العلامات، منها أن المرضعات أبت إرضاعه، فإذ ظرفٌ لبدت.

والمرضعات جمع مرضعة، "كن يأتين إلى مكة يلتمسن الرضعاء، لأن أهلها كانوا يرون إرضاع الأمهات أولادهن عارا"[23]. ثم علل امتناع المرضعات بقوله ليتمه، أي بموت أبيه عبد الله بعد شهرين من حمل أمه به، وقيل لسبعة أشهر، وقيل مات والنبي ﷺ في المهد"[24]. قال الهيتمي: "وهو مناف لما في المتن، إلا أن يقال: يحتمل أنه مات بعد الوضع قبل أن يرضع، لكن يرده أن موته إنما كانت بطيبة وهو قافل من تجارة الشام، عند أخوال أبيه عبد المطلب، بني النجار. وقد تقرر أن المرضعات علمن بموته عقب وضعه [ﷺ]"[25]. وقلن بدل اشتمال من أبته، أي قالت المرضعات "ما في اليتيم، وهو محمد ﷺ، غناء أي نفع يُغني عنا شيئا، ونحن نريد النفع من الرضعاء، وما عسى أن يغني عنا جده وأمه؟". قال في القاموس ما معناه: الغِنى بالكسر مقصورا، أو بالفتح ممدودا: ضد الفقر، وأغنى غَناء بالفتح ممدود: أناب عنه أو أجزأ مجزأه. والغِناء ككِساء ما طرب به من الصوت"[26]. وبين بدت وخفاء الطباق، و"بين عنا وغناء جناس التصحيف المحرف الناقص على خلاف فيه"[27]، قاله في المنح.

ثم قال [الناظم]:

---

[21] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.134، بالتصرف.
[22] أي شمول الحكم لكل أفراد الموضوع.
[23] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.136.
[24] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.135و136.
[25] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.135 و136.
[26] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1207 و1208، بالاختصار.
[27] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.136، بالتصرف.

فَأَتَتهُ مِن آلِ سَعْدٍ فَتَاةٌ --- قَد أبَتْهَا لِفَقْرِها الرُّضَعاء
أَرْضَعَتْهُ لِبانَها فَسَقَتْهَا --- وبَنِيهَا أَلْبانَهُنَّ الشَّـــاء

الفتاة مؤنث الفتى، وهو "الشاب أو السخي الكريم"[28] كما في القاموس. والمراد بها: السيدة حليمة بنت أبي ذُؤَيب السَّعدية، من آل سعد بن بكر، ونسبت إليه مع أنه الجد التاسع لشهرته، وزَوْجُها منهم . وفي إرضاع حليمة السعدية له ﷺ من الفال الحسن والبشارة بحصول غاية اليمن والسعادة ما لا يخفى. والرضعاء جمع رضيع، فاعل أبتها، والمراد به أولياؤهم، أي امتنعوا من إرضاعها أبناءهم لفقرها المستلزم قلة الأكل غالبا، المستلزمة لقلة اللبن عادة، المضرة بالرضيع غالبا. وما تُعْطاهُ من جُعْلٍ[29] ربما تصرفه في مصالحها الخارجة، فلا يفيدها في دفع الجوع الذي فيه صلاح الصبي. ومن ذلك، ما حدَّث به أهل السير، أنها قدمت إلى مكة في نسوة من قومها يلتمسن الرضعاء في سنة جدباء، ومعها صبي لها وشارف[30] ما تبض بقطرة لبن، ولا تنام ليلها أجمع لبكاء صبيها من الجوع ولا لبن بثديها. قالت [حليمة]: "وما علمت امرأة منا إلا عرض عليها رسول الله ﷺ، فتاباه إذا قيل لها يتيم، فوالله ما بقي من صواحبي امرأة غيري إلا أغدت رضيعا. فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبي: -والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي بلا رضيع، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلأخذنه-، قال: -لا عليك إن تفعلي، لعل الله يجعل لنا فيه بركة-. فذهبتُ إليه، فإذا هو مدرج في ثوب صوف أبيض من اللبن، يفوح منه ريح المسك، وتحته حريرة خضراء، راقدا على قفاه يغط. فأشفقتُ أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله، فدنوت منه رويدا، فوضعت يدي على صدره، فتبسم ضاحكا وفتح عينيه فنظر إلي، فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر. فقبلتُه بين عينيه وأعطيته ثدي الأيمن، فأقبل عليه ما شاء من اللبن، وحولته إلى الأيسر فأبى، وكانت تلك عادته بعد. قال بعض أهل العلم: أعلمه الله أن له شريكا فألهمه العدل. قالت [حليمة]: -فأخذتُه فما هو إلى أن جئت رحلي، فقام صاحبي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل، فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا ريا وشبعا، فبتنا بخير ليلة. يقول صاحبي

---

[28] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1220.
[29] اسم لما يجعل الإنسان يقوم بفعل شيء معين، أي تعويض.
[30] أي شاة مسنة.

حين أصبحنا: --تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة كريمة--، فقلت: -والله إني لأرجو ذلك-"[31]، وسيأتي تمامه إن شاء الله، وفي روايات ما يزيد على هذا. ولِبانها بكسر أوله جمع لِبن، قيل خاص بلَبن الرضاع، يقال: هو أخوه بلِبان أمه ولا يقال بلَبنها، وظاهر القاموس الإطلاق. وهو مفعول ثاني لأرضعته، والهاء مفعوله الأول تعود إلى النبي ﷺ. وبسبب هذا الإرضاع الكريم سقتها، أي أشبعتها وأروتها، والهاء فيه مفعوله الأول، يعود إلى حليمة رضي الله عنها، وبنيها عطف عليه، وألبانهن مفعوله الثاني، وهو ملتبس بضمير الفاعل المتأخر عنه لفظا، وهو الشاء جمع شاة، فاعل سقت. وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من شدة الجدب والمَحْل[32] الذي كان ببلادهم، فأكرمهم الله تعالى بإذهابه عنهم وإبداله لهم بأرغد عيش، كرامةً لهذا النبي الكريم، وإظهاراً لشأنه حين حل منازلهم.

ثم قال [الناظم]:

أَصْبَحَت شُوَّلاً عِجافــاً وأَمْسَت --- ما بها شائِلٌ ولا عَجْفاء

أَخْصَبَ العَيْشُ عِندها بَعدَ مَحْلٍ --- إذْ غَدَا للنَّبِيِّ مِنها الغذاء

شوّلا بالتشديد كركّع جمع شائل، وهي في الأصل الناقة التي تشول بذنبها للقاح ولا لبن بها أصلا، فاستعمالها في الشاة مجاز علاقته المشابهة. والعِجاف بكسر أوله جمع عجفاء، أي الهزيلة التي لا شحم فيها، وفي القاموس: "وجَمعُ عجفاء على عجاف شاذ، لأن *أفعل* و*فعلاء* لا يجمعان على *فعال*، لكنهم بنوه على سمان لأنهم قد يبنون الشيء على ضده"[33]. وضمير أصبحت وأمست عائدان إلى الشياه، "ولم يرد بهما معناهما الأصلي، بل إن الشياه[34] كانت قبل إرضاع النبي ﷺ في حال، ثم اعتراها ضده بعد ذلك في أقرب زمان وأسرعه، فبينهما الطباق، وإن لم يرد بهما موضوعهما الأصلي"[35] قاله في المنح. ولا يبعد أن يراد بهما موضوعهما الأصلي، ويقع السُمن من يومه كما كثُر اللبن فيها، إكراما له ﷺ. وما نافية، والجملة بعدها

---

[31]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.137، بالتصرف.
[32] أي مكان انقطع عنه المطر.
[33]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1156.
[34]الشياه جمع شاة، واستعمال المؤلف للجمع مع أن الأمر يتعلق بشاة واحدة يعود لقول الناظم "الشاء" وهو كذلك جمع شاة..
[35]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.138.

خبر أمست، وتنكير شائل وعجفاء بعد النفي لإفادة العموم، أي ما أمست واحدة من الشياه شائلا ولا عجفاء. وباء بها للظرفية، فعند ذلك أخصب العيش عند حليمة من بركته ﷺ، أي كثُر القوت عندها، حال كونه بعد مَحْل بفتح فسكون، أي شدة جدب وقحط بانقطاع المطر. وإذ ظرف أو تعليل للخِصب، قال الشيخ زكرياء[36]: "الخِصب بكسر الخاء"، وكذا في بعض شروح "جمع الجوامع"، خلاف ما جزم به بعضهم، وبالكسر في القاموس. وغدا قيل بمعنى صار، وعليه فهي تامة، والغِذاء بمعجمتين أولاهما مكسورة، فاعله، قال بعض المحققين: والمناسب لعادة الناظم من تحري أنواع الجناس، أنها من غذا الماء بمعجمتين أي سال، ومنها حال من الغذاء. وفي القاموس "الغِذاء ككِساء، ما به نماء الجسم وقوامه، وأما بالفتح والإهمال فهو طعام الغدوة، من تغدى: أكل أول النهار"[37]، ومنه قوله تعالى "آتنا غَداءنا"[38]، فهو أخص من الغذاء بمعجمتين.

ثم قال:

يَا لَهَا مِنَّةً لَقَد ضُوعِفَ الأَجْـ --- رُ عَلَيها مِن جِنسِها والجَزَاء

وإذَا سَـــخَّرَ الإِلَهُ أُناســـاً --- لِــسَعيدٍ فَإِنَّـــهُمْ سُـــعَـداء

يا نداءٌ تَعَجَّبَ بها [الناظم]، من هذه الخصلة الجميلة الجليلة، الصادرة من حليمة رضي الله عنها، حيث أرضعته ﷺ بإرشاد من الله، غير راجية منه نفعا دنيويا. قال في المنح: "والتقدير يا متعجبا: تأمل ما استتر لها، وفيه مجاز التشبيه لتشبيه ما يتعجب منه لعظمته بمنادى يسمع ويعقل، ومنة تمييز"[39]. وفي القاموس "مَنّ عليه مَنّا ومِنِّينَى كخِلِّيفَى: أنعم عليه، واصطنع عنده صنيعة"[40]، والأوْلى كسر ميم مِنّة لِيَلَا ينحصر في الواحدة. ولام لقد للقسم أو للتأكيد وضوعف بالبناء للمفعول أي كثرَ، ومن جنسها حال من الأجر والجزاء بتقدير كائنين، وضمير جنسها يعود إلى

---

[36] لعل المقصود الشيخ أبو يحيى زكريا بن محمد الأنصاري الخزرجي المتوفى عام 926هـ، ومن بين مؤلفاته العديدة كتاب "الزبدة الرائقة في شرح البردة الفائقة". ويحيل سيدي يحيى على الشيخ زكريا في شرح بعض النظم، ولكني لم أقف للشيخ زكريا على تأليف في شرح الهمزية البُصيرية. فيبقى التساؤل مشروعا حول وجود مؤلف له مفقود في شرح الهمزية، ربما كانت بين يدي سيدي يحيى نسخة منه.

[37] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1177.

[38] سورة الكهف، آية 62. وهو قول سيدنا موسى لفتاه.

[39] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.140، بالتصرف.

[40] الفيروز آبادي، المنح المكية، ص.1558.

المنة، والمجرور قبله راجع إلى حليمة، أي توالى وتتابع الأجر والجزاء وغزرا على حليمة، حال كونهما من جنس ما منت به وهو اللبن، دل عليه قوله فسقتها. وليس المراد أن الأجر محصور في ذلك، بل مَنَّ الله عليها بما لاحد له عاجلا وآجلا. ومِن فضل مولانا جل وعلا ومن جزيل إحسانه وإنعامه، أن يعجل للعاملين الجزاء ِفي الدنيا، ويدخر لهم في الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. قال أستاذ العارفين، ابن عطاء الله في الحكم: "تعالى ربنا أن يعامله العبد نقدا فيجازيه نَسيئة"[41]، فحليمة هي المُعنون والمنعم عليها في الحقيقة، بإرشاد من الله [عز وجل] وتوفيقها لإرضاعه ﷺ، حتى نالت ببركته ما نالت من إرغاد عيشها وعيش بنيها وشياهها، بعد أن كانوا في غاية الجهد من المَحْل إلى غير ذلك، وهذه أعظم سعادة عاجلة وتتبعها الآجلة.

ومن ثم ذكر ما يشملها بقوله وإذا سخر الإله، وفي القاموس "سخَّره تَسْخيرا: ذَلَّـلَهُ وكلَّفهُ عملا بلا أجرة"[42]. وتسخيرهم له: تهيئهم لخدمته ومحبته والقيام بشؤونه، قال تعالى "فأما من أعطى واتقى"[43] الآية، وقال تعالى "ولكن الله حبب إليكم الإيمان"[44] الآية، وهذا كله مما منَّ الله [عز وجل] بفضله على حليمة. ورَدَّ رسول الله ﷺ سبي هوازن لكونهم من قومها، وفازت بالدخول في الإيمان هي وزوجها وبنوها، فنالوا سعادة الدنيا والآخرة ببركته ﷺ. وكانت تقدم عليه فيكرم مثواها، وروت عنه ﷺ، وروى عنها جعفر رضي الله عنه. وأشار [الناظم] بالأبيات من قوله أرضعته لبانها إلى قوله وإذا سخَّر، إلى ما رواه ابن إسحاق وغيره من تمام حديثها المتقدم، ونصه: "ثم قدمنا أرض بني سعد، ولا أعلم أرضا أجدب منها، فكانت غنمي تروح شباعا لبنا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان غيرنا قطرة لبن ولا يجدها في ضرع، حتى كانت تؤمر الرعيان أن تَسرح غنمَها حيث تسرح غنمي، فتروح غنمهم جياعا ما تبِضُّ بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعا لبنا، فلم نزل نتعرف من بركته الزيادة

---

[41]ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، ص.61، الحكمة 89. والمعنى حاشا لله أن يعمل العبد عاجلا ويجازيه ربه آجلا.

[42]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.755.

[43]سورة الليل، آية 10.

[44]سورة الحجرات، آية 7.

والبركة حتى مضت له سنتان وفطمته"[45].

ثم لما ذكر [الناظم] ما أكرم الله به حليمة من الجزاء والفضل الجزيل، بيّن ذلك بشاهد من كتاب الله فقال:

حَبَّةٌ أنْبَتَت سَنابِلَ والعَصْـ --- فُ لَدَيهِ يَسْتَشْرِفُ الضُّعَفاء

يعني أن تسخير الله تعالى حليمة لهذا النبي الأسعد، أثبت لها السعادة التي مِنها مضاعفة الأجر عليها بحسن عملها، فهو كحبة واحدة، من حنطة أو غيرها، أنبتت سبع سنابل، حتى كثر عندها الخير المعجل، فنِسْبته لعملها كنِسْبة السبع سنابل للحبة الواحدة، وهذا اقتباس من قوله تعالى "ومَثَل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل"[46] الآية، فكان المحصل من الحبة الواحدة سبع مئة حبة. قال في المنح: "وحذَف لفظة سبع، ليبين أن العرب قد يذكرونها [كالسبعين][47]، يريدون بها مطلق الكثرة لا خصوص العدد المعروف"[48]. والعصف مبتدأ، وهو كما في القاموس: "بقل الزرع . وكعصف مأكول: أي كزرع أُكل حبه وبقي تبنه، أو كورق أُخذ ما كان فيه، وبقي هو لا حَب فيه"[49]. والضعفاء جمع ضعيف، فاعل يستشرف، أي يتطلع، وبه يتعلق لديه، وضميره يعود إلى العصف، والجملة خبر المبتدأ، وهو وخبره حال من فاعل أنبتت، الذي هو صفة لحبة، وهو خبر مبتدأ محذوف يعود إلى التضعيف المفهوم من قوله ضوعف أي هو كحبة.

والمعنى: حصلت لحليمة تلك المضاعفة الكثيرة في تلك السنابل، والحال أن الوقت فيه عدم النبات بالكلية، بحيث أن الفقراء يتطلعون التبن كي يجدوا فيه حبا فضلا عن النبات. قيل: والمناسب أن يتقدم هذا البيت على الذي قبله فيكون مواليا لقوله لقد ضوعف. ويقرب الضمير المخبر عنه بحبة من مُفَسَره وهو الأجر المضاعف، ويأتي بعد وإذا سخر الإله.

ثم قال [الناظم]:

---

[45] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.141 و142.
[46] سورة البقرة، الآية 261.
[47] في النسخ الثلاث كُتب "كالتسعين"، وهو خطأ نقل بالرجوع إلى نص المرجع المطبوع.
[48] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.142.
[49] الفيروز آبادي، القاموس الحيط، ص.1099.

وأَتَت جَدَّهُ وقد فَصَلَتهُ --- وبها[50] مِن فِصالِهِ البُرَحاء
إذْ أحَـاطَت به مَلائِكَةُ اللهِ --- فظَنَّت بِأنَّهُم قُرَنــــــاء

يعني أن حليمة رضي الله عنها جاءت بالنبي ﷺ إلى جده أبي طالب، بُعَيْدَ أن تم رضاعه لمُضيِّ سنتين. ومتعلق أتت محذوف أي به، والواو في وقد فصلته، أي فطمته، للحال من فاعل أتت المقدر العائد على حليمة أو المذكور في جده. وذِكر الجد هنا باعتبار ما له عليه من الولاية والنظر، فلا ينافي رواية: "أتت به أمه"، لأن ذلك بحسب الصورة فقط. وبها خبر مقدم وضميره راجع لحليمة وَواوُه استئناف، وإذ تعليل له، والبرحاء مبتدأ مؤخر، [قال في] القاموس: "برحاء الحمى وغيرها: شدة الأذى، ومنه: برح به الأمر تبريحا"[51]، أي فارقته، ولها من أجل فراقه محنة شديدة، ومنه قول الشاعر:

مَن عز يدي في الذي أهديته --- منكم روحي فأهوى البرحاء

قال السنباطي في قول الناظم: "من فصاله أي فراقه، مصدر فاصلته لا فصلته"[52]، وهو موافق لظاهر القاموس ونصه: "الفصل: فطم المولود، والاسم كَكِتاب"[53]، ويوافق القياس أيضا وقولَه تعالى "وحمله وفصاله"[54]، ذكر جماعة من المفسرين أنه الفطام.

وأحاطت أي حلَقت وحدقت بمعنى اكتنفوه، وإذ ظرف أو تعليل لِأتت، كذا قيل وهو غير سديد، لأن إتيانها به وقع بعد الإحاطة به. والملائكة جمع مَلَك بفتحتين، وقد تقدم اشتقاقه ومعناه. ولما رأت حليمة الملائكة الذين جاؤوا لشق صدره ﷺ، ظننتهم أي حسبت أو اعتقدت، أنهم قرناء أي شياطين أرادوا إذَايَتهُ. والقرناء جمع قَرِين، وهو كما في القاموس: "المصاحب والشيطان المقرون بالإنسان لا يفارقه"[55]. فخافت عليه حليمة رضي الله عنها مما رأت، فأتت به جده مسرعة، ليسلم من ذلك. وهذا الإتيان به، كان بعد مرة أخرى قدمت به على أهله حين فصلته، وهو المشار

---

[50] هكذا في النسختين الصبيحية والحسنية وفي "المنح المكية"، وكُتب "لها" في النسخة الحسنية، وكذلك في الشرح جاءت كما كتبت في البيت في كل نسخة.
[51] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.111.
[52] السنباطي، مخطوط شرح الهمزية، ص.11.
[53] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1250، ومعنى ككتاب أي تُكتب فِصام.
[54] سورة الأحقاف، آية 15.
[55] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1316.

إليه بقوله وأتت جده، أي حين فطمته، وذلك كما في رواية عند ابن مرزوق[56]، قالت حليمة: "فقدمنا به إلى أمه، ومرادنا ألا يفارقنا لبركته، فقلت لأمه: -لو تركته عندنا حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة-، فردته إلينا. ولما وقع له شق الصدر قال أبوه[57]: لقد خشيت أن يكون أصيب فألحقيه بأهله. [فاحتملناه فقدمنا به][58] على أمه وهو ابن خمس سنين" الحديث. وتوفيت آمنة بالأبواء بين مكة والمدينة، وهو ابن ست سنين على المشهور، ومات جده عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين، وكان عمره [أي عبد المطلب] مئة وعشرون سنة، وكان ﷺ يتبع جنازته ويبكي. وظاهر رواية عند الكلاعي[59] أن الإتيان الثاني كان بعد الأول بأشهر، وبعدها ذكر مدة رواية ابن مرزوق عن الواقدي. والأولى جعل إذ أحاطت علة لقوله وبها من فصاله، أي فراقه، حيث أتت به حليمة في المرة الثانية لما رأت ما رأت. وأما قوله وأتت جده وقد فصلته أي حين فطمته، فقد كان قبل هذا كما سبق، وليس هو مُسببٌ عن إحاطة الملائكة به، فلا يصح جعل إذ علة له.

ثم ذكر [الناظم] ما وقع لحليمة من فراقه وما شاهده جده منها، فقال:

وَرَأَى وَجدَها بِهِ ومِنَ الوَجْـ --- ـدِ لَهيبٌ تَصْلَى بِهِ الأَحْشاء

فارَقَتْهُ كَرْهــــاً وكانَ لَدَيْها --- ثاوِيــــاً لا يُمَلُّ منه الثَّواء

رأى هنا بصرية والفاعل ضمير يعود إلى عبد المطلب، والوجد احتراق النفس من هوى المحبوب، وإنما سمي وجدا، لأن المحب لا يحس بشيء غيره ولا يرى موجودا سواه، فكأن الوجود في حقه متوقف عليه، كذا قيل. وفي القاموس: "وجد به وجدا: في الحب فقط، وكذا في الحزن لكن يكسر ماضيه"[60]. ثم قال: "واللهيب واللهب: اشتعال النار إذا خلصت من الدخان، ولهبها: لسانها، ولهيبها: حرها"[61]. ثم قال: "وصَلَى النار بالفتح: دخلها، وصلى النار كرضى، وبها صُلِيّا وصِلِيّا. وصِلاء

---

[56]عمرو بن مرزوق الباهلي. والحديث المذكور هو تمام الحديث السالف الذي ذكره ابن حجر الهيتمي في المنح المكية ص.137.

[57]أي زوج حليمة رضي الله عنها. وهو مَجاز ويعني: زوج أمه بالرضاعة.

[58]في النسخ الثلاث بدلت الكلمات الثلاث بـ"فأقدمناه". وفي القاموس المحيط، ص.1295 : "أَقْدَمَ على الأمر: شَجُعَ". والمعنى مقبول كذلك، لأن إرجاعه ﷺ إلى أهله يتطلب شجاعة على إرغام النفس للمُضي فيما لا تحب.

[59]سليمان بن موسى الكلاعي المتوفى عام 634هـ.

[60]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1732.

[61]نفس المرجع السابق، ص.1489.

بالكسر والفتح: قاسى حرها"[62]. ثم قال: "والحشا ما في البطن، الجمع أحشاء"[63].
والمعنى أن حليمة رضي الله عنها حصل لها من فراقه ﷺ وجدا، أي شدة شوق، نشأ عنه لهيب احترقت منه أحشاؤها، فرآه عبد المطلب وعلم حالها فرق لها، فلم تكن مريدة لفراقه ﷺ، لكن لما رأت ما رأت، ارتكبت أقل الضررين، ففارقته جبرا لا طوعا.

ومن ثم قال [الناظم] فارقته كرها بفتح أوله وضمه، حال من فاعل فارقته، وهو: "كراهة الشيء عند البصريين، وقال الفراء[64] : "بالفتح، وأما بالضم فبمعنى المشقة"، و"قال القتبي[65]: -بالفتح: القهر، وبالضم: المشقة، وبالضم وسكون الراء: المكروه-، قال تعالى -وهو كره لكم-[66]"[67]، قاله في المشارق. وهذه الجملة كالعلة لما قبلها، وواو كان للحال، واسمها ضمير يعود إلى النبي ﷺ، وثاويا خبرها، ولديها، أي عندها، ظرف له، ويُمْلَ بالبناء للمفعول، والثواء نائب الفاعل، والجملة حال من ضمير ثاويا، أي لا يسأم من معاشرته لحسن أخلاقه الحميدة وشيمه الرشيدة. وكيف تمله حليمة وقد شاهدت من ذلك ما لا تطيق وصفه، مع ما زاد لها من كثرة الخيرات والبركات والخصب مما تَحيله العادة، وقد قالت في تمام حديثها السابق عند ابن مرزوق: "أليس كان لنا عشرة أعنز عجاف؟ فغنمنا اليوم ثلاثمئة".

ولما ذكر إحاطة الملائكة به ﷺ، بيَّن [الناظم] سبب ذلك فقال:

شُقّ عن قلبِهِ وأُخرجَ منهُ --- مُضغَةٌ عند غَسلِهِ سَوْداء

خَتَمَتهُ يُمنَى الأمينِ وقد أو --- دِعَ ما لم يُذِع[68] له أَنْباء

صانَ أسرارَهُ الخِتامُ فلا الفَضُّ --- مُلِمٌ بهِ ولا الإِفْضاء

هذا جواب عن سؤال مقرر، كأنَّ قائلا قال له: لِما أحاطت به الملائكة؟، فقال:

[62] نفس المرجع السابق، ص.944.
[63] نفس المرجع السابق، ص.367.
[64] أبو زكريا يحيى بن زياد الأسلمي الكوفي المتوفى عام 207هـ.
[65] لعله عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المسمى القتبي.
[66] سورة البقرة، آية 216.
[67] القاضي عياض، مشارق الأنوار، ج.1، ص.339.
[68] هكذا في النسخة الصبيحية والنسخة الحسنية، وكتبت "تذع" في النسخة العزيزية وفي "المنح المكية" المطبوع. وأما في الشرح فكل نسخة تعتمد تفسير اللفظ الذي جاء بها في انسجام مع كتابة البيت.

شُقَّ[69]. قال في المنح: "ونائب فاعله قوله عن قلبه، ويَحتمل حذف النائب عن الفاعل، والتقدير شق صدره عن قلبه، فهو استئناف أراد به مطلق الشق الشامل للواقع له عند حليمة وغيره، لأنه كان ثلاث مرات: عند حليمة وعند البعثة وعند الإسراء، لكن إخراج المضغة إنما كان في المرة الأولى، وكان ﷺ ابن خمس سنين كما سبق في الروايات. وإخراجها على الحالة البديعة الآتية، بعد خلقها على الحال الإنسانية، أدلَّ على مزيد الرفعة وعظيم الاعتناء به ﷺ، وتطهيره من الحظ الشيطاني. والقلب قيل: -إنه مضغة في الفؤاد معلقة بالنياط، فهو أخص من الفؤاد-، قاله الواحدي. وفي الصحاح تراد بهما"[70]. وفي القاموس: "الفؤاد أو أخص منه"[71]. "قال الزركشي: والأحسن أن الفؤاد غشاء القلب، والقلب حبته وسويداؤه، ويؤيد الفرق قوله ﷺ: -ألين قلوبا وأرق أفئدة-، والقلب مشتق من التقلب لفرط تقلبه كما في الحديث، ومَثل هذا التقلب كَرِيشة ملقاة بفلاة يقلبها الريح ظهرا وبطنا"[72]، من المنح. و"المُضغة بضم الميم، قطعة لحم أو غيره"[73] قاله في القاموس، وزاد غيره: "قدر ما يمضغ". وعند غسله ظرف للإخراج.

وهاء ختمته تعود إلى الشُّق المفهوم من قوله شُق، وفي القاموس: "خَتَمه ويختمه خَتاما و[خِتاما][74]: طَبَعه"، ثم قال: "والخِتام بالكسر: ما يُختم به على الشيء المختوم"[75]. ويمني فاعل ختمت من اليُمن أي البركة، أو من القوة كقوله تعالى "لأخذنا منه باليمين"[76]، أو ضد اليسرى. والأمين: جبريل عليه السلام، قال تعالى "مكين مطاع ثم أمين"[77]، أي على وحيه. وأودع بالدال المهملة، والبناء للمفعول، من الوديعة، ونائب الفاعل ضمير يعود إلى النبي ﷺ، أو إلى القلب وهو الأنسب، وما موصولة أو موصوفة مفعوله الثاني. ويذع بالذال المعجمة، والبناء للفاعل،

---

[69]ثم باقي البيت.
[70]أبن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.144 و145، بالتصرف.
[71]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1353.
[72]أبن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.145، بالتصرف.
[73]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1539.
[74]في النسخة الصبيحية وكذا الحسنية كتبت "تختاما"، وفي العزيزية "تخاما". وصححت تبعا لما في المرجع المذكور.
[75]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.440.
[76]سورة الحاقة، آية 45.
[77]سورة التكوير، آية 20 و21.

صلة أو صفة من الإيذاع أي الإفشاء والإشاعة، واللام بعده زائدة، وفي "التنزيل"[78] تعذيته بالياء، ومثله في القاموس.

والمعنى أن قلبه الشريف، أودعه الله [عز وجل] من الإيمان والحكمة والأسرار الربانية والمعارف الإلهية[79]، ما لم تفشه ولا تنشره أنباء أي أخبار، لكونها لا تفي به وتقصر على الإحاطة به، إذ لا يعلمه إلا من تفضل بذلك عليه.

وصان أي حَفِظَ وكَلَأَ[80]، يعني أن تلك الأسرار المودعة في ذلك المحل الشريف، منعها الختام الذي عليها من أن ينزل بها الفض أي الكسر فيشاع ما فيه، ولا الإفضاء أي التوصل والخلوص إليه أبدا. وحديث شق الصدر ما في رواية أبي يعلى وأبي النعيم وابن عساكر، ونصه: "كنت مُستَرْضَعاً في بني ليث بن أبي بكر، فبينما أنا ذات يوم في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان، وإذا برهط ثلاثة ومعهم طست من ذهب مُلئ ثلجاً، فأخذوني من بين أصحابي وانطلق الصبيان هربا مسرعين إلى الحي، فعمد أحدهم فأضجعني على الأرض إضجاعا لطيفا، ثم شق ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي، وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك مَسّاً، ثم أخرج أحشاء بطني، ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها، ثم أعادها إلى مكانها. ثم قام الثاني فقال لصاحبه: -تنحَّ-، ثم أدخل يده في جوفي وأخرج قلبي وأنا أنظر إليه، فصدعه، ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها. ثم أشار بيده يمنة ويسرة كأنه يتناول شيئا، فإذا الخاتم من نور يحار الناظر دونه، فختم به قلبي فامتلأ نورا، فذلك نور النبوة والحكمة، ثم أعاده مكانه، فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهرا. ثم قال الثالث لصاحبه: -تنحَّ-، فأمرَّ يده بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي، فالْتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضا لطيفا"[81] الحديث.

ولما فرغ [الناظم] من ذكر معجزاته في رَضاعه وما أُلحق بها، شرع في ذكر أحوال نشأة طفولته وما أُلحق بها فقال:

أَلِفَ النُّسْكَ والعِبادَةَ والخَلْـ --- ـوَةَ طِفلاً وهَكَذا النُّجباء

---

[78] لم أتعرف على قصده.

[79] كتبت في النسخ الثلاث "الإلاهية"، وهو صحيح كذلك.

[80] أي حرس.

[81] أورده ابن حجر الهيتمي في المنح المكية، ص.147.

وإذا حَلَّــتِ الهِدايَةَ قَلبـــاً --- نَشِطَت للعبادةِ الأَعْضاء

فاعل ألفَ، بفتح فكسر، ضمير يعود إلى النبي ﷺ. والنسك، وهو بضمتين وبضم فسكون، كما في القاموس: "العبادة، وكل حق لله"[82]. والخلوة: الانفراد عن الناس. والطفل، بكسر أوله: الصغير من كل شيء، وهو حال من فاعل ألف، أي إعتاد هذه الأمور واستمر عليها في طفولته وما بعدها. فمن طفولته ما في صحيح البخاري وغيره عنه ﷺ قال: "ما هممت بسوء من أمر الجاهلية إلا مرتين"[83]. وروى أهل السير أن إحدى المرتين كان في غنم يرعاها ومعه غلام من قريش، فقال للغلام: "اكفني أمر الغنم حتى آتي مكة"، وكان بها عرس فيها لهو، فلما دنى من الدار ألقى الله عليه النوم فنام حتى ضربته الشمس، عصمة من الله تعالى له. والمرة الأخرى مثلها، فكان ربه تعالى يكلوه[84] من جميع أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ﷺ. ومن ذلك أيضا ما ذُكر عن أم أيمن، قالت: "كان لقريش صنم يحضرونه كل سنة ويعظمونه ويعكفون عليه يوما إلى الليل، وكان أبو طالب يحضره ويحضر النبي ﷺ كل سنة فيأبى ذلك، حتى كان عماته يغضبن عليه ويقلن له: إنا نخاف عليك ما تصنع من اجتناب آلهتنا وما تريد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا. فلم يزلن به حتى غاب عنهم يوما ما شاء الله، ثم رجع مرهوبا فزعا، فقلن له ما دهاك، قال: إني أخشى أن يكون بي لمم، فقلن: ما كان الله يبتليك بالشيطان فما الذي رأيت؟ قال: إني كلما دنوت من صنم، صاح بي رجل أبيض طويل -يا محمد لا تمسه-، قالت فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ"[85]، صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم.

---

[82] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1607.

[83] لم أقف على هذا الحديث في صحيح البخاري، بل وجدت هذا اللفظ مُبتدأ حديث أهل السير الذي يليه، وقد أخرجه عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، الطبراني والحاكم وابن الأثير.

[84] أي يمنعه.

[85] أخرجه أبو النعيم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما ولكن بلفظ مغاير، أسرده فيما يلي لأنه يفيد أن عمه وعماته ضغطوا عليه ﷺ، وأجبروه على حضور الاحتفال: "عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "حدثتني أم أيمن حاضنة رسول الله صلى الله عليه سلم، قالت: كان لقريش صنم تحضره وتعظمه، وتنسك له النسائك ويصنعون له الطعام ويحلقون رؤوسهم عنده، ويعكفون عنده يوما إلى الليل، وذلك يوم في السنة. وكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلم رسول الله أن يحضر ذلك العيد مع قومه، فيأبى رسول الله. حتى رأيت أبا طالب غضب عليه أسوأ الغضب فيقول: إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، وجعلنا نقول: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً، ولا تكثر لهم جمعاً. قالت: فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوبا. فقلن عماته: ما دهاك؟ قال: إني أخشى أن يكون بي لمم. فقلن: ما كان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذي رأيت؟، قال: إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي: وراءك يا محمد لا تمسه. قالت أم أيمن: فما عاد إلى عيد لهم".

وكل ذلك صون وتطهير وإجلال له، من كل ما يخل بعظيم شأنه ﷺ وعلى آله، فمَن كان هذا حاله في صغره فما بالك به في كبره، في تخليص قلبه وفي سيرته وأدبه مع ربه، وناهيك به أن الله تعالى اصطفاه وشرفه على سائر خلقه بإجماع الأمة، ولله در القائل:

من ذا الذي ما ساء قط --- وقوله الحسنى فقط

الأحمد [الهادي] الذي --- عليه جبريل هبط[86]

وأما ما كان في كبره قبل بعثته [ﷺ]، ففي صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت بعد كلام طويل ما نصه: "ثم حُبِّبَ إليه[87] الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد، قبل أن يفزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو بغار حراء"[88] الحديث. "واختلف في تعبده فقيل أنه كان يتعبد بشرع لم يعرف، وقيل بشرع نوح، وقيل بشرع إبراهيم، وقيل غير ذلك. قال السراج البلقيني : -ولم يجيء في الأحاديث التي وقفت عليها كيفية تعبده ﷺ، لكن روى ابن إسحاق وغيره، أنه كان يخرج إلى حراء شهراً في كل سنة يتنسك فيه، وكان من نسك قريش في الجاهلية أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين، حتى إذا جاء من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة-"[89] من المنح. ثم قال: "والظاهر أن عبادته، كما قال غير واحد، كانت بالذكر والفكر، مع إكثاره للخلوة بحراء وغيره"[90]. والنجباء جمع نجيب وهو الكريم الحسيب، أي "ومِثْلُ هذا الشأن العلي المقدار حال الكرام، فما بالك بأشرفهم وسيدهم على الإطلاق"[91].

وحلت أي سكنت، وفي القاموس: "حل المكان وبه: نزل فيه"[92]، أو حل أي فتح

---

[86] من قصيدة لعبد الغني بن إسماعيل النابلسي الدمشقي الحنفي النقشبندي، توفى عام 1143هـ، وبذلك فقد عاصره العلامة الشبيهي.

[87] أي لرسول الله ﷺ. في النسخة الصبيحية كتب "إلي"، وفي العزيزية والحسنية "إليه" وهو الصحيح، لأن الحديث جاء على لسان أمنا عائشة رضي الله عنها، حيث تحكي عن رسول الله.

[88] صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي.

[89] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.153، بالتصرف.

[90] نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

[91] نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

[92] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.395.

المغلق أو العقدة أي نقضها، قال تعالى "أم على قلوب أقفالها"[93]، والهداية فاعله، و"الهداية والهُدى: لغة الرشاد"[94] كما في القاموس. قال في المنح: "وهو هنا بمعنى الوصول إلى الحق، لا الدلالة عليه فقط، فمن الأول: قوله تعالى -إنك لا تهدي من أحببت-[95] أي لا توصله، ومن الثاني: -وأما ثمود فهديناهم-[96] أي دللناهم ولم نوصلهم بدليل، -فاستحبوا العَمى على الهُدى-[97] إذ لو وصلوا لم يستحبوا ذلك"[98]. "ونشط كسَمِع:، طابت نفسه للعمل"[99] كما في القاموس. و"الأعضاء جمع عضو وهو كل عظم وافر بلحمه"[100] قاله في القاموس. وعلق الناظم نشاط الأعضاء للعبادة على القلب لأنه رئيس البدن، وصلاح البدن متوقف على صلاحه، وأشار بذلك إلى ما صح عنه ﷺ أنه قال: "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[101].

---

[93]سورة محمد، آية 24.
[94]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1682.
[95]سورة القصص، آية 56.
[96]سورة فصلت، أية 17.
[97]نفس المرجع أعلاه.
[98]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.154.
[99]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1611.
[100]نفس المرج أعلاه، ص.1106.
[101]أخرجه الإمامين البخاري ومسلم.

الفصل الثالث: من البيت 46 إلى البيت 65

لما ذكر[الناظم] فضائله ﷺ طفلا وكهلا، أراد ذكر فضائل بعثته فقال:

بَعَثَ اللهُ عندَ مَبْعَثِهِ الشُّهْـ --- بَ حِراساً وضاقَ عنها الفَضاءُ

يعني أنه لما بعث الله [تعالى] نبيه ﷺ، وكانت الشياطين تسترق السمع فيأتون بخبر السماء ويهبطون به إلى الأرض، فيزيدون معه كثرة الكذب ويلقونه على الكهنة، فحجبهم سبحانه عن ذلك بإرسال الشهب عليهم لتحرقهم، صونا لخبر السماء من الكذب والتخليط، وخص نبيه ﷺ بالوحي فلا ينبغي معه شيء من ذلك، إكراما له وتعظيما لشأنه وإظهارا لمزيته ﷺ، قال في المنح: " جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الشياطين كانوا لا يحجبون عن السماوات، وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها فيلقون ذلك على الكهنة. فلما ولد عيسى [عليه السلام] منعوا من ثلاث سماوات، فلما ولد [سيدنا] محمد ﷺ منعوا من السماوات كلها، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب وهو الشعلة من النار، فلا يُخطَأُ أبدا، فمنهم من يقتله، ومنهم من يحرق وجهه، ومنهم من يخبله فيصير غولا للناس في البراري. قال الأئمة: وهذا لم يكن ظاهرا قبل نبوته ﷺ، ولم يذكره أحد [في] زمانه، وإنما ظهر في بدء أمره تأسيسا لنبوته. نعم جاء عن معمر أنه قال: -قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال نعم، قلت أفرأيت قوله تعالى --وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع--[1]، قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث ﷺ-. وجرى على هذا ابن قتيبة فقال: -كان الرجم قبل مبعثه، ولكن لم يكن في شدة الحراسة مثله بعد مبعثه-. وعلم من قول ابن عباس -شعلة نار- أن الكوكب لا ينتقل من محله، وإنما الذي ينفصل عنه تلك الشعلة، وقيل الكوكب نفسه ينقض ثم يرجع إلى محله ليحرق أولئك الشياطين"[2]. وحراسا: إما جمع حارس على غير قياس كقائم وقيام، فهو حال من

---

[1] سورة الجن، آية 9.
[2] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.163.

الشهب، وقيل أنه مصدر أي لأجل الحراسة، وهو ضعيف لكون فعله علاجيا[3] مع أن مصدريته لحرس متوقفة على مسموعيته. و"الفضاء بالمد: المساحة وما اتسع من الأرض"[4] قاله في القاموس. وضِيقه عن الشهب كناية عن كثرتها، حتى كأنه لم يحملها. واعلم أن النجوم خلقها الله لثلاثة أشياء كما في صحيح البخاري عن قتادة: "في قوله تعالى -ولقد زينا السماء الدنيا-[5] الآية، جعلها زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به"[6].

ثم بيَّن [الناظم] حراسة الشهب، فقال:

تَطرُدُ الجِنَّ عن مَقاعِدَ للسَّمْـ --- ـعِ كما تَطرُدُ الذِّيَابَ[7] الرُّعاء

الجن بكسر أوله: طائف الجان، وتطرُده بضم الراء أي تبعده وتنفيه عما يريده، والمقاعد جمع مقعد وهي "أماكن قريبة من السماء، يقعد فيها الشياطين ليستمعون الملائكة حين يتكلمون بما سيقع في الأرض من الأقضية والمغيبات، إما لكون رئيسهم يلقيه عليهم فيتلقونه منه ليكتبوه، أو أن بعضهم ينسخه من كتب البعض زيادة في الاعتناء"[8] قاله في المنح. فتطرد تلك الشهب الشياطين طردا بليغا، مَثَّله [الناظم] بقوله كما تطرد، وما مصدرية، والمراد بالرعاء بضم أوله أو كسره: رعاة الغنم، فإنهم أشد الرعاء حراسة عليها لكثرة عَدْوِ الذياب عليها، وانتهازهم الفريسة[9] فيها. وفيه تحقير للشياطين، فهو في تشبيهه في غاية المطابقة، وأصل ذلك قوله تعالى: "قل أوحي إلي أنه استمع نفر" إلى قوله [عز وجل]: "شهابا رصدا"[10]، وذلك

---

[3] في النحو، الفعل العلاجي: ما يحتاج في حدوثه إلى تحريك عضو.
[4] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1253.
[5] سورة الملك، آية 5.
[6] صحيح الإمام البخاري، كتاب بدء الخلق، باب في النجوم. والمعنى: إن استعمال النجوم للتعرف على الطالع وما يحدث مستقبلا مما يفعله المنجمون والعرافون، ليس بعلم وغير مقبول شرعا، والله أعلى وأعلم.
[7] هكذا كتبت في النسخ الثلاث، وكتبها ابن حجر في المنح "الذئاب"، و يرجع الأمر لاعتماد سيدي يحيى الشبيهي رواية ورش عن نافع، وقوله تعالى في سورة يوسف "وأخاف أن يأكله الذيب"، وذُكر "الذيب" كذلك في الآيات الموالية من نفس السورة، والجمع إذن ذياب، وبالطبع المعنى واحد مع ذئاب.
[8] ابن حجر الهيتمي، المنح المكة، ص.161.
[9] في النسخة الثلاث كتبت "الفرسة".
[10] سورة الجن: بسم الله الرحمان الرحيم "قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اُسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ اَلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً (1) يَهْدِےٓ إِلَي اَلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَداً (2) وَإِنَّهُ تَعَٰلَيٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اَتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَداً (3) وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَي اَللَّهِ شَطَطاً (4) وَإِنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ اَلِانسُ وَالْجِنُّ عَلَي اَللَّهِ كَذِباً (5) وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ اَلِانسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ اَلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً (6) وَإِنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمُۥٓ أَن لَّنْ يَّبْعَثَ اَللَّهُ أَحَداً (7) وَإِنَّا لَمَسْنَا اَلسَّمَآءَ

أن النبي [ﷺ] كان يقرأ في الصلاة، فلما سمَع الجن ذلك عرفوا أنه الحق فآمنوا، ثم ولوا إلى قومهم منذرين، كما قص الله [عز وجل] عنهم في سورة الأحقاف، على ما يأتي بيانه. وصح أنهم كانوا يأتون إليه بعد ذلك إرسالا، أي قوما بعد قوم، وأنهم سألوه الزاد، فقال: "كل عظم ذُكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل بعر علف لدوابكم"[11]، وفيه رد على من زعم أن الجن لا تأكل ولا تشرب. وفي صحيح البخاري وغيره: "عن ابن عباس قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ[12]، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب. فرجعت الشياطين فقالوا: -مالكم؟-، قالوا: -حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب-، فقالوا: -ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث-، فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء. قال: فانطلق الذين توجهوا إلى نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة، وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بالأصحابه صلاة الفجر، فلما استمعوا له قالوا: -هذا الرجل حال بينكم وبين خبر السماء-، فهنالك رجعوا إلى قومهم. قالوا: -يا قومنا، --إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا--[13]. وأنزل الله تعالى على نبيه -قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن-[14]، وإنما أُوحيَ إليه قول الجن"[15]. قال المفسرون: إن الجن كانوا سبعة، وكانوا كلهم ذكرانا، لأن النفر للرجال دون النساء، وكانوا من أهل "نصيبين" مدينة بالشام[16]، وقيل من أهل الجزيرة[17].

فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباًۖ (8) وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَّسْتَمِعِ اِ۬لَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَاباً رَّصَداًۖ(9)" صدق الله العظيم.

[11] رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[12] أحد ثلاث أكبر أسواق شبه الجزيرة العربية في الجاهلية، مع سوق مجنة وسوق ذي المجاز.

[13] سورة الجن، آية 1 و2. بسم الله الرحمان الرحيم "قل أوحي إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآن عجبا (1) يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا (2)" صدق الله العظيم.

[14] سورة الجن، الآية 1.

[15] صحيح الإمام البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب سورة "قل أوحي إلي" (سورة الجن).

ملاحظة: الجملة الأخيرة من قول ابن عباس رضي الله عنه، ويفسرها الإمام ابن حجر العسقلاني في "فتح الباري" بما يلي: "هذا كلام ابن عباس، كأنه تقرر فيه ما ذهب إليه أولا، أنه ﷺ لم يجتمع بهم، وإنما أوحى الله إليه أنهم استمعوا".

[16] نصيبين: مدينتين بنفس الاسم، مدينة باليمن وأخرى في كردستان التركية حاليا، أي الشام قديما.

ثم بين [الناظم] حكمة طرد الجن وحجبهم عن خبر السماء بقوله:

فَمَحَت آيةَ الكهانةِ آيا --- تٌ مِن الوَحْيِ ما لـهن انْمِحاء

المحو: إذهاب أثر الشيء، قال تعالى "فمحونا آية الليل"[18]. والآية العلامة، كقوله تعالى "إن آية ملكه"[19]، لأنها كانت علامة على ملك طالوت. والكَهانة بفتح الكاف، مصدر كَهَنَ كجَعَلَ ونَصَرَ، والكاهن يُخبِر بالمغيبات التي يلقيها إليه الشيطان، وفي صحيح البخاري وغيره: "عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: الملائكة تُحدِّثُ في العنان، -والعنان: الغمام-، بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة فتقرقر في أذن الكاهن كما تقر القارورة، فيزيدون معها مئة كذبة"[20]. وفي رواية له أيضا: "فيقرها في أذن وليّه كقر الدجاجة، فيزيد معها أكثر من مئة كذبة"[21]. والوحي لغة: "الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي"[22] قاله في القاموس. فمِن الإشارة: قوله تعالى "فأوحى إليهم أن سبحوا"[23] الآية، وقيل كتبه [زكريا] في التراب لأنه كان لا يقدر على الكلام. ومن الكلام الخفي: "يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا"[24] أي يوسوس، وقد يجيئ بمعنى الأمر، ومنه "وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا"[25] الآية. وبمعنى التسخير ومنه: "وأوحى ربك إلى النحل"[26]، وهذا يرجع إلى الإلهام. وأما عرفا فقال بعضهم: هو إعلام الله تعالى أنبياءه بكتاب، أو رسالة مَلَك، أو منام، أو إلهام.

والمعنى: إن الله تعالى أذهب وأبطل آية الكهنة وجميع الأباطيل، تنزيها وتطهيرا لشريعة نبيه ﷺ من جميع الكدر والشوائب، بآيات دالة على رسالته ﷺ من الوحي المنزل من الحق سبحانه، ليس لها محو ولا تبديل ولا تغيير إلى قيام الساعة، تعظيما لشأنه وإظهارا لعلو منزلته عند ربه. وانمحاء بنون الانفعال، الدال على

---

[17] أي شبه الجزيرة العربية، ويوافق ذلك مدينة نصيبين باليمن، وبالتالي فالقول واحد.
[18] سورة الإسراء، الآية 12.
[19] سورة البقرة، الآية 248.
[20] صحيح الإمام البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.
[21] صحيح الإمام البخاري، كتاب الأدب، باب قول الرجل للشيء ليس بشيء.
[22] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1737.
[23] سورة مريم، آية 11.
[24] سورة الأنعام، آية 112.
[25] سورة المائدة، آية 111.
[26] سورة النحل، آية 68.

مطاوعة فعل الغير المتأثر به عادة، أبلغ في نفي المحو من إن لو قال: امتحاء بتاء الافتعال، الدال على مطلق الفعل، فإذا امتنع الإذهاب فالذهاب أحرى، والله أعلم.

ثم ذكر قصة تزوجه ﷺ بخديجة رضي الله عنها، ولو قدمها قبل قوله: "بعث الله"[27] عند مبعثه، لكان أولى ليوافق الواقع، فقال [الناظم]:

ورَأَتهُ خَـديـجـةٌ والتُّقَى والزُّ --- هدُ فيهِ سَجِيَّةٌ والحَيـاء

وأتـاهـا أنَّ الغَمـامـةَ والسَّرْ --- حَ أظَلَّتهُ مِنهُما أَفْيـاء

وأحاديثُ أن وعدَ رسول الله --- بالبعث حان منه الوفاء

رأى بصرية أو علمية، وفاعلها خديجةٌ بالصرف لضرورة الوزن، أكرمها الله بذلك لما سبَق لها من الفضل الذي فاقت به سائر أمهات المؤمنين رضي الله عنهن. وهي بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، وكانت رضي الله عنها ذات شرف ظاهر وحسب باهر ومال وافر، فاجتمعت مع النبي ﷺ في قصي، فإنه ترك عبد مناف فتفرع منه النبي ﷺ، وترك عبد عزى فتفرعت منه خديجة رضي الله عنها، وفضلها غير خفي. قال بعض شارحي الشمائل عند قول المتن: "فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"[28] ما نصه: "قال المنوي: -من أطلق نساءه؟- ورُد عليه: -خديجة-. وهي أفضل من عائشة على الصواب لتصريحه لعائشة أنه لم يرزق خيرا من خديجة، ولخبر ابن أبي شيبة : فاطمة سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم بنت عمران وآسية وخديجة. فإذا فَضُلَت خديجة فاطمة فعائشة أولى. و-من أولى نساء زمنها؟- ورُد عليه: -فاطمة-، وفي شأنها قال المصطفى ما سمعت، وقد قال جمع من السلف: -لا يعدل أحد بضعة رسول الله ﷺ-، قال البعض: -وبه يعلم أن بقية أولاده كفاطمة-"[29]. ومما يُرجح فضل خديجة على عائشة [رضي

---

[27] البيت 46، أنظر أول هذا الفصل.

[28] من حديث أخرجه الإمامين البخاري ومسلم في صحيحيهما.

[29] ابن حجر الهيتمي، أشرف الوسائل إلى فهم المسائل، ص.236 و237.

لم أقف عليه بهذا النص، وأورد في ما يلي نص المرجع كاملا، حتى يتبين المعنى: " (على النساء) أي حتى آسية، وأم موسى فيما يظهر، وإن استثنى بعضهم آسية، وضم إليها مريم، وفي ما قاله محتمل لحديث: -فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران-، وفي رواية لابن أبي شيبة -بعد مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد، فإذا فضلت فاطمة فعائشة أولى-. وذهب بعضهم إلى تأويل النساء بنسائه كلهن، ليخرج مريم وأم موسى وحواء وآسية، ولا دليل له على هذا التأويل في غير مريم وآسية، نعم يستثنى خديجة فإنها أفضل من عائشة على الأصح لتصريحه لعائشة بأنه لم يرزق خيراً من خديجة، وفاطمة أفضل منها إذ لا يعدل ببضعته أحد، وبه يُعلم أن بقية أولاده كفاطمة، وأن سبب الأفضلية ما فيهن من البضعة الشريفة. ومن ثم

الله عنهما] أن خديجة أقرأها جبريل السلام من ربها عز وجل كما في الصحيحين[30]، وعائشة أقرأها النبي ﷺ السلام من جبريل. وقال الشيخ زكرياء[31] في شرحه لهذا المحل، قال النبي ﷺ: "والله ما رزقني الله خيرا منها -يعني خديجة-، آمنت بي حين كذبني الناس، وأعطتني متاعها حين حرمني الناس". والتُقى بضم أوله مقصور من: "اتقيت الشيء وتَقَيْته، أي حذرته، والاسم منه التقوى"[32] من القاموس. وأصله تُقيا، وهو مبتدأ وواوه للحال من مفعول رأته. والزهد ضد الرغبة، وفي الاصطلاح: ترك الحلال. وسجية صفة مشبهة أي لازمة له، من سجى يسجو، أي سكن ودام. قال بعض المفسرين في قوله تعالى "والليل إذا سجى"[33]: أي استقر واستوى، أو سكن فيه الناس والأصوات. ومنه ليلة ساجية إذا كانت ساكنة الريح، وطرف ساج أي ساكن غير مضطرب النظر، وهو سَجِيٌّ كقوي وعلي، قلبت واوه ياء لأجل الكسرة، بمعنى أن ذلك مركوز في فطرته ﷺ. "والحياء بالمد كذلك: من الحياة، فكلما كان القلب حيا كان الحياء أتم، وهو لغة: تغيير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وشرعا: خُلُق يبعث على اجتناب القبيح، ومنه التقصير في حق من له حق، ومن ثم صح: الحياء لا يأتي إلا بخير وأنه من الإيمان"[34]، قال في المنح: "وجعل منه، وإن كان غريزيا، لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصد واكتساب"[35]. وفي رسالة القشيري: "وسئل الجنيد عن الحياء فقال: رؤية الآلاء[36] ورؤية التقصير، تتولد من بينهما حالة تسمى الحياء"[37]. وفي الصحيح: "أنه ﷺ كان أشد حياء من العذراء في خدرها"[38]. وتمثيله بهذا "لأن حياءها فيه أشد، لأنه مظنة أن يظفر منها [طامع يدخل عليها فيه بشيء بخلافها بحضرة

حكى ابن السبكى عن بعض أئمة عصره أنه فضل الحسن والحسين على الخلفاء الأربعة من حيث البضعة، لا مطلقا.

[30] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال "يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام أو شراب، فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب".

[31] لعله الشيخ زكريا الأنصاري.

[32] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1775.

[33] سورة ضحى، آية 2.

[34] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.168

[35] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.168. ويتبع القول السابق مباشرة.

[36] النِّعم.

[37] القشيري، الرسالة القشيرية، ص.375.

[38] صحيح الإمام البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ.

الناس]"[39] قاله في المنح.

والغمامة أي السحابة واحدة الغمام، والسَّرْح بفتح فسكون: "شجر عظام، أو كل شجر لا شوك فيه، أو كل شجر طال"[40] قاله في القاموس. وأن وما بعدها مؤولة بمصدر فاعل أتاها، والمراد هنا السَّرْحَة[41] التي نزل تحتها رسول الله ﷺ، لما قدم تاجرا إلى بُصْرَى[42] من مدن الشام، مع ميسرة عبد خديجة. وكان راهب في دير له بإزاء تلك السرحة، فلما رآه سأل ميسرة عنه فقال إنه قرشي، فقال الراهب: ما نزل تحتها إلا نبي[43]. وحكى أهل السير أيضا: "أن رجلا حالف النبي ﷺ في بيع وهو في سوق بصرى، فقال له الرجل: -احلف باللات والعزى-، فقال له [ﷺ]: -ما حلفت بهما قط-، فقال الرجل لميسرة: -هذا نبي، والذي نفسي بيده أنه الذي نجده منعوتا في كتبنا-، فوعي ذلك ميسرة. وكان ميسرة يرى ملكين يظلانه في الهاجرة، ورأت خديجة ذلك أيضا لمَّا قفل من الشام في سفره، فدخل مكة في الظهيرة على بعير له، وخديجة في علية لها فرأت ملكين يظلانه، فرأت ذلك نساءٌ كن عندها فعجبن من ذلك، فلما دخل ميسرة وأخبرها الخبر وبما حصل لها من الربح سرت بذلك، فأخبرته بما رأت، فقص عليها جميع ما رآه، وقول الراهب وقوله [ﷺ] للرجل: -ما حلفت بهما قط-"[44]. وأفياء جمع فيء، وفي الحديث "حتى رأينا فيء التلول"[45]، قال القسطلاني: "بضم المثناة الفوقية، جمع تَل بفتح أوله: -كل ما ارتفع على الأرض من تراب أو رمل أو نحوه-، والفيء ما بعد الزوال، والظل أعم منه، يكون لما قبل وبعد"[46]. وفرق بينهما بعضهم، بأن الظل ما نسخته الشمس والفيء ما نسخها. وفي

---

[39] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.168. أتممتُ بين عارضتين قول الشيخ ابن حجر حتى يكتمل المعنى.
[40] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.761.
[41] الشجرة.
[42] مدينة في الجمهورية السورية حاليا.
[43] ذكره ابن إسحاق في سيرته وابن سعد في الطبقات.
[44] جاء في باب سفره إلى الشام من كتاب "السيرة الحلبية" لعلي بن برهان الدين الحلبي.
[45] صحيح الإمام البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد في الظهر في السفر.
[46] القسطلاني، إرشاد الساري، ج.1، ص.487.
أورد في ما يلي النص الكامل لشرح الحديث كما جاء به الإمام القسطلاني، زيادة في التوضيح: "عن أبي ذر، قال ﷺ : -شدة الحر من فيح جهنم، فإذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة-، أي إذا اشتد الحر فتأخروا عن الصلاة مبردين. قال أبو ذر: -كان يقول ذلك حتى، أي أخّرنا إلى أن، رأينا فيء التلول-، بضم المثناة الفوقية وتخفيف اللام، جمع تل بفتح أوّله، كل ما اجتمع على الأرض من تراب أو رمل أو نحوهما، وهي في الغالب مسطحة غير شاخصة، لا يظهر لها ظل إلا إذا ذهب أكثر وقت الظهر. والفيء ما بعد الزوال، والظل أعم منه، يكون لما قبل وما بعد، والتلول لانبساطها لا يظهر فيها عقب الزوال فيء، بخلاف الشاخص المرتفع. نعم، دخول وقت الظهر

القاموس: "الظل بالكسر: نقيض الضِحّ"[47]، ثم قال: "والضِحُّ بالكسر: الشمس وضوئها"[48]. وفي المنح: "من فاء يفيء، أي رجع لرجوعه"[49]، ثم قال: "وورد في إظلال الغمامة له ﷺ، أحاديث أصحها ما رواه جماعة، وهو على شرط الصحيح إلا أن في روايته غرابة، وذلك أن أبا طالب خرج به إلى الشام في أشياخ من قريش، فمروا بِبَحِيرَى[50] الراهب، فخرج إليهم على خلاف عادته، فجعل يتخللهم حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقال : -هذا سيد العالمين-، زاد البيهقي : -ورسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين-. فقالوا له: -وما علمك؟-، قال: -إنكم حين أشرفتم من الثنية لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني لأعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه-، ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به كان النبي ﷺ في رعيّة الإبل، فقال: -أرسلوا إليه-، فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا إلى القوم وجدهم قد سبقوا إلى الشجرة، فلما جلس ﷺ مال فيء الشجرة إليه"[51] الحديث. وأحاديثُ بالرفع أي أخبار معطوف على محل أن وصلتها، ووعد مصدر مضاف إلى المفعول، وبالبعث أي الرسالة متعلق به، و الـ في البعث خلفٌ عن الضمير. ووعد اسم أن وحان خبرها والوفاء فاعله. و"منه متعلق بالوفاء، وضميره يرجع إلى النبي ﷺ، أي قرب وفاء الله تعالى بذلك الوعد من رسوله"[52]، كذا قيل. وفي تعليق منه بالوفاء مع عود ضميره على الرسول [ﷺ] نظر، إذ لا يصح تعلقه به إلا إذا عاد ضميره على الله [عز وجل]، بل الأوْلى تعلق منه بحان فيصح ما قرره هذا القائل. ويجوز عود ضمير منه على البعث. ومحل أن وصلتها نصبٌ بنزع الخافض، أو خفض بالإضافة. ومن الأحاديث الواردة في قرب البعثة، ما ذكره أهل السير عن لهيب بن مالك اللهبي قال: "حضرت مع رسول الله ﷺ، فذُكرتْ عنده الكهانة، فقلت: بأبي أنت وأمي، نحن أول من عرف حراسة السماء ومنع الشياطين من استراق السمع عند قذف النجوم، وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خطر بن مالك،

لا بدّ فيه من فيء، فالوقت لا يتحقق دخوله إلاّ عند وجوده، فيحمل الفيء هنا على الزائد على هذا المقدار".

[47] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1034.

[48] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.967.

[49] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.169.

[50] وهو راهب كان يقطن قرب مدينة بُصرى، جنوب بلاد الشام.

[51] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.170.

[52] قاله ابن حجر الهيتمي في المنح المكية، ص.171.

وكان شيخا كبيرا، أتت عليه مئتي سنة وثمانون سنة وكان من أعلم كهاننا، فقلت له: -يا خطر هل عندك علم بهذه النجوم التي يُرمى بها؟ فإنا قد فزعنا لها-، فقال: -إيتوني بسَحَر، أخبركم الخبر، بخير أو ضرر، أو لأمن أو حذر-. قال: فانصرفنا عنه، فلما كان من غد أتيناه في وجه السَّحَر، فإذا هو قائم على قدميه شاخص إلى السماء بعينيه، فناديناه يا خطر، فأومأ إلينا أن أمسكوا فأمسكنا، فانقضَّ نجم من السماء عظيم وصرخ الكاهن رافعا صوته: -أصابه أصابه، خامره عقابه، عاجله عذابه، أحرقه شهابه، زائله جوابه، يا ويله ما حاله، تلفه ما باله، عاوده خباله، تقطعت حباله وغُيرت أحواله[53]-. ثم أمسك طويلا وقال: -يا بني قحطان، أخبركم بالحق والبيان، أقسمت بالكعبة والأركان، والبلد المؤتمن السدان، قد منع السمع عتاة الجان، بثاقب بكف ذي سلطان، من أجل مبعوث عظيم الشأن، يبعث بالتنزيل والقرآن، وبالهدى وفاصل الفرقان، تبطل به عبادة الأوثان-. قال: فقلت يا خطر إنك تذكر أمورا عظيمة فماذا ترى لقومك؟، قال: -أرى لقومي ما أرى لنفسي، أن يتبعوا خير نبي الإنس، برهانه مثل شعاع الشمس، يبعث في مكة دار الحمس، بمحكم التنزيل غير اللبس-. قال: فقلت يا خطر وممن هو؟، قال: -والحياة والعيش إنه لمن قريش، ما في حكمه طيش، ولا في خلقه هيش، يكون في جيش وأي جيش، من آل قحطان وآل أيش-، فقلنا له: من أي قريش هو؟، فقال: -والبيت ذي الدعائم إنه لمن بني هاشم، من معشر أكارم، يبعث بالملاحم، وقتل كل ظالم-. ثم قال: -هذا هو البيان، أخبرني به رئيس الجان-، ثم قال: -الله أكبر، جاء الحق وظهر، وانقطع عن الجن الخبر-، ثم أمسك وأغمي عليه فما أفاق إلا بعد ثالث [الأيام]"[54].

ولما رأت خديجة ما رأت من كمال حالاته، مع ما سمعت من أخباره، أرادت تزويجه ﷺ، وعلى ذلك نبه [الناظم] بقوله:

فَدَعتهُ إلى الزَّواجِ وما أَحْـ --- سَنَ ما يَبْلُغُ المُنَى الأَذْكِياء

يعني أن خديجة رضي الله عنها، لما عَلمتْ فضل رسول الله ﷺ، وما خصه الله

---

[53] يوجد مكانه فراغ في النسخة الصبيحية، ملأتُهُ بالرجوع للنسخة العزيزية وللمرجع الأصلي. وفي النسخة الحسنية كتب "أوصاله".

[54] جاء بهذا الحديث أحمد بن محمد الثعلبي في تفسيره، وأبو جعفر محمد بن عمرو العقيلي في كتاب "الصحابة"، واللفظ مختلف والمعنى واحد. وقد أضفت آخر كلمة بالرجوع إلى المرجع، ففي النسخة الصبيحية خُتم بـ"ثالث"، وفي النسختين الحسنية والعزيزية خُتم بـ"ثلاثة".

[تعالى] به من أكمل الحالات، تفرست فيه بحسن ذكائها وكمال عقلها، مع ما أراد الله بها من الكرامة والفضل، تحققت أنه الكنز الذي لا يَنْفِد، والذُخر الذي لا يَنْقِد[55]، فدعته إلى ما ذكر، والفاء فيه للسبب، أي عرضتْ نفسها عليه، لتقر عينها ويكمُل شرفها. "وكانت حازمة[56] لبيبة، أفضل نساء قريش نسبا، نجيبة أما وأبا، أوسطهن شرفا وحسبا، وأكثرهن مالا ونسبا، وكان كل قومها حريص على نكاحها[57]، فأبت لما سبق في العلم الأزلي. وحدَّث أهل السير أنها أرسلت إليه نفيسة بنت منيه دسيسةً[58]، فقالت[59]: -يا ابن عمي، إني راغبة في نكاحك لما رأيته وعرفته منك-، فأجابها إلى ذلك وذكره لأعمامه، فخرج حمزة معه حتى دخل على أبيها خويلد فخطبها إليه، فأجابه وزوجها منه، بحضرة أبي بكر ورؤساء مضر، بعد أن خطب عمُه أبو طالب خطبة بليغة ذكر فيها ما شرفهم الله به. وأصدقها، في ما ذكره الدولابي وغيره، اثنى عشرة أوقية ونصف أوقية ذهبا، كل أوقية أربعون درهما، وكان سنها حينئذ أربعون سنة وسنه ﷺ خمس وعشرون سنة على الأشهر. وكانت تزوجت قبله رجلين، منهما أبو هالة بن زرارة التميمي، وكانت تُدعى في الجاهلية الطاهرة"[60]. وما الأولى تعجبية والثانية مصدرية، محلها نصب على التعجب. والمُنى بالضم مفعول يبلغ، وفي القاموس: "المنى: القصد، وتمناه: أدركه"[61]. والأذكياء بالمعجمة جمع ذكي، فاعله [أي فاعل يبلغ]، وهو السريع الفطنة، أي ما أحسن بلوغ الأذكياء مُناهم. ومن أكملهم خديجة رضي الله عنها، فأدركت ما أمِلَت وتمنت مما ذكر، قال في المنح: "وهذا من أنواع البديع المسمى بإرسال المَثَل، وهو أن يذكر الشاعر في بعض بيت ما يجري مجرى المثل السائر من حكمة أو نحوها، ومنه قول أبي الطيب[62]:

---

[55] لا يظهر فيه عيب ولا يفسد.

[56] أي راغبة لبيته، بمعنى تريد الزواج منه.

[57] في النسخة الصبيحية كُتب "كل نكاحها قومها"، وهو خطأ بالرجوع إلى النسختينالحسنية والعزيزية وللمرجع المأخوذ عنه.

[58] أي خُفية.

[59] القول لخديجة رضي الله عنها موجه إليه ﷺ وحامله نفيسة بنت منية. يعني قالت نفيسة لرسول الله ﷺ: تقول لك خديجة (يا إبن عمي...).

[60] ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج.1، ص.117 و118، بالتصرف.

[61] لم أقف عليه في "القاموس المحيط". المُنى: جمع مُنية ومِنية، وهي ما يتمناه الإنسان.

[62] المتنبي.

لأن حِلمك حِلما لا تَكَلُّفه --- ليس التّكحُّل في العينين كالكَحَلِ

وهو في كلام الناظم كثير"[63].

ثم ذكر [الناظم] ما يدل على عظيم ذكاء خديجة وقوة فطنتها وتفرسها، فقال:

وأتـــاهُ في بَيتِها جَبْرَئِيلٌ --- وَلِذِي اللُّبِّ في الأمورِ ارْتِياء

فَأماطَتْ عنها الخِمارَ لِتَدري --- أَهُوَ الوَحْيُ أم هُوَ الإغْماء

جبرئيل فاعل أتاه، وهو لغةً في جبريل عليه السلام، القوي الأمين، ليُلقي على رسوله [ﷺ] ما أمره الله [عز وجل] به من الوحي. واللُّب بضم أوله العقل، وارتياء افتعال من الرأي مبتدأ، وفي الأمور متعلق به، ولذي اللب خبره، وأصله ارتئاء[64]، أي اختبار وامتحان، قلبت همزته ياء للكسرة قبلها ثم قلبت الياء الأخيرة همزة لتطرفها إثر ألف زائدة.

والمعنى: إن لصاحب العقل الكامل نظرا واختبارا بعقله، يُفضي به إلى الإصابة لحقيقة الشيء. وفي نسخة ابن حجر: "ارتناء- بالنون"، قال: "من ارتناه، أي نظره بالعين والقلب كما في القاموس، أي استبصار وفراسة يُفضي بها صاحبها على كل الأمور بتمييز حَسَنها وقبيحها، فعُلم أن هذه الجملة اعتراضية وأن فيها غاية المناسبة لما قبلها وما بعدها، إذ الاعتراضية لابد لها من نُكْتة[65]، فهي هنا للإشارة إلى كمال عقلها واستبصارها، مع إفادة أن هذا أمر كلي، جارٍ مجرى المثل أو الحكمة، فهو من إرسال المثل"[66].

والإماطة الكشف والإزالة، ومنه حديث إماطة الأذى عن الطريق[67]. والخِمار بكسر أوله: ما يتخمر به الرأس، أي يتغطى. وتدري أي تتحقق، سُكن ياءه للضرورة، وفاعله ضمير يعود إلى خديجة. قال في المنح: "فهي رضي الله عنها، لكونها من أكمل الألباب وأذكاهم، لم تشك في حاله ﷺ أنه الحق بوحي من الله، لكن أرادت

---

[63] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.172.

[64] في النسختين الصبيحية والعزيزية كُتبت "ارتئاي"، وهو خطأ صححته كما جاء في النسخة الحسنية، ويأتي تأكيده مباشرة بعد ذلك.

[65] ومعناها الفكرة اللطيفة المؤثرة في النفس.

[66] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.173. في النسخة المطبوعة من "المنح المكية" كَتَبَ المحقق "ارتأيته" عوض "أرتناه"، وهو خطأ، لأنه مخالف لما جاء في القاموس المحيط ص. 673، حيث نجد: "رنأ إليه كفَعَلَ: نَظَرَ". وكذلك كتب محقق الكتاب البيت بـ "ارتياء" وليس "ارتناء".

[67] رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الارتقاء من عين اليقين الحاصل بالاستدلال، إلى حق اليقين الحاصل بالمشاهدة، كقول الخليل عليه السلام -ولكن ليطمئن قلبي-"[68]. وفي رسالة القشيري: "علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين: عبارات عن علوم جلية، واليقين هو العلم الذي لا يتداخل[69] لصاحبه ريب على مطلق العرف، ولا يطلق في وصف الحق سبحانه لعدم التوقيف[70]، فعلم اليقين، على موجب اصطلاحهم[71]، ما كان بشرط البرهان، وعين اليقين ما كان بحكم البيان، وحق اليقين ما كان بنعت العيان"[72]. قال ما معناه علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين: كلها بمعنى نفس اليقين، وفيه إضافة الشيء إلى نفسه، كما قال المفسرون في قوله تعالى -إن هذا لهو حق اليقين-[73]. واختار ابن عطية أن يكون كقولِكَ في أمر تُؤكده: "هذا يقين اليقين، أو صواب الصواب، أي نهايته"[74].

والمعنى أن خديجة أزالت الخمار لتعلم هذا الحال الذي اعترى النبي ﷺ مشاهدةً، أهو حال الوحي الحاصل عند نزول الملك بلا إغماء؟، أم هو الحال الحاصل بالإغماء من المرض؟، من أُغْمِيَ على المريض أي غُشِيَ عليه. فحصل لها لذلك علم الحقيقة، باختفاء جبريل عند كشف رأسها، لعلمها من ابن عمها ورقة بن نوفل أو غيره، أن جبريل عليه السلام لا يأتي بيتا فيه امرأة مكشوفة رأس، وعلى ذلك نبه [الناظم] بقوله:

فاخْتَفَى عِنْدَ كَشفِها الرأسَ جبريـ --- لُ فما عادَ أو أُعيدَ الغِطاء

فَاسْتَبَـــــانَت خديجةٌ أنه الكنـ --- زُ الذي حــاوَلَتهُ والكِيمِيـــاء

يعني أن جبريل عليه السلام غاب ولم يظهر عند إزالتها الخمار إلى أن ردته. قال في المنح: "وأعيد فعل ماض مبني للمفعول[75]، والصواب أن يقول يُعاد بلفظ

---

[68] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.173، بالتصرف.
[69] في النسخة الصبيحية كُتبت "يتحاصل"، وهو خطأ بالرجوع إلى النسختين الحسنية والعزيزية وإلى المرجع المذكور.
[70] في النسخ الثلاث كُتب "التوقف". وقد كتبتها كما جاءت في "الرسالة القشيرية" المطبوع.
[71] أي الصوفية.
[72] القشيري، الرسالة القشرية، ص.171، بالتصرف والاختصار.
[73] سورة الواقعة، آية 95.
[74] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.5، ص.255.
[75] هو فعل حُذف فاعله وأقيم المفعول به مقامه، أو المصدر أو الظرف أو الجار والمجرور.

المضارع لأن أو هنا بمعنى حتى الغائية[76]، وهي لا تدخل إلا على المضارع كما صرح به النحاة[77]، وكذلك أو المرادفة لها، وقول الشارح[78]: "أعيد فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد أو التي بمعنى حتى، والغطاء فاعله، سهو عجيب"[79]. وكَشْف مصدر مضاف إلى الفاعل العائد على خديجة، أي فبسبب ذلك استبانت، أي ظهر لها أتم ظهور أنه، أي ما يعرض للنبي ﷺ، الذي طلبت الوقوف على حق اليقين فيه، هو الكنز أي الشيء النفيس الذي لا أنفس منه. وضمير أنه يرجع إلى النبي ﷺ، وهو الكنز الذي أرادت حيازته والظفر به والكيمياء. قال في المنح:" واستعار الكنز، وهو المال المدفون، والكيمياء، وهو المال المعروف، للوحي أو النبي، لأنه بهما تحصل الذخائر النفيسة المنتفع بها، وأيضا لا يظفر بهما إلا الفرد النادر من الناس، فكذلك الوحي لا يظفر به إلا أكمل البشر"[80]. والأَوْلى أن استعارة الكنز لمحاسنه الباطنة الكامنة التي لا يُطْلَع عليها، والكيمياء لمحاسنه الظاهرة، وأشار بهذا إلى ما رواه أهل السير أنه ﷺ لما أخبر خديجة الخبر قالت: "أتستطيع أن تخبرني بهذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم، فلما جاء جبريل أخبرها به، فقالت له: -اجلس على فخذي الأيسر- ففعل، فقالت: -أتراه؟- قال: نعم، فقالت: -اجلس على فخذي الأيمن- ففعل، فقالت: -أتراه؟- قال: نعم، قالت: -فاجلس في حجري- ففعل، فقالت: -أتراه؟- قال: نعم، فألقت خمارها ثم قالت: -أتراه؟- قال لا، قالت: -أثبت وأبشر فَوَ الله إنه لمَلَك-"[81]. فعلت ذلك لرؤيتها الحال الذي كان يعتريه حين بُدئ بالوحي. وقصته في صحيح البخاري وغيره، أن "الحارث بن هشام سأله فقال:-يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟- فقال ﷺ: -أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيَفْصِم[82] عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي المَلَك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول"[83]. ثم قال [في المنح]: "فانطلقت به خديجة حتى أتت به

---

[76]أي للغاية.
[77]جمع نحوي أي عالم النحو.
[78]لست أعلم من يقصد الشيخ الهيتمي هنا بالشارح ولكنه تحقيقا ليس الشيخ السنباطي.
[79]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.174، بالاختصار.
[80]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.177، بالتصرف.
[81] أخرج الحديث: الطبراني في "المعجم الأوسط" وابن هشام في "السيرة النبوية".
[82]بمعنى يزول.
[83]صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي.

ورقة بن نوفل، فقالت: -يا ابن عمي، اسمع من ابن أخيك-، فقال له ورقة: -يا ابن أخي ماذا ترى؟-، فأخبره رسول الله ﷺ الخبر، فقال له ورقة: -هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى"[84] الحديث باختصار[85]. والجَرَس بفتح الجيم والراء المهملة، الجلجل الذي يعلق في عنق البعير. قال القسطلاني: "والناموس صاحب السِّر"[86]، كما عند المؤلف[87] في أحاديث الأنبياء. وقال ابن دُرَيْد: "هو صاحب سر الوحي، والمراد به جبريل عليه الصلاة والسلام، وأهل الكتاب يسمونه الناموس الأكبر"[88]. وفي صحيح الحديث أنه بعثه الله على رأس أربعين سنة، "قال ابن عبد البر: للثامن والعشرين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من الفيل[89]، وقيل أول ربيع وقيل أول رجب. فجاءه جبريل وهو بغار حراء، وكان مُتَعَبَّده لانفراده فيه عن الناس، فقال له: اقرأ، فقال: -ما أنا بقارئ-، فغطه حتى بلغ منه الجهد فقال: اقرأ، فقال: -ما أنا بقارئ-، فغطه كذلك، ثم أعاد وأعاد، فقال: -اقرأ باسم ربك الذي خلق-[90] حتى بلغ -ما لم يعلم-[91]. وما[92] نافية في الكل، أو: الأولى للامتناع والثانية نافية وثالثة استفهامية، وكرر اللفظ ثلاثا ليستفرغ تمام قوته، فيتم توجهه له، وليظهر له الشدة والاجتهاد في هذا الأمر، فيتنبه إلى ثقل ما سيلقى عليه[ﷺ]. وابتدأ قبل ذلك بالرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح، كي لا يُفاجئه المَلَك بصريح النبوة بغتة فلا يقبلها قِوى البشرية[93]، فيبدأ بأوائل خصال النبوة وبتأثير الكرامة. ثم فتر الوحي ثلاث سنين فيما جزم به ابن إسحاق، ليذهب عنه ما وجده وليزيد تشوقه إلى العود[94]. وكان إسرافيل يرافقه في تلك المدة ليؤنسه ويعلمه صلاح حاله[ﷺ]. وفي رواية مسلم بعثه الله يوم الاثنين لسبع عشر من رمضان، رحمة للعالمين

---

[84] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.178. والحديث من صحيح الإمام البخاري.

[85] هكذا في النسخة الحسنية والنسخة العزيزية والحديث فعلا اختصر، ولم يُكتب "باختصار" في النسخة الصبيحية.

[86] لم أقف عليه ولكن وجدت أن الإمام القسطلاني يقول في "إرشاد الساري" أن الناموس هو جبريل عليه السلام. وقال الزبيدي في "تاج العروس" بأن الناموس هو صاحب السر.

[87] لم أفهم المقصود منه.

[88] أبو بكر بن دريد، جمهرة اللغة، ج.2، ص.1205.

[89] أي ابتداءً من عام الفيل.

[90] سورة العلق، الآية 1.

[91] سورة العلق، الآية 5.

[92] أي في "ما أنا بقارئ".

[93] أي لا تستحمل قوتها وشدتها بنيته البشرية، والله أعلم.

[94] والمعنى تشوقه إلى عودة نزول الوحي عليه ﷺ.

ورسولا إلى كافة الخلق أجمعين"[95]، من نقل الهيتمي في شرح الشمائل.

ثم قال [الناظم]:

ثم قامَ النبيُّ يدعو إلى اللهِ --- وَفِي الكُفرِ نَجْدَةٌ وإبـــــاء

أُمَماً أُشرِبَتِ قُلوبُهُمُ الكُفْـ --- ـرَ فَدَاءُ الضَّلالِ فيهمْ عَياء

يعني أن النبي ﷺ قام، امتثالا لأمر ربه، يدعو العباد إلى الله بتبليغ رسالته إليهم، ويأمرهم بالإيمان بالله وبرسوله، وترك ما كانوا عليه من عبادة الأوثان والأصنام. وثم هنا للترتيب، لأنه بعد ما نزل عليه ما تقدم، فتر الوحي عنه ثلاث سنين حتى حزن ﷺ. وتكرر ذهابه إلى الجبال ويصعد على رؤوس شواهقها ليرمي بنفسه، فيبرز له جبريل ويقول له: "يا محمد والله إنك رسول الله حقا" فيسكن، حتى "نزلت عليه -يا أيها المدَّثر() قم فأنذر-[96]، والقول بأنها أول ما أنزل عليه، قال النووي[97]: "باطل". وفي تاريخ أحمد[98] وغيره عن الشعبي، أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فَقُرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قُرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة. وكذا رواه ابن سعد[99] والبيهقي، ومنه يؤخذ أن اجتماع اسرافيل به كان في مدة فترة الوحي، ليؤنسه ويقويه على أعباء ما سينزل عليه. وبما تقرر يُعلم أن نبوته ﷺ كانت متقدمة على رسالته، وبه صرح أبو عمرو، وعليه يُحمل قول صاحب -جامع الأصول الصحيح عند أهل العلم بالأثر-[100]، أنه بعث على رأس ثلاث وأربعين سنة. فكان في -اقرأ- نبوته، وفي –المدثر- إرساله بالنذارة والتشريع، لأن هذا متأخر عن الأول قطعا"[101] من الهيتمي في شرح الشمائل.

---

[95] ابن حجر الهيتمي، أشرف الوسائل، ص.45، بالتصرف.
[96] سورة المدثر، آية 1 و2.
[97] الإمام النووي، شرح صحيح البخاري، ص.262.
[98] لم أقف على هذا المؤلف، ولكن ذكر الكتاب الإمام ابن حجر العسقلاني في "فتح الباري"، ونُقل النص الموالي كاملا من هذا المرجع: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج.1، ص.27.
[99] ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج.1، ص.191.
[100] لم أتوصل للوقوف على مرجع بهذا المسمى، فقط يقارب العنوان كتاب "جامع الأصول" لابن الأثير، ولا أرجحه لأنه يقول إن النبوة أتته ﷺ على رأس الأربعين ويخالف بذلك القول المذكور.
[101] ابن حجر الهيتمي، أشرف الوسائل، ص.45 و46.

ونجدة، أي قوة تامة، مبتدأ وفي الكفر خبره، والواو فيه للحال من فاعل يدعو. وإباء بكسر أوله، أي امتناع من اتباعه وإجابته.

وأمما جمع أمة، وهي جماعة أرسل إليها رسول، وقلوبهم نائب فاعل أشربت، أي اختلطت وامتزجت بالكفر، وتمكن منها حبه حتى صارت لا تقبل غيره. والداء: المرض، جمعه أدواء، وعَياء بفتح المهملة بمعنى مُعْيٍ، أي أعيا الأطباء فلا ينفع معه الدواء لأنه يغلب عليه، قال في القاموس: "داء عياء: لا يبرأ منه"[102]. فإنهم شاهدوا آيات النبي ﷺ التي لا دواء للقلوب مثلها، فلم يهتدوا بها، وأما معشر أمة الإجابة التي لم تشرب قلوبهم الكفر فنفع فيهم الدواء واهتدوا، وعليه نبه [الناظم] بقوله:

وَرَأَينا آياتِهِ فاهْتَدَيْنـــا --- وإذا الحَقُّ جاءَ زالَ المِرآء[103]

رَبِّ إنَّ الهُدَى هُداكَ وآيَا --- تُكَ نُورٌ تَهدِي بها مَن تَشاء

الرؤية هنا شاملة لما كان بالأبصار والبصائر معا، وذلك بالنسبة إلى من أدرك النبي ﷺ، فإنهم شاهدوا الآيات بأبصارهم، وعلموا بِبَصائرهم أنها الحق، فآمنوا ودخلوا في الإسلام رجالا ونساء حتى كمل السابقون الأولون. قال ابن عطية عن أبي موسى وجماعة[104]: "وهم الذين صلوا إلى القبلتين. وقال عطاء: هم الذين شهدوا بدرا"[105]. أولهم[106] على الإطلاق خديجة، ثم من الرجال أبو بكر، ومن الصبيان علي، ومن الموالي زيد بن حارثة[107]، ومن الأرقاء بلال. ورُوي أن ورقة بن نوفل أسلم، فإن صح كان أول من أسلم من الرجال، وبه تُجمع الأقوال المتباينة[108] في

---

[102] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1170.
[103] هكذا كتبت في النسخة الصبيحية، كما تكتب في سورة الكهف الآية 23 بقراءة ورش عن نافع، وأما في النسختين الحسنية والعزيزية وفي "المنح المكية" المطبوع فكتبت "المراء" بدون مد.
[104] قاله أبو موسى الأشعري وابن المسيب وابن سيرين وقتادة.
[105] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.3، ص.75.
[106] في النسخة الحسنية والنسخة العزيزية كُتب "باختصار وأولهم".
[107] في النسخة الصبيحية ترك فراغ بعد "زيد بن"، وأما في النسختين الحسنية والعزيزية فكتب "زيد بن حارثة"، وهو رضي الله عنه أول الموالي إسلاما، كما جاء عند الذهبي في "سير الأعلام النبلاء"، مؤسسة الرسالة 2001، ج.1، ص.220.
[108] هكذا في النسختين الحسنية والصبيحية، أما في النسخة العزيزية فكتب "وبه يُجمع الأقوال المتنافية". ومعناه أنه إن صح إسلام ورقة بن نوفل كان فعلا أول من أسلم.

أول من أسلم، ثم دخل الناس في الإسلام إرسالا. وتشمل[109] الرؤية ما كان بالبصائر فقط بالنسبة إلى من لم يدرك النبي ﷺ، فقد حصل له العلم به بالنظر القلبي، لما تقرر عنده بالتواتر الذي يفيد القطع بصحة ذلك، ولا مندوحة[110] له عن اتباعه، فاهتدى بها: أي وصل بها إلى الله [عز وجل]. والحق، وهو ضد الباطل، فاعل بفعل محذوف يفسره، جاء على مذهب البصريين[111] غير الأخفش. والمرآء بالمد والكسر أولهُ: الجدال بالباطل[112]، وهو اقتباس من قوله تعالى "وقل جاء الحق وزهق الباطل"[113] الآية، أي ظهر الحق ظهورا بيّناً كالشمس بل أظهر فَسَلّم الخصم، قال تعالى "قد تبين الرشد من الغي"[114]. وفي قوله إن الهدى اعتراف بالعجز عن إصلاح النفس والعبودية لله [عز وجل]، وأن الهداية بيده فلا سبيل للعبد إليها إلا بمشيئته.

وإن آياتك، التي أظهرت على أيدي أنبيائك، نور منك، بها تهدي من تشاء هدايته من عبادك، أي تُوصله إلى الحق بكشف الحجاب عن بصيرته، فينتظم في سلك السعداء[115] بفضلك. وهو اقتباس من قوله تعالى "قل إن الهدى هدى الله"[116]، يهدي به من يشاء إلى صراط مستقيم. اللهم اجعلنا ممن تفضلت عليهم بهدايتك وأكرمتهم بولايتك، يا أكرم الأكرمين و يا أرحم الراحمين. ثم لما قرر أن الهدى بيد الله، ذكر أن غير العاقل قد يُلهَم بفضل الله إلى كثير ما حُرمه العاقل، فقال:

كم رَأَيْنا مـــا ليس يَعْقل قد أُلْـ --- ـهِمَ مـــا ليس يُلْهَمُ العُقَلاء

إذْ أَبَى الفيلُ ما أَتَى صاحِبُ الفيـ --- ـلِ ولَم يَنْفَعِ الحِجَا والذَّكاء

---

[109] في النسخة الصبيحية كُتب "وشمل".
[110] أي لا فسحة.
[111] البصريون هم النحاة على مذهب مدرسة البصرة، ويختلفون مع المدرسة النحوية الكوفية في عدة مسائل. وكانت مدينة البصرة بالعراق مولد علم النحو ومهده.
[112] في النسخة العزيزية "الجدال أي الباطل".
[113] سورة الإسراء، آية 81.
[114] سورة البقرة، آية 256. في النسخة الصبيحية كتب "من الغم" وهو خطأ نسخ.
[115] في النسخة العزيزية كُتبت "الشعراء".
[116] سورة آل العمران، آية 73.

ترد كم للاستفهام: نحو "كم لبثتم"[117]، وتكون للإخبار عن الكثرة: نحو "وكم أرسلنا من نبيٍّ في الأولين"[118]، وهو المراد هنا. قال في المنح: "ويجوز حذف تمييزها كما عند الناظم، فإن ذُكر جر بإضافتها إليه عند البصريين، وجَوَّز بنو تميم[119] نصبه، وإفراده أكثر وأفصح من جمعه، فإن فُصل نُصب حملا على كم الاستفهامية فيه"[120]. ورأينا أي أبصرنا أو علمنا، فهو إعلام بكثرة الاهتداء بآياته ﷺ، حتى أنه يَهتدي بها غير العاقل فأحرى العقلاء، إلا من طمسه الله [عز وجل]، وأشار بهذا إلى قصة الفيل الآتية. وما الثانية موصول مفعول ثاني لألهم، والجملة مفعول ثاني لرأينا.

ثم بَيَّن هداية غير العاقل بقوله إذ أبى الفيل فهو كالجواب عن سؤال مقرر، أي امتنع الفيل الذي ليس بعاقل عما وَجَّهُوهُ إليه من هدم الكعبة، الذي لم يهتدي إلى أبايته صاحبه، إي مالكه الذي هو عاقل عُرفاً، وهو أبرهة الأشرم ملك صنعاء. وفيه تنبيه على أن الهداية والإضلال تابعان للمشيئة المذكورة، فيضل بها العاقل ويهتدي بها غيره. وبين أبي وأتي الجناس المصحف[121]، ومنه قوله تعالى "وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا"[122]. وذكر أهل السير، أن أبرهة كان ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي[123]، فبنى كنيسة بصنعاء لم يرى مثلها في زمنها بأرض قط. وكتب إلى النجاشي إني قد بنيت لك كنيسة لم يُبْنَ مثلها لملك قط، وإني أريد أن أصرف إليها حج العرب. فلما سمعت العرب بذلك، جاء رجل من بني كنانة إليها، فأحدث فيها ليلا وفرَّ إلى بلاده. فأُخبر أبرهة بذلك، فغضب وحلف أنه ليسيرن إلى الكعبة ويهدمها. فأمر الحبشة فتهيأت، وأمر بالفيل فأُخرج معه، ثم سار. فعرض له ذو نفر[124]، من ملوك اليمن، في جمع من اليمن وغيره ممن سمع ما خرج إليه أبرهة،

---

[117] سورة المؤمنون، آية 112.
[118] سورة الزخرف، آية 6.
[119] قبيلة تشتهر بالفصاحة ولها تميز في اللغة العربية عن الحجاز، وقد ورد نطق قبيلة بني تميم في أكثر من مئة وخمسين موضعا في القرآن الكريم.
[120] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.183.
[121] في الجناس المصفح تختلف الحروف بالنقط فقط.
[122] سورة الكهف، آية 104.
[123] إمبراطور الحبشة، والنجاشي لقبه الملكي كَكِسرى فارس أو قيصر الروم.
[124] رجل من أشراف عرب اليمن، جمع قومه للتصدي لأبرهة والدود عن الكعبة المشرفة.

فقاتلوه، فهزمهم وأسر ذا نفر فحبسه عنده. ثم سار، فعرض له حين وصل أرض خثعم[125]، نفيل بن حبيب الخثعمي، في جيش من قومه، فهزمهم وأسر نفيلاً. ثم سار حتى وصل المَغمس[126]، بفتح الميم الثانية وكسرها مخففة، موضعٌ بطريق الطائف فيه "قبر أبي رغال: دليل أبرهة"[127] قاله في القاموس، وهو بقرب الحرم عند عرفة، فنزل به. فلما أصبح، هيأ فيله وجنوده لدخول مكة، فبرك الفيل في الحل قبل دخول الحرم، وقيل حتى دخله عند وادي محسر، وكان اسمه محموداً، فضربوه فأبى، فوجهوه نحو اليمن فقام، ثم وجهوه نحو المشرق فمشى، ثم نحو الكعبة فأبى، ثم أرسل الله عليهم من الجو[128] طيرا كالخطاطيف، أبابيل أي جماعات متتابعات، قال الزمخشري واحدتها إبَالَة[129]، وقال الجمهور: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه. [و] مع كل طائر منهم ثلاثة أحجار، أحدهم في منقاره وحجران في رجليه، كأمثال العدس، لا يصيب أحدا منهم حجر إلا أهلكه. قال الثعلبي ما معناه: "فأرسل الله ريحا مع الحجارة فزادتها قوة، فما وقع حجر على جانب[130] رجل إلا خرج من الجانب الأخر، وإن وقع على رأسه خرج من دبره"[131]. فذهبوا هاربين يتساقطون بكل طريق، وأصيب أبرهة بداء في جسده، فتساقطت أنامله أنملة أنملة، حتى دخل صنعاء، ثم تصدع قلبه فمات. والحجا بكسر أوله: مقصور العقل الوافر، والذكاء بفتح المعجمة ممدوداً: سرعة الفطنة، أي لم تردهم عن ضلالهم.

ثم قال [الناظم]:

والجَماداتُ أفْصَحَت بالذي أُخْـ --- ـرِسَ عنه لِأَحْمَدَ الفُصَحاء

يعني أن ذلك الإلهام الإلهي ليس هو مخصوص بالحي، بل حتى الجمادات التي لا حياة لها أصلا وقع لها ذلك، فأفصحت، أي نطقت بأفصح الكلام لأحمد نبينا ﷺ من غير تعليم. قال في المنح:" قيل: خلقه الله [تعالى] فيها حينئذ من غير حياة، -وإن من

---

[125] قبيلة عربية موطنها عند طريق القوافل بين اليمن والحجاز.
[126] وادي من أودية مكة المكرمة.
[127] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.653. أضيف في النسخة الحسنية "ويرجم" ولم أقف عليه.
[128] في النسخة الحسنية كُتبت "البحر".
[129] محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الزمخشري، سورة الفيل.
[130] في النسخة الصبيحية كتبت "بجانب" وفي العزيزية "جانب"، وقد صححت تبعا لما جاء في المرجع.
[131] أحمد الثعلبي النيسابوري، قصص الأنبياء، ص.503.

شيء إلا يسبح بحمده-[132]، وقيل: بل يخلق حياة فيها ولسانا وإدراكا، فتنطق مختارة عارفة بما تنطق به"[133]. عجزت عن ذلك الكلام، فصحاء العرب لخرسها عنه، والأخرس: المنعقد لسانه عن الكلام. ومن نطق الجمادات بالإيمان به ﷺ والشهادة له بالرسالة، ما روى أبو نعيم والبزار، أن النبي ﷺ قال: "لما استقبلني جبريل بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال: -السلام عليك يا رسول الله"[134]. وصح أنه ﷺ طلب من رجل الإيمان به "فقال: هل -من شاهد؟-، قال: -هذه الشجرة-، فدعاها رسول الله ﷺ فأقبلت تخذ الأرض خذاً، فقامت بين يديه فاستشهدها فشهدت، ثم رجعت إلى منبتها"[135]. ورُوي أن أعرابيا قال له: "-لم أعرف أنك رسول الله؟-، فقال له ﷺ : -أَدعُ هذا العذق من هذه النخلة يشهد بأني رسول الله-، فدعاه فسقط إليه، ثم قال ارجع فعاد، فأسلم الأعرابي"[136]. و من ذلك "تسبيح الحصاة في كفه ﷺ، ثم في كف أبي بكر، ثم في كف عمر رضي الله عنهما، فسمع تسبيحهن [من][137] معه في الحلقة"، رواه جماعة[138]. ومَثل هذا كثير، ولا يُستكثر في حق من أناط الخالق [تعالى] جميع مخلوقاته به.

ثم قال [الناظم]:

وَيْحَ قَوْم جَفَوْا نَبِيّاً بأرضٍ --- أَلِفَتهُ ضِبَابُهَا والظِّباء

ويح من المصادر التي لا فعل لها، فإذا قامت مقام الفعل نُصبت بفعل من معناها واجب الحذف، وتستعمل مضافة ومفردة كويحه وويحا له. قال في الصحاح: "ويح كلمة رحمة، وويل كلمة عذاب، وقيل بمعنى واحد"[139]، أي ويل[140] قوم جفوا: أي أبعَدوا وهَجروا نبيا هو أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأذوه أشر الإيذاء

---

[132] سورة الإسراء، آية 44.
[133] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.188.
[134] رواه البزار في مسنده.
[135] من حديث أخرجه الدرامي في سننه وابن حبان في صحيحه.
[136] من حديث أخرجه الإمامين أحمد والترمذي.
[137] أضفت "مَن" تبعا لما جاء في لفظ الحديث ونقص في النسخة الصبيحية والنسخة الحسنة. وأما في النسخة العزيزية فكُتبت "فسمع تسبيحهن في الحلقة فألحقه".
[138] من حديث رواه الطبراني في معجمه، والبيهقي في السنن الصغرى، والترمذي في نوادر الأصول، وغيرهم.
[139] محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، ص.346.
[140] في النسخة العزيزية كُتبت كتبت "ويح".

حتى قصدوا قتله. قال في المنح ما معناه: " فكيف يقال ويح[141] لمن كان هذا شأنه وقد استحق العذاب الدائم؟ إلا أن يقال الترحم لهم بالنظر إلى ما بينهم وبين النبي ﷺ من القرابة، وأنهم من عمود نسبه"[142]. وقد يُجاب بأن أكثرهم كان ممن سبقت له العناية فلا تضره جناية، وقد كان أسلم جل أشرافهم وعظمائهم، وظهرت لهم آثار كثيرة في الإسلام، وصدقوا الله ورسوله في بذل أنفسهم وأموالهم في مرضاته، فيكون الترحم بالنظر لها، ولا عبرة بغيرهم. وفي القاموس: "الجفاء: نقيض الصلة ويقصر"[143]. وأَلِفَته بفتح فكسر: من الألفة، أي صارت أنيسة[144] له. والضِباب بكسر أوله: جمع ضب بفتح أوله: دويبة تأوي الصحاري، وأما الذُب بضم الدال المهملة فسبع معروف. قال في المنح: "وحديثه مشهور على الألسنة ورواه البيهقي في أحاديث كثيرة، لكنه حديث غريب ضعيف، وهو: أن أعرابيا صاد ضبا، فلما رأى النبي ﷺ قال له: -لا أومن بك حتى يومن بك هذا الضب-، وطرحه بين يديه فقال له رسول الله ﷺ: -يا ضب-، قال: -لبيك وسعديك يا رسول الله-، قال [ﷺ]: -من تعبد؟-، قال: -من في السماء عرشه- وكلمات أخرى، قال [ﷺ]: -من أنا؟-، قال: -رسول رب العالمين-. قال فأسلم الأعرابي"[145]. والظباء: جمع ظَبي بفتح المشالة[146] المعجمة، والـ فيه خلف عن الضمير، وحديثه رواه الحافظ عبد العظيم المنذري في "الترغيب والترهيب"، وقال أن الأئمة ضعفوه، وهو: "بينما رسول الله ﷺ في صحراء، إذ بهاتف يهتف "يا رسول الله" ثلاث مرات، فالتفت فإذا ظبية مشدودة في وثاق وأعرابي نائم عندها، فقال [ﷺ]: -ما حاجتك؟-، فقالت: -صادني هذا الأعرابي ولي خشفان[147] في ذلك الجبل، فأطلقني حتى أذهب فأرضعهما وأرجع-، قال [ﷺ]: -أو تفعلين؟-، فقالت: -عذبني الله عذاب العَشار -إي المكاس- إن لم أعد-. فذهبت ورجعت وأوثقها رسول الله ﷺ، فانتبه الأعرابي فقال: -يا رسول الله ألك حاجة؟-، قال [ﷺ]: -تُطلق هذه الظبية-، فأطلقها فخرجت تعدو في الصحراء

---

[141] بمعنى الترحم.
[142] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.191، بالتصرف.
[143] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.280.
[144] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتب "أنسية".
[145] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.191.
[146] الظاء: تسمى المشالة لتمييزها عن الضاد.
[147] الخشف: صغير الظبي.

مرحا وهي تضرب برجلها الأرض وتقول -أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله-"[148]. قال في القاموس: "والخشف مثلثة: ولد الظبي"[149]، وفيه أيضا: "وأطلق الأسير: خلاه"[150]. ولم يقصد الناظم الحصر في الضب والظبي، فقد ألفه وشهد برسالته الذيب[151] والجمل والحمار، وأحاديثُها[152] مشهورة، وإن ضعف حديث الحمار. وفي رواية صحيحة أنه ﷺ "دخل حائطا، فرآه جمل فحن له وذرفت عيناه، فمسح [ﷺ] قريب رأسه من قفاه ثم قال لربه[153]: -ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟، فإنه شكى أنك تُجيعه وتُدْئِبُه-"[154]، أي تتعبه. وجاء بسند ضعيف أن غنما سجدت له ﷺ.

ثم قال [الناظم]:

وَسَلَوْهُ وحنَّ جِذْعٌ إليهِ --- وَقَلَوْهُ ووَدّهُ الغُرَباء

لام سلوه بفتحتين فسكون محذوفة، والواو فيه ضمير الجماعة عائد على قوم، والمراد بهم كفار قريش. و"الحنين: الطرب، أو صوت الطرب عن فرح أو حزن"[155] قاله في القاموس، والمراد هنا الثاني. والجذع بكسر الجيم وسكون المعجمة: ساق النخلة. وقَلَوْهُ كسَلَوْه وزنا وإعلالا، من قَلَاهُ كَرَماهُ وَرَضَاهُ، قَلاً وقِلاً: بغضه وكرهه غاية الكره. والودُّ والوداد الحب، والغرباء الذين ليسوا من عشيرته ولا من قومه، والغريب من ليس من البلد. وبين السلو والحنين، والقلا والود، الطباق، كما بين الإيواء والإخراج الآتيين.

والمعنى أن كفار قريش، بعد أن بغضوه وأخرجوه، تركوه ونسوه، وما نسيه الجذع الذي هو جماد، فحن إليه بعد مفارقته إياه، كما جاء ذلك من طرق كثيرة صحيحة وغيرها، يفيد مجموعها التواتر المعنوي الموجب للقطع به، وذلك أنه ﷺ قبل أن

---

[148] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.192، وهو تابع لما سبق من قول ابن حجر.
[149] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.469.
[150] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1014.
[151] كتبها العلامة الشبيهي كما جاءت في سورة يوسف، برواية ورش عن نافع.
[152] هذه الأحاديث والحديث الموالي ساقها ابن حجر في "المنح المكية"، ص.193.
[153] أي صاحب الجمل.
[154] أخرجه الإمام أحمد والإمام أبو داوود وغيرهما.
[155] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.416.

يعمل له المنبر، كان يخطب مستندا إلى جذع نخلة من الجذوع المسقف عليها المسجد، فلما صنع له المنبر وضعه موضعه الآن بمسجده ﷺ، ثم تخطى الجذع يوم الجمعة ليخطب على المنبر، فصاح الجذع حتى سمعه كل من في المسجد[156]. وفي رواية أنه حن حنين الناقة التي أُنتزع ولدها، فنزل ﷺ وضمه إليه رحمة له حتى سكن، وفي رواية أنه مسحه بيديه، ولعله [ﷺ] فعل الأمرين، وكان هذا بالمدينة المنورة بعد الهجرة، لما أراد الله نصر نبيه وإعزاز دينه. وأحبه الغرباء، وهم الأنصار رضوان الله عليهم، لما سبق لهم من الكرامة. وسبب ذلك أنه ﷺ "خرج في موسم يعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع ذلك في كل موسم، فلقي بعضهم عند العقبة، فدعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن، وكان عندهم علم منه فعرفوا نعته. وكان يهود المدينة يقولون لهم: -إن نبيا يبعث الآن فنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم-، فأجابوه لِئَلَا تسبقهم اليهود إليه، فأسلم منهم ستة نفر. ثم لقيه في العام المقبل اثنى عشر رجلا منهم فأسلموا، ثم رجعوا وأظهروا الإسلام فيهم، ثم قدم في العام المقبل نحو سبعين رجلا، فبايعهم [ﷺ] على أن يمنعوه مما يمنعون نساءهم وأبناءهم وعلى حرب الأحمر والأسود. ثم أمر ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا أرسالاً[157] وبقي ينظر الإذن له"[158].

---

[156] هذا الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، وكذلك الأئمة ابن ماجة وأحمد والبزار بلفظ مختلف، كما جاء في الرواية الآتية بعده.

[157] أي جماعات.

[158] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.195 و196. لم يشر المؤلف إلى المصدر، وقد اختصر ما قاله الشيخ الهيتمي، ولربما اعتمد مصدرا غير المنح المكية، ولا تعارض بين القولين.

الفصل الرابع: من البيت 66 إلى البيت 87

ثم قال [الناظم]:

أَخْرَجُوهُ منها وآوَاهُ غارٌ --- وحَمَتْهُ حَمامَةٌ وَرْقــــــاء

وكَفَتْهُ بِنَسْجِها عَنكبوتٌ --- ما كَفَتْهُ الجُنانَةُ[1] الحَصْداء

فاعل أخرجوه يعود إلى كفار قريش، ومفعوله يعود إلى النبي ﷺ، والمجرور بمِن يعود إلى مكة. ولكون قريش هم السبب في إخراجه بإيذائهم له ولأصحابه، أُسندَ إليهم الإخراج. وغار فاعل آواه رباعي، أي أسكنه وأحله، والمراد به غار ثور وهو في جبل قرب مكة، وفي القاموس: "ثور: جبل بمكة وفيه الغار المذكور في التنزيل، ويقال له ثور أطحل، واسم الجبل أطحل، نزله ثور بن عبد مناة فنسب إليه"[2]. وحمامة بفتح أوله، فاعل حمته أي منعته وكَلأته[3] ﷺ من أعدائه. والورقاء قيل التي في لونها بياض يخالطه سواد، وفي القاموس: "الأورق من الإبل: ما في لونه بياض إلى السواد"[4]. وما موصولة مفعول ثاني لكفته، وصلته كفته الثاني، وفاعله الجُنانة بجيم مضمومة ونونين بينهما ألف، وهي الدرع[5] لأنها تجن البدن أي تستره وتقيه البأس، والحصداء: المحكمة النسج الضيقة الحِلق كما في كتب اللغة، وعند شهاب الدين في شرح الشفا: "قال بعض من تكلم على هذا المحل: -وهذا البيت حرفه شراحه وصاحب المواهب، حيث جعلوا بدل الجنانة الحمامة، وفسروا الحصداء بكثيرة الريش-"[6]. والصواب خلافه، إذ تقدم ذكر الحمامة في البيت الأول، والمراد

---

[1] في المنح المكية (ص.199) كُتب "الحمامة"، وكذلك عند الشيخ السنباطي (مخطوط شرح الهمزية، ص.24). وفي النسختين الصبيحية والحسنية كُتب "الجنانة"، وفي النسخة العزيزية كُتب "الحمامة"، وهو خطأ نسخ لأن في الشرح بعده فُسرت "الجنانة". وقال "الجنانة" أحمد بن محمد الخفاجي في مؤلفه "نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض" (ج.4، ص.57)، وقد فسر "الجنانة" بالدرع الذي تستر البدن أي تجن البدن، وهو نفس شرح سيدي يحيى. وقد اطلع العلامة الشبيهي على مؤلف الخفاجي حيث يذكره ويحيل عليه فيما بعد، وأخذ سيدي يحيى بتفسير الخفاجي ولفظه، ولو أن مصدريه الرئيسيين، الهيتمي والسنباطي، قالا غير ذلك. واعتمدت "الجنانة"، كما جاءت في النسختين الحسنية والصبيحية، لأن التفسير في النسخ الثلاث يرجح هذا اللفظ.

[2] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.227.

[3] بمعنى رَعَته.

[4] الفيروز آبادي، القاموس الحيط، ص.1747.

[5] في النسخ الثلاث كُتب "الذرع"، وهو خطأ يتكرر مع تكرار الكلمة فيما بعد.

[6] شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي، نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض، ج.4، ص.57.

هنا تشبيه وقاية نسج العنكبوت بوقاية نسج الدرع الحصينة، وهو الأنسب ويفسر قوله في البردة "وقاية الله أغنت عن مضاعفة" البيت[7]. ولله در القائل:

نسج داود لم يفد ليلة الغار --- وكان الفخار للعنكبوت[8]

قال الأئمة: "وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة العدو بالجيوش"، وأشار بهذا إلى ما في صحيح البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: "بينما نحن جلوس يوما في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: -هذا رسول الله ﷺ متقنعا مقبلا-، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: -فدا له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا لأمر-. قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل، فقال حين دخل لأبي بكر: -أخرِج مَن عندك-، فقال أبو بكر: -إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله-، قال [ﷺ]: -إني قد أُذن لي في الخروج-، قال أبو بكر: -الصحبة يا رسول الله بأبي أنت-، قال رسول الله ﷺ: -نعم-، فقال أبو بكر: -فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين-، قال رسول الله ﷺ: -بالثمن-. قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب"[9]، فبذلك سميت ذات النطاقين، وروي أن النصف الآخر ربطة به فم القربة، وسيأتي التصريح به إن شاء الله في رواية النجار عند ذكر الزبير بن العوام آخر النظم. وذكر أهل السير أنه [ﷺ] خرج هو وأبو بكر رضي الله عنه، وكان استأذنه قبل ذلك في الهجرة فقال له [ﷺ]: "لا تفعل لعل الله يجعل لك صاحبا"، فطمع أبو بكر في أنه ﷺ يعني نفسه. وكان أبو بكر ذا مال، فاشترى راحلتين وكان يعلفهما إعدادا لذلك. واستأجر عبد الله بن أريقط، رجلا من بني الديل بن بكر، ليدلهما على الطريق، وكان مشركا، ودفع له الراحلتين فكان يرعاهما لميعادهما. فخرجا معا مستخفين من قريش حتى انتهيا[10] إلى غار بجبل ثور، فدخلاه[11] ليلا. فلما تفقدته قريش، طلبوه بأعلى مكة وأسفلها فلم يجدوه،

---

[7]وقاية الله أغنت عن مضاعفة --- من الدروع وعن عال من الأطم. من قصيدة البردة للإمام البصيري.
[8]ينسب هذا البيت والقصيدة ليعقوب بن صابر المنجنيقي. وفي النسخ الثلاث كُتب "صُنعُ" بدل "نَسجُ".
[9] من حديث في صحيح الإمام البخاري، كتاب اللباس، باب التقنع.
[10]في النسخة الصبيحية كتبت "انتهينا"، وهو خطأ نسخ.
[11]في النسخة الصبيحية كتبت "فدخلناه"، وهو خطأ نسخ.

ففزعوا لذلك فزعا شديدا، فكانوا يطلبونه في القرب بأنفسهم في كل وجه، ويرسلون إلى من يطلبه لهم في البعد، وجعلوا لمن يرده عليهم مئة ناقة. فلما دخلا في الغار، أرسل الله حمامتين وحشيتين فوقفتا على فم الغار، يقال إن حمام الحرم من نسل تلك الحمامة [أو الحمامتين]. فلما أقبل القوم بسلاحهم، نظر بعضهم إلى الغار فرجع، فقالوا له: "مالك؟" قال: "رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أنه ليس فيه أحد"، وقال آخر أدخل الغار، فقال اللعين أمية بن خلف: "ما أربكم في الغار؟ إن فيه لعنكبوتا أقدم من ميلاد محمد". ورُوي أن حمامتين باضتا في أسفل النقب، ونسج العنكبوت على أعلاه، فقالوا: "لو دخلاه لتكسر البيض وتفسخ العنكبوت".

وذكر الثعلبي أن أبا بكر رضي الله عنه أنشد ما نصه[12]:

قـــال النبي ولم يجزع يوقرني --- ونحن في سَرَف من ظلمة الغار

لا تخشى شيئـــا فإن الله ثالثنا --- وقد تكفل[13] لي منه بإظهـــــار

وإنمـــا كيد من تخشى بوادره --- كيد الشياطين قد كادت لكفـــــار

والله مهلكهم طرا بما فعلوا[14] --- وجاعل المنتهى منهم[15] إلى النار

وفيه أيضا من حديث عمر: "أن أبا بكر لما انطلق مع رسول الله ﷺ إلى الغار، جعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه، فقال له [ﷺ]: -مالك يا أبا بكر؟-، فقال: -أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك-"[16]. وفي صحيح البخاري عن أبي بكر قال: " قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: -لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا-، فقال: -ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟-"[17].

وعلى ذلك نبه [الناظم] بقوله:

---

[12] الثعلبي، الكشف والبيان، ج.5، ص.48.
[13] في المرجع المطبوع كتبت "توكل".
[14] في المرجع المطبوع كتبت "كسبوا".
[15] في المرجع المطبوع كتبت "منها".
[16] أخرجه الحاكم في "المستدرك على الصحيحين"، كتاب الهجرة.
[17] صحيح الإمام البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم.

فاخْتَفى[18] مِنهُمُ على قُرْبِ مَرْآ --- هُ ومِن شِدَّةِ الظُّهورِ الخَفاء

يعني أن الله تعالى أخفى نبيه ﷺ، أي ستره عن أعدائه، والأحسن عطفه على آواه[19]، وعلى هنا بمعنى مع، كقول متمم بن نويرة:

فلما تفرقنا كأني ومالكا --- على طول جمع لم نبت ليلة معا[20]

ومرآه اسم مصدر من الرؤيا بمعنى المكان، أي من أعظم معجزاته ﷺ اختفاؤه منهم مع قرب محل رؤيتهم إياه، فالمصدر مضاف إلى المفعول، أيده الله تعالى بذلك ونصره عليهم، إذ من جملة شدة الظهور، أي الغلبة والنصر على الأعداء، الخفاء عنهم، الذي حصل له به الظفر بهم والنصر عليهم. قال ابن حجر: "واستعماله الظهور فيما ذكر مع مقابلته بالخفاء، يوهم أنه أراد به ضده، وهذا من الفن المسمى بـ-التورية والإيهام-، وهو أن يذكر لفظا له مَعنيان بالاشتراك، أو التواطؤ، أو الحقيقة والمجاز، أحدهما بعيد فيُقصد، ويُورِي عنه بالقريب ليتوهمه السامع من أول وهلة، وهو هنا ضد الخفاء الموهم له قوله فاختفي. قال الزمخشري: -لا نرى بابا أرق ولا ألطف من التورية، ولا أنفع ولا أعون على تعاطي المتشابهات في كلام الله ورسوله نحو --الرحمان على العرش استوى--[21]، فالمراد من الاستواء معناه البعيد أي الاستيلاء، دون معناه القريب الذي هو الاستقرار في المكان، لاستحالته على الله تعالى--"[22]. ويحتمل أن المراد بالظهور معناه القريب: ضد الخفاء، على أن المعنى ومن شدة قرب الشيء الموجب لظهوره الخفاء، لأن الغالب في البصر إذا قرب منه الشيء جدا لا يبصره. والمشهور أنه ﷺ مكث في الغار ثلاث ليال، حتى أيس[23] منه أهل مكة وسكنوا. وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها، بعد طول الحديث ما نصه: "ثم لحق النبي ﷺ وأبو بكر بغار في جبل يقال له ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب لقِن ثقِف، فيدخل من

---

[18] في النسخة الحسنية وفي "المنح المكية" كُتب "فاختفى"، وفي النسختين العزيزية والصبيحية كُتب "واختفى".
[19] أنظر البيت السابق.
[20] من قصيدة متمم بن نويرة اليربوعي التميمي، ومطلعها "لعمري وما دهري بتأبين هالك".
[21] سورة طه، الآية 5.
[22] ابن جر الهيتمي، المنح المكية، ص.200.
[23] أي قنط وقطع الرجاء.

عندهما سحرا فيصبح مع قريش كالبائت، فلا يسمع أمرا يُكادانِ به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام. ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما حتى تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسلهما حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الأيام الثلاث"[24]. ويزيد أهل السير على هذا أنه إذا غدى عبد الله بن أبي بكر من عندهما، اتبع عامر أثره بالغنم حتى يعفيه، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بما يصلحهما من طعام، حتى أتى لميعادهما عبد الله بن أريقط براحلتيهما ليدلهما على الطريق، فسلك بهما طريق البحر، متوجهين إلى المدينة المشرفة. وعلى ذلك نبه [الناظم] بقوله:

وَنَحَا المُصطفى المَدينةَ واشْتا --- قَت إليهِ مِن مَكَّةَ الأَنْحاء

نحا أي قصد، والمدينة: عَلَم بالغلبة على طيبة، طيبها الله بهجرته ﷺ إليها. و"الشوق: نزاغ النفس وحركة الهوى"[25] كذا في القاموس، "وهو هنا مجاز نحو -واسأل القرية-[26]، أو حقيقة إذ لا يبعد في مثل الجمادات أن يكون ذلك لهم حقيقة، كما حن الجذع لفراقه، وتسبيح الحصى في كفه، ونحو ذلك مما لا يحيل العقل والشرع حمله على حقيقته، كما في حديث -ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي-. ولذا قال جماعة واختاره بعض المحققين، أنه ﷺ أُرسل حتى للجمادات لتصريح خبر مسلم بذلك في قوله ﷺ: -أرسلت إلى الخلق كافة-"[27]. والأنحاء جمع ناحية أي الجهات، "لأنها كانت معمورة بأنفاسه ومواضع عبادته ﷺ، فاستوحشت لفقده. وبين نحا والأنحاء جناس الاشتقاق، لأن الأنحاء منحوة أي مقصودة، ورد العجز على الصدر، وكذا بين تغنت والغناء، وناداه والنداء"[28]. وحدث أهل السير: "أن رسول الله ﷺ لما رحل من الغار هو وأبو بكر ومولاه عامر وعبد الله بن الأريقط، مروا بخيمة أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة

---

[24] صحيح الإمام البخاري، كتاب المناقب، باب الهجرة.
[25] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.901.
[26] سورة يوسف، الآية 82.
[27] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.204.
[28] نفس المرجع السابق.

برزة[29] جلدة تسقي وتطعم من يمر بها، وكانت السنة جدبة، فسألوها لحما وتمرا ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئا، وكانوا مُرمِلين[30]، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة تخلفت عن الغنم من الجهد، فقال لها: -هل بهذه الشاة من لبن؟- فقالت له: -هي أجهد من ذلك-، فقال لها: -أتأذنين لي أن أحلبها؟-، قالت: -نعم إن شئت-. فدعا بها رسول الله ﷺ، ومسح ضرعها بيده وسمى الله ودعا لها عليه ودرت، فدعا بإناء يربض[31] الرهط، فحلب فيه ثجّاً[32] حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم حلب فيه ثانية بعد بدء حتى ملأه وتركه عندها، وبايعها وارتحلوا عنها. فما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد، يسوق أعنزا عجافا يتساوكن هُزلا ضحا، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال: -من أين لك هذا يا أم معبد والشاة عازب؟-، فقالت: -والله ما هو إلا أنه مر بنا رجل مبارك-، قال: -صفيه لي-، -قالت: - [رأيت] رجلا ظاهر الوضاءة أبلج الوجه، حسن الخلق لم تعبه ثجلة، ولم تزر به صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي عنقه سطع، وفي صوته سهل، وفي لحيته كثاثة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه البهاء وعلاه الفخار، أجمل الناس من قريب، وأهيبهم من بعيد، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هدر، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، ربعة لا تشنأه عين من طول ولا تقتحمه من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنظر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا، وله رفقاء يحفون به، إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفند-. قال أبو معبد: -هو والله الذي ذكر من أمره ما ذكر، وقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت-"[33]. وأبو معبد هذا ذكره أبو عمرو في الصحابة[34]، وذكر أنه توفى قبل النبي ﷺ، وقال في خلاصة الوفا: "خرج أبو معبد في أثرهم ليسلم، فأدركهم في بطن ريم، فبايع وانصرف. وكانت

---

[29] بمعنى تجالس الرجال.

[30] بمعنى متعبين من مشقة السفر.

[31] من الربض: أي القوت من اللبن يكفي الإنسان.

[32] من ثج الماء: أي انصب وتدفق.

[33] الحديث أخرجه، بصيغ مختلفة، الحاكم وأبو النعيم والطبراني والبيهقي، وهذا اللفظ الذي قال به سيدي يحيى أقرب لرواية أبي النعيم الأصبهاني في "دلائل النبوة".

[34] لم أقف على هذا المرجع، وورد ذكر أبو معبد الخزاعي رضي الله عنه في مؤلف "الإصابة في تمييز الصحابة"، لصاحبه الإمام الحافظ أحمد ابن حجر العسقلاني.

خيمة أم معبد بقديد"[35].

ثم قال [الناظم]:

وتَغَنَّت[36] بِمَدحِهِ الجِنُّ حتى --- أطربَ الإنسَ منهُ ذاكَ الغِناء

الغِناء بكسر أوله ممدودا: ما طرب به من الصوت، أي تغنى مومن الجن بمدحه [ﷺ]. "وتقدمت قصة إيمانهم، أي أظهروا أوصافه الجميلة في صفة الغناء، الذي تتلوع به النفس ولا يصير فيها متسع لغيره. وإرساله ﷺ إلى الجن مما عُلم من الدين ضرورة فيكفر منكره، كما أجمع عليه الأئمة"[37]، قاله ابن حجر. والطرب خفة تعتري الإنسان عند شدة حزن أو سرور. والجن فاعل تغنت، والضمير المضاف إليه يعود إلى النبي ﷺ، والغناء فاعل أطرب والإنس مفعوله، والضمير المجرور بمن يعود إلى الجن. وقصة ذلك ما ذكره أهل السير عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: "لما خفي علينا أمر رسول الله ﷺ، أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل فقال: -أين أبوك؟-، قلت: -والله ما أدري-، فلطم خدي لطمة خرج منها قرطي. ولما لم ندر أين توجه رسول الله ﷺ، أتى شخص من الجن، يسمعون صوته ولا يرونه، وأنشد هذه الأبيات، علموا بها أين توجه رسول الله ﷺ:

جزى الله رب الناس خير جزاية --- رفيقين حلا خيمة أم معبد

هما نزلا بالبر واهتديا به --- لقد فاز من أضحى رفيق محمد

فيا لقصي ما زوى الله عنهم --- به من فخار لا يجارى وسؤدد

ليهن بني كعب مقام فتاتهم --- ومقعدها للمؤمنين بمرصد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها --- فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

---

[35] علي بن عبد الله الحسني السمهودي، خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، ج1، ص.600.

[36] في النسخة العزيزية و"المنح المكية" المطبوع كُتب "وتغنت"، وهو اللفظ الآتي في الإعراب بعده، ولذلك اعتمدته. أما في النسختين الحسنية والصبيحية فكُتب "وتغنى".

[37] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.204 و205.

دعـــاها بشــــــاة حائل فتحلبت --- له بصريح ضرة[38] الشاة مزبد

فغادرهـــا رهنا لديهـــا لحالب --- يُرَدِّدُهـــا في مصدر ثم مورد"[39]

ثم قال [الناظم]:

واقْتَفَى إثْرَهُ سُراقَةُ فَـاسْتَهْـ --- ـوَتْهُ في الأرضِ صَافِنٌ جَرْداء

ثُم نَادَاهُ بعدَ ما سِيمَتِ الخَسْـ --- ـفَ وقد يُنْجِدُ الغَريقَ النِّداء

ولما توجه رسول الله ﷺ إلى المدينة، ووصل في سفره إلى قُدَيْد: محل قريب من رابغ[40]، اقتفى إثْرَهُ بكسر الهمزة وسكون المثلثة، أي اتبعه سراقة، كما ذكره أهل السير. وفي صحيح البخاري، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: "أخذ علينا بالرصد فخرجنا ليلا، فأحيينا ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة، ثم رفعت لنا صخرة، فأتينها ولها شيء من ظل. ففرشت لرسول الله ﷺ فروة"[41] الحديث. وفي رواية له[42] أيضا، من حديث سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي قال: "لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرا إلى المدينة، جعلت فيه قريش مئة ناقة لمن رده عليهم. قال: فبينما أنا جالس في نادي قومي، أقبل علينا رجل لنا فقال: -والله لقد رأيت ركبه ثلاثة مروا عليَّ آنفا، إني لأراهم محمدا وأصحابه-. قال: فأومأت إليه بعيني أن أسكت، ثم قلت إنما هم بنو فلان يتبعون ضالة لهم، قال: -لعلهم-، ثم سكت. فمكثت قليلا ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي فقيد لي إلى بطن الوادي، وبسلاحي فأخرج لي من دبر حجرتي، ثم أخدت قداحي التي أستقسم بها ثم انطلقت، فلبست لامتي ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أَكْرَهُ ولا يَضُرُّهُ، وكنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المئة ناقة. فركبت على إثره، فبينما يشتد بي فرسي عثر فسقطت عنه، فقلت: -ما هذا؟-، ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكرهه: -لا يضره-، فأبيْت إلا أن أتبعه فركبت في إثره. فلما بدا لي

[38] في النسخة الصبيحية كتب "صرة"، وهو خطأ نسخ.

[39] ذكره ابن هشام في سيرته، وذكره ابن القيم الجوزية في "زاد المعاد"، وابن كثير في "البداية والنهاية". ونقله سيدي يحيى عن "المنح المكية"، ص.205. وفي النسخة الصبيحية، سها الناسخ عن نقل البيت الأخير.

[40] منطقة على البحر الأحمر، تبعد على المدينة المنورة بحوالي 300 كيلومتر.

[41] صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ.

[42] أي الإمام البخاري.

القوم، عثر بي فرسي وذهبت يداه في الأرض وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار. فعرفت أنه قد مُنع مني وأنه ظاهر، فناديت القوم: -أنا سراقة بن جعشم، انتظروني أكلمكم، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه-، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: -قل له ما تبتغي؟-، قلت: -تكتب لي كتابا يكون آية بيني وبينك"[43]، الحديث. وفي رواية له أيضا قال: " حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان"[44]، الحديث. وصافن فاعل استهوت، وليست السين والتاء فيه للطلب بل لمجرد التأكيد، قال في القاموس: "صفن الفرس يصفن صفونا: قام على ثلاث قوائم وطَرَفِ حافرِ الرابعة"[45]، وهذا من أوصاف الجياد من الخيل، قال تعالى "إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد"[46]، ومنه قول الشاعر:

ألف الصفون فلا يزال كأنه --- مما يقوم على ثلاث كسيرا

والجرداء: ذات الشعر القصير الأملس حتى لا تكاد تقبضه بإصبعيك، قال امرؤ القيس:

وقد اغتدي والطير في وُكُناتِها[47] --- بِمُنْجَرِدٍ[48] قيد الأوابد هيكل

وفاعل نادى ضمير يعود إلى سراقة، ومفعوله يعود إلى النبي ﷺ، وبعد ظرف لنادى، وما مصدرية. وسيمت بالبناء للمفعول: كلفت، وفي القاموس: "سام فلان فلانا الأمر: كلفه إياه، وأكثر ما يستعمل في الشر"[49]، ونائب فاعله ضمير يعود على الفرس، والخسف مفعوله الثاني. وفي رواية أن سراقة لما دنى من النبي ﷺ، دعا

---

[43] ابن هشام، السيرة النبوية، ج.1، ص.490، ويختم الحديث بقوله ﷺ "أكتب له يا أبا بكر". ذكره بلفظ مخالف ابن سيد الناس في عيون الأثر، ج.1، ص.301، ويأتي بعضه فيما بعد.
[44] ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج.1، ص.301. وفي النسخة الصبيحية "...مثل الغبار الدخان".
[45] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.935.
[46] سورة ص، الآية 31.
[47] في النسخ الثلاث كتبت "وكراتها".
[48] في النسخ الثلاث كتبت "على أجرد".
[49] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.814.

عليه [ﷺ] بدعوات، فغاصت قوائم فرسه في الأرض حتى بلغت الركبتين فخر عنها، ثم زجرها فنهضت، ولم تكن تخرج يداها. فلما وصل إليه ناداه: -الأمان يا محمد-، وقال: -أعلم أنكما دعوتما علي، فادعوا لي، وعلي أن أرد عنكما الطلب ولا أضركما-. فوفى لهما بذلك"[50]. والنجدة من أنجده الرباعي: الإعانة وإجابة الدعوة والغريق المشرف على الهلاك. وروي أن أبا جهل عاتب سراقة لرجوعه عن النبي ﷺ بلا نفع، فأجاب:

أبا حكم والله لو كنت شاهدا --- لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه

علمت ولم تشكك[51] أن محمدا --- رسول ببرهان فمن ذا يقـاومه

عليك بـكف الـقوم عني فإنني --- أرى أمره يوما ستبدو معالمه

بأمر يود الناس فيه بأسرهم --- بأن جميع النــاس طرا يسالمه

ثم لما عصم الله [عز وجل] رسوله ﷺ في هجرته من كل ضير، سار يطوي الفلوات إلى المدينة، وعلى ذلك نبه [الناظم] بقوله:

فَطَوَى الأرضَ سائرا والسماوا --- تَ العُلى[52] فوقَها له إسْراء

فَصِفِ اللَّيلَةَ التي كـــان للمُخْـ --- تارِ فيها على البُراقِ اسْتِواء

[في] القاموس: "طوى البلاد: قطعها"[53]، وسائرا حال من فاعل طوى، كما طويت له قبل ذلك السماوات، أي جميعها في أسرع وقت ليلة الإسراء، بنصب السماوات[54] عطفا على الأرض. والعُلى جمع عُليا بضم أوله مقصورا، نعت للسماوات، وإسراء مبتدأ، سوغ الابتداء به التأخير أو العمل، وله خبره، وفوقها ظرف لإسراء، والجملة

---

[50] قاله ابن الأثير في "أسد الغابة"، بصيغة مختلفة.
[51] في النسخة العزيزية "تشكوا".
[52] في المنح المكية كتبت "العلا" كما عند البصريين، وتكتب "العلى" عند الكوفيين، وكذلك كتبها الشيخ السنباطى في شرحه.
[53] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1027.
[54] يخالف هنا سيدي يحيى قول ابن حجر الهيتمي الذي رفع "السماوات"، بينما نصبها العلامة الشبيهي، وأورد رأي الشيخ الهيتمي بعده. وأما رأي الشيخ السنباطي فغير محدد لأن الكلمة لم تُشْكَل ولم تُعْرَب في شرحه.

حال من فاعل طوى. وبرفع[55] السماوات على الابتداء وما بعده خبره، وقيل هو الأظهر. وقال ابن حجر: "قطع في ذلك الوقت نحو ثمانية آلاف سنة[56]، إذ بين السماء الدنيا والأرض خمسمئة سنة، وكذلك سمك كل سماء، وكذلك ما بين كل سماءين، هذا بالنسبة إلى السماء السابعة فقط، وأما ما فوق ذلك مما كان قربه فيه قاب قوسين أو أدنى، فلا يعلمه إلا الله تعالى. فيا لهما من مفازتين: هجرة في الأرض وإسراء في السماء، أظهر الله تعالى فيهما على نبيه [ﷺ] عظيم قدره في سيره وإسرائه[57]، وأفضلية تقدمه على جميع خلقه في أرضه وسمائه. قال بعض الأئمة: -كانت المعاريج ليلة الإسراء عشرة، سبع إلى السماوات السبع، والثامن إلى سدرة المنتهى، والتاسع إلى مستوى الذي سمع فيه صريف[58] الأقلام في تصاريف الأقدار، والعاشر إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب بالمكافحة والكشف الحقيقي-. وقد وقع له ﷺ في سنين الهجرة العشر، ما كان منها مناسبات لطيفة لهذه المعارج العشرة، ولهذا ختمت بوفاته [ﷺ] التي فيها لقاء ربه، والعروج بروحه الكريمة إلى الوسيلة، وهي المنزلة التي لا أرفع منها، كما ختمت معاريج الإسراء باللقاء والحضور بحضرة القدس"[59]. قال الشيخ السمان في رسالته: "كان مقامه ﷺ ليلة المعراج فوق العرش، وقد علمت أن العرش غاية المخلوقات، إذ ليس فوق العرش مخلوق، فعند استوائه ﷺ فوق العرش، كانت المخلوقات تحته وربه فوقه، فصار برزخا بالمعنى، لأنه موجود من الحق والخلق موجودون منه"[60]. قال

---

[55] كما كتبها الشيخ الهيتمي.

[56] في النسخة الصبيحية كتبت "ثمانمائة" دون إضافة "سنة"، وفي النسختين الحسنية والصبيحية كُتب "ثمانمئة سنة"، وكل مخالف لنص المرجع المطبوع حيث كُتب "ثمانية آلاف سنة"، وهذا الرقم الأخير بدوره لا يُعتمد حاليا، إذ يبلغ قطر الكون الممكن مراقبته 93 مليار سنة ضوئية، ويتسع في كل ثانية ب 400 ألف كيلومتر، وهذا ما أخبرنا به القرآن الكريم عند قوله عز وجل "والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون" (سورة الذاريات، الآية 47).

[57] في النسخة العزيزية: "أسراره"، وهو خطأ نسخ بالنظر لباقي النسختين.

[58] في النسخة العزيزية : "صرف"، وهو خطأ بالنظر لباقي النسخ.

[59] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.208.

حاليا يُحسب قطر الكون بالسنة الضوئية، وهي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة من الزمن، علما أن سرعة الضوء هي ثلاثمئة ألف كيلومتر في الثانية، وقطر الكون يتعدى 93 ألف مليون سنة ضوئية. وتبعا لذلك يجب اعتبار معجزة الإسراء والمعراج أكبر وأعظم مما عبر عنه السابقون في تفسيرهم، إذ أن قوانين الفيزياء التي تسير تنظيم الكون والمجرات والنجوم والكواكب، عُطلت تماما في حادث المعراج، ولم يبقى لها أي تأثير على مجريات ما أكرم الله به عز وجل سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.

[60] السمان، رسالة النفحات الإلهية في كيفية سلوك الطريقة الأحمدية، مخطوط يحفظ بجامعة الرياض.

لم أقف على النص هكذا، ولربما النسخة التي كانت بحوزة سيدي يحيى تحتوي كذلك على نص ثاني للشيخ السمان، وعلى أي الحال القول مؤكدة نسبته إلى الشيخ السمان، حيث أجد ذكره ونقله عن الشيخ السمان، عند

الهيتمي في شرح الشمائل: "ثم رأى محمد [ﷺ] ربه [عز وجل] بعيني رأسه على الأصح، وأوحى الله [تعالى] إليه ما أوحى فسمع كلامه، وإنما اختص موسى بالكليم لأنه سمع كلام الباري [تعالى] في الأرض"[61].

وصف أمر من وَصَفَ حذفت [واوه][62]، أي أذكر أيها المتأمل في خصائصه وفضائله "ما أكرمه الله تعالى به في تلك الليلة من الفضائل، وهي ليلة الإثنين أو الجمعة أو السبت، من رمضان أو شوال أو رجب، وبه جزم النووي في الروضة، أو ذي الحجة، أو ثالث عشرين من ربيع الأخير، وجرى عليه النووي في فتاويه، أو من ربيع الأول وجرى عليه في "شرح مسلم"، بعد المبعث بخمس سنين، ورجحه النووي في فتاويه، أو بعشر أو بإحدى عشر أو إثني عشر، أقوال رجح كلا منها قوم"[63]. وقيل قبل الهجرة بسنة، وادعى ابن حزم فيه الإجماع، وقيل وخمس أشهر أو ثلاثة. والإسراء به ﷺ من أبهر المعجزات وأظهر البراهين والبينات، ومن ثم "قال بعض المفسرين أنها أفضل من ليلة القدر لكن بالنسبة إليه ﷺ، لأنه رأى فيها من آيات ربه الكبرى، وأعطي فيها ما تقصر عنه العبارات ولا تحيط به الإشارات، ولذا فإن الإسراء، بجسمه يقظة على الأصح، من خصائصه ﷺ"[64]، من نقل ابن حجر. ثم قال [ابن حجر] : "أظهر الله تعالى لنبيه [ﷺ] في تلك الليلة عجائب، منها أنه جاء جبريل، وفي رواية ميكائيل وفي أخرى ثالث، ولا مانع من أن جبريل نزل أولا ثم ميكائيل ثم الثالث، بالحطيم أو شعب أبي طالب أو بيته أو بيت أم هانئ بعد أن أفرج سقفه، روايات جمع بينها بأنه بات في بيت أم هانئ، وبيتها عند شعب أبي

الشيخ الحسين الإفراني في مؤلفه "ترياق القلوب في أدواء الغفلة والذنوب"، (نسخة مرقونة محملة من الأنترنيت، ج.2، ص.22). وكذلك أجده على لسان الشيخ السمان في النصوص المرجعية للطريقة الأحمدية (أنظر موقع "جواهر الطريقة التيجانية" على الأنترنيت). وقد ألف الشيخ السمان عدة كتب منها "الفتوحات الإلهية في التوجهات الروحية" و"النفحة القدسية" و"الاستغاثة" و"مختصر الطريقة المحمدية" (أنظر "الأعلام" لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين-بيروت، الطبعة الخامسة 1980، ج.6، ص.216). وتتكرر هذه الملاحظة في النصوص التي ينسبها سيدي يحيى لرسالة الشيخ السمان، فأقتصر عليها هنا.

[61] ابن حجر الهيتمي، الشمائل المحمدية، ص.46.

يؤكد العلم الحديث قول الإمام ابن حجر الهيتمي، ولو أنه ينبغي أن يقول "عَقِلَ كلامه" عوض "سمع كلامه"، ذلك أن سماع الصوت يلتزم وجود الهواء، الذي ينقل الذبذبات الصوتية إلى الأذن، ومن تم يستطيع العقل أن يترجمها ويعقلها، ففي غياب الهواء لا يمكن للصوت أن يصل إلى الأذن، والكلام خاصية كوكب الأرض، والوحي الإلهي أشمل وأكبر، إذ لا يحتاج إلى الهواء لتمرير الرسالة.

[62] في النسخ الثلاث كتبت "فاؤه".

[63] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.208 و209.

[64] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.209، بالتصرف.

طالب، فأخرجه الملَك منه إلى المسجد، فاضطجع لأجل أثر النعاس كان به، ثم أخرجه من المسجد، ثم أركبه البراق، وهو كما صح الخبر به: دابة فوق الحمار ودون البغل، أبيض يضع خَطوَهُ عند أقصى طرفه، قال ابن المنير: أي يقطع ما انتهى إليه بصره في خطوة واحدة. قال: فعلى هذا يكون قطع من الأرض إلى السماء في خطوة واحدة، لأن مَن في الأرض يقع بصره على السماء، فيبلغ أعلى السماوات في سبع خطوات. وفي رواية البزار وأبي يعلى: إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه، وإذا هبط ارتفعت يداه. وفي رواية صحيحة أتى به مسرجا ملجما، فاستصعب عليه لبعد عهده بركوب الأنبياء عليه، فقال له جبريل: -ما حملك على هذا؟ ما ركبك قط أكرم على الله منه-، فأَرْفَضَّ عرقا، فركبه ﷺ وسار به إلى بيت المقدس"[65].

ثم قال [الناظم]:

وتَرَقَّى به إلى قابِ قَوْسَيْـ --- ـنِ وتلك السِّيَادَةُ[66] القَعْساء

الترقي: التعلي، وفاعل ترقي ضمير يعود إلى البراق، أي صعد به من بيت المقدس مرتقيا إلى مراتب القرب المعنوي من ربه تعالى، حتى بلغ قربُه إلى قاب قوسين أو أدنى، كما قال تعالى في التنزيل[67]. قال المفسرون[68]: " مقدار قوسين عربيين، ومعناه من طرف العود إلى طرفه الآخر، وقيل من الوتر إلى العود، وقيل ما بين مقبضه وآخر وَتَرِه". وفي القاموس: "القاب: المقدار، ولكل قوس قابان"[69]. وذكر الثعلبي أنه ليس المراد القوس التي يرمى بها، بل دراع تقاس به المقادير، وقال إنه من لغة أهل الحجاز[70]. قيل ويرِد بأنه لا يتعين ذلك، بل المراد تشبيه قربه ﷺ المعنوي من ربه، بقرب قاب القوس إذا ألصق بقاب قوس آخر. وفي بعض روايات البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: "ثم علا به، يعني البراق، فوق ذلك بما لا

---

[65] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.210 و211، بالتصرف.
[66] في "المنح المكية" المطبوع، كُتبت "السعادة"، وهو خطأ لأن ابن حجر يفسر "السيادة" فيما بعد من قوله، وليس السعادة.
[67] ويعني قوله تعالى في سورة النجم ،الآية 9، "ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى".
[68] يعني قتادة رضي الله عنه ومجاهد بن جبير، في تفسير الآية 9 من سورة النجم.
[69] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1378.
[70] الثعلبي، الكشف والبيان، ج.9، ص.139.

يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنى الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه"[71] الحديث. قال ابن حجر: "واعلم أن هذا التدلي والدنو المذكورين في الحديث عن أنس وغيره من أحاديث المعراج، غير الدنو والتدلي في سورة النجم، فإن الذي فيها في حق جبريل كما صح عنه ﷺ، وصح عنه أيضا أنه لم ير جبريل في صورته التي خلقه الله عليها إلا في المرة المذكورة في الآية، ومرة أخرى في أوائل بعثته"[72]. ثم قال [ابن حجر]: "أفهم كلام الناظم أن البراق ترقى به ﷺ إلى قاب قوسين، وهو ما دلت عليه رواية البخاري ولفظها: -فحُملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى السماء الدنيا-"[73]. ورواية أنس السابقة أصرح من هذه، والذي صحت به الأحاديث وهو المشهور المعتمد، أنه استمر على البراق إلى بيت المقدس، ثم نصب له المعراج فارتقى فيه، فتحمل رواية البخاري على أن راويها أسقط منها ما يوافق رواية غيره. ويُحتمل أن يعود ضمير ترقي على النبي ﷺ، ويعود ضمير به على الإسراء وباؤه للظرفية، أي ترقى النبي ﷺ في إسرائه إلى كذا، فلا يحتاج إلى تأويل. والقعساء: الثابتة المنيعة التي لا يمكن توَصُّل الغير إليها، ولا يطرقها زوال ولا تغير. قال ابن حجر: "واختلف العلماء قديما وحادثا، هل رأى نبينا محمد ﷺ ربه بعينه في هذا المقام الأعظم الذي لم يصل إليه مخلوق غيره، وهو قول ابن عباس في رواية، وفي أخرى عنه أنه رآه بقلبه فقط، بمعنى أنه خلق الله [تعالى] فيه [ﷺ] إدراكا كإدراك البصر، وأخذ به جماعة، وأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك بقولها: -من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله-، قال النووي: -لكن خالفها غيرها من الصحابة، وإذا خولف الصحابي لا يكون قوله حجة اتفاقا"[74].

ثم قال [الناظم]:

رُتَبٌ تَسْقُطُ الأمانِيُّ حَسْرَى --- دُونَها ما وَرَاءَهُنَّ وَراء

---

[71] صحيح الإمام البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى "وكلم الله موسى تكليما".
[72] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.216.
[73] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.215.
[74] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.218 و219، بالتصرف.

رُتب بالرفع جمع رتبة أي المنزلة والمكانة، خبر مبتدأ محذوف أي تلك السيادة رتب، أو فاعل فعل محذوف دل عليه السياق أي حصل له ليلة الإسراء رتب. وتسقط، بالبناء للفاعل، مضارع أسقط رباعي، ولا يصح أن يكون مضارع سقط الثلاثي، لفساد الوزن حين يصير الأماني فاعلا، جمع أمنية أي ما يريده المتمني، والغالب فيه استعماله فيما يعسر تحصيله. وحسرى جمع حسير، من حَسُر -بضم السين- حسورا، أي كلّ وانقطع من طول المدى، نحو قوله تعالى: "خاسئا وهو حسير"[75]، أو مصدر حَسِر -بكسر السين-. وفي القاموس: "حَسِر عليه كفَرِح، حسرة وحسرا: تلهَّف"[76]. ودون هنا نقيض فوق، فهو ظرف لتسقط.

والمعنى أن هذه السيادة رتب عالية، تَسقط أي تمنع أمنية كل متمنٍّ، بحيث لا يمكن أن يصل إلى شيء منها، لانتهائها في العلو إلى غاية البعد الذي ليس وراءه محل يصل إليه مخلوق قط، أي ليس قدامها قدام. قال السمان في رسالته: " اعلم أن للحقيقة المحمدية ظهورا في كل عالم يليق به [ﷺ]، فليس ظهوره في عالم الأجسام كظهوره في عالم الأرواح، لأن عالم الأجسام لا يسع ما يسعه عالم الأرواح. وليس ظهوره في عالم الأرواح كظهوره في عالم المعنى، فإن عالم المعنى ألطف من عالم الأرواح وأوسع. وليس ظهوره في الأرض كظهوره في السماء، وليس ظهوره في السماء كظهوره عن غير العرش، وليس ظهوره عن يمين العرش كظهوره عند الله [عز وجل]، حيث لا أين ولا كيف، فكل مقام أعلى يكون ظهوره فيه أكمل وأتم من المقام الأول، ولكل ظهور مقام يقبله جلاله وهيبته، حتى أنه يتناهى إلى محل لا يستطيع أن يتراءه[77] فيه أحد من الأنبياء والملائكة والأولياء، وذلك معنى قوله ﷺ: -لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملَك مقرب ولا نبي مرسل-".

ثم قال [الناظم]:

ثُمَّ وَافَى يُحَدِّثُ الناسَ شُكراً --- إذ أَتَتْهُ مِن ربهِ النَّعْماء

---

[75] سورة الملك، الآية 4.
[76] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.360.
[77] في النسخة العزيزية كُتبت "يراه"، وكتبتها كما جاءت في النسختين الحسنية والصبيحية.

وَتَحَدَّى فارْتابَ كل مُرِيبٍ --- أَوَ يَبْقَى مع السُّيُولِ الغُثَاء

[في] القاموس: "وافيت القوم: آتيتهم"[78]، وذلك أنه ﷺ لما رجع من إسرائه أتى مكة قبل الصبح، فأصبح يحدث الناس بما أنعم به ربه عليه، مما[79] رأى من أعاجيب آياته [عز وجل]، كُلّا بما يطيقه عقله، امتثالا لقوله تعالى "وأما بنعمة ربك فحدث"[80]. والشكر: "عرفان الإحسان ونشره، ولا يكون إلا عن يد أو من الله: المُجازات والثناء الجميل"[81]، قاله في القاموس. ونصبه [أي شكرا] على المفعولية من أجله أوْلى من جعله حالا، لضعفه باختصاصه بالسماع وإن كثر. وإذ ظرف أو تعليل، والنعماء جمع نِعم، ونِعم جمع نعمة. وفي الحديث: "التحدث بالنعم شُكر"[82]، وأي شُكر مثله ﷺ وقد "قام حتى تورمت قدماه"[83] الحديث. ويُروى أنه ﷺ: "لما أصبح يحدث بالإسراء من بيت المقدس والعروج منه إلى السماوات وبما رأى من الآيات، ارتد ناس من المسلمين لاستبعادهم ذلك. وذهب المشركون إلى أبي بكر وذكروا له ما أخبر به ﷺ من ذلك، فقال لهم إنكم تكذبون عليه، فقالوا بلى ها هو في المسجد يُحدث به الناس، فقال أبو بكر: -والله لئن كان قاله لقد صدق، وإني لأصدقه في أكثر من هذا في خبر السماء غدوة وروحة-، فلذلك سمي الصديق رضي الله عنه"[84]. وأظهر الله تصديق نبيه للمشركين "بأوضح آية فيما أخبرهم به، بما تقرر عندهم من معرفتهم لصفات بيت المقدِس، فوصفه لهم كما يعرفونه مع علمهم أنه لم يصل إليه قط، وبقوله لهم: -إني مررت بعيركم في مكان كذا، وقد أضلوا بعيرا لهم فجمعه فلان لهم، وأن في يوم مسيرهم ينزلون في مكان كذا، ويأتونكم في مكان كذا، مقدمهم جمل أدم عليه مسح أسود وغرارتان-. فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى إذا قرب نصف النهار، أقبلت العير كما وصف ذلك. وذكر أهل السير أن تلك العير كانت تحمل طعاما لقريش، فلما رجع من إسرائه مر بهم، فلما حادا

---

[78] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1769.

[79] في النسخة العزيزية: "الما".

[80] سورة الضحى، آية 11.

[81] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.879.

[82] من حديث أخرجه الأئمة أحمد والبزار والبيهقي.

[83] هذا من لفظ الإمام البخاري والحديث متفق عليه، عن أمنا عائشة رضي الله عنها.

[84] رواه الحاكم في المستدرك.

العير نفرت منه واستدارت، فسلم عليهم، فقال بعضهم هذا صوت محمد"[85]. وضل بعير لهم فجمعه واحد منهم، فلما أقبلت العير ابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول مِن الجمال كما وصف، وسألوهم عما ذكر فقالوا: "صدق والله، لقد أنفرنا في الوادي الذي ذكر، وندَّ[86] لنا بعير فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه. وتحدي، قال في القاموس: " والحُدَيَّا بالضم وفتح الدال: المعارضة والمنازعة"[87].

والمعنى أنه ﷺ طلب من كفار مكة وغيرهم، أن يعارضوه بما أظهر الله على يديه من المعجزات الدالة على صدقه، التي من أعظمها الإسراء والقرآن، أي طلب منهم أن يأتوا بمثلها، فعجزوا، فلم يسعهم إلا التسليم، لكنهم أظهروا الارتياب أي الشك، وأنكروا الحق بعد اتضاحه لهم عنادا منهم. ومن ثَم قال [الناظم] ردا عليهم: أو يبقى مع السيول؟، جمع سيل وهو المطر الغزير، الغُثاء وهو بضم المعجمة وفتح المثلثة: ما تحمله السيول مما جف من النبات وتحطم، ومنه "فجعله غثاء أحوى"[88]، والاستفهام للإنكار.

والمعنى: فكما لا يبقى هذا الغثاء مع كثرة المطر، بل تذهب به وتُغيبه في أسرع وقت، فكذلك ما جاء به ﷺ من الآيات، فإنها تذهب بجميع الأباطيل والشكوك حتى لا يبقى لها أثر، إلا الجحد والعناد والزيغ والفساد. واستعار السيول للآيات "لأن بها الحياة الحسية، قال تعالى -وجعلنا من الماء كل شيء حي-[89]، كما أن بالآيات الحياة المعنوية. واستعار الغثاء لما تخيلوه، لأنه أمر حقيقي لا بقاء له معها، كما أن الغثاء كذلك"[90]، فإن الآيات تطهر القلوب من الريب والشكوك كما يطهر المطر الغزير الأرض من الغثاء، حتى لا يبقى لها أثر.

ثم قال [الناظم]:

وَهْوَ يَدعُو إلى الإلهِ وإن شَقَّ --- عليهِ كُفْرٌ بـهِ وَازْدِراء

---

[85] من حديث رواه البيهقي، وحكم عليه بالضعف الحافظ بن كثير.
[86] ندّ البعير أي نفر وشرد بعيدا.
[87] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.340.
[88] سورة الأعلى، الآية 5.
[89] سورة الأنبياء، آية 30.
[90] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.222، بالتصرف.

ويَدُلُّ الوَرَى على اللهِ بالتَّوْ --- حِيدِ وَهْوَ المَحَجَّةُ البَيْضاء

الواو للحال من فاعل تحدي، والدعاء إلى الله تعالى: الأمر بالإيمان به وتتبع شرائعه وامتثال أوامره واجتناب منهياته. قال ابن حجر: "والإله هنا، المعبود بالحق فقط، وهو الله تعالى. ولم يعتبر الناظم كون الإله اسم جنس في الأصل لكل معبود، لأن الأئمة أعرضوا عن هذا الأصل، واستعملوه في المعبود بالحق فقط، فصار عَلَماً على الباري بالغلبة"[91]. ولم يزل ﷺ يدعوهم إلى الله وحده، مع استمرارهم وتماديهم على الكفر، وتمردهم وتكذيبهم له فيما يبلغه لهم عن الله [عز وجل]. وإن للغاية في صبره ﷺ.

والمعنى أنه لم يترك ما أمره الله به من التبليغ والدعاء، وإن صعب عليه كفرهم به وتكذيبهم له وازدرائهم، أي استخفافهم به، فلم يبالي بذلك كله، لكثرة صبره ﷺ وتحمل أذاهم، بل كان يدل الورى وهو الخلق كله. قال ابن حجر: "وكان الناظم أخذ هذا من الحديث الصحيح: -وأرسلت إلى الخلق كافة-، أما الإنس والجن فبالإجماع فيكفر منكره كما مر، وأما الملائكة فعلى الأصح عند جمع من المحققين، كما صرح به هذا الحديث، وقوله تعالى -ليكون للعالمين نذيرا-. وقول الرازي مُؤَوَّل بأن المراد الإنس وجن عند أجمعنا[92]، مردود. وأما بقية الجمادات فعلى ما ذهب إليه بعض المحققين. ومعنى إرساله إلى الملائكة وهم معصومون، لأنهم كلفوا بتعظيمه والإيمان به وإشاعة ذكره، وللجمادات بأن يُركَّب فيها إدراكات للإيمان به وأن تخضع له. قال تعالى -وإن من شيء إلا يسبح بحمده-، إي حقيقةً لا بلسان الحال، خلافا لمن زعمه"[93].

والمحجة البيضاء أي "الطريقة المنيرة المضيئة الواضحة، التي مَن سلكها نجى فلا يضل ولا ينقطع، ومن حاد عنها هلك. وهذا مقتبس من قوله ﷺ: -تركتكم على المحجة الواضحة البيضاء، ليلها كنهارها ونهارها كليلها، لا يزيغ عنها إلا هالك-.

---

[91]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.223. إذ اعتبرنا أن قصد الناظم بـ الـ التعريف في" الإله" عهدية غير جنسية، انتفت ملاحظة الشيخ الهيتمي، لأن الـ العهدية تستعمل للدلالة على شيء معروف معهود لدى المخاطب.
[92]في "المنح المكية" كُتب: "وقول الرازي: أجمعنا على أن المراد الإنس والجن".
[93]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.224 و225، بتصرف خفيف.

ولكثرة صبره ﷺ على إذاية قومه، أشار الناظم بقوله وإن شق عليه"[94]. ومن ذلك، ما ذكر أهل السير أنه "كان ﷺ يطوف على الناس في منازلهم في كل موسم، ويعرض نفسه على القبائل، ويقول: -يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا-، وأبو لهب عمه وراءه يقول: -يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم-. ورماه الوليد بن المغيرة لعنه الله بالسحر، ورموه قريش بالشعر والكهانة والجنون، ومنهم من كان يحثو التراب على رأسه ويجعل الدم على بابه، ووطئ اللعين عقبة بن أبي معيط على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة حتى كاد تبرز عيناه الشريفتان، وخنقوه خنقا شديدا، وجذبوا لحيته ورأسه حتى سقط كثير من شعره، فقام وأبو بكر دونه قائلا: -أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله-"[95]. وخرج ﷺ إلى الطائف فأغروا به سفهاءهم حتى أدموا رجليه.

ثم قال [الناظم]:

فَبِمَـــا رَحْمَةٍ مِن اللهِ لاَنَتْ --- صَخرةٌ مِن إبائِهِمْ صَمـــاء

واسْتَجابَت لهُ بِنَصرٍ وفَتْحٍ --- بعدَ ذاكَ الخَضْراءُ والغَبْراء

قد تُزاد[96] ما بعد حرف الجر نحو "فبما رحمة من الله لنت لهم"[97]، والعامل في الجار هنا لانت أي سهُلت، وصخرة فاعله، ووصَفها بالصماء لكثرة امتناعهم وإبائهم.

والمعنى: إن قلوب الكفرة انقادت لإجابته واتباعه ﷺ، بعد أن كانت، من أجل امتناعهم من الانقياد إليه، كالصخرة الصماء، "أي الصلبة التي لا يؤثر فيها معول، على خلاف العادة. وبه يظهر حسن التقابل بين لانت وصماء، وهو من الطباق ويسمى التضاد، أي زال امتناعهم عن إجابته فأطاعوه واتبعوه. فاستعار الصخرة التي في غاية الصلابة لإبائهم عنه أولا إذ كانوا على غاية النفار منه [ﷺ] والإيذاء

---

[94]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.225، بالتصرف.
[95]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.223.
[96]في النسخة العزيزية: "تصرف"، وكتبتها كما في النسختين الحسنية والصبيحية.
[97]سورة آل عمران، آية 159.

له، وليونتها أي زوال صلابتها لاتباعهم له وانقيادهم لجميع أوامره آخرا. واستفيد منه إنما كان ذلك كله[98] بواسطة رحمة الله [تعالى] له ولهم، بهدايتهم له لا بحوله وقوته [ﷺ]، لقوله تعالى -إنك لا تهدي من أحببت-"[99] الآية.

ثم بعد لينهم له، لم يزل الناس يزدادون دخولا في الإيمان ببركته ﷺ، حتى أجابت دعوتَه وإتباعَ شريعته، بسبب أو مع ما أعطاه الله تعالى بفضله، من النصر على أعدائه والفتح لبلدانهم، بإخماد شوكتهم واستئصال عددهم، بعد تمنعهم وإبائهم. وأهل الخضراء وهي السماء، وأهل الغبراء وهي الأرض، وسميت خضراء لأنها ترى كذلك وإن لم تكن خضراء حقيقة. قال ابن حجر: "قال القاسم بن أبي بزة[100]: -ليست السماء مربعة، لكنها مقبوة يراها الناس خضراء-. وبيّن الثوري سبب ذلك فقال: -بلغنا أن صخرة تحت الأرض خضراء، كما في حديث البزار وغيره، منها خضرة السماء-. وليست في الحقيقة كذلك للحديث أنهم قالوا: -يا رسول الله، ما هذه السماء؟-، قال: -هذا موج مكفوف عنكم-[101]. ومن ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما: -إنها موج مكفوف- حين سُئل عن السماء من أي شيء هي؟، ويوافقه قول علي كرم الله وجهه في حلفه: -والذي خلق السماء من ماء ودخان-. وسميت الأرض غبراء لأن جميع طبقاتها من طين[102] كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنه"[103].

ثم قال [الناظم]:

وأَطاعَت لِأَمرِهِ العَرَبُ العَرْ --- باءُ والجَاهِلِيَّةُ الجَهْلاء

هذا من عطف الخاص على العام للتأكيد، والعرب العرباء أي الخُلّص كمضر

[98] في النسخة العزيزية كُتيبت "بلا واسطة"، وهو خطأ نسخ شنيع. والصحيح ما في النسختين الحسنية والصبيحية وهو ما كتبته.
[99] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.226.
[100] في "المنح المكية" وفي النسخ الثلاث كتبت "برة"، وهو إذن خطأ من المرجع المنقول عنه.
[101] في هذا الحديث الشريف إعجاز علمي بليغ لم يُعرف معناه إلا في القرن العشرين، ذلك أن الشمس تبعث نحو الأرض موجات شعاعية يمكن أن تدمر كل حياة في الأرض، والطبقات الجوية التي تتسبب في لون السماء كما نراها بالبصر، تكُفُّ الإشعاعات المضرة وتمنعها عن الأرض وتسمح بمرور الأشعة النافعة، فذلك معنى الموج الذي ذكره ﷺ، والله أعلم.
[102] في النسخة الصبيحية كتبت "ثور طن"، وفي العزيزية كُتبت "طباقها من عين"، والصحيح ما في النسخة الحسنية وما جاء في المرجع. تبعا لمل توصل له العلم الحديث، فإن لون السماء الذي نراه، مرجعه أن الضوء الأبيض المنبعث من الشمس يشتمل على موج جميع أطياف الألوان، فتمتص طبقات الغلاف الجوي بعض الموجات، وأما التي تبقى وتصل إلى أعين البشر فهي التي تحدد لون السماء المرئي.
[103] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.227، بالتصرف.

وأمثالهم، وولد إسماعيل وهم العارِبة، وقيل إن العاربة قبل ذلك كعاد وثمود، ويقال إن أول من تكلم بالعربية قحطان، وهو والد العرب المتعربة. قال في القاموس: "وعَرَبٌ عارِبة وعَرْباء وعَرِبَة: صُرحاء، ومُتَعَرِّبة ومُسْتَعْرِبَة: دُخلاء"[104]. والجَهْلاء بفتح الجيم وسكون الهاء، مبالغة في الجهل كليل الليل. فأجابوا كلهم دعوته واتبعوا شريعته، طوعا وبالسيف، قال ابن حجر: "وروى أحمد في مسنده أن أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه[105] الله [تعالى] بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله [عز وجل] بقومه، وأما الباقون فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس، وإن بلالا هانت عليه نفسه في الله عز وجل، وهان على قومه فأخذوه وأعطوه للولدان، فجعلوا يطوفون به في شعب مكة وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدْ، أي ليُخرج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان، ومَرَّ اللعين أبو جهل بسمية أم عمار بن ياسر وهي تعذب، فطعنها بحربة في فرجها فقتلها"[106]. وخص الناظم هؤلاء بالذكر، مع شمول أهل الغبراء لغيرهم، لشدة إبائهم وتصميمهم على الكفر، ولم يمتنع أحد من الإيمان مثل امتناعهم، ولم يؤذه غيرهم مثلهم. قال أهل السير: ومن عدنان تفرقت القبائل من ولد إسماعيل، فآمن به ﷺ جميع أهل الأرض، وانتشر دينه في جميع البلدان والأقطار.

ثم قال [الناظم]:

وتَوَالَت للمُصطفَى الآيةُ الكُبْـ --- ـرَى عَليهمْ والغَارَةُ الشَّعْواء

وإذَا مَـــا تَلَا كِتاباً مِن اللهِ --- تَلَتْـــهُ كَتِيبَـــــةٌ خَضْراء

"توالت أي تتابعت، والآية فاعله وبه يتعلق للمصطفى"[107]، قاله ابن حجر. والظاهر أنه حال من الآية أو من الضمير في الكبرى، وعليهم يتعلق بتوالت. قال ابن حجر: "الآية مفرد محلى بـ الـ فيكون في معنى الآيات، وأيضا فالتوالي إنما يكون في

---

[104] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1066.
[105] أي حماه.
[106] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.223 و224.
[107] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.229. لم يرد هكذا في المرجع المطبوع بل كُتب: "وتوالت أي تتابعت للمصطفى ﷺ، الآية مفرد محلى بـ الـ فيكون في معنى الآيات".

متعدد، أي الآيات[108] الدالة على نبوته ﷺ والمدحضة لما يفترونه، كالقرآن وانشقاق القمر"[109]. وتوالت على أعدائه أيضا الغارة الشَّعْواء بفتح المعجمة وسكون المهملة، أي المحيطة بهم. وفي القاموس: "وغارة تشعو: متفرقة، وجاءت الخيل شواعي: متفرقة، وشجرة شعواء: منتشرة الأغصان"[110]. ويجري في الغارة ما يجري في الآية، فلا تكون غارة واحدة، فتشمل: غزوة بدر وفتح مكة وغيرهما، من كل ما نصره الله [تعالى] به على أعدائه، وإحاطة خيله ﷺ وجيوشه من كل جانب، حتى وَهنوا وفشلوا، فكانت ترِد عليه الوفود من كل وجه خوفا من سطوته، حتى فشا الإسلام وانتشر في جميع الأرض.

وإذا ظرف لتلته أي تبعته، وما زائدة، وتلا أي قرأ كتابا أنزل عليه وهو القرآن. و"الكتيبة: الجماعة من الخيل المستخيرة، أو جماعة الخيل إذا غارت، من المئة إلى الألف"[111]، قاله في القاموس. والمراد بها هنا كتيبته الخضراء ﷺ من المهاجرين والأنصار التي كان يسير فيها، ودخل بها مكة يوم الفتح، بين أبي بكر وأسيد بن حضير، وهو على ناقته [القصواء][112]. وكان ﷺ أمر عمه العباس أن يوقف أبا سفيان بن حرب بمضيق الوادي حتى تمر به جنود الله [عز وجل]، فلما شاهد ذلك الأمر العظيم وعاين تلك الجيوش الهائلة قال للعباس: "لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما"، فقال له العباس: "ويحك إنها النبوة". وأشار الناظم بالتلاوة إلى قراءته ﷺ سورة الفتح يوم الفتح، كما في صحيح البخاري والترمذي: "عن عبد الله بن مغفل قال: -سمعت رسول الله ﷺ على ناقته يوم فتح مكة وهو يقرأ سورة الفتح-"[113] الحديث، ورواية الترمذي: "رأيت"[114].

ومما أكرم الله [عز وجل] به نبيه ﷺ أن استجاب لدعوته على أعدائه، فأهلكهم وكفاه أمرهم، وعلى ذلك نبه [الناظم] بقوله:

---

108 في النسخة الحسنية كُتب "الآية، وهو خطأ نسخ.
109 ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.229.
110 الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.870.
111 الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1392.
112 في النسخ الثلاث كُتبت "القصوى".
113 صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب الترجيع.
114 لم أقف عليه، بل هي في صحيح الإمام البخاري "رأيت".

وكَفاهُ المُستَهزِئينَ وكَمْ سَا --- ءَ نَبياً مِن قَومِهِ اسْتِهزاء

ورَماهُم بِدَعوَةٍ مِن فِناءِ الـ --- بَيْتِ فيها للظَّالِمينَ فَنــاء

المستهزئون: جماعة من قومه ﷺ كانوا يسخرون منه ويبالغون في إذايته، وهم الخمسة الذين ذكرهم الناظم على الأرجح. وكفاه [عز وجل] إياهم أي تولى إهلاكهم، فضلا منه وكرما من غير سعيه ﷺ في ذلك، من كفاه الأمر أي تولاه عنه ولم يحوجه إليه، وهذا اقتباس من قوله تعالى "إنا كفيناك المستهزئين"[115]. ومع إهلاكه أعداءه، سلاه[116] تعالى بقوله "فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل"[117]، كما اقتبس [الناظم] من قوله تعالى "ولقد استهزئ برسل من قبلك"[118]. وقوله [أي الناظم]: وكم ساء نبيا، فكم للتكثير، كقوله تعالى "وكم أرسلنا من نبيّ في الأولين"[119]، وساء: أحزن، ونبيا مفعوله، واستهزاء، أي سخرية وإيذاء، فاعله، وبه يتعلق من قومه.

والمعنى أنه كثيرا ما وقع للأنبياء من إساءة قومهم قبله، وليس هذا خاص به.

ورماهم بدعوة أي دعا عليهم بها، فأصابتهم وأهلكتهم كما يرمى السهم من القوس فيهلك من أصابه. وأقام الظاهر مقام المضمر في قوله فيها للظالمين فَناء بفتح أوله، أي هلاك واستئصال لهم، حتى لم يبقى منهم أحد، ليبين أن سبب إهلاكهم ظلمهم. وفِناء البيت بكسر أوله: ما اتسع من أمامه، وبينه وبين فَناء بالفتح الجناس المحرف. قال ابن حجر: "وكان دعاؤه ﷺ عليهم من حوالي الكعبة، وقيل شكاهم لجبريل فقال: -أمرت أن أكفيكهم-"[120]، وكان أولئك الخمسة ذوي أسنان[121] وشَرَفٍ في قومهم. وذكر أهل السير أن النبي ﷺ دعا على الأسود بن مطلب فقال: «اللهم اعم بصره واثكله ولده"، ودعا على جميعهم، وبدعائه ﷺ أصيب كل منهم بما قتله، وعليه نبه [الناظم] بقوله: **خمسة كلهم أصيبوا بداء.**

---

[115]سورة الحجر، الآية 95.
[116]أي واساه وكشف عنه الحزن.
[117]سورة الأحقاف، الآية 35.
[118]سورة الأنعام، الآية 10.
[119]سورة الزخرف، الآية 6.
[120]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.231.
[121]ذوي أسنان أي من أكابر وأشراف قومهم.

الفصل الخامس: من البيت 88 إلى البيت 108

[قال الناظم:]

خَمسَةٌ كُلُّهُمْ أُصِيبُوا بِداءٍ --- والرَّدَى مِن جُنودِهِ الأَدْواء

فَدَهَى الأَسْوَدَ بْنَ مُطَّلِبٍ أَيُّ --- عَمىً مَيِّتٌ بِهِ الأَحْيـــاء

خمسةٍ بالجر بدل من الظالمين، وبالنصب بدل من المستهزئين، وبالرفع خبر مبتدأ محذوف. وخص هؤلاء الخمسة دون غيرهم من المستهزئين، كأبي لهب وزوجته وعقبة بن أبي معيط والحكم بن العاصي وأبي جهل، لأنهم أشد عليه افتراء وإذاية، ولذلك عجلت عقوبتهم. والداء: المرض، وليس المراد أنه داء واحد، بل هم أدواء مختلفة كما يأتي، وأفرده [الناظم] للجنس. والردى: الهلاك، وهو مبتدأ، والأدواء: جمع داء، مبتدأ ثاني خبره المجرور قبله، والجملة خبر المبتدأ الأول.

والمعنى أن الأدواء أي الأمراض، كائنة[1] من جنود الردى التي يستعين بها على الإهلاك، وهذا كلام جرى مجرى المثل، وهو كالتعليل لما قبله، أي إنما أصيبوا بذلك لأنهم سعوا في تحصيل أسباب الردى لأنفسهم حتى هلكوا.

ودهى فعل ماض من الداهية وهي الأمر العظيم، أي أصابه بداهية، وأيُّ عمى فاعله والأسود مفعوله، والاستفهام هنا للتعظيم كقوله تعالى "وما أدراك ما هي"[2]، وكقول الشاعر:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا --- ليوم كريهة وسِداد ثغرِ[3]

أي دهاه عمى عظيم طمس بصره كما طمس بصيرته، ولذلك وصفه بقوله ميت به الأحياء، بمعنى أن الأحياء الموصوفين بذلك العمى مثله في حكم الموتى. وميت مبتدأ، والأحياء فاعل أغنى عن الخبر، قال ابن حجر: "ولم ينظر الناظم إلى اعتماد

[1] أو "كائنات".
[2] سورة القارعة، الآية 10.
[3] من قصيدة عبد الله بن عمر العرجي، وهو من شعراء العصر الأموي.

هذا المبتدأ جريا على مذهب الكوفيين فإنه قوي. وقال ابن مالك: -الاعتماد حسن لا واجب-، وكأنه يريد أن يجمع به بين رأي البصريين والكوفيين، لكنه خلاف ما صرحوا به فيكون رأيا ثالثا. ولا يقال ميت خبر مقدم، والأحياء مبتدأ، لأنه لو كان خبرا لقال ميتون، لوجوب المطابقة"[4].

ثم بعد أن عمى بصر الأسود بن المطلب، كملت فيه دعوة رسول الله ﷺ بما تقدم، فمات له ثلاث بنين ببدر وهم زمعة وعقيل وابن ولده الحارث بن زمعة. ثم ذكر [الناظم] الباقين فقال:

ودَهَى الأسودَ بْنَ عبدِ يَغُوثٍ --- أنْ سَقاهُ كأسَ الرَّدَى اسْتِسْقاء

وأَصابَ الوَليدَ خَدْشَةُ سَهْمٍ --- قَصَّرَت عَنها الحَيَّةُ الرَّقْطاء

الأسود مفعول دهي، وهو ابن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، ووهب هذا هو والد آمنة أم النبي ﷺ، ويغوث في الأصل صنم. وأن وما بعدها مؤولة بمصدر هو فاعل دهي، والضمير عائد على الأسود، وهو مفعول أول لسقي، وكأس مفعوله الثاني، واستسقاء فاعله وهو داء خبيث، "وفيه أنواع والمراد هنا الزقي، وهو امتلاء الأعضاء بالماء الفاسد المبطل للحرارة الغريزية، المفضي إلى الهلاك سريعا، فحصل له في جوفه واستمر به حتى أهلكه"[5]. قال ابن حجر: "وبين سقي واستسقاء جناس الاشتقاق، وفي تشبيه الردى بالمشروب وإثباته له ما هو من لوازم المشبه من السقي، والكأس استعارة بالكناية تتبعها الاستعارة التخييلية"[6].

وكذلك أيضا أصيب الوليد، وهو عم أبي جهل ووالد خالد بن الوليد، وهو ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، أصابته خدشة سهم أو أثر جرح سهم بأسفل رجله، كان أصابه قبل ذلك بسنين من شخص في يده نبل، فأهلكته. "وقيل أصابت ذيله شوكة فمنعه الكبر من أن يهوى إليها ليقلعها، فضربها بالسوط فأصابت رجله فتآكلت وأفضت به إلى قتله قبل وقعة بدر. فكان سم ذلك الجرح أسرع إلى هلاكه

---

[4]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.233.
[5]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.233، بالتصرف.
[6]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.233.

من سم أقوى الأفاعي أذى وأسرع السموم إهلاكا، وقد يقع الشفاء من لسعتها ولا يقع من تلك الخدشة، فإن قتله بها محتم للدعوة من النبي ﷺ المستجابة. ومن ثم قال قصرت عنها الحية الرقطاء، وهي التي يخالط سوادها نقط بيض، وهي أقوى الأفاعي إهلاكا قلَّ من يسلم من لدغتها، وقصرت عن الخدشة لعدم تحتمها"[7].

ثم قال [الناظم]:

وقَضَت شَوْكَةٌ على مُهْجَة العا --- صِي فللهِ الفَقْعَةُ[8] الشَّوْكاء

وعَلَى الحارِثِ القُيُوحُ وقَد سَا --- لَ بِها رأسُهُ وَسَاءَ الوِعــاء

المهجة: الدم أو دم القلب أو الروح، والعاصي هو ابن وائل بن هشام بن سعد بن سهم، وهو والد عمرو بن العاص، وفيه نزل قوله تعالى "وضرب لنا مثلا ونسي خلقه"[9]، الآية. وقضت عليه أي قتلته، قال تعالى "فوكزه موسى فقضى عليه"[10]. ذكر أهل السير أنه [أي العاص بن وائل] "مر بجبريل لما أراد الله [عز وجل] إهلاكه، فأشار جبريل إلى رجله، فخرج على حمار له يريد الطائف، فربض به على شبرقة، فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته"[11]. قال السنباطي: "ففقعته أي نحرته نحرا عجيبا، فمن تم عقّبه بقوله: فلله الفقعة الشوكاء، أي الشديدة، التي حصلت له من تلك الشوكة [القليلة التأثير عادة][12]"[13]. وفي القاموس: "الفواقع فلان: مات من الحر، والفاقعة: الداهية"[14]. و[في] نسخة ابن حجر -نقعة- بالنون، وقال ما نصه: "فقضت أي قتلته قتلا عجيبا، ومن ثم عقّبه بما يفيد التعجب بقوله فلله النقعة، من قولهم الناس نقائع الموت، أي أنه يجزرهم كما يجزر الجزار النقيعة، والشوكاء

---

[7] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص،233 و234، بالتصرف.
[8] في "المنح المكية" المطبوع، ص.234، كتب الشيخ الهتمي "النقعة"، ويفسر البيت على أساس ذلك. وخالفه سيدي يحيى وأخذ برأي الإمام السنباطي الذي كتب "الفقعة" وفسر البيت على أساس ذلك. ويذكر سيدي يحيى في الشرح رأي الشيخ الهيتمي كذلك. وفي النسخة الحسنية كُتب "النقعة".
[9] سورة يس، الآية 78.
[10] سورة القصص، الآية 15.
[11] ذكره ابن كثير في "السيرة النبوية".
[12] في النسختين الصبيحية والعزيزية كتبت "المتأثر بها عادة"، وكتبتها كما جاءت في النسخة الحسنية وفي المخطوط المرجعي.
[13] السنباطي، مخطوط شرح الهمزية، ص.22.
[14] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1259، بالتصرف.

صفة للنقعة[15]، من قولهم بردة شوكاء أي خشنة الملمس، أي ما أعجب هذه القتلة الشديدة التي حصلت له من تلك الشوكة القليلة التأثير عادة، فلله درها من شوكة"[16].

وكذلك قضت على الحارث مولى الطلاطلة القيوح، فأهلكته من كثرة سيلانها حتى قتلته. وذكر السيوطي عند قوله تعالى "إنا كفيناك المستهزئين"[17]، أن خامس هذه الخمسة عدي بن قيس. وضمير بها يعود إلى القيوح، وساء للذم بمعنى بيس[18]، أي "قبُح ذلك الرأس الذي هو وعاء لتلك القيوح. والوعاء فاعل ساء، وبين سال وساء الجناس الناقص"[19]، قاله ابن حجر، ثم قال: "وفي الختم بساء الوعاء، تذييل هؤلاء الملاعين"[20].

ثم قال [الناظم]:

خمسةٌ طُهِّرَت بِقَطْعِهِمُ الأرْ --- ضُ فَكَفَّ الأذى بِهِمْ شَلَّاء

فُدِيَت خَمسةُ الصَّحيفَةِ بالخَمْـ --- سَةِ إن كـان للكِرامِ فِداء

[في] القاموس: "الكف: اليد، أو إلى الكوع"[21]. شبّه الأذى بالشخص تشبيها مضمرا في النفس، وأثبت له شيئا من لوازم المشبه به، وهو الكف، وأخبر عنها أنها شلاء، [وفي] القاموس: "الشلل محركة: اليبس في اليد، أو ذهابها"[22].

وفديت بالبناء للمفعول، يُقال فَداك أي بفتح أوله فيقصر، وبكسره فيمد ويقصر، وهو دُعاءٌ متضمن معنى التعظيم، وهو هنا إنشاء.

والمعنى: لو أمكن أن يكون أحد فداء لأحد من الموت أو النار، لسألت الله [عز وجل] أن يكون هؤلاء اللئام فداءً للكرام الآتي ذكرهم، لكونهم بذلوا أنفسهم في أمر

---

[15] لم ترد في المرجع المطبوع.
[16] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.234. ونجد فيه قول الشيخ السنباطي السابق: "الشديدة التي حصلت له من تلك الشوكة القليلة التأثير عادة".
[17] سورة الحجر، الآية 95.
[18] كقوله تعالى في سورة الكهف، الآية 29، بقراءة ورش عن نافع: "بيس الشراب وساءت مرتفقا".
[19] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.234.
[20] نفس المرجع السابق.
[21] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1425.
[22] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.883.

عظيم، بسعيهم في نقض الصحيفة الضالة القاطعة للنبي ﷺ ورهطه، ولم يسلم من هؤلاء الخمسة إلا هشام وزهير. وقصة الصحيفة المشهورة متواترة، حدث أهل السير أن قريشا لما رأوا عزة النبي [ﷺ] بمن هاجر من أصحابه إلى الحبشة واستقرارهم فيها، وبإسلام حمزة وعمر بعده بثلاثة أيام، وانتشر الإسلام ورأوا أنه سيظهر عليهم، أجمعوا على أن يقتلوا النبي ﷺ، فبلغ ذلك أبا طالب فمنعهم منه، فأتوا إليه بعمارة بن الوليد وقالوا: "هذا أنهد[23] فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله واتخذه ولدا، وسلم لنا ابن أخيك الذي خالف دينك فنقتله، فإنما هو رجل كرجل". قال [أبو طالب]: "لبيس ما تسومونني به، تعطوني ابنكم أغدوه لكم وأعطيكم ابن أخي تقتلونه؟ هذا ما لا يكون والله أبدا". فجمع بني هاشم وبني المطلب فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ومنعوه ممن أراد قتله، وأجابوه إلى ذلك، حتى كفارهم حمية. "فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا، وائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على ألا يُنكحوا بني هاشم وبني المطلب ولا يَنكحوا منهم، ولا يبيعوا لهم شيئا ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحا أبدا حتى يسلموا لهم رسول الله ﷺ للقتل. وكتبوا ذلك في صحيفة قيل بخط النضر بن الحارث، وقيل بخط منصور بن عكرمة فشُلّت يده، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة تأكيدا في حفظها وبقائها، وكان ذلك في المحرم سنة سبع من النبوة. فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شعبه، إلا أبا لهب فكان مع قريش. فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهدوا، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرا، حتى أن حكيم بن حزام حمّل غلامه طعاما يريد به عمته خديجة رضي الله عنها، فلقيه أبو جهل فتعلق به وأراد أن يفضحه، فانتصر له أبو البختر بن هشام وقال: "خل سبيله"، فأبى، فأخذ لحى جمل فضربه به فشجه ووطئه وطأ شديدا"[24]. فلما أراد الله أن يكبتهم وينصر نبيه [ﷺ]، قام هؤلاء الخمسة في نقض الصحيفة، "وكان رئيسهم في ذلك هشام بن الحارث، لقربه بعمه لأمه الذي هو أخو عبد المطلب، ومن ثم كان يواصل بني هاشم، فكان يأتيهم ليلا بالبعير وعليه الطعام إلى فم الشعب، فيخلع خطامه ويضربه حتى يدخل.

---

[23] بمعنى سخي كريم شجاع ذو نجدة ومروءة.

[24] ابن هشام، السيرة النبوية، ج.1، ص.375 إلى ص.379.

ولعزة هشام بعمه هذا، مشى إلى زهير بن عاتكة بنت عبد المطلب فقال له: -أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث علمت؟-، وشدَّد عليه حتى قال: -لو وجدت رجلا معي لنقضتها-، فقال: -أنا معك-، قال: -أبغنا[25] ثالثا-. فذهب إلى المطعم بن عدي واستجاره حتى قال: -لو وجدت رجلا معي-، قال: -أنا-، قال: -أبغنا ثالثا-، قال: -وجدت زهيرا-، قال: -أبغنا رابعا-، فذهب إلى أبي البختري واستجاره أيضا فقال: -هل معين؟-، فذكر له الثلاثة، قال: -أبغنا خامسا-، فذهب إلى زمعة بن الأسود واستجاره، فقال: -هل من أحد؟-، فذكر له الأربعة، فاجتمعوا بالحجون ليلا، وأجمعوا على نقضها، فقال لهم زهير أنا أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير في حلة، فطاف بالبيت سبعا ثم أقبل على الناس فقال: -يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم فيما ترون؟، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الضالة القاطعة-، فقال له أبو جهل: -كذبت، والله لا تشق-، فقال زمعة: -أنت والله أكذب، ما رضينا كتبها حين كتبت-، وقال أبو البختري: -صدق زمعة، ما نرضى ما كتب فيها وما نقر به-، وقال المطعم بن عدي: -صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها-، فقال أبو جهل: -هذا أمر قضي بلَيل تَشَوَر فيه بغير هذا المكان-، وأبو طالب جالس، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا -باسمك اللهم-"[26]. وكان ﷺ قبل ذلك أخبر بها عمه أبا طالب، فأخبر بذلك قريشا فوجدوها كما قال، فازدادوا هما وغما لذلك.

ثم شرع [الناظم] في ذكر الخمسة الذين نقضوا الصحيفة:

فِتْيَةٌ بَيَّتوا على فِعْلِ خيرٍ --- حَمِدَ الصُّبحُ أمرَهُ والمَساء

يا لَأَمْرٍ أتــاهُ بَـعْدَ هِشـامٍ --- زَمْـعَـةٌ إنــهُ الفَـتى الأَتّـاء

فتية جمع فتى، وبيتوا على فعل، أي عزموا عليه ليلا وباتوا مُصرّين على إنفاذه،

---

[25] في النسخة العزيزية كُتبت "أبلغنا" وهكذا في كل ما يتبع، وكتبتها كما في "المنح المكية" وفي النسختين الحسنية و الصبيحة.

[26] ابن حجر الهيثمي، المنح المكية، ص.236 و237، بالتصرف.

وهو نقض الصحيفة، والمخاطرة دونه بالنفوس، لشدة حرص قريش على إبقائها مع كثرتهم وعتوهم. وحمد الصبح أمره والمساء أي هو محمود فيهما، "وإسناد الحمد لهذين الزمنين مجاز، دل على شدة مبالغة وقوع الحمد وطلبه على فعل الخير، أي هذا الأمر محمود في كل منهما، فهو كقولهم -نهاره صائم وليله قائم-، وفيه إشارة إلى وقوع الحمد في الصباح لنقض الصحيفة فيه، وإلى وقوعه في المساء للتبييت على ذلك"[27]، قاله ابن حجر. وأقرب منه أن يقال هو على حد "وسل القرية"[28]، أي حمده أهل الصبح وأهل المساء.

ويا لَأمر بفتح اللام: نداء على طريق الاستغاثة، تنزيلا له منزلة العاقل مبالغة في تعظيمه، وبعد ظرف لإتيان زمعة وهشام، وهو ابن عمرو بن ربيعة العاصي، أسلم عام الفتح وشهد حُنينا، وأعطاه النبي ﷺ من غنائمها خمسين بعيرا. وزمعة بن الأسود بن المطلب المتقدم بن أسد، فاعل أتي، ويجوز في همزة أنه الفتح، بتقدير لام العلة والكسر على أنه تعليل مستأنف، كما قُرأ بهما قوله تعالى "إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البَرُّ الرحيم"[29]. والفتي: الشاب السخي الكريم، والأتاء مبالغة في كثرة الإتيان لمن يستنجد.

ثم قال [الناظم]:

وزُهَيْرٌ والمُطْعِمُ بنُ عَدِيّ --- وأبو البَخْتَرِيّ مِن حيثُ شَاوُوا

نَقَضُوا مُبْرَمَ الصَّحيفَةِ إذْ شَدَّ --- تْ عليـهِ مِنَ العِدا الأَنْـداء

زهير هو ابن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، وزهير هذا هو أخو أم سلمة زوج النبي ﷺ. ومن حيث ظرف للمكان الذي اختاروه واجتمعوا فيه لتدبير أمرهم، وهو الحَجون.

ونقضوا بدل من بيتوا أو من أتاه، أي نقضوا إبرام الأمر الذي عقدت عليه قريش،

[27] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.238. في المرجع المطبوع كتب فقط "وإسناد الحمد لهذين الزمنين مجاز، دل على شدة مبالغة وقوع الحمد وطلبه على فعل ذلك الخير".
[28] سورة يوسف، الآية 82، برواية ورش عن نافع.
[29] سورة الطور، الآية 28.

من قطعهم القوت والمنافع عن بني هاشم وبني المطلب، وهو معنى قوله إذ شَدّت عليه من العدا بالبناء للمفعول. والأنداء جمع نادٍ، قال ابن حجر:" وهو العشيرة، وأصله المكان الذي يجتمع فيه للتحدث، فسمي من فيه باسمه"[30]، ومنه "فليدع ناديه"[31]، ومن العدا حال من الأنداء.

والمعنى أن الأنداء صممت[32] على منعه من المنافع، أي حبست عنه ذلك حال كونها من العدا، والأنداء جمع ندى كفتى أي النوال، وفي القاموس: "تندى أي تسخى"[33]، وإذ ضرف وتعليل للنقض.

ثم ذكر [الناظم] أن لأكل الصحيفة نظير فقال:

أَذْكَرَتْنا بِأَكْلِها أَكْلَ مِنْسَا --- ـةِ[34] سُلَيمانَ الأرَضَةُ الخَرْساء

فاعل أذكرتنا عائد على الصحيفة، وبأكل مصدر مضاف إلى المفعول العائد على الصحيفة، وباؤه للسبب. وأكل الثاني مفعول ثاني لأذكرتنا، وهو مصدر مضاف إلى المفعول أيضا، والأرضة فاعله، وعلى هذا فالصحيفة [هي] المُذكرة في أكل المنساة. ويحتمل أن الأرضة فاعل أذكرتنا، وأكل الأولى مضاف إلى الفاعل العائد على الأرضة، ومفعوله محذوف أي الصحيفة.

والمعنى على هذا: أذكرتنا الأرضة بأكلها الصحيفة، أكلها منساة سليمان نبي الله عليه الصلاة والسلام. والمنساة مفعل من نَسَأَ كمنع، أي زجر، وفي القاموس: "منساة كمكنسة ومرتبة، وبترك الهمز فيها: العصا، لأن الدابة تنسأ بها. وقول الفَرّاء: -يجوز-، يعني في الآية -من سأته-[35] بفصل -من- على أنه حرف جر، والسَّأة لغة في سِيَةِ القوس، فيه بُعد وتعجرف"[36]. والأرَضة بفتح الراء وقد تُسكن،

---

[30] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.240.
[31] سورة العلق، الآية 17.
[32] في النسخ الثلاث كُتبت "تصممت".
[33] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1597.
[34] هكذا ترد في سورة سبأ، الآية 14، برواية ورش عن نافع. وفي "المنح المكية" المطبوع كتبت هكذا كذلك.
[35] خلافا لما يفهم من المرجع، نفى يحيى بن زياد المعروف بالفراء، أن تكتب بالتقطيع ولم تثبت عنده قراءة سعيد بن جبير (أنظر: أبو الفتح عثمان بن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، دار الكتب العلمية-لبنان-، الطبعة الأولى 1998، ج.2، ص.231.)
[36] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1603.

دويبة تأكل الخشب أكلا ذريعا، ووصفها بالخرساء تعجيبا من شأنها، إذ الأخرس ليس من شأنه أن يُذكِّر[37] ما نُسي. وإثبات الخرس لها مجاز إذ لا يصح وصف الشيء بصفة إلا إذا قبل ضدها، فلا يقال في الحائط أعمى لعدم قبوله البصر. ووجه ذكر المنساة هنا مع الصحيفة، التنبيه على بطلان علم الكهنة وشُبَهِهم، واختصاصه ﷺ بالعلم الحقيقي اللدني.

والمعنى أن هذه الصحيفة حيث أُكلت، ولم يشعر بها أحد ممن يدعي الاطلاع على المغيبات، كالكهنة وأهل العرافة وغيرهم، حتى أخبر بها ﷺ فوجدت كذلك، أحضرت في بالنا بعد نسياننا، قصة منساة سليمان بن داوود نبي الله عليهما الصلاة والسلام، لما مات وهو متكئ عليها قائما، وبقي كذلك والجن يعتقدون حياته، مدمنين على ما سخرهم فيه من الأعمال الشاقة عليهم سَنَةً، وما علموا موته حتى خر ساقطا حين أكلت الأرضة منساته، فأيقنوا أنهم كاذبون في ادعائهم علم الغيب، كما نص تعالى ذلك في كتابه العزيز، فنَفيُ علم الجن مستلزم لنفي علم الكهنة لتوقفه عليه، وفي هذا أقوى دليل على أنه لم يَطلع على حقيقة الغيب إلا من علمه الله علم الحقائق، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لاسيما مَن هو سيد الأولين والآخرين [ﷺ]، وأفضل الخلق أجمعين على الإطلاق.

ومن ثم قال [الناظم]:

وبِها أَخْبَرَ النبيُّ وكَم أَخْـ --- ـرَجَ خَبْأً لهُ الغُيُوبُ خِباء

ضمير بها راجع إلى الصحيفة على تقدير مضافٍ، أي بأكلها أخبر النبي، وهو سيدنا محمد ﷺ، عمَه أبا طالب كما سبق، فزادت قريشا هما وغما وكبتا حين وجدوها كما قال. وكم للتكثير، كقوله تعالى "وكم أرسلنا من نبيء في الأولين"[38]. وفاعل أخرج أي أظهر ضمير يعود إلى النبي ﷺ، وخبأ مفعول وهو ما سُتر وغاب، ومنه قوله تعالى "الذي يخرج الخبء"[39]، ومنه الخِباء لأنه يُستتر فيه من الحر والقر[40].

---

[37]بمعنى أن ينطق فيذكر الناس بما نسوا.
[38]سورة الزخرف، الآية 5، برواية ورش عن نافع.
[39]سورة النمل، الآية 25.
[40]أي البرد.

والغيوب جمع غيب مبتدأ، وخباء أي ساتر خبره، وبه يتعلق المجرور قبله.

والمعنى أنه ﷺ أظهر كثيرا من المغيَبات، بالإخبار عنها قبل وقوعها أو بعده مما غاب عنا، كما في القرآن مما لا يحيط به حد من قصص ووعد ووعيد، وكإخباره ﷺ بالشهداء في الغزوات، وبالنجاشي يوم مات وصلى عليه مع أصحابه، وبموت عمر وعثمان شهيدين، وبانقطاع ملك كسرى بعده، وقيصر من العراق والشام، ونحو ذلك مما لا حد له. ومما يجب اعتقاده أن الباري سبحانه هو المنفرد بعلم الغيب والمختص به، وإنما أكرمَ من شاء من عباده ببعض منه، فيُحدِّثون به بصدق، قال تعالى "وما ينطق عن الهوى"[41] الآية. وذلك من مواهبه [عز وجل] وتفضله على من شاء، ولا قدرة للعبد عليه، قال أبو حامد الغزالي في "المنقذ من الضلال": "اعلم أن وراء مدرَك المحسوسات مدركا هي معزولة عنه وهو العقل، وكذلك وراء العقل مدرك العقل معزول عنه، فيدرك به الغيب، وقد أعطى الله تعالى أنموذجاً من هذا للنائم، حيث تزول مدركات العقل، يدرك به الغيب. ودليل وجود النبوءة، وجود معارف لا تدرك بالعقل كعلم الطب والنجوم، إذ من أحكام النجوم ما لا يقع إلا في ألف سنة مرة، فكيف يُنال ذلك بالتجربة؟ وكذلك خواص الأدوية. وللنبوءة خواص سوى هذه تدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف، وإنما فَهِمتُ هذا بأنموذج رُزقته وهو النَّوْم. ويكفيك للإيمان بأصل النبوءة هذه الخاصية، فإن شككت في حصولها لشخص معين فلا يحصل لك اليقين إلا بمعرفة أحواله، فأكثر النظر في القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضروري في كونه ﷺ في أعلى درجات النبوءة. وأعظمُ ذلك بتجربة قوله وكيف صدق في جميع أحاديثه، كقوله ﷺ: "من عمل بما علم، علمه الله علم ما لم يعلم"، وقوله [ﷺ]: "من أعان ظالما على ظلمه، سلطه الله عليه"، وقوله [ﷺ]: "من أصبح وهمومه واحد، كفاه الله هم الدنيا والآخرة"، فإذا جربت ذلك في ألف أو آلاف حديث، حصل لك علم ضروري بنبوته ﷺ، فمن هذه الطريق أطلب اليقين، لا من قلب العصا ثعبانا وانشقاق القمر، فإنك إن نظرت إلى ذلك وحده ولم تنظر للقرائن الخارجة عن الحصر، ربما ظننت أنه سحر أو تخيل، أو إضلال

[41]سورة النجم، الآية 3.

من الله [عز وجل] فإنه يضل من يشاء، وينجزم إيمانك بكلام قريب في شبهة عن المعجزة، بل اجعلها إحدى القرائن، فتكون كمن أُخبرَ بخبر تواتر، لا يمكنه أن يقول أن اليقين مستفاد من قول معين، بل من حديث لا يُدرى"[42].

ثم قال [الناظم]:

لا تَخَلْ جانبَ النَّبيِّ مُضاماً --- حين مَسَّتهُ مِنهُمُ الأَسْواء

تخل مضارع خال الشيء خيلا ومخيلة أي ظنه وجانب، قال ابن حجر: "هو في الأصل شق الإنسان، وأريد به هنا كله، تعبيرا لبعض عن الكل، فالإضافة فيه بيانية"[43]. ومضاما اسم مفعول من الضيم، أي مُضيَّعا، وكان قياسه على وزن مفعول لأن فعله ثلاثي، لكنه سمع هكذا، وفي القاموس: "ضامه حقه يضيمه ضيما: انتقصه، فهو مضيم"[44]. البأساء، وفي نسخة الأسواء[45]، أي الإذايات الكثيرة التي كانت تصل إليه ﷺ منهم، كضربه وخنقه وإغراء سفهائهم به يرمونه بالحجارة حتى سال الدم من رجله الكريمة على نعله، إلى غير ذلك مما لا يطيقه غيره.

والمعنى أنك إذا سمعت أن أعداءه مسوه بسوء، فلا تظن أن ذلك نَقْص في حقه أو

---

[42] الإمام الغزالي، المنقذ من الضلال، ص.182. بالتصرف، أو النص المطبوع مختلف عن نص مرجع سيدي يحيى، حيث يوجد اختلاف كذلك في المعنى.
وقول الإمام الغزالي: "وجود معارف لا تدرك بالعقل كعلم الطب والنجوم، إذ من أحكام النجوم ما لا يقع إلا في ألف سنة مرة، فكيف يُنال ذلك بالتجربة؟ وكذلك خواص الأدوية"، يتنافى حاليا ما توصلت إليه علوم الفلك والكيمياء والصيدلة من معارف تؤكّد بالتجربة والملاحظة والمراقبة، فعلم الفلك المعاصر يتمكن من التنبؤ بالظواهر الفلكية قبل حدوثها في المنظومة الشمسية، وخواص الأدوية تخضع للتحليل والتمحيص والتجربة، وتصنع منها المركبات العلاجية. وبالطبع لم يكن الإمام الغزالي على اطلاع بأعمال كاليليو ونيوتن، فقد سبقهما بعدة قرون من الزمن، وكلامه يؤخذ على ما توفر من علوم وقته، فإن استثنينا هذه الفقرة من كلامه، يبقى غيره مقبولا. ويُحسب للإمام الغزالي تحدثه عن "التجربة" كمكون أساسي لمنهج العلوم الدقيقة، والتي تعتمد على ثلاث مراحل وهي: 1- ملاحظة الظاهرة، 2- إنشاء النظرية التفسيرية للظاهرة، 3-التجربة لتأكيد صحة النظرية.
وقد تعدد التعارض بين العلم الحديث وبين آراء أعلام الصوفية في عدة مراجع، لا مجال هنا لذكرها، ولكن ما تأكد لي هو أن مشايخ الصوفية، إذا كان الله عز وجل وهب لهم بعض الكشف من الحقائق المغيبة في وقتها، فإنهم لم يحيطوا بالمكاشفة المطلقة، ولم يتوصلوا إلى المعرفة التامة لمغيبات عصرهم وزمانهم، وقد قال عز وجل في سورة الإسراء "وما أوتيتم من العلم إلا قليلا"، فسرها ابن كثير: "وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى"، وجاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه، من قصة موسى والخضر عليهما السلام، حيث قال الخضر لموسى: "ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر".

[43] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.246.

[44] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.988.

[45] يبدو من خلال نص الشرح أن البيت يحتمل كذلك "البأساء" مكان "الأسواء"، وكُتب البيت بهذه الأخيرة. وفي الشرح كَتب المؤلف "البأساء" وأضاف: "وفي نسخة الأسواء"، والمنطقي أن يكتب "الأسواء، وفي نسخة البأساء"، حتى يوافق كِتابته للبيت، فلربما هو سهو من المؤلف.

عدم غيرة الله [عز وجل] عليه كَلَّا، بل لم يزل مقامه ﷺ الرفيع وجانبه المعظم المنيع محروسا منصورا، فلأعدائه بوقوع ذلك منهم شدة الوبال، وله بصبره وتفويضه الارتقاء في درجات الكمال، قال تعالى "من كان يظن أن لن ينصره الله"[46] الآية، وقال تعالى "وينصرك الله نصرا عزيزا"[47].

ولا يقع بالأنبياء من الأعراض إلا ما فيه كمال لهم، ومن ثم قال [الناظم]:

كلُّ أمرِ نابَ النَّبِيِّينَ فالشِّدَّ --- ـةُ فيه محمودةٌ والرَّخاء

أي كل ما يصيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مما يجوز في حقهم، فالشدة أي المحنة فيه، أي في ذلك الأمر، محمودة عاقبتها، لأنها كمال لهم لصبرهم عليها وتسليمهم ورضاهم بها، حتى لا يصل إلى قلوبهم من إذايتها قلامة ظفر، ولا أقل منها. وكذلك الرخاء، أي العافية الحاصلة لهم، فيها النعمة[48] محمودة العاقبة أيضا، لكثرة شكرهم عليها، وصرف جميع مسبِّباتها في مرضاة الله [تعالى]، واعترافهم بأنهم لا يستحقون شيئا منها لتمحُّضِ عبوديتهم، وإنما ذلك كله محض تفضل وإحسان منه سبحانه. والشدة الجائزة عليهم، مختارة من الحق لهم لا لهوانهم، بخلاف أعدائهم فلا خير لهم في الحالين.

ثم استدل [الناظم] على أن كل ما يُصيبُ الأنبياء من الشدائد فهو كمال لهم بقياس أشار له بقوله:

لَوْ يَمَسُّ النُّضَارَ هُونٌ من النَّا --- رِ لَمَا اخْتيرَ للنُّضَارِ الصِّلاء

النُّضار بضم أوله: الخالص من التِّبر[49]، وأما النَّضار بالفتح فيطلق على الذهب أو الفضة، والمراد الأول لأنه أجود. والهُون بضم أوله: الهوان والاحتقار، والصّلاء بكسر أوله وفتحه: دخول النار، ولو هذه عند البيانيين حرف وجود لامتناع، أي وجد

[46] سورة الحج، الآية 15.
[47] سورة الفتح، الآية 3.
[48] في النسخة الصبيحية كُتبت "النقمة"، وهو خطأ نسخ.
[49] أي الذهب كله، خال من الشوائب والرواسب.

اختيار[50] الصلاء فيه لامتناع الهوان، فالقياس استثنائي، أي لو حصل للنضار هوان بصلائه النار ما صُلي، لعزته عن النفوس ورفعته، لكن الهوان ممنوع، فالصلاء مختار له لزيادة جودته وتصفيته، وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر.

والمعنى: كما أن النار لا تزيد الذهب إلا جودة وحُسنا، فكذلك الشدائد للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لا تزيدهم إلا عزا ورفعة، ومن ثم قال ﷺ: "أشدكم بلاء الأنبياء"[51] الحديث. وصح عنه ﷺ أنه قال: "إن المومن بخير على كل حال، وإن نفسه تُنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل"[52]. قال أهل الإشارات[53]: "يرى أن المحنة منة، ولا شك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أولى الخلق بذلك وأحسنهم ظنا بالله تعالى.

ثم لما نهى [الناظم] عن ظن وصول الضيم للنبي ﷺ، استدل على نفيه بقوله:

كَمْ يَدٍ عَن نَبِيِّهِ كَفاها اللهُ --- وفـي الخَلْقِ كَثْرَةٌ واجْتِراء

إذْ دَعا وَحْدَهُ الأنامَ فأمسَتْ[54] --- منهُ في كلِّ مُقْلَةٍ أَقْذاء

كم للتكثير، واليد هنا: الجارحة المتعدية، وكفاها أي منعها وخذلها من أن تصل إليه بسوء قصدته به، والواو للحال أي عصمه الله من أعدائه الذين يريدون إذايته، والحالة أن فيهم عدد كثير وجموع، واجتراء وهو التشجع، وإذ ظرف للكف.

ودعاؤه إياهم: أمرهم بعبادة الله وحده وترك ما هم عليه من الجهالات والأباطيل والضلالات، ووحده حال من فاعل دعا العائد إلى النبي ﷺ، والأنام: الخلق أو الجن والإنس أو جميع ما على وجه الأرض. وأمست أي حصلت، "والمقلة: شحمة العين

[50]في النسخة العزيزية : "وجد الصلاء فيه". والنص في النسخة الحسنية والنسخة الصبيحية أبلغ للمعنى، وهو الذي اعتمدته.
[51]صحيح الإمام الترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
[52]صحيح الإمام النسائي عن عبد الله بن العباس رضي الله عنه.
[53]الصوفية.
[54]في "المنح المكية" المطبوع ص.248، وفي النسخة العزيزية كتبت: "إذ دعا وحده العباد وأمست"، واعتمدت لفظ النسختين الحسنية والصبيحية. وليس هناك اختلاف في المعنى، حيث أن العباد تطلق لغةً على المؤمنين والكافرين. وأما في تفسير البيت فنجد أن العلامة الشبيهي في النسخ الثلاث يفسر "الأنام" وليس "العباد".

التي تجمع البياض والسواد، أو هي البياض والسواد، أو الحدقة"[55]، وهذا وما قبله من القاموس. و"الأَقذاء بفتح الهمزة: جمع قَذى بفتح القاف والمعجمة وهو كل ما يقع في العين مما يؤلمها ويكدرها، وذلك أنه ﷺ في ابتداء أمره، مع وحدته وقلة عضده وضعف ناصريه، كان يدعوهم إلى الإيمان بالله وعبادته وحده، وينادي عليهم في أنديتهم بسب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، ورميهم بما فيهم من الأسواء، فكانوا يبالغون في إذايته والتجرؤ عليه، حتى أقرب الأقارب إليه كعمه أبي لهب، لكثرتهم ووحدته"[56]. كما صح عند الترمذي وغيره أنه ﷺ قال: "ولقد أُخِفت في الله وما يُخافُ فيه أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى فيه أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين ليلة ويوم، ما لي ولبِلال طعام يأكله ذو كبد، إلا شيء يواريه إبط بلال"[57]. وكان ﷺ مع ذلك متماديا على ما هو مأمور به، محروس بحرس الله، محفوظ بحفظه وكلاءته، غير مكترث بإذايتهم وأقوالهم، ولا يزداد إلا ظهورا عليهم ونصرا وعلوا، وأصحابه يكثرون وأعوانه يزيدون، إلى أن أمكنه الله تعالى من جميع أعدائه ونواحي بلادهم وأقطارهم، فاستعار [الناظم] القذى لما كانوا يرونه منه ﷺ مما يكرهونه ولم يقدروا له بشيء، كما استعارهُ لما أصابهم في بصائرهم حين كثر عليهم الهوان منه والذل، حتى هَمَّ كثير منهم بقتله [ﷺ]، وعليه نبه [الناظم] بقوله:

هَمَّ قَومٌ بِقَتلِهِ فأَبَى السَّيْـ --- ـفُ وفـــاءً وَفَاءَتِ الصَّفْواء

وأَبُو جَهْلٍ إذ رَأَى عُنُــقَ الفَحْـ --- ـلِ إلـيهِ كَـأَنَّهُ العَـنْقاء

استدل الناظم بهذه المعجزات على عصمة الله تعالى لنبيه ﷺ، المفهوم من قوله السابق كم يد، قال تعالى "والله يعصمك من الناس"[58]. والاهتمام بالشيء: الاعتناء به والقصد إليه، وإباية السيف: امتناعه من وفاء ما أرادوا منه من القتل به. وأشار بهذا إلى قصة الأعرابي الذي وجد النبي ﷺ نائما تحت شجرة، "فاخترط سيفه ثم قال له: -من يمنعك مني؟-، قال [ﷺ]: -الله عز وجل-، فرَعِدت يده وسقط السيف

---

[55] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1548.
[56] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.248.
[57] أخرجه الأئمة الترمذي وابن ماجة وأحمد، عن أنس رضي الله عنه.
[58] سورة المائدة، الآية 67.

وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه"[59]، نقله الهيتمي. وصح أن "عروة بن الحارث اخترط سيفه وهو[ﷺ] نائم، فاستيقظ فوجده في يده صلتاً، فقال: -من يمنعك مني؟-، قال[ﷺ]: -الله-، فسقط السيف من يده فأخذه ﷺ وقال: -من يمنعك مني؟- فقال: -كُن خير آخذ-، فعفى عنه. فرجع إلى قومه وقال: -قد جئتكم من عند خير الناس-. وكان رجلا سيد قومه شجاعة، فأغروه على قتله فجاءه، ثم رجع إليهم مسلما، فأنكروا عليه فقال: -نظرت إلى رجل أبيض طويل، دفع في صدري فوقعت لظهري، فسقط السيف من يدي، فعلمت أنه مَلك وأسلمت-"[60]. وبين وفاء وفاءت أي رجعت، جناس لاحق. والصفواء جمع "صَفَوات، الذي هو جمع الصَّفاة: وهو الحجر الصلد الضخم الذي لا يُنبت"[61]، كما في القاموس.

وأبو جهل معطوف على الصفواء، أي رجعت الصفواء ورجع أبو جهل الذي رمى بها، لما امتنعت مما أراده منها من القتل بها، بل جمدت في يده حين أراد الرمي بها حتى قذفها، وإذ ظرف أو تعليل للرجوع. وأشار [الناظم] بهذا إلى ما ذكره أهل السير: "إن أبا جهل، وهو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي، اجتمع مع قريش يوما، فجاءهم النبي ﷺ وبالغ في إنذارهم وتسفيه أحلامهم وسب آلهتهم، فأظهروا له شدة الإباء والتمنع والتعنت، فانصرف عنهم متأسفا، فقال لهم أبو جهل: -يا معشر قريش، إن محمدا قد أبى ألا ما ترون، وإني عاهدت الله لأجلسن له غدا بحجر ما يطيق حمله، فإذا سجد في صلاته رضخت به رأسه، فامنعوني عند ذلك أو أسلموني، وليصنع في بنو عبد مناف ما بدا لهم-، قالوا: -والله لا نسلمك[62] لشيء أبدا-. فلما أصبح، أخذ اللعين حجرا كما وصف، فلما سجد النبي ﷺ كعادته، وقريش ينظرون، احتمل اللعين الحجر ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه، رجع منهزما منْتَقِعا لونه مرتعبا، يبست يداه على حجره حتى قذفه. فقاموا فقالوا: -مالك يا أبا الحكم؟- قال: -قمت لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت هامته ولا مثل صورته وأنيابه لفَحْلٍ قط، فهم بي أن يأكلني-.

[59] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.250.
[60] ذكره البيهقي في "دلائل النبوة".
[61] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.936، بالتصرف.
[62] في النسخة العزيزية "لا نسألك شيء أبدا".

فذُكر أنه ﷺ قال: -ذلك جبريل، لو دنا مني لأخذه-"[63]. "والعنقاء: الداهية، وطائر معروف الاسم مجهول الجسم"[64]، قاله في القاموس. "وبينه وبين عنق جناس الاشتقاق أو شبهه"[65]، قاله ابن حجر.

ومعجزاته عليه الصلاة والسلام، لا تحصرها الأقلام ولا تحيط بها جهابذة الأعلام.

63ابن هشام، السيرة النبوية، ج.1، ص.298 و299، بالتصرف.
64الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1152.
65ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.151.

الفصل السادس: من البيت 109 إلى البيت 129

ثم قال [الناظم]:

واقْتَضَاهُ النبيُّ دَيْنَ الإرَاشِيِّ --- وقدْ ســاءَ بَيْعُــهُ والشِّراء

ورَأى المُصطَفى أَتاهُ بِما لَم --- يَنْجُ مِنهُ دُونَ الوَفَاءِ[1] النَّجَّاء

"اقتضى معطوف على هم"[2] والنبيُّ فاعله، أي قبض منه الدَّيْنَ. والإراشي بكسر الهمزة: هو كهلة بن عصام بن كهلة بن إراش بن الغوث، قدم مكة بإبل له ليبيعها فاشتراها منه أبو جهل، وكان لعنه الله سيئ المعاملة فماطله، ومن ثم قال [الناظم] وقد ساء أي قَبُح بيعه والشراء، و-الـ- فيه خلف عن الضمير أي وشراؤه. وقصة ذلك أن الإراشي هذا، لما ماطله أبو جهل وظهرت منه الإساءة، وقف على نادي قريش فقال: "مَن رجل يخلصني من أبي الحكم؟ فإني غريب وابن السبيل وقد غلبني على حقي"، فقالوا: "لا يخلصك منه إلا ذلك الرجل" يريدون النبي ﷺ. قالوا ذلك استهزاء به لما يعلمون بينه وبينه من العداوة. فجاء [الإراشي] إلى النبي [ﷺ] فقال: "يا عبد الله، إن أبا الحكم قد غلبني على حقي، وقد سألت أولئك القوم فأشاروا إليك، فخلصني منه يرحمك الله"، فقام معه [ﷺ] ليخلصه منه، فاتبعه واحد منهم لينظر ما يصنع، فضرب النبي ﷺ بابه عليه فقال: "من ذا؟"، قال: "محمد، فاخرج إليَّ"، فخرج إليه وقد انتقع لونه فقال [ﷺ]: "اعط هذا الرجل حقه"، قال: "نعم لا يبرح حتى يأخذه"، فدخل وأخرجه إليه. فجاء إلى أولئك القوم فأخبرهم بما وقع، فجاء أبو جهل فقالوا له: "ويلك، والله ما رأينا مثل هذا الذي صنعت قط"، قال: "ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب على بابي فسمعت صوته، فمُلئت رعبا، ثم خرجت إليه، وإن فوق رأسي لفحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا صورته ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لأكلني". وإليه أشار [الناظم] بقوله ورأى المصطفي، فهي إما بصرية والفاعل ضمير يعود إلى أبي جهل والمصطفي مفعول وما بعده حال منه أو من فاعل رأى،

---

[1] في "المنح المكية" كتبت "الوفا" بدون همزة، ويبرره الشيخ ابن حجر ويقول به مقصورا.
[2] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.252.

وإما علمية وجملة أتى في موضع المفعول الثاني. ودون هنا بمعنى غير، قال في القاموس: "قيل: ومنه -ليس فيما دون خمس أواقي صدقة-، أي في غير خمس أواقٍي"[3].

والنجاء بتشديد الجيم مع قصر: الوفاء، وبتخفيفها مع مده: فاعل يَنجُ بفتح ثم ضم، أو بضم ثم فتح أو كسر، بتخفيف الجيم في الجميع، من نجا ينجو فهو ناج، أو أنجا يُنجي فهو منج، أو ينجا فهو منجاً، ولا يجوز فيه ينجا بالتضعيف لفساد الوزن[4].

والمعنى على التشديد: لا ينجوا من ذلك الفحل مَن كثرت نجاته من الأمور الصعبة بدون الوفاء، أو لا ينجا من كثر إنجاؤه لغيره أحد بدون الوفاء، أو لا يُنجى بالبناء للمفعول كذلك وعلى التخفيف، لم يَنجُ منه النجاء أو لم يُنجِ أو لم يُنجَ، فالصُّوَرُ سِتٌّ.

هُوَ ما قد رَآهُ مِن قبلُ لَكِنْ --- ما علَى مِثْلِهِ يُعَدُّ الخَطَاء

يعني [الناظم] أن الفحل الذي رآه أبو جهل في قضية الإراشي، هو الذي رآه قبل ذلك في قوله وفاءت الصفواء. ولكن استدراك واستغراب، وأنه لا يُعد بالبناء للمفعول تمادي مثل هذا اللعين على عتوه السالب لعقله، وعناده الموجب لإهلاكه. خطاء بالمد لغة فيه، وهو نائب الفاعل، وفي القاموس: "الخَطْء والخَطَأ والخَطاء: ضد الصواب"[5]، إذ صدور مثل هذا الفعل من هذا اللعين وأمثاله غير منحصر، بل يعد الخطأ على من كان أكثر فعله صوابا. قال ابن حجر: "قد يقال: -لِمَ مُنع أبو جهل في هاتين الوقعتين من أن ينال من رسول الله ﷺ بموذ مطلقا أشد المنع، ولم يمنع من إلقاء سلا الجزور على ظهره وهو يصلي؟-، قلت: -سر ذلك إمهاله حتى تنفذ دعوة النبي ﷺ عليه، فيظهر عِزهُ ونَصرهُ عليهم [للناس][6] بإهلاكهم بدعوته، وإلقائهم في القليب على أخس حالة وأقبح هوان، ولو منع اللعين من ذلك لم تحصل هذه

[3] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.578.
[4] توسع سيدي يحيى في هذه الفقرة وزاد وأغنى قول الشيخ ابن حجر في "المنح المكية"، ص.253.
[5] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.478.
[6] في النسخ الثلاث حذفت هذه الكلمة بالنظر إلى المرجع المطبوع الذي أحيل عليه. ولا يمكن أن أجزم هل هو سهو في النقل أو تصرف مقصود في النص من طرف سيدي يحيى.

الدعوة، فكان تمكينه من ذلك الفعل عين إهلاكه هو ومن تبعه في مثل ذلك"[7].

ثم قال [الناظم]:

وأعدَّت حَمَّالَةُ الحَطبِ الفِهْـ --- ـرَ وجَاءَتْ كَأنَّـهَا الوَرْقـاء

يَوْمَ جاءَت غَضْبَى تَقولُ أَفِي مِثْـ --- ـلِيَ مِن أحمدٍ يُقالُ الهِجاء

وتَوَلَّتْ وما رَأتهُ وَمِنْ أيـ --- ـن تَرَى الشمسَ مُقلَةٌ عَمْياء

حمالة الحطب هي أم جميل بنت حرب بن أمية، زوجة أبي لهب، لقبت بذلك لأنها كانت تحمل الشوك وتطرحه في طريق رسول الله ﷺ، إرضاءً لزوجها لعنهما الله. والفِهر بكسر فسكون: حجر يملأ الكف. وأعدت أي هيأت وجاءت معطوفان على هُمْ. والورقاء: الحمامة التي في لونها بياض إلى السواد، شبهها بها لسرعة مشيها حين جاءت بالحجر لتضرب به النبي ﷺ، وهو في المسجد مع أبي بكر رضي الله عنه، فلما رآها أبو بكر مقبلة قال: "يا رسول الله إنها امرأة بذية فلو قمت"، قال [ﷺ]: "إنها لن تراني"، فجاءت فلم تره، فقالت لأبي بكر: "أين صاحبك؟ كيف يهجوني؟ والله لو وجدته لضربت فاه بهذا الحجر"، فقال لها: "هو لا يقول الشعر"، فقالت: "أنت عندي مُصَدَّق" وانصرفت، فقال أبو بكر: "يا رسول الله لم تَرَكَ"، فقال ﷺ: "لم يزل ملك يسترني منها بجناحيه"، وفي رواية "قد أخذ الله ببصرها عني"[8].

ويوم ظرف لأعدت وجاءت الأول[9]، وفاعل كل منهما ضمير يرجع إلى حمالة الحطب، وغضبى وتقول: حالان من فاعل جاءت الثاني. و"الغضب: نار كامنة في [طي][10] الفؤاد، يؤججها طرو[11] السبب المحرك لها، فإن لم يقدر على إنفاذ شيء في المغضوب عليه سمي غيظا"[12]، قاله ابن حجر. وفي نسخة "غيظا"[13] مفعول

---

[7] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.254، بالتصرف.
[8] الحديث أخرجه البزار وحسنه الحافظ ابن حجر.
[9] في البيت السابق.
[10] في النسختين الحسنية والصبيحية كتبت "وطء"، وفي العزيزية "وعاء"، وأما في المرجع المطبوع فكُتبت "طي"، واعتمدت هذا اللفظ الأخير.
[11] هكذا في النسخ الثلاث وكذلك في المرجع المطبوع. ولعل المراد "طروء" وهو مصدر طَرَأَ.
[12] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.256.
[13] أي محل "غضبى"، فيكون البيت "يوم جاءت غيظا تقول أفي مثلي من أحمد يقال الهجاء".

له، وفي القاموس: "الغيظ: الغضب أو أَشَدَّه، أو سَوْرَته أو أوله"[14]. وتقول حال من فاعل جاءت الأولى، وهو عامل في يوم. والاستفهام في أفي مثلي؟ للإنكار والعتاب، أي "كيف يقال هذا في مثلي وأنا بنت سيد بني مخزوم؟"[15]، قاله ابن حجر وتبعه السنباطي. وقال مَن نقل عن أبي جمرة أنها من بني أمية، بنت حرب بن أمية[16]، عمة معاوية بن أبي سفيان بن حرب، وولدت عتبة ومعتب وعتيبة، وهو الذي أكله الأسد. وشهد عتبة ومعتب مع رسول الله ﷺ حُنَيْنا، وثبتا فيمن ثبت معه، وأصيبت عين معتب يومئذ، وأقاما بمكة ولم يأتيا المدينة، ولهما عقب. والهجاء بكسر أوله: السب والذم، ونَسَبَتهُ إلى النبي ﷺ لأنها ترى كقومها أنه يقوله من عنده، قالت ذلك لما نزلت سورة أبي لهب وسمعتها.

ففعلت ما ذُكر وتولت أي رجعت، وما نافية وَوَاوُها للحال من فاعل تولت، وأين سؤال عن المكان كما في القاموس، والاستفهام انكاري معقود على النفي. وكنى[17] [الناظم] بالشمس عن النبي ﷺ لأنه مثلها، بل في غاية الظهور للقلوب السليمة والعقول المستقيمة، وكنى عن عماء بصيرتها بعمى باصرتها، لأنها في غاية الجهل والضلال، وفيها قال الأحوص الأنصاري[18]:

مــا ذات حبل يراه النـــــــاس كُلهم --- وسط الجحيم ولا يخفى على أحدِ

تُرى حبال جميع الناس من شَعَرٍ --- وحبلها وسط أهل النار من مَسَدِ[19]

وأحمدٍ بالصرف للضرورة، وذلك كله إظهارٌ لعلو قدره وتشريفٌ لنبوته ﷺ.

ثم قال [الناظم]:

ثُمَّ سَمَّتْ لهُ اليَهودِيَّةُ الشَّا --- ةَ وكَم سَامَ الشِّقْوَةَ الأَشْقِياء

---

[14] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1213.
[15] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.256.
[16] قاله ابن كثير في تفسيره لسورة المسد.
[17] كَنَى بالشيء عن كذا: تكلم بما يُستدل به عليه ولم يُصرح.
[18] من شعراء العصر الأموي.
[19] في كتاب" نسب قريش" لمصعب الزبيري، دار المعارف-القاهرة، الطبعة 3، ج.3، ص.89، كُتب "كل الحبال حبال الناس من شعر".

فَأَذَاعَ الذَّراعُ ما فيهِ مِن سوءٍ[20] --- بِنُطْقٍ إخْفَـــاؤُهُ إبْـداء

يعني: من جملة معجزاته ﷺ نُطق الذراع له في غزوة خيبر، سنة سبع من الهجرة. واليهودية فاعل سمّت، وهي زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مكشم، فجعلت في الشاة سُمّا قاتلا لوقته، وكانت شاورت اليهود في سم فاجتمعوا لها على هذا السُّم بعينه، فسمت له به الشاة جميعها، وأكثرت منه في الذراع والكتف، لما قيل لها انه [ﷺ] يحب الذراع، فأهدتها له مشوية. والشاة واحدة الشِّياه، من الضأن والمعز، وأصلها شَوْهَة بدليل تصغيرها على شويهة، ثم لما لقيت الواو الهاء، لزم انفتاحها فقلبت ألفا، وحذفت لامها وهي الهاء وعوض عنها هاء التأنيث، كثُبَّة وعَضَّة، بدليل جمعها على شواه بالهاء، وقلبت الواو ياءً لانكسارِ ما قبلها. وكم للتكثير، وسام من السَّوم وهو الثمن الذي يطلب به البيْع، والأشقياء فاعله، وبين سمت وسام جناس شبه الاشتقاق.

والمعنى: سام الشقوة الأشقياء مرات كثيرة لسعيهم في أسبابها وتحصيلها، ومنهم هذه اليهودية. وحديث ذلك رواه أبو داوود وأهل السير: "أن اليهودية سألت عن أي الشاة أحب إليه [ﷺ] فقيل لها الذراع، فعمدت إلى عنز لها فذبحتها وصلتها، ثم عمدت إلى سمٍّ قاتل لوقته فسمّتها، وأكثرت منه في الذراع والكتف، ووضعتها بين يديه ومَن حضر من أصحابه، وفيهم بِشر بن البراء، فتناول النبي ﷺ الذراع فنهش منها، وتناول بِشر عظماء آخر، فازدردا لُقْمَتيهما وأكل القوم، فقال ﷺ: -ارفعوا أيديكم، فإن هذه الذراع تخبرني أنها مسمومة-. وفي رواية له [أي أبو داوود] أيضا: فأرسل إلى اليهودية، فقال لها: -سمّمت هذه الشاة؟-، فقالت: -من أخبرك؟-، قال: -أخبرتني هذه الذراع-، وفي رواية لما قال لها ذلك صَدَقَتْه، ثم قالت: -قُلتُ إن كان نبيا فلن يضره ذلك، وإن لم يكن نبيا استرحنا منه-، فعفا عنها [ﷺ]"[21]. ومن ثَمَّ قال [الناظم] فأذاع الذراع أي أشاع وأفشى ما فيه من سوء، أي السم الذي جُعل فيه أو المكر، بنُطقه له ﷺ بذلك. وإخفاء مصدر مضاف إلى المفعول العائد على النطق،

---

[20] في "المنح المكية" المطبوع كُتب "شرٍّ".

[21] أخرجه الإمام أبو داوود في صحيحه عن عبد الرحمان بن عوف رضي الله عنه، ويختم الحديث أنه أمر بها ﷺ فقُتلت قِصاصا، لأن الصحابي بشر بن البراء الأنصاري رضي الله عنه مات بسبب أكله من الشاة. ورواه أيضا الإمام أبو داوود عن طريق سعيد بن سليمان وختمه أن رسول الله ﷺ عفا عنها.

وهو مبتدأ وإبداء خبره، والجملة صفة لنطق.

والمعنى أن ذلك الذراع أظهر ما فيه من الخَدْع للنبي ﷺ، بنُطقٍ أخفاه عن الحاضرين وأبداه له ﷺ، مُعجزةً له بذلك. واحتجم ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل منها. وبين إخفاء وإبداء جناس الطباق.

ثم لما ذكر [الناظم] بعض معجزاته ﷺ، شرع في ذكر بعض مكارم أخلاقه فقال:

وبِخُلْقٍ من النبيّ كريمٍ --- لم تُعاقب[22] بجُرْحِها العَجْماء

الخُلق بضمتين وبضم فسكون: السجية والطبع، وباؤه للسبب متعلقة بتُعاقب بالبناء للمفعول، وكريم أي عظيم: صفة له ﷺ، ولا مساوٍ له في هذا الخُلق ولا شبيه، لقوله تعالى "وإنك لعلى خلق عظيم"[23]. والعجماء: اليهودية التي سمت الشاة، إذ هي كالعجماء أي البهيمة، قال تعالى "إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا"[24]. وقوله بجرحها أي بما أحدثه السُّم في بطون الآكلين منه، فإنه يجرح في الباطن كما يجرح الحديد في الظاهر، بل أشد. قال ابن حجر بعد ذكره الحديث السابق ما نصه: "وفيه أن بِشراً مات، وأنه ﷺ دفعها إلى أوليائه فقتلوها، رواه الحافظ الدمياطي"[25]، ثم قال [ابن حجر]: "وقال الزهري: أسلمت فتركها، وفي مغازي سليمان التيمي نحوه، وجمع البيهقي بأنه يحتمل أن يكون تركها أولا، فلما مات بشرٌ قتلها به، وبذلك أجاب السهيلي وزاد أنه تركها لأنه كان لاينتقم لنفسه، ثم قتلها ببِشرٍ قصاصا. ويحتمل أنها تُركتْ بإسلامها، فلما مات بِشرٌ تحقق بموته وجوب القصاص عليها فقُتلت"[26]. قُلتُ: وفي قوله لم تُعاقب إيماء إلى ما أجمعت به الروايات، فإن جَرح مصدر مضافٌ إلى الفاعل، وباؤه للسبب، فيفهم من تخصيصه نفي عقوبة اليهودية بالجرح مع تحقق وقوعها، أنها عوقِبتْ بموت بشرٍ، بعد أن عُفي عنها في الجرح قبل موته، فهو جمع لهما معا.

---

[22] في "المنح المكية" المطبوع، ص.261، كتبت "تُقاصَصْ".
[23] سورة القلم، الآية 4.
[24] سورة الفرقان، الآية 44.
[25] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.261.
[26] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.161 و162، بالتصرف.

ثم ذكر [الناظم] تتابع حلمه ﷺ ومَنِّهِ على غيرها كما مَنَّ عليها، فقال:

مَنَّ فَضْـلاً على هـَوازِنَ إذ كَا --- نَ لـهُ قَبْـلَ ذاكَ فِيـهِمْ رَباء

وأَتَى السَّبْيُ فيهِ أُخْتُ رَضاعٍ --- وَضَعَ الكُفْرُ قَدْرَها والسِّباء

هوازن قبيلة مرضعته حليمة السعدية رضي الله عنها، وهم أهل حُنيْن المذكور في التنزيل، فمَنَّ عليهم ﷺ وأعتقهم من مهانة الرِّق بعد أن حاربوه بعد فتح مكة، فغزاهم في اثني عشر ألفا، وقتل منهم أكثر من سبعين، وسبى من النساء والصبيان ستة آلاف، وغنم من الإبل أربعة وعشرين ألفا، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية، ثم تحصنوا بالطائف. وكان [ﷺ] خرج إليهم في سادس شوال سنة ثمان من الهجرة، ثم أمر بمواشي هوزان وغنائمهم أن تُجعل بالجِعْرانة[27] حتى يأتي إليهم، ثم حاصرهم بالطائف ثماني عشر ليلة، فلم يؤذن له في فتحه، ثم رحل عنهم. وانتظر قدومهم مسلمين بضع عشرة ليلة، فقدموا عليه مسلمين بدعائه لهم بعد قسم غنائمهم، فسألوه أن يمُنَّ عليهم، فقالوا: "يا رسول الله، إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفى عليك، فامنن علينا مَنَّ الله عليك"، وقال رجل من فريق حليمة: "يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك، -أي من الرضاع-، وحاضناتك اللاتي كُنَّ[28] يكفلنك"، فقال ﷺ: "إن أحسن الحديث أصدقه، أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟"، فقالوا: "أبناؤنا ونساؤنا"، فقال [ﷺ]: "أما ما كان لي ولـ[بني] عبد المطلب فهو لكم، وإذا صليت الظهر بالمسلمين فقوموا وقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ونستشفع بالمسلمين إلى رسول الله ﷺ"، ففعلوا ذلك، فقال رسول ﷺ: "أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم"، وقال المهاجرون: "ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ"، وقالت الأنصار مثل ذلك، وواعد ﷺ الباقين أن يعطيهم من أول شيء يصيبه، فطابت أنفسهم فرَدوا مَن بقي عندهم[29]. وإذ للتعليل، والرَباء بفتح أوله التربية، وهم اسم كان، وخبرها المجرور قبله باللام، وقبل ظرف لرباء وبه يتعلق فيهم، أو صفة له.

---

[27] الجِعْرانة قرية صغيرة شمال شرق مكة المكرمة، تبعد عنها ب20 كيلومترا.
[28] في النسخة العزيزية كُتب "التي كان"، وهو خطأ نسخ.
[29] ابن هشام، السيرة النبوية، ج.2، ص.453 إلى 489، بالاختصار.

وأتي إما معطوف على كان فيكون من حيز التعليل، وإما استئناف لذكر فضيلة زائدة على ما تقدم. والمراد بالسبي: المَسْبَى، وأخت رضاع أي أخته ﷺ من الرضاع[30]. وقال العسقلاني في الإصابة: "حذافة بنت الحارث السعدية، أخت النبي ﷺ من الرضاع، هي التي يقال لها الشماء"[31]، وقال أبو عمرو[32]: "الشيماء أو الشماء: اسمها حذافة"، من خط من نقل عنهما. وذكر ابن إسحاق[33] من رواية يونس وغيره، أن إخوة النبي ﷺ من الرضاع هم: عبد الله وأنيسة وحذافة، بنو الحارث، وحذافة هي الشماء، غلب ذلك عليها لزوجها. لكن وَضَعَ الكفر قدرها قبل إسلامها، والسباء بكسر أوله وفتحه، أي حط قدرها الرفيع بأُخوَّتها للنبي ﷺ، كما خفض كفر أبي طالب قدره الرفيع بعمومته وتربيته وقمع أعدائه عنه ﷺ، إذ لا عبرة لعلو النسب مع الكفر، قال تعالى "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[34]. ثم منَّ الله عليها بالإسلام كما عند الطبراني: "ولما عنفوا عليها عند سبيها قالت لهم: -والله إني أخت صاحبكم-، فأتوا بها رسول الله ﷺ، فقالت: -يا رسول الله إني أختك-، فقال: -وما علامة ذلك؟-، قالت: -عضة منك في ظهري-، فعرفها ﷺ ومنَّ على قومها لأجلها وأكرمها"[35]، ولذلك قال [الناظم]:

فحباها بِــــرّاً توهَّمتِ النا --- سُ به أَنَّمــا السِّباءُ هِداء

بَسطَ المصطفى لها مِن رِداءٍ --- أيُّ فَضلٍ حواهُ ذاك الرِّداء

فَـغَدَت فيه وهْيَ سيِّدةُ النِّسـ --- ـوةِ والسَّـــيِّداتُ فيه إماء

[في] القاموس: "حباه: أعطاه من غير منة ولا جزاء"[36]، والبر بكسر أوله: الصلة واتساع الإحسان، وهو إما مفعول من أجله أي لأجل بره لها، أو "مفعول ثاني

---

[30] في النسختين الحسنية والصبيحية لم يذكر "من الرضاع"، وهو ربما لتفادي التكرار، وفضلت لفظ النسخة العزيزية لمزيد التأكيد.
[31] ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج.8، ص.84.
[32] بل هو أبو جعفر محمد بن عمرو العقيلي.
[33] هذه أخر كلمة من آخر صفحة في النسخة العزيزية المبتورة.
[34] سورة الحجرات، ص.13.
[35] الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج.2، ص.352.
[36] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.326.

ويُؤيده أنه أبدل منه [قوله] بسط"[37]، قاله ابن حجر. وهِداء[38] بكسر أوله، مصدر أُهْديتِ المرأة إلى زوجها عروساً، وضمير به يعود إلى البر وباؤه للسبب.

والمعنى: وقع في وهم الناس الحاضرين أي في أذهانهم، بسبب البر الذي حباها إياه، أن سِباءها في الظاهر هِداؤها للنبي ﷺ عُرساً في الحقيقة، وأن النساء التي معها في السبي جئن لإهدائها عروساً ولم يجئن مَسْبِيات، وأنما سدت مسد مفعولي توهمت. قال ابن حجر: "استعمال الناظم أنما هذه في الحصر، تبع فيه الزمخشري والبيضاوي وغيرهما، وجعلا منه قوله تعالى "قل إنما يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد"، فقالا إنما لقصر الحكم على الشيء، أو لقصر الشيء على حكم، نحو: إنما زيد قائم، وإنما يقوم زيد، وقد اجتمعا في هذه الآية، لأن -إنما يوحى إلي- مع فاعله بمنزلة: إنما يقوم زيد، و-أنما إلهكم- بمنزلة: إنما زيد قائم، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إليه ﷺ مقصور على استئثار الله تعالى بالوحدانية. وقول أبي حيان: -يلزم الزمخشري انحصار الوحي في الوحدانية-، مردود بأنه حصر مجازي باعتبار المقام"[39].

وبسط أي أفرش بدل اشتمال من حباها، أو من برا فهو بيان للبُرور. ورداء أي رداؤه ﷺ، بزيادة من عند الأخفش أو تبعيضية[40]، أي بسط لها بعض ردائه الكريمة إكراما لها وجبرا لخاطرها من مهانة السبي. وأي استفهام لإفادة التفخيم والتعظيم، يعني فضل عظيم وشرف جسيم حواه ذلك الرداء الكريم لملامسته لجسده الشريف ﷺ، "فأجلسها عليه ﷺ ثم خيرها فقال لها: -إن شئت فعندي مُحببة مُكرمة، وإن شئت أمتعتك وترجعي إلى أهلك فَعَلْتُ-، فاختارت قومها. فمتعها وبالغ في إحسانها كما هو شأنه، وردها إلى قومها، وأعطاها غلاما له يسمى مكحولا وجارية، فزوجته بها، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية"[41].

وغدت أي صارت بسبب الفضل الذي حصل لها من بسطه ذلك الرداء، وهي سيدة

---

[37] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.266.
[38] في النسخة الصبيحية كتبت "هداه" وهو خطأ نسخ، والصحيح "هداء" كما في النسخة الحسنية.
[39] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.267.
[40] أي بعض من كل.
[41] الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج.2، ص.352.

النسوة اللاتي معها، فالواو فيه للحال[42]. وغدا تامة، وتَقدَّم الكلام على ذلك في قوله "وغدا كل بيت نار". والسيدات فيه أي في ذلك الفضل إماء بالنسبة إليها، أي صارت بسبب ما امتازت به عنهن كأنها سيدة لهن، وكأنهن مع كونهن سيدات قبل أسرهن إماء لها. وفي نسخة [من النظم]: قعدت[43] من القعود. وبين سيدات وإماء الطباق.

ثم طلب [الناظم] استماع أوصافه ممن لم يشاهدها فقال:

فَتَـنَـزَّهْ فـي ذاتِـهِ ومَـعَانِيــ --- ـهِ اسْتِماعاً إنْ عَزَّ مِنها اجْتِلاء

وامْلَأِ السَّمعَ مِن مَحاسِنَ يُمْلِيـ --- ـهَا عليكَ الإنْشــادُ والإنْـشاء

[في] القاموس: "التنزه: التباعد، والإسم منه النُّزهة بضم أوله، ونزه نفسه عن القبيح: نحاها، واستعمال التنزه في الخروج إلى البساتين والخضر والرياض غلط قبيح"[44]. والأَوْلى نصبُ استماعا على المصدر، على مذهب من أجاز حذف عامل [المصدر] المؤكد. وعز أي قل فلا يكاد يوجد أو فقد أصلا، فعل الشرط حذف جوابه دل عليه ما قبله. وضمير منها يرجع للذات والصفات، واجتلاء مصدر اجتلا العروس، أي "عرضها على بعلها مَجْلُوَّة، أي مزينة، واجتلاه: نظر إليه"[45]، كما في القاموس. وكلاهما يصح هنا، فاستعمال الفكر في التلذذ بذكر صفاته الظاهرة الجليلة، ومعاني أوصاف أخلاقه الباهرة الجميلة، أعظم تنزه وأكمله للنفس حقيقة، يحصل منه للمتلذذ به رِبقة[46] الأشواق ورقة الأّذواق، الموجبان لشرب محبة الأرواح، وامتزاجها بالأشباح المُرقِّية إلى حضرة المحبوب، التي بها حياة القلوب، الموصلة إلى المفاز بكمال المطلوب.

والمعنى أنك إن فقدت اجتلاء هذه الذات الكريمة، ومعاني أخلاقه العظيمة عليك،

---

[42] لم يقل الناظم "وغدت" بل قال "فغدت"، وتفسير سيدي يحيى للواو أنها للحال سهو، إذ لم تستعمل الواو في البيت، والأرجح في الشرح أن الفاء في "فغدت" سببية، ويبقى المعنى أنه بسبب ذلك الفضل الذي حصل لها من بسط الرداء، صارت سيدة النساء السبايا.

[43] أي مكان "فغدت".

[44] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1602.

[45] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.290.

[46] بمعنى عَقْد أو قيد.

فنزه نفسك باستماع الإنشاد المتضمنة لذلك، بالعبارات الموضحة لها، لتكون كالمشاهد لها. قال بعض أهل الدوق: "من أقوى الأسباب الباعثة على محبته ﷺ، استماع تطريب الأصوات الحسنة بالإنْشادات المعربة عن صفاته النبوية ﷺ، فإنها تُحدث في القلب سكرا وطربا يُحرك النفس إلى جهة محبوبها، فيحصل بتلك الحركة كثرة الشوق، وتخيل المحبوب وإحضاره في الذهن بقرب صورته، وفي هذا ما يغمر العقل من اللذة، لاجتماع لذة الألحان وكثرة الأشجان، فيحصل للروح ما هو أعجب من سكر الشراب، وأقوى لذة من اعتناق العذارى والشواب[47]"[48]. ولقد أحسن القائل:

أسعد أخيَّ وغنّني بحديثه --- وانثر على سمعي حُلاه وشنِّف

لأرى بعين السمع شاهد حُسنه --- مَعْنى فأتحفني بذاك وشرِّف[49]

وامْلأ: أمر من ملأ الثلاثي، والسمع مفعوله على حذف مضاف أي حاسته، بأن تُكثر من سماع محاسنه، حتى لو فُرض أن ما تسمعه منها شيء محسوس، وأن سمعك إناء واسع، لملأه ذلك المسموع من تلك المحاسن: "جمع حُسْن بضم فسكون"[50]، كما في القاموس، وهو غير مقيس بل قياسه -فِعال- بكسر أوله، كرمح ورِماح. ويمليها، أي يتلوها، مضارع أملأ، وفي لامه ثلاث لغات: الاعتلال كأعطى والتضعيف بالإدغام والتفكيك، وقد اجتمعا في قوله تعالى "أو لا يستطيع أن يُملِ هو فليملل وليه بالعدل"[51]، والمعنى واحد. وفي القاموس: "أمله: [قال له] فكتب عنه"[52]، ثم قال: " وأمليت الكتاب: أمللته"[53]. والإنشاد فاعل يمليها، وفي القاموس: "أنشد الشعر: قاله"[54]، وأنشأه: نظمه، ويحدث في النفس طربا إن كان من حسن الصوت.

---

[47]جمع شابة.

[48]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.270، بالتصرف.

[49]من شعر عمر ابن الفارض، ومطلع القصيدة: قلبي يحدثني بأنك مُتلفي --- فداك عَرفت أم لم تعرفِ.

[50]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.363.

[51]سورة البقرة، الآية 282.

[52]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1556. كُتب في النسختين الصبيحية والحسنية: "قاله فكتب عنه"، ورجحت لفظ المرجع.

[53]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1556.

[54]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1609. في "القاموس المحيط" كُتب "قرأه" عوض "قاله"، ولربما لفظ سيدي يحيى أبلغ للمعنى فرجحته، تفاديا لأن يفهم من الناطق بالشعر أن يكون قارئا له من مخطوط.

ثم قال [الناظم]:

كُلُّ وَصْفٍ لهُ ابْتدَأْتَ بهِ اسْتَوْ --- عَبَ أخبارَ الفَضْلِ منهُ ابْتِداء

كل مبتدأ، وله وابتدأت به صفتان لوصف، أي صفة وعليه يعود ضمير به، واستوعب أي استجمع واستقصى خبره، وأخبار مفعوله وابتداء فاعله، وبه يتعلق منه. قال العلامة القدوة الفهامة سيدي أحمد بن عبد العزيز السجلماسي ما معناه: "يعني أن كل من حاول إحصاء الثناء على وصف من أوصافه الجليلة ومحاسنه الجميلة، فابتدأ بالثناء على ذلك الفرد قاصدا استيفاء الثناء عليه والمدح، ليشرع بعد الفراغ منه في غيره من أوصافه الكاملة، بَحرَ[55] ذلك المحاول أول طرف من ذلك الفرد الذي ابتدأ بالثناء عليه، بحرا زاخرا يغرو[56] فيه المادح والمثنى عليه. ويستكمل ذلك الطرف كل ما قيل وما عسى أن يُقال، من أخبار الفضل وأنواع الثناء وأجناس المدح، إلى غاية الغايات ونهاية النهايات، فيعجز عن استيفاء ذلك الثناء على الطرف المبْتدأ به من ذلك الفردِ، فضلا عن الوصول إلى الوسط وأحرى طرف الانتهاء فكيف بما فوق الواحد؟، وما ذاك إلا أن كل شيء منه ﷺ معجزٌ لمن سواه من جميع خلق مولاه". وقال ابن حجر: "والمعنى: كل وصف له ابتدأت به تذكره، أو ابتدأت بذكره لتذكر جميعها، وتأملت ما اشتمل عليه تصريحا وتلويحا، جمع لك ذلك الوصف جميع أنواع الفضل وغاية الكمال"[57]. وقال العلامة سيدي محمد المسناوي: "قوله الفضل، أي أهل الفضل في ذلك الوصف المبتدأ به، والمعنى أن الوصف المحمود، إذا كان في جماعة على جهة الكمال، فإن ما ينشأ عنه من الثمرات والفروع والمآثر المحمودة التي تنقل عنهم لاتصافهم بذلك الوصف المحمود، كل تلك المآثر التي تفرقت فيهم، يستوعبها ويجمعها وصفه بها ﷺ، فهو الجامع لكل ما افترق في غيره".

ثم ذكر [الناظم] بعض أخلاقه ﷺ الجامعة لأوصاف الكمال، فقال:

---

[55]أي رأى البحر فدهش.
[56]بمعنى غرق في البحر فغطاه.
[57]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.271.

سَيِّدٌ ضِحْكُهُ التَّبَسُّمُ والمَشْـ --- ـيُ الهُوَيْنا ونَومُهُ الإغْفاء

مَا سِوَى خُلْقِهِ النَّسيمُ ولا غيـ --- ـرَ مُحَيّاهُ الرَّوْضَةُ الغَنّـاء

سيدٌ: صفةٌ مشبهة أصله سيود فقُلبت الواو ياء وأدغم، وهو إما خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره الجملة في البيت بعده. وضِحكهُ مبتدأ والتبسم خبره، والجملة صِفة لسيد، وفي القاموس: "ضحك كعَلِمَ، وناسٌ يقولون: ضِحِكْتُ بكسر الضاد، ضحْكا بالفتح وبالكسر وبكسرتين"[58]. والتبسم أقل الضحك، وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما رأيته مستجمعا قط ضاحكا -أي مقبلا على الضحك بكليته-، إنما كان يتبسم"[59]، وذلك بحسب رؤيتها له رضي الله عنها. ومثله للترمذي عن جابر بن سمرة قال: "كان لا يضحك إلا تبسما"[60]، وله أيضا عن عبد الله بن الحارث قال: "كان ما ضحك ﷺ إلا تبسما"[61]. ولا ينافي ذلك وقوع غير التبسم منه [ﷺ] لأن التبسم شأنه في الغالب، وإلا فقد صحت روايات "فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجده"[62]، والذي دلت عليه الأخبار ومجموع الأحاديث أن أكثر أوقاته التبسم. وربما ضحك كما في رواية الترمذي عن عبد الله بن الحارث قال: "ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله ﷺ، وربما وقع منه الضحك"[63]، وهذا المعتمد. والضحك: انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور مع صوت خفي، فإن كان معه صوت يسمع من بعد فهو القهقهة، والمكروه إنما هو الإفراط منه والإكثار سواء كانت معه قهقهة أم لا. و-الـ- في المشي خلف عن الضمير، و"الهوينا: تصغير الهون"[64] قاله ابن حجر، وقال الشيخ سيدي أحمد بن عبد العزيز: "هو سهو، بل هو تصغير هُونَى، مؤنث هَون بفتح أوله"[65]. قال في القاموس: "وهو

---

[58] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.967.
[59] صحيح الإمام البخاري، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك.
[60] بل أخرجه الإمام الحاكم.
[61] سنن الإمام الترمذي، أبواب المناقب، باب البشاشة.
[62] رواه الإمام البخاري في صحيحه، وعند الإمام مسلم "حتى بدت أنيابه".
[63] لم أقف عليه بهذا اللفظ.
[64] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.282.
[65] يعنى تعقيب سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي على تفسير الشيخ الهيتمي في "المنح المكية". وأرجح أن ذلك كان خلال إحدى الحلقات العلمية في جامعة القرويين، حيث لم أقف لسيدي أحمد بن عبد العزيز السجلماسي على تأليف في شرح القصيدة الهمزية البُصيرية. وبالطبع لست مؤهلا للتعليق على قول الشيخين.

السكينة والوقار"[66]. وتصغيره للتعظيم، كقول لبيد:

وكل أناس سوف تدخل بينهم --- دُوَيهيةٌ تصفَّر منها الأنامل[67]

قال تعالى "وعباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هونا"[68]، وهو ﷺ أحق بكل كمال، ومع ذلك يسرع في مشيه، كما دلت عليه رواية البخاري والترمذي عن علي كرم الله وجهه: "كان إذا مشى تكفأ تَكَفُؤاً كأنما ينحط من صبب"[69]، وفي رواية الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "ما رأيت أسرع من مشية رسول الله ﷺ، كأن الأرض تُطوى له، إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث"[70]، أي لا يجهد نفسه، أراد بذلك أنه كان ﷺ يَسْتعمل التثبت، ولا يظهر منه في هذه الحال استعجال ولا مبادرة في المشي. ولا منافاة بين ذلك، لأنه ﷺ كان يُبارك له في مشيه وإن مشا هونا، دل عليه قوله: "كأن الأرض تُطوى له"، فهو مع هون مشيه لا يُلحق. [وقال هند بن أبي هالة رضي الله عنه: "ذريع المشية"][71]، ومعنى ذريع المشية: واسع الخطوة. "وأما نومه ﷺ فهو الإغفاء فقط، أي أخف النوم بحيث لا يستغرق، لأن الاستغراق إنما يتولد عن نوم القلب، والنبي ﷺ تنام عينيه ولا ينام قلبه، ومن ثم لم ينتقض وضوؤه بالنوم، وذلك لكمال قلبه في تعلقه بربه ودوام شهوده، ولا ينافي ذلك نومه ﷺ بالوادي عن صلاة الصبح حتى حمية الشمس، لأن الشمس إنما تراها العين لا القلب، وما قيل أنه كان له نوم ينام فيه قلبه لم يثبت [وهو مردود على قائله كتأويل بعضهم قوله ﷺ: -لا ينام قلبي-]"[72].

والنسيم: نفس الريح، وفي القاموس: "وتنسم: تنفس، والمكان بالطيب: أرج"[73]، وهو مبتدأ وما نافية وسوى خُلقه خبره. والروضة الغناء: الملتفةُ الأشجار، الكثيرة

---

[66]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1717.

[67] من قصيدة لبيد بن ربيعة، ومطلعها: ألا تسألان المرء ماذا يحاول --- أنحب فيُقضى أم ضلال وباطل.

[68]سورة الفرقان، الآية 63.

[69]وقفت عليه بهذا اللفظ عند الإمام الترمذي، باب مشية رسول الله ﷺ.

[70]نفس المرجع السابق.

[71]أورد الحديث ابن كثير في "البداية والنهاية. ورأيت من الضروري إضافة هذا النص لأن في النسختين الحسنية والصبيحية يمر المؤلف إلى شرح "ذريع المشية" دون التقديم لها.

[72]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.284 و285، بالتصرف. وقد أضفت النص بين عارضتين لإتمام ما في المرجع المطبوع حتى يتضح المعنى كاملا.

[73]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1607.

النباتات والأزهار، يصوتُ فيها الريح فتسمع له أصوات حين يهبُ كالغناء. فأشار [الناظم] بالنسيم، أي الذي يستطاب ويستحسن وتُنعشُ به الأرواح للطافتهِ ولينه، إلى خُلقه الكريم، قال تعالى "وإنك لعلى خُلق عظيم"[74]، وقالت عائشة رضي الله عنها: "كان خلقه القرآن"[75] أي ما ندب[76] إليه من مكارم. وأشار [الناظم] بالروضة الغناء إلى محاسنه [ﷺ] الظاهرة في صورة ذاته الشريفة.

والمعنى: ليس النسيم في لينه وطيبه إلا خُلقه الكريم، وليس الروضة الغناء في نضارتها ونعومتها وجمالها إلا محياه الشريف أي وجه، فهو من عكس التشبيه للمبالغة في المدح، كقول الشاعر[77]:

والريح تعبث بالغصون وقد جرى --- ذهب الأصيل على لُجينِ الماءِ

وأي شيء يماثل خلقه الذي عظمه الله في كتابه العزيز؟، وأي شيء يماثل ذاته ووجهه الشريف؟. روى الترمذي من حديث جابر بن سمرة [رضي الله عنه] قال: "رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضْحِيانٍ[78]، عليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه [ﷺ] وإلى القمر، فهو أحسن عندي من القمر"[79]، ورُوي أيضا عن البراء بن عازب [رضي الله عنه] قال: "ما رأيت من ذي لمة، في حلة حمراء، أحسن من رسول الله ﷺ"[80] الحديث. قال الهيتمي في شرح الشمائل: "نقل القرطبي عن بعضهم: -لم يظهر تمام حسنه ﷺ، وإلا لم يطق النظر إليه أحد-"[81].

ثم قال [الناظم]:

رَحـمَــةٌ كلُّـهُ وحـزمٌ وعَــزمٌ --- ووَقارٌ وعِصمَةٌ وحياءُ

---

[74] سورة القلم، الآية 4.

[75] أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد، وأخرجه الإمام البخاري في "الأدب المفرد"، والإمامين البيهقي والحاكم وغيرهم.

[76] بمعنى دعى.

[77] ابن خفاجة الأندلسي.

[78] ليلة مُقمرة مضيئة مُنوَّرة.

[79] رواه الإمام البخاري والإمام الترمذي.

[80] رواه الإمام أحمد بلفظ: "ما رأيت من ذي لمة أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ...".

[81] ابن حجر الهيتمي، أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، ص.32، بالتصرف. في المرجع المطبوع كُتب "... وإلا ما طاقت الصحابة النظر إليه".

لا تَحُلُّ البأساءُ مِنهُ عُرى الصَّبْ --- رِ ولا تَسْتَخِفُّهُ السَّرَّاء

رحمة خبر مبتدأ محذوف وكله تأكيد، أو خبر مقدم وكل مبتدأ، قال ابن حجر: "وأخبر بهذا وما بعده بلفظ المصدر، إشارة إلى أنها قد امتزجت بذاته واستحال انفصالها عنه، حتى كأنها هو وكأنه هي، وطبع عليها"[82]. قال تعالى "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"[83]، أي للمؤمنين بالهداية، وللكافرين بتأخير العذاب عنهم، ولسائر الحيوانات بنزول المطر بدعائه، فيخرج النبات فيكون لها سقيا ورعيا. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "هو رحمة للبَرِّ والفاجر، لأن كل نبي إذا كُذِّب، أهلك الله من كذَّبه، ومحمد ﷺ أمِنَ من كذبه إلى الموت أو إلى يوم القيامة، وأما من صدَّقهُ فله الرحمة في الدنيا والآخرة"[84]. وقال العلامة سيدي أحمد بن مبارك السجلماسي في تأليفه المُسمى ب"الذهب الإبريز"، سماعا من شيخه العارف بالله مولاي عبد العزيز الحسني ما نصه: "من أوصافه ﷺ الرحمة، وهي نور ساكن في الذات، يقتضي الرأفة والحنانة على سائر الخلق. وهو ناشئ عن الرحمة الواصلة من الله تعالى للعبد، وعلى قدر رحمة الله تعالى للعبد تكون رحمته هُو لسائر الناس، ولاشك أنه ليس في مخلوقات الله عز وجل مرحوم مثله ﷺ، فلذلك كانت رحمته ﷺ للخلق لا يُوازيها شيء، ولا يلحقه في ذلك أحد، ولقد بلغ من عظيم رحمته أن عمت رحمتهُ العالم العلوي والسفلي، وأهل الدنيا والآخرة، وقد أشار الله تعالى في آية "بالمُومنين رؤوف رحيم"[85] إلى أربعة أمور، أحدها النور الذي تسقى به جميع المخلوقات التي وقع لها الرضا من الله، الثاني أن ذلك النور قريب منه عز وجل قُرب المكانة والمنزلة لأقرب المكان، الثالث أن ذلك النور القريب منه عز وجل بأسره وجميعه في ذات النبي ﷺ، الرابع أن ذاتهُ ﷺ مُطيقةٌ لذلك النور وقادرة على حمله من غير كُلفة ولا مشقة عليه، وهذا هو الكمال الذي فاق به نبينا ﷺ جميع الخلائق"[86]. ومن رحمته ﷺ الكاملة ما في صحيح البخاري وغيره، أنه ﷺ قال: "لكل نبي دعوة

---

[82]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.289.

[83]سورة الأنبياء، الآية 107.

[84]وقفت عليه دون لفظه تماما عند تفسير الآية للإمام البغوي، ولا شك أن سيدي يحيى نقله عن "المنح المكية" بلفظه (ص.289)، فحتى محقق كتاب الشيخ الهيتمي سكت عنه ولم يحله على أي مرجع.

[85]سورة التوبة، الآية 129، برواية ورش عن نافع.

[86]أحمد بن مبارك السجلماسي، الإبريز، ص.64.

مُستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبئ دَعوتي شفاعةً لأمتي في الآخرة"[87]. وكله حزم أيضا فيما يقربه إلى الله فلا تصدر منه إلا الطاعة، ومن حزمه الكامل شدة خوفه من الله عز وجل، ولا مساوي له في ذلك، حتى كان يُسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل[88]، وقام ليلة كاملة بقوله تعالى "إن تعذبهم فإنهم عبادك"[89] الآية. ومن شدة حزمه أنه قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: "-أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟-، قال [ﷺ]: -أفلا أكون عبدا شكورا؟-"[90]، كما صحت الأحاديث بجميعه. وخوفه من الله على قدر قربه منه، ولا مساوي له في مثل ذلك مما لا ينحصر. وكذلك كله عزم فلا يصدر منه أمر إلا وهو قاطع به، غير معرض عنه ولا متوان. [وفي] القاموس: "عزم على الأمر: أراد فعله وقطع به"[91]. والأوْلى أن المراد به العزم العرفي، أي العزيمة التي [...][92] الرخصة، ومنه قول السمان في رسالته: "من كمال الاتباع [الضروري أن يُعتمد][93] على عزائم الأمور، ولا يركن إلى الرُّخص، فإن الله تعالى أمره ﷺ بارتكاب العزائم بقوله تعالى -فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل-[94]، وقد ذكرهم سبحانه بقوله -شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه"-[95]، وهو ﷺ خامسهم وسيدهم"[96]. وكله وقار أيضا: ألقى الله [عز وجل] عليه ﷺ من المهابة ما لا غاية له فكانت لا تفارقه أصلا، ومن ذلك ما روى أبو داوود عن خارجة بن زيد قال: "كان رسول الله ﷺ أوقر الناس في مجلسه"[97]، وفي رواية للترمذي وغيره: "وإذا تكلم، أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم

---

[87] أخرجه الإمامين البخاري ومسلم في صحيحيهما.
[88] صوت القدر إذا صارت تغلي من الطبخ.
[89] سورة المائدة، الآية 118.
[90] عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، أخرجاه الإمامين البخاري ومسلم في صحيحيهما.
[91] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1087.
[92] في النسختين الحسنية والصبيحية تُرك فراغ.
[93] في النسختين الحسنية والصبيحية تُرك فراغ ملأته بالرجوع إلى المصدر المنقول عنه.
[94] سورة الأحقاف، الآية 35.
[95] سورة الشورى، الآية 13.
[96] ذكره عن الشيخ السمان، الشيخ الحسين الإفراني في مؤلفه "ترياق القلوب في أدواء الغفلة والذنوب"، ج.2، ص.21.
[97] ذكره القاضي عياض، في "الشفا بتعريف حقوق المصطفى"، ج.1، ص.198.

الطير"[98]، وفي أخرى له أيضا، أن رجلا جاء إليه فقام بين يديه، فأخذته رعدة شديدة، فقال [ﷺ]: "هون عليك"[99] الحديث. وكله أيضا عصمة، أي حفظ، يستحيل معه وقوع شيء من المخالفات للشرع منه، صغيرة أو كبيرة، عمدا أو سهوا، قبل النبوءة وبعدها، في حركاته وسكناته، وظاهره وباطنه، وكيف [لا] وقد طهر الله قلبه عند شق صدره ونزع منه حظ الشيطان كما سبق في محله. وكله أيضا حياء، وتقدم معنى الحياء في قوله [أي الناظم]: "والزهد فيه سجية والحياء"، ورواية البخاري وغيره: "كان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها"[100]، وحياؤه من الله على قدر قربه منه، ولا مساوٍ له في ذلك.

وكله صبر أيضا، ومن ثم قال [الناظم] لا تحل البأساء أي الشدة وإن أفرطت، لاسيما في الحروب إن شبَّت وحَمى وطيسها، وروى الترمذي: "مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر"[101] الحديث. وعرى جمع عُروة بضم أوله، وهي هنا ما تدخل فيه الأزرار. والصبر: حمل النفس على ما تكره، قال ابن جزي في تفسيره: "والصبر على أربعة أوجه، صبر على البلاء وهو منع النفس من التَّسَخُّط والهلع والجزع، وصبر على النعم وهو تقييدها بالشكر وعدم الطغيان والتكبر بها، وصبر على الطاعات بالمحافظة والدوام عليها، وصبر على المعاصي بكف النفس عنها"[102]. ويدخل في الطاعات كل حق لله وفعل البر كالحلم والعفو والشجاعة، فلا يمكن حل تلك العرى ولا نقضها، قال ابن حجر: "فذكر العرى المحكمة، استعارة تخيلية، وتشبيه الصبر بالثوب السابغ ذي الأزرار، والعرى المحكمة استعارة بالكناية، وذكر لا تحل ترشيح. وناهيك بصبره ﷺ على ما وقع له يوم أحد مما عَلمتَ، فقال له أصحابه: "لو دعوت عليهم"، فقال: -اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون-"[103][104].

---

[98] أورده الإمام الترمذي في "الشمائل المحمدية".

[99] أورده الإمام ابن ماجة في صحيحه والإمام الترمذي في "الشمائل المحمدية".

[100] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب باب الحياء، وكذلك الإمام أحمد.

[101] ذكره الإمام الترمذي في "الشمائل المحمدية".

[102] ابن جزي الغرناطي، تفسير التسهيل لعلوم التنزيل، ج.2، ص.480.

[103] لم أقف على هذا الحديث في أقوال الرسول ﷺ، وكذلك محقق مؤلف "المنح المكية" لم يخرّجه ولم يعلق عليه. وقد وجدت في صحيحي الإمامين البخاري ومسلم، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: -اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون-". ونجد مثل هذا المعنى في المرجعيات المسيحية على لسان سيدنا عيسى عليه السلام، في سفر لوقا 23-24. فأقول كما أوصانا ﷺ: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: -آمنا بالله وما أنزل إلينا-"، كما جاء في

وصبر [ﷺ] على كل ما لقيه من قومه من يوم بِعثته مما سبق ذكر بعضه، وبالجملة فلا يضاهيه مخلوق في صبره وجميع كمالاته. والسراء: الرخاء والسعة، أي لا تُخرجه استخفافا عن ثباته وعبوديته وتواضعه، ومن ثم لما دخل مكة ﷺ يوم الفتح، في تلك الجيوش الهائلة التي لا قبل لأحد بها وهو على ناقته القصواء، وضع رأسه تواضعا لله تعالى حتى كاد رأسه أن يمس رجليه.

صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[104] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.296، بالاختصار.

الفصل السابع: من البيت 130 إلى البيت 149

ذكر [الناظم] بعض فضائله وشمائله، زيادة على ما تقدم، للدلالة عليها فقال:

كَرُمت نفسه فلا[1] يخطرُ السُّو --- ءُ على قلبه ولا الفَحشاء

عَظُمت نِعمـــةُ الإلـه عـلـيه --- فاستُقِلّت لذِكرِه العُظماء

يعني أن نفسه الشريفة تنزهت وتطهرت عن جميع النقائص، حتى لا يخطُر أي [لا] يرد على قلبه الكريم السوء، وهو بفتح أوله وضمه: ما يسوء، ولا الفحشاء: وهو كل ما يَقبحُ ذِكره من المعاصي، وتقدمت عصمته قريبا، ونُزع حظ الشيطان من قلبه بعد غسله، وحديث "ما هممتُ بسوء من أمر الجاهلية"[2]. ولله در القائل[3]:

من ذا الذي ما ساء قط --- ومن له الحسنى فقط

إلا محـــــــمد الـــذي --- عــليه جبريل هبـــط

وعظم النعمة عليه: اسباغها اسباغا قطع سائر الخلق عن أن يصل أحد منهم إلى مبادئ غايتها ومقاصد نهايتها، وتقدم ما يُشعر بذلك عند قوله [أي الناظم]: "رحمة كله". ومن ثم قال فاستُقِلت بالبناء للمفعول، كذا ضبطه المسناوي[4] رحمه الله، أي لأجل ذكر فضله أو وقت ذكر فضله، بما أعطيه من الكمالات التي لا تحصى.

والمعنى أنه لو عُرض مع تلك الكمالات وقت ذكرها، جميع الفضائل والخصال التي أوتي غيره من العظماء على ذوي العقول الكاملة، لاستقلوها بالنسبة إلى ما أوتيه ﷺ، ولَقَطعوا بأن ما عنده أعظم وأجل وأفخم مما عندهم. قال ابن حجر: "ولا يقال إن إضافة الاستقلال إلى النعم يوهم احتقارها واحتقار المُنعم عليه بها، لأن النعم

---

[1] في "المنح المكية" كُتبت "فما".

[2] ذكره ابن سيد الناس في "عيون الأثر"، ص.109، عن الإمام البخاري، ولفظه كاملا: " ما هممت بسوء من أمر الجاهلية إلا مرتين". لم أقف عليه في صحيح البخاري فلعله من كتاب آخر، وهو كذلك قول سبط بن العجمي في "نور النبراس"، حيث يقول: "هذا ذكره البخاري في غير الصحيح فاعلمه".

[3] عبد الغني النابلسي، شاعر وفقيه ومتصوف سوري، توفى عام 1731م.

[4] سيدي محمد بن أحمد بن أبي بكر الدلائي المسناوي. ولعل سيدي يحيى سمعه خلال حلقة تفسيرية النظم بجامعة القرويين.

الواصلة إلى العظيم توصف بالقلة وبالكثرة، ولا يوهم ذكر الاستقلال احتقارا له فيها أصلا، بخلاف الذوات فإن وصفها بالقلة يوهم ذلك، إذ لا يستعمل الاستقلال فيها غالبا إلا بهذا المعنى. وقرينة المقام، لاسيما مع وصفهم بالعظمة، ترفع ذلك"[5].

ثم ذكر [الناظم] بعض إغضائه وحلمه فقال:

جَهِلت قومه عليه فأَغضى --- وأخو الحِلم دَأْبُهُ الإغضاء

وسعَ العَالمين عِلما وحِلما --- فهو بـحـر لم تُعْيِهِ الأَعباء

جهالة قومه ﷺ عليه: إذايَتُهم له أشد الإيذاء بجميع ما ذكر، كخنقه وضربه بالحجارة حتى سال دم رجله على نعله، فحمَله صبره ﷺ على العفو والحلم، ولم يعاقبهم بعد أن قدر عليهم إلا فيما هو حق لله، وأغضى عن حقه كله، ومن ثم قال [الناظم] وأخو الحِلم دَأْبُهُ الإغضاء أي شأنه وعادته المستمر عليها. وأغضى عن شدة الشيء: سكت، "وتغاضى عنه: غفل"[6] كذا في القاموس. وأي حلم يماثل حلمه ﷺ؟ وقد أعطي غاية الكمال من كل جمال. وعبر عن الإذايَة بالجهل لأنها تنشأ عنه، لأنهم لو علموا أنه رسول الله ما فعلوا ذلك، وقد ظهر مصداق حِلمه ﷺ في أمور لا تحصى، منها لما تجلى إليه ملَك الجبال وقال له: "لو شئت لطبقت عليهم هذه الجبال"[7]، ومنها يوم فتح مكة حين قال لقريش: "لا تثريب عليكم"[8] الحديث. وأهدر[9] كل ما صدر له منهم، إلى غير ذلك مما لاحد له.

والعالمين اسم جمع، ولا يصح أن يكون جمعا لِعالَم[10]، وهو كلُّ ما سِوى الله تعالى، إذ الأخص لا يكون جمعا للأعم. وقيل إنه جمع شاذ، جمع باعتبار اصنافه من العقلاء: الملائكة والجن والإنس، قال ابن حجر: "قال المحققون فيه في الآية أنه مع اشتقاقه من العَلامة، اسم لما يعلم به كالخاتم لما يُختم به، مع كونه مشتقا من الختم، ثم غلب مما يُعلم به الخالق تعالى، فصار اسما لكل ما سواه من الجواهر

---

[5] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.301، بالتصرف.
[6] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1193.
[7] من حديث أخرجه الإمامين البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.
[8] أخرجه الإمام البيهقي في "السنن الكبرى"، والإمام الطبري في تاريخه.
[9] بمعنى سامح.
[10] يعارض هنا رأي الشيخ الهيتمي بدون التصريح.

والأعراض، فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب الوجود لذاته تدل على وجوده"[11]. وفي القاموس: "العالم: الخلق كله أو ما حواه بطن الفَلَك، ولا يُجمع من فاعل بالواو والنون غيره وغير ياسَم"[12]. وعِلما تمييز مُحوَّل عن الفاعل، أي وسِع عِلمُهُ علوم الأولين والآخرين، ما كان وما يكون، وحسبك في ذلك القرآن الذي أوتيَه [ﷺ]، ومثله معه كما صح ذلك عنه[13]، وقد قال تعالى "ما فرطنا في الكتاب من شيء"[14]، على أن المراد بالكتاب القرآن، قال ابن عطية: وهو الذي يقتضيه نظام المعنى في هذه الآيات، وقيل اللوح المحفوظ"[15]. وقال تعالى "تبيانا لكل شيء"[16]، فعُلم من إحاطته ﷺ بالعلوم القرآنية وبمثلها الذواتية أيضا أنه أحاط بعلوم الأولين والآخرين، وأن جميع علومهم مُنغمِرة ومُندرجة في عِلمه ﷺ. وحِلما: تمييز محول عن الفاعل أيضا، أي وسع حلمه ﷺ جميع حِلم العالمين بأسرهم، قال ابن حجر: "ما من حليم قط إلا وقد عُرفت له زلة أو هفوة تخدش في كمال حلمه إلا نبينا محمد ﷺ، لا تزيده شدة الإيذاء له والجهل عليه إلا حلما وعفوا وصفحا"[17]. فنبينا محمد ﷺ وصل من الحلم إلى غاية لم تكن لمخلوق غيره، وكذلك سائر كمالاته ﷺ، لأن الله تعالى هو الذي [تولى] تأديبه بنفسه، وأفاض عليه حقائق حكمته، حيث قال له "خذ العفو"[18]، الآية، ففي الآية آداب وأسرار لا تحصى، وقال ﷺ "أنا من الله والمؤمِنون مني"[19]. ومن ثم قال [الناظم] فهو بحر، أي كبحر لاتِّساع علمه وحلمه، لم تعييه أي لم تتعبه، قال في القاموس: "عَيَّ بالأمر، وعَيِيَ كَرَضِيَ: عجز عنه، وأعياه الشيء: أكَلَّه"[20].

---

[11]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.304.

[12]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1137.

[13]فيه إشارة إلى الحديث الشريف "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان يَنثني على أريكته يقول: عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه"، رواه الإمام أحمد في مسنده، ورواه بلفظ مغاير الإمامين أبو داوود والترمذي. وفي هذا الحديث إخبار بظهور ما يسمى ب"القرآنيين"، الذين ينادون باعتماد القرآن كمصدر وحيد للتشريع دون السنة النبوية الشريفة، فوجب مخالفتهم فيما يدعون إليه مصداقا لقوله عز وجل "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا" (سورة الحشر، الآية 7)، وقوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول" (سورة النساء، الآية 59).

[14]سورة الأنعام، الآية 38.

[15]ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.2، ص.857.

[16]"ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء"، سورة النحل، الآية 89.

[17]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص,306.

[18] "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين"، سورة الأعراف، الآية 199.

[19]أخرجه الديلمي بلا سند عن عبد الله بن جراد، وأنكره الشيخ ابن حجر العسقلاني.

[20]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1170، بالتصرف.

والأعباء بالمهملة بعدها الموحدة جمع عِبء بكسر أوله: "الثقل والحِمْل من كل شيء"[21]، كما في القاموس.

قال ابن حجر: "والمعنى: لم يكدِّر بحر علمه شك ولا جهالة، ولم يكدر بحر حلمه إيذاء ولا ضلالة، فاستعار الإعياء للكدورة والأعباء للشبهة والجهالات"[22]. ثم قال: "وبالجملة فقد فاق كل مخلوق في جميع أحواله، فإن الله تعالى لما أراد إيجاد خلقه، أبرز الخليقة[23] المحمدية من أنواره الصمدية في حضرته الأَحَدية، ثم سلخ منها العوالم كلها علوها وسفلها، على ما اقتضاه كمال حكمه [تعالى] وسبق في إرادته وعلمه، ثم أعلمه الله تعالى بكمال نبوته وبشره بعموم دعوته ورسالته، وبأنه نبي الأنبياء وواسطة الأصفياء، وأبوه آدم بين الروح والجسد، بل لا روح ولا جسد، ثم انبجست منه عيون الأرواح، فظهر ممدا لها في عالمها المتقدم على عالم الأشباح، وكان هو الجنس العالي على جميع الأجناس، والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس، فهو وإن تأخر وجود جسمه، متميز عن العوالم كلها برفعته وتقدمه، إذ هو خزانة السر الصمدي ومنه نفوذ المدد الرحماني"[24]. فإذا تأملت ما تقدم من أوصاف كماله الباهرة وعصمته ونزاهته الطاهرة، وأنه [ﷺ] البحر الذي اندرجت البحار كلها في يمِّه، والكريم الحليم الذي دخل كل كريم تحت كرمه، علمت أنه معرضٌ عن الالتفات لكل ما سوى الله [تعالى]، ومن ثم قال [الناظم]:

مستقِلٌّ دُنياكَ أن يُنسَبَ الإمْـ --- ـساكُ منها إليه والإعْطاء

المراد بالدنيا العرض الفاني من مالها وزخرفها، ومستقِلٌّ خبر مبتدأ محذوف يعود إلى النبي ﷺ، ودنياكَ منصوب على المفعولية بمستقِلٌّ، وأن وصلتها بدل اشتمال من دنياك، أي هو ﷺ مُحتقِر لها فلا يبالي بما دخل عليه منها ولا بما خرج لاحتقاره واستهانته. ونسبة الإمساك إليه منها عمن لا يستحق الإعطاء، أو ينسب الإعطاء إليه منها لمن يستحقه، فهو إشارةٌ إلى إعراضه [ﷺ] بكلِّيته عنها، وعدم التفاته إلى

---

[21] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1039.
[22]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.306، بالتصرف.
[23]في المرجع المطبوع كُتبت "الحقيقة"، ويبدو أنه خطأ وأن نقل سيدي يحيى أقرب للمعنى، لأن الشيخ الهيتمي تحدث عن خلق الله عز وجل، والله أعلى وأعلم.
[24]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.300.

بهجتها وزهرتها، فإنها لفنائها وفَوْتِ الاشتغال بها عن المعالي جديرة بمزيد الاعراض عنها والإهمال لها. قال المسناوي رحمه الله: "وتنكَّب[25] التعبير بالزهد والله أعلم، لأنه إنما يُزهد فيما له بال وقدر، ولا بال للدنيا عنده ولا قدر"[26]. وقال ابن حجر: "قوله هنا مستقل [إلخ]، أحسن من قوله هناك -وأكدت زهده فيها إلخ-، لأن بعض العلماء أنكر وصفه ﷺ بالزهد في الدنيا، ويؤيده قول مُحمد بن واسع: -وما قَدْرُ الدنيا حتى يُزهد فيها؟-، حين قيل له فلان زاهد. وأكثر القرآن مشتمل على ذمِّ الدنيا وصرف الخلق عنها، ودعوتهم إلى الآخرة"[27]. ثم قال: "ودليل إعراضه ﷺ عن الدنيا أشد الإعراض، خبر الترمذي أنه ﷺ قال: -عَرض عليَّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا، قلت لا يا رب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما، فإذا جعتُ تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك-، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة. وذكر البدر الزركشي عن بعض[28] الأئمة المتأخرين أنه كان يقول: -لم يكن النبي ﷺ فقيرا من المال قط، ولا حاله حال فقير، بل كان أغنى الناس بالله، قد كُفي أمر دنياه في نفسه وعياله-، وكان يقول في قوله ﷺ: "اللهم أحيني مسكينا": -إن المراد استكانة القلب لا المسكنة، التي هي أن لا[29] يجد كفايته-، وكان يشدد النكير على من يعتقد خلاف ذلك"[30]. وأما خبر "إن كنا آل مُحمد نمكث شهرا ما نتقد نارا"[31]، وأنه كان يشد الحجر على بطنه من الجوع[32]، فمن كثرة إعطائه واختياره ذلك الحال، لأنه كان لا يدخر قوت غد.

ثم قال [الناظم]:

شمسُ فضلٍ تحققَ الظَّنُّ فيه --- أنه الشمسُ رفعةً والضِّياء

وإذا ما ضحى مَحا نوره الظلَّ --- وقد أثــبتَ الظِّلالَ الضُّحاء

---

[25]أي تجنب، ويعني الناظم.
[26]ربما سمعه المؤلف مباشرة من شيخه العلامة سيدي مُحمد المسناوي الدلائي، كما تم توضيحه فيما سبق.
[27]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.308.
[28]في النسختين الحسنية والصبيحية وفي المرجع كُتب "بعض"، وهو ليس خطأ بل ربما كان الأرجح "أحد"، لأن القول بعده جاء للمفرد.
[29]استعملَ هنا "أن لا"، لتشديد النفي والحظر، وتستعمل "ألا" للتنبيه والحذر.
[30]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.307 و308، بالتصرف والاختصار.
[31]صحيح الإمام مسلم، عن عائشة رضي الله عنها.
[32]أخبرت به أحاديث عدة، ذكرها الأئمة مسلم وأحمد والطبراني.

شمس خبر مبتدأ محذوف يعود إلى النبي ﷺ والإضافة فيه بيانية، أي هو شمس من فضل في سماء المعالي كلها والكمالات بأسرها، وكيف لا وكل فضل تحلى به كل كامل فإنما هو بواسطة امتداده من فضله [ﷺ]. وحيث كان ذلك فقد تحقق الظن، أي صار اعتقادا جازما مطابقا للواقع، أنه بالنسْبة إلى بقية الكُمَّلِ[33] في شرفه ورفعته عليهم هو الشمس المضيئة عليهم. وفي قوله رفعة إشارة إلى علو قدره [ﷺ] الذي لا يصل إليه مخلوق، والضياء خبر مبتدأ مقدر، وأشار به [الناظم] إلى إشراق نوره المعنوي على هذا العالم، المضيئة منه جميع الأكوان لامتدادها منه، وعليه فعلوه على الشمس في الحقيقة أرفع وأتم، وإضاءته على العالم أنفع وأعم، بل إضاءة الشمس ووجودها ممتدان منه ﷺ، فقد يكون المشبه أقوى من المشبه به، وعليه خرج تشبيه صلاة التشهد في قولنا "كما صليت على سيدنا إبراهيم"[34] في أحد الأجوبة عنه. قال ابن حجر:"ولا يغني قوله شمسُ فضل عن قوله إنه الشمس رفعة، فإن جملة تحقق الظن حال مؤكدة لما قبلها، وصاحب الحال الضمير العائد على النبي ﷺ إذ مستقل، وشمس فضل معطوفان على بحر بتقدير العاطف، استيفاء لتعداد شمائله ﷺ، إشارة إلى كمال مستقر في ذاته الشريفة لتضمنه للباقية، وبعضه بمعناه"[35]. ثم قال: "وما بعد إذا زائدة، ولم يتكلم [الجمال ابن هشام][36] في –المُغْني- على إذا مع ورودها في التنزيل في غير موضع، وتكلم عليها السبكي مع أدوات الشروط، ولم يتعرض إلى زيادة ما هل جرتها إلى الحرفية أم لا؟، قال السيوطي: -يحتمل أن يجري فيها قول سيبويه في إذما أنها حرف، ويحتمل بقاؤها على الظرفية لأنها أبعد عن التركيب، بخلاف إذ ما-"[37]. ثم قال [الهيتمي]: "والأصح بقاؤها على الظرفية، لأن زيادة ما في نحو ذلك كثير، فيجري فيها أحكام إذا غير الفجائية، من أنها ظرف للمستقبل غالبا متضمنة معنى الشرط، وتختص بالجمل الفعلية ولو مقدرة نحو -إذا

[33] في النسخة الصبيحية كُتبت "الكُمِّل" ولم أقف عليه في المعاجم مشكولا هكذا، وفي النسخة الحسنية "الكُمّل" ولربما أراد به الكُمَّل: جمع مِكْمَل كمنبر، وهو الرجل الكامل للخير والشر (القاموس المحيط، ص.1435)، وكسر الميم في النسخة الصبيحية خطأ نسخ إذاً.

[34] أخرجه الأئمة البخاري وأبو داوود والترمذي وغيرهم.

[35] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.314.

[36] لم يرد النص بين عارضتين في النسختين الحسنية والصبيحية، بل هكذا كتبُ في "المنح المكية" المطبوع، ويتعلق الأمر بجمال الدين ابن هشام الأنصاري المتوفى عام 761هـ، وكتابه "مُغنيُ اللبيب عن كتب الأعاريب".

[37] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.312.

السماء انشقت-[38]، وتحتاج إلى جواب. ثم [اتفق] المحققون على أن ناصبها جوابها، والأكثر على أنه ما في جوابها من فعل أو شبهه"[39].

وضحى بفتح الحاء وكسرها [ضَحِيَ]: بَرَزَ للشمس، وليس هذا لتقييد الجزاء به، إذ محوُ[40] نوره الظل يكون في كل وقت لكنه في الضحى أظهر، لقوة ضياء الشمس. ونوره فاعل محا والظل مفعوله، والمراد به ظل ذاته الكريمة، و كل نور [لا] مبالغة بل حقيقة، لأن نوره ﷺ أصل كل نور ولا تبقى معه ظلمة، ومنها يكون الظل. قال ابن حجر: "أو يكون الظل استعارة للضلالة والعناد، والنور استعارة لما جاء من الهدى والرشاد، وضحى استعارة لظهوره [ﷺ] ورسالته الجليلة. وبين ضحى ومحا الجناس اللاحق، وبين ضحى والضحاء جناس الاشتقاق"[41]. و الظلال جمع ظل، قال الثعلبي في قوله تعالى "كيف مد الظل"[42] ما نصه: "وهو من وقت طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وإنما جعله ممدودا لأنه لا شمس معه، كما قال في ظل الجنة -وظل ممدود-[43] لأنه لم تكن معه شمس، -ولو شاء لجعله ساكنا-[44] أي دائما لا يزول ولا تذهبه الشمس. قال أبو عبيد: -الظل ما نسخته الشمس وهو بالغداة، والفيء ما ينسخ الشمس وهو بعد الزوال، سمي فيئا لأنه يفيء من جانب المشرق إلى جانب المغرب"[45]. والضَحاء بفتح أوله والمد، ما قرب من انتصاف النهار، "فنبينا ﷺ أكمل من الشمس رفعة وضياء، لأن نورها يثبت الظل ونوره يمحوه، ويدل على ذلك ما ثبت من خصائصه ﷺ أنه إذا مشى في الشمس لا يظهر له ظل، لطهارة ذاته ولأن الله تعالى استجاب دعاءه المشهور أن يجعله كله نورا، فكانت ذاته في غاية الإضاءة حتى لا يحجب ما يقابلها"[46].

---

[38] سورة الانشقاق، الآية 1.
[39] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.312، بالاختصار.
[40] يعني أنه ﷺ لم يكن له ظل لا في الشمس ولا في القمر، وقد ذكر ذلك بعض أصحاب السير، ومنهم البهوتي الحنبلي في "كشاف القناع" والقسطلاني في "المواهب اللدنية بالمنح المكية"، وليس على ذلك إجماع.
[41] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.313، بالتصرف والاختصار.
[42] سورة الفرقان، الآية 45.
[43] سورة الواقعة، الآية 30.
[44] سورة الفرقان، الآية 45: "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا".
[45] الثعلبي، الكشف والبيان، ج.7، ص.139.
[46] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.313 و314.

ولما ذكر [الناظم] أن نوره [ﷺ] يمحو الظل وظاهره العموم، ورأى أنه يرذ[47] عليه إشكال لصحة تظليل الغمامة له قبل النبوءة، أجاب عنه بقوله:

فكأن الغَمامة اسْتَوْدَعَتْهُ --- مَن أظلَّت بظلِّهِ[48] الدُّفَفاء

الغمامة: السحابة، وهي اسم كأن التي للتشبيه، وجملة استودعته خبرها، والضمير المنصوب وضمير بظله راجعان إلى النبي ﷺ، ومَنْ أي أُمة مفعول ثاني لاستودعته، ومفعول أظلت محذوف يعود إلى الأمة، أي من أظلتهم، وفاعله الدففاء بفاءين مفتوحين: "جمع دافٍّ كعالم وعلماء، وهو الجيش يدفُّ إلى العدو أي يدفع إليه"[49]، وقيل جمع دافة كعامة وكافة، والمعنى واحد والمراد به هنا جيوش الصحابة رضي الله عنهم.

والمعنى على هذا أن الغمامة التي كانت تظل النبي ﷺ، استودعته أمة أظلتهم الصحابة من ظله، وأمدتهم بما حصل لهم من مده، قال ابن حجر: "وحاصل الجواب أن تظليل الغمامة له قبل النبوءة كان لحكمتين، إحداهما إرهاص وتأسيس للنبوءة، والثانية إعلامه ﷺ بما سيؤول إليه أمره من أن الله سيجعل له أمة هي أكثر الأمم، وأنهم قرون، وأن كل قرن يستمد ممن قبله، وأن الكل مُستمدٌ ومُمَدٌ من ظله ﷺ، فلا تنافي بين محو نوره الظل وبقاء ظل الغمامة مع نوره، لأن المحو هو الأصل المستمر، والبقاء إنما كان في وقت مخصوص على خلاف الأصل للحكمتين المذكورتين"[50]. قال العلامة سيدي محمد المسناوي رحمه الله: "وهذا من مشكلات هذا النظم لا يتحصل منه جواب، والظاهر أن يقال في الجواب أن النور التام الذي محيت به الظلال لم يكن بتمامه حال تظليل الغمامة له ﷺ، أو يقال لا مانع من تظليل الغمامة له ولا يكون لها ظل لانمحائه بنوره ﷺ، على أن الظاهر أن الناظم لم يقصد هذا الإشكال منه ولا الجواب عنه، وإنما خطر بباله تظليل الغمامة له [ﷺ] الذي هو أمر حسي، وتظليله لأمته بظله المعنوي، بسبب ما نبه عليه من أن نوره محى

---

[47] أي يُضَعِّفُه.
[48] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "من ظله".
[49] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.315.
[50] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.315، بالتصرف.

الظلال، فأراد أن ينبه على الأمرين، إلا أنه تُخيل له أن ظله المعنوي استودعته عنده الغمامة التي كانت تظله ليظل به أمته خدمة منها له ﷺ، لما تعلم من محبته لأمته، كما خدمه ﷺ القمر حيث انشق له، والشمس حيث رجعت له كما رجعت ليوشع على نبينا وعليه الصلاة والسلام". قال الشيخ زكرياء: "فكأن الغمامة، أي لما ضحى استودعته، أي طلبت منه أن يودعها ظله لتظله به". "ودف ودفيف الطائر: مروره فُوَيْقَ الأرض"[51] كما في القاموس، فدففاء جمع داف، وهو خبر كأن، وجملة استودعته حال من الغمامة على إضمار قد، والهَاءُ في استودعته تعود على المحو بنوره ﷺ، ومن أظلت مفعول ثاني واقعة على النبي ﷺ.

والمعنى: كأن الغمامة الدَّفَفاء، والحال أنها قد أودِعت ظل رسول الله ﷺ الذي أظلته به.

[ثم قال الناظم]:

خَفِيَت عندهُ الفَضائلُ وانْجَا --- بَتْ بِهِ عن عُقولنا الأهْواء

الخفاء ضد الظهور، أي لم تظهر فضائل كل ذي فضل غيره [ﷺ] وإن عظمت في نفسها، بالنسبة لما أوتيه ﷺ من الكمالات التي لا تضاهى والمزايا التي لا تتناهى، ويجري في هذا ما سبق في قوله [أي الناظم]: "فاستقلت لذكره العظماء". وانجابت أي انكشفت بسبب ما بثه [ﷺ] فينا من علومه وآدابه، كُلُّ الأهواء: جمع هوى بالقصر أي هوى النفس، من جميع الضلالات والعناد والزيغ والفساد، فلم نقع في ورطةِ شيءٍ من ذلك، كما وقع فيه مَن أعرض عن الهدى وسلك سبيل الردى، فهو [ﷺ] المنقذ لنا من كل هلاك بفضل الله سبحانه. والعقول جمع عقل، وهو لغةً المنع لأنه يَعقِل صاحبه عن الوقوع في المهالك، وأحسن ما قيل فيه اصطلاحا: "إنه نور روحاني، به تُدرِكُ النفوس العلوم الضرورية والنظرية، وابتداء وجوده عند اجتنان الولد، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ"[52]. وقيل محله الدماغ لأن من ضرب في رأسه غاب عقله، وقيل محله القلب.

---

[51] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.551.
[52] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.317.

ثم ضرب [الناظم] مثلا للمسألتين المذكورتين على اللف والنشر[53] المرتب فقال:

أَمَعَ الشمسِ للنجومِ تَجَلٍّ --- أم مع الصُّبحِ للظلامِ بَقاء[54]

الاستفهام إنكاري معقود على النفي.

والمعنى: إنما خفيت فضائل الكُمل عند فضله، لأنه ﷺ بالنسبة إليهم كالشمس حين تطلع، فلا يمكن للنجوم التجلي حينئذ ولا ظهور لهم معها أصلا، فكما أن النجوم لا تظهر مع الشمس، فكذلك فضائل الكمل لا تظهر مع فضائله [ﷺ]. وإنما انكشفت الأهواء عن عقولنا بعلمه ﷺ، لأنه بالنسبة إليها كالصبح للظلام، فلا بقاء له معه، فكما أزال الصبح ظلام الليل، فكذلك أذهب علمه عن عقولنا ظلمة الضلالة والجهالة، "وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله"[55]. وبين الصبح والنجوم والشمس والظلام جناس التقابل.

ثم استأنف [لناظم] نظير قوله "شمس فضل" وما بعده، فقال:

مُعجزُ القولِ والفِعالِ كريمُ --- الخَلْقِ والخُلْقِ مُقسِطٌ مِعْطاء

يعني: إن إعجاز قوله ﷺ مِنَّةَ الله تعالى عليه بجوامع الكلم التي أوتيها دون غيره، فهو أفصح مَن نطق وأوجز مَن تكلم، فلا يقدر غيره أن يأتي بمثل ما تكلم به، لِما في كلامه من كثرة الأسرار والحكم، والاشتمال على كثرة المعاني مع قلة الألفاظ، حتى قال بعض الأئمة أن "كلامه معجز كالقرآن"[56]. وكأن الناظم اعتمد هذا القول حيث عبَّر بما يوافقه، وإن احتمل مذهب الأكثرين أن كلامه [ﷺ] غير معجز. وأنه ﷺ أيضا معجز الفعال، والأوْلى فَتح فائه ليختص بالمعالي، قال في القاموس:

---

[53] اللف والنشر في البلاغة هو لف شيئين والإتيان بتفسيرهما.

[54] في "المنح المكية" المطبوع كُتب البيت: **أَمَعَ الصبح للنجومِ تَجَلٍّ --- أم مع الشمس للظلامِ بَقاء**. ونلاحظ أن سيدي يحيى عند ذكر الجناس قابل بين الصبح والنجوم ثم بين الشمس والظلام، وذلك أقرب للفظ البيت عند الشيخ الهيتمي. ولربما نقل سيدي يحيى الجناس عن الشيخ الهيتمي دون الانتباه أنه كتب البيت مغايرا، وكان الأحرى أن يكتب: " وبين الشمس والنجوم والصبح والظلام جناس التقابل".

[55] سورة الأعراف، الآية 43.

[56] نقله سيدي يحيى عن الشيخ ابن حجر الهيتمي (المنح المكية، ص.318)، ويضيف الشيخ الهيتمي ما يفيد أن مذهب الأكثرين يقول بأن كلامه ﷺ غير معجز.

"والفَعال كسحاب: اسم لفعل الحسن والكرم"[57]. وقال ابن حجر: "فلا يقدر مخلوق أن يوجد فعلا مطابقا لسائر المصالح الظاهرة والباطنة في ذلك الوقت الذي أوجد فيه ذلك الفعل غيره ﷺ، وهذه مرتبة وإرث الحضرة الإلهية، التي لا يدخل أحد إليها إلا بإذن"[58]. وإنه ﷺ كريم الخَلْق بفتح فسكون، وهو صورته الظاهرة، أي كاملة من كل وجه. وكريم الخُلق أيضا بضمتين وبضم فسكون، وتقدم بعض ذلك عند شرح قوله "ما سوى خلقه النسيم" البيت. "ومُقسط أي عدل في أقواله وأفعاله وأحكامه، فلا يصدر منه شيء قط إلا في غاية العدل، ظاهرا وباطنا، إجماعا"[59]، وقد تقدمت عصمته ﷺ. ومِعْطاء مِفْعال بكسر أوله: مبالغة في الإعطاء، أي أنه كثير الإعطاء[60]، الذي يعجز عن أدناه الملوك. وصح عند الترمذي وغيره: "ما سئل رسول الله ﷺ قط فقال لا"[61]، وعنده أيضا عن علي كرم الله وجهه قال: " من سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بالميسور من القول"[62]، وفي رواية له وللبخاري أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فسأله أن يعطيه فقال النبي ﷺ: "ما عندي شيء ولكن ابتع عليَّ، فإذا جاء شيء قضيته"[63] الحديث. وصح عن أنس قال: "كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس"[64]، وصح أنه ﷺ أعطى أعرابيا ما بين جبلين غنما، فرجع إلى أهله فقال: "أسلموا، فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر"[65]. وقيل: "عدَّ قومٌ ما أعطى يوم حنين، فكان خمسمئة ألف ألف، وأتى بمال من البحرين فكان مئة ألف، فأمر بصبه في المسجد، وخرج إلى الصلاة فلم يلتفت إليه، ثم جلس بعدها ففرقه فلم يدع منه درهما، وكان مع ذلك يربط الحجر على بطنه من الجوع"[66]. ومن ثم قال [الناظم]:

---

[57] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1255.
[58] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.318.
[59] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.319.
[60] يستعمل سيدي يحيى "الإعطاء"، ويستعمل الشيخ الهيتمي "العطاء" في تفسير هذا البيت. والإعطاء بمعنى التمليك، بينما العطاء بمعنى الهبة والإحسان، ولست مؤهلا لترجيح أي من القولين أبلغ، ولكن فقط أشير لذلك للأمانة.
[61] أخرجه الإمامين البخاري ومسلم في صحيحيهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
[62] الترمذي، الشمائل المحمدية، ج.1، ص.182.
[63] الترمذي، الشمائل المحمدية، ج.1، ص.191.
[64] أخرجه الإمامين البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
[65] أخرجه الإمام مسلم.
[66] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.320.

لا تقِس بالنبيِّ في الفضلِ خَلقا --- فهو البحرُ والأنامُ إضاء

يعني أن فضل النبي ﷺ على سائر الخلق كاد أن يكون مما عُلم من الدين ضرورة، وقد تقدم فضله في المقدمة أول الكتاب[67]، وفي غير ما موضع بالكتاب[68] والسنة والإجماع. وتقس مضارع قاس الشيء بغيره أي قدَّره على مثاله، والمراد بالنبي نبينا محمد ﷺ، وخلقا أي مخلوقا.

والمعنى: لاتعتقد أيها المتأمل في كمالاته أن مخلوقا يساويه، أو يقاربه في الفضل الجامع لأوصاف الكمال المذكورة وغيرها مما لا حد له، وكذلك كل وصف على حِدته، لأنه ﷺ وصل في كل وصف من أوصافه إلى غاية لا يلحقه فيها غيره، لا مَلَك مقرب ولا نبي مرسل. وقد يكون قوله لا تقس من التجريد بأن يُجرد شخصا من نفسه ويخاطبه، فالنبي ﷺ بالنسبة إلى المخلوقات البحر، أي الجامع لكل كمال البالغ فيه النهاية. والأنام، وهو الخلق أو الجن والإنس، بالنسبة إليه إضاء بكسر أوله ممدودا، جمع أضات بالفتح وهو الغدير، ويجمع على أضى كفتات وفتى، وفي القاموس: "الأضاة: المستنقع من سيل وغيره، الجمع أضوات وأضيات وأضى وإضاء"[69]. وشتان ما بين البحر والغدير، ففيه مراعاة النظير، قال العلامة سيدي الحسن الزياتي، في شرحه لصلاة الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش عند قوله رضي الله عنه "فأعجز الخلائق"، ما نصه: "أي أعجز كل مخلوق، وآدم منهم، عجزوا كلهم عن بلوغ مرتبته وعلو مكانته وإدراك علمه. قال في الشعب: -وانظر أحاديث الإسراء والآيات واردة فيه، فقد ركب البراق ورقى المعراج وركب الرفرف، وجاوز مقامات الأملاك والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلى أن كان قاب قوسين أو أدنى، فإنما صعد ﷺ إلى مقامه الأول، الذي هو بدء النور الذي خلق منه العرش من نوره الأول الذي ليس بينه وبين الله [تعالى] واسطة ، بل هو الواسطة للوجود كله-. ومن هذا الفهم حديث قتادة رضي الله عنه الذي ورد أن الله يجلس محمدا ﷺ على العرش لاستغنائه على الكل، فيكون مشرفا على الوجود كله، لأن الوجود

---

[67] يعني مؤلفه هذا.
[68] أي القرآن الكريم.
[69] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.60.

من نوره ومن جماله استنار، وليست تظهر منزلته ﷺ التي ظهرت لأهل العلم لعموم الخلق إلا في الآخرة ، ويشهد لذلك قوله ﷺ: -أنا سيد ولد آدم ، أنا حامل لواء الحمد، أنا سيد الأولين والآخرين ، أنا أول من يحرك حلق الجنة ، أنا أول شافع، أنا أول مشفع ، أنا أول من تنشق عنه الأرض-"[70]. وتقدم حديث "لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملَك مقرب ولا نبي مرسل"، عند قوله [أي الناظم]: "رتب تسقط الأماني".

ثم أتى [الناظم] بما يشهد لأفضليته [ﷺ]، فقال:

كلُّ فَضلٍ في العالمينَ فَمن فَضْـ --- ـلِ النبيِّ استعارهُ الفُضَلاء

يعني أن كل فضل أولاه الله تعالى من شاء من عباده، ووُجِدَ في الفضلاء من العالمين أو في غيرهم، فهو مستعار، أي مأخوذ، من فضل هذا النبي الأكرم على ربه من كل مخلوق، لأنه الممد لهم، إذ هو وارث الحضرة الإلهية، المستمد منها بلا واسطة دون غيره، فإنه لا يُستَمَدُّ منها إلا بواسطته، فلا يصل منها لكل كامل شيء إلا من مدده وعلى يديه. ويدل لهذا قول الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش "ولا شيء إلا وهو به منوط"، قال شارحه الإمام الزياتي: "أي إناطة استناد واستمداد، فالكل مستمد منه ومستند إليه"[71]. وسيأتي أنه ﷺ بذرة الوجود وعنه نشأ كله، ثم قال [الزياتي] عند قول الشيخ [ابن مشيش]: "إذ لولا الواسطة لذهب": "هذا علة لقوله: -ولا شيء إلا وهو به منوط -، والمراد بالواسطة نبينا محمد ﷺ، فإن تسميته بالواسطة للوجود شائع بين القوم، لانفصال الكل عنه وبسببه، ولذا أتى به ظاهرا ولم يقل -إذ لولا هو لذهب-، والمراد بالموسوط الوجود بأسره عداه ﷺ، فإن وجوده بلا واسطة"[72]، وكذا قال غيره ممن تكلم على هذا المحل. ومن الذهب الإبريز، تأليف الإمام الهمام خاتمة المحققين بحضرة فاس، سيدي أحمد بن مبارك السجلماسي، أنه سمع من شيخه العارف بالله مولاي عبد العزيز، عُرف بالدباغ الحسني، حاكيا عن سيدي محمد بن عبد الكريم البصراوي، في قول الشيخ عبد السلام [بن مشيش] في

---

[70]الحسن الزياتي، شرح الصلاة المشيشية، https://shadilia-mashishia.yoo7.com/t376-topic.
أعرض سيدي يحيى عن نقل جملة وردت في المرجع الذي أشرت إليه، لأنه ربما وجدها منافية للعقيدة السنية.
[71]الحسن الزياتي، شرح الصلاة المشيشية، https://shadilia-mashishia.yoo7.com/t376-topic.
[72]نفس المرجع السابق.

صلاته المذكورة: "اللهم صلي على من منه انشقت الأسرار"، ما نصه: "لما أراد الله [تعالى] إخراج بركات الأرض وأسرار ما فيها من المياة والأشجار والثمار والأزهار، أرسل سبعين ألف ملَك إلى سبعين ألف ملَك إلى سبعين ألف ملَك، فنزلوا يطوفون في الأرض، فالسبعون الأولى يذكرون اسم النبي ﷺ، والسبعون الثانية يذكرون قربه من ربه عز وجل، والسبعون الثالثة تصلي عليه، ونوره ﷺ مع الطوائف الثلاث، فتكونت الكائنات ببركة ذكر اسمه ﷺ. وذكروه على الأرض فاستقرت، وعلى السماء فاستقلت، وعلى مفاصل ذات ابن آدم فلانت بإذن الله، وعلى مواضع عينيه ففُتحت بالأنوار التي فيها، فهذا معنى قوله -منه انشقت الأسرار-. فقلت: فهذا معنى قول دلائل الخيرات -وبالاسم الذي وضعته على الليل فأظلم...-، قال: نعم ذلك الاسم اسم نبينا ومولانا محمد ﷺ، فببركته تكونت الكائنات"[73]. ثم قال: "وقد سبق أول الكتاب قول سيدي أحمد بن عبد الله الغوث لمريده: -لولا نور سيدنا محمد ﷺ ما ظهر سر من أسرار الأرض، ولا تفجرت عين ولا جرى نهر، وإن نوره ﷺ يفوح في شهر مارس ثلاث مرات على سائر الحبوب، فيقع لها الإثمار ببركته ﷺ. وإن الذات تكل أحيانا من [حمل] الإيمان، فتريد أن ترميه، فيفوح نور النبي ﷺ فيعينها على حمله فتستحليه وتستطيبه"[74]. ثم قال [سيدي عبد العزيز الدباغ]: "وإن الأمم الماضية يقع الفصل بينهم وبين الجنة عند دخولها، حيث تنكمش عنهم وتنقبض، وتقول لهم: -لا أعرفكم، لستم من نور محمد ﷺ-، فيقع الفصل بأنهم، وإن سبقوا عليه، فهم ممتدون من أنبيائهم وأنبياؤهم عليهم الصلاة والسلام ممتدون منه ﷺ، فالجميع ممتد منه، فلولا الدم وما سبق في الإرادة الأزلية لكان هذا الواقع في دار الدنيا"[75]. ثم قال [سيدي أحمد بن مبارك]: "وقال [الدباغ] رضي الله عنه، في قول الشيخ [بن مشيش] -وانفلقت الأنوار-: -أولُ ما خلق الله تعالى نورُ سيدنا محمد ﷺ، ثم خلق منه القلم والحجب السبعين وملائكتها، ثم خلق اللوح، ثم بعد[76] كماله وانعقاده خلق العرش والأرواح والجنة والبرزخ، ثم بعد هذا

---

[73] أحمد بن مبارك، الإبريز، ص.374، بالاختصار.

[74] نفس المرجع والملاحظة السابقين.

[75] أحمد بن مبارك، الإبريز، ص.376، بالاختصار.

[76] في المرجع المطبوع كُتب "قبل". وكتب سيدي يحيى "بعد كماله"، وأشاطره القول إذ لا يصح أن نقول بخلق

أسقى هذه المخلوقات أيضا من نوره ﷺ. أما القلم فسُقي سبع مرات سقيا عظيما، وهو أعظم المخلوقات حتى كأنه لو كشف نوره لجُرمِ الأرضِ لدُكت وصارت رميما، وأما الحجب السبعون فإنها في سُقي دائم، وأما العرش فسُقي مرتين، مرة في ابتداء خلقه ومرة بعد خلقه لتستمسك ذاته، وكذلك الجنة. وأما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وسائر المؤمنين من هذه الأمة وغيرها، فإنهم سقوا ثمان مرات: الأولى في عالم الأرواح حين خلق الله نور الأرواح جملة فسقاه. الثانية: حين جعل يصور منه الأرواح، فسقى كل روح به عند تصويرها منه. الثالثة: يوم -ألست بربكم-[77]، فكل من أجاب الله تعالى من أرواح المومنين والأنبياء سُقي من ذلك النور، فمنهم مَن سقي كثيرا ومنهم مَن سقي قليلا، فمِن هنا وقع التفاوت بين المومنين والأولياء، وأما أرواح الكفار فإنها كرهت شُرب ذلك النور وامتنعت [منه، فلما رأت ما وقع للأرواح التي شربت منه من السعادة الأبدية والإرتقاءات السرمدية، ندمت وطلبت سقياً][78]، فسقيت من الظلام والعياذ بالله. الرابعة: عند تصويره في بطن أمه، وتركيب مفاصله لِتَلين، وشق بصره وانتفاخ سمعه وبصره. الخامسة: عند نفخ الروح فيه، فلولا سَقي الذات بالنور الكريم ما دخلت فيه الروح أبدا، ومع ذلك فلا تدخل فيه إلا بكلفة عظيمة وتعب يحصل للملائكة معها. السادسة: عند خروجه من بطن أمه ليُلهمَ الأكل من فمه. السابعة: عند التقامه ثدي أمه في أول رضاعه. الثامنة: عند تصوره عند البعث لتمتسك ذاته. فهذا السُقي في المرات الثمان اشترك فيه الأنبياء والمومنون، من سائر الأمم ومن هذه الأمة، والفرق بينهم أن ما سُقي به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قدر لا يطيقه غيرهم، فلذلك حازوا درجة النبوة والرسالة، وأما غيرهم فكل سُقي بقدر طاقته. والفرق بين سُقي هذه الأمة الشريفة وغيرها من سائر الأمم، أن هذه الأمة الشريفة سُقيت من هذا النور الكريم بعد أن دخل في الذات الطاهرة، ذاته ﷺ، فحصل له من الكمال ما لا يطاق ولا يُكيَّف، لأن النور الكريم أخذ سر روحه الطاهرة وسر ذاته الباهرة ﷺ، بخلاف سائر الأمم، فإن النور في سقيها إنما أَخذَ سر الروح فقط، فلهذا كان المومنون من

الله عز وجل اللوح دون كمال وانعقاد أول مرة.

[77] سورة الأعراف، الآية 172.

[78] أضفت هذا المقطع من المرجع المطبوع، لمزيد توضيح المعنى.

هذه الأمة الشريفة كُمَّلا وعدولا وسطا، وكانوا خير أمة أخرجت للناس. وكذا سائر المخلوقات سُقيت من النور الكريم، ولولا النور الكريم الذي فيها ما انتفع أحد منها بشيء"[79]. وقال العلامة سيدي الحسن الزياتي عند شرحه لهذا المحل ما نصه: "قال في الشعب: وقد روت عائشة رضي الله عنها في تفسير قوله تعالى -وإنك لعلى خلق عظيم-[80]: -كان خُلقه القرآن-، والقرآن هو النور المبين الذي منه يُستمد كل نور في الموجودات، والقرآن هو الجامع للأسماء والصفات الربانية، القائمة بها جميع الأشياء. فأوجد الله تعالى من كل معنى من معاني أسمائه وصفاته معاني مُحدثة بثها في العالمين، فأوجد العلم من علمه"[81]. ثم قال: "فأول ما خلق تعالى، نور سيدنا محمد ﷺ، فكان بذرة الوجود كله كما تنشأ الشجرة عن البذرة، حتى كملت الموجودات الكليات، ثم خلق آدم عليه السلام وولده، والنور يمد الكل من الأصل، حتى ظهر جسده الطاهر في آخر الدنيا، فهو السابق وجودا واللاحق نشأة"[82].

ثم قال [الناظم]:

شُقَّ عن صَدرهِ فشُقَّ[83] له البَدْ --- رُ ومِن شَرطِ كُلِّ شَرطٍ جَزاء

ورَمَى بِالـحَصَى فأَقْصَدَ جَيْشــاً --- ما العَصا عِنــدهُ ومــا الإِلْقاء

شُق بالبناء للمفعول، وعن صدره نائب الفاعل، وفي نسخة عن قلبه، وكلاهما صحيح لأنه شق صدره أولا ثم قلبه، قال ابن حجر: "تكرر ذلك أربعة مرات أو خمساً مبالغة في التخليص والتطهير من الأغيار، ولم يحصل لأحد من الكمل نظير ذلك، والكلام على شق صدره مستوفى في معجزات رضاعه ﷺ. ولذلك شُق له القمر بمكة قبل الهجرة بنحوخمس سنين، لما كذبه كفار مكة وطلبوا منه آية، وبالغوا

---

[79]أحمد بن مبارك، الإبريز، ص.376 إلى ص.379، بالتصرف. وقفت على وجود فرق أساسي بين نقل سيدي يحيى الشبيهي وبين النص المطبوع، حيث ينقُل سيدي يحيى ويسرد سقي الأمة الإسلامية ثمان مرات، أما المرجع المطبوع فيحدها في سبعة ويسردها كذلك. كما لاحظت أن السقية الرابعة، حسب نقل سيدي يحيى، يضعها المرجع المطبوع في المرتبة السابعة، وهو غير منطقي لأنه يقول بنفخ الروح في المولود بعد رضاعه من ثدي أمه، وأما سيدي يحيى فرتب المراحل ترتيبا منطقيا، وقال بنفخ الروح في الجنين في بطن أمه.

[80]سورة القلم، الآية 4.

[81]الحسن الزياتي، شرح الصلاة المشيشية، النص الإلكتروني المشار إليه سابقا.

[82]نفس المرجع السابق، بالاختصار.

[83]في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "وشق".

في عناده والتعنيف عليه في الدلالة على صدقه، فانشق له القمر بنصفين كما نص عليه القرآن وصحت به الأحاديث وأجمع عليه الأئمة، إعلاما بصدقه ﷺ في دعواه الرسالة. وجاء في رواية أن فرقة منه كانت فوق جبل حراء، وأخرى كانت أسفله"[84]. وفي رواية للبخاري عن أنس: "أن أهل مكة [سألوا] رسول الله ﷺ أن يريهم [آية] فأراهم القمر شقتين حتى [رأوا] حراء بينهما"[85]. وفي رواية أنه ﷺ قال لهم: "اشهدوا، فقالوا سحرنا محمد، ثم اتفقوا أن يسألوا الركبان، فجاؤوا من كل جانب فأخبروهم بذلك، فقالوا لا يستطيع محمد أن يسحر الناس كلهم"[86]. والشرط عُرفا: ما علق عليه غيره، والجزاء: ما رتب على الشرط، والشرط لغة: شق الجلد واللحم بالجرح، وهو المراد بالشرط الثاني، وبينه وبين الأول الجناس التام. وفي قوله جزاء تورية[87]، إذ هو لفظ مشترك يطلق على الجواب في عرف النُّحاة، وعلى المجازاة أي المكافأة على الخير. ولما حصل له ﷺ الروع بشق صدره المرة بعد المرة، جوزي عليه بجزاء عظيم، مشابه له صورة وهو شق القمر، ولم يقع انشقاقه لغيره ﷺ، وهذه من أعظم معجزاته وأبهرها، فلا يعدلها شيء من آيات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لظهورها في ملكوت السماوات خارجا عن هذا العالم بجملة طباعه المركب منها، فلا مطمع لأحد في الوصول إليها بحيلة. والبدر أخص من القمر، فلا يكون بدرا إلا في الليلة الرابعة عشر، لأنه أظلم لا نور له وإنما يستمد من نور الشمس، وسُمي بذلك لأنه حينئذ يقابل الشمس في الفلك بجميع جرمه، فتكمل نورانيته، وقيل لمبادرته الشمس بطلوعه يومئذ كأنه يستعجلها المغيب. وظاهر تعبير الناظم به أن شقه كان في تلك الليلة، وليس في أحاديثه تصريح بذلك وإن كان متبادر إلى الفهم، وقد يقال لا مانع من أن يكون جعله الله بدرا في غير تلك الليلة فشقه تكميلا للمعجزة، ثم رجع إلى حاله.

وأقصد: أصاب فأهلك، أشار به إلى ما وقع في غزوتي بدر وحُنين، وذلك أنه ﷺ

---

[84] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.325 و326، بالاختصار.

[85] صحيح الإمام البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر. في النسخة الصبيحية تُرك فراغ في موضع المزدوجتين، وقد ملأته بالرجوع إلى المصدر.

[86] أخرجه البيهقي في "الدلائل"، وبنحوه الترمذي وأحمد.

[87] التورية : هي أن تحمل كلمة أو جملة مَعْنَيَيْن، أحدهما أقرب إلى الذهن لكنه ليس المقصود، والثاني بعيد وهو المقصود.

تناول كفا من الحصى لما التقى الجمعان، فرمى به في وجه العدو وقال: "شاهت الوجوه"[88] أي قبحت وانهزمت، فلم يبق منهم مشرك إلا دخل في عينيه ومنخره شيء من ذلك الحصى، فانهزموا وتفرق شملهم، مع كثرتهم وقلة الحصى، ومن ثم قال ما العصا عنده أي عند رميه بالحصى، والمراد بها عصا سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

والمعنى أن معجزته بإلقاء العصا وانقلابها حية، وإن كانت عظيمة في نفسها، فإنها لا تعدل مُعجزة سيدنا محمد ﷺ "ولا تقاس بها، بل هذه المعجزة أبهر وأظهر، لأن العصا من حيث انقلابها حية، محاكية لانقلاب حبال سحرة فرعون وعصيهم حيات، وابتلاعها لتلك الحيات والعصي، ولم تقهر عدوه بل زاد معها عُتوا وطغيانا عليه وعلى قومه"[89]. ومعجزة نبينا ﷺ لم تُحاكَ قط، ووصول تلك الحصيات القليلة إلى جميع تلك الجيوش الكثيرة والألوف المؤلفة، حتى هزمتهم عن آخرهم وتفرق شملهم مع كثرتهم، فأُسر من أسر وقتل من قتل، أكمل وأعظم. وبين العصا والحصى الجناس اللاحق.

ثم قال [الناظم]:

ودَعا للأنـــــامِ إذ دَهِمتـــهم --- سَنَةٌ مِن مُـــحولِـــها شَهْبـــاء

فاستَهلَّـــت بالغَيث سبعةَ أيا --- مٍ عـــليهم سَـحابةٌ وَطْـــفاء

تتحرَّى مواضعَ السَّقيِ والرَّع --- يِ وحيثُ العِطاشُ تُوهَى السِّقاء

الأنام: الخلق أو الجن والإنس أو جميع ما على وجه الأرض، والمراد به هنا أهل المدينة ومن حولهم. ودعا: يتعدى باللام في الخير[90] وبِعَلى في الشر، وإذ ظرف أو تعليل له، والسنة: زمن القحط والجدب أو مدة إثنى عشر شهرا، وهو فاعل داهمتهم، أي غشيتهم أو أصابتهم، وشهباء أي لا خضرة فيها ولا مطر نعتٌ لسنة. قال ابن

---

[88]أخرجه الدرامي في سننه وابن حبان في صحيحه، وخصا به موقعة حنين وقالا "كفة من تراب" وليس الحصى. وأخرجه الطبري في تفسيره، وقال عن موقعة بدر أنه ﷺ أخذ ثلاث حَصَيات.

[89]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.333، بالتصرف.

[90]أي دعا لـفلان.

حجر: "فعلى الأول شهباء تأكيد، وعلى الثاني تأسيس"[91]. والمحول جمع محل وهو شدة الجدب والقحط، وأشار بهذا إلى ما في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: "أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله ﷺ، فبينما هو يخطب يوم الجمعة، إذ قام رجل فقال: -يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا-، فرفع يديه ودعا وليس في السماء قطعة سحاب، فما وضعهما حتى كان السحاب كأمثال الجبال، فلم ينزل حتى أصابه المطر، واستمر إلى الجمعة الأخرى"[92] الحديث.

واستهلت أي صبت المطر الغزير، وسحابة فاعله، ووطفاء: مسترخية الجوانب لكثرة ما بها، نعتٌ لسحابة. وتتحرى أي تقصد بنزول مطرها المواضع المعتادة للسقي والرعي، ولم تقصر على ذلك بل عمت حتى المواضع المعطشة، ومن ثم عطف عليه.

وحيث العِطاش بكسر أوله: جمع عطشان، مبتدأ السِّقاء ككِساء كما في القاموس: "جلد السخلة إذا اجتمع، يكون فيه الماء واللبن"[93]، نائب فاعل يوهي أي يتشقق ويخترق لطول عهده بالماء عند نفوذه منه. والجملة خبر المبتدأ، والعائد عليه محذوف، والـ في السقاء خلف عنه. والمراد أن السقاء يتلاشا ويُتخرق لشدة امتلائه بالماء حتى في البلاد المعطشة المعتادة بعدم الماء، لكثرة ذلك المطر ببركة دعوته ﷺ، والتقدير وحيث العطاش يوهي سقاؤهم من كثرة الماء أو لقلته لنزولهم بالبلاد المعطشة.

ثم قال [الناظم]:

وأتى الناسُ يشتكون أذاها --- ورَخــاءٌ يُؤذي الأنـــامَ غَلاء

فدعا فانجلى الغمامُ فَقُل في --- وَصفِ غيثٍ إقلاعهُ استسقاء

---

[91] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.334.

[92] من حديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الاستسقاء، باب "من تمطر في المطر". وأخرجه الإمام مسلم في باب "الدعاء في الاستسقاء".

[93] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.784. في المرجع المطبوع كُتب "أجذع" عوض "اجتمع".

المراد بالناس، الرجل الذي اشتكى إلى النبي ﷺ بطول المطر[94]، وعبَّر عنه بالناس لاشتراكهم معه في ما أصابهم فهم مشتكون معه في الحقيقة، فلذلك أسنده إلى جميعهم، كقوله تعالى "الذين قال لهم الناس"[95]، الآية. والقائل واحد، وأشار بهذا إلى تمام الحديث السابق بعد قوله "واستمر إلى الجمعة الأخرى"، ونصه: "فقام ذلك الرجل، أو غيره، فقال: -يا رسول الله، تهدم البناء وغرق المال،فادع الله لنا-، فرفع يديه وقال [ﷺ]: -اللهم حوالينا ولا علينا-، فأقلعت السحاب وخرجوا يمشون في الشمس، وسال وادي قناة شهرا" الحديث. والمراد بأذاها ما ذكر من الهدم والغرق وغيره، ورخاء مبتدأ، أي سعة المطر، ويؤذي صفة له، وغلاء خبره، وهو ارتفاع الأسعار المؤدي إلى الشدة. وبين أذاها ويؤذي جناس الاشتقاق، وبين رخاء وغلاء جناس التضادد.

والفاء في فدعا للسبب عن الشكاية، وفَاء فانجلي للسبب عن دعائه ﷺ، أي زال الأذى بانجلاء الغمام، أي السحاب، عقب دعائه ﷺ، فخرجوا[96] في الشمس، كما في الحديث. وقوله فقل هو من التجريد، بأن يجرد من نفسه شخصا فيخاطبه، وإقلاعه وما بعده، جملة محكية بقل، أي قُل أيها الواصف مُتعجبا في هذا الأمر المعجب عند وصفك له: إقلاع السحاب، أي انكشافه، خالف المعتاد فصار استسقاءً لكثرة الانتفاع به، وإنما يكون الاستسقاء غالبا بنزول المطر لا برفعه، وهذا عمَّ النفع به في الحالين ببركته ﷺ.

---

[94]يشير هنا سيدي يحيى إلى تتمة الحديث السابق ذكره، الذي أخرجه الإمامين البخاري ومسلم في صحيحيهما، إذ استمر المطر لأسبوع بعد الدعوة الشريفة، فطُلب من النبي ﷺ أن يدعو الله حتى يوقف المطر. وسوف يذكر سيدي يحيى تتمة الحديث فيما بعد.

[95]سورة آل عمران، الآية 173.

[96]أي من صلاة الجمعة.

الفصل الثامن: من البيت 150 إلى البيت 169

قال [الناظم]:

ثُم أثْرى الثّرى فَـقَرَّت عُيونٌ --- بِـقُراها وأُحْيِيَت أَحـــــياء

فـتَرى الأرضَ غِبَّهُ كسمــاءٍ --- أشرقت من نجومها الظَّلماء

تَخجِلُ الدُّرَّ واليَواقيتُ مِن نَوْ --- رِ رُباها البيضاءُ والحمراء

ثُم لإفادة الترتيب، أي بعد نزول الغيث بهذه الدعوة الكريمة أثرى الثرى، وهو التراب، أي كثُر خصبه ونباته وحب زرعِه وثمار أشجارِه، من أثرى الرجل: إذا كثر ماله.

وقرَّت من أقرَّ الله عينه: إذا أعطاه [تعالى] حتى لا يطمح إلى مَن فوقه، أي فرحت واطمأنت به عيونٌ لأهل المدينة، بسبب عمارة قراها بذلك بعد خرابها. وأُحييت بالبناء للمفعول أي عاشت بعد ما حصل لها من الجدب والشدة حتى صارت كالموتى، وأَحياء بفتح أوله نائب الفاعل جمعُ حَي من قبائل العرب. "وفيه جناس الاشتقاق بين أثرى والثرى وقرت وقراها وأحييت وأحياء"[1]، قاله ابن حجر، وفي الاشتقاق بين قرت وقراها بُعدٌ.

والأرض مفعول ترى، وغبه أي عقبه ظرف للرؤية، وفي القاموس: "الغب بالكسر: عاقبة الشيء كالمَغبة بالفتح"[2]، أي لو شاهدتها بزوال غبرتها عقب نزول الغيث المتولد عنه ما بهر الأبصار من النباتات والأزهار لرأيتها كسماء، "هو حال من

---

[1] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.337.

[2] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1171.

الأرض إن جعلت رأى بصرية وهو الظاهر، أو مفعول ثاني إن جعلتها علمية"[3].

وأشرقت أي استنارت صفة لسماء، والظلماء فاعله، أي صار الظلام نورا من أجل نجوم تلك السماء، فشبه الأرض بما فيها من الأزهار للسماء بما فيها من النجوم، لإزالتها الظلمة الحقيقية في السماء المَجازية في الأرض. وبين السماء والأرض والإشراق والظلماء الطباق.

وتَخجَل بفتح أوله وثالثه، من "خجل كفرح: استحيى ودهش وبقى ساكتا"[4] قاله في القاموس، والدر فاعله، جمع دُرة بضم أوله وهي الجوهرة العظيمة، واليواقيت جمع ياقوت "فارسي مُعرب"[5]. ونَوْر بفتح أوله أي زَهْر، متعلق بتخجل أي من أجله، والجملة حال من ضمير نجومها.

ورُبى بضم أوله جمع رُبوة بالضم وهي ما ارتفع من الأرض، وخصها بالذكر لأن ما بها أبهى وأنظر. والبيضاء والحمراء بدلان من الدر واليواقيت على اللف والنشر المرتب[6]، أي تخجل اللؤلؤة البيضاء من النور الأبيض والياقوتة الحمراء من النور الأحمر، أي تستحيي أن تظهر بحضرة تلك الأزهار.

ولما ذكر [الناظم] من صفاته الباهرة ﷺ، ما يشوق كل من سمع شيئا منها إلى رؤية وجهه الكريم، المرجو غالبا سعادة من رآه، تمنى ذلك فقال:

لَيتــهُ خَصَّني برُؤيةِ وَجهٍ --- زال عن كُلِّ من رآه الشَّقاء

مُسفِرٍ يَلتقي الكَتيبَةَ بَسّا --- مـاً إذا أَسهَمَ الوُجوهَ اللِّقـاء

أي ليتني أدركت زمنه لأكون من أصحابه إذ هم أفضل الأمة عند الأكثرين، أو ليتني أراه في الموقف أو على الحوض، أو في النوم للخبر الصحيح: "من رآني في

---

[3]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.337.

[4]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.442.

[5]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.338.

[6]من أساليب البلاغة.

النوم فقد رآني حقا، فإن الشيطان لا يتشبه بي"[7].

ولا يبعد أنه تمنى رؤيته يقظة لإمكان ذلك، "كما حكاه جماعة من التابعين ومَن بعدهم، أنهم رأوه يقظة بعد أن رأوه في المنام، وسألوه في اليقظة عن أشياء غيبية فأخبرهم بها، فكانت كما أخبر"[8].

لكن لا تثبت لهم بذلك الصحبة، لأن الصحبة قد انقطعت بوفاته ﷺ، ولم يزل هذا الحال موجودا فيمن تفضل الله عليه من الأولياء ممن بعده، فأحرى في أمثالهم[9] ممن غرق في محبته ﷺ حتى امتزجت بذاته.

قال الشيخ الزياتي عند قول الشيخ ابن مشيش -اللهم إنه سرك الجامع-: "قال سيدي عبد الجليل: فكل قلب وروح أحبه من جميع الخلائق إئتلفَ مع روحه الكريمة في عالم الغيب، كما قال ﷺ: -إن الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف-"[10]. وقال الشيخ السمان في رسالته: "فارفع يا أخي همتك لتراه في مظاهر العلياء بمعانيه الكبرى، فإنما هو هو، فافهم الإشارة، وواصل يا صفي بدوام ملاحظة صورته ومعناه، ولو كنت في ابتداء أمرك متكلفا في الاستحضار، فعن قريب تألف روحك به، فيحضر لك ﷺ عيانا، تجده وتُحدثه وتسأله وتُخاطبه، فيُجيبك ويحدثك ويخاطبك، فتفوز بدرجة الصحابة وتلحق بهم إن شاء الله تعالى".

قال ابن حجر: "وهذا أقرب ما يوصل إلى الاجتماع معه يقظة، كما وقع لجماعة من المتأخرين"[11].

ومن ثم قال [الناظم]: زال عن كل من رأه الشقاء، أي ذهب وانقطع بجميع أنواعه، فلا يخطر بساحته ﷺ إلا الفوز بكل مطلوب والأمان من جميع الكروب.

---

[7] ورد الحديث عند الإمامين البخاري ومسلم في الصحيحين، بنحو لفظه.

[8] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.341. وقد أخذه الشيخ الهيتمي عن "بهجة النفوس" للشيخ ابن أبي جمرة.

[9] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتب " في أمثاله"، وهو بالطبع خطأ نسخ.

[10] أنظر https://shadilia-mashishia.yoo7.com/t376-topic.

[11] لم أقف عليه لا في "المنح المكية" ولا في "الشمائل"، ولكن المعنى يوافق قناعة الشيخ ابن حجر حيث يقول بذلك، وينسبه لشيخه محمد بن أبي الحمايل في "المنح المكية "، ص.342.

ومسفرٌ بالرفع أي مشرق: خبرُ مبتدأ محذوف، وبالجر: صفة لوجهه [ﷺ]، أي نوره يكاد يخطف الأبصار، وهو اقتباس من قوله تعالى "وجوه يومئذ مسفرة"[12] أي مضيئة من السرور، من قولهم أسفر الصبح إذا أضاء.

وبساما حال من فاعل يلتقي العائد إلى النبي ﷺ، والكتيبة مفعوله وتقدم معناه، وأسهم أي غير من أسهُم وجهه بفتح عينه وضمها إذا كلح[13] وتغير، واللقاء فاعله.

والمعنى أنه ﷺ إذا لقيَته كتائب العدو، التي يرتاع لها أشداء الشجعان والأبطال وتسهم وجوههم من شدة بأسها، لا يبالي [ﷺ] بذلك، بل يكون متبسِّما على غاية من الطأنينة والثبات، لما آتاه الله [عز وجل] من عظيم الشجاعة التي لا يصل غيره إلى أدناها، وقد صح عن أنس كما مرَّ أنه ﷺ كان أشجع الناس، كما ظهر ذلك في حنين وأُحد وغيرهما مما لا يكيف ولا يطاق.

ثم أشار [الناظم] إلى فضيلتين عظيمتين في البيت فقال:

جُعلت مَسجدا له الأرضُ فاهتزَّ --- به للصلاةِ فيها[14] حِراء

يعني من خصائصه ﷺ وفضائله، أن ذلك الوجه الكريم جُعلت الأرض كلها مسجدا له ولأمته بالتَّبع له، كما صح بذلك قوله ﷺ: "أُعطيت خمسا لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدا وطَهورا وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة"[15].

وحِراء بكسر أوله ممدودا: جبل بمكة كان يتعبد فيه ﷺ قبل النبوة، فاعل اهتز أي تحرك به طربا وفرحا لصلاته عليه، وضمير فيها يعود إلى الأرض متعلق

[12]سورة عبس، الآية 38.

[13]أي عبس وتكشر.

[14]هكذا في النسخة الحسنية، وفي النسخة الصبيحية كُتبت "فِيه" وهو خطأ نسخ لأن في الشرح نجد إعراب "فيها".

[15]أخرجه الإمامين البخاري ومسلم في صحيحيهما.

بالصلاة.

وقصة ذلك: "أنه ﷺ كان على حراء، هو وأبو بكر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة فقال ﷺ: -اسكن حراء، فما عليك إلا نبي [أو]صدِّيق [أو] شهيد-[16]، وفي رواية: -وسعد بن أبي وقاص- ولم يذكر علياً، أخرجهما مسلم.

وقال الترمذي إنه كان عليه العشرة[17] إلا أبو عبيدة وقال [ﷺ]: -أثبت حراء-. ورواه النسائي والترمذي في ثبير، وهو جبل مقابل لحراء، أنه ﷺ كان عليه ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فتحرك حتى تساقطت حجارته إلى الحضيض، أي التي في أسفله، فركضه ﷺ برجله وقال: "أسكن ثبير" الحديث. ورواه البخاري في أحد، وأنه كان معه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم فضربه ﷺ برجله وقال له: -أثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان-"[18]، من نقل ابن حجر، ثم قال: "ومن قال كان هذا قبل النبوءة فهو مخطئ"[19].

ثم قال [الناظم]:

مُظهِرٍ شجَّـةَ الجـــبين على البُرْ --- ءِ كــما أظهرَ الهلالَ البَراء

سُتِرَ الحُسْنُ منه بالحُسنِ فاعجبْ --- لجمـــالٍ له الجَـــمالُ وِقاء

الشجة: الجرحة الكبيرة في الرأس، وفي القاموس: "الجبينان حرفان مكتنفا الجبهة عن جانبيها فيما بين الحاجبين مصعدا إلى قصاص الشعر"[20].

"وفي الحديث أن الشجة كانت في جبهته، وفي رواية في وجنته، والجبين غيرهما

---

[16] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتب خطأً: "اسكن حراء فما عليك إلا نبي و صديق وشهيد". وكتبت الحديث بلفظ الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، وكما جاء في المرجع المنقول عنه.

[17] أي العشرة المبشرين بالجنة.

[18] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.346 و347، بالتصرف.

[19] نفس المرجع السابق، ص.348.

[20] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.237.

فالتعبير به مجاز من المجاورة"[21]، قاله ابن حجر.

وعلى بمعنى مع، كما في قول متمِّم بن نويرة[22]:

فلما تفرقنا كأني ومالكا --- على طول جمع لم نبت ليلة معا

والبُرْءِ بضم فسكون: مصدر بَرِئَ كفَرِحَ، وقصة ذلك ما أخرجه ابن هشام عن أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص، أخا سعد بن أبي وقاص أحد العشرة رضي الله عنهم: "كسر رباعية النبي ﷺ اليمنى السفلى يوم أحد وجرح شفته، وأن عبد الله بن هشام الزهري شجه في جبهته، وأن ابن قمئَة جرح وجنته[23]، فدخل حلقتان من المغفر [فيها][24]"[25].

واختلف في إسلام عتبة بن أبي وقاص والصحيح أنه لم يسلم، قال السهيلي: "ولم يولد من نسله ولد إلا وهو أبخَر [أو أهتَم][26] حين يبلغ الحلم، يُعرف ذلك في عقبه"[27].

و"روى الطبراني وغيره، أن ابن قمئة رمى رسول الله ﷺ يوم أحد، فشج وجهه وكسر رباعيته، فقال: -خذها وأنا ابن قمئة-، فقال ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه: -أقْمأَك الله-، فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى جعله قطعا"[28].

وما مصدرية والكاف للتشبيه، والبَراء بفتح الموحدة والمد، أول ليلة من الشهر.

---

[21]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.348.

[22]من قصيدة للصحابي متمم بن نويرة رضي الله عنه، قالها في رثاء أخيه ومطلعها:

لعمري وما دهري بتأبين هالك --- ولا جزع مما أصاب فأوجعا

[23]في النسخة الصبيحية "وشجه".

[24]في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "فيهما"، وهو خطأ صححته تبعا لما في المرجع المحال عليه.

[25]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.349.

[26]أضفته كما جاء في المرجع المحال عليه.

[27]السهيلي، الروض الأنف، ج.5، ص.470.

[28]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.349.

والمعنى أن ذلك الوجه الكريم أظهر أثر تلك الشجة مع برءها، فازداد بها حُسنا على حُسنه، كظهور الهلال ليلة استهلاله فهو في تلك الليلة أحسن منه في غيرها، وأثر تلك الشجة في وجهه [ﷺ] أحسن من الهلال.

ومن ثم قال [الناظم] سُتِر الحُسن أي الأصلي منه، أي من هذا الوجه الكريم بالحسن العارض من أثر الشجة. فاعْجَب أيها المتأمل لجمال أصلي له الجمال العارض وقاء من أن يُرى أو من أن يشنأ.

ثم أتى [الناظم] بمثالين مما سُتر فيه الحُسن الأصلي بالحُسن العارض فكمل حُسنه إظهارا للمعنى، فقال:

فهْوَ كـــالزهر لاح من سَجَفِ الأكـ --- ـمامِ والعودِ شُقَّ عنه اللِّحـــاء

كـاد أن يُـغشيَ العيونَ سنى[29] منـ --- ـه لِـسرٍ حَكَتهُ فيــه[30] ذُكـاء

صــــانه الحُسنُ والسـكينةُ أن تُظـ --- ـهرَ فيـــه آثـــارَها البأســـاء

فهو أي ما ظهر بالشجة من باطن بدنه الشريف، كالزهر أي نوْر النبات إذ لاح أي ظهر، والجملة حالية. وسَجَف بفتح المهملة والجيم أي ستر، والأكمام والأكمة جمع كِم بكسر أوله وهو غلاف النور، المشبه به ظاهر الجلد الشريف أو نحوَ أي ما ظهر من السجة أيضا، كالعود الذي يُتطيب به، بالجر عطفٌ على الزهر وبالضم خبر مبتدأ محذوف.

وشُق بالبناء للمفعول أي أزيل، واللِّحاء بكسر أوله نائب الفاعل، وهو نشرُ الشجر.

فشبه ظاهر الجلد باللحاء وباطنه بالعود، فعُلم من هذين التشبيهين أن جمال باطنه ربما فاق جمال ظاهره.

---

[29]في المنح المكية كُتبت بالمد.

[30]في "المنح المكية" المطبوع كُتب "لسر فيه حكته".

ومن ثم قال [الناظم]: كاد أن يُغْشي بضم أوله وسكون المهملة، والعيون مفعوله جمع عين أي الباصرة، وسنى بالقصر فاعله، أي نور برز من وجهه الكريم قَرُب أن يُصيِّر العين عشواء.

وفي القاموس: "العشا بالقصر: سوء[31] البصر بالليل والنهار"[32]. وذلك لأجل سر عظيم فيه أي في ذلك الوجه الشريف، حكته أي شابهته، ذُكاء بضم المعجمة وعدم الصرف وامتناع دخول الـ عليه، أي الشمس، وذِكرها بعد سنا من مراعاة النظير، وأن وما بعدها سرت مسر معمولي كاد.

وبما تقرر علم أن تلك الشجة لم تشنأه ﷺ، بل زادته حُسنا على حُسنه الذي لم يؤتى غيره، حتى أن هذا الحسن الكامل العادم النظير الذي تحلى به ﷺ دون كل مخلوق، منعه ووَقاه من أن تكدره الأغيار على أي حال.

وإليه الإشارة بقوله صانه الحسن لو انفرد فيه فكيف وقد انضم إليه السكينة، أي وقار الظاهر مع طمأنينة القلب وثباته، أي عدم اضطرابه مما يتأذى به.

وتقدم "لا تحل البأساء منه عرى الصبر" وأنه "بحر لم يعييه الأعباء"، وكيف لا وفيه انتهى كل كمال.

وفيه متعلق بتُظهر بضم أوله رباعي، والضمير فيه وفي صانه للوجه الشريف، وآثارها مفعول متلبس بضمير الفاعل المتأخر عنه لفظا وهو كثير، وأن وصلتها في محل جر بنزع الخافض وهو مطرد فيها، والبأساء: الداهية.

ثم قال [الناظم]:

وتَخالُ الوجوهَ إن قــابلتهُ --- ألْبستهـا ألْوانَـها الحِـرباء

وإذا شِمــتَ بِشْرهُ ونَــداهُ --- أذهـلـتكَ الأنوار والأنواء

---

[31] في النسخة الصبيحية كتب "سود"، وهو خطأ نسخ.

[32] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص1097.

تخال مضارع خال أي ظن، والوجوه مفعوله الأول، وجواب إن قابلته أي واجهته أو عاينت وجهه محذوف دل عليه ما قبله، والشرط وجوابه جملة معترضة.

وألبستها في موضع مفعول [خال][33] الثاني، وألوانها مفعول ثاني لألبستها، وضميره مفعول أول يعود إلى الوجوه، والحِرباء بكسر أوله فاعله، وهي دويبة مشهورة من شأنها أنها تصعد في الأشجار، "فتستقبل الشمس وتدور معها كيف ما دارت، وتتلون بألوان عجيبة مختلفة"[34].

والمعنى أن الوجوه المقابلة له ﷺ تتلون بألوان مختلفة[35] من فرط خجلها منه ﷺ، حتى تظن أيها المتأمل أن الحرباء كست تلك الوجوه ألوانها، وكسى الله تعالى نبيه مع تلك المهابة جمالا وحسنا يوحيان حبه وإجلاله عند كل من رآه، كما صح في روايات: كل من رآه بديهةً هابَهُ، ومن خالطه معرفةً أحبهُ.

وشِمت بكسر أوله من قولهم شام البرق أي نظر، أي يقصد أين يُمطر، وبِشْره بكسر فسكون أي طلاقة وجهه، ونَداه بفتح أوله أي سخاؤه، أذهلتكَ أي ألهتك عما أنت بصدده أنواره الباهرة التي تشاهدها عند رؤيته ﷺ.

والأنواء جمع نَوْء بفتح فسكون، قال ابن حجر:"وهوما تضيف العرب إليه الأمطار من النجم أو وقته، نحو: -مطرنا بنوء الثريا-، وهو هنا كناية عن الخيرات الواصلة

---

[33]في النسختين الحسنية والصبيحية كُتب "ظن". و"خال" من أخوات "ظن"، وهي وأخواتها تنصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر.

[34]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.352.

[35]تعليق المحقق: حسب دراسات حديثة، يتلون وجه الشخص بألوان حسب ما يحس به من مشاعر وما يُخالجه من شعور، وهكذا يكسي الوجه اللون الأحمر في حالة الخجل أو الغضب الشديد، وحول الشفتين اللونين الأصفر والأزرق في حالة الشعور بالغثيان، وإذا احمرت الوجنتان مع بعض من الزرقة فذلك للشعور بالسعادة، أما إذا أحمرت الجبهة مع شيء من الزرقة في الذقن فقد تعجب الشخص من شيء ما. وحسب فهمي المتواضع فالمعنى من البيت هو تأثر الإنسان ضرورةً بالنظر إلى الوجه الشريف، فلا يمكن لأي كان أن يجهل أو يتجاهل النظر إليه، فإن كان الشخص ممن فتح عليهم الله عز وجل بنعمة الإسلام وبنور الإيمان، شعر بالسعادة المفرطة وظهر على وجهه ألوان ذلك، وإن كان والعياذ بالله ممن انطفأ نور قلبه وعميت بصيرته، ظهرت عليه ألوان القلق والغضب، وذلك حال المشركين الذين أخطأوا حظهم وسعادتهم الأبدية، بعدم الخضوع له والإيمان بدعوته ورسالته، والله أعلى وأعلم.

منه ﷺ إلى الخلق، ففي رجوع الأنوار للبشر والأنواء للندى لف ونشر مرتب"[36].

والـ فيهما [أي الأنوار والأنواء] خلف عن الضمير، وبينهما الجناس اللاحق.

ولما تمنى [الناظم] رؤية الوجه الشريف ووصفه بأوصافه الجميلة، تمنى تقبيل راحته الكريمة الموصوفة بقوله:

أو بتقــبيلِ راحة كـــان للهِ --- وبـــاللهِ أخـــذُها والعَـــطاء

تتَّقي بأسها الملوكُ وتحظى --- بالغِــنى من نَــوالِها الفقراء

لا تَسل سيْلَ جَوْدها إنما يَكْـ --- ـفيك مِن وَكْفِ سُحبها الأنداء

أو هنا للتسخير والراحة كَفُّ الكريم، أي ليته خصني بتقبيلها في النوم أو في اليقظة، كما تقدم في [رُؤية] الوجه. وجملة كان وما بعدها صفة لراحة، وهي هنا للدوام تامة.

والمعنى أن هذه الراحة مُبرأة من كل غرض ينافي الكمال الأعظم، فلا يتصرف فيما تأخذه ولا فيما تعطيه إلا بشهود محل مرضاة الله لا لغيره، وبشهود سلبها عن كل حول وقوة لما سوى الله تعالى، بل بحوله وقوته في كل حركة وسكون.

والعطاء اسم مصدر من الإعطاء، ولهذا الشهود الأعظم كانت تَتَقي بفتحتين، أي تخاف وتحذر بأسها أي سطوتها في الحروب الملوك كقيصر وكسرى من أعدائه، والمقوقس[37] وغيرهم ممن ظفره الله به.

وتحظى: أي تفوز بالغنى الحسي والمعنوى دنيا وأخرى، من نوالها أي من إعطائها

---

[36] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.353، بالتصرف.

[37] ملك مصر آنذاك، وكان نصراني الاعتقاد. وخلافا للشيخ الهيتمي في "المنح المكية" (ص.353)، تعمد سيدي يحيى عدم إدراج المقوقس عطفا مع كسرى وقيصر، ربما لأنه لا يحسبه من أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الفقراء لا مفهوما[38] له، وصح كما مر أنه ﷺ كان أجود الناس وأنه أعطى رجلا ما بين جبلين غنما.

وبين الأخذ والعطاء، وتتقي وتحظي، والملوك والفقراء، والبأس والنوال، جناس التقابل.

وهمزة تسل محذوفة تخفيفا بعد نقل حركتها للساكن قبلها، نحو قوله تعالى "سال سآئل"[39]، وسَيل بفتح أوله مصدر سال الماء -بغير همز- أي جرى، و"بينهما جناس التصحيف والتحريف"[40] قاله ابن حجر.

والجَود بفتح الجيم: المطر الغزير.

والمعنى: لا تسأل من عطائها كثيره، فإنه لا يقدر عليه أحد من البشر ولا يُقدر قدره، بل اسأل قليله وهو في الحقيقة أعظم عطاء وأغزره، ومن ثم قال إنما يكفيك، أي إنما يليق بك أن تسأل من وَكْف بفتح فسكون أي قَطْر سُحبها بفتح فسكون: جمع سحابة، والأنداء جمع ندى أي البلل، أي هذا ما يناسب سؤالك، ويكفيك في كل ما تطلبه أدنى أدنى رشح من تلك الراحة الكريمة، فإن فضل رسول الله [ﷺ] ليس له حد. فإن طلبت الزيادة فوق ذلك من الدنيا أعطيت منها ما لا تطيقه، فتغرق في كثرتها، فتفتتن بها أعظم فتنة، فتشغلك عن دينك غالبا. وإن طلبت السر والتجليات كذلك أيضا، ربما حصل لك ما لا تطيقه بَشَرِيَتُك من النورانية، فتتصدع ذاتك قوة، كما وقع لكثيرين في الوجهين. بل هذا القدْر فيه الغنى التام، فمن وصلت إليه بلَّة من قطرة منه ﷺ، كان فيها الخير الأعظم دنيا وأخرى.

فعلى هذا لا ينافي حديث "إذا سألتم الله فاعظموا المسألة"[41]، فإن ما يحصل من بلل تلك الراحة الكريمة لا يعدله شي، ومن سقي منه رشفا عافاه من كل علة ونال كل

---

[38] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "لا مفهومَ له". وقد صححته تبعا لما فهمته من المعنى إذ عطاؤه ﷺ حقيقي مادي لا مجازي، ويشمل الفقراء والأغنياء، ولا يقتصر على فئة دون غيرها,

[39] سورة المعارج، الآية 1، برواية ورش عن نافع.

[40] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية،ص.354.

[41] أخرجه الإمامين البخاري ومسلم بنحو لفظه.

غلة، ومن هذا المعنى قول حسان [بن ثابت] رضي الله عنه:

له راحة لو أن معشار جودها --- على البَر كان البر أندى من البحر

له همــــم لا منتهى لكبارهــــــا --- وهمته الصــــغرى أجل من الدهر

ثم قال [الناظم]:

دَرَّت الشاةُ حين مرَّت عليها --- فلها ثروةٌ بها ونَماء

يعني: من أوصاف هذه اليد الكريمة أنها دَرت بفتح المهملة: أرسلت اللبن، والشاة فاعله أي شاة أم معبد الخزاعية وهي عاتكة بنت خالد.

وفاعل مرت ضمير يعود إلى اليد الشريفة، وكذلك ضمير بها وباؤه للسبب.

وعليها على حذف مضاف أي على ضرعها، والضمير فيه وفي لها راجعان إلى الشاة، والفاء سببية، والثروة هنا: كثرة اللبن، مبتدأ خبره في المجرور باللام قبله.

والمعنى أنه صار لتلك الشاة، بسبب مرور تلك اليد الكريمة على ضرعها، كثرة ونماء أي زيادة فوق الكثرة المعتادة لها ببركته ﷺ.

وأشار بهذا إلى الحديث المشهور[42] أنه ﷺ لما هاجر هو ومن معه، مروا بخيمة أم معبد ليشتروا منها لحما ولبنا، وكانوا مرملين، فلم يجدوا عندها شيئا إلا شاة في كسر الخيمة تخلفت عن الغنم لجهدها، فسألها [ﷺ]: "هل بها من لبن"، فقالت: "هي أجهد من ذلك"، فاستأذنها [ﷺ] أن يحلبها فأذنت له، فمسح على ضرعها فدرت[43]، ودعا بإناء فملأه من حلبها، فسقى القوم حتى رووا وشرب آخرهم، ثم ملأ الإناء ثانيا وتركه عندها. ومر الحديث بتمامه عند قوله: "ونحى المصطفى المدينة".

---

[42] أخرجه الإمام الحاكم في مستدركه، وقد تم ذكر هذا الحديث فيما سبق من شرح النظم، عند ذكر الهجرة النبوية الشريفة..

[43] أي امتلأت لبنا.

ثم ذكر [الناظم]:

نبعَ الماءُ أثمرَ النخلَ في عا --- مٍ بها سبَّحت بها حَصاء[44]

اشتمل هذا البيت على ثلاث فضائل كل معجزة منها تبهر أوفر العقول، أشار إلى:

***الأولى**: بقوله نبع، أي خرج وجرى بها أي بهذه اليد الكريمة، يتنازع فيه نبع وأثمر، والباء للسبب. وعدَل إليها ولم يقل منها ليفيد أنه نبع تارة منها وتارة من غيرها ببركتها. قال ابن حجر: "أما نبعه منها، فقال القرطبي أنه تكرر منه ﷺ في عدة مواطن، في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة، يفيد مجموعها القطع به.

وذكر المزني أن هذه المعجزة لم يسمع بمثلها لغيره، وأنها أبلغ من نبع الماء من الحجر بضرب موسى عليه الصلاة والسلام بعصاه، لأن الحجر يؤلف منه خروج الماء، ولا كذلك البدن. وخروج الماء من عصب الأصابع ولحمها وعظمها ودمها، فإنه لم يسمع خروج الماء وجريانه منه قط"[45].

ولله در القائل:

إن كان موسى سقى الأسباط من حجر --- فإن في الكف معنى ليس في الحجر

وفي الصحيح عن جابر بن عبد الله [رضي الله عنه] قال: "عطش الناس يوم الحديبية، والنبي ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ، وجهش الناس نحوه، قال: -ما لكم؟-، قالوا: -ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك-، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، فقُلت: -كم كنتم؟-، قال: لو كنا مئة ألف لكفانا، كنا خمس عشر مئة"[46].

وفي الصحيحين عن أنس [رضي الله عنه]، أن الناس احتاجوا لصلاة العصر فلم يجدوا الماء، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء فوضع يده في ذلك الإناء، فنبع الماء من

---

[44] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "الحصباء".

[45] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص. 355 و356، بالاختصار.

[46] صحيح الإمام البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية.

بين أصابعه حتى توضأوا كلهم"[47]، زاد البخاري: "كانوا ثمانين وإن الماء نبع من نفس لحم الأصابع"[48]، وصححه النووي وجزم به غيره. وأما ما خرج ببركة اليد وليس من نفسها، فمن ذلك ما في صحيح البخاري عن عمران بن حصير قال بعد كلام طويل ما نصه: "وقد عطشنا عطشا شديدا، فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين، فقلنا لها: أين الماء؟ فقالت: إنه لا ماء، [...] فلم نملكها أمرها حتى استقبلنا بها النبي ﷺ [...] فأمر بمزادتيها فمسح في العزلاوين، فشربنا عطاشا أربعين رجلا حتى روينا، فملأنا كل قربة معنا وإداوة"[49] الحديث.

وفيه أيضا عن البراء بن عازب قال: "كنا بالحديبية أربعة عشر مئة، والحديبية بئر، فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة، فجلس النبي ﷺ على شفير البئر، فدعا بماء فمضمض وفج في البئر، فمكثنا غير بعيد، ثم استقينا حتى روينا وروت ركائبنا"[50].

وفي مسلم وغيره: "إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عيون تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي. فسبق رجلان ومساه قبل أن يأتي [فسبهما] [51]، ثم اغترفوا له قليلا فغسل به وجهه ويديه، ثم صب الغسالة في العين، فجرت العين بماء كثير"[52] الحديث.

ومن القسم الأول أيضا، ما في صحيح البخاري عن أنس بن مالك، قال: "أوتي النبي ﷺ بإناء وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم، فقال قتادة: -قلت لأنس: كم كنتم؟- قال: ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة"[53].

***الثانية**: إن تلك اليد الكريمة غرست النخل، فحملت من عامها، وقصة ذلك ما ذكره

---

[47] ورد في الصحيحين بلفظ مختلف، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

[48] لم أقف عليه.

[49] أورده الإمام البخاري بلفظه في صحيحه (كتاب المناقب، باب علامات النبوة)، وقد اختصر فيه سيدي يحيى، فبينت بين عارضتين موضع الاختصار.

[50] صحيح البخاري، كتاب المغازي.

[51] في النسختين الحسنية والصبيحية تُرك فراغ، فملأته بالرجوع إلى نص الإمام مسلم.

[52] صحيح الإمام مسلم، كتاب الفضائل، باب المعجزات.

[53] صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة.

أهل السير والمحدثون[54]، أن سلمان الفارسي رضي الله عنه، لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه فآمن به، وكان مملوكا لليهود، فأمره ﷺ أن يكاتب سيده على غرس ثلاثمائة نخلة ويعمل فيها سلمان حتى تطعم، وأربعين أوقية ذهبا، وقيل فضة. ثم أخبر النبي ﷺ بذلك فأمر أصحابه أن يعينوه فأعانوه، وغرس ﷺ بيده، فحملت النخل كلها من عامها. وفي رواية الترمذي: "إلا نخلة غرسها عمر لم تحمل، فقال رسول الله ﷺ: -ما شأن هذه؟- فقال عمر: -يا رسول الله، أنا غرستها-، فنزعها رسول الله ﷺ وغرسها، فحملت من عامها"[55]. وسيأتي أن النبي ﷺ قضى عنه الأوقية.

***الثالثة**: إن الحصى سبح في كفه الشريف، كما رواه البزار والطبراني في الأوسط وغيرهما: "أنه ﷺ كان عنده أبو بكر وعمر وعثمان، فقبض حصيات فسبحن في كفه حتى سمع لهن حس كحس النحل، فناولهن أبو بكر فسبحن في كفه كذلك، ثم عمر كذلك، ثم عثمان كذلك"[56] الحديث.

ثم قال [الناظم]:

أحيَت المرْمِلينَ من موتِ جهدٍ --- أعوزَ القومَ فيه زادٌ وماء

فـتغذّى بالـصّاعِ ألفُ جياعٌ --- وتروّى بالصاع ألفُ ظِماء

المرملين: الذين نفد زادهم، وفاعل أحيت ضمير يعود إلى اليد الكريمة، أي من خصائصها أيضا أنها أمسكت على المرملين حياتهم، فسلموا بها من موت جَهْد بفتح فسكون، أي قحط شديد أصابهم فنفد ما عندهم من الطعام حتى أشرفوا على الهلاك. "وأعوزه الشيء أي احتاج إليه، وفيه متعلق به وضميره يعود إلى جَهْد بفتح فسكون، والجملة صفة له. وزاد فاعل أعوز، وعبر بالزاد وهو إنما يطلق على طعام المسافر، إشعارا بأنهم لما حصلت لهم تلك الشدة التي أدت بهم إلى الإشراف

---

[54]ذكرها ابن هشام وابن سيد الناس وغيرهما.

[55]الإمام الترمذي، الشمائل المحمدية، ص.29.

[56]رواه الأئمة: الطبراني في معجمه الأوسط، والبيهقي في السنن الصغير، والترمذي في نوادر الأصول.

على الموت، صاروا كالمسافرين المشرفين على الهلاك"[57]، قاله ابن حجر.

وتغدى بالدال المهملة أي أكل أول النهار، ويحتمل أن تغذى بالمعجمة من الغِذاء كالكساء، وهو كما في القاموس: "ما به نماء الجسم وقوامه"[58].

وبالصاع أي الواحد متعلق به، قال ابن حجر: "وهو قدحان بالكيل المصري تقريبا"[59]، وألف فاعل تغدى، وجياع جمع جائع نعت له باعتبار إفراده، وكذلك ظماء: جمع ظامئ أي عاطش، نعت لألف فاعل تروى.

وتمييز ألف في الموضعين محذوف لأنه لا يضاف إلى الجمع، والمراد به العدد الكثير لأنه كان في الحديبية أربع عشر مئة، وفي حديث جابر[60] خمس عشر مئة، وفي الزوراء أقل كما مر.

والمراد بالصاع الثاني: الماء القليل جدا كما يعلم مما مر، وعبر به للمشاكلة مما قبله نحو "ومكروا ومكر الله"[61] و"تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك"[62]، وإلى الأحاديث السابقة أشار [الناظم] بقوله وتروّى.

وأما تغذى الألف جياع بالصاع فأشار به إلى ما في الصحيحين: "عن جابر رضي الله عنه أنه رأى بالنبي ﷺ جوعا شديدا في غزوة الخندق، فذهب إلى امرأته فأخبرها، فأخرجت صاعا من شعير وشاة داجنا أي سمينة، فذبحتها وطحنت الشعير. فلما وضعت اللحم في البرمة، ذهب إلى النبي ﷺ فأخبره وطلب منه أن يأتي بنفر معه، فصاح النبي ﷺ: -يا أهل الخندق، إن جابرا صنع سُؤرا (بضم فسكون أي طعاما واللفظة فارسية)، فَحَيَّ هلا بكم- (أي هلموا مُسرعين). ثم أمره ﷺ أن لا ينزل البرمة ولا يخبز العجين حتى يأتي، فلما جاء بصق في العجين

---

[57]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.359.

[58]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1178.

[59]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.360.

[60] سبق ذكره.

[61]سورة آل عمران، الآية 54.

[62]سورة المائدة، الآية 116.

وبارك، ثم في البرمة وبارك، ثم أمرها أن تدعو خابزة تخبز معها، وأن تغرف من برمتها ولا تنزلها. فأكلوا وهم ألف حتى تركوه، وأن عجينهم وبرمتهم كما هما"[63].

ومثل هذا كثير يجل عن الحصر من هذا المعنى ومن غيره.

[63] ذكر في الصحيحين بلفظ مغاير: في كتاب المغازي عند الإمام البخاري، وفي كتاب الأشربة عند الإمام مسلم.

الفصل التاسع: من البيت 170 إلى البيت 190

[قال الناظم]:

ووفى قَدرُ بيضةٍ من نُضارٍ --- دَيْنَ سَلمانَ حين حان الوفاء

كـان يُـدعى قِنّاً فأُعتِقَ لَـمّا --- أينَـعـت[1] مـن نخيـلـهِ الأَقْناء

أفلا تَـعـذِرونَ سَـلـمـانَ لَـمّا --- أن عَرَتْـهُ من ذِكرهِ العُرَواء

يعني: من أوصاف هذه اليد الكريمة أيضا، أنه ﷺ وفى بها قدر بيضة دجاجة أي مثلها، قال في القاموس: "وفى فلان حقه: أعطاه وافيا كَوَفَّاه، ووَفى الدرهمُ المثقالَ: عَدَلَهُ"[2]. فيُحتمل أن فاعل وفى ضمير عائد على النبي ﷺ، ودَين بفتح أوله مفعوله الثاني، وقدر حال منه متقدمة، والمفعول الأول محذوف دل عليه السياق أي سيد سلمان، أو قدرُ بالرفع فاعل وفى ودين مفعوله، أي عدله، ومن نُضار بضم أوله وهو خالص التبر[3]، حال من قدر في الوجهين. وسلمان هو الفارسي الصحابي رضي الله عنه، بقيَ عليه دين مما كاتبه عليه سيده اليهودي، وهو أربعون أوقية من الذهب أومن الفضة كما مر، قال في القاموس: "والأوقية: أربعون درهما"[4]، أوسبعة مثاقيل وهو دينار الذهب. فكان وفاء ذلك الدين بتلك البيضة، مع عِظَمه وصُغرها، ببركة مس راحته الكريمة لها. وحين ظرف لوفي، وحان: قَرُبَ، والوفاء فاعله. وبين وفى والوفاء الجناس الناقص ورد العجز على الصدر، وبين حين وحان الجناس اللاحق.

وأشار [الناظم] إلى سبب هذا الدَّيْن بقوله كان يدعى بالبناء للمفعول، قِنّاً بكسر أوله أي عبدا بالباطل، وقصته ما حكى عن نفسه رضي الله عنه أنه: "من أصبهان واجتهد ابوه في المجوسية حتى صار رئيسها، فمر بكنيسة للنصارى فأعجبوه، فذكر

---

[1] في النسخة الصبيحية كُتب "أنبعت"، وهو خطأ نسخ تبعا لما في النسخة الصبيحية والشرح الآتي.
[2] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1769.
[3] أي خام الذهب قبل تكريره، وخالص التبر هو الذهب الصافي.
[4] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.647.

ذلك لأبيه فقيده وقال: -دينك ودين آبائك خير من دينهم-، وكان سألهم عن أصل دينهم فقالوا بالشام، فأرسل إليهم إذا جاء أحد من الشام فأخبروني، ففعلوا. فحل القيد وتوجه إليها، فسأل عن أعلمهم فدلوه عليه، فخدمه إلى أن مات، ثم خدم عالما غيره، فلما احتضر قال له : -بمن توصيني؟- قال له بفلان بِنُصَيْبِين[5]. فجاءه وأخبره وخدمه، فلما احتضر قال له كذلك، فقال له: -أوصيك بفلان بعمورية من أرض الروم-. فلما احتضر قال له ذلك فقال: يا بني، ما أعلم أحدا على ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، وإنه أطل زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج من أرض العرب، يهاجر إلى أرض بين حرتين، له علامات لا تَخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النُبوة، فإن استطعت أن تلحق بأرضه فافعل-، ثم مات. فمر بي نفر من كلب، فقلت لهم احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم ما عندي، فحملوني. فلما بلغوا وادي القرى ظلموه، فباعوه من يهودي، فباعه من ابن عم له من بني قريضة بالمدينة، قال: -فحملني إليها فعرفتها، فبُعث ﷺ بمكة فلم أسمع له ذكرا، ثم هاجر إلى المدينة-"[6] الحديث. فلما أراد الله سعادته آمن بالنبي ﷺ، فأمره أن يكاتب سيده كما مر، نظرا لحالته الراهنة وإلا فهو حر[7]، فأعتق أي خرج من الرق. والأقناء جمع قِنْو بكسر فسكون أي العدق من النخل، فاعل أينعت أي حان قطفها، ومن نخيله حال من الأقناء وضميره يعود إلى سلمان.

ثم عرض الناظم بموالي سلمان مُنكرا عليهم، إذ لطموا وجهه حين رأوه تشوَّقَ إلى النبي ﷺ ولم يومنوا به، مع ما شاهدوه من حال سلمان حين عرته أي غشيته من أجل ذكره ﷺ العرواء، أي قوة الحُمّى ومَسُّها في أول حلولها بالرعدة والشدة، وأشار بهذا إلى تمام حديث سلمان السابق، قال: "فبينما أنا أجني لسيدي تمرا، أتاه ابن عم له فقال له: -قاتل الله بني قيلة، يعني الأوس والخزرج، إنهم لمجتمعون الآن على رجل بِقُباء، قدِم إليهم من مكة، يزعمون أنه نبي-، فأخذتني رِعدة وشِدة حتى ظننت أني ساقط، فقلت لسيدي: -ماذا قال لك هذا؟-، فغضب ولطمني لطمة شديدة

---

[5] نصيبين: مدينة توجد في جنوب شرق تركيا.

[6] ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج1، ص.134 إلى 137، بالاختصار.

[7] يعني أن سلمان رضي الله عنه في الأصل حراً وليس عبدا.

وقال: -أقبل على عملك، ما لك ولهذا؟-. فلما أمسى أخذت شيئا جمعته وذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء. فقلت: -هذا صدقة-، فأمر أصحابه بأكله ولم يأكل. فجمعت شيئا آخر وأتيته به وهو بالمدينة، فقلت: -هذا هدية-، فأكل هو وأصحابه. ثم جاءه وهو بالبقيع قد تبع جنازة، فجعل ينظر إلى ظهره، فعرف [ﷺ] أنه يتأمله لشيء وُصف له، فألقى رداءه عن ظهره، فرأى [سلمان] خاتم النبوة، فقص عليه حديثه وأسلم، فأمر ﷺ أن يُكاتب [سلمان] سيده كما مر"[8].

ويصح أن يكون الخطاب بقوله أفلا تعذرون للسامعين، أي أفلا تقيمون أيها السامعون عذرا لسلمان، حين لم يملك نفسه عند ذكره ﷺ حتى أخذته الرعدة لما فاجأه الفرح بقدومه ﷺ، المُبرد لفُؤاده المحترق بنار الشوق التي لا يُطفي لهبها إلا الوصال والتمتع بجمال أهل الكمال، ولله در القائل[9]:

ومحكم حُبِّ لم يخامره بيننـــــا --- تـخـيل نـسـخ وهو خـيـر آلـيـة

وأخذك ميثاق الولا حيث لم أبن --- بمظهر لبس النفس في فيء طينتي

وســـــابق عهد لم يحل مذ عهدته --- ولاحق عقد جلّ عن حلّ فترة

لأنت منى قلب وغـاية مطلبي --- وأقصى مرادي واختيـــاري وخيرتي

ثم قال [الناظم]:

وأزالـــت بلمسهـــــا كل داء --- أكبَرَتهُ أطِبَّةٌ رُؤســـــاء[10]

وعيونٌ مرت بها وَهْيَ رُمدٌ --- فأرتها ما لم ترى الزَّرْقاء

وأعـــادت على قتادة عينـا --- فهْيَ حتى مماتــه النَّجْلاء

ومن أوصاف بركات هذه اليد الشريفة أيضا، أنها أزالت وأبرأت كل داء أي مرض مما كان به، وأطبة فاعل أكبرته جمع طبيب أي العالم بالطب، أي عجزت عنه

[8] ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج1، ص137.
[9] من شعر ابن الفارض، القصيدة التائية الكبرى.
[10] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "وإساء".

وأعياها، ورؤساء جمع رئيس نعت لأطبة، والمراد به هنا الماهر في علم الطب، والجملة صفة لداء. ومن ذلك ما في صحيح البخاري أن سلمة أصيب يوم خيبر بضربة في ساقه، فنفث فيها ﷺ فما اشتكى منها قط[11]. وروى الدارمي: "أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: -يا رسول الله، إن ابني به جنون وإنه ليأخذه عند غذائنا وعشائنا-، فمسح ﷺ صدره، فقاء من جوفه مثل الجرو الأسود، فشُفي"[12]. ومنها أن يد معوذ بن عفراء قطعها أبو جهل يوم بدر، فجاء يحملها، فقبض عليها رسول الله ﷺ وألصقها فلصقت، رواه ابن وهب[13]. ومنها أن خُبيبا ضُرب يوم بدر على عاتقه حتى مال شقه، فرده ﷺ ونفث عليه حتى صح[14].

ومن بركة هذه اليد الكريمة أيضا، أنها برئت بها عيون باصرة، وفاعل مرت ضمير يعود إلى اليد الشريفة، وبها متعلق به وضميره يعود إلى عيون، وهو مبتدأ والجملة بعده صفة له، والخبر محذوف أي أبرأتها، أو الجملة خبر. وجملة وهي رُمدٌ بضم أوله جمع رمداء، حال من ضمير بها، والفاء في فأرتها للسبب، وهاؤه مفعول أول يعود إلى العيون، وما موصولة أو موصوفة مفعول ثاني، والزرقاء فاعل ترى، وهي زرقاء اليمامة المشهورة التي كانت تُبصر مسيرة ثلاثة أيام، ويحكى أنها رأت سربا من الحمام يطير في الهواء فقالت: "ليت الحمام ليه، إلى حمامتيه، ونصفه قدية، يك الحمام مية"، فوقع ذلك السرب جميعه في شبكة صائد، فإذا هو ست وستون لم تزد عليه ولم تنقص عنه شيئا. وكانت لها حمامة واحدة، فإذا أضفتها إلى نصف ذلك الحمام وجمعت الكل، كان الخارج مئة. ومن ذلك أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان في عينه رمد، فتفل ﷺ فيهما ودعا له فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع، وسيأتي حديث البخاري في ذلك إن شاء الله عند قوله [أي الناظم]: "وعليّ لما تفلت بعينيه". وعند الطبراني عن علي: "ما رمدت ولا صدعت منذ دفع إليّ رسول الله ﷺ الراية يوم خيبر"[15].

---

[11] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.
[12] أخرجه الإمام الدارمي في سننه.
[13] ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج.1، ص.401.
[14] ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج.2، ص.225.
[15] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.366.

ومن فضائل هذه الراحة الكريمة أيضا، أنها أعادت أي ردت على قتادة بن النعمان عينا له ذهبت عن محلها، فصارت لما ردها النبي ﷺ واسعة إلى أن توفى، ومن ثم قال [الناظم] فهي حتى مماته النجلاء، وفي القاموس: "النجل بالتحريك: سعة العين، نَجِلَ كفرح فهو أنجل"[16]. قال ابن حجر: "وقصته أن إحدى عينيه أصيبت يوم أحد، فوقعت على وجنته، فأتى بها النبي ﷺ فقال: -يا رسول الله، إن لي امرأة أحبها، وأخشى إن رأتني تَقْذَرَني-، فأخذها ﷺ بيده وردها إلى موضعها وقال: -اللهم اكسها جمالا-، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما نظرا، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى. وأخرج الطبراني وأبو النعيم عنه: -كنت يوم أحد أتقي السهام بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ، فكان آخرها سهما بدرت منه حدقتي، فأخذتها بيدي وسعيت إلى رسول الله ﷺ، فلما رآها في كفي دمعت عيناه، فقال: -اللهم قِ قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه، فاجعلها أحسن عينيه وأحدَّهما نظرا-. وقد وفد على عمر بن عبد العزيز واحد من ذريته [أي قتادة]، فقال له: "من أنت؟"، فقال:

أبونا الذي سالت على الخد عينُه --- فـردت بكف المصطفــــى أيما رد

فـــعادت كما كانت بأول أمرها --- فيا حسن ما عين ويا حسن مــا خد

فوصله عمر وأحسن جائزته"[17].

ولما فرغ [الناظم] من أوصاف راحته الشريفة بعد أن تمنى تقبيلها، شرع في أوصاف القدم الشريف وتمنى تقبيل التراب من تحته، فقال:

أو بِلَثْمِ الـــــتُّرابِ مــــن قَدَمٍ لا --- نَت حيـاءً بِمَشيها[18] الصَّفْواء

مَوطِئِ الأَخْمُصِ الذي منه للقَلـ --- ـبِ إذا مَضجعي أَقَضَّ وِطـــاء

يعني: فإن لم أصل إلى ما تقدم، فياليته رفع الحجاب بيني وبينه، فخصني بلثم[19]

[16] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1586.
[17] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.367.
[18] في النسخة الصبيحية كُتبت كما في "المنح المكية" المطبوع "من مشيها"، وكتبتها كما جاءت في النسخة الحسنية لأن الشرح الآتي بعده يُفسر "بمشيها" في النسختين.
[19] أي تقبيل.

التراب المنفصل عن قدمه الشريفة عند وطئه عليه فأُقَبِّله. ثم وصفها كسابقيها بفضائل خُصت بها، منها أنها كانت إذا مشت على الحجر لانت لها أي سهلت للوطء عليها، وحياء مفعول من أجله، ومشي مصدر مضاف إلى الفاعل العائد على القدم، وباؤه للسبب ومتعلقه محذوف. والصفواء جمع صفوات فاعله [أي لانت]، وصفوات جمع صفات وهي الحجر الصلد التي لا تنبت شيئا. وجملة لانت وما بعده صفة لقدم، والتقدير من قدم لانت الصفواء لأجل استحيائها منها بوطئها عليها. قال ابن حجر: "وهذا الذي ذكره الناظم، ذكره غيره ممن تكلم على الخصائص، لكن بلا سند. وقال السيوطي في خصائصه: -ومما أورده صاحب الصحاح[20] في خصائصه، أنه ﷺ كان إذا وطئ الصخر أثر فيه. ثم قال[21] بعد كلام طويل: وأعجب من هذا أنه كان إذا مشى على الصخر لان تحت قدمه، وإذا مشى على الرمل لا يؤثر فيه، خرقا للعادة"[22].

وموطئ بالجر بدل من التراب، أي موضع وطئه ﷺ، والأخمص قدمه الشريفة، فهو "من التعبير بالبعض عن الكل، إذ الأخمص من القدم الذي لا يلتصق منها بالأرض عند الوطء، والخمصان البالغ فيه"[23]، ففي رواية الترمذي أنه ﷺ كان: " خمصان الأخمصين"[24]، وفي القاموس: "والأخمص من باطن القدم: ما لم يصب الأرض، وكان ﷺ خُمصان الأخمصين"[25]. قال ابن حجر: "ولا يُعارضه ما رواه البيهقي عن أبي هريرة: -كان ﷺ إذا وطئ الأرض بقدمه، وطئ بكلها ليس له أخمص-، وابن عساكر عن أبي أمامة: -كان ﷺ لا أخمص له، يطأ على قدمه كلها-، إذ المراد أن أخمصه معتدل الخمص، لأنه كان على أكمل الحالات من كل وجه"[26]. ونقل [ابن حجر] في شرح الشمائل عن ابن الأعرابي: "إذا كان خمص الأخمص بقدر لم يرتفع جدا ولم يستو فيه أسفل القدم جدا، فهو أحسن ما يكون"[27]. فالمعنى على هذا الأنسب

---

[20]يعني رزين بن معاوية العبدري وكتابه "تجريد الصحاح الستة في الحديث".
[21]يعني الحافظ السرمري الحنبلي وكتابه "خصائص سيد العالمين"، وقد نقل عنه الشيخ ابن حجر الهيتمي.
[22]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.368 و369.
[23]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.369.
[24]رواه الترمذي في "الشمائل المحمدية".
[25]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.500.
[26]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.369، بالتصرف.
[27]أورده ابن حجر الهيتمي أيضا في "المنح المكية"، ص.369.

بأوصافه ﷺ إذ هي في غاية الاعتدال أي أخمصه معتدل الخمص، وما روي عن أبي هريرة -ليس له أخمص-، أي غير معتدل، فلا ينافي الأنسب المذكور. والذي نعت للأخمص أو لموطئ، ومنه أي من أجله حال من وطاء متقدمه، وهو مبتدأ وللقلب خبره، والـ فيه خلف عن الضمير أي لقلبي، ومضجعي مبتدأ، وهو مكان وضع الجنب في الأرض، ومنه "تتجافى جنوبهم عن المضاجع"[28]. وفاعل أقض، بالقاف والضاد مشددة، ضمير يعود إلى المضجع، أي أصابه القضض بمعجمتين، وهو التراب الذي يعلوالوطاء وهو الفراش، والمراد به هنا طمأنينة القلب وسكونه. قال ابن حجر: "فوصف الناظم ذلك التراب الذي في موضع وطء قدمه الشريفة، بأنه لو فُرض أن شيئا منه أصاب مضجعه، كان ذلك التراب فراشا لقلبه في الحقيقة، فأناره وأراحه من الأغيار"[29]، فيحصل له باضجاعه عليه أعظم من استراحته على الفراش اللينة، وكأنه يشير بهذا إلى اضجاعه في رَمْسِه[30]، رجاء أن يستريح الاستراحة الأبدية بالسعادة السرمدية.

ثم قال [الناظم]:

حَظِيَ المسجدُ الحرامُ بِمَمْشا --- ها ولم يَنسَ حَظَّهُ إيـلِياء

حظي كرضي من الحُظوة بضم أوله وكسره: المكانة والحظ من الرزق. والمراد بالمسجد الحرام جميع حرم مكة، إذ يراد به ذلك كما هو في مواضع كثيرة من القرآن، أي حصل لمكة حظ عظيم من الفضل بسبب مشي القدم الشريف فيه، فشَرُفَ حرم مكة على سائر البقاع ما عدا موضع قبره المكرم كما عليه أكثر الإئمة، بواسطة ولادة النبي ﷺ ونشأته فيه. ومن تم صح أنه ﷺ قال لمكة: "والله إنك لأحب أرض إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك كَرهاً ما خَرجتُ"[31] الحديث.

وما رواه "مُفَضِلُو المدينة المنورة موضوع، كما اعترف به إمام المالكية وصرح به

---

[28]سورة السجدة، الآية 16.
[29]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.369.
[30]بمعنى قبره، وفي "القاموس المحيط"، ص.669: "الرُّمْسُ: القبر".
[31]أخرجه الأئمة الترمذي وابن حبان وابن ماجة.

أبو عمر بن عبد البر[32]، وصرح بأن أفضلية مكة هو الحق عند من أُلهِم رشده وبرء من التعصب. وإيلياء: بيت المقدس، فإنه حصل له حظ وشرف بمشيه [ﷺ] فيه أيضا ليلة الإسراء وصلاته بالأنبياء فيه، كما صحت بذلك الأحاديث. ولم يذكر المدينة لمشاركتها لهما فيما حظيا به، بل زادت عليهما باشتمالها على مدفنه الشريف، فهي أفضل منهما على ما ذهب إليه بعض العلماء"[33]، عن ابن حجر.

ثم قال [الناظم]:

وَرِمَـت إذ رَمـــــى بـها ظُلَمَ الليْـ --- ـلِ إلى اللهِ خَوفهُ والرَّجاء

دَمِيَـت فـي الوغى لتُكسبَ طيـباً --- مـا أراقت مـن الدَّمِ الشُّهداء

فهي قُطبُ المحرابِ والحربِ كم دا --- رت عليها في طاعةٍ أَرْحـاء

وأُراهُ لــو لــم يُسَكِّن بــــها قَـبـ --- ـلُ حِراءً ماجَتْ به الدَّأْماء

يعني أن من فضائل القدم الشريفة، كونها ورمت بكسر الراء أي انتفخت، حيث أطالت الوقوف في قيام الليل بعبادة الله تعالى. وإذ ظرف أو تعليل للورم، وظُلم الليل بضم أوله مفعول رمي وبها متعلق به وضميره يعود إلى القدم، والفاعل ضمير يعود إلى النبي ﷺ، قال ابن حجر: "شبه القدم الشريفة بسهم صائب، من حيث أن قيام القدم بالعبادة المُنورة بطاعة الله أوجب زوال ظلمة الليل ووحشته، كما أن رميَ السهم يُزيل سورة العدو ووطأته، فتشبيهه القدم بالسهم في ذلك استعارة بالكناية لبناءها على هذا التشبيه المكنّى في النفس، ولإثبات الرمي لها استعارة تَخييلية"[34]. وصح أنه ﷺ قام [الليل] حتى تورمت قدماه، فقيل له: "-أتكلف هذا وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟-، فقال: -أفلا أكون عبدا شكورا؟-"[35]. فتهجده ﷺ لم يكن ناشئا عن خوف العقاب أو رجاء الثواب كما هو غالب الناس، إنما كان لمحض العبودية، ومن ثم قال [الناظم] إلى الله خوفه والرجاء: إنما كان خوفه لشهوده مقام

---

[32] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتب "أبو عمر بن عبد الله"، وهو خطأ نقل بالرجوع إلى النص المرجعي.
[33] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.370. بالاختصار.
[34] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.372.
[35] رواه الإمامين البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.

الإعظام والإجلال دائما، وكان رجاؤه لشهوده مقام الحِلم والعفو كذلك، لا لغرض غيرهما.

ومن أوصاف القدم الشريفة أيضا أنها دَميت أي سال دمها في الوغى، قال ابن حجر: "والوغى في الأصل الصوت والجلبة، وسميت الحرب به لما فيها من كثرة اختلاط الأصوات والجلبة"[36]، ثم قال:" والمراد به هنا حرب أعداء الله ثقيف، لما خرج ﷺ إليهم إلى الطائف يدعوهم إلى الله. ولا يقال ليس هذا بحرب إذ مكث عندهم شهرا، ومواجهته لهم بما يكرهونه من بطلان دينهم ودين آبائهم، وتسفيه أحلامهم وسب آلهتهم ودعاؤهم إلى عبادة الله وحده، وهم مع ذلك على كفرهم وعتوهم، وهو صابر على إذايتهم له وإغرائهم به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويضربونه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بدم رجليه الشريفتين، وزَيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى شُج في رأسه ثلاث شجات، هو حرب حقيقة"[37]، بعضه بمعناه. ثم قال [ابن حجر]: وكان ينبغي للناظم أن يذكر هذا من أوصاف يده الكريمة، لأن الذي في البخاري أنه ﷺ دميت إصبعه فقال: -هل أنت إلا إصبع دميت --- وفي سبيل الله ما لقيت-"[38]. فقوله [أي ابن حجر]: "كان ينبغي للناظم..."، يقتضي أن الإصبع في الحديث كانت من اليد، ولا دلالة فيه على ذلك، وأيضا لم يذكر الناظم نفس الإصبع وإنما ذكر القدم، ويكفي في الاستدلال عليه ما ذكر من حرب ثقيف، وعلى تقدير إرادة الإصبع في النظم، فلا يتجه اعتراض على الناظم بهذا الحديث، لاحتمال أن الإصبع كانت من القدم، فالدليل إذن أعم من الدعوى وما طرقه الاحتمال سقط به الاستدلال، بل المتعين أن الإصبع كانت من القدم، وشاهده ما في صحيح البخاري من كتاب الأدب، من حديث جندب قال: "بينما النبي ﷺ يمشي، إذ أصابه حجر فعثر فدميت إصبعه، فقال: -هل أنت إلا إصبع دميت-"[39] الحديث. ويبعد أن تدمى إصبع اليد من العثرة بالقدم، ولعله [أي الهيتمي] لم يقف على هذه الرواية، وإنما وعى ما في كتاب

---

[36] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.374.

[37] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.374 و375، بالتصرف حيث يقول سيدي يحيى بعد النقل: "بعضه بمعناه".

[38] نفس المرجع السابق، ص.374.

[39] رواه الإمام البخاري في صحيحه عن جندب رضي الله عنه، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه.

الجهاد[40].

وتكسب بفتح أوله والضم أولى، وعليه ففاعله ضمير يعود إلى القدم الشريفة، وطيبا مفعول ثاني، وما موصول مفعول أول، والشهداء جمع شهيد فاعل أراقت. وأسند إراقة الدم إلى الشهداء لتشبيههم في الشهادة.

والمعنى أن الدم السائل من قدمه الشريفة، يعود طيبه على جميع دماء الشهداء، فتكون روائحها كالمسك ببركته ﷺ، كما صح الحديث بذلك عنه ﷺ.

ومن أجل ذلك كانت هذه القدم الشريفة قطب المحراب، أي انتهى إليها دوام الثبات وطوله في الصلاة وفي الحرب كذلك، إلى حالة لم توجد في غيرها، ولم يكن أخشع ولا أخضع منه لله [تعالى]، ولا أشجع منه كما مر. وكم للتكثير، وأرحاء جمع رحى فاعل دارت، أي مرات كثيرة أحاطت قبائل العرب وجيوشٌ بتلك القدم الشريفة، وهي مع ذلك ثابتة لا تتحرك ولا تنتقل عن محلها. وقطب الرحى: الوتد الذي تدور عليه، وسمي أمير الجيش بذلك في الحرب لأنها إنما تدور عليه. واستفيد من كلامه، أن هذه القدم الشريفة مركز دائرة الوجود، فهو ﷺ نقطة الكون المخلوق لأجله ابتداءً، والمُتصرف فيه انتهاءً، وتقدم أنه ﷺ بذرة الوجود. وبين المحراب والحرب جناس الاشتقاق.

وأراه أي أعلمه واعتقده، والهاء مفعول أول، ولو مع شرطها سدت مسد المفعول الثاني، ويصح أن ماجت في موضع المفعول الثاني. قال ابن حجر: "والذي يتجه في حل هذا البيت، أن ماجت جواب لو، وأن الدأماء بالمهملة وسكون الهمزة: البحر، وأن فيها الاستعارة المصرحة، لأنه شبه جبل حراء بالبحر في تحركه به ﷺ كتحرك البحر براكبه، وأن ماجت استعارة مصرحة أيضا لأنها تناسب المشبه به وهو البحر، إذ لا يستعمل ماج إلا للبحر كما صرح به في القاموس. فالمعنى والله أعلم،

---

[40] أورد الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، نفس الحديث عن جندب بن سفيان، ولفظه: "أن رسول الله ﷺ كان في بعض المشاهد وقد دميت إصبعه فقال: -هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت-". ويعني العلامة الشبيهي أن الشيخ الهيتمي أخذ فقط بلفظ هذا الحديث الأخير، ولم يعي اللفظ السابق من نفس الحديث في باب الأدب، لأنه إن استدل باللفظ السابق الذي ينص على المشي والتعثر، لظهر له أن الإصبع الذي دمى لا يمكن أن يكون إلا إصبع الرجل وبكل تأكيد ليس إصبع اليد، فتنتفي بذلك ملاحظة الشيخ الهيتمي على الإمام البصيري.

أنه لو لم يُسكِّن بقدمه الشريفة جبل حراء قبلُ، أي عند ابتداء تحركه به، بقوله له "أثبت حراء" كما مر عند قوله فاهتز به للصلاة، لماج [حراء] أي استمر به اضطرابه إلى آخر الدهر، لِما مر أنها هزة طرب وسرور برقيه عليه ﷺ. وكان القياس أن يقول "ماج"، لكن لما احتاج إلى تشبيه الجبل بالبحر فيما ذكر قال ماجت، لما في تشبيه الجبل بالبحر من البلاغة المبنية على الاستعارتين المذكورتين"[41].

ثم قال [الناظم]:

عجبــاً للكفارِ زادوا ضلالا --- بالذي فيه للعقولِ اهتِداء

والـذي يَسألـونَ منه كتـابٌ --- مُنْزَلٌ قد أتاهـم وارتقـاء

العجب: المستغرب الخارج عن قياس العقول، وهو هنا معمول لفعل محذوف من لفظه، مضارع على التكلم أو أمر على الخطاب، وذلك أنه لما ذكر كثيرا من معجزاته ﷺ الباهرة، التي يؤمن بها مَن لم يشاهدها حين يسمعها فورا للقطع برسالته ﷺ، تَعجبَ من عَماء الكفار حيث شاهدوها ولم يومنوا بها، بل زادوا معها ضلالا لعنادهم وعتوهم، فكفروا بالقرآن وغيره من المعجزات، التي في كل فرد من أفرادها للعقول السليمة الخالية من العناد والخذلان اهتداء إلى الحق والدين الذي جاء به نبينا محمد ﷺ، وإلى صحة ما تحدى به. لكنهم كانوا لا يزدادون، مع مشاهدتهم ذلك لما عندهم من الحسد والعناد، إلا امتناعا وتمردا وكفرا، كما قال تعالى عنهم "وإن يروا آية يعرضوا"[42] الآية، وقال تعالى "وكأيِّن من آية في السماوات واللأرض"[43] الآية.

وعجبا أيضا من الذي يسألونه منه على وجه التعنت وقد أتاهم بكثير منه، فمن ذلك القرآن وهو المراد بقوله كتاب، فهو مبتدأ ومنه خبره. ومنزل بفتح الزاي وقد أتاهم صفتان له، وفاعل أتى ضميره يعود إلى الكتاب أو إلى النبي [ﷺ]، والمتعلق محذوف أي "به"، والجملة خبر عن الذي، ويحتمل غير هذا. وارتقاء أي صعود،

---

[41] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.378 و379.
[42] سورة القمر، الآية 2: "وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر".
[43] سورة يوسف، الآية 105: "وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون".

معطوف على كتاب، وأشار بهذا إلى قولهم في التنزيل أو ترقي في السماء: "ولن نومن لرقيك"[44] الآية. وقد رقى في السماء في إسرائه [ﷺ]، وأتاه الله كتابا وهم يشاهدونه وجحدوه.

ومن ثم قال [الناظم]:

أوَلَم يكفهمْ مِـــن اللهِ ذِكـــرٌ --- فيه للناسِ رحمةٌ وشِفاء

أعجزَ الإنسَ آيـةٌ منه والجِنَّ --- فهلَّا تأتي بِه[45] البُلَغـــاء

يعني أعموا عماء كليا، حتى أنهم لم يكفهم ذكر أي قرآن واصل إليهم من الله [تعالى]، وتسميته بذلك في آيات كثيرة منه، كقوله تعالى "وإنه لذكر لك ولقومك"[46]، وكقوله "إنا نحن نزلنا الذكر"[47]. ورحمة مبتدأ وللناس متعلق به وفيه خبره، وشفاء معطوف على رحمة، والجملة صفة لذكر فاعل يكفهم، ومن الله حال منه ومن الرحمة، أي اهتداء المومنين بآياته وتأخير عذاب الاستئصال عن الكفار ببركته. وفيه شفاء لمن أراده الله من كل داء ظاهر وباطن، حسي ومعنوي، قال تعالى "قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء"[48]، وخص المومنين لأنهم المقصودون بذلك بالذات وغيرهم بالتبع. قال ابن حجر: "قال العلماء: لم ينزل من السماء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم في إزالة الداء من القرآن، فهو لكل داء دواء، ولصدأ القلوب جلاء، قال تعالى -وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمومنين-، قال الفخر الرازي: ليست - من- للتبعيض بل للجنس، والمعنى: وننزل من هذا الجنس الذي هو القرآن، ما هو شفاء من الأمراض الروحانية كالاعتقادات الفاسدة في الألوهية والنبوءة والمعاد، ففي القرآن من النصوص القاطعة بفساد ذلك ما يشفي ويكفي، وكالأخلاق المذمومة ففيه أوضح بيان لأنواعها والحض على اجتنابها، ومن الأمراض الجسمانية بالتبرك بقراءته عليها، لكن مع الخلوص وفراغ القلب من الأغيار وقربه وإقباله على الله

---

[44]سور الإسراء، الآية 93.
[45] في "المنح المكية" كُتبت "يأتي ببعضها".
[46]سورة الزخرف، الآية 44.
[47]سورة الحجر، الآية 9.
[48]سورة فصلت، الآية 44.

بكليته، وترك أكل الحرام، وعدم رين[49] الذنوب واستيلاء الغفلة على القلوب، وصح أن الله لا يقبل الدعاء من قلبٍ غافلٍ لاهٍ. وقراءته [أي القرآن] ممن كان على تلك الحالة [ألأولى] مبرئة لأي مرض كان، وكتابته كذلك، وإن أعيا الأطباء. ومن ثم قال بعض الأئمة: متى تخلف الشفاء [فهو] إما لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المحل المنفعل، أو لمانع قوي"[50]. "وعن الإمام العارف بالله تعالى أبي القاسم القشيري رحمه الله، أن ولده اشتد به مرض فانزعج عليه، فرأى النبي ﷺ فشكا إليه ما بولده، فقال له: -أين أنت من آيات الشفاء-، فكتبها ومحاها بماء وسقاها له، فكأنما نشط من عقال"[51]. وهي ست آيات [من] قوله تعالى:

- وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُومِنِينَ.[52]
- شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ للمُومِنِينَ.[53]
- يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ للنَّاسِ.[54]
- وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُومِنِينَ.[55]
- وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ.[56]
- قُلْ هُوَ لِلذِينَ ءَامَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ.[57]

وآية فاعل أعجز أي قمع المعاند وأدحض الجاحد وأعيا المكائد، قال ابن عطية: "والآية لُغَة: العلامة، فلما كانت الجملة التامة من القرآن علامة على صدق الآتي بها وعلى عجز المتحدى بها، سُميت آية. وقيل: لما كانت جملة وجماعة كلام، كقول العرب –جئتنا بآياتنا-، أي جماعتنا. وقيل: لما كانت علامة للفصل بين ما قبلها وما بعدها"[58]. وهذا اقتباس من قوله تعالى "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن

---

[49] الرين: غطاء يستر الشيء ويَغشى عليه.
[50] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.382.
[51] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.383.
[52] سورة التوبة، الآية 14.
[53] سورة يونس، الآية 57.
[54] سورة النحل، الآية 69.
[55] سورة الإسراء، الآية 82.
[56] سورة الشعراء، الآية 80.
[57] سورة فصلت، الآية 43.
[58] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.1، ص.57، بالاختصار.

ياتوا"[59] الآية. قال الأئمة: "وذلك صادق بالكل والبعض، ولو آية"، وهو الموافق لما في النظم وإن كان المشهور أقلُ ما وقع التحدي به أقصر سورة منه، وهي سورة الكوثر، أو ثلاث آيات في قدرها، أو الإتيان ولو بآية. والصحيح الأول، وعليه جرى العلامة البرماوي فقال: "وأقل ما وقع التحدي به آية، لقوله تعالى -فليأتوا بحديث مثله-"[60]، لكن قيل محله: "إذا اشتملت على ما به الإعجاز"[61] قاله ابن حجر، ثم قال: "والمعتمد ما أطلقه من عجز الثقلين عن آية منه، بناء على أن المراد بقوله "لا ياتون بمثله"[62]: كُلّا أوبعضا، الصادق بالآية الواحدة"[63]. ومن ثم قال [الناظم] فهلا تأتي، "وأصل هلّا التحضيض، وهي هنا للتهكم، ونظيره -فلولا نصرهم الذين اتخذوا-[64] الآية. لأن لولا أختها [أي هلا]، فهي في الآية للتوبيخ والتنديم"[65]. والبلغاء جمع بليغ، قال في التلخيص: "والبلاغة في المتكلم ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ، فعُلم أن كل بليغ فصيح"[66]، وقال قبل هذا: "والفصاحة في المتكلم، ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح"[67]. فأَفهمَ الناظم أن غير البليغ أحرى في العجز، قال ابن عطية: "فصورة قيام الحجة على العرب بالقرآن، أنه لما جاء [سيدنا] محمد ﷺ وقال: -فأتوا بسورة مثله-، قال كل فصيح في نفسه: -وما بال هذا الكلام حتى لا آتي بمثله؟-، فلما تأمله وتدبره، ميز منه ما ميزه المغيرة بن الوليد حين قال: -والله ما هو بشعر ولا هو بالكهانة ولا بالجنون-، وعرف كل فصيح في نفسه أنه لا قدرة لبشر على مثله فصح عنده أنه من عند الله، وعَلِمَ بالضرورة أنه لا يأتي بما ليس في قوة البشر إلا من خصه الله [عز وجل] بذلك من أنبيائه، فمنهم [أي من الفصحاء] من آمن وأذعن، ومنهم من جحد كأبي جهل

---

[59]سورة الإسراء، الآية 88، برواية ورش عن نافع: "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا".

[60]محمد بن عبد الدائم البرماوي، جمع العدة لفهم العمدة.

[61]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.384. لم يورد ابن حجر اللفظ هكذا، ولكن قال بوجوب ارتباط الآية بما قبلها وما بعدها وليس مستقلة بذاتها، لأن وجه الإعجاز أن يأتوا بآية من مثله في محل الآية المقصودة، والله أعلم.

[62]سورة الإسراء، الآية 88، برواية ورش عن نافع: "قُل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا".

[63]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.384، بالتصرف.

[64]سورة الأحقاف، الآية 28.

[65]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.384.

[66]القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، ص.38.

[67]نفس المرجع السابق، ص.34.

وغيره، ففر إلى القتال ورضي سفك الدم عجزا عن المعارضة، حتى أظهر الله [عزوجل] دينه ودخل جميعهم فيه. ولم يمت رسول الله ﷺ وفي الأرض نبيل من العرب يُعلن كفره، فقامت الحجة على العالم بالعرب، إذ كانوا أهل الفصاحة ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة عيسى عليه السلام بالأطباء، وفي معجزة موسى عليه السلام بالسحرة، فإن الله تعالى جعل معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم بالوجه الشهير وأبرع ما يكون في زمن النبي[68] الذي أراد الله إظهاره، فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته، والطب في زمن عيسى، والفصاحة في مدة [سيدنا] محمد، صلى الله وسلم عليهم أجمعين"[69]. قال بعضهم: "وتنحصر وجوه الإعجاز في أربعة أمور: بلاغته، وخروجه عن سائر فنون الكلام من النظم والسجع والخُطب وغيرها، وتأثيره في القلوب بحيث تجد فيه من اللذة والحلاوة عند سماعه ما لا تجد في غيره، واشتماله على علوم الأولين والأخرين والإخبار بالمغيبات ما كان وما يكون. وذكر منها ابن جوزي خمسة عشر وجها"[70].

ومن ثم قال [الناظم]:

كـلُّ يومٍ تُهدي إلـى سامعيــه --- معجزاتٍ مـن لَفظِهِ القُرّاء

تتحلّى بـه المسـامـعُ والأفـ --- ـواه فــهْوَ الحُلِيُّ والحَلْواء

رقَّ لَفظاً وراق معنى فجاءتْ --- في حُلاها وحِلْيها الخَنساء

وأرَتنــا فيــه غَوامضَ فضلٍ --- رِقَّةٌ من زُلالِـه وصَفــاء

معجزات نعت لمحذوف أي معاني، ومن لفظه حال منه أي من آياته والضمير فيه يعود إلى القرآن.

والمعنى: كلما وردت آيات القرآن على الأسماع، بدا بها من معانيه ما يُعجز العقول عن إبدائها في مثل قوالب تلك الألفاظ. والقراء أي الذين يقرأون القرآن، فاعل تُهدي

---

[68]في النسختين الحسنية والصبيحية زيد " ﷺ" وقررت ألا أكتبه حتى لا يُظن أن المقصود سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فذلك مخالف للمعنى وكذلك للمرجع المحال عليه.
[69]ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.1، ص. 54.
[70]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.388 إلى 390، بالتلخيص.

بضم أوله رباعي من أهدى الهدية. وفي التعبير به تشبيه المعجزات بالتحف المهداة، ويصح أن آيات نفس المعجزات، والمجرور صفة له فلا يحتاج إلى تقدير، وكل ظرف للإهداء.

والمسامع فاعل تتحلى أي تتزين بالحلي فلامه ياء، والأفواه فاعل فعل محذوف دل عليه السياق وتقديره تتحلى، أي تذوق حلاوته، ولامه واو، فهو من عطف الحمل[71]، ومن ثم قال على اللف والنشر المرتب: فهو الحُلي بضم أوله، قال ابن عطية في قوله تعالى "-تحلى من حليهم-: قرأ نافع وجماعة بضم الحاء وكسر اللام، وهو جمع على مثال ثَدي وثُدِي، وأصله حُلوى، قلبت الواو ياء وأدغمت وكسرت اللام لتناسب الياء"[72]. وظاهر القاموس أن الحُلي بضم ففتح، جمع حِلية بالكسر وهي الحَلْي بفتح فسكون. والحَلواء بفتح أوله معروف، و"الفاكهة الحلوة"[73] كما في القاموس. فاستعار الحلي لما تتزين به الأسماع من محاسن القرآن، والحلواء لما تستحليه أفواه قارئيه.

ورق أي حسُن، وراق أي صفا، وفاعل كل منهما ضمير يعود إلى القرآن، ولفظا ومعنا: تمييزان محولان عن الفاعل.

والمعنى أنه عذب من جهة اللفظ، فلا تجد في لفظة منه ما ينافي كمال الفصاحة والبلاغة، وخلص من شوائب النقص من جهة معناه، فلا تجد معنى فيه إلا وهو واصل في الإحكام ووضوح الدلالة إلى الغاية القصوى. فسبب كون آياته راقت ورقت جاءت هي، أي الآيات، كأنها الخنساء، فهو خبر عن مبتدأ محذوف يعود إلى الآيات، والجملة حال منها. والحُلَي بضم ففتح مقصورا: تقدم أنه جمع حِلية بالكسر، والحَلْي بفتح فسكون، قال في القاموس: "ما يتزين به من مصوغ المعدنيات والحجارة، جمعه [حُلِيٌّ كدُلِي][74]، أو هو جمع والواحد حَلية كظَبية"[75].

---

[71] أي العطف على الوهم، وهو الحمل على معنى كلام يخالف المذكور في الإعراب ويوافقه في المعنى.
[72] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.2، ص.455.
[73] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.398.
[74] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "حِلي كدِلي"، وقد أوردتها كما جاءت في المرجع المحال عليه.
[75] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.398.

وفي حلاها حال من الخنساء، وهي بنت عمرو الشاعرة البليغة الجميلة، كان يتعجب من جمالها وحسنها، ونحوه في الإصابة[76]. قال ابن حجر: "وهذا من تشبيه الأعلى بالأدنى كما مر، شبه سور القرآن وآياته في صفاتها العلية وتزيينها بما أودعته من الأسرار الإلهية، بامرأة بلغت من الزينة وأوصاف الحسن ما يقصر التعبير عنه"[77].

"وأرتنا أي أوضحت لنا وكشفت، ورقة بكسر أوله فاعله، وفيه أي في القرآن، من غوامض أي خفايا، فضل كالعلوم المستنبطة منه والمعارف التي لا حد لها، فالإضافة بيانية. ومن ثم صح عن علي كرم الله وجهه: -لو شئت أن أوقر بعيرا في تفسير سورة الضحى لفعلت-"[78]. وفي القاموس: "وماء زلال كغراب وأمير: سريع المر في الحلق عذب بارد سهل صافي سلس"[79]. قال ابن حجر: "والزلال ماء في غاية البرودة والعذوبية، يوجد في أجواف صُوَرٍ[80] توجد في نحو الثلج، تشبه الحيوان وليست في الحقيقة لحيوان، كما قال ذلك بعض أكابر أئمتنا"[81]. قُلْتُ: وقد شاهد كثير من الناس هذه الصور كالجمل وكالفرس والعقرب والأدمي وغيره، بحجر من برد[82] نزل بالمغرب بحضرة فاس وزرهون، في شوال عام أربعة وسبعين ومئة وألف، لو طال بهما ساعة لأهلكهما وأغرق أهلهما. وصفاء أي خلُص من شوائب الأغيار.

والمعنى: كما أن رقة الزلال وصفاؤه يُريان ما تحتهما مما شأنه الخفاء، فكذلك القرآن رق لفظه وصفا معناه، حتى أنه يُعلم بما فيه من خفايا العلوم ودقائق الفهوم، لكن إنما ينال ذلك من انجلت مرآة فكره، ومن ثم قال [الناظم]:

إنما تُجتلَى الوجوهُ إذا ما --- جُليت عن مرآتها الأَصْداء

---

[76] ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج.8، ص.109.

[77] ابن حجر الهيتمي، "المنح المكية"، ص.393. في المرجع المطبوع، لا يوجد لفظ "وهذا من تشبيه الأعلى بالأدنى كما مر".

[78] نفس المرجع السابق، ص.394.

[79] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.716.

[80] في المرجع المطبوع كُتبت "صخور"، وهو خطأ بالنظر لما يأتي بعده.

[81] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.394.

[82] وهو ما يُعرف بالعامية المغربية ب"التَّبْروري" وبالفرنسية GRELE، وهو ماء جامد صلب كُروي الشكل يمكن أن يبلغ قطره 20 سنتمترا، يسقط عند اشتداد البرودة الجوية، ويُمكن أن يُحدث إصابات جسيمة في الأرواح والمساكن والحقول الفلاحية. وبالطبع لا توجد صور في هذه الكرات الثلجية، إنما هي أوهام وتهيؤات.

الفصل العاشر: من البيت 191 إلى البيت 210

[قال الناظم]:

إنما تُجتَلى الوجوهُ إذا مـا --- جُليت عن مرآتها الأَصْداء

سُورٌ منه أَشبهَت صُوراً مِنَّا --- ومِثلُ النَّظائـرِ النُّظَـراء

والأقاويـلُ عندهم كـالتَّماثيـ --- ـلِ فلا يوهمَنَّكَ الخُطَباء

تُجتلي بالبناء للمفعول، والوجوه نائب الفاعل.

والمعنى: إن الوجوه إذا قوبلت بالمرآة، لا يظهر تمثالها ظهورا بيّنا لا خفاء معه إلا إذا جُليت، أي أزيلت، الأصداء عن تلك المرآة التي تقابَل بها الوجوه لتُرى فيها. والأصداء جمع صَدىً كفَتىً، وهي الأغيار والأوساخ. يعني كذلك مرآة القلوب لا تجتلي لها العلوم وتظهر على حقائقها مع المعارف التي في القرآن، إلا إذا جليت عنها أصداء الأغيار، وهي ظلمة القلب نسأل الله السلامة، وتكثر بأكل الحرام واتباع الهوى والرضى عن النفس، كلاهم من ظلمة القلب، وأصلها حب العاجلة التي هي أصل كل خطيئة، والغفلة عما عند الله تعالى وعدم مراقبته، وترك التقوى التي هي أصل كل خير، ومن ثم قال ﷺ: "من عمل بما عَلِم ورَّثه اللهُ علم ما لم يعلم"[1].

وسُوَر جمع سورة، قال ابن عطية: "قريش ومن جاورهم من العرب يقولون سورة بغير همز، وتميم وغيرهم يهمزون [سؤرة]، وهي عندهم كالبقية من الشيئ والقطعة منه التي هي سؤر، وسؤرة من أسأر: إذا أبقى بقية. ومن لم يهمز يرى أنها من ذلك، لكن سهلت همزتها، ومنهم من يراها مشبهة بسورة البناء أي قطعة منه، لأن كل بناء فإنما يبني قطعة بعد قطعة، وكل قطعة منها سورة"[2]. وسور مبتدأ، ومنه صفة له، ومن لبيان الجنس لا للتبضيع، لأن ما يأتي في كلامه ليس هو خاصا

---

[1] أورده أبو نعيم الأصفهاني في "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء".
[2] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.1، ص.56 و57.

ببعض سوره بل يشمل جميعها. وفاعل أشبهت ضمير يعود إلى السور، والجملة خبر المبتدأ، وصور: جمع صورة أي شكل مفعول به، ومنا صفة له. ووجه الشبه أن كل صورة منا تميزت عن الأخرى بما اشتملت عليه من الصفات الخَلقية والخُلقية، فكذلك سور القرآن اشتملت كل واحدة منها على علوم ومعارف مستقلة فيها، لا تتوقف على ما في أخرى، ومن ثم كان التحدي بأقصر سورة منه. ومثل مبتدأ، والنظائر أي من السور، جمع نظيرة أي شبيهة، والنظراء: جمع نظير أي مثيل من الناس، خبر المبتدأ .

والأقاويل جمع أقوال، وعندهم أي الكفار حال منه، أي أقاويلهم في القرآن من خرفة مموهة بالأباطيل شبيهة بالتماثيل، جمع تِمثال بكسر أوله، أي التصاوير التي يخترعها المصورون[3]، فكما أنها لا وجود لها في التصوير[4]، فكذلك أقاويلهم الفاسدة لا وجود لمعانيها في الخارج، فلا مدلول لها فيه. فلا يوهمنك الخطباء منهم، جمع خطيب وفلا ناهية، أي إحذر أن يوقعوا في ذهنك ريبا بما يُزخرفون في خطبهم من الأقاويل في القرآن، فتقع في ورطة الشك في أنه منزل من الله حقيقة ووحي منه فتكون من الخاسرين. وفي القاموس: "وَهِمَ في الحساب كوَجِلَ: غَلَطَ"[5]. ومنهم من أقر بالحق فيه، كعتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة، حيث قالا في القرآن أنه ليس بسحر ولا كهانة، بل عرفا أنه الحق وجحدا، وقصتهما مشهورة[6].

ثم قال [الناظم]:

كمْ أبانتْ آياتُهُ من علومٍ --- من[7] حروفٍ أبانَ عنها الهِجاء

فهْيَ كالحَب والنَّوى أعجب الزُّرَّ --- اعَ منهــا سنابلٌ وزَكاء

فَأَطالوا فيــه التَّردُّدَ والرَّيْـ --- ـبَ فقالوا سحرٌ وقالوا افْتِراء

كم للتكثير، وأبانت أي كشفت وأوضحت وآياته فاعله، "وهي -لغةً: العلامة،

---

[3] بمعنى الرسامون، وليس المصورون الفوتوغرافيون كما يعرفون حاليا.
[4] أي الواقع.
[5] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1784.
[6] ذكر القصة ابن عطية في "المحرر الوجيز"، ج.1، ص. 54.
[7] في "المنح المكية" المطبوع كُتب "عن".

واصطلاحاً: قرآن مركب من جمل ولو تقديرا، ذو مبدأ ومقطع، مندرج في سورة-قاله الجعبري"[8]. ومن تُزاد في الإثبات على رأي جماعة، أو هي هنا لبيان الجنس أي علوم لا غاية لها ولا حد، قال تعالى "ما فرطنا في الكتاب من شيء"[9] على أنه القرآن، قال ابن عطية: "وهو الذي يقتضيه نظام المعنى في هذه الآيات، وقيل اللوح المحفوظ"[10]، وقال تعالى "ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء"[11].

فائدة: لم يأتي من المصادر على تِفعال بكسر التاء إلا تِبيانا وتِلقاء.

وفي حديث الترمذي وغيره: "-ستكون فتن-، قيل: -وما المخرج منها؟-، قال [ﷺ]: -كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وما بعدكم وحكم ما بينكم-"[12]، "وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال: -من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين-، قال البيهقي: -يعني أصول العلم-. قال بعضهم: وهي ثلاثة، توحيد ووعظ وحكم، ومن ثم سُميت الفاتحة أم الكتاب لاشتمالها على الثلاثة، وكانت [سورة] الإخلاص ثلثه لاشتمالها على الأول"[13]. ثم إن كشف تلك العلوم من حروف قليلة، أبان عنها أي عن الحروف الهجاء، وهو كما في القاموس: "تقطيع اللفظ بحروفه"[14]، كاللام والميم فهما اسمان لحرفي لم، والقاف والدال اسمان لحرفي قد، فيتعين كل حرف باسمه الموضوع له. فهي، أي حروف القرآن في قلتها في الآية الواحدة مع كثرة العلوم المستفادة منها، كالحب المزروع والنوى المغروس، وهو عظم التمر، في حال كونه، أي الحب، أعجب الزراع. وسنابل فاعل أعجب والجملة حال من الحب، ومنها حال من سنابل، كما أعجب الغراس أقناء[15] من النوى المغروس، وزكاء أي كثرة ونماء في كل منهما، بحيث تعجز الحُسَّابُ عن إحصاء ما اشتملت عليه من السنابل والأقناء. "وهذا من التقريب، وإلا فتلك الحبوب والثمار متناهية، وعلوم

[8]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.396.
[9]سورة الأنعام، الآية 38.
[10]ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.2، ص.290.
[11]سورة النحل، الآية 89.
[12]أخرجه الإمام الترمذي في سننه عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.
[13]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.396 وص.398.
[14]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1678.
[15]جمع قِناء وهو العذق من النخل كالعنقود من العنب.

القرآن غير متناهية"[16]، قاله ابن حجر.

فهذه الأوصاف بينات قاطعة ودلالات واضحة بأنه منزل من الله تعالى، توجب الإيمان به واتباع ما فيه، لكن الكفار لم يهتدوا بتلك البينات فأطالوا فيه التردد والريب أي الشك. ثم بيّن [الناظم] ترددهم بقوله فقالوا سحر: خبر مبتدأ محذوف، أي هو "تمويه لا حقيقة له، وهو لغةً: كل ما لطف مأخذه ورق، وقالوا مرة أخرى افتراء أي كذب، وقالوا مرة أخرى: -أساطير الأولين اكتتبها-[17]"[18]، فكذبهم الله تعالى بقوله "قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض"[19] وبآيات كثيرة غير هذه.

ثم قال [الناظم]:

وإذا البيِّناتُ لم تُغن شيئاً --- فالتماسُ الهُدى بهنَّ عَنَاء

وإذا ضَلَتِ العُقولُ على عِلـ --- ـمٍ فَماذا تَقولُهُ النُّصَحاء

ذكر الناظم في البيتين حكمتين، وهو كلام جرى مجرى المثل، بيّن به عماء قلوب الكفرة والعياذ بالله.

والمعنى أن الآيات البينات القاطعة لجميع الشُّبه والموضحة لكل حجة بالبراهين الصحيحة والأدلة الصريحة، إذا كانت لا تغني أي لا تنفع في القلوب المطبوع عليها بالشقاء، فالتماس الهدى أي طلبه منهم بتلك البينة عَناء بفتح المهملة، أي تعب بلا فائدة، وهو اقتباس من قوله تعالى "وما تُغني الآيات والنذر عن قوم لا يومنون"[20].

وكذلك أيضا، إذا ضلت العقول عن طرُق الحق على علم، أي مع علمها بتلك البينات، وأضلها باريها، فأي فائدة فيما تقوله لهم النصحاء؟ أي الأنبياء وأتباعهم، وهو اقتباس من قوله تعالى "أفرآيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم"[21]

---

[16]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.401، بالتلخيص.
[17]سورة الفرقان، الآية 5.
[18]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.402.
[19]سورة الفرقان، الآية 6.
[20]سورة يونس، الآية 101، برواية ورش عن نافع.
[21]سورة الجاثية، الآية 22. في النسخة الحسنية كُتبت "هواه" وفي النسخة الصبيحية كُتبت "هويه"، وفي رواية

الآية.

ولما بيّن [الناظم] ضلال المشركين وعنادهم، أراد أن يبين جحود أهل الكتاب وعمائهم فقال:

قومَ عيسى عاملتمُ قومَ موسى --- بالذي عامَلَتكمُ الحُنَفاء

صَدَّقــوا كُتُبكم وكَذَّبتمُ كُتْـ --- ـبَهمُ إنَّ ذا لـبيس البَـواء

لو جَحَدنا جُحودكمْ لاسْتوينا --- أوَ للحقّ بالضَّلالِ استواء

قومَ بالنصب على النداء، والمراد بقوم عيسى: النصارى، وقوم موسى: اليهود، والحنفاء: المسلمون، جمع حنيف وهو المائل عن كل دين إلى دين الحق.

والمعنى: يا أيها النصارى، عاملتم اليهود بتصديق كتابهم التوراة مع تكذيبهم بكتابكم الإنجيل، وبهذا عامل المسلمون الفريقين منكم.

ثم بيَّن معاملة المسلمين للفريقين بقوله صدقوا، فهو بدل اشتمال من عاملتكم وضميره للمسلمين، وكتبكم خطاب للفريقين وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب باعتبار اليهود. وكذبتم أيها الفريقين كتبهم أي كتب المسلمين، وهوالقرآن، جمعه باعتبار إفراده أو للمشاكلة.

وملخص كلامه [أي الناظم]، أن المسلمين صدَّقوا بجميع الكتب المنزلة من الله[تعالى]: القرآن والتوراة والإنجيل وغيرهم، وأن اليهود كذبوا بكتابنا القرآن وبكتاب النصارى الإنجيل، وأن النصارى كذبوا بالقرآن وصدقوا بالتوراة، أي تكذيب الفريقين بكتابنا وتكذيب اليهود كتاب النصارى لبيس البواء، فيه إشارة إلى قوله تعالى "وبَاءوا بغضب من الله"[22]. قال ابن حجر: "فإن قيل ما ذُكر من تصديق النصارى كتاب اليهود، يُخالفه قوله تعالى -وقالت النصارى ليست اليهود على

ورش عن نافع تكتب "هويه" بزيادة ألف أعلى الياء، وتنطق كأن الياء ألفاً كما مر في كتابة "فبهديهم اقتده" في التوطئة أول المؤلف.

[22]سورة آل عمران، الآية 112.

شيء-[23]، قيل لا يلزم من ذلك تكذيب أصل كتبهم بل هم مصدقون بها، وقولهم -ليسوا على شيء- من حيث أنهم ينسبون إليهم التحريف في كتابهم، والتبديل والتغيير"[24].

ثم بيّن [الناظم] فضل الحنفاء على الفريقين بقوله لو جحدنا، وجحودكم مصدر مضاف إلى الفاعل، والمفعول محذوف أي الكتب، أي لو أنكرنا كتبكم كما أنكرتم كتبنا لاستوينا معكم في الضلال، لكن لا استواء بيننا وبينكم في ذلك، لأننا على الحق وأنتم على الباطل. ومن ثم أتى [الناظم] بالاستفهام الإنكاري في قوله أو للحق بالضلال استواء؟، قال تعالى "أفمن كان مومنا كمن كان فاسقا لا يستوون"[25]، "قل هل يستوي الأعمى والبصير"[26].

ثم ذكر [الناظم] جملا من عنادهم وحال طويتهم فقال:

ما لكم إخوةَ الكتــابِ أناســـاً --- ليس يُرعى للحق منكم إخاء

يَحسدُ الأول الأخير[27] وما زا --- ــلَ كذا المُحدَثون والقُدمــاء

ما استفهام مبتدأ ولكم خبره، وأناسا حال من الكاف، وإخوة منصوب على النداء، والمراد بهم اليهود والنصارى، سماهم إخوة بالنسبة إلى اجتماعهم فيما في الكتابين من الأحكام والخطاب بالتكاليف الشرعية، فصاروا مستوين فيه كاستواء الإخوة في الانتساب إلى أصل واحد.

والمعنى: أي حال ثبت لكم يا أهل الكتاب؟ حال كونكم أناسا ليس يرعى للحق منكم إخاء، وليس إما شانئة وإخاء مصدر آخاه أي صيره أخا نائب فاعل يرعى، أو هو اسم ليس ويرعى وما بعده خبرها في الوجهين، أي لم يصدر منكم مراعاة للقيام بما يجب عليكم من الحقوق، التي منها تصديق سيدنا محمد ﷺ، عملا بما في كتبكم من

---

[23] سورة البقرة، الآية 113.
[24] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.406 و407، بالتلخيص.
[25] سورة السجدة، الآية 18، برواية ورش عن نافع.
[26] سورة الرعد، الآية 17.
[27] في النسخة الحسنية "الأخير"، وفي النسخة الصبيحية كُتب "الآخر" وهو خطأ نسخ إذ في الشرح الآتي بعده يفسر "الأخير".

التصريحات الكثيرة بنبوته ﷺ وعموم رسلته الموجبة لإيمانكم به واتباع شريعته. "وفي أخوة وإخاء -رد العجز على الصدر-[28]، وجناس الاشتقاق"[29].

ثم بيّن [الناظم] وجه بُعدهم عن رعاية الحق بقوله يحسدُ بكسر السين وضمه، والأول فاعله والأخير مفعوله. والحسد عُرفا: تمني زوال النعمة عن المحسود، قال بعض الأدباء: "ما رأيت ظالما أشبهَ بمظلوم من حاسدٍ"، كما وقع لليهود أنهم حسدوا عيسى عليه الصلاة والسلام حتى حملهم حسدهم على قتله[30] كما قص الله تعالى عنهم في كتابه، فرفعه سبحانه إلى السماء حتى ينزل آخر الزمان بشريعة [سيدنا] محمد ﷺ. كما حسد الفريقان رسول الله ﷺ حسدا حملهم على عدم مراعاة الحق الذي علموه من كتبهم من حقيقة ما جاء به، بل خانوه بتكذيبه وكتم ما ثبت عندهم من عموم رسالته.

ثم قال [الناظم]، على اللف والنشر المرتب المعكوس وما زال كذا المحدثون، أي الأبناء المتأخرون، والقدماء: الآباء المتقدمون عليهم، أي لم ينتقلوا عن حيلهم على الحسد والغل وسوء الطوية، قال تعالى في حق اليهود "ولا تزال تطلع على خائنة منهم"[31].

ثم ذكر [الناظم] من ذلك حسد بعض المتقدمين كقابيل والمتأخرين كإخوة يوسف فقال:

قد علِمتم بظُلمِ قـابيل هـابيـ --- ـلَ ومظلومُ الإخوةِ الأتقياء

وسمعتُم بكَيدِ أبنــاءِ يـعقو --- بَ أخاهُم وكُلُّهم صُلحــاء

حين ألقَوهُ في غيابةِ[32] جُبٍّ --- ورَمـوهُ بالإفكِ وهْوَ بَـراء

---

[28] في الشعر: أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين في آخر البيت، واللفظ الآخر في صدر المصراع الأول أو آخره أو صدر المصراع الثاني.

[29] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.407.

[30] "وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا". سورة النساء، الآية 157.

[31] سورة المائدة، الآية 15.

[32] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "غيابات"، وكتبتها كما جاءت في "المنح المكية لأن في التفسير بعده يذكر "غيابة".

قال ابن حجر:"الخطاب للفريقين، وقصة ذلك أن حواء رضي الله عنها كانت تلد لآدم في كل بطن ذكرا وأنثى، فولدت له عشرين بطنا، وكان اختلاف بطون حواء في شريعة آدم بمنزلة اختلاف الأنساب، فيُزوج أنثى كل بطن لذكر الآخر، وبارك الله له في نسله حياته، فلم يمت حتى كانوا أربعين ألفا. وكان قابيل أول أولاده وهابيل ثانيهم، فزوجه آدم أخت قابيل واسمها [لبوذا][33]، وكانت أجمل من أخته [التي تزوجها] قابيل واسمها اقليما[34]، فحسده قابيل عليها، فقتله"[35]. قال ابن حجر: "وجاء أن سبب حسده له، أن آدم أمر قابيل أن يزوج أخته هابيل، وكانت أجمل من أخت قابيل، فامتنع، فأمرهما أن يقربا قربانا لله، فأكلت النار قربان هابيل دون قربان قابيل، فقتله بشدخ رأسه بين حجرين، فيُحتمل أنه حسده على السببين"[36]، وقد نص الله [عز وجل] ذلك في كتابه. ومظلوم مبتدأ وإضافته على معنى مِن، والأتقياء خبره، لأنهم الذين يصبرون على تحمل الأذى ولا ينتقمون لأنفسهم، وفي هذا نحو من إرسال المثل، فيشمل هؤلاء وغيرهم ممن ماثلهم، ولذلك جمع إخوة.

ويا أهل الكتاب قد سمعتم أيضا كيد أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام أخاهم يوسف، والكيد: المكر والحيلة. وكلهم صلحاء بل أنبياء على الصحيح، لقوله تعالى "قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط"[37]، قال ابن عطية: "الأسباط هم أولاد يعقوب"[38]، ثم قال: "والسبط في في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في بني إسماعيل، فسموا الأسباط لأنهم كان من كل واحد منهم سبط"[39]، أي قبيلة. ولا يُنافي ذلك عصمة نبوتهم، "لأنه صدر منهم على تأويلات يرونها مباحات في شريعتهم. وتسميته كيدا في كلام الناظم باعتبار الصورة الظاهرة، مع أن ذلك وقع منهم قبل النبوة، وقد ذهب كثيرون، وإن كان الأصح خلافه، إلى أن عصمة الأنبياء إنما هي

---

[33]في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "لهودا"، وكتبتها كما جاءت في المرجع المحال عليه.
[34]الاسم مضبوط ولكنه لم يرد في المرجع المطبوع.
[35]ابن حجر الهتمي، المنح المكية، ص.408 و409، بالاختصار.
[36]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.408، بالتلخيص.
[37]سورة البقرة، الآية 136.
[38]ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.1، ص.215.
[39]نفس المرجع السابق.

بعد النبوة لا قبلها"[40]، من [قول] ابن حجر.

ثم بيّن [الناظم] كيد إخوته بقوله حين ألقوه أي رموه في غيابة إي قعر الجب، قال ابن عطية: "والغيابة ما غاب عنك من الأماكن أو غَيب عنك شيئا آخر. وقرأ الجمهور -غيابة- وقرأ نافع وحده -غيابات-"[41]، والجُب بضم أوله: البير التي لم تُطوَّق. ورموه أيضا بالإفك أي الكذب حين قالوا في بنيامين شقيقه "إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل"[42] يريدون يوسف، وبَراء بفتح أوله أي بريء من ذلك ولم يسرق أبدا، و"إنما أخذ صنما لجده أبي أمه من ذهب وفضة، فكسره وألقاه على الطريق"[43]، كما رُوي عن ابن اعباس وقتادة، ويزيد بن أسلم زاد أن "أمه أمرته بذلك"[44]، فأذوه بما ذكروا وقابلهم بالإحسان والوفاء، بقوله لهم "لا تثريب عليكم"[45] الآية، كما قص الله جميع ذلك في كتابه العزيز.

والظاهر أن قوله "لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين"[46]، خطاب وفيه تمرين لهم ليترتب عليه قوله فتابوا، ويكون قوله "إذ ظلمتم" من حيز قوله [][47] الإخوة الأتقياء.

ومن ثم لما بيّن [الناظم] صبر الأتقياء على تحمل الأذى، حض على الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم الكاملة، مَن فتح الله عليه ليكون من الفائزين، رزقنا الله منه الحظ الأوفر، وعليه نبه [الناظم] بقوله:

فتأسَّوْا بمن مضى إذ ظُلِمتم --- فالتَّأسي للنَّفسِ فيه عَزاء

أتُراكم وَفَيتم حين خانـــوا --- أم تُراكم أحسنتمُ إذ أساؤوا

بلْ تَمادتْ على التَّجاهُلِ آبـا --- ءٌ تَقَفَّتْ آثارَهــا الأَبنـاء

---

[40]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.410، بالتصرف.
[41]ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.3، ص.222.
[42]سورة يوسف، الآية 77.
[43]أخرجه السيوطي في "الذر المنثور".
[44]ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.3، ص.267.
[45]سورة يوسف، الآية 92.
[46]سورة يوسف، الآية 73.
[47]تضمنت هذه الفقرة فراغات ثلاث في النسخة الصبيحية، ملأت اثنين بالرجوع إلى النسخة الحسنية وبقي فراغ واحد جاء في النسختين فأشرت إليه بين عارضتين.

قال في القاموس: "الإسوة: القدوة، وائْتَسَى به: جعله قدوة"[48]، ومنه تأسى أي اقتدى بمن مضى، أي مَن ذُكر من الكُمَّل الذين كانوا قبلكم. وإذ ظرف أو تعليل لظلمتم بالبناء للمفعول، قال ابن حجر: "فالخطاب للمومنين أو للنصارى، فعلى الأول أي فاصبروا على ما رماكم به الكفار من الحسد والبغضاء والقتال كما صبر من كان قبلكم، وعلى الثاني فاصبروا بتكذيب اليهود كُتبكم"[49]. ثم قال: "والتأسي: التعزي، من تأسيت بفلان: حملت حالي على حاله، ففي التأسي تسكين النفس على الأمر المُشق وتصبيرها عليه، والتعزي الحمل على الصبر بوعد الأجر، فالتأسي والتعزي بمعنى واحد أو متقارب، وساغ ذكرهما مع الأول لاختلاف لفظهما"[50]. والتأسي مبتدأ، وعزاء، أي تصبر وتسلي للنفس بحملها على أن لا يصدر منها إلا الكمال، مبتدأ ثاني وللنفس متعلق به أو حال من المجرور بفي الذي هو خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبرالمبتدأ الأول.

و ترى من الرأي والاعتقاد، وفاعله يعود إلى الفريقين ومفعوله للمومنين على أن الخطاب لهم، أي أتظنكم أهل الكتاب وفيتم بما عاهدتم الله عليه فأظهرتم الحق ودمتم على العمل به؟. ووفيتم في موضع المفعول الثاني، وحين ظرف له، أي وقت خانوا ما عاهدوا الله عليه من الإيمان بـ[سيدنا] محمد ﷺ، فكتموا الحق وبدلوا كلام الله في التوراة. وعلى أن الخطاب للنصارى، ففاعل تراكم لليهود والمفعول لهم.

والمعنى: أتراكم اليهودُ[51] أيها النصارى تأسيتم بمن كان قبلكم فوفيتم ما عاهدتم الله عليه من الإيمان ب[سيدنا] محمد ﷺ حين خانوا، أي اليهود، في ذلك؟. و"أم متصلة لمعادلتها الهمزة [السابقة]"[52]، والاستفهام للإنكار في الوجهين. والإحسان: التصديق والإيمان، والإساءة: التكذيب والكُفران[53]، ويجري في -ترى- الثانية ما جرى في الأولى للإضراب، أي لم يقروا بشيء من ذلك.

---

[48] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.56.
[49] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.413. لم يُذكر النص هكذا في المرجع المطبوع، وحتى لم ترد ألفاظ لا "المؤمنين" ولا "النصارى" ولا "اليهود".
[50] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.413.
[51] فاعل أتراكم، بالاستفهام.
[52] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.413.
[53] مصدر كَفَرَ.

وإنما تمادت، "أي تتابعت واستمرت على التجاهل، أي إظهار الجهل من نفوسهم الموجب لرفض الحق واتباع الباطل مع علمهم بمخالفة الحق، قال تعالى -وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم-"[54] الآية. والأبناء فاعل تقفت أي اتبعت، وآثارها أي طريقها مفعوله. فإن قيل: تعبيره بالتجاهل يقتضي أنهم عالمون الحق وعليه فكيف ينكرون وفاء المومنين بالعهد وإحسانهم الدال عليه قوله أتراكم وفيتم؟، قلنا: إنكارهم لذلك من حيث مخالفة المومنين لهم في جحودهم، فهم مسيؤون عندهم لذلك عنادا منهم، لا من حيث أنهم آمنوا بالحق لأنهم يعلمونه حقيقة، وحَمَلهم على ذلك حسدهم وبغضهم الدال على الأول قوله تعالى "ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق"[55]، وعلى الثاني قوله تعالى "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود"[56].

[54] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.414.
[55] سورة البقرة، الآية 109.
[56] سورة المائدة، الآية 82.

الفصل الحادي عشر: من البيت 211 إلى البيت 230

بَيَّن [الناظم] أنهم [أي اليهود والنصارى] متجاهلين في الحق لا جاهلين به، فقال:

بَيَّنَتْـهُ تَوراتهمْ والأنـاجيـ --- ـلُ وَهُمْ في جُحودِهِ شُركاء

إنْ يَقولوا[1] ما بَيَّنَتهُ فمـا زا --- لتْ بها عن عُيونِهم غَشْواء

أو يَقولـوا قد بَيَّنَتْهُ فـما لِلْـ --- ـأُذنِ عمّا تَقولُـهُ صـمّاء

بينت أي كشفت وأوضحت، ومفعوله يعود إلى الحق الذي من جملته الإيمان ب[سيدنا] محمد ﷺ ونبوته وعموم رسالته، والتوراة فاعله مشتق من "أوريت الزند، أي قدحته ليُخرج ناره، والنار تستلزم النور"[2] المستلزم للإبصار به. والأناجيل جمع إنجيل: المنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام، وجمعه باعتبار إفراده[3]. وقد جاء فيهما [أي التوراة والإنجيل] خبره ﷺ وصفاته بنص القرآن، في قوله تعالى ""الذين يتبعون الرسول النبيء الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل"[4]، الآية. "وهذا من أعظم الأدلة على صحة نبوته ﷺ وعموم رسالته، لأنه صرح بذلك على رؤوس أهل الكتابين ولم يخش أن يقول أحد منهم: ليس ذلك في كتابنا"[5]. وهم أي اليهود والنصارى شركاء معا في جحوده، أي إنكار الحق الذي بينته كتبهما مع علمهم به، لعنة الله عليهما.

ثم حصر [الناظم] إقرارهم بأحد النقيضين ليُبطل حجتهم في كلٍّ منهما، بما لا

---

[1] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "تقولوا"، وهو يتنافى مع صيغة الشطر الثاني من البيت، حيث كُتب "عيونهم" وليس "عيونكم"، وهو ما ينبغي لو كان البيت على صيغة المخاطب. وتتكرر الملاحظة في البيت الموالي.

[2] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.414.

[3] ربما قصد الناظم بالجمع، الكتب الأربعة المسماة الأناجيل القانونية حسب الكنيسة الكاثوليكية، وأصحابها متى ومرقس ولوقا ويوحنا، كتبت بين عام 70م وعام 100م. والإمام البصيري الذي عاش بمصر حيث توجد الطائفة القبطية المسيحية، لاشك أنه كان عارفا بوجود تلك الكتب التي تسمى أناجيل بالجمع، وأما سيدي يحيى الشبيهي الذي عاش بالمغرب حيث لم يكن وجود للشرائع المسيحية، فمن الطبيعي ألا يكون على معرفة بهذه التفاصيل، فيقول أن الجمع باعتبار الإفراد، وهو كذلك قول الشيخ الهيتمي.

[4] سورة الأعراف، الآية 157، برواية ورش عن نافع. ملاحظة: في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "التورية"، كلما ذكرت "التوراة"، وتكتب كذلك في المصحف مع زيادة ألف أعلى الياء، وهذه الملاحظة سبق وأن أشرت إليها في آيات قرآنية سالف ذكرها.

[5] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.414.

يستطيعون دفعه مما يُلزمهم:

1- فإن يقولوا ما بينت التوراة والإنجيل الحق الذي علموه وأنكروه، يُلزمهم أنه ما زالت فهي تامة، أي ما ذهبت بها أي بالتوراة والإنجيل، وغَشواء بفتح المعجمة، أي لم تذهب بالكتابين غشاوة عن أعينهم مانعة لهم من إبصار الحق، قال ابن حجر: "وهو من المجاز كقوله تعالى "وعلى أبصارهم غشاوة"[6]. ويصح عشواء بالمهملة من قولهم ناقة عشواء وهي التي لا تُبصِر أمامها، فهي تخبط بيديها كل شيء، ففيه الإشارة للمثل المذكور. والاستعارة بالكناية لأنه شبه العيون بالبصائر والغشواء بالظلمة المذكورة، والاستعارة التخيلية في إثبات الظلمة للعيون، والترشيحية في قوله –ما بينته- لأنه يناسب المشبه به"[7].

2- وإن أقروا بأن قالوا قد بينته، أي التوراة والإنجيل كما هو الحق، فما استفهام للتقرير إي "فأي شيء حصل للأُذُن، أي آلة السمع، حتى أنها صماء عما تقوله التوراة والإنجيل، وإسناد القول إليهما مجاز، فيه الاستعارتان السابقتان"[8].

ثم قال [الناظم]:

عرفـــوهُ وأنـــكروهُ وظُلمـــاً --- كَتمَتـهُ الشّهـادةَ الشُّهَــداء

أَوَ نـــورُ الإلــهِ تُطفئُــهُ الأفــ --- ـواهُ وَهْوَ الذي بـهِ يُستضاء

أوَلا يُنكـــرونَ مَــنْ طَحَنَتـــهمْ --- بِرَحاهـا عن أمرِهِ الهَيجاء

وكَساهمْ ثَوبَ الصَّغَارِ وقد طُلَّـ --- ـتْ دماءٌ منهم وصِينتْ دماء

كَيفَ يَهدي الإلـهُ مِنـهُمْ قُلوبـاً --- حَشْوُهـا من حَبيبِهِ البَغضاء

يعني أنهم عرفوا الحق في بواطن أنفسهم معرفة يقين وأنكروه بظواهرهم، كما قال تعالى عنهم -لَيكتمون الحق وهم يعلمون-[9]، "وبين عرفوه وأنكروه الطباق، وهو

[6] سورة البقرة، الآية 7.
[7] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.416. القول هنا أكثر تفصيلا مما في "المنح المكية" المطبوع.
[8] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.416.
[9] سورة البقرة، الآية 146.

نتيجة الإلزام السابق، وظلما مفعول لأجله، ومفعول كتبت يعود إلى النبي ﷺ، والشهادة مفعوله الثاني، والشهداء[10] فاعله وهم أهل الكتابين، لأنهم عرفوا النبي ﷺ بأوصافه وأوصاف دينه[11] من كتبهم معرفةً قطعية، فأنكروه حسدا وتلبيساً على ضُعفائهم"[12][13]. ومن ثم قال [الناظم] توبيخا لهم ورَدًّ عليهم أو نور الإله الذي هو النبوة والرسالة، والإله هنا المعبود بالحق، تُطفئه أي تُذهبه الأفواه أي الألسنة المُتقولة بالباطل؟، كلا وحاشا أن يكون ذلك. وكيف يطفئون[14] ذلك النور الإلهي وَهْوَ الذي، أي والحال أنه، به يُستضاء ظاهرا وباطنا، أي يُبيّنُ الحق من الباطل والصادق من الكاذب، قال تعالى "يريدون أن يُطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله"[15] الآية.

وأيضا أينكرون الحق؟ ولا ينكرون من طحنتهم أي أهلكتهم، برحاها وهي كما في القاموس: "حومة الحرب"[16] ومعظمه عن أمره ﷺ، الهيجاء أي الحرب، فلا يسعهم إنكار ذلك وإهلاكه إياهم ﷺ بجيوشه الهائلة، كما طحن بني النضير[17] بإجلائهم إلى الشام، وبني قريظة باستئصالهم وشدة بأسه عليهم.

وكساهم[18] أي لمن بقي منهم، ثوب الصَّغار بفتح أوله أي الذل المؤبد، كضرب الجزية عليهم والرِّق، واستعار [الناظم] اللباس[19] للذل على حد "فأذاقها الله لباس الجوع"[20] الآية. وقد للتحقيق والواو للحال، وطلت دماء بالبناء للمفعول أي ضاعت

---

[10] في النسخة الصبيحة كُتبت "الشهادة"، وهو خطأ نسخ.
[11] في النسخة الصبيحية كُتبت "دينهم"، وهو خطأ نسخ.
[12] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "ضعفتهم"، وهو خطأ نقل صححته تبعا لما جاء في المرجع المطبوع وتماشيا مع المعنى.
[13] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.416 و417.
[14] في النسخة الصبيحية كُتبت "يطفون"، وهو خطأ نسخ.
[15] سورة التوبة، الآية 32. في النسخة الصبيحية كُتبت "يطفوا"، وفي المصحف وفي النسخة الحسنية كتبت "يُطفـٔـوا".
[16] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.627.
[17] قبائل اليهود التي عاصرت سيدنا محمد ﷺ ثلاث، بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ معاهدات نقضها اليهود وخانوها، وخصوصا في غزوة الخندق حيث تحالفوا مع الأحزاب ضد المسلمين. فتم إجلاء بني قينقاع وبني النضير عن المدينة المنورة، وأما بني قريظة رؤوس الغدر والخيانة، فاستسلموا، بعد أن حاربهم المسلمون، بشرط التحكيم من أحد حلفائهم من الأوس الأنصار. فوكل رسول الله ﷺ التحكيم إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم أن تُقتل الرجال وتُقسم الأموال وتُسبى الذراري والنساء.
[18] أي بني قريظة.
[19] وفي البيت "ثوب".
[20] سورة النحل، الآية 112.

هدرا ولم يؤتى بها كما وقع لبني قريظة. والأكثر في طل بناؤه للمفعول، وصينت دماء أي أُعفيت، كبني النضير أو المسلمين باعتبار حالهم في الحرب، فإن الله تعالى جعل لهم الغلبة والنصر على أعدائهم.

وكيف هنا للاستفهام المتضمن معنى النفي، والمراد بالإله: المعبود بالحق، ومنهم أي من أهل الكتاب حال من قلوب، وحَشوُها أي مِلؤُها مبتدأ، والبغضاء أي شدة البغض خبره ومن حبيبه حال منه، والمراد به نبينا محمد ﷺ، والجملة صفة لقلوب. وبين حبيبه والبغضاء الطباق.

ثم قال [الناظم]:

خَبِّرونا أهلَ الكتابين من أيْ --- ـنَ أتـــاكم تَثْليثُكم والبَداء

ما أتى بالعَقيدَتينِ كتــــابٌ --- واعتقادٌ لا نَصَّ فيهِ ادِّعاء

والدَّعاوَى ما لم يُقيموا[21] عليها --- بَيِّناتٍ أبْناؤها أَدعِياء

أهلَ منصوب على النداء، والكتابين التوراة والإنجيل، وأين استفهام إنكاري، وتثليثكم فاعل أتى.

والمعنى: بيّنوا لنا أيها النصارى من أي طريق ادعيتم إن الله ثالث ثلاثة؟ وهم عندهم الأب والإبن وروح القُدُسْ، يعنون بالأب: الوجود، وبالإبن: العلم، وبروح القدس: الحياة. ومن أين أتاكم يا "معشر اليهود البَدَاء؟ بفتح الموحدة والمهملة من بدا أي ظهر، وهو عندهم ظهور مصلحة بعد خفائها، وبنوا على ذلك امتناع النسخ في الشرائع، قال ابن حجر: "قال [التبريزي:][22] -هو بالمد من قولهم بدا لي في الأمر، أي تغير رأيي فيه عما كان-، ونقله الزركشي [عن صاحب المحكم] عن سيبويه. وقال السهيلي: -الإسم البداء ولا يقال في المصدر بداء. قال: ومن أجل أن البدوَ: الظهور، كان في وَصفِ الباري تعالى مُحالاً، لأنه لا يبدو له شيء كان غائبا

---

[21] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "تُقيموا".
[22] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "الترمذي"، وهو خطأ نقل صحَّحتُهُ من المرجع المطبوع.

عنه"[23]. وأما ما في الحديث أن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى، بدا لله أن يبتليهم، فهو بمعنى أراد لا أظهر لأنه كُفْرٌ كما يأتي.

والمراد بالعقيدتين ما ادعته اليهود والنصارى مما ذُكر، أي لم يأتِ بهما كتاب من كتب الله أبدا. واعتقاد مبتدأ وهو الجزم، إما مطابق[24] فصحيح وإلا ففاسد وجهل مركب، ولا مركبة مع اسمها نص، وهو عند الأصوليين ما دل على معنى لا يحتمل غيره، والمراد به الدليل من الكتاب أو السنة، ولا مع محموليها صفة الاعتقاد. وادعاء خبره [اعتقاد]، أي دعوى جمعه دعاوي أي قول باطل، لأنه اختراع في الدين واتباع لهوى النفس.

ثم أكد [الناظم] الرد عليهم وإبطال حجتهم بقوله والدعاوي يعني في العقائد، وهو بكسر الواو وفتحها كفتاوَى مبتدأ، وما ظرفية مصدرية والعامل فيها أدعياء، ويُقيموا أي يُثْبتوا على صحتها بيِّنات صحيحة، أي أدلة بنص نقلي أو برهان قاطع عقلي، فأبناؤها أي نتائجها أو المتمسكون بها مبتدأ، وأدعياء جمع دعي خبره، وهو في الأصل من ينتسب إلى غيره بالكذب ومن يتبناه مَن ليس أبوه، والجملة خبر المبتدأ الأول. فشبه دعاويهم في بطلانها بوطء الزنى لأنه ناشئ عن أصل فاسد، قال ابن حجر: " فهو استعارة بالكناية، ثم خيل لها بذكر الأبناء الذين هم من لوازم المشبه به ونتائجه"[25]. وهذا كلام جرى مجرى المثل، والاعتقادات لا يكفي فيها إلا الدليل القطعي لا الظني.

ثم شرع [الناظم] في الرد على النصارى فقال متعجبا:

لَيْتَ شعري ذِكرُ الثلاثةِ والوَا --- حِدِ نَقصٌ في عَدِّكُم أم نَماء

كيفَ وَحَّدتمُ إلَـهاً نَفى التَّوْ --- حيدَ عنه الآبـاءُ والأَبنـاء

قال ابن حجر: " أصله ليتني شعرت أي علمت، ثم صيَّروا الفعل مصدرا، ووصلوا

---

[23] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.419.
[24] أي مطابق للعقيدة الإسلامية.
[25] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.420. أخذ سيدي يحيى كذلك ما سبق في تفسير البيت من "المنح المكية" بالتصرف، وزاد عليه الإعراب، مما صعُب معه إحالة وتمييز ما نقله عن ما جاء به شخصيا، فأكتفي بالإشارة إلى ذلك.

به ياء المتكلم"[26]، وقال العيني: "شعري اسم ليت، وخبرها محذوف، لأن شعري مصدر شعرت أي علمت، وأضيف إلى الفاعل"[27].

والمعنى: ليتني أشعر فأشعر هو الخبر وناب شعري عنه، ونابت الياء عن اسم ليت، يعني بالنيابة في اللفظ لا في الإعراب، أي ليتني علمت بالمقالة الصادرة منكم حين ذكرتم الثلاثة تارة، وادعيتم نقيضها أخرى حيث قلتم أنه واحد. وقوله ذِكرُ مصدر مضاف إلى المفعول على تقدير همزة الاستفهام، أي فهل يكون الإله الواحد نقص من الثلاثة المذكورة؟ أو الثلاثة نماء؟ أي زيادة على الواحد، فيه لف ونشر معكوس، فإنهم أثبتوا التعدد تارة في قولهم هو "ثالث ثلاثة"[28]، وأثبتوا الوحدة في أخرى، وهذا تناقض صريح لا يصدر من عاقل.

ومن ثم قال [الناظم] متعجبا منهم كيف وحدتم إلها؟، فهو تعجب من عقولهم الفاسدة الذين يعتقدون الوحدة مع إثباتهم التعدد بنسبتهم الأب والإبن إليه. والأحسن أن كيف هنا للاستفهام المتضمن معنى النفي، أي لا يمكن أن يثبت منكم التوحيد لإله نسبتم إليه الأب والإبن، لانتفاء الوحدة عنه بذلك باللزوم، وهو معنى قوله نفي التوحيد عنه، والآباء فاعله [أي نفي] والأبناء معطوف، والجملة صفة لإله على حذف مضاف، أي نفي التوحيد عن هذا الإله نسبتكم الآباء والأبناء إليه، واجتماع الوحدة والتعدد محال بديهةً.

ثم ذكر [الناظم] إبطال دعوى التعدد بقوله:

أَإلــهٌ مُرَكَّـبٌ مــا سَمعنــا --- بإلــهٍ لِـذاتــهِ أجْـــزاء

أَلكلٍّ منهم نصيبٌ مِن المُلـ --- ـكِ فَهَلّا تَمَيَّزُ الأنْصِبــاء

أتَراهم لِـحاجةٍ واضطِرارٍ --- خَلَطوها وَما بَغَى الخُلَطاء

---

[26] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.421. لم يرد النص هكذا في المرجع المطبوع، بل عند نقل سيدي يحيى زيادة: "ثم صيَّروا الفعل مصدرا، ووصلوا به ياء المتكلم".
[27] بدر الدين العيني، فرائد القلائد، ج.1، ص.186. بالاختصار.
[28] "لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة"، سورة المائدة، الآية 73.

الاستفهام [في البيت] الأول للإنكار، وفي البيتين بعده للتقرير على التنزيه[29]، أي لا يمكن أن يكون الإله مركبا من أجزاء ثلاثة، أو أقل أو أكثر، فما سمعنا به في كتاب ولا سنة ولا قياس، لأنه مما يكاد يحيله العقل بديهة كتعدده، فيلزم نفي الكم المتصل والمنفصل، لما دل عليه برهان التمانع في قوله تعالى "إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض"[30]. قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى "قل لو كان معه آلهة كما تقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا"[31]: "قال سعيد ابن جبير وغيره والمتكلمون: معنى -لابتغوا إليه سبيلا- أي في إفساد مُلكه ومضاهاته في قُدرته، وعلى هذا التأويل تكون الآية بيانا للتمانع، وجارية مع قوله -لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا-[32]. ونقتضب شيئا من الدليل على أنه لا يجوز أن يكون مع الله تعالى غيره، وذلك أنا لو فرضناه لفرضنا أن يُريد أحدُهما تسكين جُرمٍ والآخر تحريكه، ومستحيل أن لا تُنفذا معا، فيكون الجرم لا متحركا ولا ساكنا، فإن صحَّت إرادة أحدهما دون الآخر فالذي لم تتم إرادته ليس بإله، فإن قلنا نفرضهما لا يختلفان، قيل اختلافهما جائز عقلا، والجائز في حكم الواقع[33]. وأيضا أنه لو كان إثنان لم يمتنع أن يكونوا ثلاثة، وهكذا إلى ما لا نهاية له. وأيضا أن الجزء الذي لا يتجزأ من المخترعات لا تتعلق به إلا قدرة واحدة لا يصح فيها اشتراك"[34]. بعد تأويل آخر في الآية، هذا دليل استحالة الكم المنفصل. وأما دليل الكم المتصل، فهو المشار له بقوله ألكلٍ منهم نصيب، [و]بيان استحالة ذلك أن يقال: لو فُرض إله مُركب من أجزاء، فإما أن يكون لكل واحد منهم نصيب من الملك أي الألوهية، فإن قالوا نعم، قلنا هلا تميز نصيب كل من الآلهة حتى يكون نصيبه دليلا على ألوهيته؟، فإذن عدم التمييز دليل على عدم التركيب، ولا يُغني عن هذا قوله [أي الناظم] ما سمعنا بإله لذاته أجزاء، لأن نفي سماع التركيب لا يستلزم نفي وقوعه عند الخصم، وإن قالوا: لا بل هم شُركاء في الألوهية، قلنا لأي شيء ذلك؟ أتراهم أي تعتقد أنهم خلطوها لحاجة

---

[29] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "التنزيل"، وغيرت الحرف الأخير تبعا للمعنى وانسجاما مع ما يأتي بعده.

[30] سورة المؤمنون، الآية 91.

[31] سورة الإسراء، الآية 42، برواية ورش عن نافع.

[32] سورة الأنبياء، الآية 22.

[33] في النسخة الصبيحية كُتب "العاقل" وهو خطأ نسخ.

[34] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.3، ص.458 و459. بالاختصار.

واضطرار؟ أي شدة الاحتياج إلى الشيء بحيث لا مندوحة[35] له عنه؟، فإن قالوا نعم، قلنا الإله غير محتاج بل هو غني بذاته، فاحتياجه دليل على حدوثه ويلزم منه عدم ألوهيته. وإن قالوا خلطوها اختيارا لا لحاجة، قلنا يُلزم شركة دون شركاء. وما نافية في الوجهيين، والواو للحال من فاعل خلطوا، والخلطاء فاعل بغي، أي خلطوا والحال ما بغي بعضهم على بعض، فهذا لا يُتصور، بل متى وجدت شركة لزم عادة وجود التمانع والتنازع فيها، المستلزمين نفي هذا العالم المشاهد وجوده بدليل قوله تعالى "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"[36].

ثم شرع [الناظم] في إبطال ما تدعيه النصارى من غير ما تقدم فقال:

أَهُوَ الرّاكِبُ الحمــارَ فيا عَجْـ --- ـزَ إلــهٍ يَمَسُّهُ الإعْيـاء

أم جميعٌ على الحمارِ لـقد جَلَّ --- حمـارٌ بِـجَمْعِـهِم مَشّـاء

أَمْ سواهُـم هوَ الإلهُ فمـا نِسْـ --- ـبَةُ عيسى إليهِ والانتماء

أم أردتم بها الصِّفاتِ فَلِمْ خُصِّـ --- ـتْ ثُـلاثٌ بوَصفِهِ وثُنـاء

هذا وجه آخر من اعتقادات النصارى الفاسدة أخزاهم الله، وذلك أن منهم من يزعم أن عيسى هو الله، ومنهم من يزعم أنه ابن الله، وقد ثبت أن عيسى كان يركب الحمار. ووجه إبطاله أن يُقال لهم بالحصْر، أتقولون أن عيسى وحده هو الله حين ركوبه الحمار؟ والاستفهام تقريري، أم تقولون أن الثلاثة الذين زعمتموهم آلهة جميعا على الحمار؟، فأم متصلة لمعادلتها الهمزة، وجميع خبر مبتدأ محذوف يعود إلى الثلاثة. فإن قالوا بالأول، يُقال لهم على طريق التعجب يا عجز إله يمسه أي يعتريه الإعياء أي التعب والمشقة، فيُحوجه إلى ركوب الحمار، وافتقاره إليه يستلزم عجزه وحدوثه، والإله غني بذاته. وإن قالوا بالثاني، قيل لهم على طريق التهكم والتوبيخ، لقد جل أي عَظُمَ حمار مشاء، صفة للمبالغة من المشي، وبجمعهم[37] متعلق به، وقُبح إله متعدد يفتقر إلى أن يُمشى به على حمار، ويلزم عجز جميعهم

---

[35] متسع وفسحة.
[36] سورة الأنبياء، الآية 22.
[37] أي الثلاثة، الأب والابن والروح القدس.

أيضا.

أم تقولون سِوى الثلاثة هو الإله وأم متصلة أيضا، فإن قالوا نعم، يقال لهم ما نسبة عيسى إليه؟ فالاستفهام للإنكار، أي فأي نسبة بين الإله وعيسى [عليه السلام]؟. والانتماء من عطف التفسير أي لا يصح ذلك، لأن الإله خالق قديم وعيسى [عليه السلام] مخلوق حادث، وكيف يتصف الحادث بصفة القديم فيكون إلها؟ فهذا كله باطل وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

أم تقولون أن الثلاثة الذين زعمتموهم آلهة، أردتم بها الصفات القائمة بذات الإله، والصِّفة ما دل على معنى زائد على الذات، فَلِمْ بتسكين ميمه للضرورة بعد حذف ألفها للجار، والاستفهام إنكاري أو تقريري[38] على التنزيه، وكلاهما باطل[39]. وثُلاثٌ بالصرف للوزن، وثُناء بضم أولهما "معدولين عن ثلاث ثلاث واثنين اثنين"[40] وأحاد، وحذفه للاكتفاء عنه بما قبله. وليس المراد من هذه الألفاظ التكرار المعدول عنه بل المراد: لِمَ خصصتم ثلاثة واثنين وواحدة من الصفات بالوصف بأنها آلهة؟ فهو من إضافة المصدر إلى المفعول عائدا على الإله، فالصفة لا تقوم بالصفة، وادعاءكم التثليث تحكّم صرف ولا يقول به عاقل.

[38]الاستفهام التقريري يحمل المخاطب على الإقرار، كقوله تعالى "ألست بربكم" (سورة الأعراف، الآية 172).

[39]أي لم تُخص أصلا الثلاثة بوصفه، فلا يُشرع إقرارها ولا حتى الاستفهام حولها بنية الإنكار.

[40]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.425. نقله سيدي يحيى وزاد "وأحاد". وربما قصد به أنهم يقولون كذلك أن صفة واحدة يُمكن أن تُنعت بالإله لذاتها.

الفصل الثاني عشر: من البيت 231 إلى البيت 252

وأبطل [الناظم] دعوى الفرقة القائلة -عيسى ابن الله- بقوله:

أَمْ هوَ ابنُ الإله[1] مـا شارَكَتهُ --- في مَعاني النبوءة[2] الأنبياء

قَتَلَتـهُ اليهـودُ فيمــا زَعمتمْ --- ولِأمواتــكمْ بــهِ إحيــــــاء

إنَّ قولاً أطلقتمـوهُ على اللهِ --- تعـــالى ذِكراً لَـقولٌ هُذاء[3]

أشار بهذا إلى ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى "وقالت النصارى المسيح ابن الله"[4]، أي يقال لهم: أم تقولون أن المسيح عيسى ابن الله؟ فإن قالوا نعم، قيل لهم لو كان كذلك ما شاركته في معاني النبوءة، أي أوصافها، الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل يوثره[5] بها دونهم لبُنوته[6]، فالتالي باطل والمقدم مثله، لمشاركتهم له في النبوءة المرادة لكم، فمنهم [أي الأنبياء] من أحيى الموتى كالخليل إبراهيم ونبينا محمد صلى الله عليهما.

ومفعول قَتَلَت عائد إلى عيسى [عليه السلام]، وما مصدرية، أي في زعمكم فقط لا في الخارج، بل هو حيّ، والزعم قول بلا دليل "والعرب تقول: زعمٌ مطية الكذب"[7]، أي فكيف يصح هذا الزعم والحال أن لأمواتكم به إحياء؟ بكسر أوله، أي رد الروح للجسد بعد مفارقتها له، فهو مبتدأ والباء للسبب متعلقة به ولأمواتكم خبره، استدل بهذا على إبطال زعمهم قتل عيسى عليه السلام.

والمعنى: قلتم إنه ابن الله، وشاهدتم أو علمتم أنه يحيي الموتى بإذن الله، ومَن كان هذا شأنه فكيف يُمكّن منه مَن أراد إذايته؟ بل يحفظه ربه، فهذا عماء كبير وضلال

---

[1] في "المنح المكية المطبوع كتبت "ابنٌ لله".
[2] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "البنوة".
[3] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "هُراء".
[4] سورة التوبة، الآية 30.
[5] أي يُفضله.
[6] في النسخة الصبيحية كُتبت "لنبوءته". وهو خطأ نسخ.
[7] ابن حجر الهيتمي،المنح المكية، ص425.

كثير.

ثم وبخهم بقوله إن قولا أطلقتموه أي افتريتموه معشر النصارى، لَقَولٌ خبر إن وهُذاء بضم أوله صفة له من هذى بالمعجمة، وفي القاموس: "هذى يهذي هذيانا: تكلم بغير معقول، والإسم كدُعاء"[8]. "وفي نسخة هزاء بالزاي من هزأت به، أي هذا قول مهزوء به"[9]. وتعالى حال من الله، أي تنزه عمّا يقولوه المبطلون، وذِكراً تمييز محول عن مفعول أطلقتموه، أو عن فاعل تعالى.

ولما فرغ [الناظم] من إبطال حُجج النصارى، شرع بتكلمٍ في إبطال حجج اليهود في إنكارهم النسخ، لعن الله طوائفهم، فقال:

مِثْلَ مـــا قالتِ اليهودُ وكــلٌّ --- لَزِمتــهُ مقالــةٌ شَنْعـــــاء

إذْ هُمُ استَقرَأوا البَداءَ وَكمْ سا --- قَ وَبـــالاً إليــهمُ اسْـــتِقْراء

وأَراهُمْ لم يجعلوا الواحد القهَّ --- ـارَ في الخَلقِ فاعلاً ما يَشاء

مِثْلَ بكسر فسكون بالنصب حال من قول، وبالرفع خبر مبتدأ محذوف، أي هو مِثْل ما قالت اليهود من البداء في القُبح، فالتشبيه من حيث مطلق البطلان وإن تباين كل من المقالتين تفصيلا، وكل من الفريقين لزمته على دعواه مقالة شنعاء أي منكرة جدا، والشناعة: الفظاعة، يُقال يوم أشنع أي أفظع، وليلة شنعاء أي فظيعة.

وإذ تعليل، أي لأجل أنهم أي اليهود استقرأوا أي تتبعوا البداء، حتى قالوا لا يجوز عقلا ولا شرعا نسخ ملة بملة لأنه يوهم البداء، وهو ظهور مصلحة بعد خفائها، قال ابن حجر: "ذكر الإمام في المطالب العالية[10]، أن الشريعة منها ما يُعرف نفعه بالعقل معاشا ومعادا، فيمتنع طروء النسخ عليه، كمعرفة الله تعالى وطاعته، ومنها سمعية لا يُعرف الانتفاع بها إلا من السمع، فيمكن طروء نسخه وتبديله، وحكمة النسخ أن الأعمال البدنية إذا واظب عليها الخلف عن السلف صارت كالعادة، فيُظن

---

[8] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1684.
[9] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.426.
[10] الإمام الفخر الرازي، المطالب العالية من العلم الإلهي، تأليف في علم الكلام.

أنها مطلوبة لذاتها فيُمنع الوصول بها لما هو المقصود من معرفة الله [تعالى] وتمجيده، بخلاف ما إذا تغيرت تلك الطريق وعلم أن المقصود من الأعمال رعاية أحوال القلب والروح فقط في المعرفة والمحبة، فإن الأوهام تنقطع عن الاشتغال بتلك الصور والظواهر إلى تطهير السرائر"[11]. وقيل فيها غير ذلك، "وأعظم حكمة في ذلك إظهار شرف نبينا محمد ﷺ، فإن الله تعالى نسخ شرائعهم بشريعته، ولا ناسخ لشريعته [ﷺ]، وما زعمته اليهود من أن النسخ يستلزم البداء باطل، لما تقرر أن المصالح المرتب عليها النسخ ترجع لأحوال المكلفين وأحوال أمكنتهم وأزمنتهم، وذلك لا يقتضي أن الباري تعالى ظهر له شيء بعد شيء، فالبداء غير لازم"[12]، قال تعالى "إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء"[13]. وكم للتكثير، أي مرات كثيرة ساق لليهود وبالا عليهم أي عقابا استقراء أي تتبع، لقوله صلى الله علي وسلم: "شددت بنو إسرائيل فشدد الله عليهم"[14].

ويلزم على مقالتهم هذه، أن يقع في مُلكه تعالى ما لا يريد، وأن عِلمه غير عام التعلق تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ومن ثم قال [الناظم] وأراهم، من الرأي والاعتقاد، لم يجعلوا أي اليهود لم يعتقدوا، والواحد مفعول أول وفاعلا مفعول ثاني وما موصول مفعوله، وفي الخلق متعلق به. وبيان الإلزام أنهم أَوجبوا عليه عدم النسخ، والإيجاب ينافي الإختيار.

ثم قال [الناظم]:

جوَّزوا النسخَ مِثلَ ما جوَّزواَ[15] --- المَسـخُ عليهم لو أنهم فُقَهاء

هو إلا أن يُرفـع الحُكـمُ بـالحُكمِ --- وخَلَقٌ فيـه وأَمــرٌ سَــواء

ولِحُكمٍ مـن الزمــانِ انتهـاءٌ --- ولِحُكمٍ مـن الزمــانِ ابتِداء

---

[11] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.427.
[12] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.427، بالتلخيص.
[13] سورة آل عمران، الآية 5.
[14] أخرجه الطبري مرسلا، في تفسيره لسورة البقرة الآية 67. فقد أمر الله بني إسرائيل بذبح بقرة، فأكثروا الأسئلة عنها قبل الامتثال لأمره عز وجل، وشددوا في طلب أوصافها.
[15] في "المنح المكية" المطبوع كُتب "جُوّزَ"، مما ينتج عنه اختلاف كبير في المعنى وفي الشرح بين الشيخين الهيتمي والشبيهي. وكتبتُ البيت كما أورده سيدي يحيى.

"النسخ لغة: الإزالة والتغيير كنسخ الشمس للظل، وشرعا: بيان انتهاء حكم شرعي بخطاب آخر شرعي، وزيد فيه متراخ ليخرج نحو الاستثناء"[16]. ومما يدل على جوازه ما علِمه اليهود من وقوع المسخ بهم، وهو تحويل صورة إلى أخرى أقبح منها، كما وقع لكثير منهم في زمن موسى عليه السلام لما خالفوه في السبت، فمسخهم الله قردة وخنازير، كما نص الله تعالى ذلك في كتابه. وجواب لو محذوف دل عليه جوزوا، وفقهاء أي عارفون وضميرهم يعود إلى اليهود.

والمعنى: لو فقهوا لجوزوا في عقولهم النسخ كما جوزوا فيها المسخ[17].

ثم عرف [الناظم] النسخ بقوله هو أي النسخ، "ألا أن يرفع الحكم يعني الشرعي، أي استمراره وتعلقه، فعُلم أن المراد بالحكم تعلقه بالمكلف بعد أن لم يكن، أو نفسه لكن من حيث دوامه، بمعنى تكرره، لا ذاته التي هي خطاب الله تعالى المتعلق بفعل المكلف من حيث هو مكلف اقتضاء أو تخييرا لأنه قديم، وما ثبت قدمه استحال عدمه"[18]. واختلف الأصوليون في الكلام القديم، هل يسمى خطابا في الأزل أم لا؟ "ثم النسخ إن كان إلى بدل، زيد في الحد بالحكم"[19]، كما قال [ابن حجر] ، وإلا فلا.

ومعنى البدل، أن يُرفع الحكم الأول بالثاني، فكيف يمنعونه؟ كما أن المسخ مِثله، ما هو إلا أن يُرفع خلق صورة أولى بخلق صورة ثانية، ومن ثم قال [الناظم] وخلق فيه أي أي إيجاد في الحكم، وأمر فيه أي تصرف فيه برفعه بالثاني، سواء أي لا فرق بين خلق الممكنات وإعدامها بالنسبة لخالقها، يتصرف فيها كيف يشاء، لا يسأل عما يفعل، فيلزمهم تجويز النسخ لتجويزهم المسخ، وإلا فهم سفهاء معاندون.

ثم إن النسخ يستلزم ناسخا ومنسوخا من الزمان، ومن ثم استدل [الناظم] على جوازه أيضا فقال ولِحكم من الزمان انتهاءٌ، ومن الزمان متعلق بانتهاء، والثاني [أي من الزمان] متعلق بابتداء.

---

[16]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.429، بالتصرف.

[17]الحجة على علمهم بالمسخ قوله تعالى "ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين" (سورة البقرة، الآية 65). وعلمهم بالمسخ ولو أخفوهُ ثابت ومقرر به عند فقهاء شريعتهم المعاصرين لنزول القرآن.

[18]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.429.

[19]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.429. ربما سها الناسخ عن كتابة "ابن حجر".

والمعنى: لكل حكم انتهاء من الزمان في التعلقِ بالنسبة إلى المنسوخ، يريد أن النسخ انتهاء حكم في مدة محدودة عند الله تعالى[20]، اقتضت الحكمة والمصلحة وجود ذلك الحكم فيها إلى انتهائها [أي المدة]، كما اقتضت الحكمة والمصلحة أيضا ابتداء حكم ثاني ناسخ للأول في زمن ثاني، وإلى الناسخ أشار بقوله ولِحُكمٍ من الزمان ابتِداء، والتعبير بالانتهاء في المنسوخ هو المشار إليه بالرفع السابق للزومه له.

ثم قال [الناظم]:

فَسَلوهم أكانَ في مَسخِهم نَسْ --- خٌ لآياتِ اللهِ أم إنشاء

آبداءٌ[21] في قولهم نَدِمَ اللهُ --- على خَلقِ آدم أم خَطَاء

أم مَحا اللهُ آيةَ اللَّيلِ ذُكرا --- بعد سَهوٍ لِيُوجَدَ الإمْساء

أم بدا للإلهِ في ذَبحِ إسحا --- قَ وقد كان الأمرُ فيه مَضاء

هذا احتجاج على اليهود في إلزامهم جواز النسخ بإقرارهم بوقوع المسخ، الذي لا يسعهم إنكاره.

والمعنى: إن أردتم أيها المسلمون أن تلزموهم النسخ بالحجة، فسلوهم عن حال مسخهم "حيث صاروا قردة في صورهم كما هو المشهور، أو في قلوبهم بجعلها كقلوب القردة لا تقبل هداية مع بقاء صورهم على حالها، كما زعمه مجاهد"[22]، أي هل كان في ذلك التحويل نسخ لآيات الله؟ وهي الصورة الأولى مع إحكامها على المشهور، أو الإدراك على قول مجاهد؟. سُميت آية اللهِ لدلالتها عليه، وأم متصلة،

---

[20] بل هو عند البشر، خاضع لمشيئة الله في الزمن الذي يريده لهم. فالزمن (Temps) خلقٌ من خلق الله تعالى، جعله ماضيا في المخلوقات حسب إرادته عز وجل. والفيزياء الحديثة برهنت بالنظرية الخاضعة للتجربة التأكيدية أن الزمن يجري مختلفا بين الموجودات، وأن السرعة التي يتحرك بها جسم ما تُأثر على انسيابية الزمن لديه، فعند جسم يُحادي 90 في المئة من سرعة الضوء، إذا مرت 60 دقيقة عندنا على كوكب الأرض مرت عنده 26,15 دقيقة فقط. ونعبر عن ذلك بمثل أخوين توأمين، أحدهما سافر في مركبة فضائية سرعتها تقارب سرعة الضوء والثاني بقي على كوكب الأرض، فعند رجوع الأول من سفره سوف يكون أصغر سنا من أخيه التوأم. وقد برهنت التجربة، حين عوض التوأمين بساعتين فائقتا الدقة مضبوطتين تماما بينهما، سافرت إحداهما وبقيت الثانية غير متحركة، فوقع تأخير في التي سافرت مقارنة مع التي لم تتحرك. وأما ما يسير بسرعة الضوء، كالذبذبات الكهرومغناطيسية في الفراغ، فالزمن بالنسبة لها متوقف تماما لا يجري. إذن أوجد الله عز وجل مخلوقات لا تعرف انسياب الزمن فكيف بخالقها.

[21] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "وبداء".

[22] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.431.

وإنشاء معطوف على نسخ أي إيجاد أجسامٍ أُخَرٍ ذات صور. فإن أجابوا بالأول نقضوا إنكارهم النسخ، وإن أجابوا بالثاني فهو مكابرة للحس، قال ابن حجر: "والحق أن المسخ متردد بين إنشاء الخلق وبين النسخ، لأنه بالنسبة إلى الصورة الأولى نسخ، وبالنسبة إلى الصورة المتجددة القبيحة إنشاء"[23].

وسلوهم أيضا آبداء؟ بالمد عطفا على الاستفهام مبتدأ وفي قولهم خبره، أي القول الثابت عنهم وهو نسبتهم الندم إلى الباري في خلق آدم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وآدم بالصرف للضرورة، أي هل صدر هذا الخلق منه عن قصد أم عن غير قصد؟ بل عن خطاء؟ بالمد لغة فيه والمشهور فيه القصر. فإن قالوا عن قصد فهو عَينُ البداء الذي أنكروا النسخ لأجله، ويَلزَم عليه جهل الباري تعالى بالأمور المستقبلية الصالحة، فكيف ينكرون النسخ مرارا من لازمه وهم مقرون به؟، فهذا تناقض صريح قبيح. وإن قالوا كان خلقه عن خطأ لزم عليه ما لزم على الأول وزيادة، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وسلوهم أيضا عما هو محسوس مُشاهد، وجاء به القرآن في قوله تعالى "وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم"[24]، قال المفسرون: يُحتمل أن الليل والنهار آيتين في أنفسهما، وإضافة آية

---

[23] نفس الإحالة السابقة.

[24] سورة الإسراء، الآية 12.

ملاحظة: في هذه الآية الكريمة إعجاز يُبينه بجلاء العلم الحديث، فالليل يميزه الظلام والنهار يميزه الضوء الشمسي. والظلام لا وجود له بذاته بل هو غياب الضوء الذي له وجود "مادي"، فهو طاقة صرفة بدون مادة. والإعجاز يظهر من حيث أن النهار يمحو الليل فعلا، بحدوث وصول ضوء الشمس إلى مكان معين، ولكن الليل لا يمحو النهار، لأنه فقط غياب الضوء، والإعجاز في قوله عز وجل "محونا آية الليل" وفي عدم قوله -محونا آية النهار-، بل قال "وجعلنا آية النهار مبصرة"، أي تسمح للبصر أن يرى الأشياء بوجود الضوء. وهذه الحقائق العلمية لم تكن معروفة في عصر الرسول ﷺ، فبالرغم من قوله عز وجل "وجعلنا الليل والنهار آيتين"، فقد بيّن تعالى اختلاف نوعيتهما في باقي الآية الكريمة، وهو ما توصل إليه العلم الحديث.

ولربما يعارضني بعض العلماء فيذكر قوله تعالى "يُكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل" (سورة الزمر، الآية 5)، ثم يقول ليس هناك تمييز بين الليل والنهار في الآية الكريمة. فعلا في الوهلة الأولى يتبين أن الليل والنهار متساويان من حيث تأثير الواحد على الأخر، ولكن ذلك ظاهريا فقط وراجع لشكل كوكب الأرض الكروي وليس لطبيعة الليل والنهار في أصلهما، فكُروية الأرض ودورانها الدائم المستمر حول نفسها، في أي لحظة من الزمن مهما قصرت (دوران الكرة الأرضية لا يتوقف أبدا، ليس كعقرب الساعة الذي يدل على الثواني، والذي يتحرك ثم يقف ثم يتحرك إلخ)، يحتم أن ظلام الليل، وهو عدم وصول أشعة الشمس، يحصل باستمرار على الكرة الأرضية في مكان ما، مصداقا لقوله تعالى "يُغشي الليل النهار يطلبه حثيثا" (سورة الأعراف، الآية 54)، بينما في الجهة المعاكسة من كوكب الأرض، التي كانت في الظلام، وصلت إليها في نفس الحين أشعة الشمس. إذن فكُروية شكل الأرض ودورانها المستمر حول نفسها، هو الذي يجعل الليل يتكور على النهار ويجعل النهار يتكور على الليل بإذن الله ومشيئته، فسبحان الذي أحسن كل شيء خلقه، والله أعلى وأعلم.

فيهما من إضافة الشيء إلى نفسه، كقولهم مسجد الجامع، ومحو آية الليل على هذا، كونه مظلما في أصل خلقته لا ضوء فيه، قال ابن عطية: "وهو الظاهر، وقالت فرقة: -الفاء في قوله "فمحونا" للتعقيب، وذلك أن الله تعالى خلق الشمس والقمر مضيئين، فمحا القمر، محاه جبريل بجناحه ثلاث مرات، فمن هناك كَلَفُه وكونه منيرا فقط-"[25]، وعليه فالمراد بالآية العلامة، وآية الليل القمرن وآية النهار الشمس، كما قاله جماعة من المفسرين. وذكرا منصوب على المصدر، وبعد متعلق به، ولام ليوجد للعلة في المحو، متعلق بمحا.

والمعنى: قولوا لهم هل وقع المحو لآية الليل تذكرا للإمساء بعد سهوه عنه فمحاها ليوجده؟، أو وقع عن علم لم يسبقه سهو؟ فإن أجابوا بالأول فهو عين البداء أيضا، لأن فيه ظهور المصلحة بعد خفائها، وإن قالوا بالثاني فهو النسخ الذي أنكروه للزومه البداء عندهم، وقد بين الله تعالى حكمة اختلاف الليل والنهار في مواضع من القرآن، وفي هذه الآية بقوله "لتبتغوا فضلا من ربكم"[26]، أي لتتوصلوا إلى مصالحكم بضوء النهار، "ولتعلموا عدد السنين والحساب"[27] باختلافهما.

وسلوهم أيضا أم بدا للإلهِ في ذَبحِ إسحاقَ وقد كان الأمرُ فيه مَضاء، وقد للتحقيق والواو للحال، وفاعل بدا محذوف دل عليه السياق، أي ظهر للإله الفِداء أو الترك في ذبح إسحاق بعد أن أمر به، أي بالذبح. والحال أنه كان الأمر به من الله لخليله إبراهيم مضاء أي نافذ، وفي بعض النُّسخ قضاء بالقاف أي حتم، لأن رؤيا الأنبياء حق أي وحي. وكان الخليل [عليه السلام] رأى ذلك في المنام، كما نص الله تعالى في كتابه المبين، فإن قالوا أن الأمر بالذبح نُسخ للأمر بالفداء فهو عين ما أنكروا، وإن قالوا ليس بنسخ فهو البداء ويلزم عليه ما تقدم، وتعالى الله عما يقوله الظالمون. قال ابن حجر "وما جرى عليه الناظم أن الذبيح هو إسحاق هو ما عليه الأكثرون. وكون قصة الذبح إنما كانت بمكة كما قاله المفسرون، ولم يُنقل قط أن إسحاق حج ولا أتى مكة، وقوله ﷺ -أنا ابن الذبيحان-، قاضيان بأن الذبيح إسماعيل وهو

---

[25]ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.3، ص.442. يقول العلم الحديث أن القمر منير لأنه فقط يعكس أشعة الشمس التي تقع عليه، وهذا يؤكد أنه غير منير بذاته.

[26]سورة الإسراء، الآية 12.

[27]نفس الإحالة السابقة.

التحقيق، لرواية الحاكم في المستدرك أن قوما تذاكروا عند معاوية رضي الله عنه، فقال بعضهم الذبيح إسماعيل وآخرون إسحاق، فقال معاوية: -سقطتم على [الخبير][28]، كنا عند رسول الله ﷺ فأتى أعرابي فقال لرسول الله: عُد عليّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه-، فقلنا يا أمير المؤمنين وما الذبيحان؟ فقال: -إن عبد المطلب أُمر في المنام بحفر زمزم، فنذر لله إن سهل عليه أمرها أن ينحر بعض ولده، فأخرجهم فأقرع بينهم، فخرج السهم لعبد الله فأراد ذبحه فمنعه أخواله من بني مخزوم ، وقالوا له إرض ربك وافدِ ابنك، ففداه بمئة ناقة فهو الذبيح، والثاني إسماعيل-، وهكذا رواه ابن مردويه والثعلبي في تفسيرهما"[29].

ثم قال [الناظم]:

أوَما حرَّمَ الإلهُ نكـــاحَ الـ --- ـأُختِ بعد التحليل وهو[30] الزِّناء

لا تُكذِّب أن اليــهود وقد زا --- غُوا عن الحقِّ معشرٌ لُوَماء

جَحَدوا المُصطفى وآمنَ بالطّا --- غوتِ قومٌ هُم عندهم شُرَفاء

قتلـوا الأنبيـــاءَ واتّخذوا العِجـ --- ـلَ ألا إنــهمْ هُـمُ السُّفَهــاء

وسَفيهٌ مَن ساءهُ المَنُّ والسَّلـ --- ـوَى وأرضاهُ الفومُ والقِثّــاء

مُلِئَت بالخَبيثِ مِنهمْ بُـــطونٌ --- فَهْيَ نــارٌ طِباقُهـا الأَمْعــاء

هذا دليل آخر من القرآن على إثبات النسخ لشريعة، أي قولوا لهم أيضا أتنكرون النسخ وتقولون ما حرم الله نكاح الأخت في زمننا بعد تحليله في زمن آدم عليه السلام؟ أو تقولون حرمه بعد أن حلله وعليه فهو [الزِناء] أي نكاح الأخت عين الزنا الموجب للرجم؟ وهو [أي الزنا] بالمد لغة فيه. فإن قالوا بالثاني فهو عين النسخ، "وإن قالوا لم يحللها أصلا أولم يحرمها فهو محض عناد وجحد للحق، لا يخاطب

---

[28] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "الخبر"، وكتبتها تبعا لما في "المنح المكية" المطبوع، والكلمتان تفيان بالمعنى.

[29] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.433. بالاختصار.

[30] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "فهو".

قائله"[31].

ومن ثم قال لا تُكذب أن اليهود الذي حالتهم هذه، وقد للتحقيق والواو للحال، والزيغ: الجور عن الحق، ومعشر أي قوم خبر أن ولؤماء نعت له: جمع لئيم أي الدنيء الشحيح النفس. وجاء في الحديث الصحيح "إن اليهود لقوم بُهتٌ"[32].

ثم بين [الناظم] زيغهم ولؤمهم بقوله جحدوا المصطفى نبينا محمد ﷺ، "أي أنكروا نبوته ورسالته بعد علمهم بها علم يقين"[33]، وقال تعالى "وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم"[34] الآية، وقال تعالى "ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون"[35]. وآمن أي صدَّق بالطاغوت، [على وزن] فعلوت من الطغيان، وهو "الشيطان وكلُّ ما عُبد من دون الله أو صدَّ عن عبادته"[36]، وقوم فاعل آمن والجملة بعده صفة له، وضمير عندهم يعود إلى اليهود، وشرفاء جمع من علمائهم وعظمائهم كَحُيَيْ بن أخطب[37] وغيره، شَرَّفهم اليهود باتباعهم ومدحوهم على جحد الحق، وليس المُراد بقوم بعض اليهود كما يعطيه ظاهر اللفظ، "بل المُراد كلهم، كما جاء التصريح به في قوله تعالى -ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب-[38]، قال المفسرون: هم اليهود، -يومنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا-، أي من أشرافهم وكفار العرب -هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا-، أي بمحمد ﷺ. ويُحتمل أن المراد: وآمن بالطاغوت قوم من كفار قريش هم عند اليهود شرفاء، ومعنى الآية -ويقولون- أي اليهود لكفار قريش الذين آمنوا بالجبت والطاغوت، وهم الشرفاء عندهم، -هؤلاء- أي كفار قريش -أهدى من الذين آمنوا سبيلا-. ويدل على هذا أن حُيي بن أخطب لما ذهب إلى قريش ليحرضهم على قتال النبي ﷺ، ومعه أشراف من اليهود، سألوهم: -

---

[31] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.434.

[32] من حديث طويل رواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار، عن إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

[33] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.434.

[34] سورة النمل، الآية 14.

[35] سورة الأنعام، الآية 33.

[36] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.435.

[37] سيد قبيلة بني النضير اليهودية، وهو من حرض قريش على التحالف مع اليهود في غزوة الخندق.

[38] سورة النساء، الآية 50، برواية ورش عن نافع: " ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يومنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا".

أنحن خير دينا من محمد؟- قالوا نعم، ففرحوا بذلك وخرجوا معهم لقتاله ﷺ"[39].

ومن لومهم أيضا وزيغهم عن الحق أنهم قتلوا الأنبياء، والـ فيه خلف عن الضمير، كَزكرياء ويحيى وشعياء وغيرهم، وقد ورد "أنهم قتلوا سبعين نبيا في يوم واحد، ثم أقاموا سوقهم ومصالح معاشهم"[40]. واتخذوا العجل إلها معبودا مع رؤيتهم السامري حين صاغه لهم بحضرتهم من حلي القبط الذي استعاروه منهم قبل غرقهم، وألقى فيه السامري قبضة من تراب كان أخذه من تحت حافر فرس أنثى لجبريل عليه السلام، قيل إنه أتى بها من الجنة، لما امتنع فرس فرعون من ولوج البحر إحجاما حين تبع موسى، فتقدم جبريل أمامه عليها، فتبعها فرسه حتى غرق هو ومن معه، فصار الحلي برمي تلك القبضة عليه عجلا له خوار، كان الريح يصوت في جوفه، فقال هذا إلهكم، فراج قوله على عقولهم السخيفة فاتخذوه معبودا، كما قص الله تعالى ذلك في في كتابه العزيز.

ثم وصفهم [الناظم] بالسفه اقتباسا من قوله تعالى "ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون"[41] أي سَفَّههم، فجهلهم جهل مركب، فلا أسْفَه ولا أغبى منهم. ثم استدل [الناظم] على سُفههم بقوله وسفيه من ساءه أي أحزنه، الموصول مبتدأ وخبره ما قبله، والمن فاعل ساء، وهو نوع من الحلواء شبه العسل، "كان ينزل عليهم في التيه وهم في غاية الاضطرار، والسلوى وهو السماني: طائر من أشهى الطيور لحما وأنفعها وأطيبها غذاء، كان يأتيهم إلى محالهم فرقا فرقا، فيمدون إليه أيديهم ويأخذون منه ما شاؤوا، فَكَفَروا ذلك وقالوا "لن نصبر على طعام واحد"[42]، وطلبوا بدل ذلك الفوم وهو الثوم كما قُرئ به، وقيل الحنطة وهو بعيد من السياق، لأن الحنطة ليست من الأدنى"[43]، قال في المصباح: "والقثاء يُطلق على الفقوس والخيار"[44]. وهو اقتباس من قوله تعالى "فادعوا لنا ربك يخرج لنا مما تنبت

---

[39] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.435، بالتصرف.
[40] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.436.
[41] سورة البقرة، الآية 13.
[42] سورة البقرة، الآية 61.
[43] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.436.
[44] أحمد الفيومي المقرئ، المصباح المنير، ص.187.

الأرض من بقلها وقِثائها وفومها"[45].

ثم أخبر [الناظم] عن حالهم، أنهم لما طلبوا ذلك، ملئت [بطونهم] بالخبيث، وهو ما سألوه من البقل وما بعده، فهو خبيث بالنسبة لما جعل الله بينه وبين المن والسلوى من التفاضل، بوصفه بالأدنى في قوله تعالى عقب ذكره "أتستبدلون الذي هو أدنى"[46] الآية. ومنهم حال من بطون نائب فاعل ملئت، والخبيث أكل الربا والسحت وغيرهما من المحرمات، أو الخبيث الداء العضال الذي لا دواء له كالغل والحسد، وعلى كل من التفسيرين يترتب قوله فهي أي بطونهم نار، أي ذات نار لاشتمالها على ما يؤدي إلى النار حسا وهو أكل الحرام، أو معنى وهو الغل والحسد، طباقها النار: جمع طَبَق بفتحتين، و"طبق كل شيء: غطاؤه"[47] قاله في القاموس، والأمعاء بالمد جمع أمعى مقصورا وهو المصران.

[والمعنى:] صارت بطونهم كنار ذات طباق بعضها فوق بعض، فشبههم بما سيصيرون إليه.

ثم ذكر [الناظم] بعض ما عاقبهم الله [عز وجل] به من الشقاء والحرمان، فقال:

لو أُريدوا في حال سبتٍ بِخيرٍ --- كان سَبتاً لديهمُ الأَربِعاء

هُـوَ يَومٌ مباركٌ قيلَ للتَّصْـ --- ـريفِ فيه مِن اليهودِ اعتِداء

فـبِظُلمٍ منـهم وكُفرٍ عَدَتْـهمْ --- طَيِّبـاتٌ في تَركِـهِنَّ ابتِلاء

لو هنا حرف امتناع لامتناع، أي امتنع كون الأربعاء سبتا لليهود لامتناع سببه، وهو إرادة الخير لليهود، وضمير أريدوا عائد إليهم، وسَبْت الأول بفتح أوله مصدر سَبَتَ اليهود، أي عظموا سبتهم بامساكهم فيه عما سوى العبادة من جميع الأشغال، والسبت لُغة: القطع، وباءُ بخير زائدة للتأكيد، على رأي جماعة، دخلت على المفعول، وكلا المجرورين متعلق بأريدوا.

---

[45] سورة البقرة، الآية 60.
[46] نفس الإحالة السابقة.
[47] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.991.

والمعنى: لو أراد الله باليهود خيرا كاملا في حال سبتهم الذي فَرض الله [تعالى] عليهم تعظيمه، جَعل الأربعاء سبتا لهم، قال ابن حجر: "كأن الناظم نظر إلى معنى السبت الذي هو القطع كما مر، وإلى محل النور وهو الأربعاء، خُلق فيه النور الحسي، وإلى النور المعنوي الذي هو الوصل، فكأنه يقول -لو أريدَ بهم الخير التام، لجعل قطعهم وصلا كما اختار لهذه الأمة الشريفة يوم الجمعة المؤذن بغاية الوصل، إذ مقام الجمعة هو مقام الوصل، الذي هو أكمل المقامات وأفضلها، فاختياره [عز وجل] يوم السبت لهم دون الأربعاء، الذي هو أكثر بركة، دليل أنه [عز وجل] لم يرد بهم الخير الكامل، وإنما أراد بهم الخير في الجملة"[48].

ولا يلزم منه أن السبت لا بركة فيه، ومن ثم قال [الناظم] يوم مبارك أي يوم السبت، "ابتدأ الله [تعالى] فيه خلق العالم، خلافا لما زعمته اليهود أنه ابتدأه يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت. قالوا فهم يستريحون فيه كما استراح فيه الرب، وهذا من أعظم غباوتهم وسفههم حيثوا نسبوا إليه تعالى التعب بخلق العالم، قال تعالى -ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لُغُوب-[49] أي تعب، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، إذ لا يُتصور التعب إلا من حادث مُفتقر إلى الأسباب وذلك محال على الله [عز وجل]، قال تعالى -إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون-[50]"[51]. وكقوله تعالى لهم "كونوا قردة خاسئين"[52] فكانوها.

وقال [ابن حجر]: " قيل بالبناء للمفعول لضيق النظم لا للتضعيف، للتصريف فيه أي للتصرف من اليهود ببيع أو نحوه اعتداء أي ظلم وعدوان، مسخ الله بسببه طائفة منهم قردة وخنازير، فإنهم كانوا بأيلة: قرية بجانب البحر، فألهم الله حيتان ذلك البحر أن تأتيهم يوم السبت، شرعا أي ظاهرة قريبة منهم يُقال شَرَعَ منا فلان أي دنى، دون غيره من الأيام، فاتخذ طائفة منهم حيلة لصيده فحفروا يوم الجمعة حفرا

---

[48] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.438. بالتصرف.
[49] سورة ق، الآية 38.
[50] سورة النحل، الآية 40.
[51] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.440 و441.
[52] سورة البقرة، الآية 65.

بجانب البحر، وجعلوا فيها جداول من ماءه فصارت تمتلئ منها يوم السبت ويأخذونها يوم الأحد. فافترق أهل القرية أثلاثا: ثلث صاد معهم وثلث نهاهم وثلث أمسك عن الصيد والنهي[53]، فمسخ الله الأولى قردة وخنازير دون الثانية وكذا الثالثة، على ما قاله عكرمة، ورَجعَ إليه ابن عباس بعد قوله -لا أدري ما فعل بالثانية-، لما بيّن له عكرمة وجه أخذها من الآية -وكساه حلة-"[54] من نقل ابن حجر. وهذا شأن اليهود، قال تعالى: "ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم"[55]، قال القشيري: "قال يحيى بن معاذ: -مسكين ابن آدم، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة-"[56]. واعتداء مبتدأ، ومن اليهود وفيه متعلق بالتصريف، ولامه للعلة [أي لام للتصريف]، أي لأجل التصرف في السبت بغير العبادة، وتلبسهم فيه بالمعاصي وأكل الربا ونحوه، وهو اقتباس من قوله تعالى "إذ يعدون في السبت"[57].

ثم نبه [الناظم] على ما عوقبوا به زيادة على ما تقدم بقوله فبظلم صادر من اليهود، "وهو وضع الشيء في غير محله"[58] أو هو مخالفة الشرع، والباء للسبب متعلقة بعدتهم، كخيانتهم بالسبت بارتكاب المخالفات فيه، وكفر منهم أيضا من عطف الخاص على العام اهتماما به، عدتهم أي فاتتهم طيبات كانت حلالا لهم فحُرّمت عليهم لأجل ذلك، فيه إشارة إلى قوله تعالى "وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر"[59] الآية، واقتباسٌ من قوله تعالى "فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات"[60] الآية. وابتلاء مبتدأ والمجرور قبله خبره، أي في إيجاب تركه امتحان واختبار لهم، فهل يقفون عند الحدود فيعلمون أو لا فيهلكون.

---

[53] لا صاد ولا نهى عن الصيد.
[54] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.441، بالتصرف والتلخيص.
[55] سورة المائدة، الآية 13.
[56] القشيري، الرسالة القشيرية، ص.236.
[57] سورة الأعراف، الآية 163.
[58] قاله ابن حجر في "المنح المكية"، ص.441.
[59] سورة الأنعام، الآية 146.
[60] سورة النساء، الآية 160.

الفصل الثالث عشر: من البيت 253 إلى البيت 271

قال [الناظم]:

خُدعوا بالمنافقينَ وهل يَنْـ --- فَقُ إلا على السَّفيهِ الشَّقَاء

واطمأنّوا بقولِ الأحزابِ إخوا --- نِهِمُ إنَّنـــا لكم أولِيـــاء

خدعوا بالبناء للمفعول وضميره لليهود، أي خدعهم المنافقون الأوس والخزرج، الذين أظهروا الإسلام تقية من القتل مع بقائهم على الكفر باطنا، أي دلوهم على ما يؤول إلى شقائهم المؤبد وهم لا يشعرون، حيث كانوا يصدونهم عن رسول الله ﷺ ويحرضونهم على عداوته، فانخدعوا لهم لفرط سُفههم وغباوتهم، ومن ثم قال يَنفق[1] بفتح أوله، وظاهر القاموس بضمٍ ثانية أي يروج[2]، والاستفهام للإنكار أي لا يروج الشقاء إلا على السفهاء، يعني اليهود.

واطمأنوا، أي فريق منهم وهم بنو قريظة، والواو عاطفة على خُدعوا، أي بعد أن اغتروا بالمنافقين اطمأنت أي سكنت قلوبهم في زعمهم، لما كانوا يترقبونه من النبي ﷺ، بسبب قول الأحزاب إخوانِهم في الكفر بالجر على البدل، و[إخوانُهم] بالرفع خبر مبتدأ محذوف. وهم طوائف من اليهود ومَن كان معهم من قريش وغطفان، جمعهم حُيي بن أخطب ومن معه من بني النضير لحربه ﷺ بعد غزوة أُحد. فقال العرب لليهود إننا بكسر الهمزة مُحكى بقولهم ولكم متعلق بأولياء، أي متوالون ومتفقون معكم على حرب محمد ، وكانوا عشرة آلاف، والولي: الناصر. كان حيي بن أخطب ومن معه لعنهم الله، ازدادت عداوتهم للنبي ﷺ حين أجلاهم من بلادهم، فقدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حربه، فقالوا لهم: "نكون معكم على قتاله حتى نستأصلوه"، وذهبوا إلى غطفان كذلك، ومن وافقهم معهم من أهل نجد، فاجتمعوا قادمين إلى المدينة، واليهود قاطعون بأنهم يستأصلون المسلمين بذلك. وهذه غزوة

---

[1] في "المنح المكية" الطبوع كُتبت "يُنْفَقُ".

[2] ينتشر ويشيع.

الخندق، وتسمى غزوة الأحزاب، قال ابن عقبة: "كانت في شوال سنة أربع"[3]. فلما سمع النبي ﷺ بذلك وأصحابه، أشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق، ولم تكن العرب تعرفه، فاجتهد فيه ﷺ وأصحابه حتى حفروه، فلما وصل العدو إليه خرج إليهم [ﷺ] في ثلاثة آلاف، فمكثوا خمسة عشر يوما على الأشهر، لا قتال بينهم إلا الرمي بالنبل ونحوه. ثم اشتد الحرب، فجاء نُعيم بن مسعود إلى النبي ﷺ لما أراد الله نصره، "فقال له: -يا رسول الله، إني أسلمت ولم يعلم بي قومي فَمُرني بما شئت أفعله-، فقال رسول الله ﷺ: -إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ما استطعت-. فذهب إلى بني قريظة وكان نديمهم فقال: -تعلمون نصحي لكم-، قالوا نعم، فقال: -أخشى عليكم إن قاتلتم مع العرب إذا رأوا الهزيمة ذهبوا إلى أهليهم وبلادهم وتركوكم في يد محمد، وأنتم لا تقدرون عليه وحدكم فيستأصلكم، فلا تقاتلوا حتى يُعطوكم رجالا منهم رهنا-، فقالوا: -أشرت بالرأي-. وذهب إلى قريش وقال لهم: -إن اليهود ندموا على حرب محمد وأرادوا الصلح معه، على أن يدفعوا له أربعة منكم يقتلهم، فإذا طلبوا منكم هذا فلا تجيبوهم إليه-. فلما عزم قريش على القتال أرسلوا إلى اليهود، فقالوا: -لا نقاتل اليوم ولكن اعطونا أربعة منكم-. فقالوا: -صدقنا نعيم-، فخرج أمرهم وتركوا القتال، فأرسل الله عليهم ليلا ريحا عاصفا، فمزق عليهم الخيام وكفا لهم القدور، فتفرقوا وذهبوا"[4]. ولما وضع النبي ﷺ سلاحه من غزوة الخندق أمره الله بغزو بني قريظة، كما في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: "لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل فقال: -قد وضعت السلاح والله ما وضعناه أخرج إليهم-، قال: فإلى أين؟ قال: -ها هنا- وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم"[5]. وفي رواية أخرى له عن عبد الله بن عمر قال: "قال النبي ﷺ يوم الأحزاب -لا يصليَنَّ أحد العصر إلا في بني قريظة-، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: -لا نصلي حتى نأتيها-، وقال بعضهم: -بل نصلي، لم يُرد منا ذلك-. فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فلم يُعنف أحدا

---

[3] قاله موسى بن عقبة في "المغازي".

[4] ابن هشام، السيرة النبوية، ج.3، ص.179 إلى 181، بالاختصار.

[5] صحيح الإمام البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب.

منهم"[6]. قال أهل السير: "فذهب إليهم ﷺ في ثلاثة آلاف مقاتل وستة وثلاثين فرسا، فحاصروهم خمساً وعشرين ليلة، أو خمس عشر، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فعرض عليهم رئيسهم الإيمان وحلف لهم أنه نبي مرسل وأنه الذي يجدونه في كتبهم، فأبوا، فقال لهم: -الليلة السبت، لعلهم أمِنوا، فانزلوا إليهم لعلكم تصيبون منهم-، فقالوا: -نُفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث من قبلنا إلا من علمت فأصابهم ما لا يخفى عليك من المسخ؟-. ثم اشتد عليهم الحصار فنزلوا على حكم النبي ﷺ، فحكَّم فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه، فحَكَمَ فيهم أن تُقتل رجالهم وتُقسم أموالهم وتُسبى ذراريهم. فقال ﷺ: -لقد حكمت فيهم بحُكم الله-. فأمر بهم ﷺ، فأدخلوا المدينة وضُربت أعناقهم جميعا وهو جالس مع أصحابه ﷺ، وكانوا ما بين ستمائة إلى سبعمائة، ولا ينافيه الرواية الصحيحة أنهم كانوا أربعمائة مقاتل، لأن الباقين أتباع"[7].

ولما أراد الله [تعالى] خذلانهم أنشأ بينهم الغدر والمكر، وعليه نبه [الناظم] بقوله:

حـالَفوهُم وخـالَفوهُم وَلم أدْ --- رِ لـماذا تَخـالفَ الحُلفـاء

أسلَموهم لأولِ الحَشرِ لا ميـ --- ـعادُهم صادقٌ ولا الإيـلاء

سَكَنَ الرُّعبُ والخرابُ قلوباً --- وبيوتاً مِنهم نَعاها الجَلاء

مرفوع[8] حالفوهم يعود إلى العرب ومنصوبه إلى اليهود، ومثله خالفوهم، وبينهما جناس التصحيف.

والمعنى أن العرب عاهدوا اليهود على حرب رسول الله ﷺ حتى تكون الغلبة لهم، فخالفوهم في ذلك ورحلوا عنهم وتركوهم للنبي ﷺ حتى استأصلهم بالقتل عن

---

[6]نفس المرجع السابق.
[7]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.444.
[8]أي الفاعل، والمنصوب المفعول.

آخرهم، فعاقبهم الله [تعالى] بما عزموا عليه، قال تعالى "ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله"[9].

وقوله [أي الناظم] لم أدر لماذا تخالف الحلفاء؟، "من تجاهل العارف إغراءً للسامع على البحث عن سبب ذلك وإن كان ظاهرا"[10]، وهو إرادة الله تعالى لهمُ الخذلان بقصة نُعيم، واستئصالهم بالهلاك والشقاء المؤبد.

واغترت طائفة من اليهود أيضا: بنو النضير، بوعد المنافقين عبد الله بن أُبَي وأصحابه، أن يقاتلوا معهم النبي ﷺ، فنقضوا عهدهم وتركوهم للنبي ﷺ، وهو المراد بقوله أسلموهم لأول الحشر، مقتبس من قوله تعالى "هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب"[11] الآية. حكى المفسرون فيه أربعة أقوال "أحدها: أنه حَشْرُ القيامة، وأول الحشر خروجهم من حصونهم وآخره قيامهم من قبورهم، ويَدل لهذا قوله ﷺ لهم: -امضوا هذا أول الحشر وأنا على الأثر-. الثاني: أن المعنى لأول موضع الحشر وهو الشام، لأن أكثر بني النضير خرجوا إليه، وقد جاء في الأُثر أن حشر القيامة إلى أرض الشام، ويدل له قوله ﷺ لهم -اخرجوا إلى أرض الحشر-. والحشر الثالث: إن المراد حشر الدنيا، الذي هو الجلاء والإخراج، فإجلاء بني النضير من حصونهم أول الحشر، وإخراج أهل خيبر آخره. الرابع: أن المراد إخراجهم من ديارهم لأول ما حشر لقتالهم، لأنه أول قتال قاتلهم النبي ﷺ. وقال الزمخشري: اللام في قوله -لأول- بمعنى عند، كقولك وقت كذا"[12]. وقوله لا ميعادهم أي لا وعد المنافقين اليهود أنهم ينصرونهم على النبي ﷺ صادقٌ بل مكذوب، لأنهم تخلفوا عنهم وتركوهم للهلاك، وأشار [الناظم] بهذا إلى تكذيبهم في الآية بقوله تعالى "ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم"[13] الآية. والإيلاء: الحلف منهم على ذلك ليس بصادق أيضا.

---

[9] سورة فاطر، الآية 43.

[10] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.445.

[11] "هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر"، سورة الحشر، الآية 2.

[12] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.5، ص.283 و284، بالاختصار.

[13] سورة الحشر، الآية 11.

والرعب: هيبة النبي ﷺ، فاعل سكن، وخشيتهم انتقامه منهم، والخراب لدُورهم. وقلوبا يعني من اليهود المحصورين وغيرهم، وبيوتا لهم على اللف والنشر المرتب: الرعب للقلوب والخراب للبيوت. ومنهم صفة لبيوت دلت على مثلها محذوفة صفة لقلوب. والنعيُ والنعوُ: الإخبار بالموت، ونعاها في موضع الحال من بيوت، أي أخبر تلك البيوت بموت أهلها المعنوي. والجلاء أي إخراجهم من حصونهم، مقتبس من قوله تعالى "وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم"[14] الآية.

وأشار بالبيتين إلى غزوة بني النضير، وظاهره أنها كانت متأخرة عن غزوة الخندق التي كانت مع الأحزاب السابق ذكرها، كما يوهمه كلام بعض أهل السير، "وأن ضمير أسلموهم للأحزاب. وليس كذلك، لأن إجلاء بني النضير كان من أعظم أسباب جمع الأحزاب، فإن حُيي بن أخطب كان من رؤسائهم وعظمائهم، فذهب إلى قريش وغيرهم لجمع الأحزاب كما سبق، وهو الذي حَسَّنَ لبني قريظة نقض عهدهم النبي ﷺ ليدخلوا معه في الأحزاب كما سيأتي، فغزاهم النبي ﷺ إثر غزوة الأحزاب كما سبق في رواية البخاري وغيره. وخلاصة ما قاله أهل السير في وقعة بني النضير أن النبي ﷺ خرج إليهم يستعينهم في دية قتيلين قتلهما بعض حلفائهم قبل علمهم بذلك، فأظهروا له الإجابة وهو جالس لجنب جدار من بيوتهم، فاتفقوا على أن يصعد واحد منهم البيت ويلقي عليه صخرة ليستريحوا منه. فلما صعد الرجل لذلك أتى جبريل النبي ﷺ فأخبره بذلك، فقام مظهرا لقضاء حاجته وترك أصحابه في مجلسهم، ورجع مسرعا إلى المدينة فتبعه أصحابه فأخبرهم، فأنزل الله في ذلك "يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم"[15] الآية. فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ إليهم، فسار لحربهم وحاصرهم أياما. وفي رواية ابن سعد أنهم لما هموا بغدر رسول الله ﷺ أرسل إليهم محمد بن مسلمة، أن اخرجوا من بلدي وقد أجلتكم عشرا فمن رؤي منكم بعدها ضربت عنقه، فشرعوا في التجهيز، فأرسل إليهم عبد الله بن أُبي وأتباعه أن اثبتوا مكانكم وتمنعوا ونمدكم بمن ينصركم،

---

[14] سورة الحشر، الآية 2.

[15] سورة المائدة، الآية 11.

وأرسلوا إلى رسول ﷺ ألا يخرج إليهم، فأظهر التكبير وكبر المسلمون بتكبيره، فسار إليهم وعَليٌ يحمل رايته، فلما رأوه قاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، وخذلهم ابن أُبي ومن معه. وفي ذلك نزل قوله تعالى "ألم تر إلى الذين نافقوا" كما سبق، فحاصرهم ﷺ خمسة عشر يوما، ثم قال: -اخرجوا ولكم دماؤكم وما حملت إبلكم إلا [الدِّرْعَ][16]-، فنزلوا على ذلك، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم، كما قص الله تعالى ذلك في كتابه"[17]. قال المفسرون: خربوا البيوت لثلاث مقاصد، احتياجهم إلى الخشب والحجارة ليسدوا بها أبواب الأزقة تحصينا من تخريب المسلمين عليهم الأسوار، وليحملوا ما أعجبهم من الخشب معهم والسواري ونحوها، ولِيَلا تبقى مساكنهم للمُسْلمين شُحّاً عليهم بها. فلحقوا بالحيرة ثم إلى الشام ثم بخيبر[18]، على ستمئة بعير.

ثم قال [الناظم]:

وبِيومِ الأحزابِ إذ زاغتِ الأبْـ --- صارُ فيه وضلَّتِ الآراء

وَتَعَدَّوْا إلــى النبــيِّ حُـــدودأ --- كان فيها عَليْهِمُ العَدواء

وَنَـهَتهمْ ومـا انتهتْ عنه قومٌ --- فأُبيدَ الأُمَّـــارُ والنُّهَّـــاء[19]

أشار بهذا إلى تمام ما وقع لليهود مع الأحزاب من خذلان في غزوة الخندق، وذلك "أن الأحزاب لما نزلوا حوالي المدينة، خرج النبي ﷺ والمسلمون فجعلوا أظهرهم إلى سَلْع والخندق بينهم وبين القوم، فسار عدو الله حُيي بن أخطب حتى أتى كَعب القُرظي، صاحب عقد بني قريظة وعَهدِهم، فأغلق كعب باب حصنه دونه وقال له: -إنك رجل مشؤوم، وإني عاهدت محمدا فلست بناقض عهده-، فلم يزل به حتى فتح الحصن، فقال: -يا كعب، جئتك بعز الدهر-، فقال كعب: -جئت بالذل-، فقال: -جئتك

---

[16]في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "الذرع"، وهو خطأ نقل حسب ما في المرجع المطبوع، وكتبتها كما جاءت فيه.

[17]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.446 و447، بالاختصار.

[18]ملاحظة: الأرجح أنهم تفرقوا على تلك المناطق.

[19] في "المنح المكية" كتبت "الأمار والنَهَّاء".

بقريش أنزلتهم بجميع الأسيال ومن دونهم غطفان، وقد عاهدوني ألا يرجعوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه- ولم يزل به حتى نقض عهده وتبرأ مما كان بينه وبين النبي ﷺ فبلغه ذلك فعظم البلاء على المسلمين واشتد الخوف، وأتاهم العدو من فوقهم ومن أسفلهم حتى ظن المومنون كل الظن"[20].

وزاغت الأبصار، أي مالت عن محلها عبارة عن شدة الخوف، والآراء جمع رأي فاعل ضلت أصله أَرءاي، قدموا الهمزة إلى محل الراء فصارت مدة ثم أبدلت الهمزة الأخيرة ياء لتطرفها بعد ألف ساكنة. ثم إن الله تعالى خذل الأحزاب وبدد شملهم، كما أشار [الناظم] بهذا إلى قوله تعالى "وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر"[21] الآية، فجعل الله الدائرة على الأحزاب ونصر رسوله ﷺ وأهلك بني قريظة عن آخرهم، كما قال تعالى "وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب"[22] الآية.

والظاهر أن فاعل تعدوا شامل لجميع الكفار من العرب وغيرهم، وحدودا مفعوله، أي تجاوزوا ما حد لهم الشارع فلم يقفوا عنده حتى وصل تعديهم إليه ﷺ، فإلى للغاية كقولهم: إني أحمد الله إليك. فكان في مجاوزتهم تلك الحدود عليهم العَدْواء بفتح فسكون، أي البعد من النجاة والوقوع في الهلاك، وفي للسبب ومجرورها يعود إلى الحدود، وعليهم متعلق بالعدواء اسم كان وفيها خبرها، أو هي تامة وفيها حال من المبتدأ.

وأمرتهم قوم بالتعدي على النبي ﷺ منهم ومن غيرهم، كما نهتهم أي المتعدين قوم، كما سبق نهي كعب رئيس بني قريظة عن مخالفة النبي ﷺ، وكنَهْيِ واحد من بني النضير عن إلقاء الصخرة على النبي ﷺ، وحلف لهم ليقولن ذلك له. وما نافية، ويُتنازع في قوم نهت وانتهت على الفاعلية، فلم ينتهوا عن مخالفته ﷺ بل استمروا على ما هم عليه، فأبيدَ الأُمار جمع آمر منهم بإيذاءه ﷺ، والنُّهاء بضم أوله جمعُ ناه عن اتباعه أو عن إذايته، فأهلكوا جميعا لبقاء كل على كُفره.

---

[20]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.448، بالاختصار.

[21]سورة الأحزاب، الآية 10.

[22]سورة الأحزاب، الآية 26.

ثم قال [الناظم]:

وَتَعاطَوْا في أحمدَ مُنكَرَ القوْ --- لِ ونُطْقُ الأراذِلِ العَوْراء

كلُّ رِجسٍ يزيدهُ الخُلُقُ السُّو --- ءُ سَفاهاً والمِلَّةُ العَوجـاء

فَانظروا كَيْف كان عاقبةُ القَوْ --- مِ ومـا ساقَ للبَذِيّ البَذاء

[وتعاطوْا] يعني أن الكفرة من اليهود وغيرهم تناولوا في أحمد [وهو] نبينا محمد ﷺ، والمجرور متعلق بالقول، و"خصه بالذكر لأنه لم يُسم به أحد قبله كما رواه مسلم"[23]، وسبق أول الكتاب أنه من غُرَرِ[24] أسمائه ﷺ، وسماه الله به في القرآن على لسان عيسى[25] وفي الحديث على لسان موسى[26] عليهما السلام. قال ابن حجر: "وأما اسمه محمد فتسمى به قبله خمسة عشر نفسا كما بينه الحافظ العسقلاني"[27]. ومنكَر بفتح الكاف مفعول تعاطوا من إضافة الصفة إلى الموصوف، "أي القول الذي يُنكره سامعهُ لعلمه بقُبحه وفساده، والحامل عليه عناد أو حسد، فقالوا مرة ساحر وأخرى مجنون وأسمعوه ما يكره، كما سبق"[28]. وقول المنافقين يوم الخندق: "-محمد يعد أصحابه أن ينفق عليهم كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب اليوم إلى الغائط-، ثم إن الله تعالى قد حقق ما قاله رسوله"[29]، ومقالات اليهود في مثل هذا كثيرة كما قص الله [تعالى] ذلك في كتابه. ونُطق أي منطوق الأراذل جمع رذيل أي الدنيء الخسيس الذي لا مروءة له، والعوراء نعت لكلمة محذوفة أي الذميمة الساقطة، أي شأنهم النطق بالفحش لأنهم أرجاس أنجاس.

وكل رجس وهو القذِر وكل عمل يؤدي إلى العقاب، يزيده ما حيل عليه من الخُلُق بضمتين السوء بفتح أوله وضمه أي القبيح نعت للخلق، وسَفاها بفتح أوله مصدر

---

[23] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.450.
[24] جمع غُرَّة من كل شيء: أوله وأكرمه.
[25] سورة الصف، الآية 6.
[26] أورد الحديث الشيخ الطبري في تفسيره لسورة الأعراف الآية 150، عن قتادة رضي الله عنه.
[27] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.450.
[28] نفس الإحالة السابقة.
[29] نفس المرجع السابق، ص.451.

-سفُه- بضم الفاء سَفاهة، مفعول ثاني ليزيد، وأما -سَفَها- بفتحتين من غير ألف: ضد الرُشد، فمصدر -سفِه- بكسر الفاء. والملة بالرفع عطف على الخُلق أي الشريعة، سميت بذلك لأنها تُملى وتُكتب، أو مبتدأ حُذف خبره أي كذلك. والعوجاء أي الباطلة، قال ابن حجر: "شبهها بطريق عوجاء تَتِيه صاحبها ولا تهديه"[30]، فأهلك الله كل من أذى نبيه فورا أو بعد قليل مُهل.

ومن ثم قال [الناظم] على طريق الوعض والتحذير فانظروا أي اعلموا أيها العقلاء، كيف كان عاقبة أي مآل ومصير القوم الموصوفين بما ذكر، والأَوْلى أن كيف خبر كان على أنها ناقصة أو خبر عاقبة على أنها تامة، مقتبس من قوله تعالى "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين"[31]. وانظروا أيضا ما ساق للبذي أي الفاحش النطق، البَذَاء بفتح الموحدة والمعجمة فيهما وهو الكلام القبيح، وما موصولة منصوبة بالعطف على محل معمولي انظروا. وبين البذي والبذاء جناس الاشتقاق، وأفرده للجنس لا للوحدة.

ثم بين [الناظم] ما آل إليه اغترارهم فقال:

وَجَدَ السَّبَّ فيه سَمّاً ولم يَدْ --- رِ إذ الميمُ في مواضعَ باء

كـان مِنْ فيهِ قَتلُـهُ بيَديهِ --- فَهْوَ فـي سوءِ فِعلهِ الزَّبَّاء

فاعل وَجدَ ضمير يعود إلى البذي، والسَّب بفتح أوله الشتم مفعول أول، وفيه حال من السب وضميره راجع إلى النبي ﷺ، وسَمّا أي مهلكا مفعوله الثاني، وفي سينه ثلاث لغات، وبين السب والسم جناس المضارع. ولم يدر أي البذي والواو للحال، أي سبه سم قاتل لوقته، وإذ تعليل لصيرورة السب سَما، والميم مبتدأ وباء خبره، وفي مواضع حال من أحدهما كقولهم في مير-بير- وكقولهم في مكة -بكة-. وإهلاكهم بالسب أبلغ من السم الذي هو إهلاكهم في الدنيا فقط وله أدوية تزيله، وإهلاك السب في الدنيا والآخرة ولا دواء له إلا الإيمان.

---

[30]ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.451، بالتصرف.

[31]سورة النمل، الآية 69.

وقتله مبتدأ أو اسم كان على أنها ناقصة، وفيه حال من الضمير في متعلق الخبر وهو بيديه، وقتله نفسه أشد من قتل غيره له، فالبذي إذن بسبب فعله الصادر منه لنفسه هو الزَّبَّاء بفتح الزاي والموحدة مشدودتين أي مثلها، وهي المرأة المشهورة بالملك، سميت بذلك [أي الزباء] لكثرة شَعرها، كان يجللها ويُسحب من وراءها، وفي القاموس:"الزبب محركة: كثرة الشعر في الإنسان"[32]. وقصتها كما ذكر في القاموس: "أن جَذِيْمة الأبرش، وهو أول من اجتمع له المُلك بالعراق، كان جمع غلمانا من أبناء الملوك يخدمونه، منهم عدي بن نصر الأيدامي وكان جميلا، فعشقته رَقاش أخت جذيمة[33]، فقالت له: -إذا سقيت الملك فسكر فاخطبني إليه-، فلما سقاه عدي وسكر قال له جذيمة: -سلني ما أحببت-، فقال له: -زوجني أختك رقاش-، قال: -قد فعلت-. فعلمت رقاش أنه سينكر إذا أفاق فقالت للغلام: -أدخل على أهلك- ففعل، وأصبح في ثياب جدد وطِيب، فلما رآه جذيمة قال: -ما هذا؟-، قال: -أنكحتني أختك البارحة-، فقال: -ما فعلت-، وجعل يضرب وجهه ورأسه، وأقبل على رقاش وقال:

حدثيني وأنت غير كَذوبٍ --- أبِحُرٍّ زَنَيتِ أم بِهَجينِ

أم بعَبدٍ وأنتِ أهلٌ لعَبدٍ --- أم بدونٍ وأنتِ أهلٌ لدُونِ

قالت: -بل زوجتني كفؤا كريما من أبناء الملوك-، فأطرق جذيمة. فلما سمع بذلك عدي خافه على نفسه فهرب ولحق بقومه، ومات هنالك. وعَلِقَت منه رَقاش فأتت[34] بابن سماهُ جذيمة عَمْرا وتبناه وأحبه حبا شديدا، وكان لا يولد له. ثم خرج عمرو يوما فاختطفته الجن وفُقد زمانا طويلا، وضرب عليه في الآفاق فلم يوجد. ثم وجده رجلان من بَلْقَيْن بواد السَّماوَة فسألاه: -من أنت؟-، فقال: -ابن التنّوخية-، فقالا لجارية معهما: -أطعمينا- فأطعمتهما، فأشار إليها عمرو أن أطعميني فأطعمته، ثم سقتهما، فقال لها عمرو: -اسقني-، فقالت الجارية -لا تطعم العبد الكراع فيطمع في الدراع-. ثم حملاه إلى جذيمة فعرفه وضمه إليه وزاد عنده حبا"[35]. وكان أبو

---

[32]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.691.

[33]في النسخة الصبيحية "خديجة"، وهو خطأ نسخ.

[34]أي أنجبت بعد حمل.

[35]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1025 و1026، بالاختصار.

الزَّبَّاء ملكا ما بين الفرس والروم، فغزاه جذيمة هذا فقتله قبل بعثة عيسى عليه السلام. فلحقت الزباء بالروم، وجمعت الجيوش، واستخلصت مُلك أبيها من جذيمة، وابتنت لنفسها قصرا حصينا بجانب الفُرات، وخرقت له سردابا تحت الفرات في التراب وبنته، فجعلت بابه من جانب الفرات الآخر لا يُعرف. وكانت أجمل نساء وقتها، فذُكر لجذيمة بكارتها وجمالها، فطمع فيها وفي ملكها فخطبها، فأجابته إلى ذلك وأظهرت الفرح والسرور وبعثت له بهدية حسنة، فاستشار في المسير إليها فبالغ قصِير بن سعد نديمه في منعه وأن ذلك مكيدة منها، فلم يُصغ إليه. فلما دنا منها أعاد الاستشار فأعاد قصير منعه فلم يصغ إليه، فسار إليها. وكانت أمرت بمكرها، إذا وصل إليها أن يُحيطوا به ويمنعوه منها. فلما رأى قصير ذلك ركب فرس جذيمة التي كانت تسبق الريح، وفر بها. ثم دخل جذيمة عليها ليس معها إلا الجواري، فقالت: -خذوا بيد [سيدكن وبعل مولاتكن، فأَجلِسنه على النطع- ففعلن][36]، ثم أمرتهن بفصد[37] عروق بدنه، ووُضع له طست فنزف دمه فيه إلى أن قضى، فأمرت به فدُفن. ثُم أقبل قصير على عمرو وارث مُلك جذيمة وأخبره الخبر، وحضه على أن يأخذ بثأر جذيمة منها، فأخبره أنه لا يقدر عليها، فقال له قصير: -أجدع أنفي وأذني واضرب ظهري حتى تُأثر في-، ففعل أو فعله قصير بنفسه. ثم ذهب إليها يُظهر أنه مستجير بها من عمرو، فراجت عليها حيلته وأكرمت نزله، ثم أظهر لها النصح والخدمة فزادت مكانته عندها وعولت عليه في أمورها. ثم أظهرت له أنها تريد غزوا وأنه يذهب ويأتيها بالعبيد والعدد، فقال لها: -إن لي ببلاد عمرو ألف بعير وخزانة مال وسلاح-، فأعطته ما أراد من المال. فعاد إلى عمرو فقال: -أصبت الفرصة منها-، فقال له عمرو: -مر بما شئت-، فعمد إلى ألفي رجل من فُتّاك قومه، فحملهم على ألف بعير إثنان في غرارتين سوداوين، وعمرو منهم، وساق الخيل والكراع والسلاح. وكان يكمن النهار ويمشي باليل حتى دخل عليها، فقال: -أنظري العير-، فنظرت فقالت:

[36] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "بيد سيدكم وبعل مولاتكم فأجلسوه على النطع، ففعلوا"، وهو خطأ نقل لذكر الجواري فيما سبق وتأنيث ما يتبع.
[37] الفَصْد: سحب الدماء من المريض بقصد العلاج.

ما للجمال مَشيُها وئيدا --- أجندلا يَحملن أم حديــــــدا

أم الرجالَ جُثَّماً قُعودا --- أم الرجالَ في الغِرارِ السّودا

فلما وصلت العير المدينة نخس[38] بواب جولقا على جمل فعرف ما فيه، فأراد الصياح فضرب عمرو عنقه، ثم حُلت الجواليق فخرج الرجال منها بأسلحتهم. وكان قصير قبل ذلك، تلطف لها حتى عرف باب السرداب الذي يصعد منه إلى قصرها، فلما دخله عمرو ليصعد منه إلى الزباء، رأته فمصت خاتما في يدها مسموما وقالت: -بيدي لا بيد عمرو-، فماتت.[39]

وهذا سم قتل بدخوله الفم وسم الكفرة بخروجه منه[40]، والكل قاتل. وفي إضافة سوء إلى فعله إضافة الصفة إلى الموصوف.

ثم قال [الناظم]:

أو هُوَ النَّحلُ قَرصُهُ يَجلِبُ الحَتْـ --- ـفَ إليه[41] ومــــا له إنْكاء

صَرعَت قومَـــهُ حَبــائلُ بَغيٍ --- مَدّهـــا المكرُ منهمُ والدَّهاء

فأتتهم خيلٌ إلــى الحربِ تَختا --- لُ وللخيلِ في الوَغى خُيَلاء

قَصَدت فيهمُ القَنا بقوافي الطَّـ --- ـعْنِ منهــا ما شأنُها الإيطاءُ

هذا وجه آخر في ضُعف كيد البذي ورجوع مكره عليه، شبهه [الناظم] بالنحل في إذايته نفسه بقرصه غيره.

والمعنى أن لسعه يجلب إليه الحتف أي الموت عقب لسعه، وعادته أن يموت بذلك ولا يحصل منه ضرر للملسوع، وهو معنى ما له إنكاء فما نافية.

---

[38] نخس الدابة: طعن مؤخرها بعود أو غيره.

[39] أورد الشيخ الطبري قصة الزباء في "تاريخ الأمم والملوك"، ج1، ص.444 إلى 449. كما ذكرها ابن حجر الهيتمي في "المنح المكية"، ص.454 و155.

[40] أي كلام الكفرة سم يقتلهم بخروجه من فمهم.

[41] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت " ...قرصها يجلب الحتف إليها...".

ثم ذكر [الناظم] وقوع مكرهم بهم لِما وَقع لهم من الهلاك بقوله صرعت قومه، أي الذين أُرسل إليهم فأذوه أي ألقتهم قتلى بين يديه ﷺ حبائل جمع حبالة الصائد، وبغي أي بغيهم عليه ﷺ والإضافة بيانية. والمكر أي إخفاء السوء مع إظهار خِلافه فاعل مدها، أي نصبها لهم والضمير عائد إلى الحبائل، ومنهم حال من المكر وضميره راجع إلى القوم، والدَّهاء بفتح أوله: جودة الرأي، معطوف على المكر. فشبه البغي بشبكة الصائد، والمكر والدهاء بالصائد الذي مد حبال الشبكة ليقع الصيد فيها، فصارت حبالهم مكرا بهم، فصرعوا فيها قتلى بين يديه ﷺ كما وقع لهم في غزوة بدر وغيره، قال تعالى "ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله"[42]. والأوْلى أن الضمير في قومه يعود إلى البذي السابق في قوله وما ساق للبذي البذاء، فلا يحتاج تقييد القوم المرسول إليهم بكونهم أذوه كما سبق.

ثم بيّن [الناظم] ما استعار له الحبائل بقوله فأتتهم، بسبب بغيهم، خيل اسم جمع، من قِبَله ﷺ سماها الله [تعالى] خيرا في قوله تعالى "إني أحببت حب الخير"[43] في قراءة[44]. تختال أي رُكابها تتبختر عليها تيها، وفي القاموس: "التبختر: المشية الحسنة"[45]، وإلى الحرب متعلق به والجملة صفة لخيل، وللخيل يعني الصافنات الجياد في الوغي أي الحرب متعلق بخُيلاء، أي تَكبُر وترفع للشجعان على العدو بركوبهم عليها، أوللمجموع.

وقصدت أي جعلت الرماح التي بأيديهم طريقا مستقيمة فيهم أي في أبدان الكفرة بنفودها من الجانب إلى الجانب الآخر، أو بمعنى عَدلت: ضد جارت، والقنا الرماح واحدة قناة فاعل قصدت. وإسناد القصد إليها مجاز، فبسبب قصدها فيهم كانت قوافي الطعن، أي تتابعه طعنة بعد طعنة كتتابع القوافي حال كونه من تلك الرماح. وما

---

[42] سورة فاطر، الآية 43.

[43] سورة ص، الآية 32. ذكر الإمام الطبري في تفسيره أن الخير بمعنى الخيل أو المال أو كلاهما. وقال الإمام ابن عطية في تفسيره : "وقال بعض الناس: -الخير هنا أراد به الخيل-. والعرب تسمي الخيل الخير".

[44] بمعنى تفسير.

[45] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.98.

نافية، وشأنها[46] أي عادة صاحبها مبتدأ والإيطاء خبره، وهو تكرار القافية بلفظ متحد لفظاً ومعنىً، وذلك من عيوب الشعر فلا يسوغ عندهم إلا بعد سبع أبيات أو خمسة، شبه به [أي الإيطاء] الطعنات الواردة على محل واحد، من غير أن تزيد الثانية على تأثير الأولى فيه شيئا، وهو عيب في المشبه لأنه يدل على قصور ساعد الشجاع وعدم تمكنه من قِرْنِه[47]، واختلاف محال الطعنات أسرع وأبلغ في جهاز العدو من تواردها على محل واحد، فَلِذلك نفاها [الناظم] بما.

ولما فرغ [الناظم] من ذكر ما عوقب به اليهود وعَقَّبه بما عوقب به غيرهم من العرب، شرع فيما وقع لقريش في فتح مكة فقال:

وأثارت بأرضِ مكةَ نَقعـاً --- ظُنَّ أنَّ الغُدُوَّ فيها[48] عِشاء

أَحْجَمت عِندهُ الحَجُونُ وأَكْدَى --- عِندَ إعطائِه القليلَ كُداء

يعني أن الخيل المذكورة أثارت أرضا، أي أوقعت بركضها في الحرب بأرض مكة شرفها الله [تعالى] نقعا، أي غبارا أظلم الجو من أجله، حتى ظن بالبناء للمفعول أن الغدوّ أي وقته، وهو ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، عِشاء بكسر أوله أي وقته، وهو مغيب الشفق الأحمر، وأما العَشاء بالفتح فهو ما يتعشى به. وأن وما بعدها سَدت مسد معمولي ظن. وفي نسخة منها[49] وضميره يعود إلى الخيل، قال ابن حجر: "وهذا البيت فيه تلميح لقوله تعالى -فأثرن به نقعا-، وذلك يوم فتح مكة الذي أعز الله به دينَه ورسولَه ﷺ، وهو من أعظم فُتوحات الإسلام"[50]. وقصتها أن قريشا نقضوا عهد النبي ﷺ الذي عقده معهم في صلح الحديبية، فعَدَوْا[51] على خزاعة وهم

---

[46] في "المنح المكية" كُتبت "ما شانها" وفسرت بـ"ما عابَها". وتفسير سيدي يحيى بأنها "عادة صاحبها" يلزم كتابتها "شأنها" بالهمزة. وتفسير كل من الشيخ الهيتمي والعلامة الشبيهي يوافق كتابة كل منهما للكلمة، وقد اختلفا في المعنى حيث يقول الشيخ الهيتمي أن توالي الطعان في مكان واحد من جسم العدو يؤتي المطلوب، بينما يقول سيدي يحيى أن فائدته ضعيفة.

[47] بمعنى نظيره أي الذي يبارزه.

[48] في "المنح المكية المطبوع كُتبت "منها".

[49] وهو كما كُتب البيت في "المنح المكية" المطبوع.

[50] ابن حجر الهيتمي، "المنح المكية"، ص.458.

[51] أي اعتدوا.

في عهد[52] النبي ﷺ فقتلوا منهم رجلا، فذهب إليه [ﷺ] أربعون رجلا من خزاعة يُخبرونه ويَستنصِرونه، فقام ﷺ وهو يجر رداءه ويقول: "لا نُصرت إن لم أنصركم بما أنصر به نفسي"[53]. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: "أن رسول الله ﷺ غزا غزوة الفتح في رمضان"[54]، وفي أخرى له عنه أيضا: "أن رسول الله ﷺ خرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة، فسار بمن معه إلى مكة"[55] الحديث. وذكر أهل السير: "أن النبي ﷺ لما كان بقديد، عقد الألوية والرايات للقبائل فدفعها لهم، ثم لما نزل من الظهران أمرهم أن يوقدوا عشرة آلاف نار، فوافاهم أبو سفيان"[56]. وفي رواية للبخاري: "فخرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبذيل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ، فأقبلوا يسيرون حتى نزلوا من الظهران، فإذا هم[57] بنيران كأنها نار عرفة فقال أبو سفيان: -ما هذه النار؟ لكأنها نار عرفة-، فقال بذيل: -نيران بني عمرو-، فقال أبو سفيان: -عمرو أقل من ذلك-. فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأتوا بهم رسول الله ﷺ فأسلم أبو سفيان، فلما سار قال [ﷺ] للعباس: -احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين-"[58]، وفي رواية: -حتى تمر به جنود الله-. فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر به"[59] الحديث. وفي رواية غيره: "فحبسه فمرت به القبائل كتيبة[60] كتيبة، وهو يسأل عن كل قبيلة فينسبها له العباس، فيقول: -ما لي ولها؟-، حتى مرت به الكتيبة الخضراء للأنصار والمهاجرين، سميت بذلك لكثرة ما معهم من السلاح لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، وفيهم النبي ﷺ على ناقته القصواء بين أبي بكر وأسيد بن حضير. فلما رأى

---

[52] أي لهم معه حلف.

[53] أورد الشيخ القسطلاني الحديث والقصة في "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية".

[54] صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح في رمضان.

[55] نفس الإحالة السابقة.

[56] ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في "تقريب التهذيب".

[57] في النسخة الصبيحية كُتبت "هو"، وهو خطأ نسخ.

[58] صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح.

[59] ذكره نور الدين بن أبي بكر الهيثمي في "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد"، كتاب المغازي والسير، باب غزوة الفتح.

[60] في النسختين الصبيحية والحسنية كُتبت "كثيبة" كلما ذكرت، وهو خطأ نقل.

أبو سفيان ذلك قال للعباس: -لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما-، فقال له: -ويحك إنه ليس بملك ولكنها النبوة-، قال: -نعم-"[61] الحديث. قال ابن حجر: "إنما الذي صح أنه ﷺ دخل من أعلى مكة وخالد بن الوليد من أسفلها"[62]، ثم قال بعد طول كلام: "وبما تقرر في القصة، عُلم أنه ﷺ أمر أصحابه أن يدخلوا من الحَجُون وهو كَداء بالفتح والمد، وكانت راية النبي ﷺ مع الزبير بن العوام، فبعثه ومعه المهاجرون وخيلهم، وأمره أن يدخل من أعلى مكة وأن يغرز الراية بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه، كذا ذكره موسى بن عقبة. وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار، في مقدمة رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم إلا أن يقاتَلوا. وبعث خالد بن الوليد في قبائل ليدخل من أسفل مكة ويغرز رايته عند البيوت، وألا يُقاتِل حتى يُقاتَل. ولما دخل خالد قُوتل، فقاتلهم حتى أدخلهم المسجد في باب الحَزْوَرة ثم كف. ولما قال له رسول الله ﷺ: -لما قاتلت وقد نهيتك؟-، قال: -كففت يدي ما استطعت-، فقال [ﷺ]: -قضاء الله خير-"[63]. وذكر أهل السير أن: "صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل [وسهيل بن عمر][64] اجتمعوا بالخندمة لقتال النبي ﷺ مع ناس من قريش فيهم حماس بن قيس وقد أعد سلاحا، فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أرى؟-، قال: -لمحمد وأصحابه-، قالت: -والله ما أراه يقوم لمحمد شيء-، قال: -والله إنى لأرجو أن أُخذِمكِ بَعضَهم. فلقيتهم خيل خالد بن الوليد فانهزموا، وفر حماس حتى دخل بيته وقال لامرأته: -أغلقي علي بابي- فقالت له: -أين ما كنت تقول؟- فأنشد:

إنك إن شهدت يوم الخندمة --- إذ فر صفوان وفر عِكرمة

[وأبو يزيد قائم كالموتمهْ] --- واستقبلتهم بالسيوف المسلمة

يقطعن كل ساعد وجُمجمهْ --- ضربـــا فلا يُسمع إلا غمغمهْ

---

[61] ذكره ابن هشام في "السيرة النبوية" والواقدي في "المغازي"، بالاختصار.

[62] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.460.

[63] نفس الإحالة السابقة.

[64] في النسختين الحسنية والصبيحية لم يُذكر، وهو سهو نقل، لأن الفعل الآتي بعده جاء بصيغة الجمع وليس المثنى، وقد صححت تبعا لما في المرجع الآتي الإحالة عليه.

لهم نهيتٌ خلفنا وهمهمهْ --- لم تنطقي باللوم أدنى كلمه"[65]

وفي صحيح البخاري:"وقُتل من خيل خالد بن الوليد يومئذ رجلان: جبيش بن الأشعر وكرز بن جابر الفهري"[66].

وفيه[67] أيضا إن رسول الله ﷺ دخل من أعلى مكة، ومن ثم قال [الناظم] أحجمت أي أمسكت وكفت عن القتال عند النقع المذكور الحَجُون بفتح فضم أي الخيل التي فيه، وكداء بضم أوله والمد لغة فيه فاعل أكدى، والإكداء: المنع بعد الإعطاء، يُقال أكدى الرجل إذا قل خيره، مأخوذ من الكُدية بالضم [وهي] الأرض الصلبة كالصخرة، تمنع حافر البير[68] من الحفر إذا وصل إليها.

والمعنى أن أهل الحجون لم يقاتِلوا شيئا، وأن أهل كُدى بالضم والقصر على الأشهر فيه وهو جبل بأسفل مكة، قاتلوا قليلا ثم أمسكوا.

---

[65] ابن هشام، السيرة النبوية، ج.4، ص.49 و50، بالاختصار. وقد أتممت البيت الثاني حيث لم يُكتب صدره في النسختين، وهو خطأ نقل.

[66] صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح.

[67] أي في صحيح الإمام البخاري، من تتمة الحديث السابق.

[68] أي البئر.

الفصل الرابع عشر: من البيت 272 إلى البيت 292

قال [الناظم]:

ودَهَـت أوْجُهـاً بهـا وبيوتـاً --- مَـلَّ منهـا الإكْفـاءُ والإقْواء

فـدَعَوْا أحلـمَ البَـرِيَّةِ والعَفْـ --- ـوُ جوابُ الحليمِ والإغْضاء

ناشَدُوهُ القُربى التي من قريشٍ --- قَطَّعَتها التِّراتُ والشَّحْناء

فَعَفــا عَفْوَ قـــادرٍ لَــم يُنَغِّصـ --- ـهُ عليهم بما مضى إغْراء

يعني أن الخيل التي دخلت مع النبي ﷺ مكة دهت، من الداهية، أي أهلكت أوجها من الناس بمكة قاتلت وكذا جماعة لم تقاتل، لكن كانوا يبالغون في إيذاية النبي ﷺ وإظهار هجوه، فأمر بقتلهم وهم ستة رجال وأربع نسوة، منهم عبد الله بن خَطَل[1] كان متعلقا بأستار الكعبة. وفاعل دهت ضمير يعود إلى الخيل وأوجها مفعوله، وضمير بها يعود إلى مكة وباؤه للظرفية. ودهت أيضا بيوتا لأهل مكة ملَّ منها، أي من البيوت، الإكفاء بكسر أوله أي الميل إلى درجاتها[2] مصدر أكفأ أي مال، وهو في الشعر تخالف حروف هجاء الروي وهو آخر القافية، مع تقارب بينهما في المخرج كالميم والباء. والإقواء بكسر أوله مصدر أقوى المنزل أي خلا وليس به أنيس، وهو في الشعر تخالف حركة الروي بالضم والكسر، وهما من عيوب القوافي.

ولما غَشِيَ أهل مكة ما [هالهم][3] من الخوف من سطوته ﷺ دَعَوْا أحلم البرية، يعني نبينا محمدا ﷺ أعظم الخلق حِلما، أي طلبوا منه يوم الفتح أن يعفوا عنهم وأن لا يعاقبهم بما مضى منهم من الإيذاء له الذي لا يتحمله غيره، فأجابهم إلى ذلك قائلا

---

[1] ابن هشام، السريرة النبوية، ج.4، ص.51.

[2] في النسخة الحسنية كُتبت "جُدُراتها"، وهو خطأ نسخ لأن "درجات" جمع دَرَج وهو ما يستعمل للوصول من طابق إلى آخر في المنازل، فهو مائل بطبيعته

[3] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "أهالهم".

لهم: "لا تثريب عليكم"، ومن ثم قال [الناظم] والعفو جواب الحليم والإغضاء أي إرخاء الجفون من الحياء. وبين الحِلم والإغضاء مراعاة النظير.

وناشدوه بدل اشتمال من دعوا، من قولهم : ناشدتك الله أي سألتك بالله فحذف الجار، والقربى الأرحام الواصلة إليه من سائر بطون قريش، حال كون تلك الأرحام قطعتها التِّرات بفوقيتين مكسورة أولاهما: جمع تِرة كعدة مصدر وَتَرَهُ فهو مَوْتور[4] أي قُتل له قتيل فلم يدرك دمه ولا ديته، والشحناء التباغض.

فبسبب مناشدتهم له عفا عنهم ﷺ عفو قادر على استئصالهم عن آخرهم، حال كون ذلك العفو لم يُنغصه عليهم بما مضى إغراء، من أغريت الكلب على الصيد أي حملته على اصطياده. وأشار [الناظم] بهذا إلى ما فعل رسول الله ﷺ في غد يوم الفتح حين "قام في الناس خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: -أيها الناس، إن الله حرمَ مكة يوم خلق السماوات والأرض، وهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يحل لامرئ يومن بالله واليوم [الآخِر] أن يسفك بها دما أو يعضد بها شجرا، فإن أحد ترخص فيها لقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أحلت لي ساعة من النهار (أي من الفجر إلى العصر) وقد عادت حُرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب-. ثم قال: -يامعشر قريس، ما ترون أني فاعل فيكم؟- قالوا: -خيرا، أخ كريم- قال: -إذهبوا فأنتم الطلقاء- أي من الأسر والاسترقاق. وفي رواية: -أقول لكم ما قال أخي يوسف لإخوته: --لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين--"[5]. وسر هذا، أن قطعه لأحد أو وصله له إنما كان لمجرد رضى الله [عز وجل]، لا لغرضِ هَوى نفسه.

ومن ثم قال [الناظم]:

وإذا القَطعُ كان للهِ والوَصلُ[6] --- تَساوَى التَّقريبُ والإقْصاء

---

[4] في النسخة الصبيحية كُتبت "مأتور"، وهو خطأ نسخ، صححته كما في النسخة الحسنية وفي "القاموس المحيط"، ص.1728.

[5] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.465.

[6] في "المنح المكية كُتبت "وإذا القطع والوصل كان لله".

وَسَـواءٌ عـليهِ فيمـا أتـاهُ --- مِن سِواهُ المَـلامُ والإطـْراء

يعني أن من تجرد لله فقطع نظره عن كل مخلوق وغاب في شهوده عن كل ما سواه، تساوى عنده القريب منه والإقصاء أي البعيد في القطع والوصل، فيقطع من في قطعه رضى الله [تعالى] من غير اعتبار بعده ولا قرابته، ويصل كذلك أيضا لتمحُّض[7] حق الله [عز وجل] عنده، وجميع المخلوقات عنده في ذات الله [تعالى] سواء، وهذا من القول الجامع البديع وفي هذا المعنى قال أهل الإشارات:

بين التَّـذَلُـلِ والتَّـدَلُـلِ نُقطةٌ --- فيــها يتيــه العالمُ النَّحْريـرُ

هي نُقطةُ الأكْوانِ إن جاوَزتها --- كُنتَ الحَكيمَ وعِلمكَ الإكسير[8]

استعار نقطة الذال في التذلل للإكوان وهي ما سوى الله [تعالى]، فمن تذلل لها فهي حسبه، وفي تَعَلُّقِهِ بها دونَهُ تيه أي ضلال عن طريق القُرب، ومن جاوز تلك النقطة بقطع النظر عنها إلى مكونها، فترقى بالتيه عليها صار في مقام الدلال، وبين المقامين ما بين الثرى والثريا. وأعلى المقامات مقام الأنبياء عليهم السلام، وقلوبهم مع الله دائما، ومن ثم تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم بالإعراض عن كل ما سواه، لاسيما مَن هو سيد الخلق على الإطلاق، ومن أجل ذلك كان كل ما يصل إليه ﷺ من غيره من خير أو شر سواء.

والملام هو العتاب: مبتدأ، والإطراء بكسر أوله معطوف عليه وهو المبالغة في المدح بما يجاوِز الحد، سواء أي مستويان: خبر. ومن سواه متعلق بأتاه صلة ما، وهي وصلتها حال من الملام والإطراء. وفي القاموس: "سواء تطلب اثنين، تقول: سواء زيد وعمرو، أي ذوا استواء"[9].

ثم استدل [الناظم] على أن الوصل والقطع لله [تعالى] بقوله:

وَلَو أن انتقامه لِهَوى النَّفـ --- ـسِ لَدامتْ قطيعةٌ وجَفاء

---

[7] أي لإخلاص.
[8] من شعر الشيخ محيي الدين بن عربي.
[9] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.826.

قامَ للهِ في الأُمورِ فَأرضى اللهَ --- مِنهُ تَبايُنٌ وَوَفــــاء

يعني أن المعتبر عنده ﷺ في جميع أحواله إنما هو رضى الله فقط، مجرد عن كل شائبة الْتفات إلى غيره، ولو كان لغرض لكان ينتقم لهوى نفسه أي يعاقبهم بما فعلوا من الإذاية، ليرضيها اتباعا لهواها. ولو كان كذلك لما عفى عنهم بل تدوم قطيعته وجفاؤه أي إبعاده، لكن انتقامه لا لهوى نفسه والجفاء ليس بدائم، بل المعتبر في جميع أفعاله وأحواله رِضى الله [تعالى] فقط لا غيره.

ومن ثم قال [الناظم] قام لله أي لِما فيه رضاه، في الأمور أي في جميع أموره كلها، والـ فيه خلف عن الضمير أي الظاهرة والباطنة، فلا يلاحِظ في حركاته وسكناته إلا الله [عز وجل] ولا يفعل فعلا لغيره، ولذلك أتى [الناظم] بلازم هذا الحكم في قوله فأرضى الله تعالى. ومجرور من[10] يعود إلى النبي ﷺ وهو وجارُّه حال من تباين فاعل أرضى، أي تباعُدٌ من أعداء الله [عز وجل] ووفاءٌ لأولياء الله [تعالى] من غير اعتبار شيء سوى رضا الله [عز وجل]، ولذلك قال الأئمة: أفعال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلها دائرة بين الواجب والمستحب، ولا يتصور شيء من المباح في أفعالهم، لأن كل مباح لا يقصدون به إلا التقرب إلى الله [تعالى]، فترقوا عن سائر المباحات.

ومن ثم قال [الناظم]:

فِعلهُ كُلُّهُ جميـــلٌ وهل يَنْـ --- ـضَحُ إلا بما حَواهُ الإناء

أطرَبَ السامعينَ ذِكرُ عُلاهُ --- يا لَراحٍ مالَت به النُّدَماء

النَّبيُ الأُمِّيُّ أَعلمُ مَن أسـ --- ـنَدَ عَنهُ الرُّواةُ والحُكَماء

المراد بالفعل الحدث لِحُسنِ كل ما يصدرعنه من قول وفعل، لأنه لا يقع جميع ذلك منه إلا على أقوم قوانين الإمتثال وأرجح موازين الكمال، وكيف لا وخُلُقه القرآن

[10] في النسخة الحسنية كُتب "في"، وهو خطأ نسخ لأن لا وجود لها في البيت.

كما سبق في الحديث الصحيح[11]، وشهد له بقوله تعالى "وإنك لعلى خلق عظيم"[12]، وشهد له تعالى بالرسالة والتبليغ في غير آية من القرآن، منها "فتول عنهم فما أنت بملوم"[13] الآية. وهل ينضح من نضح المكان أي رشه، وضمير حواه يعود إلى ما، والاستفهام بمعنى النفي[14]، أي لا ينضح ظاهر الإناء إلا بما اشتمل عليه باطنه من حَسَنٍ أو قَبيح.

والطرب هنا[15] الفرح، والمعنى: تَذكُّر معاليه ﷺ، أي ما أكرم[16] الله [تعالى] به من المحاسن الباهرة والمكارم الباطنة والظاهرة، أفرحَ السامعين لها وأَسرهم إذا تُلِيَ عليهم، وأنشطَهم إلى محبته وشوَّقهم إلى رؤيته واتباع دينه، لما يجدون عند ذلك من نفحات تفوق نفحات الخمر.، ومن ثم قال يا لَراح[17] بفتح اللام على طريق الاستغاثة أي مستغاثا به، سُميت بذلك لأن شاربها يستريح من التفكر في العواقب والمكروهات ما دام سُكره. ومالت أي تواجدت وتمايجت، وبه يتعلق المجرور بعده والباء للسبب، والندماء جمع نديم وهم المجتمعون على شرب الخمر، سُموا بذلك لأنهم يتنادمون أي يتخاطبون عليها بالشعر الممدوحة به. وذكر الضمير [في عُلاه] وإن كانت الخمر مؤنثة، باعتبار ما استعير له وهو ذكر علاه، وفيه يهيم من يهيم، ولله دَرّ القائل[18]:

لو كان لي سكنٌ بالراح يسعدني --- لما انتظرت لشرب الراح إفطــارا

الراح شيء عجيب أنـت شاربـه --- فـــاشرب ولو حمَّلتك الراح أوزارا

---

[11] رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أمنا عائشة رضي الله عنها، وقد سبق ذكره.

[12] سورة القلم، الآية 4.

[13] سورة الذاريات، الآية 54.

[14] بل الاستفهام هنا بمعنى التقرير.

[15] في أطرب السامعين.

[16] ربما وجب كتابتها "ما أكرمَهُ" والضمير يعود إلى النبي ﷺ.

[17] الرّاح أي الخمرة.

[18] من شعر أبي نواس. وغريب أن يقول سيدي يحيى عن هذا الشعر "لله در القائل"، ولربما قصد سيدي يحيى الشاعر وليس الشعر، فمعلوم أن أبا نواس تاب لله على ما سبق من خبيث فعله فزهد الدنيا، فيشرع أن يُذكر بخير، والله أعلم.

يا مَن يلومُ على صهباء صافية --- خُذ الجنانَ ودعني أسكن النَّارَا

والأُمِيُّ "نسبة إلى الأم، وهو من لا يكتب ولا يقرأ المكتوب كأنه باق على أصل ولادة أمه أومثلَها، إذ الغالب في النساء عدم الكتابة"[19]. [ونُعث ﷺ بذلك] لحكمة بالغة أشار لها الباري في قوله تعالى "إذاً لارتاب المُبطلون"[20]، وهذا أقوى دليل على نُبوته وصدقه ﷺ، لكونه يعلم علم الأولين والآخرين وهو لا يكتب ولا يقرأ مكتوبا، وهو معنى قوله [أي الناظم] في البُردة:

كَفاك بالعلم في الأمِّيّ مُعجزةً --- في الجاهلية والتَّأديبُ في اليُتمِ

وجعله الله تعالى قُدوة عُظمى لكل مخلوق في كل عِلم وحِلم وسائر أوصاف الكمال، وفيه اقتباس من قوله تعالى "النبي الأمي الذي يجدونه"[21] الآية، فهو ﷺ أعلم من كل مخلوق، "أسند أي روى عنه الرواة أي العلماء والحكماء أي الذين يضعون كل شيء في محله، فهو من عطف الخاص على العام"[22].

ثم لما ذكر [الناظم] جُملة من كمالاته التي لا تحصى، ومحاسنه التي لا تُعدُّ ولا تُستقصى، عقّب ذلك بذكر نبوته ليتخلَّص بلطافة إلى ذكر زيارة مولده وبعثته ودار هجرته، فقال:

وَعَدَتْنِي ازديارَهُ العامَ وَجْنا --- ءُ ومَنَّت بوعدها الوَجْنــاء

أَفَلا أنطوي لها في اقْتِضائِيـ --- ـهِ لِتُطوى ما بيننا الأَفْـلاء

بِأَلُوفِ البَطحاءِ يُجْفِلُها النِّيـ --- ـلُ وقد شَفَّ جَوفَها الإظماء

أنكَرت مِصرَ فهْيَ تَنفِرُ ما لا --- حَ بِناءٌ لِعينِهــا و[23] خَلاء

---

[19] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.469. ولعل مصطلح "أمي" لم يعد يوافق المعنى الثاني آنيا.

[20] سورة العنكبوت، الآية 48: "وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخُطُّه بيمينك إذا لارتاب المبطلون".

[21] سورة الأعراف، الآية 157.

[22] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.469، نقله ولم يشر إليه.

[23] في "المنح المكية" المطبوع كُتب "أو".

أشار [الناظم] بهذا إلى مِنَّة الله [تعالى] عليه بتَهييئه لزيارة المصطفى ﷺ وتيسير أسبابها عليه بالزاد والراحلة ويندرج فيه الحج، حتى كأن هذه الوجناء[24] تطوَّعت له بأن تحمله على ظهرها حتى توصله إلى الحرم الشريف بلا مشقة، فَوَعَدته وعد وَفاء بالزيارة في عامه. والوعد يُستعمل في الخير والشر، قال في القاموس: "وعده الأمر وبه يَعِدُ عِدَّةً ووَعداً ومَوْعِداً، خيرا أو شرا، فإذا أُسقِطا قيل في الخير: -وَعَدَ-، وفي الشر: -أوعد-"[25]، وقد جُمعا في قول الشاعر[26]:

وإني وإنْ أوعَدتهُ أو وَعَدتهُ --- لمُخلفُ إيعادي ومُنجزٌ مَوعدي

وازديار مصدر مضاف إلى المفعول العائد إلى النبي ﷺ أبدِلت فيه تاء الافتعال دالاً، وهو العامل في العام أي في هذا العام. وجناء فاعل وعدتني نعت لمحذوف "أي ناقة قوية من الوجين[27]، وهي الأرض الصلبة"[28] قاله ابن حجر، وفي القاموس: "الوجين: شطء الوادي، والعارض من الأرض ينقاد ويرتفع قليلا، ومنه الوجناء للناقة الشديدة"[29]. ومنت أي أنعمت وتفضلت عليَّ بوعدها أي بموعودها الوجناء المذكورة، الـ فيه للعهد. كنى بهذا عن نيته الزيارة في تلك السنة، وإعداده المركوب لها.

والاستفهام في قوله أفلا لإنكار النفي، والمعنى: أيسُوغ لي أن لا أنطوي، أي أضُمَّ نفسي لها أي للزيارة أو للوجناء، التي منت عليه في اقتضائيه أي لأجل طلبي ذلك منها، من قولهم "اقتضى فلان دينه" أي طلب أداءه. وقوله لتطوى قال ابن حجر: "بالبناء للفاعل أوْلى لِيَلا يلزَم عليه زيادة ما بخلاف بنائه للمفعول"[30]، قُلتُ: وعليه فيكون الأفلاء فاعلا، وإنما يصح هذا إذا كان الإفلاء بكسر الهمزة مصدرا بمعنى السير، وإلا تسير الأفلاء طاوية وفي الحقيقة أنها مطوية لا طاوية، بل الصواب

---

[24] الناقة القوية.

[25] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1764.

[26] عامر بن الطفيل، من شعراء الجاهلية.

[27] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "الوجن"، وهو مكان صلب ذو حجارة.

[28] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.470.

[29] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1734.

[30] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.471، بالاختصار.

بناؤه للمفعول مع فتح همزته، ولا ضرر في زيادة ما لكثرة زيادتها نظماً ونثراً، والأفلاء نائب فاعل تطوى، قال في القاموس: "والفلاة: القَفْر والمَفازَة لا ماء فيها والصحراء الواسعة، الجمع: فلا وفلوات، وجمعهما أفلاء"[31].

وألوف بفتح الهمزة: صِفة للمبالغة من أَلِفَ كعَلِمَ، متعلق بتطوى نعت لمحذوف أي ناقة، وأقام [الناظم] الظاهر مقام المضمَر لإفادة زيادة المدح بهذا الوصف، و"البَطْحاء والأَبْطَح[32]: مسيل متسع فيه دُقاق[33] الحصى"[34] كما في القاموس. قال ابن حجر: "وحَمْلُه على الأفلاء السابق ذكره أوْلى لأنها لا تخلو غالبا عن ذلك، ولما في ألفها له من القوة وشدة السير والصبر على الظمأ، وليناسب قوله فهي تنفر، فهو يقتضي أنها متوحشة لا تألف إلا البوادي، والقول بحمله على بطحاء مكة ينافي ذلك"[35]. ويُجفلها بضم أوله، قال في القاموس: "جَفَلَ الظليم جفولا: أسرع وذهَبَ في الأرض، وأَجْفَلْتُه أنا"[36]. والنِيل بكسر أوله، فاعل يُجفل أي يُزعجها ويُقلقها [أي الناقة]، فهي تفِرُّ من نيل مصر وأرضها لميلها إلى البطاح المألوفة لها، والحال أنه قد شف أي شرب رطوبة جوفها وأنحلها الإظماء أي شدة العطش. فهي مرتكبة لهذه الحالة المؤدية إلى تلفها في جنب ما ألِفَته[37].

---

[31] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1266، بالاختصار.

[32] في النسخة الصبيحية كُتبت "الأبطَل"، وهو خطأ نسخ صححته تبعا لما في النسخة الحسنية وما جاء في المرجع المحال عليه.

[33] في النسخة الصبيحية كُتبت "دخان"، وهو خطأ نسخ صححته تبعا لما في النسخة الحسنية وما جاء في المرجع المحال عليه.

[34] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.138.

[35] لا يوجد هذا القول في "المنح المكية" المطبوع ولكنه مقبول بالمعنى، لأن الشيخ الهيتمي قدم تفسيرين للبطحاء، فقال إنها في المعهود مكة أو مسيل متسع فيه دقاق الحصى. وهكذا يكون نقل سيدي يحيى عن الشيخ الهيتمي ترجيحا للقول الثاني.

[36] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.279.

[37] خلافا لقول المفسرَين الشيخين الهيتمي والشبيهي، وفي رأيي المتواضع والله أعلم، الأرجح المؤكد في البطحاء: مكة المكرمة، ولربما أن هذه الناقة القوية التي اشتراها الناظم بغرض الحج، سبق وأن حملت حجاجا آخرين إلى البقاع المقدسة، ويتداولها الحجاج بالشراء ثم البيع بعد الرجوع من المناسك، والناظم يعلم هذا، فقال عنها أنها ألفت نقل الحجاج إلى بطحاء مكة المشرفة والمدينة المنورة ثم الرجوع بهم إلى مصر، فهي تنفر أرض مصر برغم نيلها وماءه العذب، وتَحِنُّ وترجو دائما حمل حجاج آخرين حتى ترجع إلى البقاع المقدسة. وهذا قصد الناظم في قوله "وعدتني" و "أَفَلا أنطوي لها" و "بأَلُوفِ البَطحاءِ يُجْفِلُها النِّيلُ".

ومن ثم قال [الناظم] أنكرت مصر يعني وغيرها من الأمصار والقرى، بقرينة قوله فهي تنفر بضم الفَاء وكسرها، من "نَفرت الدابة: جرت وتباعدت"[38] كما في القاموس. وما ظرفية مصدرية، ولاح أي ظَهَر و بناء فاعله من جميع الأبنية، وضمير عينها يعود إلى الناقة، وخَلاء بفتح أوله: مقصور الحشيش، ومده للضروروة، الواحدُ خلاة، أنكرته لكونها ألفت رعيه في الفلوات غير محشوش، أو الخلا فضاء ما بين أبنية مصر، بمعنى أنها أنكرت ما في ناحية مصر من بناء وغيره، وهو الأظهر، وعليه فهو كناية عن اشتياقها إلى التمتع بما في حضرة مكة الساطعة الأنوار، السَّنية المقدار، من خفايا التحف والأسرار، واغتنام مزايا الإنعام وإدراك الأوطار. [قال الشاعر][39]:

مرَّت بنا أعوام وصلٍ بالحمى --- فكأنها من طيبها أيام

ثم انثنت أيام هجرٍ بعدهــا --- فكأنها من طولها أعوام

ثم انقضت تلك السُّنونَ وأهلها --- فكأنها وكأنهم أحلام

ثم شرع الناظم في ذكر تِعداد منازل الحاج في أرض الحجاز، التي أولُها البِركة[40] إلى آخرها وهي [مسجد][41] عائشة، فقال:

فأَفَضَّت على مَبارِكهـا بِرْ --- كَتُهـــا فالبُوَيْبُ فالخضراء

فالقِبابُ التي تَليها فبِيرُ النَّـ --- خْلِ والرَّكبُ قائلونَ رِواء

وغَدَت أَيْلَـــةٌ وحِقلٌ وقَرٌّ --- خَلفَها فالمَغارةُ الفَيحـــاء

فَعُيونُ الأَقْصابِ يَتبَعُها النَّبْـ --- كُ وَتَتْلو كُفافَةُ العَوْجـاء

---

[38] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1634.

[39] أبو تمّام حبيب الطائي.

[40] تسمى "بركة الحج" أو "بركة الحجاج"، وتقع شمال القاهرة. كان الحجاج القادمون من الأندلس ومن المغرب الأقصى، يجتمعون فيها بحجاج مصر، فتنطلق القوافل منها اتباعا نحو البقاع المقدسة.

[41] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "مساجد" بالجمع، ولم أقف حاليا في الحجاز إلا على "مسجد عائشة" رضي الله عنها، ويقع بمكة المكرمة.

يعني أن تلك الناقة لم تزل تنفر من بناء مصر حتى أفضَّت، بتشديد الضاد من الفَضِيض "وهو الماء العذب أو السائل"[42] كما في القاموس، وفيه أيضا "وافتض الماء: أساله شيئا بعد شيء"[43]. ومَبارك: جمع مَبْرَك وهو محل بُروك الناقة، وضمير بِرْكتها بإسكان الراء يعود إلى مصر، وهو الموضع المعلوم لأول منازل الحاج، "عُرفت بذلك لأنه يأتي إليها ماء النيل فيمكث فيها زمنا طويلا، يجتمع فيها الحجاج للتأهب لسفرهم، ولذلك كانت مجتمعا عظيما يُجلب إليه كل ما يحتاج إليه الحاج"[44]. و[أفضّت] أي أسالت "البركة على مبارك تلك الناقة، من الماء العذب ما أرواها وَراكِبها ومن معه"[45]. وقيل أفضت من الفضاء، أي اتسعت على مبارك الناقة، بِركة مصر لمزيد اتساعها. ويَرُدهُ قياس التصريف بالصناعة النحوية إذ الفضاء من فضا المعتل[46] اللام لا من أفض المضعف[47]، ومادتهما مختلفة، وليس في القاموس ولا في الصحاح ولا فيما طالعناه من كتب اللغة ما يقتضي في مادة أفض معنى الاستساع إلا قولهم "ذرع فضفاضة" أي واسعة، وجارية فضفاضة لحيمة جسيمة، والفضفضة سعة الثوب والدرع والعيش، وليست مادتهما من أفض بل من فَضْفَضَ كدَحْرَجَ، وإنما ذكروهما مع الفض لاشتراكهما في الأصول. ولا يقال: لا يصح عطف ما بعد البركة عليها لقلة الماء فيهن، إذ المراد بتعداد المنازل من حيث أنها معدة للنزول لا من حيث الاشتراك في استواءها في الماء، بقرينة قوله الآتي "هذه عِدَّة المنازل"[48] أي المعتَادة للنزول. فبعد البركة البويب المشهور بالخضراء، "وهي قريبة من المحل المسمى بعجرود وفيها بئر ماؤُه مُرٌ مُسْهِلٌ"[49].

---

42 الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1252.

43 نفس الإحالة السابقة.

44 ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.473، بالتصرف.

45 نفس الإحالة السابقة.

46 أي الفعل المعتل الذي لامه ياء أو واو أو ألف، مخالف للفعل الصحيح.

47 الفعل الثلاثي المضعف هو الذي يخلو من حروف العلة: الألف والواو والياء.

48 يأتي في أحد الأبيات الموالية.

49 ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.474.

فالقِباب أي "وادي القباب، فيه زمر الرمل المُشَبه بالقباب [البيض] الحسية"[50]. وضمير تليها المنصوب يعود إلى الخضراء وما عطفت عليه، فَبِيرُ[51] النخل "وهي بركة تملأ من بيت المال وماؤها أحسن مما قبله بكثير"[52]، ومن ثم قال والركب قائلون أي مستريحون وقت القيلولة، حال كونهم رواء بكسر أوله من الماء: جمع ريان[53].

وغدت أيْلة: أعقبت بير النخل غدوة غد، وبعدها "حِقل تسميه العامة -مدور حقن- قريب منها، وبعدها قَرِ وليس هو وما قبله اليوم مشهورا"[54]. وضمير خلفها يعود إلى حقل أو "إلى الناقة لكونها جاوزتها، فالمغارة المنسوبة لشُعَيْب نبي الله عليه الصلاة والسلام"[55]. والفيحاء: الواسعة، نعث للمغارة.

وبعدها عيون الأقصاب: "سميت به لكثرة الأقصاب الفارسي في مائها، يتبعها النبك مواليا لها وليس اليوم بمشهور"[56] بل المعروف الأن المويلح[57]. وكفافة فاعل[58] تتلو، ومفعوله ضمير محذوف يعود إلى النبك، والعوجاء نعت لكفافة أي المنحرفة إلى اليسار، "وبها قبر ولي يسمى مرزوقا مشهور البركة"[59]، قال ابن حجر: "وله ذرية كثيرون مشهورون بالصلاح، وللحجاج فيه اعتقاد وتعظيم خارج عن الحد"[60].

ثم قال [الناظم]:

---

[50] نفس الإحالة السابقة.
[51] كتبها كما جاءت في القرآن الكريم برواية ورش عن نافع، حيث كُتبت الهمزة ياء في "الذيب" و"البير" و"بيس" وغيرهم.
[52] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.474.
[53] وهو المرتوي بعد عطش.
[54] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.474، بالتصرف.
[55] نفس الإحالة السابقة.
[56] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.475.
[57] لا توجد هذه المعلومة في "المنح المكية" المطبوع، ولكن الراجح أن سيدي يحيى أخذها كذلك من الشيخ الهيتمي، فأستخلص من هذا أن النسخة التي حازها من "المنح المكية" مخالفة للنسخة التي اعتمدها المحقق، كما سبق وأشرت لذلك.
[58] خالف هنا سيدي يحيى الشيخ ابن حجر، الذي اعتبر كفافة مفعول تتلو والعوجاء فاعله. وقد أكد محقق "المنح المكية" أن ليس هناك محل يُعرف بالعوجاء، وهذا يرجح قول سيدي يحيى.
[59] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.475.
[60] نفس الإحالة السابقة.

حاوَرَتها الحَوْراءُ شَوْقاً فيَنبو --- عُ فَرَقَّ اليَنبوعُ والحَوْراء

لاحَ بالدَّهْنَوَيْنِ بَدرٌ لـــها بَعْـ --- ـدَ حُنَيْنٍ وحَنَّتِ الصَّفْــراء

مفعول حاورت يعود إلى الناقة والحوراء فاعله، وشوقا مفعول من أجله، وينبوع معطوف، أي كَلَّماها بلسان حالهما لاشتياقهما إليها[61] بأمسكاها عندهما تأكل وتستريح فيهما. ورقَّ: من الرقة أي الرحمة، والينبوع فاعله والحوراء المذكورين لما حدَّثتهما أن مقصدها الحَرمانِ الشريفان. وبين كُفافة والحوراء مراحل، وبين الحوراء وينبوع مراحل، أسقطها الناظم فلم يستوعبها لما سمح له النظم، كما أنه لم يُسم جميعها بإسمائها المعروفة لها اليوم لاختلافها باختلاف الأزمنة. وبين حاورتها والحوراء جناس الاشتقاق أو شِبهُه.

ولاح أي ظهر بالدهنوين أي فيهما، والمعروف الدهناء بالإفراد وهو محل قُبيل بَدر[62]، وتثنيتهما إما لكونه غلب في اسمِها كما غلب في السبعان[63]، أو أن هنالك محل آخر يسمى به أيضا. وبدر فاعل لاح أي ظهر للناقة، وهو قرية عامرة بها عين كبيرة ونخيل كثيرة، وبها كانت الوقعة المشهورة التي أعز الله [تعالى] بها الإسلام وأباد الأصنام. "وبعد حُنيْن: يقال أنه جبل صغير قريب من بدر بعدها، ولذلك ورد في نسخة قبل حنين. ولم يذكر في القاموس سوى حنين المذكور في الآية الذي هو عينٌ بين مكة والطائف، ونصه: "وحُنَيْن كزُبير: موضع بين الطائف ومكة"[64]، وكيف يكون حنين آخر قُرب بدر ولم يذكره[65] وهو الجامع المستوعب لشعب اللغة؟، قال ابن حجر: "فالظاهر أن الناظم اعتمد في هذا على ما هو مشهور

---

[61] وبهذا يؤكد الناظم قولي وتفسيري السابقين، من أن تلك الناقة عادتها نقل الحجاج إلى البقاع المقدسة، فالاشتياق لا يكون إلا عن سابق معرفة.

[62] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.475.

[63] إحدى قرى قبيلة بني تميم، تقع بمنطقة حائل بالمملكة العربية السعودية.

[64] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.417.

[65] يعني العالم اللغوي الفيروز آبادي.

في أَلْسِنَة العامة"[66]. قُلتُ: وعلى صحة ثبوته فلَعلَّه حديثَ التسمية، وعليه فنُسخة قبل أوْلى على نسخة بعد، فالأولى بناؤه على الضم على أنه خبر حُنين.[67]

"وحَنَّت أيضا لتلك الناقة لما هي فيه الصفراء: قرية معروفة منحرفة عن طريق أهل مصر، لا يمرون عليها إلا عند ذهابهم إلى زيارة طيبة، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام"[68].

---

[66] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.476.

[67] يضع الشيخان إشكالية ذكر الناظم موقع حُنين في غير مكانه الجغرافي، ويحاولان تبريره باحتمال استعمال الناظم في القصيدة "قبل" مكان "بعد". وفي رأيي المتواضع يمكن رفع الإشكالية عامة في شَكْلِ "حنين"، ولربما كان هذا هو قصد الناظم حقيقة، فيكون البيت هكذا:

لاحَ بالدَّهْنَوَيْنِ بَدرٌ لـــها بَعْ --- دَ حَنِينٍ وحَنَّتِ الصَّفْــراء

فيكون المعنى: أن الناقة لاح لها بَدرٌ، وهو المكان الذي نصر الله تعالى فيه نبيه ﷺ، في أول مواجهة مع كفار قريش، ولعله أول مكان في طريق الحج عرف مشي قدميه الشريفتين بعد البعثة، ومكوثه ﷺ فيه وفرحته بنصر ربه عز وجل، وفيه قبور شهداء الغزوة، فيكون هذا المكان ليس فقط مرحلة من بين مراحل الطريق نحو البقاع المقدسة، بل له شرف خاص بما شرفه الله به. وهكذا يكون قصد الناظم حَنِينُ الناقة لبَدرٍ لذاته، واشتياقها للوصول إليه هُوَ بالنظر إلى ما عَرفه وتَشَرَّفَ به. وبينما يفسر الشيخان الصفراء بقرية شرق المدينة المنورة ليست في طريق الحج، أقول: ربما أراد الناظم بالصفراء: الناقة، فالعرب تسمي الإبل ذات اللون الأسود المشوب بالحمرة: الصفراء. وهكذا يكتمل المعنى حيت أن الناقة وصلت بدرا بعد حنين له، ثم حنت الناقة إلى ما بعده وهي المدينة المنورة ومكة المكرمة. قلت هذا والله أعلى وأعلم.

[68] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.476، بالتصرف.

الفصل الخامس عشر: من البيت 293 إلى البيت 312

قال [الناظم]:

ونَضَت بَزْوَةٌ فَرابَغُ فالـــجُحْـ --- فَةُ عنها ما حاكَهُ الإنْضاء

وأَرَتهـــا الـخَلاصَ بِيرُ عَلِيّ --- فَعُقابُ السُّوَيْقِ فَالخَلَصاء

فَهْيَ من ماءِ بيرِ عُسْفانَ أو مِن --- بَطْنِ مَرٍّ ظَمْآنَةٌ خَمْصاء

قَرَّبَ الزَّاهِرَ المَساجِدُ[1] منهــا --- بِخُطاها فالبُطْءُ مِنْها وَحاء

بزوة فاعل نضت بنون وضاد مفتوحتين أي خَلَعَت، وفي القاموس: "نضاه من ثوبه: جرده"[2]، قال ابن حجر: "وإسناد ذلك إليه وإلى ما بعده مجازي"[3]. وضمير عنها يعود إلى الناقة، فرَابَغ بفتح الموحدة، فالجُحْفة بضم الجيم وسكون الحاء وهو محل بعيد من رابغ وكانت لليهود، فدعى اللهَ النبيُّ[4] ﷺ "أن يَنقُلَ حُمّى المدينة إليها، فكان لا يمر بها أحد حتى الطائر إلا حُمَّ"[5]. وهي ميقات لأهل مصر، وكان جحفها السيل فسُميت بذلك. وما مفعول نضت وحاكه أي نسجه صلتها، والإنضاء بكسر الهمزة فاعله أي الهزال.

والمعنى أن بزوة وما بعدها لقربها من مكة أزالت الثوب الذي نسجه الإنضاء عن الناقة لأنها استبشرت بقطع تلك المهامة. قال ابن حجر: "شبه الهزال بناسج الثوب، وشبه أثر الهزال بالثوب ووشح له بذكر الخلع، من حيث [أن] الهزال يوجب للبدن من التعب ما يعمه ويستر قوّته كما يستر الثوب البدن. ثم خيل له، بإثبات ما هو من

---

[1] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "الزاهرُ المساجدَ".

[2] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1620.

[3] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.477.

[4] في النسخة الصبيحية كُتبت: "فَدَعى اللهُ النبيَّ"، وهو قول لا يليق وشُكل باجتهاد غير موفق من الناسخ ، بينما شُكل في النسخة الحسنية كما أوردته.

[5] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.477.

لوازم المشبه به، وهو الحياكة لحائك الثوب ورشح له بذكر الخلع، فهي استعارة بالكناية تتبعها استعارة تخلية وترشيحية"[6].

وبير علي فاعل أرتها والضمير مفعوله الأول يعود إلى الناقة، والخَلاص بفتح أوله أي من التعب مفعوله الثاني، لقُربها من انتهاء سيرها وفوزها بمطلوبها. وعقاب السويق هي عقبة[7] السويق، فالخَلْصاء بفتح فسكون "وهو المحل المشهور اليوم بخليص، فيه عين واسعة وبركة كبيرة"[8].

فهْيَ، أي تلك الناقة، مبتدأ وظمآنة أي عطشانة وخَمْصاء بفتح فسكون أي فارغ بطنها جوعا، خبران عنه يتنازعان في المجرورين بمن. وهْيَ لابتداء الغاية، وعُسْفان بضم فسكون، وأو للشك. وبطن مر هو ماء وادي فاطمة، وسبب ذلك أن "عادة الحجيج إذا وصلوا لنحو عُسفان اشتد شوقهم، فاشتغلوا عن سقي دوابهم وإطعامها إلى أن يدخلوا مكة"[9].

والزاهر المشهور قُبيل ذي طُوى وبعد التنعيم المسمى بمساجد عائشة، مفعول قرَّبَ بتشديد الراء والمساجدُ فاعله، وإسناد التقريب إلى المساجد مجاز.

والمعنى أن وصول الناقة إلى المساجد صيّر الزَّاهِر قريبا منها، "لقرب المسافة بينهما بنحو ميلين"[10]، و بخطاها متعلق بقَرَّب وباؤه للسبب، والضمير يعود إلى الناقة أي بسبب سرعة سيرها، فالبطء أي المهلة الحاصلة من الناقة قبل ذلك مبتدأ، ووَحاء بمهملة قبلها واو مفتوحة أي سرعة خبره.

والمعنى "أنها لما أحست بالوصول انقلب بطؤها سرعة"[11] شديدة.

ثم قال [الناظم]:

---

[6] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.477.
[7] أي طريق صاعد.
[8] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.477.
[9] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.478.
[10] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.478.
[11] نفس الإحالة السابقة.

هذهِ عِدَّةُ المنازلِ لا ما --- عُدَّ فيهِ السِّمَاكُ والعَوَّاء

الإشارة إلى الأسماء المذكورة، وعِدَّة مصدر عَدَّ مضاف إلى المفعول على حذف مضاف، أي جُلُّ المنازل أو غالبها لا الجميع لكونه لم يستوعبها. والمراد بها الحجازية فيما بين مصر ومكة، التي يتضح بها سلوك الوافد، ويتوصل منها إلى تلك المعاهد. ومن ثم أخرج ما اشترك معها في اللفظ بقوله لا ما، أي لا المنازل القمرية الثمانية والعشرون التي في قوله تعالى "والقمر قدرناه منازل"[12]، ومنها أحد السَّماكَيْن[13] وهو السّماك الأعزل، وأما السماك الرامح فليس منها، والعواء: التي قبل السماك الأعزل، وهي خمسة أنجم"[14].

ثم لما فرغ [الناظم] من سردها، شرع في ذكر المحل المقصود ليتخلص بلطافة إلى مدحه، فقال:

فــكأنِّي بهــا أُرَحِّــلُ مِـنْ مَكَّ --- ـةَ شَمسـاً سَماؤُهـا البَيْداء

مَوْضَعُ البَيْتِ مَهْبِطُ الوحيِ مَأْوَى الرُّ --- سْلِ حيثُ الأَنوارُ حَيثُ البَهاء

حَـيثُ فَرْضُ الطَّوافِ والسَّعيُ والحَلْ --- قُ ورَمْيُ الجِمارِ والإهْداء[15]

بها متعلق بأرحل وضميره يعود إلى الناقة أي عليها أو بسبب ترحيلها، ومن لابتداء الغاية أي من مكة إلى عرفة للوقوف بها، ثم إلى مُزدلفة. وشمسا مفعول أرحل، أطلق الشمس على نفسه لرفعة ما هو فيه أو على الناقة لسرعتها في سيرها وارتفاعها، فهي تجري في سمائها وهي البيداء أي المفازة الواسعة كجري الشمس في منازلها. وعليه، فالباء من بها للظرفية، والضمير يعود إلى المنازل التي بعد مكة.

---

[12] سورة يس، الآية 39.

[13] نجمان نيران، أحدهما في الشمال ويسمى السماك الرامح، والثاني في الجنوب وهو السماك الأعزل.

[14] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص. 478. قفز ناسخ النسخة الصبيحية على بعض الكلمات، واللفظ للنسخة الحسنية.

[15] في النسختين الصبيحية والحسنية سُبقَ الحلق على السعي، وفضلت كتابة البيت كما جاء في "المنح المكة" المطبوع، وكذلك كما رُتب في الشرح الآتي بعده، لأن الحلق يأتي فعلا بعد السعي في الصفا والمروة.

وموضع البيتِ بالجر بدل بعض من كل، وبالرفع خبر مبتدأ محذوف. وعليه "فمعنى كونها موضعه أنه في بعضها، وهو اقتباس من قوله تعالى -إن أول بيت وضع للناس-[16]"[17]. ومهبط بدل من مكة بعد بدل أي محل نزوله [أي الوحي] على النبي ﷺ ثلاث عشر سنة، وتقدَّم معنى الوحي. ومأوى من أوى المنزل أي حل فيه، وتقدم معنى الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، وحيث ظرف مكان حال من مكة أو بدل منه، والأنوار مبتدأ جمع نُور بضم أوله حُذف خبره، ونعته أي الأنوار الإلهية موجودة أو نحوه. وجَمَع الرسل "لأنه ما من واحد منهم إلا وقد أوى إليها لحج البيت كما جاء في حديث، واستثناء صالح وهود لاشتغالهما بأمر قومهما لم يصح"[18]، قاله ابن حجر. وحيث البهاء أي الحُسْن عليها وعلى من فيها، أي الحسن المعنوي المكنى به عن حصول ملائم النفس من الحِكم والمعارف المُفاضة على أهل تلك الحضرة الإلهية والمعاهد الربانية، حقق الله [عز وجل] لنا ذلك فيها ولجميع المسلمين بمنِّه وكرمه، آمين.

وفرض الطواف أي "فعله في حج أو عمرة، وأما في غيرهما فهو، حيث لم يُنذر، سُنة مؤكدة، حتى قيل فيه أنه للغرباء أفضل من الصلاة، لأنه عبادة خاصة بذلك المحل"[19]. والسعي أي بين الصفا والمروة، أي حيث فرضه فيهما أيضا، وحيث الحلق أي إزالة الشَّعر، وحيث رمي الجمار أي في مواضعه الثلاث المعلومة له أيضا، وحيث الإهداء بكسر أوله أي سَوْقُ الهدي إلى مكة، وذبح ما يذبح منه ونحر ما ينحر.

ثم ذكر [الناظم] تشريف تلك الأماكن فقال:

حبّذا حبّذا مَعاهِدُ منهـا --- لـم يُغَيّر آيـاتِهنَّ البَـــــلاء

---

[16] سورة آل عمران، الآية 96.
[17] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.479.
[18] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.480.
[19] نفس الإحالة السابقة.

حَرَمٌ[20] آمِنٌ وبيتٌ حَرامٌ --- ومَقامٌ به[21] المُقـــامُ تَـــــلاء

فَقَضَيْنا بها مناسِكَ لا يُحْـ --- ـمَدُ إلا في فِعْلِهن[22] القَضـاء

تقدم معنى حبذا وعملها أول الكتاب[23]، وكرّرها هنا للتأكيد مبالغة في المدح، والمعاهد جمع معهد، وهو في الأصل المنزل الذي يعود إليه مُفارِقُه لتعهُّده، وهذه كذلك، لأن مُفارقها يعود إليها بالفعل أوالعزم. ومنها أي من مكة صفة لمعاهد، وآياتهن، "أي علاماتهن الدالة على شرفهن، من تعظيم الأمة حرمتهن وازدحامهم على التبرك بزيارتهن والقيام بحقوقهن"[24]، مفعول يغير أي لم يُحدث فيهن تغييرا، والبلاء فاعله. قال الشيخ زكرياء في شرحه لهذا المحل: "هو بفتح الباء ممدودا أو بكسرها مقصورا، أي طول المدة التي من شأنها أن تغير الأشياء عما هي عليه، لأن الله تعالى صانها من آفات التغيير لفضلها عنده وحرمتها لديه، وليستمر لهذه الأمة التمتع بالعبادة فيها إلى آخر الدهر"[25].

وحَرم أي "محرم بحرمة الله من يوم خلق الله [تعالى] السماوات والأرض، كما في الحديث الصحيح. وأما حديث أن إبراهيم حَرَمَ مكة، فالمراد به أنه أظهر حرمتها التي كانت خفيت على الناس، فلا تعارض بين الحديثين"[26]. وآمِنٌ أي "يأمن من فيه من شر الغارات واستباحة الحرمات"[27]، فإن العرب كانت تُغير على بعضها وأهل مكة آمنون من ذلك، لا يتعرض أحد من العرب للحرم بقتال، ولا يُمكِّن الله [عز وجل] أحدا من إهلاك أهله، "وكان الرجل يرى قاتل أبيه في الحرم ولا يتعرض له، وهذا في الجاهلية، وأما في الإسلام فالمراد بالحرمة من صيوده وشجره ونباته: من

---

[20] في النسخة الصبيحية كُتبت "حرام"، وهو خطأ نسخ.
[21] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "فيه".
[22] في النسخة الصبيحية كُتبت "فعلها"، وهو خطأ نسخ.
[23] أنظر الفصل الأول، البيت 11.
[24] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.482.
[25] لم أقف عليه.
[26] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.482.
[27] نفس المرجع السابق، ص. 483.

أنْ يتعرض لها أحد بقتل أو قطع أو غيره إلا ما استثني"[28]. وفي صحيح البخاري من حديث أبي شريح، أن رسول الله ﷺ قام في غد يوم الفتح، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، لا يحل لمرء يومن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرا، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها، فقولوا له: -إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم-، وإنما إذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب"[29].

وهو اقتباس من قوله تعالى "مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا"[30]، وقوله تعالى "أو لم نمكن لهم حرما آمنا"[31]. "وبيت حرام أي ذو حُرمة باهرة وعزة قاهرة، وهو اقتباس من قوله تعالى -جعل الله الكعبة البيت الحرام-[32]. ومَقام بفتح أوله أي مكان، أي مقام إبراهيم، وهو الحجر الذي نزل عليه من الجنة، كما صرح به الحديث، ليقوم عليه عند بنائه الكعبة إذا طال البناء، فكان يعلو به إلى أن يضع الحجر في محله ثم يقصر به إلى أن يتناول الحجر من يد إسماعيل عليه السلام، وفيه أثر قدميه الكريمتين، وهو الذي نادى عليه لما فرغ من بناء الكعبة: -أيها الناس، إن الله بنى لكم بيتا فحجوا إليه-، فسمعته النُّطف في الأصلاب والأجنة في الأرحام فأجابوه لبيك. وفي رواية: فمن أجابه مرة حجَّ مرة، ومن أجابه أكثر حج أكثر. وفي رواية أنه نادى بذلك على الحجون، فيُحتمل أنه نادى مرتين"[33]. قال ابن حجر: "وهل[34] موضعه الذي كان به في زمن رسول الله ﷺ هو الموجود فيه اليوم؟ أو أنه كان عند

[28] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.483، بالاختصار.
[29] سبقت الإشارة لهذا الحديث في بداية الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب.
[30] سورة آل عمران، الآية 97.
[31] سورة القصص، الآية 57.
[32] سورة المائدة، الآية 97.
[33] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.484، بالتصرف. أقول: ويحتمل أن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان واقفا فوق الحجر الذي صعد به على جبل الحجون، فمتفق عليه أن الحجر كان يتحرك به ويصعد وينزل، وبذلك يكون نداءه واحدا، فوق الحجر وعلى الحجون في آن واحد.
[34] في النسخة الحسنية كُتب "وهو"، فهو خطأ نسخ.

باب الكعبة فرده عمر رضي الله عنه إلى موضعه اليوم اجتهادا منه؟ خلاف[35] والأصح الأول"[36].

والمُقام بضم أوله من الإقامة مبتدأ، وبه متعلق به، وتَلاء بفتح المثناة أي جوار الله تعالى، خبره. ولذلك تسمى أهل مكة: جيران الله، أي بيته وحَرمه. وفي القاموس: "تَلاء كسَحاب: الذمة والجوار"[37].

وقضينا أي أدينا، إذ القضاء يطلق على الأداء لغةً كَقَضَيْت الدين أي أديته، وضمير بها يعود إلى مكة وباؤه للظرفية، أو الضمير للناقة والباء بمعنى على، ومناسك جمع منسك من النسك أي العبادة، أي قضينا بها أركان الحج والعمرة وواجباتهما وسننهما، لا يُحمد بالبناء للمفعول، وضمير فعلهن للمناسك، والجملة صفة لها، فالقصر إضافي أي لا يُحمد في تركهن، أو المراد "حمدٌ مخصوص"[38] قاله ابن حجر. والقضاء أطلقه على الأداء.

ثم تخلص [الناظم] إلى ذكر الزيارة النبوية فقال:

ورَمَيْنـــــا بها الفِجاجَ إلى طَيْـ --- ـبَةَ والسَّيْرُ بالمَطايا رِمـــاء

فأصَبْنا عَن قَوْسِها غَرضَ القُرْ --- بِ وَنِعْمَ الخَبِيئَةُ الكَوْمـــاء

وَرَأَينا أَرضَ الحَبيبِ يَغُضُّ الطَّ --- ـرْفَ منها الضِّياءُ والـلَّألاء

فَكَأنَّ البَيْداءَ مـــن حيث مـا قَا --- بَلَتِ العَيْنَ[39] رَوضَةٌ غَنَّـــاء

ضمير بها يعود إلى الناقة والباء للسبب أو للاستعانة أو بمعنى على. والفجاج جمع فج أي الطريق الموصلة إلى طيبة المُشرَّفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، "سُميت بذلك لأن الله تعالى طيَّبها برسوله ﷺ، فجعلها دار هجرته ومحل نُصرته

---

[35] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "خلاف"، وفي المرجع المطبوع كُتبت "قولان".

[36] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.484.

[37] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.196.

[38] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.485.

[39] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "العينُ".

ومَوضع تُربته، ولها أسماء كثيرة"[40]. والسير مبتدأ، والواو للحال، وبالمَطايا متعلق به جمع مطية وهي الدابة تمطو في سيرها أي تجدُّ، ورماء بكسر أوله خبره مصدر راميته[41]، أي يشبه السهم إذا رميت به.

وفاء فأصبنا للتعقيب والسبب، أي بسبب أن السير يشبه القوس أصبنا، ومن ثم قال عن قوسها غرض القرب إلى المدينة المشرفة، لأنها المقصود من الغرض المشبه بالمصاب بالرمي. والخبيئة: الدخيرة، والكَوماء بفتح أوله: الناقة العظيمة، نعت لمحذوف هو المخصوص بالمدح بنِعْمَ. ورأينا بصرية، أي أبصرنا أرض أي المدينة، "شرفها الله وما حواليها بأن جعلها أرض الحبيب، أي حبيب رب العالمين نبينا محمد ﷺ، تميَّزَ بمقام المحبة الذي هو أجل من مقام الخلة، لأن المحبة الكاملة تستدعي الخلة وزيادة"[42]. والطرف بسكون الراء: العين، قال في القاموس: "لا يجمع لأنه في الأصل مصدر، أو اسم جامع للبصر لا يثنى ولا يجمع"[43]، وهو مفعول يغض، والضياء أي النور فاعله، أي يكُف العيون ويمنعها من كمال النظر، ومنها أي من أجل تلك الأرض الشريفة، لكثرة إشراقه وتلألؤه عليها، واللَّألاء: البرق اللامع على صفحاتها.

فبسبب ذلك، كأن البيداء أي المفازة البعيدة من تلك الأرض، حيث ما قابلت أي من أي جهة واجهت العينَ بالنصب مفعول قابلت، رَوضةُ بالرفع خبر كأن وغناء صفة له. وتقدم معنى الروضة الغناء، وهو هنا تشبيه في حُسن المنظر.

ثم قال [الناظم]:

وكأنَّ البِقاعَ زَرَّت عليها --- طَرَفَيْها مُلاءَةٌ حَمراء

يعني أن البقاع أي الأماكن التي حَولَ المدينة المنورة، لكثرة ما يغشاها من الأنوار والأضواء حتى كأنها زرَّت أي ربطت أزرارها عليها، أي على تلك الأماكن مُلاءَة،

---

[40] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.487.

[41] رَامَيْتُ أُرامي: فعل رباعي لازم متعد بحرف.

[42] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.488.

[43] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1000.

وفي القاموس: "الملاءة بالضم والمد: الرَّيْطَة"[44]، ثم قال: "الرَّيْطة بالفتح: كل ملاءة غير ذات لفقين، كلها نسج واحد، وقطعة واحدة"[45]، وحمراء نعت له. وطرفيها مفعول زرت متلبس بضمير الفاعل المتأخر عنه لفظاً.

والمعنى أن تلك البقاع من كثرة احمرارها بالأنوار والضياء، صارت كملاءة حمراء ربطت أزرارها، أي العُقَد التي بطرفيها، على تلك البقاع حتى لا تنفك عنها ولا تزول. وقيل[46] أن طرفيها: بدل بعض من الضمير في عليها، أي زرَّت الملاءة أزرارها على الأرض طرفيها. والجملة خبر كأن في الوجهين.

ثم قال [الناظم]:

وكأنَّ الأَرجاءَ يَنشُرُ[47] نَشْرَ الـ --- ـمِسْكِ فيها الجَنوبُ والجِرْبِياء

الأرجاء جمع رَجاً وهي الناحية، والمراد كأن نواحي المدينة الغراء ينشر أي يذيع ويفشي الجَنوب والجربياء فيها، أي في تلك النواحي نُشر المسك أي رائحته، ونَشرُ الريح له: تعميم رائحته لجميع الجوانب. والجَنوب بفتح الجيم فاعل ينشر، قال ابن حجر: "وهي التي تهبُّ عن يمين مطلع الشمس في يوم الاعتدال، ويقابلها الشمال بفتح الشين وكسرها، وهي التي تهب عن شمال مطلع الشمس فيه، والتي تهب من مطلعها فيه: الصبا، ويقابلها الدبور. فهذه الأربع أصول الريح"[48]. والجربياء بكسر الجيم والباء الموحدة ككِيمِياء، كما في القاموس: "الشَّمْأَلُ، أو بردها، أو الريح التي بين الجَنوب والصَّبا، وهي التي تثير السحاب"[49].

ثم قال [الناظم]:

فإذا شِمْتَ أو شَمَمْتَ رُباها --- لاح منها بَرقٌ وفاحَ كِباء

---

[44] نفس المرجع السابق، ص,1551.
[45] نفس المرجع السابق، ص.687.
[46] لم يقلهُ الهيتمي، ولعله من شرح العلامة سيدي أحمد الهلالي السجلماسي، خلال إحدى حلقات الدرس.
[47] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "تنشرُ".
[48] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.489. في "المنح المكية" المطبوع لم ترد هذه الفقرة بكل تلك التفاصيل.
[49] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.253.

شِمت بكسر المعجمة أي أبصرت، يقال شَممت البرق إذا نظرت إلى سحابته أين تُمطر. وفي القاموس: "شمِمته بالكسر، أشَمُّه بالفتح"[50] أي اِنْتَشَقتُ[51] رائحته. والربى جمع ربوة، مثلث[52] الراء، وهي ما ارتفع من الأرض، يتنازعه شمت وشممت.

والمعنى أنك إذا نظرت إلى سحائب البرق أين تمطر في تلك البقاع، لاح أي ظهر من تلك البقاع برق، وإذا استنشقت[53] نور رباها ، على حذف مضاف، فاح منها أي انتشرت رائحة كباء، على اللف والنشر المرتب، وفي القاموس: "كِباء كَكِساء: عود البخور أو ضربٌ منه "[54]. وبين لاح وفاح جناس مضارع.

[ثم قال الناظم]:

أَيَّ نورٍ وأَيَّ نَوْرٍ شَهِدنـــــــا --- يومَ أَبدَت لنا القِبابَ قُبـــــاء

قَرَّ مِنْها دَمعي وفَرَّ اصْطِبارِي --- فدُموعِي سَيْلٌ وصَبْري جُفاء

نُورٌ بضم أوله، و[نَوْرُ] الثاني بفتحه وهو الزهر المعروف في النباتات والأشجار، وأتى بالاستفهام قبلهما للدلالة على التفخيم والتعظيم كقوله تعالى "الحاقة ما الحاقة"[55]. وهما [أي نُور ونَور] معمولان لشهدنا، وبين نُور ونَور الجناس المحرف كما في الحديث: "اللهم كما حسَّنت خَلقي فحسِّن خُلقي"[56]. [شهدنا] أي نظرناهما بأبصارنا وبصائرنا، ويوم ظرف لشهدنا، وأبدت أي أظهرت وقُباء بضم أوله فاعله. وهو من عوالي المدينة بينهما ثلاثة أميال، وبه نزل رسول الله ﷺ حين هاجر إلى المدينة، وفي صحيح البخاري: "فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع

---

[50] نفس المرجع السابق، ص.889. وفيه "الشَّمّ: حِسُّ الأنف، شَمِمْتُهُ بالكسر، أَشَمُّه بالفتح."

[51] انتشق الماء أي جذبه بالنفس في أنفه.

[52] أي يحتمل الحرف الأول أن يُفتح ويُضم ويُكسر.

[53] في النسخة الصبيحية كُتب "انتشق"، وكلا اللفظين صحيح.

[54] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1392.

[55] سورة الحاقة، الآيتين 1 و2.

[56] أخرجه الإمامين أحمد والطبراني وغيرهما.

عشر ليلة، وأسس بها المسجد الذي أُسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ"[57] الحديث. والقِباب بكسر أوله مفعول أبدت، والمراد بها قباب[58] المدينة: جمع قُبة.

[القباب] التي منها، أي من أجل مشاهدتها، قَرَّ دمعي بفتح القاف أي كَثُر وانهمل، وفرَّ أي ذهب اصطباري على ساكن طيبة عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، فبسبب ذلك دموعي سيلٌ أي كالمطر الكثير، وصبري جُفاء بضم الجيم أي زِيدَ، فكما السيل يذهَبُ بالزُّبد في أسرع[59] وقت، فكذلك الدموع تذهب بالصبر فلا يبقى منه شيء، فيه لف ونشر مرتب. وبين القباب وقباء جناس مطلق، وبين قرَّ وفرَّ جناس التصحيف.

[57] صحيح الإمام البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ.

[58] والمراد به ربما قباب الأضرحة التي كانت في البقيع على بعض المقابر قبل بداية القرن العشرين. وقد تم هدم تلك الأضرحة في بداية القرن التاسع عشر، ثم أعاد بناءها السلطان العثماني محمود الثاني من عام 1848 إلى عام 1860. وفي سنة 1926 هدمت تلك المقامات مرة أخرى، وهو الوضع يومنا هذا.

[59] في النسخة الصبيحية كُتبت "إسراع"، وهو خطأ نسخ.

الفصل السادس عشر: من البيت 313 إلى البيت 332

ذكر [الناظم] ما يصيب الزُّيار من الشوق عند المشاهدة، فقال:

فَتَرى الرَّكْبَ طائرينَ من الشَّوْ --- قِ إلى طَيْبَةٍ لَهُمْ ضَوْضاء

فـكَأنَّ الـزُّوَّارَ مـا مسَّتِ البَأْ --- ساءُ منهم خَلْقاً ولا الضَّرَّاء

الفاء [في فترى] للتعقيب أي فبسبب ما ذكر من كثرة الدمع وقلة الصبر عند مشاهدة تلك الأماكن تبصر الركب، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه أو هو جمع راكب. طائرين أي مجدين في السير مسرعين كالطير، من أجل الشوق إلى طيبةٍ بالصرف لضرورة الوزن، أي شوقا إلى ساكنها عليه أفضل الصلاة والسلام. وطائرين حال على أن رأى بصرية أو مفعول ثاني على أنها علمية.

أمر على الديــار ديار ليلى --- أقبل ذا الجذار وذا الجـدار

وما حب الديار شغفن قلبي --- ولاكن حب من سكن الديار[1]

وضَوْضاء بفتح فسكون، أي أصوات عالية بالصلاة على النبي ﷺ، مبتدأ، ولهم خبره، والجملة حال من الضمير في طائرين، وهو والشوق يتنازعان في إلى. وفي القاموس: "الضوضاء ويقصر: أصوات الناس في الحرب"[2].

وكأن عطف على فترى، والزوار بضم أوله جمع زائر اسمها، وما نافية، ومست أي أصابت، والبأساء أي الشدة من السفر ومشقته فاعله، وفي القاموس: "البأساء: الداهية، ومنه –عسى الغُوَيْرُ أبْؤُساً- أي داهية"[3]. وخَلقا أي مخلوقاً.

ثم قال [الناظم]:

---

[1] لم يقدم المؤلف لهاذين البيتين، ولربما قصد بهما التعبير على ما يخالج قلبه من حب وشوق إلى طيبة وإلى ساكنها عليه الصلاة والسلام.

[2] لم أقف عليه، بل نجد في "القاموس المحيط"، ص.985، "الضَّوضى مقصورة: الجلبة وأصوات الناس".

[3] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.89.

كلُّ نَفسٍ لها[4] ابتهـالٌ وسُؤْلٌ --- ودُعاءٌ ورَغْبةٌ وابْتِغـاء

وزَفيـرٌ تـَظُنّ منـهُ صُـدوراً --- صادِحاتٍ يَعْتادُهُنَّ زُقاء

قال في القاموس: "الابتهال: الاجتهاد في الدعاء وإخلاصه"[5]، وأما قوله تعلى "ثم نبتهل"[6] فهو من البهلة بفتح أوله ويُضم أي اللعنة، قال ابن عطية: "ونبتهل معناه نلْتَعن، ويقال -عليهم بهلة الله- أي اللعنة، والابتهال الجد بالدعاء بالبهلة"[7]. والمعنى هنا التضرع إلى الله تعالى في أن يُقيل عثارنا ويَقبل آثارنا. ولها خبر عن ابتهال، والجملة خبر عن كل، "وسُؤل أي توسل إلى الله تعالى بأحب خلقه عليه"[8]، ودُعاء بما أحب من عاجل أو آجل، فهو من عطف التفسير[9]، ورغبة فيما عند الله [تعالى] من خير الدارين، وابتغاء رضوان الله [عز وجل] في ذلك المحل الشريف بساكنه عليه الصلاة والسلام، ولله در القائل[10]:

إليكم وإلا لا تُشدُّ الركائب --- ومنكم وإلا لم تنال المواهب

وفيكم وإلا فالرجاء معطل --- وعنكم وإلا فالمُحدِّث كـاذب

والزفير، قال ابن حجر: "هو تواثر النفس وصعوده لشدة ما يعتري القلب من الخشية"[11]، وقال المفسرون في قوله تعالى "لهم فيها زفير وشهيق"[12]: "الزفير إخراج النفس والشهيق رده، أو الزفير صوت المحزون والشهيق صوت الباكي، أو الزفير من الحلق والشهيق من الصدر"[13]. وفي القاموس: "زفر زفيرا: أخرج نفسه بعد مَدِّه إياه"[14]. ومن ثم وَصَفه [الناظم] بقوله تظن منه أي من شدة ذلك الزفير.

---

4 في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "منها".

5 الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.169.

6 سورة آل عمران، الآية 61.

7 ابن عطية، التفسير الوجيز، ج1، ص.448.

8 ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.491.

9 وهو عطف أحد المترادفين على الآخر، والقصد منه التأكيد.

10 يُنسب إلى الإمام أبي محمد الأندلسي القحطاني، المتوفى أواخر القرن الرابع الهجري.

11 ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.492.

12 سورة هود، الآية 106.

13 الشيخ ابن جزي الغرناطي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، ج1، ص.378.

14 الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.710.

وصدورا مفعول أول لتظن، وصادحات أي مصوتات مفعول ثاني، وفي القاموس: "صَدَحَ الرجل والطائر كمَنَعَ صَدحا وصُداحا: رفع صوته بغناء"[15]. والزُّقاء بضم الزاي وبالقاف: الصوت العالي، فاعل يعتادهن أي لهُنَّ عادة بالزقاء.

"والحاصل، أن من شدة ذلك الزفير، حتى ظهر لهم صوت أشبه صوت الطيور الصادحات، اللاتي يعتادهن التصويت بشدة وعلو صوت"[16]، قاله ابن حجر.

ثم قال [الناظم]:

وبُكـاءٌ يُغْريـهِ بـالعَيْنِ مَدٌّ --- ونَحيـبٌ يَحُثُّـهُ استِعْـلاء

وجُسومٌ كَأنَّما رَحَضَتْها --- مِن عَظيمِ المَهابَةِ الرُّحَضاء

ووُجوهٌ كأنَّما ألبَسَتهـا --- مِن حَيـاءٍ ألوانَها الحِرْبـاء

ودُموعٌ كأنَّما أرسَلَتهـا --- مِن جُفونٍ سَحـابَةٌ وَطْفـاء

مَدٌّ بفتح أوله فاعل يُغريه أي يحمله على ملازمته، وفي القاموس: "المدُّ: السيل"[17]. وفي نسخة "سيل"[18] أي من الدموع، ونحيب أي رفع الصوت بالبُكاء، ويحثه أي يحضُه ويُقوِّيه، واستعلاء فاعله، أي علو النفس بالصوت فيحصل بسببه الزيادة في النحيب.

والرحضاء بضم ففتح: العرق الكثير من أثر الحُمَّى[19]، فاعل رحضتها أي غسلتها، وضميره يعود للجسوم: جمع جسم أي البدن، من أجله ﷺ وهيبته العظيمة ﷺ، التي استولت على قلوبهم لما وصلوا إليه وشاهدوا حضرته العلية.

وعظيم المهابة من إضافة الصفة إلى الموصوف.

---

[15] نفس المرجع السابق، ص.918.
[16] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.492.
[17] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1516.
[18] أي مكان مدّ.
[19] في النسخة الحسنية كُتبت "الحَمْوُ"، وهو خطأ نسخ إلا أن يعني به الحر وشدة اللهيب.

وتقدم تفسير الحرباء عند قوله [أي الناظم]: "وتخال الوجوه إن قابلتها"[20]، وهو فاعل ألبستها والضمير فيه مفعوله الأول، وألوانها مفعوله الثاني متلبس بضمير الفاعل المتأخر عنه لفظا.

والمعنى أن هذه الوجوه تعتريها ألوان مختلفة من أجل شدة الحياء منه ﷺ، لما صدر من أصحابها من التقصير في عدم كمال الاتباع، والحياء بالمد من تفسيره، وهو غريزي باعتبار أصله ومكتسب باعتبار كماله.

ولهم دموع كثيرة أيضا من شدة الحزن على التفريط، والوطفاء المسترخية الجوانب لشدة ما بها، نعت لسحابة. ودموع وما قبله معطوف على ابتهال[21]، والمقصود من سَرْدِ هذه الأوصاف والفحص عن جميعها، تشريفه ﷺ وتعظيمه ﷺ بما خصه الله [تعالى] به، مما يُصيب أصحاب هذه الأوصاف من المهابة والحياء منه ﷺ، الذي غلب عليهم حتى اعترتهم تلك الأحوال وأعظم منها، مما لا يُدرك إلا بالذوق لا الإخبار عن أحوالهم، فهو الممدوح في الحقيقة لا هُم.

ثم لما شاهدوا تلك الأسرار، واقتطفوا من حضرتها أسنى الأنوار، حطُّوا رحالهم حيث تُحط الأوزار، ومن ثم قال [الناظم]:

وحَطَطْنا[22] الرِّحالَ حَيثُ يُحَطُّ الـ --- ـوِزْرُ عَنَّا وتُرفعُ الحَوْجاء

وقَرَأنـا السَّلامَ أكرمَ خَـلْقِ اللهِ --- مِـن حَـيْـثُ يُـسمـعُ الإقْراء

وذَهَلنــــا[23] عِندَ اللِّقاءِ وَكَمْ أذْ --- هَلَ صَبَّاً مِن الحبيبِ اللِقــاء

ووَجَـمْـنـــا مِن المَهـابَةِ حتّى --- لا كَـــلامٌ منا ولا إيـمـــــاء

الرِّحال جمع رَحْل، والـ فيه خلف عن الضمير، أي وضعنا رحالنا "بفِناء كرمه ﷺ، نستمطر سحائب مننه ونستقيل عثرات التقصير"[24]. وحيث ظرف لحططنا، أي في

---

[20] أنظر الفصل الثامن.
[21] أنظر البيت الثالث من هذا الفصل.
[22] في المنح المكية المطبوع كُتبت "فحططنا".
[23] في المنح المكية المطبوع كُتبت "وذَهِلنا".

مكان يُحط فيه الوزر عنا أي الإثم، بشفاعته في سرعة ﷺ، قال تعالى "ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك"[25] الآية. وتُرفع بفضله وإسعاده وإمداده [ﷺ] الحَوْجاء بفتح المهملة وسكون الواو بعدها جيم، أي الحاجة، نائب عن الفاعل، يُقال –ما في صدره حوجاء ولا لوجاء-، أي تُرفع به [ﷺ] الحَوايج[26] إلى الله تعالى، فيكون وسيلة لقضائها. والحاجة من الاحتياج، أي يرفع عنه الفقر ويصحبه الغَناء[27].

وقرأنا السلام، قال في القاموس: "قرأ عليه السلام: أبلغه"[28]، وعليه فأكرمَ منصوب بنزع الخافض، أي على أكرم خلق الله وأفضلهم، وقد مر الكلام على أفضليته [ﷺ] أول الكتاب. والسلام لغة: السلامة و"البراءة من العيوب"[29] كما في القاموس، وفي العرف: زيادة التأمين والإعظام، قال ابن حجر: "واقتدى الناظم في هذا بالسلف، فإنه جاء السلام عليه ﷺ عند قبره عن ابن عمر وغيره، قال البَغوي: -السلام عليه ﷺ عند قبره أفضل من الصلاة عليه عنده، للأخبار الكثيرة الواردة فيه، كخبر –ما من أحد يسلم عليَّ عند قبري إلا ردَّ الله عليَّ روحي حتى أردُّ عليه السلام--، ويُعارضه الحديث الصحيح أنه تعالى هو وملائكته يصلي على المصلي عليه، في الصلاة الواحدة عشر أو في رواية مئة، وصلاة الله أفضل من رده ﷺ، فالأوْلى أن توجه أفضلية السلام عليه بأنه شعار اللقاء والتحية، فتختص أفضليته بحال اللقاء عند كل زيارة. أما إذا سلم سلام اللقاء، فالصلاة بعده أولى من استمرار السلام، وإن كان باقيا في مقام الزيارة، ويدل لذلك صنيع العلماء، فإنهم لما ذكروا بأن الزائر يبدأ بالسلام، ذكروا أنه يختم بالصلاة عليه ﷺ-"[30]. ومن حيث متعلق بقَرأنا أي من مكان وقوفنا بتلك الحضرة الذي يسمع إقراء السلام منه، وكونه ﷺ "يسمع من صلى وسلم

---

[24] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.494.

[25] سورة النساء، الآية 64.

[26] في النسخة الحسنية كُتبت "الحوائج"، وفي النسخة الصبيحية "الحوايج". ذكر ابن منظور في "اللسان" أنها جمع حاجة، ثم أبدلت الياء همزة، فصارت حوائج. وقال عبد القاهر الجرجاني أن جمع "حوجاء" هو حواج، ثم قدمت الياء على الجيم.، فصارت حوايج، ثم همزت فصارت حوائج.

[27] أي الاكتفاء والاستغناء.

[28] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1298.

[29] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.796.

[30] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.494 و495، بالتلخيص.

عليه عند قبره سمعا حقيقيا، ويرد عليه من غير واسطة، وأن من صلى عليه من بعيد لا يسمعه إلا بواسطة دلت عليه أحاديث كثيرة، منها ما جاء بسند جيد وإن قيل أنه غريب: -من صلى علي عند قبري سمعته، ومن صلى علي من بعيد علمته-، وصح وإن نوزع فيه: -ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام"[31] من نقل ابن حجر، ثم قال: "ومعنى رد روحه ﷺ السابق: رد نُطقه، لأنه حي على الدوام، فروحه لم تفارقه أبدا، وصحَّ: -الأنبياء أحياء في قبورهم- الحديث. والأحاديث في ذلك كثيرة جمعها البيهقي في جزء، واستدل بها على دوام حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حياة مخصوصة أعلى وأتم من حياة الشهداء المنصوص عليها في القرآن"[32].

وذَهَلنا بفتح المعجمة وفتح الهاء، قال في جمع الجوامع: "والسهو: الذهول"[33]، وقال المحلى: "أي الغفلة عن المعلوم الحاصل فينتبه له بأدنى تنبيه، بخلاف النسيان فهو زوال المعلوم، فيستأنف تحصيله"[34]. وكم للتكثير، أي مرارا كثيرة، أذهل صَبّاً أي شديدُ العشق، والصبابة: رقة العشق وغلبة استيلائه، ومن الحبيب أي من أجل المحبوب متعلق بِأذهل واللقاء فاعله، أو من الحبيب حال من اللقاء.

ووجمنا، قال في القاموس: "وجم كَوعد، وجما ووجوما: سكت عن غيظ"[35]، أي تركنا الكلام في تلك الحضرة العلية فلم يبقى فينا متسع له من أجل هيبته ﷺ، فغلبنا الإجلال والمخافة المستولية على قلوبنا، حتى لا كلام لواحد منا بما نريده، وهو تأكيد لما قبله لأن السكوت يقتضي عدم الكلام. وسكنت أعضاؤنا فلا يتمكن منها إيماء بوجهٍ، وذلك حال مَن قَهَرَهُ الجلال واستولى عليه بارع الجمال، الذي لا يتصف به مخلوق غيره [ﷺ]، ولله ذر القائل[36]:

---

[31] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.495، بالتلخيص.

[32] نفس المرجع السابق، ص.496.

[33] "والسهو الذهول عن المعلوم". القاضي تاج الدين السبكي، جمع الجوامع في أصول الفقه، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة الثانية 2002، ص.16.

[34] يعني "المحلى بالآثار" لابن حزم.

[35] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1733.

[36] لم أقف على قائله، وقد ورد البيت الأول في "المنح المكية" المطبوع ص.497، دون البيت الثاني.

وَكَم رِمتُ بث الشوق عند لقائه --- فلما التقينا ما وجدت ولو حرفا

وكنت حريصـــا أن أبث صبابتي --- وأظهر ما يبدو إليه وما يخفـا

ثم ذكر [الناظم] حاله عند رجوعه إلى وطنه بعد فراغه من زيارته، وأنه ما زاد بالقرب منه إلا غراما، ولا بالحب إلا هياما، فقال:

وَرَجَعنا وللقَلوبِ التفاتاتٌ[37] --- إليه وللجُسومِ انْثِنـــــاء

وسَمَحنـــا بِما نُحِبُّ وقد يَسـ --- ـمَحُ عِنْدَ الضَّرورَةِ البُخَلاء

يعني أنه لما فرغ من مناسكه وزيارته دار الحبيب، اعتراه من الشوق ما أوجب تعلق البال به، فبقي قلبه مُلتفتا إليه التفاتات كثيرة جدا من غير حصر، له ولِمَن معه، فلذلك جمع قلبا. كما أن لجُسومهم انْثِناء أي انعطاف إلى البقاء في حضرته العلية أبدا إن تيسر، وإلا فلن يتركوا تكرار زيارته إلا كرها. ومن ثم قال وسمحنا بما نحب أي بشيء نفيس لا يجود أحد بمثله، وهو التمتع بشهود تلك الحضرة الذي نحبه ونحب دوامه، ونبخل به ولا نفارقه طوعا، ولكن الضرورات تبيح المحضورات، ومن ثم قال وقد يسمح عند الضرورة التي لا يستطاع تركها، البخلاء جمع بخيل، والمراد به اللغوي: وهو الشحيح. وفي المستظرف[38]: قيل لبخيل ما الفرج بعد الشدة، قال إذا تعلل الضيف بالصيام.

فإن ضرورة رجوعه [أي الناظم] إلى عياله الواجب عليه القيام بهم خففت عنه ملام نفسه، فهو وإن كان يبخل بملازمته لتلك الحضرة فله إسوة بالبخلاء في ذلك. ولما شرع في رجوعه من زيارة الحبيب الناشئ عنها كل خير، واشتد عليه ألم الجوى وأيقن أنه الفراق وآن أوان النوى، ولم يمكن له التوصل إلا إلى التوسل، شرع يناديه بكنيته المختصة به المناسبة لطلبه، سائلا منه الأمان في الميعاد، مستشفعا له بما أكرمه الله به من المزايا المقتضية لمدحه، فقال:

---

[37] في النسخة الصبيحية كُتبت "التفات" بالمفرد، وهو خطأ نسخ.

[38] شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، في جزأين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي-مصر، 1952، ج.1، فصل 34.

يا أبا القاسِمِ الذي ضِمْنَ إقْسا --- مِي عليهِ مَدحٌ له وثَناء

بالــعلومِ الــتي عَلَيك مِنَ اللهِ --- بــلا كــاتبٍ[39] لـها إملاء

ومَسِيرِ الصَّبــا بِنَصرِكَ شَهراً --- فكأنَّ الصَّبــا لديكَ رُخاء

هذا نداء استعطاف وتلطف إليه ﷺ بهذه الكنية [أي أبا القاسم] الشريفة المخصوصة به ﷺ، و[آثرها][40] على اسمه الكريم تعظيما وإكراما لقدره الرفيع وعلو شأنه المنيع، قال الشاعر:

أَكْنِيــهِ حين أناديــه لأُكرِمَـــــهُ --- ولا أُلَقِّبــهُ فـــــالسَّوأةَ الــــلقبُ

كَذاك أُدِّبتُ حتى صار من خُلقي --- أني رأيت ملاك الشّيمة الأدب

قال ابن حجر: "فلا يجوز لأحد التكني بها مطلقا على الأصح عندنا، سواء في زمنه أو بعده، لمن اسمه محمد أو غيره، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح "سموا بإسمي ولا تكنوا بكنيتي". وقيل المنع خاص بزمنه ﷺ، وقيل أنه خاص بمن اسمه محمد"[41]. وضمن الشيء لغيره: اشتماله عليه، وهو بكسر أوله مبتدأ ومدح خبره، والجملة صلة الذي أقسامي، بفتح الهمزة: جمع قَسَم بفتحتين، من قولهم أقسمت عليك بكذا أي حلفت، وبكسرها [أي إقسامي] مصدر منه، فإن قصد به غيره فهو شفاعة واستعطاف في الوجهين وهو المراد به هنا، وإن قصد به نفسه فهو اليمين، ومن ثم قال أهل العلم: لا يكون يمينا إلا إذا نواه.

والمعنى: تضمنت إقسامي عليك المدح لك والثناء عليك، ومن جملتها العلوم التي تنزلت عليك، أي أقسم عليك بها لتتشفعن لي فيما يُؤمِّنُني من كل خوف، وكذا يُقال في كل الأقسام الآتية، فإن المراد بها الشفاعة والاستعطاف لإجابة سؤاله. وجَعَل العلم أول الأقسام لعلوه على غيره بمعنى أنها علوم لدنية، كما أفاده قوله من الله بلا

[39] في النسخة الصبيحية كُتبت "كتاب"، وهو خطأ نسخ.

[40] في النسختين الصبيحية والحسنية كُتبت "أثارها" بمعنى أعادها مرات. وفضلت كتابتها "آثرها" بمعنى اختارها وسبقها، أي استعمل كنيته ﷺ وليس اسمه، وبذلك يستقيم ما يأتي بعده أي "آثرها على اسمه الكريم".

[41] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.498.

كاتب، فهما حالان من ضمير لها العائد على العلوم. وإملاء مبتدأ وتقدم معناه، وعليك متعلق به، ولها خبره، أي أملاها الله [تعالى] عليك مباشرة أو بواسطة ملك، والجملة صلة التي، والموصول وصلته صفة للعلوم.

وأقسم عليك أيضا، بما أوتيته من مسير الصبا، وهي الريح التي تهب من مطلع الشمس في زمن الاعتدال، "وتُطلق على ما يَهُب عن يمين هذا المطلع إلى قرب سهيل، وعن يساره إلى قرب القطب الشمالي"[42] قاله ابن حجر. ولهذه الريح مزية عظيمة لنصره ﷺ بها في غزوة الخندق المسماة بالأحزاب، وبنصرك المسبب عن الرعب الذي قطع قلوب أعدائه وأخمد شوكتهم. وشهرا ظرف لمسير، وهذا اقتباس من قوله ﷺ: "نصرت بالصبا وهلكت عاد بالدبور"[43]، ومن قوله [ﷺ] في الصحيح أيضا: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نُصرت بالرعب مسيرة شهر[...]"[44] الحديث، وتقدم بتمامه عند قوله [ﷺ] جُعلت مسجدا له الأرض. والرخاء الريح اللينة المسخرة لنبي الله سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام التي قال تعالى فيها "غدوها شهر ورواحها شهر"[45]، قال ابن حجر: "لكن هذه أعظم في الإعجاز، لأن تلك سخرت لحمل ذات سليمان، وهذه لحمل صفة من صفات نبينا محمد ﷺ، وهي هيبته. وأيضا فإنما تسيير تلك بعد أمر سليمان لها، وهذه مأمورة بسيرها من غير توسط أمر نبينا ﷺ، فهو من تشبيه الأعلى بالعلي، نظير كما -صليت على إبراهيم- في التشهد، على أحد الأجوبة فيه"[46]. وفي تفسير الثعلبي: "قال وهب بن منبه: -كان سليمان بن داوود لا يقصر عن الغزو، فإذا أراده، أمر بعسكره فضرب له بخشب، ثم نصب له على الخشب، ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب كلها، وكل ما يريد، ثم أمر الريح العاصفة فدخلت تحت الخشب

---

[42] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.500 و501، بالتصرف.
[43] أخرجه الإمامين البخاري ومسلم في صحيحيهما.
[44] نفس الإحالة السابقة.
[45] سورة سبأ، الآية 12.
[46] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.502.

فاحتملته، فإذا استقلت أمر الرُّخاء فجرت به شهرا في روحته وشهرا في غدوته"[47].

والرُخاء بضم أوله: ريح لينة سهلة.

ثم قال [الناظم]:

وَعَلِيٍّ لَمَّـــا تَفَلْتَ بِعَينَيْـ --- ـهِ وَكِلْتاهُمـــا معاً رَمْداء

فَغدا نـاظراً بعَيْنَيْ عُقابٍ --- في غَزاةٍ لـها العُقابُ لِواء

أي وأقسم عليك أيضا، بما أوتيته من الفضل بشفاء عين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لما تفَلت فيهما، بفتح الفاء، في غزوة خيبر كما في صحيح البخاري: "أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: -لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله-. قال: فبات الناس يدوكون[48] ليلتهم أيهم[49] يُعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم [يرجو][50] أن يُعطاها، فقال: -أين علي بن أبي طالب؟-، قالوا: –هو يا رسول الله يشتكي عينيه-، قال: -فأرسلوا إليه-، فأتى به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية"[51] الحديث. وفي رواية: فجاء علي وإنسان يقوده من شدة الرمد.

فغذا أي ذهب بتلك الراية يُضرب بعينيه المثل في حدة البصر كما يضرب بعيني العقاب، الذي هو سيد الطير كما في الكامل. وناظرا حال من فاعل غدا العائد على علي، أوغدا بمعنى صار، فيكون [ناظرا] خبرها. ومن أمثلة العرب: "أبصر من عُقاب" بضم أوله. وقوله في غَزاة بفتح أوله يعني غزوة خيبر، وهي من أعظم الغزوات وأجل الفتوحات. والعقاب الثاني: راية النبي ﷺ المذكورة في الحديث[52]، وكانت سوداء كالعقاب فسميت به، وهو مبتدأ ولواء خبره ولها حال منه، والجملة

---

[47] الإمام الثعلبي، الكشف والبيان، ج.6، ص.286.

[48] أي يختلفون.

[49] في النسخة الصبيحية كُتبت "أيهما"، وهو خطأ نسخ.

[50] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "كلهم يرجون أن يعطاها"، وصححت حسب لفظ الحديث.

[51] صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ.

[52] ذكرها ابن أبي شيبة في المصنف.

صفة لغزاة. وظاهر القاموس: "أن الراية مرادفة للواء، وكلاهما يطلق عليه عَلَم بفتحتين"[53]، "وقال عياض في المشارق: -واللواء: الراية-، وقيل اللواء مستطيل والراية مربعة، وروى أهل السير أن تلك الراية كانت من بُرْدٍ لعائشة رضي الله عنها، وكانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، على ثمانية بُرُد[54] من المدينة إلى جهة الشام"[55]، وعد الله بها رسوله وهو بالحديبية في قوله تعالى "ومغانم كثيرة يأخذونها"[56] قال المفسرون: -وهي خيبر-، فسار إليهم رسول الله ﷺ سنة سبع بعد أن رجع من الحديبية، حتى نزل بواد يقال له الرجيع، فحال بينهم وبين غطفان لِيَلا يمدونهم، وكانوا مُظاهرين لهم، وفي رواية عن أنس قال: "فنزلنا خيبر ليلا حتى إذا أصبح ركب رسول الله ﷺ وركبنا، واستقبَلنا عمال خيبر بمسَاحيهم ومكَاتلهم، فلما رأونا قالوا: -محمد والجيش-، فأدبروا هربا، فقال ﷺ: -الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذ نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين-. قال ابن إسحاق: وتدنى رسول الله ﷺ الأموال يأخذها والحصون يفتحها حصنا حصنا، حتى انتهوا إلى حصنيهم الوطِيح والسلالم. وفي رواية: وكانت أخر حصون خيبر افتتاحا، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشر ليلة، فلما أيقنوا الهلاك، سألوا منه أن يسيرهم ويحقن دماءهم، ثم طلبوا منه أن يعاملهم بالأموال على النصف، ففعل على أنا إن شِئنا أخرجناكم"[57]. واستشهد من المسلمين بخيبر نحو مِن عشرين رجلا، وحدَّث سلمة ابن الأكوع أن رسول الله ﷺ دعا عليا وهو أرمد، فتفل في عينيه ثم قال: "خذ هده الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك"، فخرج بها يهرول هرولة، وأنا لَخلفه نتبع آثره، ثم ركز رايته في ضم من الحجارة تحت الحصن، فأطلع عليه يهودي من رأس الحصن فقال: من أنت؟، قال: أنا علي بن أبي طالب، فقال اليهودي: علوتم وما أنزل الله على موسى، وفي رواية: وحق ما أنزل الله على موسى بن عمران،

---

[53] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1498.

[54] أي فراسخ: جمع فَرْسَخ، وهو ما بين 4 و6 كيلومترات.

[55] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية"، ص.506، بالتصرف.

[56] سورة الفتح، الآية 19.

[57] ابن هشام، السيرة النبوية، ج.3، ص.277 و ما بعد، بالاختصار والتصرف.

فما رجع حتى فتح الله على يديه"[58]. وحدَّث أبو رافع أنه كرم الله وجهه لما كان يقاتل أهل الحصن: "ضربه يهودي فطرح ترسه من يده، فتناول بابا كان عند الحصن فتترس به وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه، فلقد رأيتني في نفر أنا ثَامنهم نجهد أن نقلب ذلك الباب فما نَقلبه"[59]. ورُوي أنه "حمل أيضا باب الحصن على ظهره حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها، فجروه بعد ذلك فلم يحمله إلا أربعون رجلا"[60]. وهذا من عجائب صنع الله [تعالى]، وكله تشريف لنبيه ﷺ.

ثم قال [الناظم]:

وبِرَيحانَتَينِ طيبُهُما مِنـ --- ـكَ الذي أُوْدِعَتهُما الزَهْراء

كُنتَ تُؤويهِما إليكَ كما آ --- وَتْ مِنَ الخَطِّ نُقْطَتَيْها اليَاء

الريحانتين: الحسن والحسين رضي الله عنهما، سماهما النبي ﷺ بذلك كما في صحيح البخاري: "هما رَيْحانتيَّ من الدنيا"[61]، وفي رواية: "إن إبنَيَّ هذين ريحانتيَّ من الدنيا"، وطِيبهما بكسر أوله أي الحسن والحسين: الحسي والمعنوي، وفضلهما على غيرهما إنما هو منك لأنهما بضعتان منك. ولقبا بالريحانتين لاكتسابهما طيب الرائحة من جدهما ﷺ، لأن رائحته كانت تفوق المسك وجميع أنواع الطيب وإن لم يتطيب، وكانت أم سليم[62] تأخذ من عَرقه وتجعله في الطيب، فلا يماثله طيب. وأَودعت بالبناء للفاعل صلة الذي، وهُما مفعوله الأول والمفعول الثاني محذوف، أي إياه يعود الطيب والمودَع على هذا الزهراء، لأن الطيب منه والزهراء منه ﷺ. و[أُودعت] بالبناء للمفعول، على أن الذي بدل من ريحانتين أو خبر مبتدأ محذوف، أي هُما. ويكون الذي بمعنى اللذين مثنى، كما استعمل بمعنى الذين مجموعا في قوله تعالى "وخضتم كالذي خاضوا"[63] على رأي مَن جعله موصولا إسميا، "قال أبو

---

[58] ذكره ابن كثير في "السيرة النبوية".
[59] ذكره الإمام أحمد في مسنده.
[60] لبن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.506.
[61] صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين.
[62] في "المنح المكية" المطبوع، ص.506، كُتبت "أم أنس".
[63] سورة التوبة، الآية 69.

حيان: -يجوز استعمال الذي بمعنى الذين، لكن يجب كون العائد ضمير جمع اعتبارا لمعناه-"[64]، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى "مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم"[65] الآية: ضمير "بنورهم" عائد على الذي، وهو على هذا بمعنى الذين، وحذف النون منه لغة. والمودَع على هذا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أو النبي ﷺ ليُنسبا إليه كسائر أولاد بناته، فإنهم يُنسبون إليه، ولم يبق منهم إلا ذُريتهما. قال ابن حجر: "وأخرج الطبراني والخطيب حديثا: -إن الله جعل ذرية كل نبي في صلبه، وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب-. وسميت بالزهراء لأنها لم تحض قط، كما في حديث رواه النسائي، وروى الخطيب: -ابنتي فاطمة آدمية لم تحض، وإنما سماها الله فاطمة لأنه تعالى فطمها ونحاها عن النار-، ورَوى أن عليا قال: -يا رسول الله، لِمَ سميتها فاطمة؟-، قال: -لأن الله فطمها وذريتها عن النار-. وفي حديث رجاله ثقات إلا واحد مختلف فيه، أنه ﷺ خطب وهو محاصِر الطائف، فمما قال: -أوصيكم بعثرتي خيرا، أوَ إنَّ موعدكم الحوض، والذي نفسي بيده لتقيمُنَّ الصلاة ولَتوتُنَّ الزكاة، أو لأبْعثَّنَّ إليكم رجلا مني أو كنفسي يضرب أعناقكم-، ثم أخذ بيد علي كرم الله وجهه وقال: -ها هو-"[66].

وتُؤويهما بضم التاء رباعي، وفي القاموس: "أويت منزلي وإليه أُوِيّاً: نزلته بنفسي وسكنته، وأَوَيته: أنزلته"[67]، أي كُنتَ تضمهما إليك على الدوام، فإن كان هنا بمعنى ذلك. وكان ﷺ يحبهما أشد المحبة ويُشفق عليهما، ومن ثم صح عنه ﷺ أنه قال: "نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان يعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما"[68]، وأخرج الترمذي والطبراني: "إن هاذان ابناي، وابنا بنتي، اللهم أني أحبهما فأحببهما وأحب من يحبهما"، والترمذي: "أحبُ أهل بيتي إليَّ الحسن والحسين، سيدا شباب أهل الجنة". والياء فاعل آوت بالمد ونقطتيها مفعوله، تلبس

---

[64] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.508، بالتصرف.

[65] سورة البقرة، الآية 17. في النسخة الصبيحية كُتب فقط "مثلهم كمثل الذي استوقد نارا"، وقد زدت في سرد الآية ليتضح ما يأتي بعده.

[66] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.508 و509، بالتصرف.

[67] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.84.

[68] أخرجه الإمامان أحمد والترمذي.

بضمير الفاعل المتأخر عنه لفظا. "ووجه التخصيص بالياء أنها خاتمة الحروف، كما أنه ﷺ خاتم الأنبياء"[69].

---

[69] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.513.

الفصل السابع عشر: من البيت 333 إلى البيت 342

قال [الناظم]:

مِن شَهيديْنِ ليس مُنسيني[1] الطَّفُّ --- مُصابَيْهِما ولا كَرْبَلاء

لما تَشَفَّعَ بالحَسَنَينِ رضي الله عنهما، ذكر ما وقع لهما أسفا عليهما، فمِن بيان لريحانتين. قال ابن حجر: "وكانت ولادة الحسن رضي الله عنه بالمدينة، في نصف رمضان[2] سنة ثلاث من الهجرة، ورَوى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، وتوفي بالمدينة مسموما سنة تسع وأربعين أو خمسين[3]. وسبب شهادته أن يزيد بن مُعاوية أرسل إلى زوجته، جعدة بنت الأشعث بن قيس، أن تسمه ويتزوجها، وبذل لها مئة ألف درهم ففعلت، فمرض أربعين يوما وتوفى رضي الله عنه، فبعثت ليزيد بما واعدها به فأبى. وجهد به الحسين أن يَجهر بمَن سمه فأبى وقال: -الله أشد انتقاما، وأجِدُ كبدي تُقطع-، ثم قال: -وأقسم عليك أن لا تُريق في أمري محجمة دم-. ولما احتضر قال للحسين: -يا أخي، إن أباك استشرف لهذا الأمر المرة بعد المرة، فصرفه الله عنه إلى الثلاثة قبله، ثم وُليَّ فنوزع حتى جرد السيف فما صفت له، وإني والله ما أرى أن يَجمع الله فينا النبوة والخلافة، وربما يستخفك سفهاء أهل الكوفة فيُخرجونك. وقد كنت طلبت من عائشة أن أُدفن مع رسول الله ﷺ فأجابت، فإذا مِتُّ فاطلب منها، وما أظن القوم إلا سيمنعونك، فإن أبوا فلا تراجعهم-. فلما مات سأل الحسين عائشة رضي الله عنها فقالت: -نعم وكرامة-، فمنعهم مروان وكان والي المدينة، فتسلح الحسين ومن معه، ثم رده أبو هريرة عن ذلك. ثم دفن بالبقيع إلى جنب أمه رضي الله عنهما. وكان مروان يُكثر أذيته وكان أشد الناس بُغضا لأهل البيت، وكان هذا سر الحديث الذي صححه الحاكم، أن عبد الرحمان بن عوف رضي الله عنه قال: -كان لا يولد لأحد مولود إلا أتى به النبي ﷺ فيدعو له، فأُدخل

---

[1] في" المنح المكية" المطبوع كُتبت "يُنسيني".
[2] في "المنح المكية" المطبوع كُتب "شعبان".
[3] في النسخة الصبيحية أضيف "أو إحدى وخمسين"، واقتصرت على ما جاء في النسخة الحسنية لأنه يوافق ما في المرجع المنقول عنه.

عليه مروان بن الحكم فقال: -هو الوزغ بن الوزغ، الملعون بن الملعون-. وروى أيضا حديثا من جملة قول عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه"[4].

قال مؤلفه عفا الله عنه: ورأيت في تأليف[5] الشيخ سيدي محمد بن حمدون العلمي، [من][6] السادات أولاد ابن رَيْسون، ما نصه: وكان الشريف الشيخ الطباطبي تسلط عليه بعض الأتراك في المدينة حتى أخرجه من خلوته، فرأى النبي ﷺ ليلة في المنام وهو يشكو إليه فعل التركي، فأنشده النبي ﷺ في ذلك النوم بيتين، وهي هذه:

يا بني الزهراء والنور الذي --- ظن موسى أنه نار القَبَسْ

لا أوالي الدهر ما عاداكم --- إنه آخر سطر في عَبَسْ

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ كان يحمل الحسن على عاتقه ويقول: "اللهم إني أحبه فَأَحِبَّه"[7]، وصح "من أحبني فليحبه، وليبلغ الشاهد الغائب، اللهم إني أحبه وأحب من يحبه"[8]، ثلاث مرات.

وجاء من طرق صحيحة أنه ﷺ قال على المنبر: "إن ابني هذا -أي الحسن- سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"[9]، وقد حقق الله [عز وجل] ذلك، "فإن أباه كرم الله وجهيهما لما توفى وُليَّ الخلافة بمبايعة أهل الكوفة، فكان آخر الخلفاء الراشدين بنص جده ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: -الخلافة بعدي ثلاثين سنة-، فمدة خلافته هي الستة أشهر الباقية منها"[10]. وعند مُضيها، سار إلى معاوية في أربعين ألفا، فلما تراء الجمعان عَلم الحسن رضي الله عنه أنه لن تغلب إحدى الطائفتين حتى يهلك أكثر الأخرى، فرضي بالنزول عن الخلافة لمعاوية صونا

---

[4] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.514 و515، بالتصرف.
[5] لم أقف لا على التأليف ولا على المؤلف.
[6] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "أن"، ولا معنى له.
[7] صحيحي الإمامين البخاري ومسلم.
[8] ذكره الحاكم في مستدركه، دون آخره "اللهم ...".
[9] صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب ابني هذا سيد.
[10] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.520.

للدماء وشفقة على المسلمين لا وَهناً منه، فنزل على شروط قبلها معاوية وصار إماما حقا، وكان قبل ذلك مُتغلبا لكن باجتهاده، وليس بآثم بل مأجور.

وأما الحسين رضي الله عنه فولد لخمس خَلَون من شعبان سنة أربع. ومن فضائله قول جده ﷺ: "حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحبه، حسين سبط الأسباط"[11]، وفي رواية: "الحسن والحسين سبطان من الأسباط"[12]. وسبب شهادته رضي الله عنه، أن يزيد لما استخلف سنة ستين أرسل لعامله بالمدينة أن يأخذ له البيعة من الحسين، ففر لمكة خوفا على نفسه، فأرسل إليه أهل الكوفة أن يأتيهم ليبايعوه ويمحي ما هم فيه من الجور، فنهاه ابن عباس وبيَّن له غدرهم وقتلهم لأبيه وخُذلانهم لأخيه، وأمره أن لا يذهب بأهله فأبى، فبكى ابن عباس وقال: "وا حسيناه". وقال له ابن عمر مثل ذلك فأبى، فقبَّله بين عينيه وقال: "أستودعك الله من قتيل"، وكذلك نهاه ابن الزبير رضي الله عنهم، بل لم يبق بمكة إلا من حزن لمسيره، ولما بلغ أخاه محمد بن الحنفية بكى حتى ملأ طستا بين يديه. ثم قدم أمامه مسلم بن عقيل، فبايعه من أهل الكوفة اثنا عشر ألفا، فأرسل إليه يزيدٌ بن عبيد الله بن زيادَ فقتله. وسار الحسين غير عالم بذلك، فلقي الفرزدق فسأله فقال: "قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء". فلما قرب من القادسية تلقاه مَن أخبره الخبر وأمره بالرجوع فهم به، فقال أخو مسلم المقتول: "لا بل حتى نأخذ بثأرنا أو نُقتل". ثم سار فلقيه أوائل خيل ابن زياد، فعدل إلى كربلاء، فجهز إليه ابن زياد عشرين ألف مقاتل. فلما وصلوا التمسوا منه نزوله على حكم ابن زياد وبيعته ليزيد، فأبى فقاتلوه، وكان أكثر مُقاتليه الذين كتبوا إليه بالبيعة وبايعوه. فحارب ذلك العدد الكثير ومعه من أهل بيته نيف وثمانون، فثبت في ذلك الموقف ثباتا باهرا، ولولا أنهم حالوا بينه وبين الماء ما قدروا عليه. فلما استحرَّ القتل في أهله حتى بلغوا خمسين، خرج يزيد بن الحارث رجاء شفاعة جده، فقاتل بين يديه حتى قُتل. ثم فَني أصحابه وبقي منفردا، فحمل عليهم حتى قَتل كثيرا من

---

[11] أخرجه الأئمة الترمذي وابن حبان وابن ماجة وأحمد .

[12] أخرجه الإمام الطبراني في "الكبير".

شجعانهم، فكثروا عليه حتى حالوا بينه وبين حريمه، فلم يزل يُقاتلهم حتى أثخنوه بالجراح فطعنوه إحدى وثلاثين طعنة، وضُرب أربعا وثلاثين ضربة، ثم غلبه العطش فخر إلى الأرض، فجَز رأسه خولي بن يزيد الأصبحي لعنه الله، يوم الجمعة عاشر محرم سنة إحدى وستين، بأمر سنان النخعي كبهُ اللهُ على وجهه في النار، وجاء به إلى زياد وأنشده:

أوفر ركابي فضة وذهبا --- إني قتلت المَلِكَ المُهذبا

أفضل خلق الله أُما وأَبا --- وخيرهم إذ يذكرون نسَبا

فقال: "إذا علمته كذلك فلم قَتَلته؟"، فلم يُجزى بشيء، وقيل أنه أمر بضرب عُنقه. وقُتل مع الحسين من إخوته وبنيه وبني أخيه الحسن ومن أولاد جعفر وعقيل تسعة عشر رجلا، على ما قاله الحسن البصري، وفي ذلك قال الشاعر[13]:

عيني جودي بعَبرة وعويل --- واندبي إن ندبت آل الرسول

سبعة كلهم لِصُلب عليٍّ --- قد أصيبوا وتسعة لعقيل

فعليه كانوا ستة عشر أو أن الشاعر لم يذكر بني جعفر، فما كان لهم شبيه يومئذ على وجه الأرض.

وجعل ابن زياد رأسه الشريف في طست، وجعل يضرب ثناياه بقضيب ويدخله في أنفه ويتعجب من حسن ثغره، فبكى أنس وقال: "كان أشبههم برسول الله ﷺ"، وقال له زيد بن أرقم: "ارفع قضيبك فلقد طال ما رأيت رسول الله ﷺ يُقبل ما بين تلك الشفتين" وبكى، فأغلظ عليه ابن زياد وهدده بالقتل، فقال: "لأحدثنك بما هو أغلظ عليك من هذا، رأيت رسول الله ﷺ أقعد حسنا على فخذه اليمنى وحسينا على فخضه اليسرى، ثم وضع يديه على يافوخهما ثم قال: -اللهم إني استودعك إياهما وصالحي المومنين-، فكيف كانت وديعة النبي ﷺ عندك يا ابن زياد؟".[14]

---

[13] سليمان بن قتة التيمي، من شعراء القرن الأول هجري.

[14] أورد ابن حجر نفس القصة في "المنح المكية" ، ص. 517 و518، وأضاف عليها العلامة الشبيهي.

قال ابن حجر: "ولا عجب، فإن يزيد [بن معاوية] بلغ في الفسق والانحلال عن التقوى، مبلغا لا يُستكثر عليه صدور مثل هذا منه، بل قال الإمام أحمد بكُفره، وناهيك به[15] ورعا وعلما يقضيان بأنه لم يقل ذلك إلا لثبوت قضايا صريحة عنده تقتضي ذلك، وإن لم تثبت عند غيره، كالغزالي فإنه أطال في رد كثير مما نسب إليه كقتل الحسين فقال: -لم يثبت من طريق صحيح أنه قتله أو أمر بقتله-، ثم بالغ في تحريم لعنه وسبه، وكابن العربي المالكي فإنه نُقل عنه أنه قال: -لم يَقتل يزيدُ الحسينَ إلا بسيف جده-، يعني لأنه الخليفة والحسين باغٍ عليه والبيعة سَبقت ليزيد، ويكفي فيها بعض أهل الحل والعقد وبيعته كذلك، لأن كثيرين قدموا عليها مختارين لها، هذا مع عدم النظر إلى استخلاف أبيه له، أما مع النظر إلى ذلك فلا تشترط موافقة أهل الحل والعقد. وذلك مردود بأن هذا إنما هو بعد استقرار الأحكام، وانعقاد الاجماع على تحريم الخروج على الجائر، أما قبل ذلك فكان الأمر منوطا بالاجتهاد. واجتهاد الحسين رضي الله عنه اقتضى جواز أو وجوب الخروج عن يزيد لجوره وغوايته وقبحه وقبائحه التي تصم عنها الأذان، فالحسين مُحق بالنسبة لما عنده، ونظير ذلك معاوية مع الحسن قبل نزوله عن الخلافة، ومع علي كرم الله وجهه، فإنه كان متغلبا باغيا عليهما، لكن باجتهاده غير آثم، والحسين كذلك، فتأمل ذلك فإن كلام الأئمة فيه كالمتنافي، ولا يزول الإشكال إلا بما قررته"[16].

"ولما دخل ابن زياد قصر الإمارة بالكوفة، أمر بالرأس فوُضع عن يمينه والناس [سماطان][17]، ثم أنزله ووجهه مع رؤوس أصحابه وسبايا آل الحسين إلى يزيد. فلما وصلوا إليه قِيل ترحم عليهم[18]، والمشهور أنه جعل ينكث الرأس بالخيزران. وجُمع بأنه أظهر الأول وأخفى الثاني، فقيل: -والعجب كل العجب، من ضرب يزيد ثنايا الحسين بالقضيب، وحمل آل النبي على أقتاب الإبل موثقين بالحبال، والنساء

[15] أي الإمام أحمد.

[16] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.519.

[17] في النسختين الحسنية والصبيحية تُرك فراغ ملأته حسب ما جاء في "المنح المكية".

[18] في "المنح المكية" المطبوع كُتب "عليه".

مكشوفات الوجوه والرؤوس-"[19]. "وحين وصلوا دمشق، أُقيموا على درج الجامع حيثُ يُقام الأسارى والسَّبي. قيل أن يزيد أرسل برأس الحسين ونُقل من بقي من أهله إلى المدينة، فكُفِّن رأسه ودُفن مع أمه بقُبَّة الحسن. وقيل أعيد إلى الجثة بكربلاء بعد أربعين يوما من مقتله"[20]، وهو المشهور. وقيل نقلوه بنو عبيد إلى مصر لما تَوَلَّوا، وأعطوا على نقله مالا جزيلا. وقيل نُقل إليها في دولة الفاطميين، وجُعل له مدفن عظيم بالقرب من الجامع الأزهر. وقد وقع لأستاذ العارفين الشيخ كريم الدين الخلوتي[21] واقعة تدل على وجوده فيه، وفيها الأمر من الحضرة الإلهية بزيارة ذلك المشهد العظيم الشريف، فواظب على زيارته كل يوم الثلاثاء، فصار يوما مشهودا يجتمع فيه خلق كثير من الزوار يتعرفون بركته، وبقى كذلك بعد أن توفى، ولا يزال إن شاء الله إلى قيام الساعة.

"وأظهر الله تعالى عند مقتل الحسين آيات عظيمة وعبراً لمن يعتبر، منها أنه لما نزِل الذين أرسلهم ابن زياد بالرأس خرجت من الحائط يد معها قلم من حديد، فكتبت سطرا بدم فيه:

أترجو أمة قتلت حُسيناً --- شفاعة جده يوم الحساب

ثم هربوا وتركوا الرأس حتى عادوا وأخذوه، أو أخذه غيرهم وحمله إلى يزيد"[22]. ورُوي عن أنس رضي الله عنه: "أن رجلا من أهل حران احتفر حفرة، فوجد فيها لوحا من ذهب مكتوبا فيه هذا البيت، وبعده كُتب إبراهيم خليل الرحمان. فجيء باللوح إلى رسول الله ﷺ، فقرأه ثم بكى وقال: -من آذاني في عترتي لم تنله شفاعتي-"[23]. "ومنها أن السماء أمطرت في ذلك اليوم دما، وما رفع حجر في ذلك البلد إلا وجد تحته دم عبيط، وعن ابن سيرين أن الحمرة التي مع الشفق لم تكن حتى قُتل الحسين. قال ابن الجوزي: -وحكمة ذلك أن غضبنا يوثر حمرة الوجه، والباري

---

[19] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.518 و519.

[20] نفس المرجع السابق، ص.520.

[21] ربما يقصد الشيخ محمد بن أحمد بن محمد كريم الدين الخُلْوَتي، من الخلوة الصوفية، المتوفى بمصر سنة 986هـ.

[22] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.520.

[23] ذكره ابن الجوزي في موضوعاته.

تعالى منزه عن الجسمية، فأظهر تأثير غضبه على من قتل الحسين بحمرة الشفق، إظهاراً لتعظيم الجناية-. ويقال أن الشمس كسفت يومئذ حتى ظهرت الكواكب. وسلط الله على ابن زياد وقومه من قتلهم شر قتلة"[24].

وذُكر أن سنان النخعي الذي أمر بجز الرأس اعتقل لسانه وذهب عقله، وكان يأكل ويُحْدث من ساعته. وقال السدي[25]: "مررت بكربلاء فبت عند شيخ فتحدثنا بمقتل الحسين، فقلت: -ما شارك أحد في قتله إلا مات موت السوء-، فقال: -ما أكذبكم يا أهل العراق، اننا ممن شارك في ذلك- ثم إنه دنا من المصباح فذهب ليخرج الفتيلة بإصبعه فأخذت النار فيها، فذهب يطفئها بريقه، فأخذت النار في لحيته فذهب فألقى بنفسه في الماء، فجعل إذا تغمس في الماء بقيت النار على الماء، فإذا ظهر أخذته حتى قتلته، فرأيته كأنه حُممة". وحدَّث دغفل أنه بلغه عن بعض نساء قومه، أنها سمعت تلك الليلة نُياح الجن فحفظت منه شعرا، وهو:

يا ابن الشهيد وَيا شهيداً عمه --- خيْر العمومة جعفرُ الطيّـارُ

عَجَباً لِمَصْقولٍ أصابكَ حَدُّهُ --- في الوجهِ منكَ وقد علاه غُبارُ

ومَرَّ رجل من كربلاء فسأل أعرابيا ممن يُجاورها وقال: -بلغنا أنكم تسمعون نُياح الجِّن؟-، فقال: -ما تلقى حُرّاً ولا عبداً إلا أخبرك بذلك-، فقال: -أخبرني بما سمعت- ، فقال:

مسح الرسول جبينه --- وله بريق في الخدود

أبواه مِن عَلْيَا قريش --- وجده خير الجـــدود

[وأذكِّر بالبيت السابق ليتسنى للقارئ فهم ما يُتبع:

مِن شَهيدَيْنِ ليس مُنسيني الطَّفُّ --- مُصابَيْهِما ولا كَرْبَلاء]

---

[24] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص. 520 و521، بالتصرف.

[25] لعله إسماعيل بن عبد الرحمان السدي: تابعي مُحدث ومُفسر روى عن أنس بن مالك وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وغيرهما من الصحابة.

والطف فاعل مُنسيني بضم الميم: مَوضعٌ بالعراق ويُسمى بكربلاء، أو قريب منها، والكل بقرب الكوفة، وقبره [أي الحسين] هنالك مشهور يُزار ويُتبرك به، أي تذكر ما ةقع فيه دائما. ومُصابيهما بضم الميم: تثنية اسم مصدر من أصاب، أي أصابتهما وضميره يعود إلى الشهيدين، وإنما يصح قياس هذا المصدر من الفعل الرباعي كما قال ابن مالك في لاميته، ونظيره قول الشاعر:

أظلومٌ إنَّ مُصابَكم رَجُلاً --- أهدى السلامَ تحيةً ظُلْمُ

قال ابن حجر: "وقال مصابيهما بالتثنية باعتبار مجموعهما، على حد قوله تعالى – يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان-، إذ هما يخرجان من الملح فقط، أي كأنه إذا تذكر موت الحسين بهذين الموضعين تذكر موت الحسن لقربه منه"[26]. ويصح ضم ميم مُصابيهما أيضا على أنه تثنية اسم مصدر نائب عن اسمَي مكان أو اسمَي زمان، أي مكانَي الإصابة أو وقتيهما. قال السنباطي: "وجاء من طرق صحح الحاكم بعضها، أن جبرل جاء إلى النبي ﷺ فأخبره أن الحسين مقتول، وأراه من تربة الأرض التي يقتل فيها، فأعطاه لأم سلمة وأخبرها أنه يوم يقتل الحسين يتحول دما، فكان كذلك. وشمَّ ﷺ ذلك التراب فقال: -ريح كربلاء-، وفي رواية: فأشار جبريل إلى الطفِّ بالعراق، بناحية الكوفة"[27]. ورُوي أن ابن عباس قال: "سمعت صياحا في بيت أم سلمة فجئت وجاء الناس، فقلت: -مالك يا أم المؤمنين؟-، فقالت:-يا بنات عبد المطلب اسعدنني فقد قُتل الحسين، إني رأيت [في المنام][28] رسول الله ﷺ الساعة أشعت أغبر، وهو يقول : -قُتل الحسين وأهل بيته الساعة-، فدخلت البيت، فإذا التربة التي أعطاها جبريل للنبي ﷺ وقال له إذا صارت دما فقد قُتل ابنك وأَوْدَعَنيها ﷺ، وجدتها صارت دما-. فأخذتها أم سلمة ولطخت بها وجهها. فلم يلبث أن جاء الخبر أن الحسين قُتل رضي الله عنه في ذلك اليوم"[29].

ثم قال [الناظم]:

---

[26] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.523، بالتصرف وآخره مخالف لما في "المنح المكية" المطبوع.

[27] السنباطي، مخطوط شرح الهمزية، ص.121.

[28] أضفته حسب لفظ المرجع.

[29] رواه الشيخ الطوسي (من الشيعة) في "الأماني"، بلفظ مخالف.

ما رَعى فيهما ذِمامَكَ مَرْؤو --- سٌ وقد خانَ عَهدَكَ الرُّؤَساء

أبدلوا الوُدَّ والحَفيظَةَ في القُرْ --- بَى وأبدت ضِبابَها النَّافِقـاء

الذِّمام بفتح المعجمة، قال في القاموس: "الذمام: الحق والحُرمة الجمع أذِمة، والذِّمة بالكسر: العهد"[30]، ومرؤوس أي تابع فاعل رعى. ورعاية ذمته ﷺ في آل بيته واجبة على كل مسلم، لكن منهم من تهاون بها، كَجَعدة[31] في الحسن وابن زياد ومَن تبعه في الحسين. والرؤساء: الأمراء، فاعل خان لجورهم وطغيانهم، كيَزيد ومن وافقه لتسببه في قتلهما، لكنهما فازا بالشهادة العظمى وباء هو بخزي الدنيا والآخرة، فجُرأته على آل بيت رسول الله ﷺ وإهانته لهم بالقتل والفضيحة لعيالهم، استخفاف بالدين وحُب الرياسة الموبقة. وضمير فيهما للشهيدين، والخطاب للنبي ﷺ.

وضمير أبدلوا يعود إلى الرؤساء والمرؤوسين، والوُدَّ بتثليث الواو: المودة الواجبة عليهم بتحريض[32] القرآن لهم في قوله تعالى "قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى"[33]، فسرها جماعة منهم ابن عباس بآل البيت النبوي. وأبدلوا الحفيظة أيضا أي النُصرة، بالبغض والإذاية لهم بكل ما قدروا عليه ونبذوا ما أوصاهم الله به ورسوله، مما صح عن ابن الشكر[34]، أن رسول الله ﷺ قال وقد أشار إلى الحسين: "إن ابني هذا يُقتل بأرض العراق، فمن أدركه منكم فلينصره"[35]، وبهذا يُرد قول من قال أن الخلافة سبقت لليزيد وأن الحسين باغ عليه، نسأل الله السلامة من هذه الطوية. وفي صحيح البخاري، من حديث [ابن أبي] نُعْم قال: "سمعتُ عبد الله بن عمر، وسأله عن المُحْرِم، قال شعبة: -أحسبه يقتل الذباب؟-، فقال: -أهل العراق

---

[30] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.597.
[31] زوج سيدنا الحسن رضي الله عنه، كما سبق.
[32] بمعنى تحبيب.
[33] سورة الشورى، الآية 23. هو قوله تعالى لنبيه ﷺ، بمعنى قُل يا محمد (تفسير الطبري).
[34] لم أقف عليه، ولعله الإمام المحدث حماد بن شاكر النَّسفي.
[35] أورده ابن كثير في "البداية والنهاية" عن أنس بن الحارث رضي الله عنه، أحد شهداء كربلاء إلى جانب سيدنا الحسين رضي الله عنه.

يسألون عن قتل الذباب و[قد] قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ؟ وقال النبي ﷺ: -هما ريحانتاي من الدنيا-"[36].

والضباب بكسر أوله جمع ضب بالفتح، قيل هو اليربوع: دويبة تأوي الصحاري، مفعول أبدت أي أظهرت، والنافقاء فاعله، وهي "إحدى جِحْرتي اليربوع التي يَتَرفقها ويأوي إليها، يجعل الحاجز بينه وبين الفضاء قريبا جدا، ويكتمها ويظهر أخرى بإزائها تُسمى القَاصِعاء لِيَلا يُصاد، فإذا أتى من قبلها ضرب النافِقاء برأسه فَانتفقت أي انشقت وهرب منها"[37] كذا في القاموس. ويُخالفه كلام الناظم حيث نسب النافقاء إلى الضب، وهي لليربوع لا له، ويُحتمل أنه كنّى بالضب عن اليربوع أو أنهما عنده مترادفان، والحق أنهما متغايران لأن اليربوع نوع من الفأر، وأما الضب فأكبر منه ولا زغب له، وأن له ذنَب طويل غُلظه قدر الإصبع وبجانبيه شوك قصير متصل من أصله إلى طرفه هو كالمنشار، وبهذا وصفه لنا كثير ممن يعرفه من سكان الصحراء وغيرهم. والنَّفَق بفتحتين: سرب تحت الأرض، شَبَّه هؤلاء الأعادي بالنافقاء، وشبه ما انطووا عليه من العداوة والبغضاء بالضباب، فكما أظهرت النافقاء الضباب الكامنين فيها، أظهر الأعادي عداوتهم وإذايتهم لآل بيت النبي ﷺ، ففعلوا بهم ما لا تطيقه الأسماع.

ثم قال الناظم:

وقَسَت منهُمُ قلوبٌ على مَن --- بَكتِ الأرضُ فَقْدَهمْ والسَّمـاء

فَابْكِهِمْ ما اسْتَطَعْتَ إنَّ قليلاً --- في عَظيمٍ مِنَ المُصابِ الْبُكاء

قلوبٌ فاعل قَسَت أي غلظت واشتدت على أئمة عظام، وعلى اللهِ كرام، وَهُمْ أهل البيت النبوي على جدهم أفضل الصلاة والسلام. ومِن [في مِنهمُ] للتبعيض ومجرورها يعود إلى الأعادي، حال من قلوب، ومَن واقعة على الشهداء وعليهم يعود ضمير فقدهم، وبكاء الأرض والسماء على المومن يؤخذ من مفهوم قوله تعالى

---

[36] صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين.

[37] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1638.

"فما بكت عليهم السماء والأرض"[38]، ونُقل في "العلوم الفاخرة"[39] عن صاحب "روضة الحقائق"[40] بعد طول الحديث ما نصه: "جاء عن النبي ﷺ أنه قال: -يبكي عليه (يعني على المومن) موضع صلاته من الأرض، ومن السماء الباب الذي يصعد منه عمله-"، فما بالك بأكرم أهل الأرض، آل بيت الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

ومن ثم حض [الناظم] على البكاء عليهم بقوله فابكيهم أي عليهم، وما ظرفية مصدرية، تأسياً بنبينا محمد ﷺ ثم بعلي كرم الله وجهه، "فقد روى ابن سعد عن الشعبي قال: مرَّ علي كرم الله وجهه بكربلاء عند مسيره إلى صَفَّيْن، فوقف وسأل عن اسم هذه الأرض فقيل له كربلاء، فبكى حتى بلَّ الأرض من دموعه، ثم قال: -دخلت على رسول الله ﷺ وهو يبكي، فقلت: --ما يبكيك؟-- قال: --كان عندي جبريل آنفا وأخبرني أن ولدي الحسين يُقتل بشاطئ الفرات، بموضع يقال له كربلاء، ثم قبض جبريل قبضة من تراب شمني إياها، فلم أملك عيني أن فاضتا--"[41]. وقليلا نعت لمحذوف هو اسم إن، أي جزاءً قليلاً، والبكاء خبرها. ولا محذور في الإخبار بالمعرفة عن النكرة كما عليه جهابذة النحاة، ومنه قول حسَّانٍ رضي الله عنه: "يكون مزاجها عسل وماء"[42]. وفي عظيم متعلق بالبكاء ومن بيان لعظيم، وفي بمعنى على.

والمعنى: أقل ما يجازي به الضعيف في مقابلة المصاب العظيم، البكاء عليه ما استطاع، لاسيما الحسن والحسين وأهل بيتهم رضي الله عنهم. ومن ثم قال [الشاعر]:

ليسَ شَقُّ الجُيوبِ حَق عَلينا --- إنما الحقُّ أن نشُقَّ القُلوبَ

---

[38] سورة الدخان، الآية 29.

[39] العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة، لصاحبه عبد الرحمان بن محمد الثعالبي الجعفري.

[40] المنسوب لأبي عبد الله بن الخلال.

[41] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.523.

[42] كأن سبيئة من بيت رأس --- يكون مزاجها عسل وماء.

وغير القليل قَتْلُ قاتليهم، ودوام نُصرتهم والثناء عليهم والرَّدُّ على أعدائهم بإبطال حجتهم.

ثم ذكر [الناظم] دوام حزنه عليهم، فقال:

كُـلُّ يَـومٍ وكُـلُّ أرضٍ لِـكَرْبِي --- مِنهمُ كَرْبَلاءُ وعَاشُوراء

آل بَيْـتِ الـنـبـيِّ إن فُــؤادي --- ليس يُسْلِيهِ عنكمُ التَّأْساء

غَيرَ أنِّي فَوَّضتُ أمري إلى اللهِ --- وتَفْوِيضِيَ الأُمورَ بَراء

كل يوم مبتدأ وعاشوراء خبره، وكذلك كل أرض مع كربلاء، وفيه لف ونشر معكوس، ومجرور من يعود إلى القربى وهي متعلقة بكربي، أي الغم الذي يأخذ النفس، وهو حال من المبتدأين بتقدير كائنين، ويحتمل البيت إعرابا غيره.

والمعنى أنه من شدة حزنه ودوام تأسفه عليهم، حتى أن كل أرض يحل بها تتصور له أنها كربلاء التي قُتل فيها الحسين رضي الله عنه، وكل يوم يُصبح فيه يُتصور له أنه يوم عاشوراء[43]، ولذلك فكَربه من أجلهم لا يُفارقه، حتى أنه عمَّ جميع ما هو فيه من الأمكنة والأزمنة، ومن ثم قال ليس يسليه.

وآل بيت النبي مُنادى، "وهم مؤمنو بني هاشم والمطلب، وهم المذكورون في قوله تعالى -إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت-[44] الآية، على مذهب من يرى التعميم، وذهب كثير من المفسرين إلى أنها نزلت في علي وفاطمة وابنيهما رضي الله عنهم، وقيل نزلت في نسائه ﷺ ونُسب لابن عباس وكان مولاه ينادي به في الأسواق، ورُدَّ بتذكير ضمير -عنكم-[45] وما بعده. وقال جمعٌ نزلت [فيهما][46]،

---

[43] وهو يوم مقتل الحسين رضي الله عنه.

[44] سورة الأحزاب، الآية 33.

[45] أي لو صح لجاء في الآية "عنكن" بالتأنيث.

[46] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "فيهن"، وهو خطأ نقل صححته تبعا لما جاء في المرجع المطبوع.

ورجح [جمع][47] بأنهن سبب النزول فيدخلن قطعا"[48]. وسيأتي الكلام عليه مبسوطا إن شاء الله، عند قوله [أي الناظم]: "ومن حوته العباء".

والتسلي: التَّنَسِّي، والتأساء بفتح المثناة الفوقية ممدودا: الإذايَة والمحنة، وفي القاموس: "تأساه: آذاه واستخف به"[49].

والمعنى أن كل ما يحصل له من الشدة والمحن، لا ينسيه ولا يُزيل ما به من الكرب عليهم، لعظيم محبته لهم وخالص الوداد الذي لا يُنقض بقرب أو بعاد، وهذا ما يدينهم به مَن له ماسَّة[50] بالإسلام.

وغير استثناء منقطع، أي إلا أني فوضتُ، أشار به إلى أن كل ما عنده من الوفاء بحقهما من التَّأسِّي والتَّحزُّن عليهما، إنما هو مع تفويضه الأمر إلى الله فيما قضاه. وتفويض الأمور إلى مُريدِها[51] بَراء بفتح أوله: مُبرئٌ للمُفوِّض من اعتماده على شيء دون حول الله وقوته. وهذا مُتعين على كل مسلم فضلا عن الكُمَّل، وفي رسالة القشيري: "الرضا -يعني بالقضاء- باب الله الأعظم، من أُكرم بالرضا فقد لُقي بالترحيب الأوفى وأُكرم بالتقريب الأعلى"[52]. وقيل: "قال موسى عليه السلام: -إلاهي، دُلني على عمل إذا عملته رَضيت عني-، قال: -إنك لا تطيق ذلك-، فخر موسى ساجدا متضرعا، فأوحى الله إليه: -يا ابن عمران، إن رضايَ في رضاكَ بقضائي"[53].

ثم قال [الناظم]:

رُبَّ يَومٍ بكَربلاءَ مُسيءٍ --- خَفَّفَتْ بعضَ وِزرِهِ الزَّوْراء

---

[47] أضفتها حسب لفظ "المنح المكية" المطبوع، وإلا فقد كُتبت في النسختين "ورُجح" بالبناء للمجهول.

[48] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.530.

[49] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.190.

[50] أي من له حاجة مُلحَّة.

[51] اسم فاعل من أَراد، أي الله عز وجل.

[52] القشيري، الرسالة القشيرية، ص.339.

[53] نفس الإحالة السابقة.

والأَعادي كأَنَّ كُلَّ طَريحٍ --- مِنهُمُ الزِّقُّ حُلَّ عَنهُ الوِكاء

رُبَّ لتكثير الإساءة في ذلك اليوم باعتبار ما أصاب فيه الحسين رضي الله عنه، خفَّفَت أي قلَّلَت بعضا من وزره، أي الثقل الذي على قلبِه من أجل ما وقع لأهل البيت. والزوراء موضع بناحية بغداد لِما "وقع فيها من خُلفاء بني العباس، الذين هم من جملة آل البيت، مِن أخذهم بثأر ابن عمهم الحسين ومن معه من بني أمية"[54]، حيث عَتوا[55] وحاربوا اللهَ ورسوله ولم يُراقبوهما في ذِمامهما، فنزعهم الله من الخلافة بعد أن قتلوهم [أي بني العباس] في ذلك المحل شر القتل، حتى كأن كل طريح منهم، أي مطروح في الأرض من الأعادي المذكورين، الزق. وقال في القاموس [عن الزق]: "وهو بالضم: الخمر، وبالكسر: السِّقاء"[56]، وعلى الأول فهو على حذف مُضاف أي وعاء الخمر، شبههم به لما يخرج منه من الخبث والنجاسة المعلوم بها والرائحة الكريهة، وهو أنسب بالمقام[57]. والوكاء بكسر أوله، وهو ما يُشدُّ به فم القربة وغيرها.

---

[54] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.533.

[55] أي استكبروا وجاوزوا الحد.

[56] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.711,

[57] لا نجد فيما يتبع في النسختين: "وعلى الثاني".

الفصل الثامن عشر: من البيت 343 إلى البيت 362

قال [الناظم]:

آلَ بيت النبيِّ طِبْتُمْ فَطابَ الـ --- مَدحُ لي فِيكُم وطابَ الرِّثاء

أنَـا حَسَّـانُ مَدحِكُم فَـإذا نُحْـ --- ـتُ عَلَيكُمْ فَـإنَّني الخَنْسَــاء

آلَ منصوبٌ على النداء أي "طبتم نفوسا وأصولا وأفعالا وأقوالا وصفات، فيُحتمل أنه من الطيب المتقدم في قوله -طيبهما منك-، ويُحتمل أن الطيب تم لهما من كل وجه، وهنا للباقين، وهو الوجه"[1] قاله ابن حجر، ثم قال: "لأن ذلك في خصوصهما، وهذا في عموم آل البيت، كما دلت عليه الآية –إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس آل البيت ويطهركم تطهيرا-. وفي أحاديثٍ تحريمهم على النار وهو فائدة ذلك التطهير وغايته، إذ منه إلهام الإنابة إلى الله تعالى وإدامة الأعمال الصالحة، ومن ثم لماذا ذهبت عنهم الخلافة الظاهرة؟، لكونها صارت مُلكا عضوضا، ولذا لم تتم للحسن، عوضوا عنها الخلافة الباطنية، حتى ذهب قوم إلى أن قُطب الأولياء في كل زمن لا يكون إلا منهم"[2]. والرِثاء بكسر أوله وبالمثلثة: تعداد محاسن الميت والبكاء عليه.

وفي قَوله حسّان تورية لطيفة بصيغة فَعَّال للمبالغة، أي يُكثر تحسين مدحهم على أحسن ما يُمكن من وجوه الفصاحة والبلاغة، أو أنه شبه نفسه بحَسّان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، شاعر رسول الله ﷺ، كان ينصِب له المنبر في المسجد، ويُنافح عليه كُفارَ قريش وغيرهم ممن كان يُفاخر على رسول الله ﷺ، وهو يدعو له: "اللهم أيده بروح القُدُس"[3]. ومن بلاغته [رضي الله عنه] أنه لما أراد أن يهجو قريشا، أخبره النبي ﷺ بأن له في كل بطن من قريش قرابة، قال: "لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين"[4]. ورآه عمر رضي الله عنه ينشد شعرا في المسجد فنظر

[1] لبن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.534، بالتصرف.
[2] نفس الإحالة السابقة، بالاختصار.
[3] صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الشعر في المسجد.
[4] صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب من أحب ألا يسب نسبه.

إليه شَزْراً[5]، فقال: "كنت أنشده فيه بين يدي من هو خير منك وهو يقول: -اللهم أيده بروح القُدُس-"[6]، ثم استشهد بَعض الصحابة على ذلك فشهدوا له به.

ونُحتُ بضم أوله أي رفعت صوتي بالبكاء عليكم، فإنني الخنساء بنت عمرو بن الرشيد أي كالخنساء في نوحها على أخيها صخر ورثائها له، فإنها مع "إجماع علماء الشعر على أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها"[7]، بلغت في رِثاها لأخيها مبلغا يُضرب به المثل، ويكفي فيها ما قال في الإصابة ونصه: "قال أبو عمر: قدمَت على النبي ﷺ مع قومها من بني سليم فأسلمت معهم، فذكروا أن رسول الله ﷺ كان يشكرها ويعجبه شِعرها، وكانت تنشده وهو يقول: -هيه يا خنساء- ويومئ بيده"[8]، ثم قال:" وحضرت القادسية مع أولادها أربعة، وكانت تُحرضهم على القتال حتى استشهدوا، ثم قالت : -الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته-"[9]. "قالوا: وكان عمر يعطيها أرزاق أولادها الأربعة حتى قُبض"[10].

و"قيل لجريج: -من أشعر الناس؟-، قال: -أنا لولا هذه-، قيل -بِمَ؟-، قال بقولها:

إن الزمان وما تبقي عَجائبُـه --- أبقى لنا ذَنَبـا واستُؤصل الرَّاسُ

أبْقى لنا كلَّ مجهولٍ وفَجَّعَنَــا --- بالحالِمين فَهُم هامٌ وأرمــــاسُ

إنَّ الجَديدَين في طول اختلافهما --- لا يَفسُدان ولكن يَفْسُدُ النَّاسُ"[11]

ومنه أيضا:

---

[5] أي بغضب.

[6] صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة: "مر عمر في المسجد وحسان ينشد فقال: -كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك-، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشُدُك بالله أسمعت رسول الله ﷺ يقول : أجب عني، اللهم أيده بروح القُدس؟- قال:-نعم-".

[7] ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج.8، ص.110. مع التنبيه إلى أن كل مَن قال هذا القول إنما يتحدث على بَعْدِها إلى حدود عصره، لا مطلقا.

[8] نفس الإحالة السابقة.

[9] نفس الإحالة السابقة، ص. 111 و112، بالاختصار.

[10] نفس الإحالة السابقة، ص.112.

[11] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.537.

ألا يا صَخرُ إن أبكيتَ عَيني --- فقدْ أضحكتني دَهراً طويـلاَ

دَفَعتُ بِك الجَليلَ وأنت حيٌّ --- ومن ذا يَدفعُ الخطب الجليـلاَ

إذا قَبُحَ البُكـــاءُ على قتيلٍ --- فإن بُكاءَكَ الحَسَنَ الجميـــلاَ

و منه أيضا:

يُؤرِّقُني التَّذكُّرُ حيـنَ أُمسي --- ويَردَعُني عن الأحزان نُكْسِي

عَلى صَخرٍ وأيُّ فَتى كَصَخرِ --- لِيومِ كَريهَةٍ وَطِعانِ خلْسِي

ومــا يَبكونَ مِـثْلَ أخــي ولكن --- أُعزّي النَّفسَ عَنهُ بـالتَّأَسّي

يُذَكِّرُني طلوعُ الشَّـمسِ صَخراً --- وأَبكيهِ لكلِ غُروبِ شَمسِي

ألا يا صَخرُ لا أنســـاكَ حتى --- أُفارقَ عَيْشَتي وأزورَ رَمْسي

ومنه أيضا:

فـذا بعَـيـنـَيـكَ أم بالعيـن عُوارُ --- أم ذَرِفَتْ إذْ خَلَتْ من أهلها الدارُ

كَــأن عيـنــي لِـذِكراهُ إذا خَـطرَت --- فَيضٌ يسيلُ علـــى الخدِّ مِدرارُ

تبكي خُنـاسٌ على صخرٍ وَحُقَّ لـها --- إذ رابَهـا الدهرُ إن الدهر ضَرّارُ

تَبكي خُناسٌ فمـــا تَنفكُّ ما عَمَّرَت --- لا عليه رَنينٌ وهي مِقتـــــارُ

يـــا صخر واردَ مـــاءٍ قد تَوارده --- أهل المياه فما في وَرْدِهِ عــــارُ

مشى السَّبنَتى إلى هَيجـاءَ مُعضِلةٍ --- لها سِلاحَـانِ أنيـابٌ وأظفــارُ

ومــــا عَجولُ على بُوٍّ تُطيفُ بـه --- لهـــا حَنينـــانِ إصغار وإكبـــارُ

تَرتــــــاعُ ما غفلتْ حتى ذا ذكرت --- فإما هي إقبالٌ وإدبــــــــــارُ

يَومـــاً بأوجعَ مني حين فَــارقَني --- صَخرٌ وللعيـش إحـلاءٌ وإمرارُ

وإن صخراً لَوالينــا وسيِّدُنـــا --- وإن صخراً إذا نَشتُوا لَمِنحــارُ

وإن صـخـراً لـتَـأتَـمُّ الهُداة بـهِ --- كـأنهُ عَلَـمٌ بـرأسـهِ نــــــارُ

جَوَّاب ناصية جزَّار نــــــــاصية --- عقَّـــاد ألويةٍ للجيش جَرارُ

حامي الحقيقة محمود الخليقة --- مَهدي الطريقة نفــاعً وضرارُ

لم تَرَهُ جارةٌ يمشي بساحتهـــا --- لرِيبةٍ حين يُخلِي بَيتَهُ الجـــارُ

قال ابن حجر: "وسأل الخليفة المهدي الفضل بن عباس رضي الله عنهما عن أفخر بيت قالته العرب، فذكر له قولها –وإن صخرا لتَأْتَمُّ الهُداة به- البيت، فأعطاه ثلاثين ألف دينار"[12].

ثم قال [الناظم]:

سُدتُم النّاسَ بالتُّقَى وسِواكُم --- سَوَّدَتهُ البَيضاءُ والصَّفراء

يعني أن أهل البيت شَرَّفهم الله، فَضِلُوا غيرهم وفاقوه بالتمسكِ بتقوى الله ومُلازمتها والإعراض عن فُضول[13] الدنيا وزُخرفها، فقد ثبت عن كثير منهم من التقوى التي كرم الله بها من شاء في قوله تعالى "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[14]، ومن الزهد والمعرفة والعِلم ما لم يثبت عن غيرهم، فَهُم ورثوا من جدهم من مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال الموجبة لهم من كمال التقوى ما لم يصل إليه غيرهم، لما صح أنه ﷺ كان خُلقه القرآن، قال ابن حجر: "وبهذا يُجاب عما قيل أنه يُرَدُّ على [النظم][15]: -السيادة بالتقوى لا تختص بهم-"[16].

---

[12] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.538.

[13] أي اشتغال المرء أو تدخُّله فيما لا يعنيه أو بمعنى ما يخرج من البدن أي الإعراض عن قاذورات وأوساخ الدنيا.

[14] سورة الحجرات، الآية 13.

[15] في النسخة الصبيحية كلمة واحدة غير واضحة، وفي النسخة الحسنية كُتب "المصنف"، وقد كتبتها تبعا لما في المرجع.

[16] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.539.

قُلْتُ: لأن مُراده [أي الناظم] بالتَّقوى ما خصّهُم الله [تعالى] به دون غيرهم مما عُلم، لا مُطلق التَّقوى، أو المراد بالناس أعداءهم، حيث قابلوا تمسك أهل البيت بالتقوى بالتمسكِ بالمُلكِ، فأفرطوا في الجور والجرأة على خالقهم، بتَعدي حُدودَهُ فيما صدر منهم لأهل بيت رسوله مما تصم عنه الأسماع، فكلامه معهم خاصة لا مع مطلق الناس، دلَّ عليه قوله وسواكم أي المُتعرضونَ لكم بِالإذايَة[17]، سوّدَته البيضاء أي الفضة، والصفراء أي الذهب، أي سوده من الجهلة مثله، فمن رغب فيهما وليس هو، سُوِّدا حقيقة، لأنهما عارضان زائلان والعز بهما يزول بزوالهما، إذ كُلُّ عِز بما حرَّم الله [تعالى] يؤول إلى الذل، ومنه قول عمر رضي اللهُ عنه: "لا تعتزوا بغير ما أعزكم الله به فتُذَلوا"[18]، بل السلامة والفوز في القناعة، قال كثير من المفسرين في قوله تعالى "فلنحيينه حياة طيبة"[19] الحياة الطيبة في الدنيا: القناعة. قال في رسالة القشيري ونَسَبَه إلى الترمذي: "القناعة رضى النفس بما قُسِّم لها. وقيل في معنى قوله –ليرزقنهم الله رزقا حسناً-، قال: القناعة"[20].

قال ابن حجر: "كما سُدتم الناس بالنسب، سُدتموهم بالتقوى التي لا توجد في غيركم. ومَرَّ أن جماعة قالوا لا يكون القطب إلا منهم. ولم يذكر في النظم السيادة بالنَّسَب لأنها أشهر من أن تُذكر، ودليله آية المُباهلة وهي قوله تعالى "ثم نبتهل"[21]، قال مُحققو المفسرين فيها: -لا دليل أقوى من هذا على فضل فاطمة وعلي وابنيهما رضي الله عنهم-، لأنها لما نزلت دعاهم ﷺ فاحتضن الحسين وأخذ بيد الحسن ومشت فاطمة خلفه وعلي خلفها، فعُلم أنهم المُراد بقوله تعالى -ندع أبناءنا وأبناءكم-[22] الآية. وإن أولاد فاطمة وأبناءهم يُسمون أبناءه ويُنسبون إليه نسبة حقيقية نافعة في الدنيا والآخرة، ويدلُّ لذلك ما صح عنه ﷺ أنه خطب فقال: -ما بال أقوام يقولون أن رَحِم رسول الله ﷺ لا ينفع قومه يوم القيامة؟ والله إن رحمي موصولة في الدنيا

---

[17] أي تعبيرٌ أو فعل أو سلوك يُقصدُ منه الإساءة والإيذاء.

[18] قاله الإمام ابن كثير في "البداية والنهاية".

[19] سورة النحل، الآية 97.

[20] القشيري، الرسالة القشيرية، ص.289.

[21] سورة آل عمران، الآية 61.

[22] سورة آل عمران، الآية 61.

والآخرة- الحديث، ومن حديث –إن الله جعل ذرية كُل نبي في صُلبه، وجَعَلَ ذُريتي في صُلب علي بن أبي طالب-"[23]. وستأتي أفضليتها [أي التقوى] إن شاء الله بمزيد بيان.

ثم قال [الناظم]:

وبِـــأصحابكَ الذينَ هُم بعْـ --- ـدكَ فينا الهُداةُ والأوْصِياء

أحْسَنوا بَعدَكَ الخِلافَةَ في الدِّيـ --- ـنِ وَكُلٌّ لما تَوَلّى إزاء

أغنيـــــــــاءٌ نَزاهَةً فُقراءٌ --- عُلمـــــــــاءٌ أئمَّةٌ أُمَراء

يعني: وأُقسم عليك أيضا بأصحابك، وَهُم من اجتمع مع النبي ﷺ مومنا به في حياته ومات مومنا. والهُداة جمع هاد أي الدّال على الله [عز وجل] بما يجبُ له ويستحيل عليه[24] ويَجوز، و[الدّال] على رسوله ﷺ وعلى بيان شريعته وكل ما ينفع في الدنيا والآخرة، والأوصياء على نُصرة الدين وتبليغ العلم وإشاعة الحق.

فأحسنوا الخلافة في الدين بأداء ما أوصيتهم عليه، فنصَّبوا أنفسهم لنَصر شريعتك بالمجاهدة للأعداء ونشر الحق، وكلٌّ منهم لِمَا تولى من خلافة أو إمارة أو قضاء، إزاء بكسر الهمزة إي قائم به وأهلٌ له، وهو خبر كلٌّ وبه يتعلق لِما، وفي القاموس: "الإزاء كَكِتاب، للحرب: مُقيمها، وللمال: سائسه"[25].

وأغنياء بالله: فقراءٌ إليه، أو أغنياء في قلوبهم فلا يلتفتون إلى العَرَض[26] الفاني، وإنما مَحَطُّ نظرهم التجرد المطلق عن سائر القواطع عن الله، وقد قال ﷺ: "ليس الغنى بكثرة العرض –أي المال-، وإنما الغنى غنى النفس"[27]، أي بالله عما سواه، سواء كان بيده مال أم لا. ومَن كان بيده مال كعبد الرحمان بن عوْف وَغيره، فإنما كان خازنا لله، يصرفه في مصارفه الشرعية، فهم فقراء بهذا الاعتبار، من حيث

---

[23] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.539، بالاختصار.
[24] أي بما الله عز وجل منزه عنه.
[25] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.53.
[26] أي متاع الدنيا وحطامها.
[27] ذكره الإمام ابن ماجة في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أنهم يرون كلما ملكهم الله فهو له، ولا شيء لهم منه، وأيديهم أيدي عارية فقط بما أولاهم الله من التصرف فيه كتصرف العبد في مال سيده، ومن لا مال له منهم فهو غني بالله في باطنه وغني في ظاهره باعتبار ما يراه الناس منه من التعفف والإعراض عما في أيديهم، كما قال تعالى "يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف"[28]، وفي صحيح البخاري، في كتاب الجهاد، من حديث أبي أُمَامَةَ: "لقد فتح الفتوح قوم ما كانت حلية سيوفهم الذهب ولا الفضة، إنما كانت حليتهم العَلَابِيَّ والآنُكَ والحديد"[29]. قال الشيخ زَكرياء: "ونزاهةٌ جمع نزيه، وهو الكريم البعيد من اللؤم"، وفي القاموس: "رجُل نَزْهُ الخلق، وبكسر الزاي، ونازِه النفس: عفيف متكرم يَحُلُّ وحده، ولا يخالط البيوت بنفسه ولا ماله، الجمع نزهاء ونَزِهون ونِزَاه، والاسم النَّزْه[30] والنَّزاهة بفتحهما"، والصواب أنه مصدر نَزِهَ كَكَرِهَ[31]. [ونزاهة] أخبر به عن مبتدأ محذوف كقولهم رجلٌ عدلٌ فإنه مُؤوَّل بِعَادل، أو على حذف مضاف أي ذو عدل. وعلماء في أمور دينهم بما يقربهم إلى الله من التخلق بعبادته، والأدب معه ومع رسوله ﷺ ومحبته ومحبة آله. وأئمة يُقتدى بهم في الدين لما ورثوا من علومه ﷺ والتخلق بأخلاقه، مما تميزوا به عمن جاء بعدهم، وإن كان بعضُهُم يَستفتي بعض أكابر التابعين كالحسن البصري. وأمراء أي بالفعل والقوة، وقد تولى كثير منهم في زمن رسول الله ﷺ وبعده، ومَن لم يتول منهم كان صالحا لها، أو أمراء باعتبار ما كساهم الله من الجلالة والمهابة كالملوك.

ثم قال [الناظم]:

زَهِدوا في الدُّنيا فمــا عُرِفَ المَيْـ --- ـلُ إليها مِنهمْ ولا الرَّغْباء

---

[28] سورة البقرة، الآية 273.

[29] صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما جاء في حلية السيوف.

[30] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "النزهة"، وهو خطأ نقل صححته تبعا لما في المرجع المطبوع.

[31] في النسختين الحسنية والصبيحية أضاف الناسخان "كما في القاموس"، ولم أقف عليه، بل الأرجح أن تكتب قبل "والصواب.."، حيث عقب سيدي يحيى بعده على قول العلامة الفيروز آبادي في "القاموس المحيط" وخالفه الرأي.

أرخَصوا في الوَغى نُفُوسَ مُلوكٍ --- حارَبوها أَسْلابُهـــا أَغْلاء[32]

كُـلُّـهُـمْ فـي أحكامِهِ ذو اجْـتِـهـادٍ --- وَصَوابٍ وَكُلُّهُمْ أكْفـــــــاء

زَهد بفتح الهاء وكسرها كما في القاموس، والزهد لغةً: ضد الرغبة، وعُرفاً: للناس فيه عبارات منها ما في رسالة القشيري: "قيل من قوله تعالى -لكيلا تاسوا على ما فاتكم-[33] الآية، الزاهد لا يفرح بموجود من الدنيا ولا يتأسى على مفقود منها"[34]، "وقيل الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، لتصغر في عينيك فيسهل عليك الإعراض عنها"[35]، و"قال الجنيد: الزهد خلو القلب عما خلت عنه اليد"[36]. ثم قال [القشيري]: "واختلف في الزهد، فقيل أنه في الحرام لأن الحلال مباح من قبل الله، وقيل أنه في الحرام واجب وفي الحلال فضيلة"[37]. وقد زَهَّدَ الله تعالى في الدنيا في غير آية، منها "قل متاع الدنيا قليل"[38]. ومن ثم قال [الناظم] فما عرف الميل بالبناء للمفعول، وإليها إي إلى الدنيا، ومنهم حال من الميل، والرغباء عطف، تَفْسيرُهُ: وإن كانت في إيد بعضهم فما كانوا يَعْبَأون بها، قال تعالى "رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله"[39].

وحاربوا صفة لملوك ومفعوله عائدٌ إليهم، وفاعله وفاعل أرخصوا عائد إلى الصحابة رضي الله عنهم، والوغى الحرب.

والمعنى أن الصحابة صارت عندهم نفوس ملوك من الفرس ومن غيرهم، رخيصة بالقتل بقوة وعزم، وحاربوهم بشدة وحزم وإخلاص الطوية وصدق النية، فنصرهم اللهُ [تعالى] عليهم بقتل صناديدهم وإزالة مُلك مَن بقي منهم ومهانته. وأَسلابها بفتح الهمزة: مبتدأ جمع سلَب بفتح اللام، وهو ما يُسلب من القتيل مما عليه ومعه،

---

32 في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "إغلاء".
33 سورة الحديد، الآية 22، برواية ورش عن نافع.
34 القشيري، الرسالة القشيرية، ص.219.
35 نفس الإحالة السابقة.
36 نفس الإحالة السابقة، ص.220.
37 نفس الإحالة السابقة، ص218، بالاختصار.
38 سورة النساء، الآية 77.
39 سورة النور، الآية 37.

وأَغلاء بفتح الهمزة: جَمع غال على غير قياس خبره، والجملة صفة ثانية لملوك أو حال منه أو اسم مصدر مؤول باسم الفاعل، من غلا السعر أي غالية الأثمان. وبين أرخصوا وأَغلاء الطباق ورد العجز على الصدر.

ومن أوصافهم أيضا رضي الله عنهم، أن كل واحد منهم في أحكامه[40] التي يدين[41] اللهَ بها في قضاء أو فتوى أو عبادة، ذو اجتهاد، ولتوفر شروط الاجتهاد منهم، "ولذلك لم يُعرف لأحدهم تقليدٌ لغيره منهم. ولا يغني عن هذا قوله السابق علماء، لأن هذا أخصُ منه، إذ كُلٌّ مجتهد عالم ولا عكس. وكلهم أيضا ذو[42] صواب، قال ابن حجر "يعني ذو ثواب ولو عبر به لكان أولى، لأن إبقاء صواب على حقيقته إنما يتأتى على القول الضعيف أن كل مجتهدٍ مصيبٌ، وأن حكم الله تابع لظن المجتهد، أما على الأصح: إن المصيب واحد وأن له أجرين كما صح به الخبر، وللمخطئ أجر واحد كما صح به الحديث أيضا. وإلا، فعلى الأول: كل من علي ومعاوية مصيب، وعلى الثاني: علي مصيب له أجران ومعاوية في خروجه عن علي له أجر واحد. والاجتهاد: بذل الوسع في تحصيل المقصود، ثم إنْ وافق ما عند الله فصواب وإلا فخطأ. وكلهم أكفاء أي متماثلون في الصحبة، أي في أصلها وفضيلتها وفي العلم والاجتهاد، وإنما يتفاوتون في الزيادة في ذلك، فلا ينافي ذلك قول ابن عمر: - ابن عباس أعلمنا-، ولا سؤال عُمر لعليٍ فيُجيبه، وقد أجمعوا أن أفضلهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، على الأصح فيهما[43]، ثم بقية العشر المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أحد، ثم أهل بيعة الرضوان"[44].

ثم قال [الناظم]:

رَضِيَ اللهُ عنهمُ ورَضوا عَنـ --- ـهُ فَأَنَّى يَخطو إليهمْ خَطآء

جاءَ قَومٌ مِن بعدِ قومٍ بِحَقٍّ --- وعلى المَنهَجِ الحَنِيفِيِّ جاؤوا

---

[40] في النسخة الصبيحية كُتبت "أحكامها"، وهو خطأ نسخ.

[41] أي يقترب من الله.

[42] كتبها كما جاءت في البيت، وهي بمعنى ذوو والمراد بالإفراد الجمع.

[43] أي علي وعثمان رضي الله عنهما، حيث لا إجماع على تسبيق أحدهما على الآخر.

[44] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.549 و550، بالاختصار.

ما لِمُوسى ولا لِعيسى حَواريُّ --- ـونَ في فَضْلِهِمْ ولا نُقَباء

"رضوان الله على العبد بطاعته تأمينه من سخطه، ورضى العبد عن الله بطاعته، وأن لا يختلج في صدره أدنى حرارة[45] من أقضية ربه، بل يجد لذلك في قلبه برد اليقين"[46]. وأنى استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا يخطوا، أي يصل إليهم، إذ الخطوة ما بين القدمين، والخَطَآء بالمد لغة قليلة في الخطأ وهو ضد الصواب، يعني لا يخطئ أحد منهم خطأ يأثم به، وإلا فمنهم مَن اجتهد وأخطأ فله أجر الاجتهاد ولا إثم عليه. وصدر البيت مقتبس من قوله تعالى "والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه"[47].

وقوم أي من الصحابة رضي الله عنهم، أي جاء بعضم قبل بعض، لأنهم لم يسلموا دفعة واحدة بل شيئا فشيئا، بحق أي بصدق وافق الباطن الظاهر، وجاؤوا إلى النبي ﷺ على الطريق الواضح المستقيم الحنيفي، أي المائل عن كل طريق إلى طريق الحق، فلا اعوجاج فيه ولا انحراف عن الحق. وقال [الناظم] حنيفي بالياء بعد النون بحسب ما سمح له النظم، وإلا فالنسبة إلى حنيفة حَنَفي بفتحتين.

وما نافية، وحواريون مبتدأ "جمع حَوَارِيٌّ وهو الناصر، وغلب ذلك على أصحاب عيسى نبي الله عليه الصلاة والسلام، لأنهم كانوا يحورون الثياب أي يقصرونها"[48]، أو من الحُوّاري بضم الحاء وتشديد الواو كما في القاموس: "الدقيق الأبيض"[49] لبياض ألوانهم. وفي فضلهم متعلق بعامل الخير، والضمير يعود إلى الصحابة رضوان الله عليهم. والنقباء جمع نقيب وهو كما في القاموس: "شاهد قوم وضَمينُهم وعَريفهم"[50]، وهم أصحاب موسى، والحواريون لعيسى ففيه لف ونشر معكوس.

---

[45] في المرجع المطبوع كُتبت "حزازة"، وقد آثرت مصطلح سيدي يحيى، لأن بين "حرارة" و"برد" طباق.

[46] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.551 بالاختصار.

[47] سورة التوبة، الآية 100.

[48] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.553.

[49] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.419.

[50] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1639.

والمعنى أن الحواريون والنقباء ليسوا كالصحابة في الفضل، بدليل "كنتم خير أمة أخرجت للناس"[51] الآية.

ولما قدم [الناظم] قسمه بالصحابة رضوان الله عليهم إجمالا أراد القسم بالبعض تفصيلا، وبدأ بالأربعة مُرتبا لهم على أفضليتهم فقال:

بِأَبي بَكْرٍ الذي صَحَّ للنّـَا --- سِ بهِ في حَياتك الاقتِداء

والمُهَدّي يومَ السَّقيفَةِ لمّا --- أَرجَفَ النّاسُ إنهُ الدَّأْداء

أي وأقسم عليكَ بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبدأ به لأنه أفضل الصحابة رضي الله عنهم بإجماع الأمة، "بل أفضل ماعدا الأنبياء والمرسلين لتصريح الحديث به: -ما طلعت شمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر الصديق-"[52]، وهي كنيته وأما اسمه فعبد الله بن عثمان. والاقتداء فاعل صح على حذف مضاف، أي صح حديث الاقتداء به في صلاته بالناس في حياة رسول الله ﷺ بأمره "من طرق كثيرة، حتى صار متواتَرا معلوماً ضرورةً، كما قاله الأشعري"[53]، فلذا لم يُسمع من أحد من المبتدعة إنكاره، فمن تلك الطرق ما أخرجه الشيخان وغيرهما: "اشتد مرض رسول الله ﷺ فقال :-مُروا أبا بكر فليصل بالناس-، فقالت عائشة رضي الله عنها: -يا رسول الله إنه رقيق، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس-، فقال: -مري أباك فليصل بالناس، فإنكن صواحب يوسف-. فأتاه الرسول، فصلى بالناس في حياة رسول الله ﷺ"[54]. وبه استدل الصحابة أن أبا بكر أحق منهم بالخلافة، وإن وقع الاقتداء بعبد الرحمان بن عوف فإنه لم يتكرر ولم يكن عن أمره ﷺ. وقال علي كرم الله وجهه: "لقد أمره النبي ﷺ أن يصلي بالناس، وإني

---

[51] سورة آل عمران، الآية 110.

[52] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.554.

[53] نفس الإحالة السابقة.

[54] صحيح البخاري، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة.

لشاهد وما أنا بغائب وما في من مرض، فرضينا لدنيانا من رضيه النبي ﷺ لديننا"[55]، فاستدل الصحابة بهذا أيضا على أنه أحق منهم بالخلافة.

والمُهَدِّي بكسر الدال اسم فاعل يُهَدِّي بفتح الهاء وتشديد الدال، أي المُسَكِّن للفتنة والاضطراب في أمر الخلافة. والسقيفة موضع مسقف بين دور الأنصار يجتمعون إليه، وأرجف أي تزلزل واضطرب والناس فاعله، أي المجتمعون في السقيفة من المهاجرين والأنصار، فاختلفوا في الخلافة، فطلبت الأنصار سعد بن عبادة سيد الخزرج بعد أن "قام خطيبهم وأثنى على الأنصار، فقام أبو بكر فخطب وأثنى عليهم، ثم بيَّن أن الخلافة لا تكون إلا في قريش واحتج بالحديث الصحيح -الأئمة من قريش-، ثم قال: -قد رضيت لكم [إما عمر][56] أو أبا عبيدة، فبايعوا من شئتم منهما-، فقال الحباب بن المنذر: -منا أمير ومنكم أمير-، وكثر اللغط وخيف الفتنة، فبادر عمر وقال لأبي بكر: -أبسط يدك- فبسطهما فبايعه، ثم بايعه من كان هناك من المهاجرين ثم الأنصار. ثم بايعه بالغد بقيتهم، وكان من هؤلاء الزبير وعلي رضي الله عنهما، فوقع الاجماع من الصحابة على خلافته"[57]. فكان رضي الله عن جميعهم، بموافقته لهم على خلافته، مُهَدِئاً للفتنة وهو حقيق بذلك. وروى الترمذي: "قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: -من له مثل هذه الثلاث (ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)[58]، من هما؟-. ثم بسط يديه فبايعه، وبايعه الناس بيعة حسنة جميلة"[59]. والدأداء خبر إن المكسورة أي المُسَكِّن للفتنة، وفي القاموس: "دأدأ الشيء: حركه وسكنه وغطاه"[60] والمراد هنا ما دون الأول، أي هو الفاعل لذلك لا غيره لما عليه النحاة أن تعريف الجزءين يقتضي الحصر كقولك "زيدٌ الصَديق".

---

[55] أورده ابن حجر الهيتمي في "المنح المكية"، ص.555.

[56] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتب "أبا عمرو"، وكتبته كما جاء في المرجع المطبوع.

[57] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.557 و558، بالاختصار.

[58] سورة التوبة، الآية 40.

[59] من حديث رواه الإمام الترمذي في "الشمائل المحمدية".

[60] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.519.

ثم أخذ [الناظم] في ذكر فضائله زيادة على ما تقدم، فقال:

أنقَذَ الدِّينَ بعدَ مــا كان للدِّيـ --- ـن على كُل كُربَةٍ إشْفاء

أنفَقَ المالَ في رِضاكَ ولا مَنٌّ --- وأعطى جَمّاً ولا إكْداء

أنقذ بالمعجمة أي خلصه ونجاه من نار الفتنة، بعد أن كان لدين نبينا محمد ﷺ إشفاء بكسر الهمزة، أي إشراق، هو اسم كان وعلى كل متعلق به وللدّين خبرها. فأزال الشبه عن أمور من الدين وقع فيها اختلاف شديد بين أهله حتى كادوا يقتتلون ويتفرق شملهم، فإن كثيرا من الصحابة، لما توفى رسول الله ﷺ، أنكر موته، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى قال: " والله إن سمعت أحدا يقول أن محمدا قد مات لأضربنه بسيفي هذا"[61]. وكان أبو بكر غائبا، فلما حضر دخل عليه وكشف عن وجهه الكريم فقبله و"قال: -لقد طبت حيا وميتا، لا يجمع الله عليك موتتين-، ثم خرج فقال: - أيها الناس، من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت-، ثم تلى -وما محمد إلا رسول- الآية، فلما سمعوها رُدت إليهم عقولهم وكأنما لم يسمعوها إلا الحين"[62]. وكاختلافهم في محل دفنه ﷺ، "فروى لهم الحديث أن كل نبي يحب أن يدفن في المحل الذي توفي فيه، فرجعوا إليه"[63]. وكاختلافهم في الإرث منه، فروى لهم الحديث المشهور: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة"[64] فرجعوا إليه، إلى غير ذلك ومن ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: "والله لولا أبو بكر ما عُبدَ الله بعد محمد ﷺ"[65]. وبعد متعلق بأنقذ، وما مصدرية.

وأنفق ماله في رضاك[66] أي من غير منة له عليك في ذلك، وإنما المنة لك عليه كما اعترف بذلك، فقد أخرج أحمد وغيره عن جماعة من الصحابة أنه ﷺ قال: "ما

---

[61] ابن هشام، السيرة النبوية، ج.4، ص.306، بلفظ مغاير.
[62] ابن هشام، السيرة النبوية، ج.4، ص.307، بالتصرف.
[63] نفس المرجع السابق، ص.314.
[64] أخرجه ابن ماجة وغيره.
[65] رواه الإمام البيهقي بنحو لفظه، وذكره ابن كثير في "البداية والنهاية".
[66] أي رضا رسول الله ﷺ.

نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر-، فبكى أبو بكر وقال: -هل أنا ومالي إلا لكَ يا رسول الله"[67]، و"أخرج ابن عساكر أنه رضي الله عنه أسلم وله أربعون ألف دينار أو [أربعون] ألف درهم، فأنفقها على رسول الله ﷺ"[68]. وأعطى عطاء جماً أي كثيرا، في وجوه الخير العامة والخاصة. ولا إكْداء أي [لا] قطع لإعطائه الجم، بل استمر عليه حتى توفاه الله، وقد شهد الله له بالإنفاق في قوله تعالى "وسيجنبها الأتقى الذي يُوتي ماله"[69] إلى آخر السورة، قال ابن الجوزي: "أجمعوا على أنها نزلت في أبي بكر"[70]، ففيها التصريح بالإنفاق وأنه الأتقى، وقال تعالى "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[71]، فهو أكرمنا أي أفضلنا رضي الله عنه. وأعطى أيضا ثمن محل مسجد رسول الله ﷺ، فإنه كان لبني النجار فساومهم ﷺ فيه، "فاشتراه بعشرة دنانير وزنها من مال أبي بكر. واشترى أيضا عددا من الأرقاء الذين أسلموا، وكان الكفرة يعذبونهم بمكة فأعتقهم، منهم بلال بن رباح رضي الله عنه"[72].

[ثم قال الناظم]:

بــأبي[73] حَفْصٍ الذي أَظْهَرَ اللهُ --- به الدّينَ فَارْعَوَى الرُّقَبَــــاء

والذي تَقْرُبُ الأَبــــاعِدُ في اللهِ --- إليهِ وَتَبْعُدُ القُرَبــــــــــــاء

عُمَرُ بنِ الخَطَّابِ مَن قَولهُ الفصْـ --- ـلُ ومَن حُكمُهُ السَّوِيُّ السَّواء

فَرَّ مِنهُ الشَّيطــانُ إذ كانَ فَارُو --- قاً فَلِلنَّـــارِ مِن سَنــاهُ انْبِراء

أي وأقسم عليك بأبي حفص الذي أكرمه الله وفضله بأن جعله سببا لإظهار دينه بعد أن كان خفيا. فارعوى ماض من الرعوِ، وفي القاموس: "الرعو والرعوة ويثلثان:

---

[67] أخرجه بهذا اللفظ الإمام ابن ماجة، وبنحو لفظه الأئمة الترمذي والنسائي وأحمد.
[68] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.562.
[69] سورة الليل، الآيتين 17 و18، برواية ورش عن نافع.
[70] ابن الجوزي، زاد المسير، ص.1560. واللفظ: "هذا قول الجمهور".
[71] سورة الحجرات، الآية 13.
[72] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.563.
[73] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "وَأَبِي".

النزع عن الجهل وحسن الرجوع عنه، وقد ارْعَوَى"[74]، ومُضارعه يرعوى والرقباء فاعله: جمع رقيب وهو الحافظ والمنتظر والحارس. والمراد هنا كفار قريش، أي انكفوا ورجعوا عما كانوا عليه من الافساد في الدين وإيذاء النبي ﷺ والمسلمين، "فأسلم عمر بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام"[75]، وكان النبي ﷺ مُختفيا هو ومن معه من المسلمين بدار الأرقم. وذكر أهل السير أن حمزة بن عبد المطلب، أخبرته امرأة أن أبا جهل بالغ في سب النبي ﷺ، فأخذ قوسه وجاء إلى المسجد، فضرب أبا جهل في إحدى صدغيه فقصمه فسالت الدماء، فأصلح بينهما قريش مخافة الفتنة، فأسلم حمزة نكاية لهم وحمية للنبي ﷺ، ثم أنكر عمر على بعض من أسلم فقال له: "إن أختك وخشك (يعني سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة) قد أسلما"، فجاء إلى أخته وضرب رأسها حتى أدماه فقالت له: "كان ذلك رغما على أنفك"، فاستحيى حين رأى الدم فجلس وسألها أن تريه الكتاب، فقالت: "لا يمسه إلا المطهرون"، فاغتسل، فأخرجوا إليه الصحيفة فيها: بسم الله الرحمان الرحيم "طه() ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى() إلا تذكرة لمن يخشى()"[76] الآيات، فعظم ذلك في صدره. وكان خباب بن الأرت أرسله النبي ﷺ ليعلم أخته وزوجها القرآن، فقال لعمر: "إني لأرجو أن يكون الله خَصكَ بدعوة نبيه، فإني سمعته بالأمس يقول: -اللهم أيد الإسلام بعمرو بن هشام أو بعمر بن الخطاب-، فقال دلني عليه، فتوشح سيفه وذهب إلى النبي ﷺ، فاستجمع القوم لما ضرب عليهم الباب، فقال لهم حمزة: -مالكم؟- قالوا: -عمر-، قال: -وعمر؟ افتحوا الباب، إن قاتل قتلناه بسيفه-، فسمع ذلك النبي ﷺ فخرج إليه فتشهد عمر، فكبَّر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد، ثم قال: -يا رسول الله، ألسنا على الحق؟-، قال بلى، قال: -فَفِيمَ الإخفاء؟-، فخرج المسلمون صفين، هو في أحدهما وحمزة في الآخر، حتى دخلوا المسجد. فنظرت قريش إليه وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة شديدة، فسماه رسول الله ﷺ الفاروق، يومئذ فرق الله به

---

[74] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.651.

[75] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.564.

[76] سورة طه، الآيات من 1 إلى 3. في النسختين الحسنية والصبيحية ذكر فقط الآيتين 1 و2، وأضفت الثالثة لأن سيدي يحيى كتب بعده" الآيات" بالجمع.

بين الحق والباطل. وفي رواية أنه لما أظهر إسلامه، صاروا يضربونه ويضربهم حتى أجاره خاله، قال: -فما زلت أَضرِبُ وأُضرَبُ حتى أعز الله الإسلام-. وقال ابن مسعود: -ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر-، وقال أيضا: -كان إسلامه فتحا وهجرته نصرا وإمامته رحمة، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصل إلى البيت حتى أسلم عمر-. وصح أن حذيفة قال: -لما كان عمر، كان الإسلام كالرجل المقبل لا يزداد إلا قوة، فلما قتل، كان الإسلام كالرجل المدبر لا يزداد إلا ضعفا-"[77].

والموصول وصلته صفة لأبي حفص، وتقرب بالبناء للفاعل صلة الذي، وإليه متعلق به، ويصح بناؤه للمفعول، وتبعد كذلك معطوفاً.

والمعنى أنه رضي الله عنه، يُقرب إليه في الله البعيد من نسبه، ويُبعد في الله القريب منه، لأجل رضى الله، فَمَحَطُّ نظره التقرب إلى الله بالقرب من المطيع والبعد من العاصي، ومن ثم كان رضي الله عنه يُفضل أسامة بن زيد على ابنه عبد الله في العطاء، فقال ابنه: "لمَ ذلك؟" فقال: "كان أسامة أحب إلى رسول الله منك، وأبوه كان أحب إلى رسول الله من أبيك"[78].

وعمرُ بالرفع[79] بدل من الموصول، ومَن موصول، وقوله مبتدأ، والفصل أي الفاصل بين الحق والباطل خبره، والجملة صلة مَن، وهو وصلته صفة لعمر. وقوله [أي الناظم] السَّوِيُّ بفتح فكسر: صفة مشبهة كَغني، أي المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، والسواء تأكيد له.

والشيطان فاعل فر أي هرب، مشتق من شاط إذ احترق زيدت فيه الألف والنون، والمراد به إبليس لعنهُ الله، وإذ تعليل لفر، وكان للدوام وفاروقا خبرها أو حالٌ إن كانت تامة. فبسبب ما منحه الله من النور الذي يُفرق به بين الحق والباطل، وفرار الشيطان من أجله كان للنار التي هي أصل الشيطان، مِن أجل سناه بالقصر أي

---

[77] أورد ابن حجر قصة إسلام سيدنا عمر رضي الله عنه في "المنح المكية" ص.564 و565، وقد اختصرها سيدي يحيى وانتقى منها.

[78] ذكره الإمام الذهبي في "سير أعلام النبلاء"

[79] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "عُمَرَ" بالنصب.

نوره، انبراء أي إخماد واضمحلال. وأشار به إلى ما صح في الحديث: "يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك"[80]، وحديث: "إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه"، "وأنه ما نزل بالناس أمر قط، فقالوا وقال عمر، إلا نزل القرآن على نحو ما قال"[81]، وفي رواية: "أتاني جبريل فقال: اقرأ عمر السلام وقُل له أن رضاه حلم وغضبه عز"[82].

---

[80] من حديث طويل أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده. وأخرجه كذلك الإمام مسلم في صحيحه.

[81] الحديثان أخرجهما مجتمعان الإمام الترمذي، الأول عن ابن عمر رواه عن رسول الله ﷺ، والثاني من قول ابن عمر رضي الله عنهما.

[82] أخرجه الإمام الطبراني في "المعجم الأوسط" على نحوه، وأخرجه بلفظه الإمام ابن أبي شيبة في مصنفه.

الفصل التاسع عشر: من البيت 363 إلى البيت 377

قال [الناظم]:

وابنِ عَفَّان ذي الأَيادي التي طَا --- لَ إلى المُصطَفى بها الإسْداء

حَفَرَ البِيرَ جَهَّزَ الجَيشَ أَهدى الـ --- ـهَدْيَ لَمَّا أن صَدَّهُ الأعــداء

وأقسم عليك بذي النورين أبي عمرو عثمان بن عفان، بالصرف وعدمه، وفي شرح الشمائل لابن حجر: "قيل لبعضهم: -أتُصرف عفان؟-، قال: -نعم إن هجوتَه لا إن مدحته-"[1]، فعلى الأول هو فعال من العفونة، بخلاف الثاني فهو من العفة فلا يُصرف للوصف وزيادة الألف والنون. وذي وما بعده صفة لابن عفان، والأيادي جمع أيدي وهو جمع يد، فأتى به الناظم في اليد بمعنى النعمة. وطال أي عظم وامتد صلة التي، وإلى متعلق به، والإسداء بكسر الهمزة أي الإعطاء فاعله، وبها أي باليد متعلق به.

والمراد بالبير بير رُومة، كانت ليهودي في الأشهَر، فلما "قدم النبي ﷺ المدينة وليس فيها ما يُستعذب غيرها، قال: -من حفر بير رومة أو اشتراها فله الجنة-، فاشتراها عثمان بن عفان بعشرين ألف درهم وحفرها"[2]، والمراد بحفرها الزيادة في عمقها ليكثر ماؤها، فجعلها سبيلا، وهي موجودة الآن[3] وثوابها مستمر إلى يوم القيامة [إن شاء الله]. وجهز الجيش يعني جيش العسرة في غزوة تبوك، قال ابن حجر: "أي أعان على تجهيزه بثلاثمئة بعير بأحلاسها وأقتابها، بعد حثه ﷺ على تجهيزه على المنبر، فنزل وهو يقول: -ما على عثمان ما فعل بعد هذه-. وفي رواية، حمل عثمان جيش العسرة على ألف بعير وسبعين فرسا. وصح أنه جاء النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره، فجعل يقلبها بيده

---

[1] ابن حجر الهيتمي، أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، ص.100.
[2] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.569.
[3] في 1445هـ لا زالت موجودة والحمد لله، يروي ماؤها سكان المدينة المنورة وتسقي النخيل والأشجار.

ويقول: -ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم-"[4]. وأهدى أي أرسل هَديهُ إلى مكة، قال ابن حجر: "وَجهُ تخصيصهِ أن هَدي غيره لم يصل إليها عام الحديبية، حين توجه النبي ﷺ إليها بجيشه في شوال سنة ست، يريد العمرة فقط ولم يقصد قتالا، فمنعه قريش من الدخول إلى مكة، وهو المراد بقوله لما أن صده الأعداء. فاصطلح رسول الله ﷺ معهم على أن يرجع في تلك السنة، ولا يدخل مكة ليَلا تسمع العرب أنه دخلها عليهم كرها، ثم يعود إليها [ﷺ] في السنة القابلة معتمرا، ويدخلها والأسلحة في غلافها ليكون ذلك علامة على الصلح وعلى أن يضع الحرب بينهم عشر سنين، وزادوا شروطا غيرها"[5]. فلما فرغ النبي ﷺ من الصلح، قام إلى هديه فنحره ثم جلس فحلق رأسه، فتواثب الناس ينحرون ويحلقون، وبعضهم قصر فقط، فقال النبي ﷺ: "-يرحم الله المحلقين- فقالوا: -يا رسول الله والمقصرين؟- قال: -يرحم الله المحلقين-، فقيل له كذلك فأعاد، ثم في الثالثة قال: -والمقصرين[6]-"[7].

ثم قال [الناظم]:

وأبى أن يَطوفَ بالبيتِ إذ لم --- يَدْنُ منهُ إلى النَّبيِّ فِناء

يعني: من فضائل عثمان رضي الله عنه أنه أبى، أي امتنع أن يطوف بالبيت، أي بالكعبة المشرفة. وإذ تعليل لترك الطواف، أي لأجل أنه لم يقرب إلى النبي ﷺ منه أي من البيت، فِناء بكسر أوله وهو ما اتسع من جوانبه، تركه تأدبا مع النبي ﷺ حيث لم يكن هنالك. وسبب ذلك، أن النبي ﷺ كان بعث خراش بن أمية الخزاعي وحمله على بعير له إلى قريش، ليُبلغهم أنه لم يأت لقتالهم وإنما أراد العمرة، فعقروا به الجمل وأرادوا قتله فمنعته الأحابش فخلوا سبيله. ثم أرسل عثمان رضي الله عنه ليبلغهم ذلك، وإنما جاء [ﷺ] زائرا للبيت ومُعظما حرمته، فلما دنا من مكة لقيه أبان بن سعيد بن العاص فقال له: "أقبل وأدبر ولا تخف أحدا، بنو سعد أعزة الحرم".

---

[4] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.570، بالاختصار.
[5] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.573.
[6] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "المحلقين"، وهو خطأ نقل صححته تبعا لما جاء في المرجع.
[7] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الحج، باب الحلق والتقصير. كما أخرجه الإمام مسلم وغيره.

فلما بلَّغ أشراف قريش رسالة رسول الله ﷺ قالوا له: "إن شئت أن تطوف بالبيت فطف"، قال: "ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ". فاحْتَبسه أهله إكراما له، فبلغ النبي ﷺ أنه قُتل فقال ﷺ : "لا نبرح حتى نناجز القوم"، فدعا الناس إلى بيعته على الموت، وقيل على أن لا يفروا، فبايعوه، ثم وضع يمينه الكريمة على شماله وقال: "هذه بيعة عثمان"[8].

ومن ثم قال [الناظم]:

فَجَزَتهُ عَنها بِبَيْعَةِ رِضوا --- نٍ يَدٌ مِن نَبِيِّهِ بَيْضَـــاء

أدَبٌ عِندَهُ تَضاعَفَتِ الأَعْ --- ـمالُ بِالتَّركِ حَبَّذا الأُدَباء

يعني: فبسبب امتثال عثمانَ أمر النبي ﷺ بذهابه إلى العدو ولم يبال باحتمال قتله، لشدة ما كانوا عليه من العداوة للمسلمين، جزاه الله عنا أي عن مسلمين، بنيابة يد نبيه الكريمة عن يد عثمان، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خير من أيديهم لأنفسهم. ووصف اليد ببيضاء لبلاغتها في الكرم الذي عم الأنام منها أكثر من بلاغة ضوء الشمس وعمومه للعالم. فلما سمع المشركون بذلك[9] خافوا، فبعثوا عثمان [رضي الله عنه] وجماعة من المسلمين، فسميت هذه البيعة بيعة الرضوان لنزول رضوان الله عليهم في قوله "لقد رضي الله عن المُومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة"[10] الآية، وكانت هذه الشجرة سَمُرَة[11] بالحديبية ذهبت بعد سنين، فَمَرَّ عمر رضي الله عنه في خلافته بالموضع، فاختلف الصحابة في موضعها فلم يُدرَ، وهي على نحو عشرة أميال من مكة.

وأدبٌ خبر مبتدأ محذوف يعود إلى الإباء المفهوم من أَبَى، وضمير عنده يعود إلى الأدب، وباء بالترك للسبب ، وكلاهما متعلق بتَضاعفت، والجملة صفة لأدب، ويحتمل غير هذا.

[8] أورد ابن هشام القصة في "السيرة النبوية"، ج3، ص.261.
[9] أي عزمه ﷺ والمسلمين على قتال المشركين ثأرا لسيدنا عثمان رضي الله عنه.
[10] سورة الفتح، الآية 18، برواية ورش عن نافع.
[11] من السَّمُر، نوع من الشجر.

والمعنى أن عثمان رضي الله عنه، حصل له من مضاعفة الثواب لأدبه بترك تلك العبادة، التي لم يتمكن منها رسول الله ﷺ في ذلك الوقت، ما لم يحصل له لو فعلها لعدم حصول هذا الأدب في فعلها، الذي بلغ به من مزية السبق ما لم يبلغه غيره، فحق أن يقال فيه حينئذ حبذا الأدباء، فهو تتميم للبيت بديع. وكان رضي الله عنه من أجلِّ الأدباء وأجملهم، فقد كان عنده من الحياء الذي هو منشأ الأدب، ما لم يكن عند غيره، قال ابن حجر: "فقد رُوي من غير ما طريق: -أشد أمتي حياءً عثمان-"[12]. وفي مناقب عثمان من صحيح البخاري ما نصه: "جاء رجل من أهل مصر وحج البيت، فرأى قوما جلوسا فقال: -من هؤلاء القوم؟-، فقالوا: -هؤلاء قريش- قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: -عبد الله بن عمر-، قال: -يا ابن عمر، إني سائلك عن شيء فحدثني هل تعلم أن عثمان فرَّ يوم أُحُد؟-، قال نعم، قال: -هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهدها؟- قال نعم، قال: -هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟- قال نعم، قال: -الله أكبر-، قال ابن عمر: -تعال أُبينُ لك، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته رُقية بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: --إن لك أجر رجل شهد بدر وسَهْمه[13]--، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد ببطن مكة أعز من عثمان لبعثه مكانه، فبَعَثَ رسول الله ﷺ عثمانَ، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: -هذه بيعة عثمان- فضرب بها على يده فقال: -هذه لعثمان-، فقال له ابن عمر: -اذهب بها الآن معك-"[14].

ثم قال [الناظم]:

وَعَلِيٍّ صِنْوِ النَّبِيِّ وَمَـن دِيـ --- ـنُ فُؤَادِي وِدادُهُ وَالـــــوَلاء

وَوَزِيرِ ابن عَمهِ في المَعالِي --- ومِـــنَ الأهلِ تَسْعَدُ الـوُزَراء

لَم يَزِدهُ كَشفُ الغطاءِ يَقيناً --- بَلْ هَوَ الشَمسُ ما عَليهِ غِطاء

---

[12] لبن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.575.
[13] أي حقه من الغنيمة.
[14] صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قوله تعالى "إن الذين تولوا منكم".

يعني: وأقسم عليك أيضا بابن عمك وخَتَنِك[15] علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وأصل الصنو: النخلتان الخارجتان من أصل واحد، ثم إنهم استعملوه في النسب، وكان علي صِنواً للنبي ﷺ لاجتماعهما في عبد المطلب. ومن موصولة، ودين مبتدأ، ووِدادُه أي حبه خبره. وفي القاموس: "التَّفَؤُد: التَّحَرُق، ومنه الفؤاد للقلب، وهو ما يتعلق بالمَرِيءِ من كبد ورِيَّة وقلب"[16]. والوَلاء بفتح أوله مقصورا، ومده للضرورة، وهو كما في القاموس: "القُرب والدُّنو، والوَلِيُّ الاسم منه، والصاحب والنصير والصديق."[17]، والمراد هنا مناصرته والذب عنه والرد على مَن نازع في خلافته، وصح عنه ﷺ أنه قال: "اللهم وَالِ مَن والاه وعاد من عاداه"[18].

ووزير ابن عمه أي المصطفى ﷺ، يعني ناصِرَه ونائبَه، وحاملَ كل ثقل نابه في المعالي الدينية والدنيوية، فإنه ﷺ خلفه على المدينة في غزوة تبوك فقال: "يا رسول الله، خلفتني مع النساء والصبيان؟"، فقال [ﷺ]: "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي"[19]. قال ابن حجر: "فهذا تصريح بأنه وزيره، فإن هارون أُرسِلَ وزيرا لموسى إجابة لدعوته: -واجعل لي وزيرا من أهلي() هارون أخي()-[20]. واستشكل تخصيص الناظم له بالوزارة دون أبي بكر وعمر مع أنها وردت باللفظ فيهما دونه، ففي الترمذي: -ما من نبي إلا ولهُ وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض، فأما وزيريَّ من أهل السماء فجبريل وميكائيل، وأما وزيريَّ من أهل الأرض فأبو بكر وعمر-. وأجيبُ بأن الوزارة الواردة فيه بمعناها المستفادة من قوله –أنت مني بمنزلة هارون من موسى-، أخص من مطلق الوزارة الواردة فيهما بلفظها، ومن ثم أخذ منها أهل الشيعة أنها تفيد النص على أنه الخليفة بعده، وهو كذلك لولا ما يبطله، أنه إنما قال كذلك [ﷺ] حين استخلفهُ على المدينة، مع أن هارون مات في حياة موسى فلا دليل فيه على الخلافة

[15] أي صهرك.

[16] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1215.

[17] نفس الإحالة السابقة، ص.1781.

[18] أخرجه الإمام محمد الحاكم في "المستدرك على الصحيحين".

[19] أخرجه الإمامين البخاري ومسلم في صحيحيهما، بنحو لفظه.

[20] سورة طه، الآيتين 28 و29.

بعد الموت أصلا. ومما يؤيد هذه الوزارة الخاصة كونه ﷺ أخاه دون غيره، فأرسله مؤذنا على الناس ببراءة[21] في الموسم مع أن الخليفة على الحجيج أبو بكر، لأن العرب لا يقبلون من يبلغ على الكبير إلا إن كان من أهله، وأنه استخلفهُ بمكة عند الهجرة يؤدي ودائعه ويقضي ما عليه ويأتيه بأهله، فهذا كله يؤذن بوزارة خاصة لم توجد في غيره"[22]. وفي قوله في المعالي إشعار بذلك إذ هي جمع علاء، وفي القاموس: "عَلِيَ في المكارم كرَضِيَ، وعَلا عُلوا"[23]. وتسعد بفتح التاء مِن سَعِد، وبضمها من أسعدهُ، والوزراء فاعل أو نائبه، وأهل الرجل عشيرته وقرابته، وقدَّم المجرور على عامله اهتماما به وهو تَذييل مناسب لما قبله. ومِن تلك السعادة ما أمده الله به من المؤاخاة له حين جاءه فقال: "يا رسول الله، آخيت بين أصحابك ولم تواخي بيني وبين أحد"، فقال له كما عند الترمذي: "أنت أخي في الدنيا والآخرة"[24]. وما أمده من العلوم التي في الحديث الحسن خلافٌ لِمَن وضَّعَهُ: "أنا مدينة العلم وعلي بابها"[25]، قال ابن حجر: "وفي حديث رجاله ثقات إلا واحد مختلف فيه، أنه خطب ﷺ وهو مُحاصِر الطائف، فمما قال: -أوصيكم بعترتي خيرا، وإن موعدكم الحوض، والذي نفسي بيده لتقيمن الصلاة ولتوتن الزكاة، أو لأَبْعثن إليكم رجلا مني (أو كنفسي) يضرب أعناقكم-، ثم أخذ بيد علي كرم الله وجهه وقال: -ها هو-"[26]. ومِن مناجاته[27] لربه قوله: "كفاني فخراً أن تكون لي رَبّاً، كفاني عزاً أن أكون لك عبداً"[28].

وتوفاه اللهُ رضي الله عنه شهيدا عن ثلاث وستين سنة، ضربه اللعين عبد الرحمان بن ملجم في جبهته، ليلة الجمعة سابع عشر رمضان سنة أربعين وهو خارج لصلاة الصبح، ومات ليلة الأحد. واختلف في موضع دفنه، لأنه أُخفي خوفا عليه أن ينبشه

---

[21] أي سورة "التوبة" أو "براءة".

[22] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.580، بالتصرف والاختصار.

[23] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص,1138، بالتصرف.

[24] أخرجه الأئمة الترمذي والطبراني والحاكم في "المستدرك"، عن ابن عمر رضي الله عنه.

[25] أخرجه الأئمة الطبراني والحاكم وابن عدي، عن ابن عباس رضي الله عنه.

[26] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.585 و586.

[27] أي علي كرم الله وجهه.

[28] من أقوال سيدنا علي كرم الله وجهه.

الخوارج، وفي رواية إنهم حملوه ليدفنوه مع رسول الله ﷺ، فنَدَّ[29] به الجمل الذي حمله فلم يُدرَ أين ذهب، فلذلك قال أهل العراق أنه في السحاب. وكان خطب على المنبر بالكوفة: "اللهم إن القوم قد مللتهم ومَلوني، فسلط عليهم الفتى الثقفي لا يقبل من مُحسنهم ولا يتجاوز عن مُسيئهم".

وكشف الغطاء هنا [في البيت]: رؤية العين ما حصل بالعلم، والمعنى أنه حصل له من البراهين القَطعِية على حقيقة التوحيد ومُتعلقاته، والإيمان بما جاءت به الرسل من الشرائع والوعد والوعيد والبعث، ما لا يزيد برؤيته بالعيان يقيناً وإن ازداد من ثمراته بالكشف، إذ لا يلزم زيادة اليقين بالكشف نفي زيادة ثمراته، لأنه لاشك أن عين اليقين الحاصل بالعيان أقوى من علم اليقين الحاصل بالبرهان، وأن حق اليقين الحاصل بالتحقيق أقوى منهما. وبالجملة، فمناقبه كثيرة وآياته شهيرة، وكيف لا ببضعة[30] سيد الخلق عليه الصلاة والسلام.

ثم قال [الناظم]:

وبِباقي أصحابكَ المُظهِرِ التَّرْ --- تِيبُ فينا تَفضيلَهم والوِلاء[31]

طَلْحَةِ الخَيرِ المُرْتَضِيهِ رَفيقاً --- واحِداً يَوْمَ فَرَّتِ الرُّفَقـــاء

وَحَوَارِيِّكَ الزُّبَيْرِ أبِـــــي القَرْ --- مِ الذي أَنْجَبَتْ بِهِ أَسْمـــاء

وأقسم عليك أيضا بباقي أصحابك من العشرة المشهود لهم بالجنة كما سيذكرهم. قال شيخ الإسلام وغرة الأئمة الأعلام سيدي أحمد بن عبد العزيز السجلماسي رحمه الله: "يتعين رَفْعُ الترتيب على الفاعلية للمُظهر، ونصب التفضيل على المفعولية"، وفينا على حذف مضاف أي في اعتقادنا، إذ المراد بالترتيب تمييز مراتبهم العلية واحداً بعد واحد، كتعيين النبي ﷺ أبا بكر للخلافة بعده بما يدل على ذلك من أمره بالنيابة

---

[29] أي نَفَرَ وهام على وجهه. وقد استشهد كرم الله وجهه بالكوفة، وفي رواية وهو يصلي الفجر في المسجد الكبير بالكوفة. والمعنى من "حملوه على الجمل" أي للسفر من الكوفة إلى المدينة المنورة.

[30] ربما قصد به المؤلفُ حديثَ صحيح الإمام البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث يقول ﷺ لعلي كرم الله وجهه :"أنت مني وأنا منك".

[31] في المنح المكية المطبوع كُتبَ البيت "**وبِباقي أصحابكَ المُظهِرِ التَّرْ---تيبَ فينا تَفضيلُهم والوَلاء**".

عنه في إمامة الصلاة، وكقوله ﷺ قُرب وفاته: "سدوا عني كل خوخة إلا خوخة أبي بكر"[32]، ونحوه. ثم عَهِدَ أبو بكر لعمر بالخلافة بعده رضي الله عنهما، ثم إجماع الصحابة رضي الله عنهم على تولية عثمان [رضي الله عنه] بعده، حيث كان أمرهم شورى بينهم، ثم اختيار خلافة عَلي كرم الله وجهه بعده. ومِن ثم قال والولاء بكسر الواو: مصدر وَالَى بين الأمرين أي تابع، بمعنى أنهم متتابعين في المرتبة. وقوله تفضيلهم ليس محصورا في [][33] أصحابك، فهو من باب عنده درهم ونصفه. قال ابن حجر: "وقد أجمعوا على أفضلية أبي بكر ثم عمر، ثم عثمان ثم علي على الأصح فيهما، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أهل أحد، ثم أهل بيعة الرضوان"[34]. ثم قال ما معناه: "رفع التفضيل على الفاعلية، وفينا أي لنا، ونَصَب الترتيب على المفعولية، وعكّس ذلك الشارح والأول أظهر، والولاء الموالاة والمناصرة الواجبة علينا لهم"[35]. وعليه، فيتعين فتح الواو، ويصير بمعنى الولاء قبله ببيتين، فيكون أيضا وهو محذور.

وطلحة هو "ابن [عبيد][36] الله القرشي التَّيمي أحد العشرة المذكورين، سماه النبي ﷺ طلحة الخير وطلحة الفياض وطلحة الجود لأنه كان فيه غاية، فقد باع أرضا له بسبعمئة ألف، فباتت عنده فلم ينم مخافة من حسابها فأصبح يفرقها، وفي رواية فرقها من ليلته على فقراء المدينة. وجاءه ذو رحم له، فسأله برحمه فأعطاه ثلاثة آلاف. وكان مغَلّه في العراق في كل سنة أربعمئة ألف، وكان يكفي ضعفاء قومه من بني تميم ويقضي ديونهم، ويرسل في كل سنة إلى عائشة عشرة آلاف درهم، وتصدق في يوم بمئة ألف ولم يجد ثوبا يخرج به إلى المسجد للصلاة. وهو وإن لم يشهد بدرا، فقد جعله النبي ﷺ كمن شهدها أجرا وسهما، لأنه كان أرسله وسعيد بن زيد للتجسس عن عير قريش كانت بالشام وخرج ﷺ لبدر، فرجعا إلى المدينة فوافيا

---

[32] من حديث طويل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أخرجه الإمامين البخاري والمسلم.

[33] كلمة واحدة غير واضحة في النسختين الحسنية والصبيحية.

[34] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.550

[35] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.591، بالتصرف.

[36] في النسختين نُقل خطأً "ابن عبد الله"، وصححت حسب المرجع وهو المتفق عليه إجماعا.

مُنصرَفَه من بدر"[37]. والمرتضيه نعت لطلحة أي ارتضاه النبي ﷺ لرفقته واحدا أي منفردا، يوم متعلق برفيق، والرفقاء فاعل فرت، وذلك يوم أُحد فقد صح عنه ﷺ أنه قال: "لقد رأيتني يوم أُحد وما في قربي مخلوق غير جبريل عن يميني وطلحة عن يساري"[38]، وخرَّج الترمذي أنه كان على النبي ﷺ يوم أُحد درعان، فنهض إلى الصخرة فلم يستطع، فأقعد طلحة تحته فصعد ﷺ حتى استوى على الصخرة، قال: "فسمعت[39] النبي ﷺ يقول: -أوجب طلحة-"[40] أي وجبت له الجنة.

وأقسم عليك بحواريّك أي ناصرك الزبير بن العوام القرشي رضي الله عنه، ابن صفية عمة النبي ﷺ، وهو أحد الثمانية السابقين الأولين[41]، وأحد الستة أصحاب الشورى من العشرة، "ولم يلحقه، كحمزة وعلي، أحد في الشجاعة والفروسية"[42]. وصح أنه رضي الله عنه لما اشتد الخوف يوم الأحزاب، نذب النبي ﷺ من يأتيه بخبر نقض العهد من بني قريظة، فقال الزبير أنا، فأعاد فقال أنا، فأعاد فقال أنا، فقال ﷺ: "إن لكل نبي حواري، وحواريَ الزبير"[43]. و"كان مع الخارجين على علي يوم الجمل، فلما دنت الصفوف خرج علي وهو على بغلة رسول الله ﷺ فنادى: -أدعوا لي الزبير-، فدُعي له فأقبل حتى اختلفت أعناق دوابهما، فقال له علي: -نشدتك بالله، أتذكر إذ مر بك رسول الله ﷺ ونحن في مكان كذا فقال: --يا زبير، تحب عليا؟--، فقلتَ: --ألا أحب ابن خالي وابن عمتي وعلى ديني؟--، فقال: --يا زبير، أما والله لتقاتلنه وأنت ظالم--، فقال له [الزبير]: -- بلى والله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله ﷺ، فما ذكرته إلا الآن، والله لا أقاتلك--، ثم أدبر راجعا وسار، فلما وصل إلى وادي السباع نام، فجاءه رجل فقتله في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين، وعمره سبع وستون على الأشهر، ومدحه حسان رضي الله عنه فقال:

---

[37] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.591 و592، بالاختصار.

[38] أخرجه الإمام الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[39] أي الزبير رضي الله عنه وهو راوي الحديث.

[40] أخرجه الترمذي في سننه.

[41] أي السابقين إلى الإسلام.

[42] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.595.

[43] أخرجه الإمامين البخاري ومسلم في صحيحيهما.

فكم كربة ذب الزبير بسيفه --- عن المصطفى والله يعطي فيجزل

فما مثله فيهم وما كان قبله --- وليس يكون الدهر ما دام يُرتـــل

ثناؤك خير من فعال معاشر --- وفعلك يا ابن الهاشمية أفضـــــل"[44]

والقَرْم بفتح القاف وسكون الراء: السيد الكريم، وهو هنا عبد الله ابنه رضي الله عنه، ومن ثم قال [الناظم] أنجبت به أسماء أي بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ذات النطاقين، وهو أول مولود في الإسلام بعد الهجرة. وفي صحيح البخاري من كتاب الأطعمة ما نصه: "عن وهب بن كيسان قال: كان أهل الشام يعيرون ابن الزبير يقولون يا ابن ذات النطاقين، فقالت له أسماء: -يا بني، إنهم يعيرونك، هل تدري ما كان النطاقين؟ إنما كان نطاقي شققته نصفين، فأوكيت قربة رسول الله ﷺ بأحدهما، وجعلت في سفرته آخر-، قال: فكان أهل الشام إذا عيروه بالنطاقين يقول ابنها: -والإله، تلك شَكَاة ظاهر عنك عارُها"[45]. قوله ابنها كذا في بعض النسخ، قيل وهو تصحيف، ووَجَهَ بأنه مقول الراوي، والأكثر إيها[46]، قال في فتح الباري: بكسر الهمزة وسكون التحتية معناها: "الاستدعاء والاستزادة، وقيل التصديق، كأنه قال صدقتم، والإله قسم، وتلك شكاة: مصراع بيت للهذلي أوله : وعيرها الواشون أني أحبها. شكاة بكسر الشين وفتحها، وهو الصحيح، لأنه مصدر شكى يشكو شكاة وشكوى شكاية. وظاهرا أي زائل الألمعي، ظهر عنه العار أي زال وذهب، أي لا عار عليه"[47].

وكان رضي الله عنه يُسمى فارس الخلفاء، واحتجم رسول الله ﷺ فأعطاه دمه، فقال له: "غيبه في موضع لا يراك فيه أحد"، فشربه. فلما جاء إليه قال: "ما فعلت بالدم؟" قال: "شربته"، قال: "إذن لن يلج النار بطنك، ويل لك من الناس وويل للناس منك"[48]، فكان كما قال ﷺ. وكان عسكر الحصين بن نمير يقاتلونه من قبل يزيد بن

---

[44] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.596 و597، بالاختصار.

[45] صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الخبز المرقق والأكل.

[46] أي يقول: إيهاً والإله، تلك شكاة ظاهر عنك عارها.

[47] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري.

[48] أخرجه الإمام الحاكم.

معاوية، وكانوا يُعيرونه بما ذكر، ومِن عماء البصيرة والعياذ بالله تعييرُ المومن بما هو قُربة عند الله [تعالى]، فهو ذم لما مدح الله [عز وجل]، وأي قربة مثل خدمة رسول الله ﷺ وإعانته بشق النطاق ونحوه، رحم الله القائل[49]:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم --- بهن فُلولٌ من قِراع الكتائب

ثم لما مات يزيد، بايعه أهل اليمن والحجاز والعراق وخراسان، ثم قاتله الحجاج بعده من قبل عبد الملك بن مروان، وكان عسكره يعيرونه بذلك أيضا، ثم حاصره إلى أن قتله تعديا وطغيانا، وصلبه ولم يراقب فيه لله حرمة.

ثم قال [الناظم]:

والصَّفِيَّيْنِ تَوأَمِ الفَضلِ سَعْدٍ --- وسَعيدٍ إن عُدَّتِ الأصْفِياء

وابنِ عَوْفٍ مَن هَوَّنَت نَفسُهُ الدُّنْـ --- يا بِـبَذلٍ يُمِدُّهُ إثْراء

الصَّفِيَّيْن تثنية صَفِي: صفة مشبهة من الصفو، كغَنِي وتَقِي. والتوأم من أتأمت المرأة: إذا ولدت اثنين من حمل واحد، وفيه تجوز بإطلاق المفرد على المثنى. والمراد توأمي الفضل، فلكثرة ما قام بهما من الفضل مع اشتراكهما فيه، حتى كأنه أنجبتهما بطن واحد، صح أن يقال فيهما توأمان. أحدهما سعد أبو إسحاق بن أبي وقاص القرشي الزهري "أول من رمى بسهم في سبيل الله، وأول من أراق دما في سبيل الله، كان يقال له فارس الإسلام، شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، ورمى يوم أُحد ألف سهم، وكان ﷺ يناوله النبل ويقول: -إرم فداك أبي وأمي-، ودعا له ﷺ فقال: -اللهم سدد رميه وأجب دعوته-. ووَلاه عمر على العراق فكان هو الأمير في فتح مدائن كسرى وغيرها، ومن كراماته الباهرة أنه قطع بحر الفرات بجيوشه على ظهر الخيل ولم يبلغ الماء منها إلى حُزُمها، والناس في غاية الطمأنينة كأنهم سائرون في البر"[50]. وحدث أهل السير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما ولاه على العراق، سأل يوما عن حاله، فقال رجل من رعيته: "إن سعدا لا يعدل في

---

[49] النابغة الذبياني، من شعراء الجاهلية.

[50] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.599، بالتصرف والاختصار.

الرعية ولا يقسم بالسوية ولا يسري بالسارية"، فبلغ ذلك سعدا فدعا عليه: "اللهم أطل عمره وأدم فقره وعرضه للفتن"، فتقبل الله دعوته فيه فعاش حتى سقط حاجباه على عينيه وما يملك درهما، ويجلس في طريق الماء فيمر به الجواري يستسقين فيغمزهن، فيسخرن منه ويضحكن. و[الثاني] سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي رضي الله عنه، عده البخاري ممن شهد بدرا، ومَرَّ في ترجمة طلحة أنه لم يشهدها، قال ابن حجر: "وعليه الأكثرون، وقد يُجمع بأنه لم يشهدها حقيقة، بل شهدها حكما بأن جعل له النبي ﷺ أجرا وسهما، كما مر. وأخرج الشيخان أن امرأة ادعت عليه عند مروان أنه أخذ لها قطعة أرض، فقال: -ما كنت لأفعل بعد أن سمعت من رسول الله ﷺ: من أخذ شبرا من أرض ظلما، طوقه يوم القيامة بسبعة أَرَضين-. فقال مروان: -لا أسألك بينة بعد هذا-، ثم قال سعيد: -اللهم إن كانت كاذبة، فاعم بصرها واقتلها في أرضها-. فذهب بصرها، ثم بينما هي تمشي في أرضها وقعت في حفرة فماتت، وزاد مسلم أنها قالت: -أصابتني دعوة سعيد-. وفي مسلم، أن قوله تعالى -ولا تطرد الذين يدعون ربهم-، نزلت في ستة منهم سعيد هذا، وهو ابن عم عمر وزوج أخته، والسبب في إسلامه كما مر"[51].

وأقسم عليك بعبد الرحمان بن عوف بن الحارث بن زهرة القرشي الزهري، شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها وكان ممن ثبت يوم أحد. "وصح أنه كان بينه وبين خالد [بن الوليد] شيء، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: -لا تسبوا أصحابي، فَوَالذِي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه- أي نصفه، والخطاب للصحابة السابقين، نزلهم منزلة غيرهم لسبهم الذي لا يليق بهم، حيث عَلَّله بما ذكر"[52]، قاله ابن حجر. وهونت نفسه أي صيرت أموالها وأمتعتها تافهة عنده لا عبرة بها، بسبب بذل لها أي إعطاء في وجوه الخير والقربات، يمده أي يقويه وينميه، إثراء بكسر الهمزة إي كثرة المال الذي فتح الله عليه فيه ببركة دعوة النبي ﷺ له بذلك، فكان محظوظا في التجارة وأكثر ماله منها، "قال لأم سلمة: -خفت أن

---

[51] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.600 و601، بالتصرف والاختصار.

[52] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.601.

تهلكني كثرة مالي-، قالت: -يا بني أنفق-"[53]. "قال الزهري: تصدق على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله أربعة آلاف دينار، ثم بأربعين ألف دينار، ثم بمثلها، ثم بخمسمئة فرس، ثم بخمسمئة راحلة"[54]. وأعتق ثلاثين ألفا، وأوصى لأمهات المسلمين بحديقة فبيعت بأربعمئة ألف، و"أوصى بخمسين ألف دينار في سبيل الله، وأوصى لكل من بقي ممن شهد بدرا بأربعة مئة دينار، وكانوا مئة، منهم عثمان رضي الله عنه فأخذها وهو أمير المؤمنين، وبألف فرس في سبيل الله. وكان أهل المدينة عيالا عليه، ثلث منهم يقرضهم، وثلث يقضي ديونهم، وثلث يصلهم"[55]. وصح أنه ﷺ قال: "أتاني جبريل فقال: -مُرْ ابن عوف فليُضف الضيف وليطعم المسكين وليصل السائل، وليبدأ بمن يعول، فإذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه-"[56]. وصولحت إحدى زوجاته الأربع على ربع الثمن، بثمانين ألف دينار. وصح أنه ﷺ "اقتدى به في غزوة تبوك، فصلى وراءه ركعة من صلاة الصبح، وهذه منقبة عظيمة لم تثبت لغيره"[57].

والمُكَنَّى أبا عُبَيْدَةَ إذ يَعْـ --- ـزِي إليهِ الأَمانَةَ الأُمَناء

وَبِعَمَّيْكَ نَيِّرَيْ فَلَـكِ المَجْـ --- ـدِ وكلٌّ أتاهُ مِنكَ إتـــاء

هو عامر بن عبدالله بن الجراح القرشي الفهري، وإذ تعليل لأقسم، والأمناء جمع أمين فاعل يعزي، من الثلاثي كَرَمى يَرْمي، وفي القاموس: " عزاه إلى أبيه: نَسَبَهُ إليه، وإنه لحسن العِزوة والعِزية بكسرهما"[58]، والأولى فيه يعزوا بالواو لمجيء مصدره عِزوة، ولكونه ذكره فيما لامه واو. والذي نَسَبَ إليه الأمانة النبيُّ ﷺ بقوله فيما صح عنه: "لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح"[59]. شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، "ورُوي أنه أمره على سرية فيها أبو بكر وعمر،

---

[53] من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وقد اختصر المؤلف لفظه.

[54] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.603.

[55] نفس الإحالة السابقة.

[56] أخرجه الأئمة الحاكم والبزار وأبو النعيم في حِليته، بنحو لفظه.

[57] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.602.

[58] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1088.

[59] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي عبيدة، بنحو لفظه.

وتعرض له أبوه يوم بدر فأعرض عنه، فلازمه فأكثر عليه فقتله، فأنزل الله فيه -لا تجد قوما يومنون بالله واليوم الأخر يوادون-[60] الآية"[61]. وفي صحيح البخاري "أن النبي ﷺ قال لأهل نجران: -لَأَبْعَثَنَّ [إليكم رجلا أمينا] حق أمين-، فاستشرف أصحابه فبعث أبا عبيدة"[62].

وأقسم عليك بعَمَّيْكَ، أخَوَي أبيك لأبيه حمزة والعباس رضي الله عنهما، نيري: تثنية نَيِّر صفة مشبهة كهَيِّن وطيِّب، والفلك: شكل مستدير شفاف كالزجاجة يدور بالكواكب، والمجد: الكرم والحسب. شبههما بالشمس والقمر وهما النيِّران، وأثبت لهما ما هو من لوازمهما، وهي الاستضاءة المعبر عنها بنيري، فهي استعارة بالكناية واستعارة تخيلية، وفيها أيضا استعارة تجريدية بذكر المجد الملائم للعَمَّين. وكل منهما أتاه أي حصل له منك إتاء، وفي القاموس: "إتَاء ككِتَاب: ما يخرج من [إكال][63] الشجر، والنماء"[64]، ثم قال: "وأتت النخلة والشجرة أتواً وإتاءً بالكسر: طلع ثمرها أو بدا صلاحها أو كثر حملها"[65]. وحمزة يكنى أبا عمارة ويلقب بأسد الله وأسد رسوله، وكان شجاعا بطلا، وتقدم سبب إسلامه في ترجمة عمر [رضي الله عنهما]، وهو أول من اتخذ له النبي ﷺ لواءً حين بعثه إلى جهينة، واستشهد بأُحد بعد أن قَتَلَ واحدا وثلاثين كافرا، روى الحاكم وصححه أنه ﷺ قال: "والذي نفسي بيده، إنه لمكتوب عند الله تبارك وتعالى في السماء السابعة: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله"[66]. وأما العباس رضي الله عنه فكان جليلا جوادا، ذا رأي سديد وكمال عقل شديد، "مُعظّماً عند الصحابة وعند النبي ﷺ، رئيسا في قريش قبل الإسلام، وكانت السقاية له وعمارة المسجد الحرام"[67]. وكان مع النبي ﷺ يوم

---

[60] سورة المجادلة، الآية 21، برواية ورش عن نافع.

[61] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.606.

[62] صحيح البخاري، كتاب أخبار الآحاد، باب إجازة خبر الواحد. في النسختين لحسنية الصبيحية تُرك فراغ محل ما أضفته بين عارضتين.

[63] في النسختين الحسنية والصبيحية تُرك فراغ ملأتُه بالرجوع إلى المرجع.

[64] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.36.

[65] نفس الإحالة السابقة.

[66] أخرجه الإمام الحاكم في مستدركه.

[67] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.609.

العقبة، يعقد له البيعة على الأنصار، وشهد مع النبي ﷺ حُنينا وثبت معه حين انهزم الناس. و"كان عمر يستسقي بالعباس في القحط ويقول: -اللهم إنا كنا نستسقي بنبيك فتُسقنا، وها نحن نستسقي بعم نبيك فاسقنا-، فيُسقَون"[68]. وفي مدحه يقول القائل[69]:

بِعَمِّي سقى الله البلاد وأهلها --- عشية يستسقي بِشِيبتهِ عُمَرْ

توسل بالعباس في الجدب داعيا --- فما كَرَّ حتى جاء بالمدينة المطر

"وتوفى بالمدينة، ثاني عشر رجب أو رمضان سنة اثنين وثلاثين، وعمره نحو ثمانية وثمانين سنة"[70]. وصح حديث: "أوصاني الله بذي القربى، وأمرني أن أبدأ بالعَباس بن عبد المطلب"[71]، وأخرج الدارقطني في الأفراد: "ليكونُ في ولد العباس مُلكٌ، يكونون أمراء أمتي، يُعز الله بهم الدين"[72]، وحديث "من أذى العباس فقد آذاني، فإنما عم الرجل صِنوُ أبيه"[73].

---

[68] صحيح الإمام البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

[69] الأخضر اللهبي، من شعراء العصر الأموي.

[70] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.610.

[71] ذكره الإمام الحاكم في المستدرك.

[72] أخرجه الحافظ علي الدارقطني في "الثاني من الأفراد"، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

[73] أخرجه الإمام الترمذي.

الفصل العشرون: من البيت 378 إلى البيت 389

قال [الناظم]:

وَبِأُمِّ السِّبطينِ زَوجِ عَلِيٍّ --- وَبَنِيهَا وَمَن حَوَتهُ العَباء

أم السبطين: فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ وهي أصغر بناته، "زوجها ﷺ لِعَلي كرم الله وجهه ثاني سنين الهجرة، بوحي من الله بذلك كما ورد، وبنى بها بعد سبعة أشهر ونصف في ذي الحجة وهي حينئذ بنت خمس عشر سنة وخمسة أشهر، وقيل نحو عشرين سنة، وسن علي أيضا إحدى وعشرين سنة. قال ابن عبد البر: -وهي وأم كلثوم أفضل بناته ﷺ-. وكانت فاطمة أحب أهله إليه، وكان يقبلها ويُمِصُّها لسانه، وإذا أراد سفرا كان آخر عهده بها، وإذا قدم أول ما يدخل عليها"[1]. وفضلها مما عُلم من الدين ضرورة، وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها: "أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيها مشى رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: -مرحبا بابنتي- ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسر إليها حديثا فبكت، فقلت لها: -لما تبكين؟- ، ثم أسر إليها فضحكت، فقلت: -ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن-، فسألتها عما قال فقالت: -لا أفشي سر رسول الله ﷺ-، حتى قُبض ﷺ فسألتها، فقالت : -أسر إليَّ: --إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة وأنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وأنك أول أهل بيتي لِحاقاً بي--، فبكيتُ فقال: --أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين؟--، فضحكتُ-"[2]. قال في فتح الباري: "الخلاف في تفضيلها على عائشة وخديجة، واللازم من هذا الحديث تفضيلها عليهما"[3]. وقال الهيتمي عند قول الترمذي في الشمائل "فضل عائشة على النساء كفضل التريد على سائر الطعام" ما نصه: "تُستثنى خديجة، فإنها أفضل من عائشة على الأصح، لتصريحه ﷺ لعائشة أنه لم يرزق خيرا من خديجة، وفاطمة

---

[1] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.612.
[2] صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب علامات النبوة.
[3] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، شرح الحديث السابق.

أفضل منها إذ لا يعدل بضعة رسول الله ﷺ أحد، وبه يعلم أن بقية أولاده ﷺ كفاطمة، وأن سبب الأفضلية ما فيهم من البضعة الشريفة، ومن ثم حكى ابن السبكي عن بعض الأئمة من عصره، أنه فضَّل الحَسَنَيْنِ رضي الله عنهما على الخلفاء الراشدين، أي من حيث البضعة لا مطلقا، وإلا فهم أفضل منهما علما وأكثر ثوابا وآثارا في الإسلام"[4]، وتقدم بعض هذا عند فضل خديجة. والمراد بالسبطين: الحَسَنَيْن، لقوله ﷺ "الحسن والحسين سبطان من الأسباط"[5]. وزوج علي بدل كل من كل، وبَنِيها جمع ابن فيه تغليب لا طلاقة على ما يتناول، قال ابن حجر: " الذكور: الحسن والحسين ومحسنا -مات صغيرا-، والإناث: أم كلثوم وزينب، وأولادهم إلى قيام الساعة. ولم يكن للنبي ﷺ عقب إلا منها[6]، فانتشر نسله من جهة السبطين فقط"[7]. وتقدم حديث "جعل الله لكل نبي ذرية في صلبه، وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب"[8]. "وأما أم كلثوم فولدت لعمر رضي الله عنه ذكرا وأنثى وماتا صغيرين، ثم تزوجها بعده عون بن جعفر، ثم بعده بأخيه محمد، ثم بأخيه عبد الله، ولم يعقب أحد منهم شيئا. ثم تزوج الأخير منهم بأختها زينب، فولدت له أولاد، منهم علي وأم كلثوم، وانتشر نسلها، ولهم شرف أدون من شرف أولاد الحسنين، لمزيتهما بما ورد فيهما، وللعباسيين والطالبيين شرف أيضا"[9].

والمراد بمن حوته العَبَاء بفتح أوله ضرب من أكسية النبي ﷺ وفاطمة وعلي وابناهما الحسن والحسين، وهو مذهب الجمهور، واحتجوا بأن الخطاب في آية "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس"[10] بالتذكير ولو كان لزوجات[11] النبي لقال عنكن، وبأحاديث منها ما روي عن أبي سعيد الخدري [رضي الله عنه] قال: "قال رسول

---

[4] ابن حجر الهيتمي، أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، ص.237.
[5] أخرجه الأئمة الترمذي وابن ماجة وأحمد.
[6] أي فاطمة الزهراء رضي الله عنها.
[7] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.613.
[8] أخرجه الإمام الطبراني.
[9] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.613، بالتصرف.
[10] سورة الأحزاب، الآية 33.
[11] هكذا في النسخة الحسنية، وفي النسخة الصبيحية كُتبت "الزوجةِ" وهو خطأ نسخ.

الله ﷺ: -نزلت هذه الآية في خمسة، فيَّ وفي علي وفاطمة والحسن والحسين"[12]، وبما رواه ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه ابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق، عن أم سلمة قالت: "في بيتي نزلت –إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت-، وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين، فجللهم رسول الله ﷺ بكَساء كان عليه ثم قال: -اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا-- "[13]، وبما رواه الترمذي في سورة الأحزاب من كتاب التفسير، عن عمرو بن أبي سلمة ربيب النبي ﷺ قال: "لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ -إنما يريد الله- الآية، في بيت أم سلمة، دعا فاطمة وحسنا وحسينا، فجللهم وعلي خلف ظهره، ثم قال: -اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا-، قالت أم سلمة: -وأنا معهم يا نبي الله-، قال: -أنت على مكانك وأنت على خير-"[14]، وفي رواية: "أنت من أزواج النبي وأنت إلى خير"، وفي رواية قال واثلة[15]: "-وأنا من أهلك؟-، قال: -وأنت من أهلي-، فكان واثلة يقول: -وإنها لمن أرجى ما أرجوا-". قال ابن عطية: " وقالت فرقة: أهل البيت في الآية زوجاته خاصة لا رجل معهن، وذهبوا إلى أن المراد بالبيت مساكن النبي ﷺ"، ثم قال بعد كلام: "والذي يظهر لي أن زوجاته لا يخرجن عن ذلك البتة، فأهل البيت زوجاته وبنته وبنوها وزوجها، والآية تقضي أن الزوجات من أهل البيت لأنها نزلت فيهن، والخطاب لهن"[16]. وأشار الطبري إلى أن هذا الفعل تَكَرر منه ﷺ، في بيت أم سلمة وفي بيت فاطمة رضي الله عنهما وغيرهما، وبه يجمع بين الروايات في هيئة اجتماعهم، وما جللهم به وما دعا لهم به وما أجاب به واثلة وأم سلمة. ويؤيد ذلك روايات أنه قال نحو ذلك لهؤلاء وهم في بيت فاطمة رضي الله عنها، وفي رواية أنه ضم إلى هؤلاء بقية بناته وأقربائه وأزواجه. وصح عن أم سلمة: "فقلت: -يا رسول الله، ما أنا من أهل بيتك؟-، قال: -

---

[12] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.4، ص.384.

[13] قال بنحو لفظه كذلك ابن عطية في "المحرر الوجيز"، ج.4، ص,384.

[14] رواه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب.

[15] أي الصحابي الجليل واثلة بن الأسقع الليثي الكناني رضي الله عنه.

[16] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.4، ص.384.

بلى إن شاء الله-"[17]، ومِن ثم قال ابن عطية: "قال الثعلبي: -قيل هم بنو هاشم-، فهذا على أن البيت يرادُ به بيت النسب، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم، وروي نحوه عن زيد بن أرقم [رضي الله عنه]-"[18].

[ثم قال الناظم]:

وَبِأزواجك اللواتي تشَرَّفْـ --- ـنَ بأن صانَهُنَّ مِنكَ بِناء

وأقسم عليك أيضا بأزواجك اللواتي: جمع اللاتي وهو جمع التي، والصون: الحفظ من الآفات، وبناء أي دخول بهن، فاعل صانهن عن النار والنقائص لما صح عنه ﷺ أن الله لا يزوجه إلا مَن ستكون معه في الجنة. ومنك حال من بناء، وصانهن عن تزويج غيره بعده، وعن الاحتياج بعده، فكان يُنفَق عليهن من صدقته. وظاهر كلامه أن من تزوجها ولم يدخل بها لا يحصل لها هذا الشرف بناء على تحريمها على غيره، وهو الأصح. والمتفق عليه في مدخولاتِه ﷺ إحدى عشرة امرأة، وقيل اثنى عشرة، أولهن خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأولاده كلهم منها، إلا إبراهيم فمن مارية. والمتفق عليه من أولاده ﷺ ستة: القاسم ولد قبل النبوة وبه كان يكنى، وأربع بنات:

*زينب: وهي أكبرهن، وماتت سنة ثمان عند زوجها ابن خالها أبي العاص بن الربيع، وأُمامة بضم أوله، التي حملها النبي ﷺ في صلاته بنتها، كما في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ "كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، ولأبي العاص"[19]، تزوجها علي كرم الله وجهه بعد موت فاطمة.

*رقية: توفيت تحت زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه، والنبي ﷺ في غزوة بدر.

أم كلثوم: توفيت سنة تسع من الهجرة تحت عثمان أيضا، تزوجها بعد عتبة بن أبي لهب.

---

[17] أخرجه الإمام الحاكم في المستدرك بلفظ مغاير، حيث جاء جواب رسول الله ﷺ: -إنكِ أهلي خير، وهؤلاء أهل بيتي، اللهم أهلي أحق.

[18] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.4، ص.384.

[19] صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة.

*فاطمة الزهراء رضي الله عنها: قال ابن الجوزي "خلقت قبل النبوة بخمس سنين، وتوفيت بعد النبي ﷺ في رمضان سنة إحدى عشر، فبينهما نحو ستة أشهر على القول بأن تزويجها حين كان سنها نحوا من عشرين سنة. واختلف في محل دفنها، والأشهر أنها في قبة[20] ولدها الحسن، قرب محرابها، وبه جزم الشيخ أبو العباس المرسي، ولعله كُشف له عنه.

"واختلف هل ولد له ﷺ مع خديجة غير هذه الخمسة، فقيل الطيب والطاهر وعبد الله، وقيل الأولان لقبان للثالث ومات صغيرا على الأصح، وقيل عبد مناف وقيل المطهر. وأما إبراهيم فمن سريته مارية القبطية، ولد في ذي الحجة سنة ثمان ومات ابن سبعين ليلة، وقيل ابن سبعة أشهر، وقيل ثمانية عشر شهرا"[21]، وصلى عليه النبي على الصحيح، وقيل أقرهم فصلوا عليه. وتوفيت خديجة رضي الله عنها بمكة لعشر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين على الأصح.

ثم تزوج [ﷺ] بعدها سودة بنت زمعة القرشي العامري بعد وفاة زوجها السكران بن عمرو، في رمضان بعد موت خديجة بأيام، وقيل بسنة قبل الهجرة. توفيت آخر خلافة عمر رضي الله عنه، وقيل في شوال سنة أربع وخمسين.

ثم [تزوج ﷺ] بعائشة رضي الله عنها بمكة، في شوال سنة عشرة من النبوة، ودخل بها في المدينة في شوال على رأس ثمانية عشر شهرا وهي بنت تسع سنين، ولم يتزوج بكرا غيرها، وكناها ﷺ أم عبد الله بابن أختها أسماء، عبد الله ابن الزبير، لا بسقط أسقطته منه ﷺ، لأن ذلك لم يثبت. وماتت ليلة الثلاثاء لسبع عشر من رمضان سنة ثمان وخمسين.

ثم [تزوج ﷺ] بحفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، على رأس ثلاثين شهرا من الهجرة في شعبان، قبل أُحد بشهرين، بعد رجوعها من هجرة الحبشة مع زوجها خنيس بن حذافة السهمي، ومات عنها بالمدينة بعد رجوعه من بدر، على رأس خمسة عشر شهرا من الهجرة، ولم يشهد بدرا سهميٌ غيره. وروِيَ أن رسول

---

[20] في بداية القرن العشرين تم هدم قباب البقيع، ومنها تلك القبة.

[21] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.617، بالاختصار.

الله ﷺ طلقها، فأتاه جبريل وقال: "إن الله يأمرك أن تراجع حفصة، فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة"[22]، فراجعها. ولدت قبل النبوة بخمس سنين، وتوفيت في شعبان سنة خمس وأربعين، وقيل غير ذلك.

ثم [تزوج ﷺ] بزينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية، في رمضان في السنة الثالثة من الهجرة، وكانت تسمى أم المساكين في الجاهلية لإطعامها لهم ورأفتها بهم، وماتت لثمانية أشهر آخر ربيع الثاني سنة أربع، وقيل مكثت عند النبي ﷺ شهرين أو ثلاثة، ولم يمت من أزواجه ﷺ في حياته غيرها وخديجة.

وفي ريحانة خلاف سيأتي إن شاء الله.

ثم [تزوج ﷺ] بأم سلمة، واسمها هند وقيل رملة بنت أبي أمية القرشي الفهري، بعد رجوعها من هجرة الحبشة مع زوجها أبي سلمة، شهد بدرا مع النبي ﷺ، وبعثه ﷺ وبعث معه مئة وخمسين من المهاجرين إلى قَطَن[23] بناحية بني أسد. ثم بعد رجوعه إلى المدينة، انتقض جرحه من سهم رُمي به يوم أُحد، فمات منه لثمان من جمادى الأخيرة سنة أربع من الهجرة، وحلت [أم سلمة] من عدتها لعشر بقين من شوال سنة أربع، وتزوجها [ﷺ] لِلَيالٍ بقين منه وبنى بها فيه. وذكر ابن عبد البر أنه: "تزوجها سنة اثنين بعد وقعة بدر، عقد عليها في شوال وبنى فيه"[24]، وعليه يكون أبو سلمة مات قبل ذلك، وبالأول جزم الدمياطي وغيره. وماتت رضي الله عنها في شوال سنة اثنين وستين، في ولاية يزيد بن معاوية، وقيل سنة تسع وخمسين في ذي القعدة، والصحيح الأول.

ثم [تزوج ﷺ] بزينب بنت جحش، تزوجها لهلال ذي القعدة سنة أربع على الصحيح، وهي بنت عمته أميمة، وفيها نزل "فلما قضى زيد منها وطرا"[25] الآية. دخل عليها ﷺ بغير عقد[26]، وكانت تفخر على نسائه بذلك وتقول: "زوجني الله من السماء"،

---

[22] أخرجه بنحو لفظه، الإمامين الطبراني والحاكم.

[23] وهو جبل بمنطقة نجد.

[24] لم أقف عليه. وقد أورد ابن عبد البر ترجمة أم سلمة رضي الله عنها، في "الاستيعاب في معرفة الأصحاب "، دار الأعلام، الطبعة الأولى، 2002، ص.952 و953.

[25] سورة الأحزاب، الآية 37.

[26] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.619.

وفيها نزلت آية الحجاب. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها: "أن رسول الله ﷺ قال: -أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا-، وكانت قصيرة اليدين، فلما توفيت علمنا أنما أراد بطول اليدين: الصدقة"[27]. وكانت رضي الله عنها كثيرة الخير والصدقة، تدبغ وتخرز وتتصدق، وماتت سنة عشرين، فكانت أسرع نساء النبي ﷺ لحاقا به.

ثم [تزوج ﷺ] بجويرية بنت الحارث الخزاعية المُصْطَلِقِية[28]، سُبيت يوم المُرَيْسِيع[29] فوقعت في سهم زيد بن ثابت بن شماس، فكاتبها. فجاءت تسأل النبي ﷺ في كتابتها وعرفته بنفسها، فقال: "هل لك إلى ما هو خير من ذلك؟ أُوَدِّي عنك كتابك وأتزوجك"، قالت نعم. فسمع الناس بذلك، فأعتقوا ما بأيديهم من قومها وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ. قالت عائشة: "ما رأيت امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويرية، أُعتق في سببها مئة أهل بيت من بني المصطلق"[30] أخرجه أبو داوود. وكانت حينئذ بنت عشرين سنة، وكانت تحت صفوان بن مسافع بن ملك بن جذمية، قُتل يوم المُرَيْسيع. تزوجها ﷺ في سنة ستة من الهجرة، وتوفيت في ربيع الأول سنة ست وخمسين، وقيل خمسين.

ثم [تزوج ﷺ] بريحانة بنت زيد من بني النضير، وكانت تحت الحكم القرظي فنسبها بعض الروات إلى بني قريظة، لذلك قال الدمياطي وقال ابن عبد البر: "الأكثر أنها من بني النضير". وكانت وسيمة، وقعت في السبي يوم بني قريظة فكانت صَفِي رسول الله ﷺ، فخيرها في الإسلام ودينها فاختارت الإسلام، فأعتقها وتزوجها وأصدقها اثنتي عشرة أوقية ، وأعرس بها في المحرم سنة ست من الهجرة. وغارت عليه غيرة شديدة، فطلقها تطليقة، فأكثرت البكاء، فدخل عليها وهي على تلك الحال فراجعها. وماتت، فرجع النبي ﷺ من حجة الوداع ودفنها في البقيع. وقيل أنه لم يتزوجها، وكان يَطَؤُها بالمِلك، وأنه خيرها بين أن يتزوجها وبين أن تكون مِلكا له،

---

[27] صحيح الإمام مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل زينب أم المؤمنين رضي الله عنها، بلفظ مغاير.
[28] من بني المُصْطَلِق.
[29] أو غزوة بني المصطلق.
[30] سنن الإمام أبي داوود.

فاختارت مِلكه حتى توفى عنها. قال الدمياطي: "والأول أثبت، وهو الأمر عند أهل العلم".

ثم [تزوج ﷺ] برملة، وقيل هند بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش للحبشة في الهجرة الثانية، فتنصر زوجها عبد الله بن جحش ومات على ذلك، فبعث النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في محرم على الأصح سنة سبع من الهجرة، فزوجه إياها، وكان الذي عقد عليها سعيد بن أمية على الأصح، وأصدقها النجاشي عن رسول الله ﷺ أربعمئة دينار على الأصح، وجهزها من عنده، وبعثها مع شرحبيل بن حسنة سنة سبع. وقيل تزوجها رسول الله ﷺ بعد رجوعها من الحبشة، والمشهور الأول. ماتت سنة أربع وأربعين، وقيل غير ذلك، ودفنت بالمدينة، وقيل بدمشق.

ثم [تزوج ﷺ] بصفية بنت حُيَي بن أخطب من بني النضير، من أولاد هارون أخي موسى بن عمران عليهما الصلاة والسلام. كانت عند سلام بن مكمش القرظي، ثم عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النَّضيري فقُتل عنها يوم خيبر، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه فأعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صَداقها، ولم تبلغ سبع عشر سنة. وماتت في رمضان سنة خمسين وقيل غير ذلك، ودفنت بالبقيع.

ثم [تزوج ﷺ] بميمونة بنت الحارث الهلالية، كان اسمها برة فسماها رسول الله ﷺ ميمونة. وكان العباس بن عبد المطلب يلي أمرها، فزوجها له في شوال سنة سبع، وكانت خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن عباس، بِسَرِف[31]، وبنى بها فيه بعد خيبر، وكان حلالا، ورواية مُحْرِماً بمعنى أنه في الحرم، على أن من خصائصه ﷺ أنه كان ينكح وهو محرم. وماتت في سنة إحدى وخمسين على الصحيح، وبلغت ثمانين سنة.

فهؤلاء أزواجه المدخول بهن، على الخلاف السابق في زوجية ريحانة، والاتفاق على من عداها. ومات [ﷺ] عن تسع منهن، كما بيَّنا من توفت في حياته ﷺ، وتَرتيبهن على ما ذكرنا هو المشهور، وكما ذكره الحافظ أبو محمد عبد العظيم

[31] موضع يقع شمال غرب مكة المكرمة، على بعد 12 كيلومتر، وتسمى حاليا "النوارية".

المنذري، وبه جزم تلميذه الشيخ شرف الدين الدمياطي[32] رحمهما الله، وفي ترتيب بعضهن خلاف.

وأما من لم يدخل بهن ومَن وهبت نفسها له ومَن خطبها ولم يتزوجها، فثلاثون امرأة، على اختلاف كثير في بعضهن.

[ثم قال الناظم:]

الأَمــانَ الأَمــانَ إن فُؤادِي --- مِــنْ ذُنوبٍ أَتَيتُهُنَّ هَواء

قَد تَمَسَّكتُ مِن وِدادِكَ بِالحَبْـ --- ـلِ الذي استَمسَكَت به الشُّفَعاء

وأَبى اللهُ أن يَمَسَّنِيَ السُّو --- ءُ بِحالٍ وَلِي إليكَ الْتِجــاء

الأمان الثاني تأكيد للأول وهما معمولان لجواب القسم، فكأنه يقول : أقسمت عليك بكل ما تقدم أن تسأل لي الأمان من المؤاخذة بالذنوب وسوء الحساب، بشفاعتِك في إلى ذي العرش الكريم العظيم الذي لا يرُدُّها، لتكون سببا لنجاتي في الدارين. وإن بالكسر على الاستئناف، وبالفتح للتعليل، وفؤادي اسمها وتقدم معناه، ومن للتعليل، وأتيتهن صفة لذنوب، والمجموع حال من الضمير في هواء، وهو خبر إن لأنه مؤول بالمشتق، وهو اقتباس من قوله تعالى "وأفئدتهم هواء"[33]، قال المفسرون: أي مُنخرقة[34] لا تغني شيئا من شدة الجزع، شبهها بالهواء لتفرغه من الأشياء، و المعنى هنا أنه خال من فهم ما ينفعه في دينه ودنياه، لفرط الحياء والخجل من الله تعالى والدهشة من شدة الخوف. وفي نسخة هباء بالباء أي لا وجود له، فيُرفع لمعنى الأول.

---

[32] عبد المومن بن خلف الدمياطي، مخطوط "مختصر السيرة النبوية"، الصفحتين 123 إلى الصفحتين 126. في هذه الصفحات، اختصر الشيخ الدمياطي أهم المحطات من السيرة النبوية، ابتداء من الهجرة.

[33] سورة إبراهيم، الآية 43.

[34] الثعلبي، الكشف والبيان، ج5، ص325.

وتمسكت أي توثقت[35] واعتصمت، وأدخل عليه قد للتحقيق، من ودادك مصدر مضاف إلى المفعول أي محبتي إياك، ومِن بيان للحبل حال منه.

والمعنى أنه تمسك في نيل مَطلوبه بالحبل، حال كونه من وداده الذي تمسك به الشُّفَعاءُ من الأنبياء والأولياء والصالحين، حتى نالوا منزلة الشفاعة، فلم تحصل لهم مرتبة الشفاعة إلا بواسطة محبتهم لك. وإذا أورثتهم محبتك قبول شفاعتهم في غيرهم، فقد أورثني وقوع شفاعتك في، بجامع أني أحبُك كما يُحبونك، وإن تَفاوتَ مقدار المحبة في الطرفين. وسيأتي أن رِضى الله يُنال بمحبته ﷺ.

وأبى الله أي لم يُرِد لأَجْلِكَ شَقْوَتي، كما جرت عادته بتَفَضُّلِه عليك، الدَّال عليه قوله تعالى "ولسوف يعطيك ربك فترضى"[36]، ومن رِضاك إبايةُ اللهِ أن يمسَّني السوء والحال أن لي التجاء إليك، أي اعتصام بك. ولله ذر القائل:

ألم ترى أن اللهَ أرضاك في الضُّحى --- وحاشاكَ أن تَرضى وفينا مُعَذَّبُ[37]

ثم قال [الناظم]:

قد رَجوْنـــــاكَ للأُمورِ التي أَبـ --- ـرَدُها في فُؤادِنا رَمْضـــاء

وأَتَيْنــــا إلَيكَ أَنْضـــاءَ فَقْرٍ --- حَمَلَتْنا إلى الغِنى أَنْضـــاء

وانْطَوَت في الصُّدورِ حاجاتُ نَفْسٍ --- ما لها عن نَدى يَدَيكَ انْطِواء

أي أَمَلْنا فضلُك أيها المصطفى الكريم، لِما أولاك اللهُ [تعالى] من الشرف الذي لا يصل إليه مخلوق، لِدَفعِ ما نخشاه مما ارتكبناه من الأمور الخطيرة العظيمة الواقعة منا من المخالفات، حتى أن أبردها، من البرودة ضد الحرارة، أي أقلُها أو أيسرها، وفي فؤادنا حال من ضمير أبردها أو من ضمير رمضاء، أي نار متوقدة، من

---

[35] بمعنى ارتبطت.

[36] سورة الضحى، الآية 5.

[37] يُنسب العجز من البيت للشاعر محمد بن عمر اليافي (وُلد في 1173هـ وتوفي في 1233هـ). والغريب أن في زمن تأليف الكتاب، كان الشاعر طفلا دون الثلاث سنوات، فنظرا لتباعد الزمان والمكان، يظهر أن البيت كان معروفا قبل أن يقول بمثله الشاعر المنسوب له.

الرمَض بفتح الميم وهو كما في القاموس: "شدة وقع الشمس على الرمل وغيره. رَمِضَ يومنا كفَرِحَ: اشتد حره"[38]. والرجاء انتظار تحصيل المطلوب بعد الشروع في سببه، بخلاف الطمع فهو انتظار تحصيل المطلوب من غير شروع في سببه. قال ابن جزي في تفسيره: "وموجب الرجاء معرفة رحمة الله وعظيم ثوابه وهو ثلاث مراتب، الأولى: رجاء رحمة الله مع التسبب فيها بفعل طاعته وترك معصيته فهذا رجاء محمود، الثانية: الرجاء مع التفريط والعصيان فهذا غرور، الثالثة: قوة الرجاء حتى يبلغ إلى الأمن فهذا حرام"[39] . قال تعالى "فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون"[40]، وفي رسالة القشيري قال يحيى بن معاذ: "يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، فكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف، وأجدني أعتمد في الذنوب على عفوك، وكيف لا تعفوا وأنت بالجود موصوف"[41].

وأتينا إليك أي توجهنا إلى ضريحك الكريم "للاستعاذة بك من كل مكروه"[42]، وأَنضاء بفتح الهمزة حال من فاعل أتينا أي مهازيل، جمع نِضو بكسر النون وهو المهزول من الإبل وغيرها، أي فقراء من الأعمال الصالحة، فضعفنا لكثرة ما حملنا من الذنوب حتى هزلنا بسبب ثقله، فحُملنا إلى حضرتك العلية التي ينال منها الغِنى في الدارين. وأنضاء [الثانية] فاعل حملتنا، والجملة حال من فاعل أتينا أيضا، أي ركائب مهازل أجهدها طول السير وشدة الإسراع إلى حضرتك السنية الأنوار، واغتناما لما نرجوه من كمالك. قال ابن حجر: "فإن أريد بالإتيان التوجه إليه بالقلب، كانت مجازا عن الهمم الضعيفة"[43].

وانطوت أي استقرت واستترت، والـ [في الصدور] خلف عن الضمير أي في صدورنا، وحاجات فاعل، أي دينية ودنيوية، أملنا تحصيلها من جانبك الكريم

---

[38] الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ص. 669.

[39] ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ج.1، تفسير سورة الأعراف، الآية 57، ص.290.

[40] سورة الأعراف، الآية 99.

[41] القشيري، الرسالة القشيرية، ص.246.

[42] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص,624.

[43] لم أقف عليه عند شرح البيت المعني في "المنح المكية" المطبوع، ص.624.

فرفعناها إليك، حال كونها ما لها عن ندى يديك، إي إعطائك، انطواء أي استتار مبتدأ، وما نافية، ولها خبره، أي فلا اغتناء لها عن جانبك الرفيع، ولا تُقضى إلا بجاهك الواسع المنيع، إذ هو الواسطة في كل شيء، ومن ثم قال [الناظم]:

فَأَغِثنا يا مَن هو الغَوْثُ والغَيْـ --- ـثُ إذا أَجْهَدَ الوَرَى الـلَّأْواء

وَالجَوَادُ الـذي بـه تُفْرَجُ الـغُمَّـ --- ـةُ عَنَّا وتُكشَفُ الحَوْبــــــاء

هذه نتيجة قوله قد رجوناك، أي أنقذنا من الأهوال والشدائد يا من هو الغوث[44] ، أي المغيث للمكروبين والملجأ للمضطرين والغيث لأهل الفاقة والاحتياج في التخلص من الجدب والقحط، فاكشف بلاءنا وارفع ضررنا بجاهك عند الله [تعالى]، إذا أجهد أي إذا أتعب وأشق الورى اللأواء، أي الشدة والجدب المشرف لهم على الهلاك.

والجواد أي الكريم الأعظم عطف على الغوث، أي الذي لم يخلق الله [عز وجل] مثله، فتُفرج بسببه الغُمة، بضم أوله نائب الفاعل، عنا أي معشر أمته ﷺ، وتُكشف بالبناء للمفعول. والحوباء، قال ابن حجر: "بفَتح أوله وضمه"[45]، وليس في مشاهر أوزان التأنيث فُعلاء بضم أوله، وهو الإثم أو عقابه، والشدة والحاجة. وفي نُسخة: **تفرج الكربة عنا وتكشف الغماء**، وهما سواء.

ثم أنشأ [الناظم] توسلا آخر فقال:

يَا رَحيماً بالمُومِنينَ إذا ما --- ذَهِلت عن أبنائها الرُّضَعاء[46]

يَا شَفيعاً في المُذنِبِينَ إذا أَشْـ --- ـفَقَ مِن خَوْفِ ذَنبِهِ البُراء

هذا نداء له ﷺ بما خصه الله من الفضائل، يتضمن الاستعطاف والتحنن والترحم. ورحيما صفة مشبهة من الرحمة وهي رقة القلب، وغايتها التفضل أو إرادته،

---

[44] إذا اعتبرنا أن الناظم يقصد اللجوء إليه ﷺ يوم القيامة، فلا حرج في هذا القول إن شاء الله، فهو ﷺ المأمول في الشفاعة عند الكبير المتعال عز وجل. ويُؤيده ما يأتي بعده عند قول الناظم: **إذا ما ذَهِلت عن أبنائها الرُّحَماء**، وهو من قوله عز وجل "يوم ترونها تَذْهَلُ كلَّ مرضعة عما أرضعت"، سورة الحج الآية 2.

[45] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.625.

[46] في "المنح المكية" المطبوع كُتب "الرحماء".

وبالمؤمنين متعلق به، وهو اقتباس من قوله تعالى "بالمُومنين رؤوف رحيم"[47]. وكان [ﷺ] بالمُؤمنين رحيما، لا سيما يوم لا ينفع مال ولا بنون إذا ما ذهلت، وفي القاموس: "ذَهَلَه وعنه كمنع، ذَهْلا وذُهُولا: تركه على عهد أو نسيه لشغل"[48]، والرضعاء جمع رَضِع، وهو اقتباس أيضا من قوله تعالى "يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت"[49] الآية.

ويا شفيعا نداء من الشفاعة وهي السعي في إصلاح حال المشفوع فيه عند المشفوع إليه، في المذنبين أي في غفران ذنوبهم وكشف كروبهم، وإذا ظرف للشفاعة. وأشفق هنا بمعنى دهش لا خاف، لقوله من خوف ذنبه أي من أجله، إذ الشيء لا يكون سببا لنفسه. وضمير ذنبه عائد على الفاعل المتأخر عنه لفظا وهو البراء، و"أفرده نظر اللفظ لا للمعنى أو أراد به الجنس"[50] قاله ابن حجر. والبراء جمع بريء من الكبائر، إن أراد به الخاصة من المُؤمنين، وذكرهم لأن خوفهم من الصغائر فقط لا يأمنون معه من مناقشة الحساب، وأحرى المفرِّطون المرتكبون الكبائر، نَسألُ اللهَ خفي لُطفه وعميم عفوه. وإن أراد بهم [أي البُراء] الأنبياء، فالمراد بذنوبهم الأمور التي يرونها ذنوبا في حقهم، إذ "حسنات الأبرار سيئات المقربين"[51]، وكان ﷺ يستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة كما في رواية للبخاري[52]، وفي رواية أكثر من سبعين مرة.

---

[47] سورة التوبة، الآية 128، برواية ورش عن نافع.

[48] الفيروز آبادين القاموس المحيط، ص.599.

[49] سورة الحج، الآية 2.

[50] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.629.

[51] من أقوال الإمام الجنيد. أنظر "تفسير القرطبي"، سورة طه، الآيات 120 إلى 122.

[52] صحيح الإمام البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة.

الفصل الواحد والعشرون: من البيت 390 إلى البيت 408

ذكر [الناظم] نتيجة التوسل فقال:

جُدْ لِعاصٍ وما سِوايَ هُوَ العَا --- صِي ولكنْ تَنْكيريَ[1] اسْتِحْياء

وتَـدارَكـهُ بالـعِـنـايَـةِ مـــا دَا --- مَ لهُ بِالذِّمامِ مِنكَ ذَمَــــاء

أي تفضل على عاص استأسرته الخطايا وأحاطت به المحن والبلايا، فاشفع له بشفاعتك التي لا ترد، ولم يُعيِّن ما يجود به للتفخيم في المسؤول والتعميم. وما نافية، ولكن استدراك تلطفٍ واعتذار. وتنكيري أي ذكر لفظ عاص بالتنكير، هو استحياء مني في مخاطبتي إياك به، فمنعني الحياء أن أقول العاصي. وهذا من حسن أدبه [أي الناظم] رضي الله عنه، لعدم مواجهته له بإقراره بما نُهيَ عنه من ارتكاب المعاصي. وفي رسالة القشيري "سُئل الجنيد عن الحياء فقال: رؤية الآلاء ورؤية التقصير تتولد من بينهما حالة تسمى الحياء"[2].

وتَدَارَكهُ أي أدرك هذا العاصي وتلاقَه قبل تلفِه، بالعناية منك له حتى يُعامله الله تعالى بالرضى عنه. وما ظرفية مصدرية، وتقدم تفسير الذمام بالمعجمة، وظاهر القاموس أنه بفتح أوله، متعلق بذَماء بفتح المعجمة، وفي القاموس: "هو الحركة والنفس أو قوة القلب، وهو في الأصل بقية الروح في المذبوح"[3]. ومنك حال من العناية أو من الذمام.

والمعنى: أسرع لك بإدراك النجاة له ما دام له أدنى تعلق بذمامك، أي بحرمتك وجاهك، كأنه يقول: قبل أن أموت. قال ابن حجر: "الذمام بمعجمة، قَسَمٌ متعلق بتَدَارَكْهُ، أي تداركه بالعناية بحق حرمتك التي أنعم الله عليك بها"[4].

---

[1] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "تَنَكُّري".
[2] القشيري، الرسالة القشيرية، ص.375.
[3] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.597.
[4] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.632.

ثم تذكر [الناظم] عاقبة العصيان وحال من ارتكبها تأسفا، فقال:

أَخَّرَتهُ الأعمالُ والمالُ عَمَّا --- قَدَّمَ الصَّالِحونَ والأَغنِيـاء

كُلَّ يَومٍ ذُنـوبُـهُ صاعِداتٌ --- وعَلـيَـها أَنْفاسُـهُ صُعَداء

الأعمال فاعل أخرت على حذف مضاف أي قلة، أو على حذف نعت أي السيئة، ومفعوله يعود إلى العاصي أي لارتكابه المعاصي، وأخره المال الفاني الذي أمسكه أو صرفه في غير مستحقه، أو قِلته، فتأخر عما قدَّمَ الصّالحون وهو جمع صالح "أي القائم بحقوق الله، يعني ما قدموا من صالح الأعمال، ويشمل الملائكة"[5]. ومن ثم أخبر ﷺ: "إن المصلي إذا قال في تشهده -السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين- أصاب كل عبد صالح في السماء والأرض"[6]. وعما قدم الأغنياء: من إنفاق المال في وجوه الخير، فهو لف ونشر مرتب. وفي صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "-أيكم مال وارِثِه أحب إليه من ماله؟-، قالوا:-يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه-، قال:-ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر"[7]. وفي حديث: "إذا حملت الجنازة قالت الملائكة: -ما قدم فلان؟ ويقول الناس: ما خلف؟"[8].

وكل يوم ظرف لصاعدات، أي مرتفعات مع ملائكة الليل والنهار، الذين يرفعون أعمال العباد للعرض على الله تعالى، وعليها أي لأجل تلك الذنوب، أنفاسه جمع نَفَس بفتحتين، صعداء أي متتابعة ممتدة من شدة ما يلقى من ألم الندم، وفرط الأسف على الوقوع في المخالفات.

ثم ذكر [الناظم] حال المتأخر وعاقبة أمره، فقال:

أَلِـفَ الـبِطْنَةَ المُبَطِّنَةَ السَّيْـ --- ـرِ بِـدارٍ بهــا البِطــانُ بِطــاء

فَبَـكَـى ذَنْبَـهُ بِقَسْوَةِ قَلْـبٍ --- نَهَتِ الدَّمْعَ فـالبُكاءُ مُكـــاء

---

[5] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.632.

[6] أخرجه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما.

[7] صحيح الإمام البخاري، كتاب الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له.

[8] لم أقف عليه.

وغَدا يَعْتِبُ القَضاءَ ولا عُذْ --- رَ لِعاصٍ فيما يَسُوقُ القَضاء

ألف بكسر اللام من الألفة، وفاعله ضمير يعود إلى العاصي، والجملة صفة له، بعد وصفه بجملة أَخَّرَتهُ[9]، والبطنة بكسر أوله مفعول، قال ابن حجر: "-أي ملأ بطنه من الطعام و الشراب-[10] قاله الشارح، والذي في القاموس أنها: -الأشر والبطر-، وقال[11] في البطر أنه -النشاط والأشر وقلة احتمال النعمة والدهش والحيرة و الطغيان بالنعمة، وكراهة الشيء من غير أن يستحق الكراهة-، وكل ذلك صحيح هنا. وقال في البَطِن بوزن كَتِف أنه -الأشر المتموِّل ومن همه بطنه-"[12]، وما قاله الشارح أنسب بعجز البيت. والمبطئة السير أي الثقلة عن النهوض إلى عبادة الله تعالى، فإن البطنة تفسدُ العقل بإذهاب فطنته والبدن بإذهاب نهوضه وقوته. وبدار أي الدنيا، حال من فاعل ألف وباؤه للظرفية، وضمير بها راجع إلى دار وباؤه للظرفية متعلقة ببطاء، جمع بطى كغنى، وهو خبر عن بطان بكسر أوله جمع بطين.

وقسوة القلب الناشئة عن تلك البطنة: غلظته وشدته، المؤديين إلى البكاء صوري لا حقيقي، وباء بقسوة للمصاحبة أو للإلصاق كقوله تعالى "تنبت بالدهن"[13]، ومن ثم قال نهت الدمع أي كفته القسوة ومنعته من أن يبرز منه شيئ من عينيه، فبسبب ذلك النهي والمنع انقلب البكاء عن حقيقته فصار كالصفير، وهو المراد بمُكاء بضم أوله، بجامع أن كلا منهما صوت جرى على اللسان ولم يتأثر به القلب، مقتبس من قوله تعالى "وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء"[14] الآية. وبين البكاء والمكاء جناس مضارع.

وغدَا أي صار ذلك العاصي الواقع له ما ذكر، يعتب بضم التاء وكسرها من عتب عليه: وجد عليه في نفسه، والقضاء مفعوله أي قضاء الله عليه بالوقوع في

---

[9] أنظر البيت الثالث من هذا الفصل.
[10] قاله الشيخ السباطي في شرحه، مخطوط شرح القصيدة الهمزية، ص.148.
[11] يعني الشارح، وهو الشيخ السنباطي.
[12] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.633 و634.
[13] سورة المؤمنون، الآية 20.
[14] سورة الأنفال، الآية 35.

المعاصي، "أي يقول لِمَ وكَيفَ قُدر هذا عليَّ؟، والحال أنه لا عذر لعاصٍ فيما يسوق القضاء إليه من المعاصي، أي لا يحتج العاصي على الله بالقضاء حتى يسقط عنه الإثم، وتندفع مؤاخذته بالذنب بالاعتذار بكونه مقضيا به عليه، لأن الله تعالى أجرى عادته الإلهية في هذا العالم على إناطة مسببات بأسباب، وينسب وقوعها إليها عادة، وإنما وقوع الكل في الحقيقة بقضائه وقدره وقدرته الأزلية، كما دل عليه قوله تعالى "فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"[15]، فأسند تعالى -القتل والرمي إليهم-[16] باعتبار الصورة الوجودية، ونفاهما عنهم باعتبار الحقيقة الإيجَادِية، إشارة إلى أنه يجب علينا مراعاة المقامين، بأن نسند الأفعال إلى فاعلها صورة ليترتب عليها المدح والذم باعتبار جريان تلك الصور عليهم، وإلى الله تعالى حقيقتها من حيث عجز العبد عنها، وانفراد الحق تعالى بالإيجاد والاختراع"[17]. قال في جمع الجوامع: "وكل واقع فهو بقدرة الله تعالى وإرادته، فهو خالق كسب العبد، قدرَ له قدرة هي استطاعة تصلحُ للكسب لا للإبداع، فالله خالق غير مكتسب، والعبد مكتسب غير خالق"[18]، قال شارحه المحلي: "فيُثاب ويُعاقب -يعني العبد- على مُكتسبه الذي يخلق الله عقب قصده له، وكون فعل العبد مكتسبا له مخلوقا لله، توسط بين قول القدرية: إن العبد خالق لفعله لأنه يثاب ويعاقب عليه، وبين قول الجبرية أنه: لا فعل للعبد أصلا وهو آلة محضة كالسكين في يد القاطع. ثم إن الاحتجاج بالقضاء عل ثلاث مراتب: فإن كان قبل الوقوع في الذنب ليكون وسيلة إلى الوقوع فيه فهو باطل محرم، وإن كان بعد الوقوع فيه لِدفعِ العقوبة في الدنيا بالحد، وفي الآخرة بالعذاب، فكذلك أيضا إلا بعفو الله عمن شاء"[19]. قال الثعلبي في تفسير قوله تعالى "والله يدعو إلى دار السلام"[20] : "عم بالدعوة إظهارا للحجة، وخص بالهداية استغناءً عن خلقه. وقيل الدعوة إلى دار السلام عامة، لأنها الطريق إلى النعمة

---

[15] سورة الأنفال، الآية 17.

[16] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "إليه الرمي وإليهم القتل"، ويبدو أن نقل العلامة الشبيهي هو الأصح بالنظر للشرح الذي يتبع.

[17] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.635، بالتصرف.

[18] القاضي السبكي، جامع الجوامع، ص.132.

[19] الإمام المحلي، حاشية بناني على شرح المحلي،ج.2، ص.435.

[20] سورة يونس، الآية 25.

والهداية خاصة، لأنها الطريق إلى المنعِم"[21]. في الحقيقة، دعاهم إلى ما يوجب لهم الوصول إلى دار السلام، وهو امتثال أوامره والانزجار عن زواجره، فالدعاء من حيث التكليف والهداية من حيث التشريف، فالتكليف عام والهداية خاصة منه.

وإن كان الاحتجاج بعد الوقوع في الذنب أيضا للمنع من تعبيره به، فهو صحيح نافع، وعليه يُحمل احتجاج آدم على موسى عليهما الصلاة والسلام كما في رواية للبخاري: "احتج آدم وموسى، فقال موسى: -يا آدم، أنت أبونا خيبتنا فأخرجتنا من الجنة-، فقال له آدم: -يا موسى، أصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟-، فحج آدم موسى فحج آدم موسى، ثلاثا"[22]. قال جلال الدين السيوطي في توشيحه: "قيل كان ذلك في حياة موسى بأن أحيى الله له آدم معجزة له، فكلمه أو كشف له عن قبره فتحدثا، أو أراه روحه في اليقضة أو المنام، وقيل بعد وفاته في البرزخ، وبه جزم ابن عبد البر والقابسي، وقيل إن ذلك يقع في الآخرة. وفيه احتجاج بالقدر وهو غير جائز، وقال النووي عنه بأن معنى كلام آدم: -إنك تعلم يا موسى أن هذا كتب علي قبل أن أخلق فلابد من وقوعه، فلو حرصت أنا والخلق أجمعين على رد مقدار ذرة منه لم أقدر، فلا تلمني فإن اللوم على المخالفة ليس بشرعي ولا بعقلي، وإذ تاب الله عليّ وغفر لي زال اللوم، فمن لامني كان مجوبا بالشرع-. ولا يتأتى ذلك في العصاة اليوم، فإنهم باقون في دار التكليف جارية عليهم الأحكام بالعقوبة واللوم"[23]. قال الإمام السنوسي في شرح صغرى الصغرى: "وأما قوله تعالى -وعصى آدم ربه فغوى-، فالتحقيق أن المراد بالمعصية والغواية اللغويتان وهما وقوع صورة المخالفة والغواية التي هي ترك المراشد سواء وقعا عمدا أو نسيانا أو تأويلا، لا شرعيتان وهما المخالفة عمدا مع العلم بالتحريم، فإن المخالفة على هذه الصفة لم تقع من آدم عليه السلام، وإنما

---

[21] الإمام الثعلبي، كشف البيان، ج.5، ص.128.

[22] صحيح البخاري، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله. ليس هناك خطأ تكرار آخر الحديث، بل كتبه المؤلف كذلك، وكُتب في المرجع كذلك أيضا.

[23] الإمام السيوطي، التوشيح شرح الجامع الصحيح، ج.9، ص.3912.

وقعت منه نسيانا أو بالتأويل، وذلك مبسوط في -الشفا- وكتب التفسير"[24]. ويرحم الله تعالى العالم ابن العربي حيث قال: "يجب تنزيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عما نَسَب إليهم الجهال، ولكن الباري سبحانه بحكمه النافد وقضائه السابق أسلم آدم إلى الأكل من الشجرة، متعمدا للأكل ناسيا للعهد، فقال في تعمده –وعصى آدم ربه- وقال في بيان عذره –ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي-، فمتعلق العمد غير متعلق النسيان، وجاز للمولى تعالى أن يقول في عبده لحقه –عصى- تثريبا، ويعود عليه بفضله فيقول –نسي- تقريبا، ولا يجوز لأحد منا أن يطلق ذلك على آدم أو يذكره، إلا في تلاوة القرآن أو قول النبي ﷺ"[25]. واختلف في معنى القضاء والقدر، وقال شيخ المشايخ العارف بالله سيدي يوسف المعروف بالفاسي[26] في أجوبته ما نصه: "قيل هما مترادفان بمعنى الإرادة، وقيل بمعنى القدرة والإرادة، وقيل مجموع الثلاثة: القدرة والإرادة والعلم. وقيل هما متباينان وهو قول الجمهور، فلكل واحد منهما معنى يخصه وعليه، مع كون أحدهما سابقا على الآخر، فاختلف في السابق منهما، فقيل القضاء سابق ومعناه الإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال، والقدر إيجاد الله تعالى إياها على قدر مخصوص وتقدير معين في ذواتها وأحوالها، ذكره السيد الشريف الجرجاني ونسبه إلى الأشاعرة، وعلى هذا يرجعُ القدر إلى التعلق التنجيزي، ويتجه عود الضمير عليه في خيره وشره، في حديث جبريل عليه السلام[27]. وقيل القدر سابق والقضاء متأخر عنه، وعليه الأكثر، فالقدر يرجع إلى الإرادة، وادعى بعضهم الإجماع عليه، وقيل يرجع إلى القدرة والإرادة. والصحيح أن القدر مجموع الثلاثة: القدرة والإرادة والعلم، قاله غير واحد، والقضاء يرجع إلى الفصل، فعلى هذا: القدر يرجع بحسب القدرة إلى التعلق الإصلاحي أزلا، والقضاء إلى التعلق التنجيزي. وقال الشيخ السنوسي رضي الله

---

[24] الإمام السنوسي، شرح صغرى الصغرى، ص.215.

[25] الشيخ محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، أحكام القرآن، ج.3، ص. 1261.

أخذ سيدي يحيى هذا النص عن الإمام الثعالبي الذي ذكره بلفظه الخاص، وتصرف في النقل عن الشيخ ابن العربي. أنظر "تفسير الثعالبي"، ج.4، ص. 70 و71.

[26] الشيخ يوسف بن محمد القصري الفاسي المعروف بأبي المحاسن.

[27] والمقصود الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما، المتعلق بحديث جبريل عليه السلام مع النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان.

تعالى عنه: -تعلق إرادته تعالى وعلمه أزلا بجميع الكائنات هو القدر، وهو ما يجب الإيمان به، وإجراء الكائنات فيما لا يزال على وفق القدر هو القضاء. فبان لك أن القضاء غير القدر، بل هو متأخر ناشئ عنه، وبه قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى –فقضاهن سبع سماوات--: -فيرجع القضاء إلى الصفة الفعلية-. وقال الفاضل الطيبي رحمه الله: -كل ما هو كائن مسطور في اللوح، فالقدر كالأساس والقضاء كالبناء عليه، وعليه كلام الراغب فقال: --القضاء أخص من القدر لأنه التقدير، والقضاء الفصل والقطع--. وذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المعد للكيل والقضاء بمنزلة الكيل، ولهذا قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما: --أتفر من القضاء؟-- قال: --أفر من قضاء الله إلى قدره--، منبها على أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله، فإذا قضى فلا مدفع له-"[28]، من مرآة المحاسن.

قُلتُ: فعلى قول الطيبي ومَن بعده أنهما حادثان، وإلا لما قال عمر [رضي الله عنه] ذلك، لأن القدر لو كان عنده بمعنى الثلاثة كما سبق، كان أزليا فلا يرجى دفعه. وإلى حدوثهما ذهب ابن زكي[29] وغيره، بقوله في منظومته:

في اللوح قد تجمعت أشياءُ --- بقلم وذلك القضاءُ

وجود ما برز للأعْيانِ --- مِن ذا هُوَ القدرُ بالبيان

[ثم قال الناظم]:

أَوْثَقَتهُ مِن الذنوبِ دُيونٌ --- شَدَّدَت في اقْتِضائِها الغُرَماء

ما لهُ حيلَةٌ سِوى حيلُةِ المُو --- ثَقِ إما تَوَسُّلٌ أو دُعــاء

راجِياً أن تَعودَ أعمالُهُ السَّوْ --- ءُ بِغُفرانِ اللهِ وَهيَ هَباء

أو تُرى سَيِّئاتُهُ حَسَنَــــاتٍ --- فَيُقالُ استحالة الصَّهْبــاء

---

[28] محمد العربي بن يوسف الفاسي، مرآة المحاسن، ص.177.

[29] محيي الدين بن الزكي. عاصر الناصر صلاح الدين الأيوبي، وكان أول من خطب خطبة الجمعة بالقدس بعد الفتح.

يعني أن العاصي المثقل بالذنوب كالمحبوس الموثق في الديون الكثيرة: جمع دَين بفتح أوله، وهو ما يترتب في الذمة إلى أجل. وفي القاموس: "الوثاق بالفتح وبكسر: ما يُشد به، وأوثقه: شده فيه"[30]. ومن الذنوب حال من ديون سَوَّغها[31] وصفه بشددت أي ضيقت.

والمعنى أنه حبسته وقيدته عن نيل الدرجات والخلوص من التباعات، ديون كثيرة نشأت عن كثرة ذنوبه وتفريطه، شددت عليه في اقتضائها أي في طلبها منه الغرماء: جمع غريم والمراد به هنا رب الدَّين، لأن حقوق الآدميين مبنية على المشاحة والمضايقة.

وهذا الغريم ما له حيلة أي طريق للتخلص من تلك الديون لشدة عجزه عن أدائها، إلا حيلة الموثق أي الأسير المحبوس في الوثاق لا يقدر على فرار ولا تخلص، فلا ينجو إلا بواحدة من اثنين: إما توسل أي استشفاع لمن يشفع له، أو دعاء إلى الله تعالى في نيل خلاصه. وعطف الدعاء على التوسل من عطف التفسير، وهو ظاهر القاموس ونصه: "وَسَّلَ إلى الله [تعالى] توسيلا: عَمِلَ عَملاً يُقرب إليه، كتَوَسَّلَ. والواسِل: الراغب إلى الله تعالى"[32]، ثم قال: "والدعاء: الرغبة إلى الله تعالى"[33]. وقال أهل المعاني[34]: إن للدعاء أركانا إذا وجدها تَقَوى، وهي حضور القلب وجمع الهمة والرقة والاستكانة والخشوع، وله أجنحة فإن وافقها طار، وهي الصدق،.وله أوقات فإن وافقها أجيب، وهي الأسحار، وله أسباب فإن وافقها نجح، وهي الصلاة على النبي المختار. وهذا من حسن أدبه[35] رضي الله عنه، وتلطفه في تضرعه، والأَوْلى بالعبد تمسكه باللجأ[36] إلى مولاه بالتضرع إليه، كما قال تعالى "فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا"[37]، ومن ثم قول الشاعر:

---

[30] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1730.

[31] أي أجازها.

[32] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1753.

[33] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.548.

[34] من أقوال ابن عطاء الله السكندري.

[35] أي الناظم.

[36] الاحتماء.

وإن ابْتِهالَ العَبدِ أَوْلى بحاله --- وحقّ على ذي الرِّق أن يَتَرَفَّقا

يعني يتذلل تذلل الأرِقاء للمَوالي، بمشاهدة مقام الربوبية لمولاه.

وراجيا حال من الضمير المجرور باللام أو من الضمير المحذوف المضاف إليه دعاء، أي مُؤملا أملا عظيما في أكرم الكرماء وأرحم الرحماء تعالى، أن تعود أي تصير، أعماله السَّوْء بفَتح السين مصدر نعت لأعمال أي ذات السوء، وبضمه [أي السُّوء] مفعول لأعمال، وفي القاموس: "ساءه يسوءه سوءاً: فعل به ما يكرهه فاستاء هُوَ، والسُّوء بالضم: الإسم منه"[38]. وأن وما بعدها مؤولة بمصدر مفعول لراجيا، وغفران مصدر غفر على غير قياس مضاف إلى الفاعل، والمفعول محذوف أي الذنوب، والباء سببية، أي مؤملا مغفرة عامة لا تبقي عليه وصمة ذنب. والحال أن تلك الأعمال في جنب الغفران هَباء بفتح أوله، أي مثله في أنها لا وجود لها، إذ هو غبار لا يثبت بل يرفعه أدنى الهواء ويذهبه بسرعة، قال الثعلبي في تفسير قوله تعالى "فجعلناه هباء منثورا"[39]: "قيل الهباء هو الذي يرى في الكوى من شعاع الشمس كالغبار، وقيل هو ما تنسفه الرياح وتدريه من التراب وحطام الشجر، ومنثورا أي متفرقا"[40]، ومنه اقتبس [الناظم] وهي هباء، وأو للشك.

وتُرى بالبناء للمفعول وسيئاته نائب الفاعل، أو يرى بالياء مبنيا للفاعل ونصب سيئاتَه على المفعولية، وحسنات مفعول ثاني في الوجهين. وهذا ارتقاء في الرجاء من مقام إلى أعلى منه في سعة كرم الله تعالى، إذ هو الواسع العطاء والمتفضل على مَن أحسن أو أخطأ، رجاءً أن يمن عليه فيندرج في سلك قوله تعالى"فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات"[41]. وصح عنه ﷺ أنه قال: "إني لأعلم أول رجل يدخل الجنة وآخر رجل يخرج من النار. يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: -اعرضوا عليه صغار ذنوبه وتخبأ عليه كبارها-، فيقال له: -عملت كذا وكذا يوم كذا وكذا-، وهو مقر لا ينكر

---

[37] سورة الأنعام، الآية 43.

[38] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.819.

[39] سورة الفرقان، الآية 23.

[40] الإمام الثعلبي، الكشف والبيان، ج.7، ص.129، بالتصرف.

[41] سورة الفرقان، الآية 70.

وهو مشفق من كبائرها، فيقال: -أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة-، فيقول: -إن لي ذنوبا ما أراها هنا-. قال أبو ذر: -فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجده-"[42]. فبسبب رؤية انقلاب السيئات حسنات، يقال استحالة الصهباء أي الخمر، انتقلت من حالة الخمرية والنجاسة إلى حالة الخلية والطهارة، وهذا من حسن ظنه بالله وجميل رجائه، حققه الله [تعالى] لنا وإياه بفضله وكرمه. وروي عنه ﷺ أنه قال: "يقول الله: -أنا عند ظن عبدي بي-"[43]، وفي رسالة القشيري: "رُؤِيَ مالك بن دينار في المنام فقيل له: -ماذا فعل الله بك؟-، قال: -قدمت على ربي بذنوب كثيرة، فمحاها عني بحسن ظني به"[44]. وهذا من أحسن الحالات وأعظم المقامات، حتى أن كثرة الذنوب وتراكم الأوزار لا تخرجه عن الرجاء فيدخل في الإِيَاس[45] الموقع في الهلاك، الدال عليه قوله تعالى "إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون"[46]، أي من رحمته. والناظم رحمه الله أجدر بذلك، لما منحه الله من الحقائق العِرفانية والمواهب الربانية. قال شيخ الإسلام الإمام ابن عطاء الله: "من علامات الإِتِّكال[47] على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل"[48]. وفي رسالة القشيري: "قال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال، لأني أجدني في الأعمال أعتمد على الإخلاص وكيف أَحرَزُها[49] وأنا بالآفة معروف، وأجدني أعتمد في الذنوب على عفوك وكيف لا تعفو وأنت بالجود موصوف"[50].

جعلنا الله ممن نُظِم في سلك الآية والحديث بجاه طه المغيث، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، "ذلك فضل الله يُوتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم"[51]. قال ابن

---

[42] رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه.

[43] أخرجه الإمامين البخاري ومسلم في صحيحيهما.

[44] الإمام القشيري، الرسالة القشيرية، ص.248.

[45] من أيس وهو انقطاع الرجاء.

[46] سورة يوسف، الآية 87.

[47] في المرجع المطبوع كُتبت "الاعتماد".

[48] الشيخ ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، الحكمة الأولى ص.46.

[49] أي أصونها. في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "أجوزها"، وهو خطأ نقل بالرجوع إلى المرجع.

[50] الإمام القشيري، الرسالة القشيرية، ص.246.

[51] سورة الجمعة، الآية 4، برواية ورش عن نافع.

حجر: "وفي تشبيه السيئات بالخمر والحسنات بالخل استعارة تصريحية، وفي إثبات الاستحالة التي هي من لوازم المشبه به استعارة تخيلية"[52]. وحسنات حال على أن ترى بصرية، أو مفعول ثان على أنها علمية.

ثم قال [الناظم]:

كُلُّ أمرٍ تَـعْنِي بـه تُقْلَبُ الأَعْـ --- يانُ فيهِ وتَعجَبُ البُصَــــراء

رُبَّ عَينٍ تَفَلْتَ في مَائِها المِلْـ --- حِ فأَضحَى وهْوَ الفُراتُ الرَّواء

جُملة تَعني بفتح أوله أي تعتني وتهتم به: صفة لأمر، والأعيان جمع عين أي ذات الشيء المشاهد بحاسة أو حقيقة، نائب فاعل تقلب أي فيه بأن تتحول منه صفته التي لا تريدها إلى حالة تريدها، فلا بُعد في تبديل السيئات حسنات عند اهتمامك به و إرادته. والبُصراء جمع بصير حسا ومعنى، أي تتعجب ذوو البصائر والأبصار من ذلك القلب الخارق للعادة، المُشاهد الذي لا يُعارض بجحود جاحد ولا عناد معاند، وقد شوهد ذلك بالفعل مرارا.

ورب هي هنا للتكثير، عين من عيون الماء، تَفَلْتَ بفتح الفاء كَسَقَطْت أي بصقت في مائها الجاري فيها، المِلح بكسر أوله مجرورا صفة مشبهة لماء، أي الذي لا يساغ لأحد من شدة ملوحته، فأضحى أي صار حين تفلتَ فيه كالفُرات بضم أوله، أي "العذب السائغ للشّاربين، أو هو كماء النهر المسمى بالفرات، الذي هو أحد الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة، كما صح في الحديث"[53]. والرَّواء بفتح أوله: الذي يحصل الرَّيُّ بقليله، "وهو مأخوذ عما رواه أبو النعيم أنه ﷺ بصق في بئر أريس، فلم يكن في المدينة أعذب منها بعد أن كانت ملحاء، بدليل حديث أنه ﷺ قدم المدينة وليس فيها ماء يستعذب غير بئر رومة، وفي شرح المقامات للونشريسي التصريح بذلك، وهو ظاهر قول الجلال السيوطي في خصائصه ﷺ: وريقه يُعْذِب الماء"[54].

---

[52] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.639، بالتصرف.
[53] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.640.
[54] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.640، بالاختصار.

ثم بعد التضرع، أخذ [الناظم] في تمني التوبة وملام نفسه فقال:

آهِ مِمّـا جَنَيتُ إنْ كـانَ يُغني --- ألِفٌ مِن عَظيمِ ذَنْبٍ وَهـاء

أرْتَجِي التَّوبَةَ النَّصُوحَ وفي القَلْـ --- ـبِ نِفاقٌ وفي اللِّسانِ رِياء

قال ابن حجر: "آهِ كلمة تَوَجُّع وتأسُّف"[55]، وكسرت هاؤها لالتقاء الساكنين، أي توجُعِي عظيم ونَدَمي دائم من أجل ما جنيت على نفسي من عظيم الذنوب. وألفٌ فاعل يغني وهاء معطوف، أي إن كان يغني مُسَمّاهُما حين أفوه به، أي يدفع عني شيئا من عذاب الله [عز وجل]، فيه إقامة الظاهر مقام المضمر. وعبر بإنْ المفيدة للشك لعدم تحقق الإغناء، فإنَّ تلك الكلمة، وإن صحبت مدلولها وهو التوجع القلبي المستلزم للتوبة، فإغناؤها عنه بقبول توبته مشكوك فيه عنده لشدة خوفه بما جنى.

فائدة ينفع الله من استعملها: قال الغزالي رحمه الله في كتاب العزلة: "وليكن العبد كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه بالوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله تعالى ومعرفته ما يَأنسُ به قلبه لا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت، فإنَّ مَن أَنِسَ بذكر الله تعالى ومعرفته لا يزيل الموت أنسه، إذ لا يُهدم محل الأنس منه والمعرفة، بل يبقى حيّا لمعرفته وأنسه فرحا بفضل الله تعالى عليه كما قال تعالى في الشهداء -ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا-[56] الآية. وكل متجرد لله تعالى في جهاد نفسه فهو شهيد مهما أدركه الموت، فالمجاهد من جاهد نفسه كما صرح به ﷺ، وقالت الصحابة هو الجهاد الأكبر"[57]. وصح في الحديث أنه ﷺ دائم الفكرة متواصل الأحزان.

وأرتجي يحتمل أنه جملة خبرية، أي أأمل لحسن ظني بالله عملا بقوله ﷺ في الحديث الصحيح "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله"[58]، أي أتوب توبة وهي الندم على الذنب من حيث أنه ذنب، والإقلاع على المعصية بترك ملابساته

[55] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.641.

[56] سورة آل عمران، الآية 169.

[57] الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب العزلة، ص.711، بالتصرف.

[58] صحيح الإمام مسلم.

لها، والإصرار أن لا يعود إليها. والنصوح صفة للتوبة، وهي كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "هي أن يتوب من الذنب ولا يعود إليه أبدا، ولا يريد أن يعود". وقيل معناه توبة خالصة، فهو من قولهم عسل ناصح إذا خلص من الشمع. وقيل هي أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، كتوبة الثلاثة الذين خلفوا[59]. وقال الزمخشري: "وصفت التوبة بالنصوح على الإسناد المجازي، والنصح في الحقيقة إنما هو صفة التائبين، وهو أن ينصحوا أنفسهم بالتوبة"[60]. ويُحتمل أن الجملة طلبية، على تقدير الاستفهام الإنكاري لتوبيخ نفسه، فكأنه يقول: كيف يغني عنه آه وارتجى توبة نصوحا والحالة أن في القلب نفاق؟.

وفي الـ فيه [أي القلب] وفي اللسان خلف عن الضمير، أي في قلبي نفاق من حيث الأعمال، باعتبار أنه يبطن خلاف ما يظهر لا من حيث الاعتقاد، وفي اللسان رياء أي نظرٌ إلى الخلق لطلب رفق أو ثناء من مخلوق. وقال المفسرون في قوله تعالى "وهو الذي يقبل التوبة عن عباده"[61]: "أما توبة الكافر فمقبولة قطعا، وأما التوبة من المظالم فهي مردودة حتى يرد المظالم أو يستحل منها، وأما توبة العاصي فما بين العبد وربه، فالصحيح أنها مقبولة، وقيل في المشيئة.

ثم قال [الناظم]:

وَمَتى يَستقيمُ قَلبي وللجِسْـ --- ـمِ اعْوِجاجٌ مِن كَبْرَتِي وانْحِناء

كُنتُ في نَومَةِ الشَّبابِ فما اسْتَيْـ --- ـقَظْتُ إلا وَلِمَّتِي شَمْطــاء

وتَمـادَيْتُ أَقتَفِــــي أثَـرَ القَو --- مِ وطالَت مَسافَةٌ واقتِفـــاء

فَوَراءَ السَّارِينَ[62] وَهْوَ أمــامي --- سُبُـلٌ وَعْرَةٌ وأرضٌ عَـراء

---

[59] أنظر سورة التوبة، الآية 118.
[60] الإمام الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج.6، ص.162.
[61] سورة الشورى، الآية 25.
[62] في المنح المكية " المطبوع كُتبت "فَوَرَا السائِرين".

متى هنا استفهام متضمن معنى التعجب، وقلبي فاعل يستقيم أي بتوجهه إلى الحق وإعراضه عن الخَلْق، حتى لا يبقى فيه ما يحجبه عن الخالق من كل خاطرٍ وطارق، والحال أني وصلت أمداً يعسر معهُ خروج القلب عما جبل عليه من قسوة وشدة واستيلاء اللهو عليه والغفلة، وهو أنه حصل للجسم أي بدني اعوجاج لقامتي وبعض أعضائي، من أجل كِبرتي بكسر أوله، أي هية كبرى وانحناء لأعلى قامتي. قال ابن حجر: "هو من عطف الرديف أو الأخص، لأن الاعوجاج هو للأعضاء كلها والانحناء مختص بالقامة، إذ هو تقويس الظهر فتبعد حينئذ الاستقامة، بخلاف أيام الشباب فإن الغصن فيها لين والقلب رطب، فيؤثر فيه أدنى وعظ وأقل زجر"[63].

وإنما أخرتُ التوبة إلى هذا الزمان، لأني كنت في نومة الشباب التي تتوالى فيها الغفلات وتستولي فيها الشهوات فتحجب القلب عن القربات، فما استيقظت من تلك النومة إلا والحال أن لِمَّتي بكسر أوله وهو كما في القاموس: "ما جاوز شحمة الأذن" يعني من شعر رأسه، شمطاء أي اختلط سوادها ببياضها.

وحين بلغت هذا السن الذي تعسُر فيه الإستقامة، تماديت أي لازمت والْتَمَسْت أن أقتفي أثر القوم الصالحين، السابقين إلى المراتب العلية الفائزين بالمطالب السنية، فطالت عليّ في متابعتهم مسافة أي مفازة بعيدة بيني وبينهم، لعلو الدرجات التي فازوا بها، واقتفاء لأعمالهم وأخلاقهم.

فبسبب ذلك تخلفت وراء السارين: جمع سار وهو السائر ليلا، وأقام الظاهر مقام المضمر ليفيد أنهم أحيوا ليلهم بالعبادات، ففازوا بلذيذ المناجاة. قال ابن حجر: "وراء خبر مقدم، وَهْوَ أي ذلك الوراء أمامي جملة [معترضة][64]، وسبل مبتدأ"[65]. والصواب والله أعلم، أن وراء خبر مبتدأ محذوف أي سير، أو معمول فعل محذوف

---

[63] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.643، بالتصرف.

[64] في النسختين الصبيحية والحسنية كُتب "اعترضت"، وهو خطأ نقل حسب ما جاء في المرجع المطبوع

[65] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.644، بالاختصار. وفي المرجع المطبوع كُتب: "(ورا) خبر مقدم"، وهو خطأ، ونقْل سيدي يحيى عن الشيخ ابن حجر هو الصحيح، حيث في باقي شرح الشيخ الهيتمي نجد كلمة "وراء".

أي تخلفت، دل عليهما السياق، وَهْوَ ضمير الشأن[66] والواو للحال، وإما خبر مقدم وسبل مبتدأ مؤخر، والجملة خبر عن الضمير. وأرض عَراء بفتح أوله، أي واسعة الفضاء، تطول المسافة في سيرها فتُعيي السائر.

[والمعنى]: شبه القوم الذين استيقظوا أول أعمارهم بمن مشى أول الليل ليستبق إلى الوطر، وشبه نفسه بمن مشى آخر الليل، وشتان ما بينهما.

---

[66] يسمى "ضمير الشأن" باعتبار أنه يعود على الأمر مُحدَث عنه.

الفصل الثاني والعشرون: من البيت 409 إلى البيت 430

قال [الناظم]:

حَمِدَ المُدْلِجُونَ غِبَّ سُرَاهُمْ --- وكَفى مَن تَخَلَّفَ الإبْطـاء

رِحلةٌ لـــم يَزَل يُفَنِّدُني الصَّيْـ --- فُ إذا ما نَوَيْتُها والشِّتاء

يَتَّقي حُرٌّ وَجهِيَ الحَرَّ والبَرْ --- دَ وقد عَزَّ مِن لَظَى الاتِّقاء

المدلجون جمع مدلج من الدَّلَج بفتحتين، وفي القاموس: "هو السير أول الليل"[1]، وفيه أيضا: "الغِب بكسر أوله: عاقبة الشيء"[2]، وفيه أيضا: "السُّرى بالضم: سير عامة الليل"[3].

[والمعنى:] أي حمدوا سيرهم بالسبق لرضى الله [تعالى] وقربه والتمتع بشهوده، وهو اقتباس من قولهم: "عند الصباح يحمد القوم السرى". والإبطاء فاعل كفى، ومَن موصول مفعوله، يعني أن من تخلف عن هؤلاء القوم بتأخره عنهم في سيرهم فحظه مما نالوا الإبطاء، أي لم ينل غيره وهو نتيجة قوله فوراء السارين[4]، وهذه جرت مجرى المثل.

ورحلةٌ بالرفع وكسر أوله خبر مبتدأ محذوف أي تلك، وبالنصب على المصدرية يُقدَّرُ عامله من معنى السير أي رحلوا رحلةً عظيمة، والجملة بعدها صفة لها في الوجهين، أي لم أزل أتوقع نهوضي إليها والشروع فيها فلم أفعل، لأنه يفندني أي يُخطئني ويُضعف رأيي فيها الصيف إذا ما نويتها أي عزمت على فعلها في وقته، فأقول شدة الحر تمنعني وكثرة الاشتغال فيه تعوقني عنها فأصبر إلى وقت الشتاء

---

[1] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.556.
[2] نفس المرجع لسابق، ص.1171.
[3] نفس المرجع السابق، ص.768.
[4] أنظر البيت في الفصل السابق.

التي فيها قلة الأشغال، فإذا جاء الشتاء أقول أيضا يمنعني منها كثرة البَرد والثلج والأمطار فيعسر السفر فيها، وهلم جرا.

ومما أوجب تخلفه عن هذه الرحلة أنه يتقي، من اتقيت الشيء أي حذرته، وحُر وجهي بضم أوله فاعله، وهو "ما بدى منه"[5] كما في القاموس، والحَر بفتح أوله مفعوله أي حر الشمس في المصيف والبرد في الشتاء، والحال أنه قد عز أي فُقِد وقَلَّ حتى لا يكاد يوجد، والاتقاء فاعله، من لظى أي من نار جهنم، نسأل الله النجاة منها ولجميع المسلمين. والبيت علة فيما قبله.

ثم ذكر [الناظم] أسفه وندمه على تفريطه فقال:

ضِقتُ ذَرْعاً مما جَنَيتُ فَيَومِي --- قَمْطَرِيرٌ ولَيْلَتِي دَرْعـــاء

وتَذَكَّرْتُ رَحمةَ الله فالبُشْـ --- ـرَى[6] لِوَجهِي أَنَّى انْتَحَى تِلْقاء

فَأَلَحَّ الرَّجاءُ والخَوفُ بِالقَلْـ --- ـبِ وللخَوفِ والرَّجا إحْفَــاء

ذَرعاً بفتح المعجمة منصوب على التمييز، وفي القاموس: "ضاق به ذرعا: ضعفت طاقته عنه ولم يجد من المكروه فيه تخلصا"[7]، ومن أجل ما جنيت أي ما اقترفته من المخالفات والجنايات، فيومي قمطرير أي شديد من كثرة ما يَلقى من الألم عند تذكر ذلك، وليلتي دَرعاء بفتح المهملة أي مظلمة كناية عن شدة ما يلقى فيها أيضا، وأصل الدرعاء التي يطلع قمرُها عند الفجر.

ومُراده أن ذلك الضيق ملازم له نهارا وليلا لا ينفك عنه في أحدهما، وهذا مسبب عما قبله، وفيه معاتبته وملامه نفسه انكسارا لها وتضييقا عليها بمخالفتها ما أُمرت به، ومن ثم قال أهل الإشارات: "معصية أورثت ذُلّاً واحتقاراً خير من طاعة أورثت عِزاً وافتخاراً"، وهذا بعد الوقوع وأما قبله فلا.

---

[5] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.346.

[6] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "البِشْر"، ويعود ذلك كذلك في تفسير الشيخ الهيتمي.

[7] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.588.

ثم تسلى [الناظم] بقوله وتذكرت رحمة الله وحُسن الظن به وسِعَتَها، الدال عليه قوله [تعالى]: "ورحمتي وسعت كل شيء"[8]، وكونها سبقت غضبه كما في الحديث الصحيح "إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش: -إن رحمتي سبقت غضبي-"[9]. والبُشرى بضم أوله أي الفرح والسرور مبتدأ خبره تلقاء، وبه يتعلق لوجهي، وأني شرطية وانتحى شرطها من الناحية أي حيث ما توجه وجهي فالبشرى تلقاء له، أي مُلاقِية [له].

فائدة: لم يرد من المصادر على -تِفعال- بكسر التاء إلا تِبيان وتِلقاء، نص عليه النُّحاة وذكره الحريري في مقاماته.

فإنه [أي الناظم] مستند إلى سعة رحمة الله ومُعول عليها، مع نظره إلى قول الصادق المصدوق [ﷺ] فيما يرويه عن ربه: "أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء"[10]، وفي رواية "فلا يظن بي إلا خيرا".

فبسبب تذكري[11] لما جنيت المقتضي لمزيد الخوف، ولسعة الرحمة المُقتضية لمزيد الرجاء الناشئ عن تذكر رحمة الله، وتقدم معناه، والخوف الناشئ عن تذكر غضب الله بالقلب أي بقلبي فيه الـ خلف عن الضمير، أي أقاما به ولَزِماه وازدحما عليه، فهما فيه على حدِّ السواء. قال ابن حجر: "الراجح عند أئمتنا أن العبد ما دام صحيحا فَلْيُسَوِّي بينهما، وقيل يُغلِّب الرجاء لِيَلا يغلب داء اليأس، وقيل يُغلِّب الخوف لِيَلا يغلب عليه داء الأمن من مكر الله. ويردهما أنهما إذا استويا، أمنت غَلَّبَةَ أحدهما على الآخر فلا محذور [يُخشى حينئذ][12]. وأما المريض فيُغلِّب الرجاء لقوله ﷺ:-لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله-"[13][14]. وفي رسالة اللإمام القشيري من سماع الشيخ أبي عبد الرحمان السلمي: "عن منصور بن عبد الله أنه سمع أبا علي

---

[8] سورة الأعراف، الآية 156.

[9] رواه الإمامين البخاري ومسلم في صحيحيهما بنحو لفظه.

[10] من حديث رواه الإمام مسلم والإمام أحمد.

[11] على لسان الناظم.

[12] وجب تتميم نقل قول الشيخ ابن حجر حتى يتأكد المعنى المقصود.

[13] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

[14] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.648.

الدوْذَبَاري يقول: -الخوف والرجاء هما كجناحي طائر، إذا استويا استوى الطائر وتم طيرانه، وإذا انقبض أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبتا صار الطائر في حد الموت-"[15]. ومن ثم قال [الناظم] وللخوف والرجا إذا تواردا على القلب إحْفاء، بالحاء المهملة وكسر الهمزة، أي استقصاء ومنازعة لتضاد مقتضياتهما. قال الأستاذ أبو علي الدقاق: "الخوف على مراتب: الخوف والخشية والهيبة، فالخوف من شرط الإيمان قال تعالى -وخافون إن كنتم مومنين-[16]، والخشية من شرط العلم قال تعالى –إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ-[17]، والهيبة من شرط المعرفة قال الله تعالى – ويحذركم الله نفسه-[18]"[19]. قال أبو القاسم الحكيم: "من خاف من شيء هرب منه، ومن خاف من الله [عز وجل] هرب إليه"[20]. وقال حاتم الأصم: "لكل شيء زينة، وزينة العبادة الخوف وعلامته قصر الأمل"[21].

ثم قال [الناظم]:

صاحِ لا تَاسِ[22] إنْ ضَعُفتَ عن الطَّا --- عَةِ واسْتَأْثَرَتْ بها الأقوِياء

إنَّ للهِ رَحــــمَـــــةً وأحـــقُّ النـ --- ـاسِ منهُ بالرَّحمةِ الضُّعَفـــــاء

صاح منادى مرخم[23] والأصل يا صاحبي، وهو من التجريد بأن يُجرِّدَ المتكلمُ شخصا من نفسه فيُخاطِبُه، فهو وعظ وإيصاء منه لنفسه، لما تقرر أن الأَوْلى للشاب والكهل الصحيحين استواء الخوف والرجاء عندهما، لِيلا يُهلَكا بتغليب أحدهما على الأخر، فمن ثم قال لا تاس: "مضارع أَسِيَ كرَضِيَ أي حَزَنَ"[24] كما في القاموس،

---

[15] الإمام القشيري، الرسالة القشيرية، ص.245.
[16] سورة آل عمران، الآية 175، برواية ورش عن نافع.
[17] سورة فاطر، الآية 28.
[18] سورة آل عمران، الآية 30.
[19] الإمام القشيري، الرسالة القشيرية، ص.235.
[20] المرجع السابق، ص.236.
[21] المرجع السابق، ص.237.
[22] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "تَأْس".
[23] أي حَذف آخِر المنادى للتخفيف.
[24] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.56، بالتصرف.

أُبدلت همزته مَدَّة تخفيفا، وحذف لامه للجازم أي لا تحزن من رحمة الله فيغلب عليك اليأس المهلك إن ضعفت عن الاشتغال بالطاعة، لقصور همتك عنها في الحال أو للتفريط في الماضي، لإيثارك الراحة وغفلتك عن أهوال المعاد، والحال أنه استأثرت أي انفردت عنك بها الأقوياء، أي بكثرتها لقوة هممهم فصارت عندهم ألذَّ مألوفاتهم وأعظم مشتهياتهم دونك.

فإذا تُخيِّل لك هذا، فاعلم أن لله رحمة عظيمة تعُمُّ القوي والضعيف، وفي صحيح البخاري من كتاب الأدب، أن أبا هريرة [رضي الله عنه] قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: -جعل الله الرحمة في مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزء وأنزل في الأرض جزء واحدا، فمن ذلك الجزء يَتَراحم الخلق حتى ترفعَ الفرسُ حافرها عن وَلَدِها خشية أن تصيبه-"[25]. وأحق مبتدأ، ومنه متعلق بالرحمة المتعلق بأحق، والضعفاء أي الذين لا يعوّلون على أعمالهم ولا يغترون بأحوالهم، مع قيامهم بما أمرهم به مع إخلاص له، فَهُمْ أقوى نية في العبادة لانكسار قلوبهم بقصورهم عن الوصول إلى ما فوق ذلك مما حصل للأقوياء، فربما حصلَ لهم لذلك نفحة سبقوا بها الأقوياء لما في الحديث القدسي: "أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي"[26]، ولله در القائل[27]:

إن كان لا يرجوك إلا محسن --- مَنْ ذا الذي يرجو المسيءُ المجرمُ

ما لي إليك وسيلةٌ إلا الرَّجـــا --- وجميــلُ ظـنٍ ثم إنــي مُسلـمُ

ثم استدل [الناظم] بمثال ظاهر في الوجُود على أن الضعيف قد يحصل له ما لا يحصل للقوي إذا أراد اللهُ به ذلك، فقال:

فَابْقَ في العُرْجِ عند مُنْقَلَبِ الذَّوْ --- دِ فَفي العَوْدِ تَسبِقُ العَرْجاء

لا تَقُل حــاسِداً لِـغَيْرِكَ هذا --- أَثمَرَت نَخلُهُ ونَخلِي عَفـــاء

---

[25] أخرجه الإمامين مسلم والبخاري في صحيحيهما باختلاف في اللفظ.

[26] رواه الإمام أحمد في "الزهد" ونسبه إلى كعب الأحبار. كان كعب هذا يهوديا فأسلم بعد وفاة النبي ﷺ، وكان عالما بكتب أهل الكتاب، فكان يُحدث منها.

[27] أبو نواس، من شعراء العصر العباسي الأول.

وأْتِ بالمُستطاعِ مِن عَمَلِ البِرّ --- فقد يُسْقِطُ الثِّمارَ الإِتـــــاء

عُرْجٌ بضم فسكون: جمع أعرَج وعرجاء، والذود بفتح المعجمة، وهو من الإبل: "من ثلاثة أبعرة[28] إلى عشرة أو خمسة عشر أو عشرين أو ثلاثين، أو ما بين اثنتين والتسع، مؤنث، ولا يكون إلا من الإناث، وهو واحد، أو جمعٌ لا واحد له من لفظه، أو واحد جمعه أذواد"[29] قاله في القاموس، ومُنقلبهُ: رجوعه من حيث أتى.

والمعنى: أنكَ إذا أقصر بك حال عن حال الأقوياء في العمل لضعفك عنهم، فربما حصل لك فيض[30] الرحمة، لانكسار خاطرك من قلة عملك وتأسفك على ما فرطت، ما لا يحصل لهم، فتكون بفضل الله من الفائزين كما أن تأخر العرجاء من الذود أوجب لها السبق عند رجوعها لمستقرها، فتستريح وتنال ما لم تنله الصحيحة. وليس قوله فَابْقَ أمرٌ بالتقصير عن العمل أو التأخير عنه، بل المراد أن العبد يرى نفسه مقصرا، و لا يرى لِعَمَلِه وجود ولا يعتد به ولو عمَل ما عمِل، قال تعالى "وما قدروا الله حق قدره"[31]، فَيَعُدَّ نفسه متأخرا عن أهل العمل ويسعى في الحاق بهم، لِيلا يقع في هلك العُجْب[32] ويتشبه بالعرجاء العاجزة عن سرعة المشي. وسُئلت عائشة رضي الله عنها: "-متى يكون المرء محسنا؟- قالت: -متى يظن أنه مسيء-"، فيرجو حينئذ أن يحصل له من السبق ما حصل للعرجاء، وذلك غير مستبعد في فضل الله تعالى وكرمه.

ثم إن كنت عاجزا عن مقامات أهل الفضل، فَسَلْ اللهَ من فضله ولا تحسد مَن أتاه الله من فضله، لِيلا تجتمع عليك مصيبتان عظيمتان: التفريط والحسد، وهو تمني زوال النعمة عن المحسود، ومن ثم نهى عنه [الناظم] بقوله لا تقل حال كونك حاسدا لغيرك، أي متمنيا زوال نعمة التوفيق عنه، هذا أثمرت نخلةُ أي كثرت أعماله. وقال

---

[28] جمع بعير.

[29] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.600.

[30] في النسخة الصبيحية كُتبت "ربيض"، وهو خطأ نسخ لأن معناه: الدواب المجتمعة في مربضها أو مجتمع حوايا البطن، وكلا المعنيين لا يصلح هنا.

[31] سورة الزمر، الآية 67.

[32] أي الزَّهْوُ والكِبْر. ولربما المقصود من ذلك أن الإنسان مهما فعل من أعمال صالحة، عليه أن لا يتفاخر بها وأن يُقللها في نظره ولا يتكبر بها، بل عليه أن يحسبها قليلة ضعيفة مقارنة مع ذنوبه ومعاصيه.

بعض الحكماء: "ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم مِن حاسد". ففي تشبيه الأعمال بالنخل استعارة مصرحة وذكر الأثمار ترشيح، وآثر [الناظم] التشبيه بالنخل، لفضل النخلة على الشجر "-بأنها خُلقت من فضل طين آدم-[33]، ومن ثم قال ﷺ: -أكرموا عماتكم النخل-[34]، ولهذا شابهت الآدمي في كثير من صفاته الحسية والمعنوية كما لا يخفى"[35]. وفي القاموس: "العَفَاء: التراب"[36]، شبه النخلة التي لا تثمر بالتراب لقلة منفعتها. فإن قولك هذا، مع ما فيه من الاعتراض على الحاكم في حكمه، ربما يؤدي إلى سوء الظن بمولاك [عز وجل] فتقع في هلك. "أما إذا قلت ذلك على جهة الاغتباط أي تتمنى أن تكون مِثله فهو مطلوب، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح معبرا عنه بالحسد: -لا حسد إلا في اثنين-[37] "[38] قاله ابن حجر. ويجوز أن يكون المراد: لا تقل ذلك لمن كثر عمله متمنيا أن تكون مثله، تمنيا يوديك إلى أن تتكلف من العمل ما لا تطيقه لتلحق به، وقد قال ﷺ في صحيح الحديث: "عليكم من العمل بما تطيقون"[39] الحديث.

وهو المناسب لقوله وأت بالمستطاع من عمل البر بكسر الباء، وهو كما في القاموس: "الصلة وسعة الإحسان"[40]، عملا بقوله تعالى "فاتقوا الله ما استطعتم"[41]، وقوله ﷺ: "ما شاد أحد الدين إلا غلبه"[42]. وفي حلية أبي النعيم: "عن علقمة عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: -إن الله تعالى يحب أن تقبل رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه- لم يروه عن شعبة مرفوعا إلا معمر، ورواه غندر وبكر بن بكار

---

[33] من الحديث الموالي.

[34] أخرجه ابن حبان وغيره في الضعفاء، ونصه "أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم..."

[35] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.651.

[36] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1116.

[37] أخرجه الإمامين في صحيحيهما باختلاف يسير، ولفظه عند الإمام البخاري "لا حسد إلا على اثنين، رجل أتاه الله مالا فهو يُنفق منه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار".

[38] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.652، بالتصرف.

[39] من حديث أخرجه الإمامين البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن أمنا عائشة رضي الله عنها.

[40] روز آبادي، القاموس المحيط، ص.113.

[41] سورة التغابن، الآية 16.

[42] من حديث أخرجه الإمام البخاري في كتاب الإيمان، باب الدين يسر، بنحو لفظه.

وغيره موقوفا"[43]، ذكره في ترجمة علقمة بن قيس النخعي. فقد يحصل من الثواب بالعمل القليل ما لا يحصل بالكثير، كما أنه قد يسقط كثرة الثمار أو أنفَسها الأتاء بفتح أوله، وهو صغار النخل الواحدة أَتاءة وإتاء ككِتاب، أي يحصل من غلته ما لا يحصل من النخيل الكبار. وفي نسخة الإثاء بالمثلثة وكسر الهمزة وهي الحجارة، بمعنى أنه قد يسقط بالرمي بالحجر من الثمار ما لا يسقط منه بالصعود على النخلة، فكذلك أنت، قد تفوز بسبب ضعفك وانكسار خاطرك بما لا يحصل للقوي الناظر إلى قوته، ونظيره ما في صحيح البخاري من كتاب الجهاد: "أتى النبي ﷺ رجل مُقنع بالحديد فقال: -يا رسول الله، أأقاتل أو أُسلم؟- قال: -أسلم ثم قاتل-، فأسلم ثم قاتل فقُتل، فقال رسول الله ﷺ: -عمل قليلا وأُجر كثيرا-"[44]، وفيه أيضا: "قال رسول الله ﷺ: -يضحك الله إلى رجلين يَقتل أحدهما الأخر يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد"[45].

واعلم أيها المتفكر في أمره، أن أفضل الأعمال وأسرعها إنتاجا وأنفعها وسيلة وأظهرها ابتهاجاً هو مزيد محبة مولانا محمد ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم، فإنها أنفع سبب لكل مطلوب وأعظم وسيلة لكل مرغوب، فعليك أن تجعلها أعظم همتك وأكبر خدمتك، ومن ثم قال الناظم:

وبِحُبِ النبيِّ فَابْغِ رضـا اللهِ --- ففي حُبِّهِ الرِّضَـا والحِبـاء[46]

هذا تَحْضيض وتَحريض على تعلق القلب بِمحبته ﷺ والتمسك بأذياله. وإضافة حب إلى النبي ﷺ وإلى ضميره[47] من إضافة المصدر إلى مفعوله، والمراد به نبينا محمد ﷺ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى "قل إن كنتم تُحبون الله فاتبعوني يُحببكم الله"[48] الآية، فجعل [تعالى] جزاء العبد على حُسن متابعة رسول الله ﷺ محبة الله تعالى

---

[43] أبو النعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج.2، ص.102.

[44] صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب عمل صالح قبل القتال.

[45] صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الكافر يقتلُ المسلم ثم يُسلم.

[46] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "الحَباء" بالفتحة وهو خطأ النسخ، لأن الشيخ الهيتمي فسره بالعطاء وهو كما في "القاموس المحيط": الحِباء بالكسر.

[47] أي حُبِّهِ، كما في الشطر الثاني من البيت.

[48] سورة آل عمران، الآية 31.

إياه، ولا يكون متبعا للرسول إلا بمحبته إياه وإثرته على من سواه، وإيثار سنته على رأي نفسه وهواه، حتى لا يجد في نفسه حرجا قَضاهُ[49]. وفي صحيح البخاري: "والذي نفسي بيده لا يومن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده"، زاد في رواية أخرى: "والناس أجمعين"[50]. وقَدَّمَ الوالد لأنه أصل وولده فصله وفرعه، والأصول تسبق فروعها. ورواية دلائل الخيرات: "لا يومن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده ووالده والناس أجمعين"[51]، قال شارحه العلامة سيدي محمد المهدي عُرِفَ بالفاسي: "قدم النفس لأنها مقدمة على كل أحد ضرورة، وأتبعها بالمال لأن حبه معلوم ضرورة، وقدمه على الولد والوالد لأن منه ما هو ضروري لبقاء النفس وهو ما يسد الرمق من القوت، أو لدفع الضرر عنها وهو ما يقي البدن من الثياب. وأفرد الوالد لإرادة الجنس، وقدم الولد عليه لمزيد الشفقة والحنان والعطف"[52]. وفي دلائل الخيرات أيضا: "وقيل لرسول الله ﷺ: -متى أكون مومنا؟- وفي لفظ آخر -مومنا صادقا-، قال: -إذا أحببت الله-، فقيل: -ومتى أحب الله؟- قال: -إذا أحببت رسوله-، فقيل: -ومتى أحب رسوله؟- قال: -إذا اتبعت طريقته واستعملت سنته، وأحببت بحبه وأبغضت ببغضه، ووَاليت بولايته وعادَيْت بعداوته، ويتفاوت الناسُ في الإيمان على قدر تفاوتهم في محبتي-"[53]. قال شارحه المذكور: "يعني بالتفاوت في القوة والضعف، فمن كانت محبته أقوى كان في الإيمان أبلغ وأثبت، فمحبته ﷺ ركن للإيمان، لا يثبت إيمان عبد ولا يُقبل إلا بمحبته ﷺ"[54]. ثم صرح بمفهوم هذا مبالغة في الأمر مؤكدا له، بالتكرير بقوله: "ألا لا إيمان لمن لا محبة له، ألا لا إيمان لمن لا محبة له، ألا لا إيمان لمن لا محبة له"[55]، ثم قال: "وفي هذا الحديث وما بعده، أن الإيمان ينقسم إلى حقيقي وهو الخالص من كل ما يشوبه، وإلى رسمي فاقد النور متمسك معه بالغرور. وإن الناس متفاوتون في الإيمان والتصديق

---

[49] من القَضَى أي الحكم، والمعنى: حتى لا يجد قضاءهُ ﷺ حرجا في نفس الشخص.

[50] صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان.

[51] الشيخ محمد بن سليمان الجزولي، دلائل الخيرات، نسخة دار الكتب العلمية، ص.22.

[52] العلامة محمد المهدي الفاسي، مطالع المسرات، ص.58.

[53] الشيخ محمد بن سليمان الجزولي، دلائل الخيرات، نسخة دار الكتب العلمية، ص.23.

[54] العلامة محمد المهدي الفاسي، مطالع المسرات، ص.61.

[55] المرجع السابق، ص.62.

بالقوة والضعف، وإنه في حقيقته يزيد وينقص كما هو المذهب الصحيح، والله أعلم"[56]. ثم قال بعد قول المتن: "قيل لرسول الله ﷺ: -بم يُوجد حب الله؟- أو -بما يُنال ويُكتسب؟- قال: -بحب رسوله-. فحب الله تعالى يوجَد بصدق المتابعة لرسوله ﷺ، فإذا تحقق العبد بمحبة الله ورسوله وصدق في متابعة أمره ونهيه، خَشِيَ وتأدب ظاهرا وباطنا، لأن ما في الباطن يلوح على الظاهر ويعود عليه لما بينهما من الارتباط، ولتوقف صلاح الظاهر على الباطن لحديث: -إن في الجسد مضغة إذا صلحت [صلح الجسد كله]-[57]، ففي هذا الحديث أن المحبة تنتج الخوف لأن مقامات اليقين يرتبط بعضها ببعض، فمن حصلت له المحبة نال مقام الخوف والرجاء وغيرهما من المقامات والأحوال، حسبما نص على هذا أئمة الطريق. وفيه أيضا أن الحب يُنال بالاكتساب، وهو كذلك فإن الحب وهبي واكتسابي، وللاكتساب طريقان: الإحسان والجمال، وهذا أعلى. ولا إحسان كإحسان الله الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، ومَن تدبَّرها في نفسه وفي كتاب الله وجدها، ولا جمال كجماله سبحانه إذ كل جمال ظهر فهو أثر لجماله وفرع عنه، فلا جمال إلا له سبحانه. وإذا صحت متابعة رسول الله ﷺ نتج عنها بفضل الله تطهير السريرة وتنوير البصيرة واعتدال الطبيعة، فحصلت رؤية الإحسان والجمال، ونشأ عن ذلك خالص الحب وصفاء الوداد، والله ذو الفضل العظيم. وقوله فالتمسوا، أي أطلبوا رضاء الله ورضاء رسوله في حبهما، هو مُسبِّبٌ عما قبله، والإضافة فيه إلى المفعول، وفيه الجمعُ بين ذكر الله ورسوله في ضمير واحد، والظاهر أنه كلام المؤلف أو غيره، ويحتمل أنه من الحديث"[58]. وإلى هذا الحديث أشار الناظم بقوله ففي حبه الرضا أي من الله، وهو غاية المأمول ومنتهى الأمنية والسُّؤل. قال الشيخ السمان في رسالته: "قال ﷺ: -أكثركم علي صلاة أقربكم مني يوم القيامة-، أي بالصورة الروحانية تَعَشُّقا بموجب المحبة ودوام الذكر له بالصلاة عليه ﷺ، ولأجل ذلك يُقرَّبُ إليه ويُحشر عنده ويَكون معه. فإذا كان هذا نتيجة الصلاة عليه باللسان، فما يكون نتيجة الصلاة عليه بالقلب؟

---

[56] العلامة محمد المهدي الفاسي، مطالع المسرات، ص.62.

[57] أتممت لفظ الحديث كاملا حتى يتبين المعنى جليا.

[58] العلامة محمد المهدي الفاسي، مطالع المسرات، ص.63 و64، بالتصرف.

فالروح؟ فالسر؟، هل يكون إلا معه عند الله تعالى؟[59] لأن نتيجةَ العمل الظاهر، وهو الصلاة عليه ﷺ، الفوزُ بالمكان وهو الجنة، ونتيجة العمل الباطني، وهو التعلق والإقبال ودوام الاستحضار صورةً ومعنى، القُرب بالمكانة، فهو عند الله نَزْلٌ في مقعد صدق حيث لا أين ولا كيف، فافهم الإشارة تقع على البشارة"[60].

والحباء بكسر المهملة، قال في القاموس: "وحَبَا فُلانا: أعطاه بلا جزاء ولا مَنٍّ، والاسم حِباء ككِتاب"[61]، أي العطاء منه تعالى لجميع الخيرات الدينية والدنيوية، كالتوفيق للأعمال الصالحات والفوز بأعلى المقامات.

ثم أعاد [الناظم] التضرع وإظهار اللجأ، فقال:

يـــا نَبيَّ الهُدى استغاثةُ مَلْهُو --- فٍ أضَرَّت بِحالهِ الحَوْبـــاء

يَدَّعِي الحُبَّ وهْوَ يَأْمُرُ بالسُّو --- ءٍ ومَن لي أن تَصْدُقَ الرَّغْباء

أيُّ حُبٍّ يَصِحُّ مِني[62] وَطَرْفِي --- للكَرَى واصِلٌ وطَيْفُكَ راء

قال ابن حجر: "الهُدى: الدلالة على الله بالنسبة إلى الكل، ومنه -وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم-[63]، والإيصال إليه بالنسبة إلى المؤمنين، ومنه -إنك لا تهدي من أحببت-[64] الآية"[65]. واستغاثة مفعول مطلق للنوع أي أستغيثُ بك استغاثة ملهوف، من إضافة المصدر إلى الفاعل، ولَهِف كفَرِح: حزن وتحسر على ما فات. وفي نسخة إغاثة، فيضاف إلى المفعول وحكمه حكم ما قبلهُ، أو مفعول بفعل محذوف أي أطلب منك.

---

[59] وهو استفهام تأكيدي حسب المعنى.

[60] لم أقف عليه في " رسالة السمان" ولكن ذكره نقلا عن الشيخ السمان، الشيخ يوسف النبهاني في كتابه "سعادة الدارين في الصلاة على سيد الكونين"، دار الفكر، الباب التاسع.

[61] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.326.

[62] في "المنح المكية المطبوع كُتبت "منه".

[63] سورة الشورى، الآية 52.

[64] سورة القصص، الآية 56.

[65] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص. 654.

والحَوباء بفتح أوله: "النفس"[66] كما في القاموس، فاعل أضرت أي حصل له الضرر من نفسه لكونه يدعي الحب لك والحال أن نفسه تأمره بالسوء، أو هو يأمر به غيره. ومَن استفهام تقريري، أي مَن الذي يتكفل لي أن تَصْدق، بضم الدال وكسره، رغبتي في محبته ﷺ التي أدعيها، أي العزيمة المتضمنة الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة والعمل الصالح. وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم، وادعاء الحب مع ظهورِ ما يكذبهُ نقضٌ، وتقدم في الحديث "متى أحب رسول الله؟، قال: إذا اتبعت طريقته"، [ولله ذر القائل[67]]:

تَعصِي الإلهَ وأنت تُظهرُ حُبَّهُ --- هذا مُحالٌ في القياسِ بَديعُ

لو كــان حُبُّكَ صادقاً لأطَعتهُ --- إن المحبَّ لمن يُحبُ مُطيـعُ

ومما يكذب دعوى الحب أيضا، دوام الغفلة عن المحبوب حتى أنه لا يمر بباله ولو طيف خياله مناما، وذلك لعدم حضوره بالبال وقلة تفكره بالذهن في الماضي. والحال، ومَن كان هكذا لا يصح منه إدعاء الحب، ومن ثم قال [الناظم] أي حب يصح مني والحال أن طرفي أي عيني، للكرى متعلق بواصل، أي مواصل للنوم لا ينفك عنه. وطيفك أي خيالك، مبتدأ، وراء خبره، أي حُجب خيالك عني كما حُجب النطق بالراء عن واصل، وفيه تورية، أي يحتمل أن يكون اسم فاعل عن الوصل بالنسبة إلى النوم. وبالنسبة إلى الراء، عُلم على الرجل المشهور[68] الذي كان أَلْثغ[69]، فهجر كل كلمة فيها راء ولم يتكلم بها قط خشية أن يُعيَّر باللَّثْغَة،وإنما كان يتكلم "بمُرادفها أو مقاربها"[70]. فشبه عينه بواصل وخيال النبي ﷺ براء واصل، فأي استفهام إنكاري، أي كيف يصح دعوى الحب مني وأنا مواصل للنوم والغفلة عن المحبوب؟ وذلك مناف للمحبة كما هو محسوس لاستلزامها عدم غيبة المحبوب عن

---

[66] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.418.

[67] الإمام الشافعي رضي الله عنه.

[68] تجنب سيدي يحيى كتابة اسمه كاملا وأفعل كذلك احتراما لاختيار المؤلف. والمقصود مؤسس فرقة المعتزلة.

[69] الذي يحول بعض الحروف إلى أخرى عند النطق

[70] قاله الشيخ الهيتمي في "المنح المكية"، ص.655.

مخيلة المحب، في اليقظة والنوم غالبا، وقد يتخلف هذا الاستلزام لمانع، ولذا تردد هل فقد الطيف لأجل ما تقدم أو لغيره؟ فقال:

لَيْتَ شِعري أَذَاكَ مِن عُظْمِ ذَنْبِي[71] --- أم حُظُوظُ المُتَيَّمِينَ حِظاء

إنْ يَكُن عُظْمُ زَلَّتي حَجْبُ رُؤيا --- كَ فقد عَزَّ داءَ قَلبي الدَّواء

أي ليتني أعلم أذاك أي غيبة خيالك عني من أجل عُظم ذنب وقع مني فعوقبت به أم لا، فأم منفصلة، فإنه لما كانت المحبة أمرا وجدانيا حقيقيا وهيبا من الله، رجع عن إنكارها فعبر بأم التي للإضراب[72]، فحقق حصولها بقوله حظوظ: جمع حظ أي النصيب والسعد، والمتيمين أي المحبين، وحظاء بكسر الحاء وضمها: جمع حظوة بالكسر والضم، أي المنزلة والمكانة، أي أنصاب المحبين من المحبوب متفاوتة، فمنهم مَن يصل إلى مطلوبه من محبوبه مع قلة عمله ومنهم مَن يُمنع منه مع كثرة عمله، ذلك فضل الله يوتيه من يشاء. قال شيخ المشايخ سيدي أحمد بن عبد العزيز السجلماسي رحمه الله: "والصواب أن المراد بالحظاء هنا السهام، أي حظ المتيم من محبوبه إصابته بالسهم". وفي القاموس: "الحَظوة ويُضم: سهم صغير[73] يلعب به الصبيان"[74]. وبين حظوظ وحظاء جناس مطلق.

وعُظْم بضم أوله مصدر عَظُم على غير قياس، وزلتي أي التي ارتكبتها، وحَجْب بفتح فسكون، على قياس مصدر الثلاثي المتعدي[75] على حذف مُضاف، أي سبب حجب خبر كان، أو حجب مفعول فعل محذوف هو الخبر، أي أوجب حجب رؤيا خيالك عني لصداء على قلبي. وعَزَّ أي فَقَدَ أو قَلَّ حتى كادَ لا يوجد، وفاعله الدَّواء، وبه يتعلق لام الجر المحذوف من داء فانتصب على غير قياس. والتقدير عز الدواء لداء قلبي الذي يبريه، لأن الدواء كله منه ﷺ ورؤيته أعظم الأدوية، فإذا أصيب أحد

---

[71] في "المنح المكية" المطبوع كُتب "ذَنْبٍ".

[72] أحرف الإضراب هي بل وأم وأو، وتستعمل أم في الإضراب في الجمل فقط، خلافا لـ بل تستعمل في المفردات والجمل.

[73] في النسخة الصبيحية فراغ ملأته حسب ما في النسخة الحسنية وما في المرجع.

[74] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.379.

[75] أي الفعل الثلاثي المتعدي لمَفعولين.

من أجله ﷺ، فلم يكن لأحد غيره أن ينقذه من دائه، وفَقْدُ رؤيته فَقْدٌ لدواء قلبه، فإن المحب، وإن كان على مخافة من المؤاخذة بالذنب مع بقاء محبته، فرجاؤه في محبوبه واسع وإن كثرت ذنوبه، لأنه ببركته ﷺ لا تستولي ظلمة على قلب محبه، ومن ثم قال [الناظم]:

كَيفَ يَصْدَا بالذَّنبِ قَلبُ مُحِبٍ --- وَلَهُ ذِكرُكَ الجَميــلُ جَلاء

هذهِ عِلَّتِـي وأنتَ طَبيبِـي --- ليسَ يَخفى عليكَ في القلبِ داء

كَيفَ للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي أي لا يَسودُّ بالصَّدأ، وهو ما يعلو الحديد من الكدر والأوساخ، قلب محبك بسبب الذنب، وأفرده للجنس، والحال أن ذِكرُكَ من إضافة المصدر إلى المفعول، أي ذكره إياك بالمدح والصلاة والتسليم عليك. وضمير لَه للقلب متعلق بجَلاء بفتح أوله، كما هو ظاهر القاموس ونصه: " جلا السيف والمِرآة جلوا وجلاء: صقلهما"[76]، وقال الشيخ زكرياء في هذا المحل: "وجلوتُ السيف جِلاء بالكسر: صَقَلْتُهُ، وصقل القلب معنوي".

وهذه علتي أي زلتي التي أدهشتني وأنحلتني[77]، إشارة إلى ما قدمه من الأمر بالسوء واتصال الغفلة والنوم الموجبان حجب طيف الخيال عنه، وأنت طبيبي أي العالِم بها الماهر في علاجها، إذ ليس يخفى عليك أيها الطبيب الأعظم أن في قلبي داء، ولا يُساويكَ مخلوق في الفضل فعجل بشفاء ما في القلب من الأدواء[78]، فلا يرجى لذلك سواك، فإن شفاعتك لا تُرَدُّ وقاصدك لا يخيب.

ثم قال [الناظم]:

ومِن الفَوزِ أن أبُثّكَ شَكْوىً --- هِيَ شَكْوىً إليكَ وَهْيَ اقْتِضاء

ضُمِّنَتْهــــا مَدائحٌ مُسْتَطابٌ --- فيكَ مِنها المَديحُ والإصْغــاء

قَلَّمَــا حــاوَلَتْ مَديحَكَ إلَّا --- ساعَدَتها مِيمٌ ودالٌ وحــــاء

---

[76] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.290.
[77] أي أصابتني بالضعف.
[78] جمع داء.

يعني: إني رَفعتُ إليكَ قضيتي وشَكوت إليك قلة حيلتي مما جنيت على نفسي، لأن مِن الفوز بالنجاة أن أبُثَّك أي أقُص عليك وأنشر بين يديك، شكوايَ إليك من نفسي التي كادت أن تهلكني بعظيم ذنوبي وقبيح عيوبي، رجاءَ أن تمنحني نظرة إليك توجب لي كل نعمة وتزيح عني كل نقمة. ومن ثم قال هي اقتضاء أي طلب من فضلكَ الزاهر طمعا في فيض بَحرك الزاخر، فهي شكوى تصريحا واقتضاءٌ الْتِزاما وتلويحاً، وفي الحديث: "الدعاء مُخُّ العبادة"[79]، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "إن الله تعالى لم يوفق عبدا للدعاءَ إلا هيأ له الإجابة"، وفي الحِكَم لابن عطاء الله: "لو لم تُرِد نيْلَ ما أرجو وأطلبه من فيض جودك ما عوَّدتني الطلب"[80].

وضُمِّنَت بالبناء للمفعول والهاء مفعول ثاني عائد على الشكوى، ومدائح نائب الفاعل ومستطاب صفة له أي مستحسن مستعذب، والمديح نائب فاعله وبه يتعلق فيك، وضمير منها عائد على المدائح، ومن متعلقة بمستطاب.

والمعنى: إني ضَمَّنت هذه الشكوى معنى مدائح يستطاب، من أجل سماعها[81]، المديح بها فيك لمنشده والإصغاء لسامعه، فليس هي شكوى مجردة ولا مدائح مُجوَّدة، بل كلاهما ممتزج بالأخر، على عادته رضي الله عنه[82]، فكلما حاول توسلا أو استشفاعا ضمنه معنى المدح، كما سبق في قوله: "ضِمْنَ إقسامي عَليهِ مَدحٌ لهُ وثَناء".

ومن مددك لي وبركة التجائي إليك، قلَّ ما حاولت شكوايَ أو قريحتي، أي قصدتُ مديحكَ بها وتوجهت إليه لإبراز معنىً منه لم أُسْبَق إليه، أو أسلوبٍ من أعلى سنن البلاغة وأقصى الفَصاحة وقوانين البراعة، إلا والحال أنه ساعدتها أي تيسرت لتلك الشكوى ولم يتعذر عليها أسبابها، ميم ودال وحاء أي مسميات هذه الأسماء ومجموعها **مدح**، وذلك لاتساع قريحته بما حصل له من المَدد النبوي والفتح العظيم

---

[79] رواه الإمام الترمذي والإمام الطبراني.

[80] لم ترد بهذا اللفظ ولكن ب"متى أطلق لسانك بالطلب- فاعلم أنه يريد أن يعطيك"، الشيخ ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، ص.63.

[81] بمعنى إنشادها.

[82] يعني الناظم.

في مَدحه ﷺ. وقلَّمَا لا فاعل لها، قال الموضح في القواعد: "تستعمل ما كافة عن الرفع، كقوله: -فقلَّمَا وِصال على طول الصدودِ يَدومُ-[83]، فـ-قلَّ- فعل-ما- وهي كافَّة له عن طلب الفاعل، وأما –وصال- فهو فاعلُ بفعلٍ محذوف وجوبا [يُفسِّرُهُ الفعل][84] المذكور، (والتقدير: قلما يدوم وصال على حد أن امرؤا هلك) ولا يكون –وصال- مبتدأ (وخبره يدوم)، لأن الفعل [المكفوف][85] (عن طلب الفاعل) لا يدخل إلا على الجملة الفعلية، ولم يُكَفَّ من الأفعال إلا (ثلاثة): قل، وَطال، وَكثر"[86]. قال الشارح [ابن حجر]: "ما مصدرية"[87].

والمعنى: قَلَّت مُحاولتها مديحك في غير حال كونها مساعدة لهذه الحروف الثلاثة، فإنها لا تقل بل تكثر. ورده ابن حجر بما يطول ذكره ثم قال: "ويتعين حمل النظم على أن فعل قل محذوف فاعله، دل عليه المذكور، وما نافية، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، والتقدير: قُل أن[88] يستصعب علي ما أردته من مدحك، لأني ما حاولته في حال من الأحوال إلا ساعدني مدحك على أكمل ما ينبغي"[89].

---

[83] من بيت منسوب لعمر بن أبي ربيعة.

[84] في النسخة الصبيحية فراغ ملأته نقلا من المرجع.

[85] نفس التعليق السابق.

[86] لم أقف على المرجع المذكور، ولكن وجدت نقل العلامة الشبيهي عن كتاب "الإعراب عن قواعد الإعراب"، لعبد الله جمال الدين الأنصاري النحوي الشافعي، ص.100. وقد تُصُرِّفَ في النص وزِيدَ فيه للتوضيح، فجعلتُ إضافات العلامة الشبيهي بين قوسين هكذا ().

[87] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.658.

[88] هكذا في المرجع المطبوع.

[89] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.659.

الفصل الثالث والعشرون: من البيت 431 إلى البيت 447

قال [الناظم]:

حَقَّ لي فيكَ أن أُساجِلَ قَوماً --- سَلَّمَتْ مِنهمُ لِدَلوِي الدِّلاء

إنَّ لِـي غَيرَةً وقد زاحَمَتنِي --- في مَعاني مَديحِكَ الشُّعَراء

ولِـقَلبي فيكَ الغُلُوُّ وأنَّى --- لِلِساني في مَدحِكَ الـغُـلَـواء

أن بفتح الهمزة مؤولة مع صلتها بمصدرٍ هُوَ فاعل حق، أي ثبت واستقر في مدحك، أن أُساجل أي أُفاخر بمدحي قوما من الشعراء مدحوك. والسجل: الدلو العظيم، وأصل المساجلة: المناوبة في السقي من البير، ثم صارت تطلق على المناوبة والمطاولة في كل شيء، ومنه: الحرب بينهم سِجال كَكِتاب، أي سَجَّلَ على هؤلاء وأخَّرَ على هؤلاء. وسَلَّمَت أي أدعنت وأطاعت صفة لقوم، ومنهم حال تقدمت على الدلاء، أي سلمت قرائحهم لقريحتي فقالوا بلسان الحال: ما سمحت به قريحتك مع المدح أفخر مما سمحت به قرائحنا. استعار [الناظم] الدلو للقريحة لشبهها بها، كما أن الماء يُغرف بالدلو من البير، كذلك تُغرفُ المعاني بالقريحة من محالها بالألفاظ الدالة عليها.

ثم علله بقوله إن لي غَيرة بفتح المعجمة على مديحك، أي حمية توجب لي أن لا أرضى فيه أن يفخر عليَّ غيري بشيء منه، لأن المُحبَّ يغارُ أن يُشاركَ في محبوبه ويودُّ الانفراد به. ومن ثم صدر من عائشة رضي الله عنها، ما في صحيح البخاري في باب الغيرة من كتاب النكاح ما نصه: "عن أنس قال: -كان النبي ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المومنين بِصَحْفَةٍ فيها طعام، فضربت التي في بيتها النبي ﷺ يد الخادم، فسقطت الصحفة وانْفَلَقَت، فجمع النبي ﷺ فِلَقَ الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: --غارت أمكم--"[1]. ولذلك قال

[1] صحيح الإمام البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة. وللحديث تتمة، فقد أبدل ﷺ الصحفة المكسورة بصحفة التي هو في بيتها، وأرسل الصحيحة مع الخادم إلى صاحبة الصحفة المكسورة.

الشبلي رضي الله عنه: "المحبة أن تغار على المحبوب أن يُحبَّهُ مثلك"[2]. والشعراء، أي المادحون له ﷺ فاعل زاحمت أي في الإتيان بمعاني مديحك، والواو قبله[3] للحال وقد للتحقيق، أي أرادوا أن يسبقوني إلى ما أريده من أَفْخَرِهِ وأَكْمَلِهِ.

والحال أنه استحكم لقلبي فيك الغُلُوّ بضم المعجمة واللام، أي الزيادة في المحبَّة، وفي القاموس: "غلا في الأمر غُلواً: جاوز حدَّه"[4]. ويعبِّرُ عنه الصوفية بالعشق، قال الأستاذ أبو علي[5]: "العشق مجاوزة الحد في المحبة، والحَقُّ [سبحانه] لا يُوصفُ أنه يجاوز الحد فلا يوصف بالعشق، ولو جُمعت مَحاب الخلق كلهم لشخصٍ واحد لم يبلغ ذلك استحقاق قدر الحق [سبحانه]، فلا يقال إن عبدا جاوز الحد في محبة الله. فلا يوصف الحق بأنه يُعشق، ولا العبد في حقه سبحانه بأنه يعشق، فنُفي العشق، ولا سبيل إلى وصف العشق لا من الحق للعبد ولا من العبد للحق"[6]، من رسالة القشيري.

والمعنى أنه أمتاز عن المادحين بذلك، فأراد أن يمتاز عنهم بالزيادة عليهم بما لا يصلون إليه من المدح.

وفي القاموس: "أَنَّى: تكون بمعنى متى وأين [وكيف]"[7]. قال ابن حجر: "هي هنا بمعنى كيف؟ نحو -أنى يُحيي هذه الله بعد موتها-[8]، أو بمعنى من أين؟ نحو -أنى لكِ هذا-[9]."[10]، فهو [أي أنى] استفهام إنكاري، والغُلواء "بضم المعجمة وسكون اللام أو فتحه بمعنى الغلو"[11] كما في القاموس. فكأنه يقول: إن أمكن لقلبي الغلو في المحبة

---

[2] من أقوال الشيخ الزاهد أبو بكر دلف بن جعفر الشبلي المتوفى عام 334هـ، وهو من تلامذة الإمام الجنيد.

[3] أي في وقد.

[4] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1200. لم يذكر العلامة "كيف" في النقل عن "القاموس المحيط"، وهو خطأ نقل.

[5] يقصد أبو علي الحسن بن علي الدقاق، المتوفى عام 406هـ، وهو شيخ الإمام القشيري صاحب "الرسالة القشيرية".

[6] الإمام القشيري، الرسالة القشيرية، ص.522.

[7] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.80.

[8] سورة البقرة، الآية 259.

[9] سورة آل عمران، الآية 37.

[10] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.660.

[11] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1201.

والإنفراد، فكيف يُمكن لولا مددك الإسراع لِلِساني والسبق في المديح بما لا يصل إليه غيري؟، ومن ثم قال [الناظم]:

فَـأثِبْ خـاطِـراً يَـلَذُّ لـه مَدْ --- حُكَ عِـلْماً بِـأنَّـهُ الـــــلَّأْلاء

حاكَ مِن صَنْعَةِ القَرِيضِ بُرُوداً --- لكَ لم يَحكِ[12] وَشْيَها صَنْعاء

أعْجَزَ الدُّرَّ نَظْمُـهُ فاستَوَت فِيـ --- ـهِ اليَدانِ الصَّنَاعُ[13] والخَرْقاء

خاطرا أي قريحة مفعول أثب من "ثاب الحوض ثُوبا و[ثُؤوبا][14]: امتلأ، وأثبتهُ: ملأتهُ"[15]، كما في القاموس، وأصله أثْوِب كَأكرم فانقلبت حركة الواو إلى الساكن قبلها فحذفت، أي إملأ قلبي بمدحك البديع والنظم الرفيع ومُدني منه بما أَفُق به جميع من زاحمني فيك. ومَدْحُك فاعل يلذ من اللذة نقيض الألم، والجملة صفة لخاطر، وعلما مفعول له أو حال من فاعل ضمير له العائد على خاطر والأول أولى. واسم أن يعود إلى المدح وخبرها اللألاء، قال في القاموس: "هو الفَرَحُ التام، وتلألأ البرق: لمع"[16] والثاني أنسب بالمقام، بمعنى أنه النور الساطع الذي يضيء السرائر فيلوح إشراقه على الظواهر.

ثم وصف [الناظم] ذلك الخاطر بقوله حاك، أي نسج في مدحك من صنعة القريض أي الشعر، بُروداً: جمع بُرْد وهو كما في القاموس: "ثوب مخطط"[17]، ولك صفة له أي فيها زينة لك، لم يحك أي لم يشابه وشيَها أي نقشها بألوان مختلفة. وصنعاء على حذف مضاف أي أهلها فاعل يحك، وهي مدينة باليمن مشهورة يحكم أهلها إتقان النسج وجودة الوَشْيِ. قال ابن حجر: "شبه المعاني البديعة في إدهاشها للقلوب عند سماعها، بالبرود الموشاة المدهشة للأبصار عند رؤيتها، وأثبت لها ما هو من لوازم

---

[12] في "لمنح المكية المطبوع كُتبت "تَحْكِ".

[13] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "الصُنّاع".

[14] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "ثؤبا"، وهو خطأ نقل.

[15] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.226.

[16] لفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1451.

[17] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.111.

المشبه به وهو الوشي والحوك، كما أثبت للمشبه ما هو ملائم له وهو القريض، ففيه استعارة تصريحية مرشحة بذكر الوشي والحوك ومجردة بذكر القريض"[18].

ثم وصف ذلك الخاطر أيضا، بأن نظمه لهذه القصيدة الباهرة المشتملة على أنواع بارع الفصاحة وباهر بديع البلاغة، أعجز أي غلب، نظمه أي جمعه، نظم الدُّر بضم أوله: جمع دُرَّة بالمهملة أي الياقوت في القلائد، فلم يلحق حُسنَ هذه القصيدة الجامعة المانعة الفائقة. فاستوت فيه أي في العجز عنه، اليدان أي القريحتان، الصَّنَاعُ بفتح المهملة والنون مخففة والرفع بدل بعض من كل، أي اليد الحادقة الماهرة في الصّناعة. و-فَعَال- بفتحتين مخففا قد يُستعمل للمبالغة، كقولهم –امرأة دَرَاع- كَسَحَاب: خفيفة اليدين في الغزل. والخرقاء الغبية التي لا تحسن العمل.

ثم قال [الناظم]:

فَارْضَهُ أفْصَحَ امْرِئٍ نَطَقَ الضَّا --- دَ فَقَامَت تَغَارُ مِنها الظاء

أَبِذِكرِ الآيَـــــاتِ أُوفيكَ مَدحاً --- أينَ مِنّي وأينَ منها الوَفاء

أم أُمَـارِي بِهِنَّ قَـوْمَ نَـبِيِّ --- سَـاءَ مَـا ظَنَّهُ بِيَ الأغْبِيَــاء

ارْضَهُ بهمزة الوصل وفتح الضاد ثلاثي كَاخْشَى، لا من إرضِهِ كإعطِهِ الرباعي بقطع الهمزة، وأفصحَ منصوب عل النداء أي إقبل مني هذا النظم يا أفصحَ امرئ، ونطقَ صفة له، والضاد منصوب بنزع الخافض أي بالضاد، وهو اقتباس من قوله ﷺ: -أنا أفصح امرئ نطق بالضاد-[19] الحديث. وإنما يحسن النطق به[20] على أكمل حالته العرب العرباء وهو ﷺ أفصحهم، وغيرهم من العرب لا يحسن إخراجها من منطقها ومخرجها[21]، فكأنه يقول: يا أفصح الفصحاء اقبل مني ما جئتك به وإن لم أشم رائحة من روائح فصاحتك. وكأن وجه هذا الاقتباس: إن ما آتي به وإن بلغ مجهوده في البلاغة، لا يتأهل لمدحه ولا يقرب لفصاحته ﷺ، وإن بلغ ما بلغ، لأن

---

[18] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.661.

[19] أخرجه السخاوي في "المقاصد الحسنة"، وحكم عليه ابن كثير في تفسير الفاتحة أن لا أصل له.

[20] أي الضاد.

[21] في النسخة الحسنية كُتبت "لا يحسن إخراجها من مخرجها".

فصاحته معجزة لغيره، فأي بلاغة تؤدي ما يجب له؟. وبسبب تخصيصك الضاد بالفصاحة ، قامت الظاء المُشالة أي زيد فيها في الخط عليه، فصارت قائمة غيرة منها لتصل إلى مخرجه بذلك فلم تصل إليه، ومن ثم سُمِّيت الظاء القائم. وجملة تغار حال تقدمت على الظاء.

وهمزة أبذكر للاستفهام الإنكاري، وأُوفيكَ مضارع أوفاه أي أعطاه حقه وافيا، ومَدحاً تمييز محول عن المفعول.

والمعنى: لا يمكن لي آداء ما يوافق قدرك من المدح، بذكر ما بجميع آياتك وفضائلك في هذا النظم البليغ وإن أمكن ذكري لجميعها، بل قدرك أعظم من ذلك. ومن ثم قال: أين مني وأين منها الوفاء؟ أي لا يحصل الوفاء بمدحك مني ولا من جميع المخلوقات ولا من الآيات، لأن مقامك أجلُّ من أن يُحاط به. وتقدَّم أن أوصافه [ﷺ] تُشرَّفُ به لا هو يُشرف بها، عند قوله : وتسموا بك علياء بعدها علياء، وكمالاتك لا تنحصر لعقولنا.

ثُمَّ أضربَ عن هذا بأم المنقطعة متضمنة معنى الاستفهام الإنكاري بقوله أم أُماري، أي أُجادل وأُحاجج بهن أي بالآيات، قوم أي أمة نبي من الأنبياء الذين قبلك عليهم الصلاة والسلام، أي ليس المراد بذكر آياتك المجادَلة بها لأمم الأنبياء والغض عن آياتهم، لأن ذلك سوء أدب معهم عليهم الصلاة والسلام، وإنما المراد تبريد القلوب من نار شوق المحبوب. ومن ثم ذَمَّ اعتقاد من ظن به ذلك فقال رداً عليه وتخطئة له: ساء، أي قَبُحَ وخسر ما ظنه بي الأغبياء: جمع غبي وهو قليل الفطنة، فجهلهم مركب لاعتقادهم بي خلاف ما أنا عليه. وهذا اعتذار حَسن من الناظم وتبريء من سوء الأدب مع الأنبياء، مما يوهم التَّنقيص والتحقير في حقهم عليهم الصلاة والسلام، بتشريفهِ النبي ﷺ بما خصه الله به كقوله: ما العصى عنده وما الإلقاء، وكقوله: ما لموسى ولا لعيسى حواريون، بل المقصود إفشاء فضل الله على هذا النبي الكريم وإشاعته ليستقر في أذهاننا، مع قطع النظر عن مُساواة الغير له وعدمها، وتقدم أول الكتاب بسطه.

ثم قال [الناظم]:

وَلَكَ الأُمَّةُ التي غَبَطَتها --- فيكَ[22] لَمَّا أَتَيْتَهَا الأَنْبِياء

هذا معطوف على مُقدر أي لكل نبي أمة ولَكَ الأمة الوسطى. والأنبياء فاعل غبطتها، والغبطة: تمني مثل حال المغبوط لا تمني زواله فهو حسد أعادنا الله منه، والضمير المنصوب بأتت أي أرسلت يعود إلى الأمة، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإن كانوا من أمتك العامة التي هي جميع الخلق، لكنهم ودّوا أن يكونوا من أمتك الخاصة، وهم الذين كنت فيهم فأطاعوك ففازوا بغاية الفخر. وأشار [الناظم] بهذا إلى ما خص الله تعالى به هذه الأمة من الفضائل التي لم يوتها غيرهم، تَكْرُمَةً لنبيهم وزيادة في شرفه ﷺ، منها ما وصفهم الله تعالى به في كتابه العزيز بقوله جل وعلا "كنتم خير أمة أخرجت للناس"[23] الآية، وأعطاهم مرتبة الشهادة في القيامة على من سبقهم بقوله [تعالى] "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس"[24] أي عدولاً، فأقامهم مقام الأنبياء في الشهادة، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في غيرهم من الأمم كما كمل لنبيّهم ما تفرق في الأنبياء ولكتابهم ما تفرق في الكتب، ومنها ما رواه أبو النعيم: "إن الله لما ذكر لموسى صفات هذه الأمة قال: -يا رب فاجعلني نبي تلك الأمة- قال [عز وجل]: -نبيها مَعَهَا-، قال: -فاجعلني من أمة ذلك النبي- قال [عز وجل]: -قد استقدمت واستأخر ولكن سأجمع بينك وبينه في دار الجلال-"[25]، ومن ثم قال السمان في رسالته: "قال بعض الكاملين من المشايخ المتقدمين: -خُضت بحرا وقفت الأنبياء على ساحله-، يعني بذلك بحر الشريعة التي هي مخصوصة بالنبي ﷺ دون غيره من الأنبياء". ولهم غير هذا كثير مما تفضل الله به عليهم، والله ذو الفضل العظيم، من ذلك أنهم لا يجتمعون على ضلالة وعليه نبه [الناظم] بقوله:

لم نَخَفْ بعدك الضلالَ وفينا[26] --- وارِثُو نُورِ هَدْيِكَ العُلَمَـــاء

---

[22] في "المنح المكية" كُتب "بك".

[23] سورة آل عمران، الآية 110.

[24] سرة البقرة، الآية 143.

[25] ذكره الإمام السيوطي في "الدر المنثور".

[26] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "لم تخف بعدك الضلال وفيها".

فَانْقَضَت آيُ الأنبياءِ وآيَـــا --- تُكَ في النَّاسِ ما لَهُنَّ انْقِضاء

تخف بالتاء مناسب لما قبله ليعود ضميره على الأمة، و[نخف] بالنون مناسب لقوله فينا أي لم تَخْشَ معشر هذه الأمة بعدك الخروج عما تَركتنا عليه من الشريعة الواضحة البيضاء الصالحة، والحال أنه فينا وارثو نور هديك، قال ابن حجر: "أي هدايتك، وهو العلم بسيرتك وآثار أصحابك"[27]، والصواب والله أعلم: إن المرادَ ما هو أخص من ذلك، من أنهم ورثوا نفس السيرة مع العمل بها لا العلم فقط، إذ المقام مقام الكمال، و[28] يلزم من العلم وجود العمل، وأشار به إلى ما في صحيح البخاري من قول حذيفة: "أشبه الناس دلاً وسَمتا وهَديا برسول الله ﷺ لابن أم عبد"[29] وهو ابن مسعود رضي الله عنه. قال المحدثون الهَدْي بفتح فسكون: الطريقة الصالحة، وعليه فليس هو من معنى الهداية التي هي الإرشاد. والعلم نور يقذفه الله فيمَن يشاء، والعلماء أهل السنة والجماعة الذين عملوا بما علموا، وعَلَّمُوا فنالوا عزاً وشرفا عند بارئهم، قال تعالى "الذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواه"[30]، ونعوذ بالله من علم بلا عمل، فلا يزداد صاحبه إلا مقتا ولا يسمى عالما لقوله ﷺ: " إنما العالم من عمل بعلمه"[31]، وفي الصحيح أنه ﷺ قال: "من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم"[32]. وهو [أي قول الناظم] اقتباس من قوله ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء، لم يرثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر"[33]، قال ابن حجر: "فهؤلاء لا يزالون فينا إلى قرب الساعة لقوله ﷺ: -لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله-، أي يقرب إتيانه، وهم على ذلك فلا نخاف الضلال إلى قربه، أي لا نخاف اجتماعنا عليه لحديث –لا تجتمع أمتي على

---

[27] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.664. لم يرد اللفظ هكذا في "المنح المكية" المطبوع ولكن المعنى وارد.

[28] في النسختين الحسنية والصبيحية ورد بالنفي أي "ولا يلزم من العلم وجود العمل"، وذلك يخالف المعنى، ولعلها زلة قلم بالنظرإلى ما يأتي به العلامة الشبيهي بعده، حيث يقول: "ونعوذ بالله من علم بلا عمل"، فقررت إزالة النفي والله أعلى وأعلم.

[29] من حديث أورده الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الهدي الصالح.

[30] سورة محمد، الآية 17.

[31] بل ينسب القول للإمام علي كرم الله وجهه، ويوافق معنى الحديث الشريف الآتي بعده.

[32] أخرجه أبو النعيم في "حلية الأولياء".

[33] من حديث أخرجه الإمام أبو داوود في صحيحه. وأخرجه بنحو لفظه الأئمة الترمذي وابن ماجة وأحمد.

ضلالة-"[34]. قال الشيخ السمان: "وكمال الاتباع له ﷺ بمواظبة ما أمر به الكتاب والسنة قولا وفعلا واعتقادا، على ما ذهب إليه الأئمة الأربعة: الشافعي ومالك وأبو حنيفة وابن حنبل، رضي الله تعالى عنهم، إذ وقع إجماع العلماء المحققين بأنهم أئمة الحق، وهم الفرقة الناجية يوم القيامة إن شاء الله تعالى". والمراد بالفرقة الناجية نجاةً تامة خاصة لا مطلق النجاة، على ما ذهب إليه شيخ الإسلام أبو حامد الغزالي في "المنقذ من الضلال"، ونصه: "وما ورد من بعث النار من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعون، والواحد منه في الجنة، ومن افتراق الأمة فرقا الناجية واحدة، المُرادُ أنهم يعرضون على النار بقدر معاصيهم والمعصوم من المعاصي لا يكون في الألف إلا واحد، لا أنهم مخلدون في النار، بل نصارى الروم والترك الذين لم يبلغهم اسم محمد ﷺ تشملهم الرحمة لأنهم معذورون، وكذلك الذين بلغهم اسمه ولم يبلغهم نعته، بل سمعوا [بأنه] ملبِّس كذاب ادعى النبوة، [وهذا لا يحرك داعية] النظر بخلاف من سمع نعته. وأما أن الناجية واحدة، فقد رُوي أن الهالكة واحدة، والناجية واحدة أي التي لا تعرض على النار ولا تحتاج إلى شفاعة، ومن احتاج إليها فليس بناج على الإطلاق. ومعنى الهالكة واحدة أي المخلدة في النار، فالناجية خير الخلق والهالكة شره وبينهما درجات، فمن معذب بالحساب فقط أو بقربه من النار، ثم يصرف بالشفاعة أو يدخل النار ثم يخرج بقدر بدعته وعِصيانه. والهالكة هي التي كذبت أو جوزت الكذب على رسول الله ﷺ بالمصلحة"[35]. فاستوسع [الغزالي] رحمة الله تعالى، ويؤيد هذا ما في حلية أبي النعيم ونصه: "روى أبو بكر الخطيب بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: -ما من أمة إلا بعضها في الجنة وبعضها في النار إلا أمتي فإنها في الجنة-، نقله الثعالبي في العلوم الفاخرة، وقال: -هذا حديث [...] لم يذكر فيه ابن الخطيب مطعنا بود [...] فهو ثابت"[36].

---

[34] لم أقف على هذا النص في "المنح المكية" المطبوع، وذكر الحديث المشار ليه في الصفحة 665.

[35] الإمام الغزالي، مجموعة رسائل الإمام الغزالي، دار الفكر–بيروت، الطبعة الأولى 1416هـ ، ص.252 و253، بالتصرف. وأضفت بين عارضتين ما وجب نقله عن المرجع حتى يكتمل المعنى.

[36] لم أقف عليه في المرجع المذكور، والفراغات جاءت في النسختين الحسنية والصبيحية.

وأما غير هذه الأمة فليس كذلك، ومن ثم قال الناظم فانقضت آيُ الأنبياء: جمع آية، أي انقطعت معجزاتهم بعدهم بانتساخ شرائعهم وضلال أممهم بموتهم، وآياتك أي معجزاتك في الناس قبل وجودك ومعه وبعده ما لهن انقضاء، لاستمرارهم على الاقتداء بهديك، وبكتاب الله الذي جعله الله [عز وجل] محفوظا بفضله من التبديل والتحريف لقوله تعالى "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"[37]. وهذا من أعظم خصائص هذه الأمة الغراء، أي لم تزل آياتك في الناس منها ما [وقع] [38] للمرسلين من خوارق العادات بسببك كما لا يخفى، فإن مددهم منك، ومنها ما يظهر على أيد غيرهم من صلحاء الناس، ومن ثم قال [الناظم]:

والكَرامـــاتُ منهمُ مُعجزاتٌ --- حازَها مِن نَوالِكَ الأَوْلِيـــاء

إنَّ مِن مُعجِزاتِكَ العَجزُ عن وَصْـ --- ـفِكَ إذ لا يَحُدُّهُ الإحْصاء

كيفَ يَستَوْعِبُ الكَلامُ سَجايا --- كَ وَهَل تُنْزَحُ البِحارَ الرَّكـاء

ليسَ مِن غايةٍ لِوَصفكَ أبْغِيـ --- ـهَا وللقَوْلِ غايةٌ وانْتِهـــاء

إنَّما فَضلُكَ الزَّمـــــانُ وَآيَا --- تُكَ فيما نَعُدُّهُ الآنـــــاء

يعني أن الكرامات أي الخوارق للعادات التي أكرمَ اللهُ بها من شاء من عباده بإظهارها على أيديهم، كلها مُعجزات لك في الحقيقة لأن كل مدد منك، وأنت نقطة الأكوان وبذرة الوجود كما سبق. والأولياء فاعلُ حازها أي وصلت إليهم من إعطائك، قال ابن حجر: "والقياس حازوها، لكنه أقام الظاهر مقام المضمر ليبيّن أن المراد بضمير منهم العائد على الناس خواصهم، وهم أولياء الله الذين اصطفاهم لعبادته ومعرفته"[39]. ومِن للتبعيض. وكلٌ مِنَ المعجزة والكرامة أمر خارق للعادة، وإنما يفترقان بالتحدي وعدمه، وتقدم معنى المعجزة عند قوله [أي الناظم]:وبدت في رضاعه معجزات. [ثم قال ابن حجر]: "وأما الكرامة فهي أمر خارق للعادة غير

---

[37] سورة الحجر، الآية 9.

[38] في النسختين الحسنية والصبيحية كُتبت "يَقَعُ"، وقد فضلت كتابة الفعل بصيغة الماضي لرفع كل لبس، فسيدنا محمد ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين قطعا وهو معلوم من الدين ضرورة.

[39] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.670، بالتصرف.

مُقَارِنٍ لدعوى النُبوة على يد مَن عُرفت ديانتهُ[40] واشتهرت وِلايَتُهُ، باتباع نبيه في جميع ما جاء به، وإلا فهي استدراج أو سحر أو استدلال"[41]. ثم قال: "وضابط الولي أنه المواظب على الطاعة واجتناب المعاصي، المُعرضُ عن الانهماك في اللذات، كذا قالوه. ويتجهُ أنه ضابط للولي الكامل، وأن أصل الولاية يحصل لمن وُجدت فيه صفات العدالة الباطنية بالشروط المذكورة عند العلماء العارفين"[42]. وحاز وما بعده صفة لمعجزات.

ثم أكد [الناظم] أن آياته لا تنقضي بقوله إن من معجزاتك الباهرة العجز من سائر المخلوقات عن وصفك بالإفراد للعموم، أي عن الإحاطة بأوصافك التي شرفك اللهُ بها على جميع خلقه. ثم علل العجز عن استيفاء الوصف بقوله إذ لا يحده الإحصاء أي العَدُّ من المخلوقات، وفيه إشارة إلى براعة الختم.

ثم استشهد على ذلك بمثالٍ مُشاهد وهو هل تنزح، فهو من استفهام إنكاري إبطالي مرتب على كيف المفيدة لذلك أيضا. ولا يصح أن تكون كيف هنا للتعجب، لعدم حصول المتعجب منه وهو الإحصاء.

والمعنى: لا يستوعب أي يستقصي ويُحصي كلام الواصفين سجاياك أي أخلاقك الزكية: جمع سجية وتقدم معناه. فكما أن البحار لا تنزحها الرَّكاء بفتح أوله، كذلك الكلامُ لا يحصي أوصافك السَنِية. وفي القاموس: "نزح البئر: استقى ماءها حتى ينفد أو يقل"[43]، ثم قال: "والرَّكِيَّة: البئر، وجمعه رُكِيٌّ"[44]، وعليه فمده للضرورة. قال السنباطي: "وهو تقريب، إذ البحار متناهية وأوصافه ﷺ غير متناهية، لأنه لا يزال

---

[40] هكذا كُتبت في "المنح المكية" ومعناها تَدَيُّنُهُ.

[41] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.671.

[42] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.670. مع تغيير ذي معنى في اللفظ الأخير، ففي "المنح المكية" المطبوع كُتب "... بالشروط المذكورة عند الفقهاء".

[43] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1599.

[44] نفس المرجع السابق، ص.667.

يترقى في مقامات القرب في حياته وفي قبره وفي القيامة وفي الجنة، إلى ما لا نهاية له"[45].

ثم أكد أيضا عدم الإحصاء بإتيانه بمِن بعد النفي المفيدة للاستغراق، بقوله ليس من غاية.

والمعنى: لا نهاية لأوصافك الكاملة حتى أبغيها أي أريد حصرها بكلامي لِما تقرر، وأن ترقيه ﷺ لا نهاية له إذ لا مطمع في الاطلاع عليه لأحد حتى يحصيه، وعلى فرضه فلا تحده العبارة، بخلاف القول فإنه متناه، ومن ثم قال وللقول أي والحال أن له غاية أي حد وانتهاء أو هُو استئناف، قال ابن حجر: "والفرق بين الغاية والنهاية اعتباري"[46]، أو هو من عطف المرادف للتأكيد. ومن المستحيل إحاطة ما يتناهى بما لا يتناهى.

ثم ذكر [الناظم] مثالا آخر لعدم الإحاطة زيادةً في البيان في قوله إنما فضلك الزمان، أي شبيه بالزمان من حيث الإجمال فيهما، بأن كلا منهما لا غاية لإفراده، وأما من حيث التفصيل فلا. وفي القاموس: "الزَّمن محرَّكةً والزمان كسَحاب: العصر، واسمان لِقَليلِ الوقت وكثيره"[47]. وآياتك أي معجزاتك مبتدأ، والآناء بهمزة بعدها ألف خبره، أي ساعات الزمان فإن بعضها يُعَدُّ لا جميعها، قال تعالى "ولتعلموا عدد السنين والحساب"[48]. وكذلك يَعُدُّ [الناظم] بعض الآيات، ومن ثم قال فيما نعدُّه أي منها، فهي شبيهة بالآناء تفصيلا لا تفضيلا. وفي القاموس: "وإِنْوٌ بالكسر: ساعة من الليل"[49]، والمراد هنا مطلق الساعات واللحظات. قال ابن حجر: "وهذا أبلغ من قوله السابق: وآياتك في الناس، إلا أن يريد في الدنيا والآخرة"[50].

---

[45] الشيخ السنباطي، مخطوط شرح الهمزية، ص.161.
[46] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.674.
[47] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.720.
[48] سورة يونس، الآية 5.
[49] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.80.
[50] لم أقف عليه في "المنح المكية" المطبوع.

الفصل الرابع والعشرون: من البيت 448 إلى البيت 456

قال [الناظم]:

لم أُطِلْ في تَعْدادِ مَدْحِكَ نُطقِي --- ومُرادي بِذلكَ اسْتِقْصاء

غَيرَ أنّي ظَمآنُ وَجْدٍ وما لِي --- بِقَلِيلٍ مِن الوُرُودِ ارْتِواء

يعني أنه: لم يكن تطويل نطقي أي كلامي، بِجَلب مدائحك أي فضائلك في هذه القصيدة وفي غيرها، والحال أن مرادي أي أطمع أن أستقصي أي أُحصي تلك المدائح، لإقراري بالعجز عن ذلك وإنما قصدت بذلك بَرْدَ العليل وشفاء الغليل.

ومن ثم أتى [الناظم] باستثناء منقطع في قوله غير أني، أي لم أُرد حصر الآيات إلا أني ظمآن وَجْدٍ بفتح فسكون، والإضافة على معنى من، أي أصابني من شدة وَجْدي وشوقي للموصوف بتلك الأوصاف، ظمأ عظيم لا يطفيء لهبه إلا كثير الري. ومن ثم قال وما، فهي نافية ولي خبر مقدم، وبقليل من الورود أي الشرب متعلق بالمبتدأ وهو ارتواء، ومِن لبيان الجنس متعلقة بقليل أو صفة له. فلمجرد ذلك أطلتُ التعداد. وفي رسالة القشيري: "والوجد ما يصادف ويرد عليك بلا تعمُّل ولا تكلُّف"[1]، يعني ما يرِد على القلب من شوق أو خشية أو هبة أو نحو ذلك مما يخطر بالبال، ولا تقدر على دفعه ولا تتسبب في جلبه.

ثم لما بدل [الناظم] مجهوده في المدح، وأردفه بالتوسل والتضرع المتضمن للمديح، ختم كتابه[2] بالصلاة والسلام على الحبيب فقال:

فَسَلامٌ عَليكَ تَتْرا[3] مِن اللهِ --- لِتَبْقى بِهِ لَكَ البَأْواء

يعني: بسبب ارتوائي الكثير من تلك الأوصاف التي لا يصل إليها مخلوق غيرك، ختمت قصيدتي هذه بالصلاة والسلام عليك، فأسلم عليك سلاما كريما شريفا عظيما

---

[1] القشيري، الرسالة القشيرية، ص.140.

[2] أي قصيدته.

[3] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "تترى"، وكلاهما صحيح.

منشأه من الله، وهو مبتدأ وعليك متعلق به وهو الذي سوغ الابتداء به، ومن الله خبر، وتترا حال من ضمير مُتعلقِ الخبر أي متتابع متكررة إفراده، وهو مقتبس من قوله تعالى "ثم أرسلنا رسلنا تترا"[4]، "قال المفسرون: وهو مصدر وزنه فَعْلَى كدعوى ومعناه التتابع، وهو حال مؤولة أي متواترين واحداً بعد واحد، قُرئ بالتنوين على أن الألف للإلحاق وبعدمه على أن ألفه للتأنيث، وتاؤه الأولى مبدلة من واو هي فاؤه. وفي القاموس: "وَاتَرَ بين أخباره وواترها: تابعها [...][5] وجاؤوا تَتْرَا، ويُنَوَّنُ وأصلها وتْرا: مُتواترين"[6]. قال أهل العلم في معنى السلام ثلاث أوجه: "أولها السلامة من النقائص والأفات ثابتة لك ومعك ويكون السلام مصدرا بمعنى السلامة، الثاني أن السلام مداومة حفظك ورعايتك وتأويله قائم بك بحيث لا يكمل أمرك إلى غيره ويكون السلام اسم الله تعالى، الثالث أن السلام بمعنى السلامة والانقياد كما في آية "ويسلموا تسليما"[7]. فعلى ما اختير في الأصول، وهو مذهب المالكية والشافعية، من جواز استعمال اللفظ المشترك في جميع مفهوماته دفعة واحدة، يَصِحُّ للمُسَلِّمِ عليه ﷺ أن يُريدها جميعا"[8]، من نقل سيدي المهدي الفاسي في شرح دلائل الخيرات. ولك وبه مُتعلقان بتبقي أو حالان من البأواء، أو به متعلق بالبَأْواءِ والباء للسبب وهو بموحدة مفتوحة ثم همزة ساكنة بعدها وإلف قبل همزة، وفي القاموس: " بَأَى كسَعَى بأواً وبَأْواءً: فَخَرَ، ونفسه رفعها وفَخر بها"[9]. وما أحسن صنيع الناظم رحمه الله، قدم سلام اللهِ على نبيه ﷺ أولا لشرفه، ثم بعده سلامه [ﷺ] على نفسه لأنه لا يساويه سلام مخلوق غيره، فقال:

وَسَلامٌ عليكَ مِنكَ فما غَيْـ --- ـرُكَ مِنهُ لَكَ السَّلامُ كَفاء[10]

وَسَلامٌ مِن كُلِّ مـا خَلَقَ اللهُ --- لِـتَحْيـا بِذِكرِكَ الأَمْـلاء

---

[4] سورة المومنون، الآية 44. برواية ورش عن نافع، حيث تكتب "تترا" هكذا.
[5] لا يتتابع النص هكذا في المرجع المذكور، فبينت ذلك بـ[...].
[6] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1728، وكتبت فيه "تترى" بالألف مقصورة، وكتبتهما كما رسمها المؤلف، وكلاهما صحيح كما سبق.
[7] سورة النساء، الآية 65.
[8] محمد المهدي الفاسي، مطالع المسرات، ص.23.
[9] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.89.
[10] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "كِفاء" بالجر.

سلام مبتدأ سَوَّغ [الناظم] الابتداء به التفصيل، ومنك حال منه وعليك خبره، وما نافية، وغيرك مبتدأ على القول بتعريفها، ومنه حال من السلام وهو مبتدأ ثاني. وكَفاء بفتح أوله مصدر كفأ مهموزا أي ماثل وساوي، خبرهُ مؤول بمكافي ولك متعلق به، والجملة خبرُ المبتدأ الأول، إي سلامُ غيرك عليك ليس بمكافي لمقامك الأكمل، لأن سلام من هو دونك لا يساوي سلامك من حيث أنه لم يَحُط بفضائلك.

ومع ذلك، يطلب [الناظم] السلام عليك من كل مخلوق وإن لم يكن سلامه مكافيا[11] لك، لقوله تعالى "إن الله وملائكته يُصلون على النبيء يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسلما"[12]. ومن ثم قال من كل ما خلق الله، أي من كل نامي وجامد، وفي نسخة مَن تغليبا للعاقل لشرفه، كقوله تعالى "ولله يسجد من في السماوات والأرض"[13]، وعلى الأول تغليبا لغير العاقل لكثرته. ثم علل [الناظم] تعميم طلب السلام بقوله لِتَحيا، بفتح التاء من حيا الثلاثي لازما، وبضمها من أحيا الرباعي مُتعديا، والأملاء: الجماعات واحدة ملأ، وهو فاعل على الأول، ونائبه على الثاني.

والمراد هنا حياة قلوبهم بذكره بالصلاة والسلام عليه ﷺ، وهي الحياة الحقيقية لاستلزام الصلاة عليه لذكر الله، وقد قال تعالى "فاذكروني أذكركم"[14]. قال الشيخ القشيري في رسالته: "وفي خبر أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ: -إن الله يقول أعطَيتُ أُمَّتكَ ما لم أعط أمةً من الأمم-، فقال [ﷺ]: -وما ذاك يا جبريل؟-، قال: -قوله فاذكروني أذكركم، لم يقل هذا لأحد غير هذه الأمة"[15]، قال المفسرون: "قال سعيد بن المسيب: -معناه أذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب-"، وقيل اذكروني بالدعاء والتسبيح، وقال أكثر المفسرين لاسيما المتصوفة في تفسير هذا: "بألفاظ لها معان مخصوصة"، ولا دليل على التخصيص. وبالجملة، هذه الآية بيان لشرف الذكر، وبيانها قول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا

---

[11] أي كفؤاً وجديرا بمقامك العلي.
[12] سور الأحزاب، الآية 56، برواية ورش عن نافع.
[13] سورة الرعد، الآية 15.
[14] سورة البقرة، الآية 152.
[15] القشيري، الرسالة القشيرية، ص.385.

معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم"[16]. وعليه، فتحيا ببركة ذكره ﷺ الأملاء العلوية والسفلية، إذ هو نقطة الأكوان، ولا شيء إلا وهو به منوط، وكل من خلى من ذكره فليس بحي، وكل من ذكره الله فهو حي اعتبارا، وأي قربة للعبد تساوي ذكر الله له بواسطته ﷺ.

ثم قال [الناظم]:

وَسَلامٌ كَالمِسكِ تَحمِلُهُ مِنِّـ --- ـيْ إليكَ شَمالٌ أو نَكْباء[17]

وَسَلامٌ على ضَريحِكَ تَخْضَلُّ --- بِهِ مِنهُ تُربَةٌ وَعْساء

يعني: وسلام عليك من الله ومنك ومن كل مخلوق كما مرَّ، حال كونه كالمسْك اي في النفع والطيب البارع أو هو صفة لكل مِنَ السلام السابق، ومني وإليك متعلقان بتحمله وضميره عائد إلى السلام السابق أيضا، أو مني متعلق بسلام وكالمسك صفة له فهو سلام خاص به، وإن دخل في عموم قوله من كل ما خلق الله. وجملة تحمله خبر عن سلام، ويَحتمل غير ذلك. وفي القاموس: "شمال بالفتح ويُكسر: الصحيح أنه ما مهبه بين مطلع الشمس وبنات نَعشٍ، أو من مطلع النعش إلى مطلق مسْقط النسر الطائر، ويكون اسماً وصِفة"[18].

[والمعنى] أي حتى يتعطر الوجود بعبيره، وتحيا الأرواح بعبْقِه ونشره.

والنكباء بفتح أوله: "الصبا"[19] قاله ابن حجر، وفي القاموس أنه: "ريح انحرفت، [وقعت] بين ريحين، أو بين الصَّبا والشَّمالِ"[20]، وعلى الأول فليست مخصوصة بمحل واحد، وقال ابن حجر: "والحاصل أن الريح إن هبت من اتجاه الكعبة فالصبا

---

[16] من حديث أخرجه الإمامين مسلم والبخاري، واللفظ للأخير: صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل.

[17] في "المنح المكية" المطبوع كُتبت "وصلاة كالمسك تحمله مني شمال إليك أو نكباء". ويبدو أن كتابة سيدي يحيى للبيت أقرب لقصد الناظم، إذ يتكرر "وسلام" في بداية الثلاث أبيات السابقة، ثم في بداية البيت اللاحق، فمن المنطقي ألا تختلف بداية هذا البيت عن سابقيه ولاحقه.

[18] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.888. ويتعلق الأمر باسم ريح بمكة المكرمة.

[19] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.677.

[20] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1647.

وهي حارة يابسة، أو من وراءها فالدبور وهي باردة رطبة، أو من يمينها فالجنوب وهي حارة رطبة، أو من شمالها فالشَّمالِ وهي باردة يابسة، وهي ريح الجنة التي تهب عليهم، رواه مسلم ولهذه الخصوصية قدمها الناظم هنا"[21]. وقال سيدي المهدي الفاسي في شرح دلائل الخيرات، عند قوله [تعالى] "إن الله وملائكته يصلون على النبيء"[22]: "وعن أبي عثمان الواعظ قال: -سمعت سهل بن محمد يقول: هذا التشريف الذي شرف الله به نبيه محمدا ﷺ بقوله –إن الله وملائكته يصلون- الآية، أتم وأجمع من تشريف آدم عليه الصلاة والسلام بأمر الملائكة بالسجود له، لأنه لا يجوز أن يكون الله تعالى مع ملائكته في ذلك التشريف، فتشريفٌ يصدر عنه تعالى أبلغ من تشريف تختص به الملائكة دونه"[23]، ثم قال: "وأتى بالجملة الإسمية للتأكيد، وصدرها بإنَّ المؤكدة زيادة في التأكيد، وبخبر الجملة مُضارعاً لإفادة الاستمرار التجريدي. قيل وهذه منقبة عظيمة لم توجد لغيره، فهي أبلغُ من سجود الملائكة لآدم الذي وقع وانقطع. واختلف في معنى الصلاة على النبي ﷺ، فقيل معناها الرحمة والرضوان من الله والدعاء والاستغفار من الملائكة والناس، وقيل الصلاة من الله رحمة مقرونة بالتعظيم ومن الملائكة الاستغفار ومن الآدميين تضرع ودعاء"[24]، وذكر أقولا أخرى ثم قال: "وقال أبو العالية: -صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه عند ملائكته، وصلاة الملائكة عليه: الدعاء-. قال ابن حجر [العسقلاني]: -وهذا أولى من غيره، فيكون معنى صلاة الله عليه ثناؤهُ عليه وتعظيمهُ، وصلاة الملائكة وغيرهم طلبُ ذلك من الله تعالى، والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة-. وقيل أن المراد بالصلاة: الاعتناء بشأن المصلى عليه وإرادة الخير له، وهو الذي ارتضاه الغزالي واستحسنه الزركشي في شرح –جمع الجوامع-، لأنه قدر مشترك"[25].

[21] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.677,

[22] سورة الأحزاب، الآية 56، برواية ورش عن نافع.

[23] الشيخ محمد المهدي الفاسي، مطالع المسرات، ص.18.

[24] المرجع السابق، ص.18 و19.

[25] المرجع السابق، ص.19. وتجدر الإشارة أن نقل سيدي المهدي الفاسي عن ابن حجر العسقلاني في "فتح الباري"، وليس عن ابن حجر الهيتمي.

وعلى ضريحك أي قبرك المكرم، سلام أيضا من الله ومنك ومن كل مخلوق. وقبره أفضل حتى من الكعبة والعرش، قال الشيخ زكرياء: "باتفاق العلماء"، ولكون المراد بالضريح هنا: البقعة التي ضمت أعضاءه الشريفة. لم يكن في إفراد السلام هنا كراهة، لأنه غير السلام الذي ضُمَّ إلى الصلاة فيما مر. وتخضَلُّ بمعجمتين وتشديد اللام أي تبتل مضارع إخضَلَّ كإحمرَّ، وبه أي بالسلام متعلق به، ووَعْساء بسكون المهملة بعد واو مفتوحة صفة لتربة، وهي كما في القاموس: "رابية من رمل لينة تنبت أحرار البقول"[26]، ومنه أي من القبر حال من تربة.

ثم قال [الناظم]:

وَثَنَاءٌ قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْ نَجْـ --- ـوايَ إذ لم يَكُنْ لَدَيَّ ثَراء

مَا أقَامَ الصَّلاةَ مَن عَبَدَ اللهَ --- وقـامَتْ بِرَبِّها الأَشْيـــاء

الثناء يُطلق على الخير والشر لقوله ﷺ: "مَن أثنيتم عليه بخير فقد وجبت [له الجنة]، ومن أثنيتم عليه بشر فقد وجبت [له النار]"[27] الحديث. وفي القاموس: "الثناء بالفتح والتثنية: وصف بمدح أو ذم، أو هو خاص بالمدح"[28] ، وهو رأي الناظم تبعا لمن قال إذا أطلق يختص بالمدح، وتقدمه على عامله للاختصاص أو الاهتمام، وهو قدمت أي أتيتك أو مدحتك بالثناء في هذه القصيدة البارعة الجامعة. ونجواي أي سُؤالي منك ما أرجوه من بُلوغ المأمول من فضلك في هذه القصيدة، مما توسل به نحو قوله: الأمان الأمان، وجُدْ لعاصٍ، وغيره. ثم علل اقتصاره على الثناء بقوله إذ لم أي لأجل أن لم يكن لديّ أي عندي، ثَراء بفتح أوله والمد من الثروة بالمثلثة، وهو كثرة المال. وهو اقتباس من قوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة"[29]، قال ابن عباس: "سببها أن شبانا من المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي ﷺ في غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم، وكان النبي ﷺ سمحا لا

[26] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.1765.
[27] من حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى,
[28] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.225 و226.
[29] سورة المجادلة، الآية 12.

يَرُدُّ أحدا، فنزلت الآية مشددة للأمر بالوجوب"[30]، ثم نُسخت اتفاقا بقوله تعالى بعدها "أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات"[31] الآية، فأباح لهم تعالى المناجاة دون تقديم صدقة، بعد أن كان أوجب عليهم تقديم الصدقة قبل مناجاته ﷺ. قال ابن جزي في تفسيره: "واختلف هل كان هذا النسخ بعد أن عُمل بالآية أم لا، فقال قوم لم يعمل أحد بها، وقال قوم عمل بها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فإنه روى أنه كان له دينار فصرف بعشرة دراهم وناجاه عشر مرات، تصدق في كل مرة منها بدرهم، وقيل تصدق في كل مرة منها بدينار، ثم أنزل الله الرخصة"[32]، قال ابن حجر: "ولا يلزم من نسخ الوجوب نسخ الندب، وكذلك يُسنُّ لمن أراد زيارته ﷺ، أن يقدم بين يدي زيارته صدقة"[33].

وما ظرفية مصدرية، وأقام الصلاة أي أداها لغوية وشرعية، امتثالا لأمر موجبها، ومَن موصول فاعل أقام، والأشياء فاعل قامت أي إيجادا وإمدادا، وفي ربها ضمير يعود على الفاعل المتأخر عنه لفظا، "وهو كثير لا ينقطع أبدا، بخلاف الأول فينقطع كما علم من الحديث السابق. وإنما ذكره للتبرك بذكر العبادة، مع ترجي التعبد بقصيدته والاشفاع بها ودوامها بدوامهم"[34] قاله السنباطي. وقال ابن حجر: "لا نُسَلِّم انقطاع الأول، لأن أهل الجنة يدعون ويتعبدون، لكن للتلذذ لا للتكليف"[35].

قُلتُ: وهذا إنما يتطرفُ على أن المراد بالصلاة اللغوية فقط، ويُذكر أن الإمام المحقق العارف بالله السراج بن الفارض رضي الله عنه رأى في المنام، فقيل له: لما لا مدحت النبي ﷺ؟ فقال:

أرى في كل مدح في النبي مُقَصِّراً --- وإن بالغ المثنِي عليه وأكْثَرا

إذ اللهُ أثنــــى بالذي هُوَ أهْلـهُ --- عليه فمــا مِقدارُ ما يمدحُ الوَرَى

---

[30] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج.5، ص.279.

[31] سورة المجادلة، الآية 13.

[32] ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ص. 870 و871.

[33] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.679.

[34] الشيخ السنباطي، مخطوط شرح القصيدة الهمزية، ص.162.

[35] ابن حجر الهيتمي، المنح المكية، ص.679 و680، بالاختصار.

خاتمة المؤلف

قال مؤلفه عفا الله عنه، العبد الفقير أحوج المضطرين إلى ربه القدير، يحيى بن عبد الواحد بن عبد الله الحسني الجوطي الإدريسي: هذا أخر ما يسر الله علينا جمعه من حل ألفاظ القصيدة الهمزية في مدح خير البرية ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم.

والشبيهي نسبةً إلى الشيخ الكامل العارف بالله سيدي أحمد الشبيه الشريف الجوطي، وقد ذكره صاحب مرآة المحاسن في ترجمة الشيخ أبي زيد سيدي عبد الرحمان بن عياد الملقب بالمجذوب، ونصه: "ثم أخذ -يعني الشيخ عبد الرحمان المجذوب- عبر شيوخ أجلاء وخَدَمَهُم، منهم الشيخ أبو العباس أحمد المدعو بالشبيه بن عبد الواحد بن عبد الرحمان الشريف الجوطي المكناسي، دفن خارج باب عيسي أحد أبواب مكناسة الزيتون". ثم قال: "وأما الشيخ أبو العباس الشريف المدعو الشبيه فأخذ عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازي، وهو أخذ عن عمه الشيخ أبي الحسن علي والشيخ عبد العزيز القسطنطيني، أخذا عن الشيخ أحمد زروق"[1].

قلت: ولقب سيدي أحمد الشبيه بذلك، لقوة شبه صورته رضي الله عنه بصورة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، حتى أنه كان بين كتفه صورة خاتم النبوة رضي الله عنه. وقبره خارج الباب المذكورة بالموضع المسمى راس التاج، بقبلة مسجد هناك يسمى "جامع الحجاج".

"سبحان ربك رب العزة عما يصفون() وسلام على المرسلين() والحمد لله رب العالمين"[2]

انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه.

---

[1] الإمام محمد العربي الفاسي الفهري، مرآة المحاسن، ص.257.

[2] سورة الصافات، الآيات 180 إلى 182.

خاتمة المحقق

الحمد لله الذي وفقني لخدمة هذا الكتاب، رحم الله مؤلفه وناسخه ومحققه وكل من عمل على حفظه والاعتناء بنسخه.

وعلى غير العادة، قررت أن أختم التحقيق بترجمة أحد نُسَّاخ هذا الكتاب، وذلك بنية الترحم عليه وعلى جميع النساخ، جند الخفاء، الذين لولاهم ما وصلتنا هذه التحف النادرة والربائد الثمينة، التي كلفتهم مجهودات كبيرة لنقلها ورسمها.

وكما سبق في المقدمة، لم أتوصل إلى التعرف إلا على ناسخ واحد من النساخ الثلاث، ويتعلق الأمر بالنسخة الحسنية وناسخها حفيد المؤلف: سيدي عبد الرحمان بن التهامي بن العلامة يحيى الشبيهي، المتوفى عام 1302هـ-1885م. وقد ختم نسخته (الحسنية) بمعلومات مهمة:

"وكان الفراغ منه، يعني تأليفه، بحول الله وقوته يوم الخميس ثاني عشر رجب عام خمسة وسبعين ومئة وألف. كمل بحمد الله وعونه على يد كاتبه عبد ربه وأحوج الورى إليه، حفيد المؤلف: عبد الرحمان بن التهامي الإدريسي الشبيهي، كان الله له ولجميع المسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله أجمعين. وكان الفراغ من كتبه صبيحة يوم الأحد السابع من ربيع الثاني عام سبعة وستين ومئتين وألف".

يقول النقيب ابن زيدان عن الناسخ سيدي عبد الرحمان الشبيهي:
"إمام الضريح الإدريسي بزاوية زرهون. حاله: فقيه أستاذ معمر ناسك، بركة فاضل جليل، من أهل الخير والدين وملازمة الضريح الإدريسي والإمامة به على سنن وهدى سلفه الصالح، مشتغل بما يعنيه. مشيخته: أخذ علم القراءات بفاس عن مولاي إدريس البكراوي، وصحب الولي الجليل القدر عبد القادر العلمي وإليه ينتسب في طريق القوم. وفاته: توفي ببلده زاوية زرهون عام اثنين وثلاثمائة وألف"[3].

---

[3] ابن زيدان، الإتحاف، ج.5، ص351.

ومما يدل على مهارة واجتهاد سيدي عبد الرحمان الشبيهي في نسخ الكتب، أقدم فيما يلي، بعض أعماله:

1- "الشفا بتعريف حقوق المصطفى،..، نسخة تامة، مكونة من جزئين، مزخرفة، مجدولة، محلاة بالألوان، مكتوبة بخط مغربي مجوهر مليح. بقلم: عبد الرحمان بن التهامي الإدريسي الشبيهي. عدد الأوراق: 519 ورقة. المسطرة: 12 سطرا. المقياس: 17.5×21.5سم. بها تعقيبة"[4] .

2- ذكره العلامة المنوني بصفته ناسخا[5] للموطأ، و"الشفا" للقاضي عياض، و"شرح الهمزية البُصيرية" مؤلف جده العلامة سيدي يحيى الشبيهي.

انتهى من تحقيقه الواقف بباب مولاه، الراجي عفوه ومغفرته ثم رضاه، الفقير الملهوف إلى شفاعة من أحبه تعالى وارتضاه، سيدنا وحبيبنا ورحمتنا المهداة، نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أمين بن محمد الموقت الشبيهي الجوطي الإدريسي الحسني

في الجمعة الأخيرة من ربيع الأنوار، عام 1446.

والحمد لله رب العالمين.

---

[4]منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-المملكة المغربية، الفهرس الوصفي لمخطوطات خزانة المسجد الأعظم بوزان، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى-2008، ص. 248.

[5]المنوني، تاريخ الوراقة المغربية، ص.213.

مراجع المؤلف مرتبة حسب تواريخ وفاة أصحابها

المرجع	المؤلف	وفاة المؤلف هـ	عدد الأجزاء	المحقق	الناشر	الطبعة
السيرة النبوية	عبد الملك بن هشام بن أيوب	218	4		دار الكتاب العربي - بيروت	الثالثة 1990
الشمائل المحمدية	أبو عيسى محمد الترمذي	279	1	أسامة الرحال	دار الفيحاء-دمشق	الثانية 2003
تاريخ الأمم والملوك	أبو جعفر محمد بن جرير الشهير بالطبري	310	11		منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات-بيروت-لبنان	1989
جمهرة اللغة	أبو بكر بن دريد الأزدي	321	3	رمزي منير بعلبكي	دار العلم للملايين-بيروت	1987
الكشف والبيان عن تفسير القرآن	أحمد بن محمد الثعلبي النيسابوري	427	10		دار إحياء التراث العربي-بيروت	الأولى 2002
قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس	أحمد بن محمد النيسابوري الثعلبي	427	1		مكتبة الجمهورية العربية-شارع الصنادقية- الأزهر	
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء	أبو النعيم الإصبهاني	430	8	سامي أنور جاهين	دار الحديث-القاهرة	2009
الرسالة القشيرية	أبو القاسم القشيري النيسابوري الشافعي	465	1	عبد الحميد محمود ومحمد بن الشريف	مطابع مؤسسة دار الشعب-القاهرة	1989
المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال	أبو حامد محمد الغزالي	505	1	محمد إسماعيل حزين وشذا رائق عبد الله	موقع الفلسفة الإسلامية	
إحياء علوم الدين	أبو حامد محمد الغزالي	506	1		دار ابن حزم	الأولى 2005
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعلو الأقاويل في وجوه التأويل	محمد بن عمر الزمخشري	538	6		مكتبة العبيكان	الأولى 1998
أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي	أحكام القرآن	543	4	علي محمد البجاوي	دار المعرفة ودار الجيل بيروت-لبنان	1987
أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المغربي	مشارق الأنوار على صحاح الآثار	544	2		المكتبة العتيقة-تونس ودار التراث-القاهرة	
أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المغربي	الشفا بتعريف حقوق المصطفى	544	1		دار الفكر-بيروت	2002
المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز	أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي	546	5	عبد السلام عبد الشافي محمد	دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان	الأولى 2001
الروض الأُنُف في شرح السيرة النبوية لابن هشام	عبد الرحمان السهيلي	581	7	عبد الرحمان الوكيل	دار الكتب الإسلامية	الأولى 1967
زاد المسير في علم التفسير	جمال الدين عبد الرحمان بن علي بن محمد الجوزي القرشي	597	1		دار ابن حزم-بيروت	الثالثة
مختار الصحاح	زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي	614	1	يوسف الشيخ محمد	المكتبة العصرية-الدار النموذجية	1999
التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية	الحسن بن محمد بن الحسن الصغاني	650	6	عبد العليم الطحاوي	مطبعة دار الكتب-القاهرة	من 1970إلى 1979 حسب رقم الجزء
ألفية ابن مالك في النحو والصرف	محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني	672	1		مطبعة دار الكتب المصرية-القاهرة	1932
شرح الكافية الشافية	محمد بن عبد الله بن مالك الطائي	672	4	تحقيق عبد المنعم أحمد هريدي	دار المأمون للتراث	الأولى 1982
شرح صحيح البخاري إلى نهاية باب الإيمان	محيي الدين يحيى بن شرف النووي	676	1	عبد الله بن عمر الدميجي	جامعة أم القرى-مكة المكرمة	2008
الحكم العطائية	ابن عطاء الله السكندري	709	1		مركز الأهرام للطباعة والنشر-القاهرة	الأولى 1988
نظم اختصار سيرة الرسول	محمد اليعمري المعروف بابن سيد الناس	734	1		مخطوط يوجد بخزانة بلدية الإسكندرية	
عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير	محمد اليعمري المعروف بابن سيد الناس	734	4	محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين ميتو	مكتبة دار التراث-المدينة المنورة- ودار ابن كثير-دمشق	
التلخيص في علوم البلاغة	جلال الدين محمد بن عبد الرحمان القزويني الخطيب	739	1	عبد الرحمان البرقوقي	دار الفكر العربي	الثانية 1932

التسهيل لعلوم التنزيل	محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي الغرناطي	741	1		المنتدى الإسلامي- حكومة الشارقة	1433-2012
الإعراب عن قواعد الإعراب	عبد الله جمال الدين الأنصاري المعروف بابن هشام الأنصاري	761	1	علي فودة نيل	عمادة شؤون المكتبات-جامعة الرياض- المملكة العربية السعودية	الأولى 1981
المصباح المنير في غريب الشرح الكبير	أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ	770	1		مكتبة لبنان-بيروت	1987
جمع الجوامع في أصول الفقه	تاج الدين السبكي	771	1	تعليق عبد المنعم خليل إبراهيم	دار الكتب العلمية بيروت-لبنان	الثانية 2003
الرسائل الكبرى المسماة نزهة الناظر المتأمل وقيد السائر المستعجل	محمد بن عباد النفزي الرندي الفاسي	792	1		كتاب ناشرون-بيروت	2013
القاموس المحيط	محمد بن يعقوب الفيروز آبادي	817	1	راجعه أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد	دار الحديث – القاهرة	2008
فتح الباري بشرح البخاري	أحمد بن علي بن حجر العسقلاني	852	14		المكتبة السلفية- مصر	الأولى 1380-1390هـ حسب الجزء
الإصابة في تمييز الصحابة	أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني	852	8	عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض	دار الكتب العلمية- بيروت	1995
المستطرف في كل فن مستظرف	شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي	852	2		مطبعة مصطفى البابي الحلبي-مصر	1952
فرائد القلائد في مختصر شرح الشواهد	بدر الدين محمود بن أحمد العيني	855	2	محمد بن محمود فجال	قنديل للطباعة والنشر والتوزيع-دبي	الأولى 2019
حاشية العلامة البناني على شرح المحلي على جمع الجوامع	شمس الدين محمد بن أحمد المحلي	864	2		دار الفكر-بيروت	1982
دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار	محمد بن سليمان الجزولي السملالي	870	1		المطبعة الوطنية مراكش-المغرب	2016
دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار	محمد بن سليمان الجزولي السملالي	870	1		دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان	الثانية 2004
عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي المالكي	الجواهر الحسان في تفسير القرآن	875	5	علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود	دار إحياء التراث العربي بيروت-لبنان	الأولى 1997
شرح صغرى الصغرى	محمد بن يوسف بن عمر السنوسي	895	1	أنس محمد عدنان الشرقاوي	دار التقوى للطباعة والنشر والتاريخ- دمشق	الأولى 2019
التوشيح شرح الجامع الصحيح	جلال الدين عبد الرحمان السيوطي	911	9	رضوان جامع رضوان	مكتبة الرشد-الرياض	الأولى 1998
خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى	علي بن عبد الله بن أحمد الحسني السمهودي	911	1		طبع على نفقة السيد حبيب محمود أحمد	
الكشف عن تجاوز هذه الأمة الألف	جلال الدين السيوطي	911	1	جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين	دار الدعوة – الكويت	الأولى 1987
إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري	أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري	923	10		المطبعة الكبرى الأميرية-مصر	السابعة-1323
المنح المكية في شرح الهمزية	أحمد بن محمد ابن حجر الهيتمي الشافعي	974	1	أحمد الجاسم المحمد وبوجمعة المكري	دار المنهاج-بيروت	الثانية- 2005
أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل	أحمد بن حجر الهيتمي	974	1	أحمد بن فريد المزيدي	دار الكتب العلمية- لبنان	الأولى-1998
شرح الهمزية	أحمد بن أحمد السنباطي الشافعي	999	1		ميكروفيلم مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية -القاهرة- مصر، تحت رقم 592	
مرآة المحاسن من مناقب أبي المحاسن	محمد العربي بن يوسف الفاسي الفهري	1052	1		منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد	
نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض	أحمد بن محمد الخفاجي	1067	6		دار الكتب العلمية	الأولى-2001
الممتع في شرح المقنع	محمد بن سعيد بن محمد السوسي المزغيتي	1089	1		المكتبة العصرية- بيروت	
مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات	محمد المهدي بن أحمد بن علي بن يوسف الفاسي القصري	1109	1		الطبعة الحجرية	1289هـ
الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ	أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي	1156	1		دار الكتب العلمية- بيروت لبنان	الثالثة 2002

مراجع تقديم وخاتمة المحقق

المرجع	المؤلف	وفاة المؤلف هـ	عدد الأجزاء	المحقق	الناشر	الطبعة
نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني	محمد بن الطيب القادري	1187	4	م.حجي/ أ.توفيق	مكتبة الطالب-الرباط	1977
رسالة النفحات الإلهية في سلوك الطريقة المحمدية	محمد بن عبد الكريم القرشي المدني المعروف بالسمان	1189	1		مطبعة الآداب والمؤيد-مصر	1326هـ
السر الظاهر فيمن احرز بفاس الشرف الباهر من أعقاب الشيخ عبد القادر	سليمان بن محمد الحوات	1231			مخطوط يوجد بمؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود -ا لدار البيضاء	
الاشراف على بعض من بفاس من مشاهير الأشراف	أبو عبد الله محمد الطالب ابن الحاج السلمي المرداسي	1273	2	د. جعفر ابن الحاج السلمي	انتشارات المكتبة الحيضرية	الأولى
الدرر البهية و الجواهر النبوية	العلامة إدريس الفضيلي	1316	2	مراجعة وتصحيح: د.أحمد إيشرخان	وزارة الوقاف والشؤون الإسلامية -المملكة المغربية-	1443هـ
إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس	عبد الرحمن بن محمد ابن زيدان	1365	5	د. علي عمر	مكتبة الثقافة الدينية	الأولى
تاريخ الوراقة المغربية	محمد المنوني	1420	1		كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط	الأولى -1991
الإطلالة الزهية على الأسرة الشبيهية	محمد ابن عبد الكريم الشبيهي الموقت	1429	1		مطبعة سندي-مكناس	2003
جامع القرويين	عبد الهادي التازي	1436	3		دار نشر المعرفة-الرباط	الثانية-2000
الموسوم الوجيه بأعلام آل الشبيه-نفحات من عبق تاريخ الدولة المغربية الشريفة	أمين الشبيهي الموقت		1		المطبعة والوراقة الوطنية-مراكش	1445-2023
بحث حول "أحمد بن عبد العزيز الهلالي"	رشيد قباط				نشر على موقع "الرابطة المحمدية للعلماء"	22-09-2014
بحث تحت عنوان "عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي"	رشيد قباط				نشر على موقع "الرابطة المحمدية للعلماء"	30/12/2013

أمين الشبيهي الموقت من مواليد مدينة مكناس، في 4 غشت 1963، ترعرع في مدينة مولاي إدريس حيث درس السنة الأولى ابتدائي في قسم مدرسي داخل الحرم الإدريسي 1969-1970، ثم التحق بالمدرسة العمومية بحي خيبر حيث نال الشهادة الابتدائية، والتي أهلته للالتحاق بإعدادية مولاي إدريس الأكبر حيث قضى أربع سنوات.

اضطر بعد ذلك كباقي تلاميذ المدينة، لمتابعة دراسته الثانوية في القسم الداخلي بمكناس، بثانوية الإمام الغزالي، حيث حصل على شهادة البكالوريا علوم تجريبية سنة 1981.

تابع دراسته بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، شعبة الفيزياء والكيمياء، ثم بجامعة محمد الخامس بالرباط، حيث حصل على الإجازة في العلوم الفيزيائية-تخصص فيزياء نووية، بميزة مستحسن سنة 1986. ومن ثم رحل إلى فرنسا لمتابعة دراساته العليا.

- **خريج معهد العلوم النووية، جامعة جوزيف فوريي، كرونبل، فرنسا.**
- **خريج معهد إدارة المقاولات، جامعة باس نورماندي، كاين، فرنسا.**
- **إطار سابق في وكالتي توزيع الماء و الكهرباء بتطوان ثم مراكش.**
- **رئيس مصلحة المراقبة الداخلية وتتبع التزامات الإنفاق بوكالة توزيع الماء و الكهرباء بتطوان.**
- **رئيس مصلحة الموارد البشرية بوكالة توزيع الماء والكهرباء بتطوان.**
- **رئيس مصلحة التواصل والمراقبة الداخلية بوكالة توزيع الماء والكهرباء بمراكش.**
- **مدير برنامج الرقمنة الشاملة للإجراءات الإدارية والمالية والتقنية بوكالة الماء و الكهرباء بمراكش.**
- **رئيس المصلحة القانونية بوكالة توزيع الماء والكهرباء بمراكش.**
- **أستاذ معتمد من طرف برنامج كارير سانتر، الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية.**
- **أستاذ معتمد من طرف جامعة القاضي عياض بمراكش في مادة سوفت سكيلز.**
- **أستاذ زائر سابقا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش.**
- **له مؤلف مشترك تحت عنوان "فهرسة المنشآت المائية بإقليم الرشيدية"، دار المناهل-2018.**
- **له مؤلف بعنوان "الموسوم الوجيه بأعلام آل الشبيه- نفحات من عبق تاريخ الدولة المغربية الشريفة"، المطبعة الوطنية-مراكش 2023.**
- **نشرت له عدة أبحاث في مجال الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة الشريفة.**